BOBST LIBRARY
3 1142 01258 5298

DATE DUE

29

IR-AR-85-930751

V, 5-6,

Fayd al-Kāshī, Muḥammad ibn Murtaḍá
"
/al-Mahajjah al-bayḍā' fī tahdhīb al-Iḥyā'/

المحجّة البيضاء

في تهذيب الأحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله محمد بن المرتضى المدعو

بالمولى محسن الكاشاني ره

المتوفى ١٠٩١هـ

صحّحه وعلّق عليه علي اكبر الغفاري

طبع على نفقة

دفتر انتشارات اسلامى

وابسته به جامعهٔ مدرّسين

حوزهٔ علميّهٔ قم

الجزء الخامس

الطبعة الثانية

B
753
.G33
I54
1960
V.5-6
c.1

حمداً لك يا من جعل الحمد مفتاحاً لذكره ، وطريقاً من طرق الاعتراف بواحدانيّته ، وسبباً لمزيد فضله و نعمه ، و محجّة بيضاء لطالبي فضله و إحسانه .

و صلاة على رسولك الأعظم ، والهادي إلى صراطك الأقوم و على آله أئمّة الهدى ، و مصابيح الدّجى .

كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأوّل من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي تتحيّر دون إدراك جلاله القلوب والخواطر ، وتدهش في مبادي إشراق أنواره الأحداق والنّواظر ، المطّلع على خفيّات السرائر ، العالم بمكنونات الضّمائر ، المستغني في تدبير ملكه عن المشاور و الموازر ، مقلّب القلوب ، و غفّار الذّنوب ، وستّار العيوب ، و مفرّج الكروب ، و الصّلاة على محمّد سيّد المرسلين ، وجامع شمل الدّين ، وقاطع دابر الملحدين ، وعلى آله الطيّبين الطاهرين .

اما بعد فشرف الإنسان وفضيلته الّتي بها فاق جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه الّتي في الدّنيا جماله و كماله و فخره و في الآخرة عدّته و ذخره ، وإنّما استعدّ للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه ، فالقلب هو العالم بالله وهو العامل لله ، وهو السّاعي إلى الله ، وهو المتقرّب إليه ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، وإنّما الجوارح أتباع له وخدم وآلات يستخدمها القلب ، ويستعملها استعمال المالك للعبيد ، واستخدام الرّاعي للرعيّة ، والصانع للآلة ، والقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً بغير الله وهو المطالب والمخاطب ، وهو المثاب والمعاقب ، وهو الّذي يستعدّ بالقرب من الله تعالى فيفلح إذا زكّاه ، وهو الّذي يخيب ويشقى إذا دنّسه ودسّاه (١) وهو المطيع لله بالحقيقة وإنّما الّذي ينتشر على الجوارح

(١) دنس - بكسر النون - عرضه أو ثوبه أو خلقه : تلطخ بمكروه أو قبيح فهو دنس ، و دنسه من باب التفعيل صيره دنساً . ودس الرجل : افسده واغواه ، ودسا نفسه : أخملها و أخس حظها .

من العبادات أنواره ، و هو العاصي المتمرّد على الله و إنّما السّاري على الأعضاء من الفواحش آثاره ، وبا ظلامه و استنارته تظهر محاسن الظّاهر ومساويه إذ كلّ إناء يترشّح بما فيه ، وهو الّذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، و إذا عرف نفسه فقد عرف ربّه ، و هو الّذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه ، و إذا جهل نفسه فقد جهل ربّه ، و من جهل بقلبه فهو بغيره أجهل ، و أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقدحيل بينهم وبين أنفسهم فإنّ الله يحول بين المرء و قلبه ، وحيلولته بأن لايوفّقه لمشاهدته ومراقبته ، ومعرفة صفاته ، و كيفيّة تقلّبه بين أصبعين من أصابع الرّحمن وإنّه كيف يهوي مرّة إلى أسفل سافلين وينخفض إلى اُفق الشياطين و كيف يرتفع اُخرى إلى أعلاعلّيين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقرّبين ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه و يترصّد مايلوح من خزائن الملكوت عليه و فيه فهو ممّن قال الله تعالى فيه : « ولاتكونوا كالّذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم اُولئك هم الفاسقون »[(١)] . فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدّين وأساس طريق السّالكين .

وإذقد فرغنا في الشطر الأوّل من هذا الكتاب عن النّظر فيما يجري على الجوارح من العبادات و العادات و هو العلم الظّاهر و وعدنا أن نشرح في الشّطر الثاني ما يجري على القلوب من الصّفات المهلكات و المنجيات و هو العلم الباطن فلابدّ و أن نقدّم عليه كتابين كتاباً في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه ، و كتاباً في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه ، ثمّ نندفع بعدذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات .

فنذكر الآن من ذكر شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال مايقرب من الأفهام فإنّ التصريح بعجائبه وأخلاقه وأسراره الدّاخلة في جملة عالم الملكوت ممّا يكلّ عن دركه أكثر الأفهام - وبالله التوفيق - .

✿(بيان معنى النفس والروح والعقل والقلب وماهو المراد بهذه الاسامى)✿

اعلم أنّ هذه أربعة أسامي تستعمل في هذه الأبواب و يقل في فحول العلماء من يحيط بمعرفة هذه الأسامي واختلاف معانيها وحدود مسمّياتها وأكثر الأغاليط

---

(١) الحشر : ٢٠ .

منشاؤها الجهل بمعنى هذه الأسامي و باشتراكها بين مسمّيات مختلفات ، و نحن نشرح من معاني هذه الأسامي مايتعلّق بغرضنا .

اللفظ الأوّل لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين أحدهما اللّحم الصنوبري الشكل ، المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، و هو لحمٌ مخصوص و في باطنه تجويف و في ذلك التجويف دم أسود وهو منبع الرّوح ومعدنه ولسنا نقصد الآن شرح شكله و كيفيّته فلا يتعلّق به الأغراض الدّينيّة و إنّما يتعلّق بذلك غرض الأطبّاء ، و هذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميّت ، و نحن إذا أطلقنا اسم القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك ، فإنّه قطعة لحم لاقدر لها وهو من عالم الملك و الشهادة إذ تدركه البهائم بحاسّة البصر فضلاً عن الآدميّين ، والمعنى الثاني هو لطيفة ربّانيّة روحانيّة لها بهذا القلب الجسمانّي تعلّق ، و تلك اللّطيفة هي حقيقة الإنسان و هو المدرك العالم العارف من الإنسان وهو المخاطب والمعاتب والمطالب ، ولها علاقة مع القلب الجسماني ، و قد تحيّرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته ، فإنّ تعلّقها به يضاهي تعلّق الأعراض بالأجسام ، والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلّق المستعمل للآلة بالآلة ، أو تعلّق المتمكّن بالمكان ، و شرح ذلك ممّا نتوقّاه لمعنيين أحدهما أنّه متعلّق بعلوم المكاشفة و ليس غرضنا في هذا الكتاب إلّا علوم المعاملة ، والثاني أنّ تحقيقه يستدعي إفشاء سرّ الرّوح ولم يتكلّم فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم (١) فليس لغيره أن يتكلّم فيه ، والمقصود أنّا إذا أطلقنا القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللّطيفة و غرضنا ذكر أوصافها و أحوالها لاذكر حقيقتها في ذاتها ، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها و أحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثاني الرّوح و هو أيضاً يطلق فيما يتعلّق بجنس غرضنا لمعنيين

(١) حديث أنه صلى الله عليه وآله لم يتكلم فى الروح أخرجه ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ، وأحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن حبان وابن مردويه و أبو نعيم والبيهقى معاً فى الدلائل عن أبى مسعود ـ رضى الله عنه ـ راجع الدر المنثور للسيوطى ج ٤ ص ١٩٩ .

أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني وينتشر بواسطة العروق الضّوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانها في البدن و فيضان أنوار الحياة والحسّ والسمع و البصر و الشمّ منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الّذي يدار في زويا الدّار فإنّه لاينتهي إلى جزء من البيت إلّا و يستنير به، فالحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان، والرّوح مثالها السراج و سريان الرّوح وحركتها في الباطن مثاله مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محرّكه، والأطبّاء إذا أطلقوا اسم الرّوح أرادوا به هذا المعنى و هو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب، و ليس غرضنا شرحه إذ المتعلّق به غرض أطبّاء الّذين يعالجون مرض الأبدان، فأمّا غرض أطبّاء الدّين المعالجين للقلوب حتّى تنساق إلى جوار ربّ العالمين، فليس يتعلّق بشرح هذا الرّوح أصلاً، والمعنى الثاني هو اللّطيفة الربّانيّة العالمة المدركة من الإنسان وهو الّذي شرحناه في أحد معنيي القلب وهو الّذي أراده الله تعالى بقوله: «و يسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي [١]» وهو أمر عجيب ربّانيّ يعجز أكثر العقول و الأفهام عن درك كنه حقيقته.

اللفظ الثالث النّفس و هذا أيضاً مشترك بين معان، و يتعلّق بغرضنا منه معنيان أحدهما أنّه يراد به المعنى الجامع لقوّة الغضب و الشهوة في الإنسان على ماسيأتي بيانه، و هذا الاستعمال هو الغالب على الصّوفيّة لأنّهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصّفات المذمومة من الإنسان فيقولون: لابدّ من مجاهدة النفس و كسرها وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «أعدى عدوّك نفسك الّتي بين جنبيك [٢]» المعنى الثاني هو اللّطيفة الّتي ذكرناها الّتي هي الإنسان في الحقيقة، و هي نفس الإنسان و ذاته ولكنّها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت

---

(١) الاسراء: ٨٥.

(٢) أخرجه البيهقي في الزهد كما في كنوز الحقائق للمناوي. و رواه قاضي نعمان في دعائم الاسلام من طريق أهل البيت عليهم السلام بلفظ آخر كما في مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٢٧٠.

تحت الأمر و زايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة ، قال الله تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة ✿ إرجعي إلى ربك راضية مرضية »[١] والنفس بالمعنى الأول لايتصور رجوعها إلى الله ، فإنها مبعدة عن الله تعالى ، و هي من حزب الشيطان ، و إذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاها ، قال الله تعالى : « ولا أقسم بالنفس اللوامة[٢] » وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء ، قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام : « و ما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء »[٣] وقد يجوز أن يقال : المراد بالأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول ، فإذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وبسائر المعلومات .

اللفظ الرابع العقل و هو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان : أحدهما أنه قد صار يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب ، والثاني أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة ، ونحن نعلم أن كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، و العلم صفة حالة فيه ، و الصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك ، أعني المدرك و هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : « أول ما خلق الله العقل[٤] » فإن العلم عرض لايتصور أن يكون أول مخلوق بل لابد أن يكون المحل مخلوقاً قبله أو معه ولأنه لايمكن الخطاب معه . وفي الخبر أنه « قال له : أقبل فأقبل ، وقال له : أدبر

(١) الفجر : ٢٧ و ٢٨ . (٢) القيامة : ٣ .

(٣) يوسف : ٥٣ .

(٤) أخرجه الطبراني في الاوسط من حديث عائشة باسنادين ضعيفين كما في المغني وما عثرت عليه من طريق الخاصة .

فأدبر - الحديث - » (١) .

فإذن قد انكشف لك أنّ معاني هذه الأسامي موجودة وهو القلب الجسماني، والرّوح الجسماني ، والنّفس الشّهوانيّة ، والعقل العلميّ وهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، و معنى خامس و هي اللّطيفة العالمة المدركة من الإنسان والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها ، فالمعاني خمسة والألفاظ أربعة ، و كلّ لفظ اُطلق لمعنيين وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها ، فتراهم يتكلّمون في الخواطر ويقولون : هذا خاطر العقل ، وهذا خاطر الرّوح ، وهذا خاطر النّفس ، و هذا خاطر القلب ، و ليس يدري النّاظر اختلاف معاني هذه الأسماء ، فلأجل كشف الغطاء عن ذلك قدّمنا شرح هذه الأسامي ، وحيث ورد في القرآن و السنّة لفظ القلب فالمراد به المعنى الّذي يفقه من الإنسان و يعرف حقيقة الأشياء و قد يكنّى عنه بالقلب الّذي في الصّدر لأنّ بين تلك اللّطيفة و بين جسم القلب علاقة خاصّة ، فإنّها وإن كانت متعلّقة بسائر البدن و مستعملة له و لكنّها يتعلّق به بواسطة القلب فتعلّقها الأوّل بالقلب فكأنّه محلّها و مملكتها و عالمها و مطيّتها ، و لذلك شبّه سهل التستري القلب بالعرش والصدر بالكرسيّ فقال : القلب هو العرش والصّدر هو الكرسيّ ولايظنّ به أنّه يريد عرش الله سبحانه و كرسيّه فإنّ ذلك محال بل أراد به أنّه مملكته والمجرى الأوّل لتدبيره وتصرّفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسيّ بالنّسبة إلى الله تعالى ، فلا يستقيم هذا التشبيه أيضاً إلّا من بعض الوجوه و شرح ذلك لا يليق بغرضنا فلنتجاوزه .

✡(بيان جنود القلب)✡

قال الله تعالى : « و ما يعلم جنود ربّك إلّا هو » (٢) فللّه سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجنّدة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلّا هو، و نحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب و هو الّذي يتعلّق بغرضنا ، و له جندان

(١) رواه البرقي في المحاسن ص ١٩٢ ، والكليني في الكافي ج ١ ص ٢٦ .
(٢) المدثر : ٣٤ .

جنديرى بالأبصار و جند لا يرى إلّا بالبصائر وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم والأعوان ، و هذا هو معنى الجند فأمّا جنده المشاهد بالعين فهي اليد والرّجل والعين والأذن واللّسان وسائر الأعضاء الظّاهرة والباطنة ، فإنّ جميعها خادمة للقلب و مسخّرة له وهو المتصرّف فيها والمردّد لها ، وقد خُلقت مجبولة على طاعة القلب، لا تستطيع له خلافاً ولا عليه تمرّداً ، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، و إذا أمر الرّجل بالحركة تحرّكت ، و إذا أمر اللّسان بالكلام وجزم الحكم به تكلّم ، و كذا سائر الأعضاء ، و تسخير الأعضاء والحواسّ للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى ، فإنّهم جُبلوا على الطّاعة ، لا يستطيعون له خلافاً بل « لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون » وإنّما يفترقان في شيء و هو أنّ الملائكة عالمة بطاعتها وامتثالها لربّها والأجفان تطيع القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها و لا من طاعتها للقلب ، و إنّما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزّاد لسفره الّذي لأجله خلق ، وهو السّفر إلى الله تعالى وقطع المنازل إلى لقائه ، فلأجله خلقت القلوب قال الله تعالى : « وماخلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون»[1] وإنّما مركبه البدن وإنّما زاده العلم وإنّما الأسباب الّتي توصله إلى الزّاد و تمكنه من التزوّد منه العمل الصالح ، و ليس يمكن أن يصل القلب إلى الله تعالى مالم يسكن البدن بالموت ولم يجاوز الدّنيا فإنّ المنزل الأدنى لابدّ من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى ، والدّنيا مزرعة الآخرة و هي منزل من منازل الهدى ، و إنّما سمّيت الدّنيا لأنّها أدنى المنزلتين فاضطرّ الإنسان إلى أن يتزوّد من هذا العالم ، والبدن مركبه الّذي يصل به إلى هذا العالم ، فافتقر إلى تعهّد البدن وحفظه ، و إنّما يتحفّظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره ، و بأن يدفع عنه ما ينافيه ويهلكه أو يمكنه من أسباب الهلاك ، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين : باطن وهو الشهوة وظاهر وهو اليد والأعضاء الجاذبة للغذاء فخلق في القلب من الشّهوات ما احتاج إليه ، و خلقت له الأعضاء الّتي هي آلات

(١) الذاريات : ٥٦ .

الشهوة ، وافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين : باطن وهو الغضب الّذي به يدفع المهلكات و ينتقم من الأعداء ، و ظاهر و هو اليد والرّجل الّذي به يعمل بمقتضى الغضب ، و كلّ ذلك بأُمور خارجة عن البدن كالأسلحة وغيرها ؛ ثمّ المحتاج إلى الغذاء إذا لم يعرف الغذاء لا تنفعه شهوة الغذاء وآلته فافتقر للمعرفة إلى جندين : باطن و هو إدراك البصر والذّوق والشمّ والسّمع واللّمس ، وظاهر وهو العين و الأُذن والأنف و غيرها و تفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ذكره ولا يحويه مجلّدات كثيرة ، وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في كتاب الشكر فليقنع به .

فجملة جنود القلب يحصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث ومستحثّ إمّا إلى جلب الموافق النافع كالشهوة ، و إمّا إلى دفع الضارّ المنافي كالغضب ، وقد يعبّر عن هذا الباعث بالإرادة ، والثاني هو المحرّك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ، ويعبّر عن هذا الثاني بالقدرة وهي جنود مبثوثة في سائر الاعضاء لاسيّما العضلات منها والأوتار ، والثالث هو المدرك المتعرّف للأشياء كالجواسيس و هي قوّة البصر والسّمع والشمّ والذّوق وغيرها ، وهي مبثوثة في أعضاء معيّنة ، ويعبّر عن هذا بالعلم والإدراك ، و مع كلّ واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهي الأعضاء المركّبة من اللّحم والشحم والعصب والدّم والعظم الّتي أُعدّت آلات لهذه الجنود ، فإنّ قوّة البطش إنّما تبطش بالأصابع ، وقوّة البصر إنّما تدرك الشّيء بالعين ، و كذا سائر القوى .

ولسنا نتكلّم في الجنود الظّاهرة أعني الأعضاء فإنّها من عالم الملك والشهادة وإنّما نتكلّم الآن فيما أيّدت به من جنود لم تروها ، وهذا الصّنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل الظاهرة و هي الحواسّ الخمس أعني السّمع والبصر والشمّ والذّوق واللّمس وإلى ما أسكن المنازل الباطنة وهي تجاويف الدّماغ وهي أيضاً خمسة ، فإنّ الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينيه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ثمّ يبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ ثمّ يتفكّر فيما حفظه فيركّب بعض ذلك إلى بعض ثمّ يتذكّر ما نسيه و يعود إليه ثمّ يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحسّ المشترك بين المحسوسات ، ففي

الباطن حسٌ مشترك و تخيّل و تفكّر و تذكّر و حفظ ولولا خلق الله قوّة الحفظ والفكر والذّكر والتخيّل لكان يخلو الدّماغ عنه كما يخلو عنه اليد والرّجل ، فتلك القوى أيضاً جنود باطنة وأماكنها أيضاً باطنة فهذه هي أقسام جنود القلب وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضّعفاء يطول ، ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء ولكنّا نجتهد في تفهيم الضّعفاء بضرب من الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم إن شاء الله .

☼(بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة)☼

اعلم أنّ جندي الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقياداً تامّاً فيعينانه على طريقه الّذي يسلكه ، و يحسنان مرافقته في السّفر الّذي هو بصدده و قد يستعصيان عليه استعصاء بغي و تمرّد حتّى يملكاه و يستعبداه و في ذلك هلاكه و انقطاعه عن سفره الّذي بدوصوله إلى سعادة الأبد ، وللقلب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكّر كما سيأتي شرحه و حقّه أن يستعين بهذا الجند ، فإنّه حزب الله على الجندين الآخرين فإنّهما قد يلتحقان بحزب الشيطان فإن ترك الاستعانة و سلّط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقيناً وخسر خسراناً مبيناً وذلك حال أكثر الخلق فإنّ عقولهم صارت مسخّرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة وكان ينبغي أن يكون الشهوة مسخّرة لعقولهم فما يفتقر العقل إليه و نحن نقرّب هذا إلى فهمك بثلاثة أمثلة .

المثال الأوّل أن نقول : مثل نفس الإنسان في بدنه ـ و أعني بالنفس اللّطيفة المذكورة ـ كمثل وال في مدينته ومملكته فإنّ البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرّها ومدينتها وقواه وجوارحه بمنزلة الصنّاع والعملة ، والقوّة العقليّة المفكّرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل ، والشهوة له كعبد سوء يجلب الطّعام والميرة إلى المدينة ، والغضب ، والحميّة له كصاحب الشّرطة والعبد الجالب للميرة كذّابٌ مكّار مخادع خبيث يتمثّل بصورة الناصح و تحت نصحه الشرّ الهائل والسّمّ القاتل ، و ديدنه و عادته منازعة الوزير النّاصح في كلّ تدبير يدبّره حتّى لا يخلو عن منازعته ومعارضته في آرائه ساعة واحدة ، فكما أنّ الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته بوزيره معرضاً

عن إشارة هذا العبد الخبيث بل مستدلاً بإشارته على أنّ الصّواب في نقيض رأيه وأدّب صاحب شرطته وأسلمه لوزيره و جعله مؤتمراً له و مسلّطاً من جهته على هذا العبد الخبيث و أتباعه و أنصاره ، حتّى يكون العبد مسوساً لا سائساً ، و مأموراً مدبّراً لا آمراً مدبّراً استقام أمر بلده وانتظم العدل بسبب ذلك ، فكذلك النّفس متى استعانت بالعقل وأدّبت الحميّة الغضبيّة وسلّطتها على الشّهوة واستعانت بإحديهما على الأخرى تارة بأن يقلّل مرتبة الغضب و غلوائه بخلابة الشّهوة واستدراجها ، و تارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحميّة عليها وتقبيح مقتضياتها اعتدلت قواها و حسنت أخلاقها ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى : «أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه و أضلّه الله على علم» [١] و قال تعالى : « و اتّبع هواه وكان أمره فرطاً » [٢] و قال تعالى : « واتّبع هواه فمثله كمثل الكلب » [٣] و قال تعالى: فيمن نهى النّفس عن الهوى « فإنّ الجنّة هي المأوى » [٤]. وسيأتي كيفيّة مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النّفس إن شاء الله .

المثال الثاني أنّ البدن كالمدينة والعقل أعني المدرك من الإنسان كملك مدبّر لها ، و قواه المدركة من الحواسّ الظّاهرة والباطنة كجنوده و أعوانه ، و أعضاؤه كرعيّته ، والنفس الأمّارة بالسّوء الّتي هي الشّهوة والغضب كعدوّ ينازعه في مملكته ، و يسعى في إهلاك رعيّته ، فصار بدنه كرباط و ثغر ، و نفسه كمقيم فيه مرابط ، فإن جاهد عدوّه وهزمه و قهره على ما يحبّ حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى : «فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة» [٥] وإن ضيّع ثغره وأهمل رعيّته ذمّ أثره وانتقم منه عند لقاء الله فيقال له يوم القيامة: يا راعي السّوء أكلت اللّحم ، و شربت اللّبن ، و لم تردّ الضّالّة ، ولم تجبر الكسير، اليوم أنتقم لها منك - كما ورد في الخبر - [٦] و إلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله

---

(١) الجاثية : ٢٢ . (٢) الكهف : ٢٨ .
(٣) الاعراف : ١٧٥ . (٤) النازعات : ٤٠ .
(٥) النساء : ٩٤ . (٦) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

صلى الله عليه وآله وسلم « : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »(١) .

المثال الثالث مثل العقل مثل فارس متصيّد ، وشهوته كفرسه ، وغضبه ككلبه ، فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروّضاً وكلبه مؤدّباً معلّماً كان جديراً بالنجح ، و متى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحاً(٢) والكلب عقوراً فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ، ولا كلبه يسترسل باشارته مطيعاً ، فهو خليق بأن يعطب فضلاً أن ينال ما طلب ، وإنّما خرق الفارس مثالٌ لجهل الإنسان و قلّة حكمته و كلال بصيرته ، و جماح الفرس مثالٌ لغلبة الشّهوة عليه خصوصاً شهوة البطن والفرج ، و عقر الكلب مثالٌ لغلبة الغضب واستيلائه .

(بيان خاصية القلب للانسان)

اعلم أنّ جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمي إذ للحيوانات الشهوة والغضب والحواسّ الظّاهرة والباطنة أيضاً حتّى أنّ الشّاة ترى الذئب بعينها وتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه فذاك إدراك الباطن . فلنذكر مايختصّ به قلب الإنسان ولأجله عظم شرفه و قدره واستأهل القرب من الله سبحانه و هو راجع إلى علم وإرادة ، أمّا العلم فهو العلم بالأمور الدّنيوية والاُخرويّة والحقائق العقليّة فإنّ هذه اُمور وراء المحسوسات و لا يشاركه فيها الحيوانات ، بل العلوم الكلّيّة الضّروريّة من خواصّ العقل إذ يحكم الإنسان بأنّ الفرس الواحد لايتصوّر أن يكون في مكانين في حالة واحدة ، و هذا حكم منه على كلّ فرس ، و معلوم أنّه لم يدرك بالحسّ إلّا بعض الأفراس فحكمه على جميع الأفراس زائد على ماأدركه الحسّ ، فإذا فهمت هذا في العلم الظّاهر الضّروري فهو في سائر النظريّات أظهر ، و أمّا الإرادة فهو أنّه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر و طريق الصّلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى وجه المصلحة وإلى تعاطي أسبابها و الإرادة لها و ذلك غير

---

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند فيه ضعف . ومن طريق الخاصة رواه الكلينى فى الكافى ج ٥ ص ١٢ تحت رقم ٣ .

(٢) الجموح معرب چموش .

إرادة الشّهوة وإرادة الحيوانات ، بل يكون على ضدّ الشّهوة فإنّ الشهوة تنفّر عن الفصد والحجامة والعاقل يريدهما ويطلبهما ويبذل المال عليهما والشّهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في المرض والعاقل يجد في نفسه زاجراً عنها فليس ذلك زاجر الشهوة ولو خلق الله العقل المعرّف لعواقب الأمور و لم يخلق هذا الباعث المحرّك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضايعاً على التحقيق .

فإذا اختصّ قلب الإنسان بعلوم و إرادات ينفكّ عنها سائر الحيوانات بل ينفكّ عنها الصبيّ في أوّل الفطرة و إنّما يحدث ذلك فيه عند البلوغ و أمّا الشّهوة والغضب والحواسّ الظّاهرة والباطنة فإنّها موجودة في حال الصّبى .

ثمّ للصّبيّ في حصول هذه العلوم فيه درجتان : إحداهما أن يشتمل قلبه على جملة من العلوم الضروريّة الأوّليّة كالعلم باستحالة المستحيلات و جواز الجايزات الظاهرة فيكون العلوم النظريّة فيه غير حاصلة إلّا أنّها صارت ممكنة قريبة الإمكان و الحصول ، و يكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الّذي لم يعرف من الكتابة إلّا الدّواة والقلم والحروف المفردة دون المركّبة ، فإنّه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد .

الثانية أن يحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب و الفكر و يكون كالمخزونة عنده فإذا شاء رجع إليها ، وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب ، وإن لم يكن مباشراً للكتابة لقدرته عليها وهذه هي غاية درجة الإنسانيّة ، ولكنّ في هذه الدّرجة مراتب لا تحصى ، يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات و قلّتها و بشرف المعلومات وخسّتها وبطريق تحصيلها ، إذ يحصل لبعض القلوب بإلهام إلهيّ على سبيل المبادأة والمكاشفة ، ولبعضها بتعلّم واكتساب ، ثمّ قد يكون ذلك سريع الحصول و قد يكون بطيء الحصول ، و في هذا المقام يتباين منازل العلماء والحكماء و الأولياء والأنبياء و درجات الترقّي فيه غير محصورة إذ معلومات الله تعالى لا نهاية لها و أقصى الرّتب رتبة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الّذي ينكشف له كلّ الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلّف بل بكشف إلهيّ في أسرع وقت و بهذه السّعادة يقرب العبد من الله قرباً

بالمعنى و الحقيقة و الصفة لا بالمكان و المسافة ، و مراقي هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل وإنما يعرف كل سالك المنزل الذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ماخلفه من المنازل ، فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علماً لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب ، كما أنا نؤمن بالنبوة و بالنبي ونصدق بوجود ذلك ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي ، وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ؛ ولا الطفل حال المميز ، وما انفتح له من العلوم الضرورية ، ولا المميز حال العاقل ، وما اكتسبه من العلوم النظرية فلا يعرف عاقل ما انفتح على أولياء الله و أنبيائه من مزايا لطفه و رحمته « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها »(١) وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه غير مضنون بها على أحد ولكن إنما يظهر للقلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله كما قال ﷺ : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها »(٢) والتعرض لها بتطهير القلوب وتزكيتها عن الخبث و الكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة كما سيأتي بيانه ، و إلى هذا الجود الإشارة بقوله ﷺ : « ينزل الله تعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول : هل من داع فأستجيب له »(٣) وبقوله ﷺ حكاية عن ربه عز وجل : « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي و أنا إلى لقائهم أشد شوقاً »(٤) و بقوله عز وجل « من تقرب الي شبراً تقربت إليه ذراعاً »(٥) و كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل و منع من جهة المنعم ـ تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً ـ ولكن حجبت لخبث و كدورة وشغل من جهة القلوب فإن القلوب كالأواني

---

(١) الفاطر :٢ .

(٢) أخرجه البخارى و مسلم و قد تقدم . و أخرجه الطبرانى عن محمد بن مسلم بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٣) أخرجه مسلم ج ٢ ص ١٧٥ من صحيحه . وقدمر الكلام فيه فى المجلد الثانى .

(٤) قال العراقى : لم أجده أصلا الا أن صاحب الفردوس أخرجه من حديث أبى الدرداء ولم يذكر له ولده فى مسند الفردوس اسناداً .

(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٦٦ .

فمادامت ممتلئة بالماء لايدخلها الهواء ، فكذلك القلوب المشغولة بغير الله لاتدخلها المعرفة بجلال الله ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السّماوات » [١] و من هذه الجملة يتبيـّن أنّ خاصيّة الإنسان العلم والحكمة فإنّ أشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فبذلك كمال الإنسان وفي كماله سعادته و صلاحه لجوار حضرة الكمال و الجلال ، فالبدن مركب للنفس ، والنفس محلّ للعلم ، والعلم هو مقصود الإنسان و خاصيته الّتي لأجلها خلق ، و كما أنّ الفرس يشارك الحمار في قوّة الحمل ويختصّ الفرس عنه بخاصيّة الكرّ والفرّ وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقاً لأجل تلك الخاصيّة فإن بطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار ، فكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في اُمور و يفارقهما في اُمور هي خاصـّيته ، وتلك الخاصـّيّة هي من صفات الملائكة المقرّبين من الله تعالى و الإنسان على رتبة بين الملائكة و البهائم ، فإنّ الإنسان من حيث يتغذّى وينسل فنبات ، و من حيث يحسّ ويتحرّك بالاختيار فحيوان ، ومن حيث صورته وقامته فكالصّورة المنقوشة على الحائط ، و إنّما خاصـّيّته معرفة حقائق الأشياء ، فمن استعمل جميع أعضائه و قواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبّه بالملائكة فحقيقٌ بأن يلتحق بهم وجديرٌ بأن يسمّى ملكاً ربّانيّاً كما قال الله تعالى : « إن هذا إلّا ملك كريم » [٢] ومن صرف همّته إلى اتّباع اللّذّات البدنيّة يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحطّ إلى حضيض أفق البهائم فيصير إمّا غمراً كثور أو شرهاً كخنزير و إمّا ضرياً ككلب أو سنّور ، أو حقوداً كجمل ، أو متكبراً كنمر ، أو ذاروغان كثعلب أو يجمع ذلك كلّه كشيطان مريد ومامن عضو من الأعضاء ولاحاسّة من الحواسّ إلّا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشّكر إن شاء الله ، فمن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب ، وجملة السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله مقصده ، و الدّار الآخرة مستقرّه ، والدّنيا طريقه ، والبدن مركبه ، والأعضاء خدمه فيستقرّ هو - أعني

(١) تقدم فی المجلد الثانی ص ١٢٥ .　　(٢) یوسف : ٣١ .

المدرك من الإنسان - في القلب الّذي هو وسط مملكته كالملك ويجري القوّة الخياليّة المودعة في مقدّم الدّماغ مجرى صاحب بريده إذ يجتمع أخبار المحسوسات عنده و تجري القوّة الحافظة الّتي مسكنها مؤخّر الدّماغ مجرى خازنه ، و يجري اللّسان مجرى ترجمانه ، و تجري الأعضاء المتحرّكة مجرى كتّابه ، و تجري الحواسّ الخمس مجرى جواسيسه ، فيوكّل كلّ واحد بأخبار صقع من الأصقاع ، فيوكّل العين بعالم الألوان ، والسّمع بعالم الأصوات ، والشمّ بعالم الأراييح و كذلك سائرها فإنّها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدّونها إلى القوّة الخياليّة الّتي هي كصاحب البريد ، ويسلّمها صاحب البريد إلى الخازن وهي القوّة الحافظة ، و يعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها مايحتاج إليه في تدبير مملكته ، و إتمام سفره الّذي هو بصدده ، و قمع عدوّه الّذي هو مبتلى به ، و دفع قواطع الطريق عليه ، فإذا فعل ذلك كان موفّقاً سعيداً شاكراً نعمة الله و إذا عطّل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشّهوة و الغضب و سائر الحظوظ العاجلة ، أو في عمارة طريقه دون منزله إذ الدّنيا طريقه الّتي عليها عبوره ، و وطنه و مستقرّه الآخرة كان مخذولاً شقيّاً كافراً لأنعم الله مضيّعاً لجنود الله ، ناصراً لأعداء الله ، مخذلاً لحزب الله تعالى فيستحقّ المقت و الإبعاد في المنقلب والمعاد ، نعوذ بالله من ذلك .

وإلى المثال الّذي ضربناه أشار كعب الأحبار قال : « دخلت على عائشة فقلت : الإنسان عيناه طائر وأذناه قمع ، ولسانه ترجمان ويداه جناحان ، ورجلاه بريدان ، والقلب ملك ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، فقالت : هكذا سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول »(١).

و قال عليّ عليه السلام في تمثّل القلوب : « إنّ لله تعالى في أرضه آنية و هي القلوب

---

(١) قال العراقى : أخرجه أبو نعيم فى طب النبى صلى الله عليه و آله ، والطبرانى فى مسند الشاميين ، والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة نحوه وله ولا حمد من حديث أبى ذر « وأما الاذن فقمع ، وأما العين فمقره لما يوعى القلب » ولا يصح منها شيء .

فأحبّها إليه أرقّها وأصفاها وأصلبها »[١] ثمّ فسّرها فقال : أصلبها في الدّين وأصفاها في اليقين وأرقّها على الإخوان وهذه إشارة إلى قوله تعالي : « أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم [٢] » و قوله تعالى : « مثل نوره كمشكوة فيها مصباح » [٣] قيل : معناه مثل نور المؤمن وقلبه ، وقوله : « أو كظلمات في بحر لجّي » [٤] مثل قلب المنافق ، و قيل في قوله تعالى : « في لوح محفوظ »[٥] هو قلب المؤمن .

وقال سهل : مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسيّ . فهذه أمثلة القلب .

✡ (بيان مجامع أوصاف القلب وأمثاله) ✡

إعلم أنّ الإنسان قداصطحب في تركيبه وخلقته أربع شوائب فلذلك اجتمعت عليه أربعة أنواع من الأوصاف ، و هي الصفات السبعيّة و البهيميّة و الشيطانيّة والرّبّانيّة . فهو من حيث سلّط عليه الغضب يتعاطى أفعال السّباع من العداوة و البغضاء والتهجّم على النّاس بالضّرب و الشتم ، ومن حيث سلّطت عليه الشّهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق[٦] وغيره ومن حيث أنّه في نفسه أمر ربّاني كما قال الله تعالى : « قل الرّوح من أمر ربّي » فإنّه يدّعي لنفسه الرّبوبيّة ويحبّ الاستيلاء والاستعلاء والتخصيص والاستبداد بالأمور كلّها والتفرّد بالرّئاسة والانسلال [٧] عن ربقة العبوديّة و التّواضع ، و يشتهي الإطلاع على العلوم كلّها بل يدّعي لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور و يفرح إذا نسب إلى العلم و يحزن إذا قرن بالجهل . و الإحاطة بجميع الحقائق و الاستيلاء بالقهر على جميع الخلايق من أوصاف الرّبوبيّة ، وفي الإنسان حرص على ذلك ومن حيث يختصّ عن البهائم بالتميز مع مشاركته لها في الغضب و الشهوة حصلت فيه

(١) نقله الراوندى فى النوادر عن النبى صلى الله عليه وآله كما فى سفينة البحار ج ٢ ص ٤٤١ . وفى البحار ج ١٥ الجزء الثانى ص ٢٩ عنه و ص ٣٠ عن فقه الرضا .

(٢) الفتح : ٢٩ . (٣) النور : ٣٥ .

(٤) النور : ٤٠ . (٥) البروج : ٢٢ .

(٦) الشبق : اشتداد الشهوة . (٧) الانسلال : الانتزاع .

شيطانية فصار شريراً يستعمل التمييز في استنباط وجوه الحيل والشر ويتوصل إلى الأغراض بالمكر و الحيلة والخداع ، و يظهر الشر في معرض الخير و هذه أخلاق الشياطين .

و كل إنسان ففيه شوب من هذه الأصول الأربعة - أعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية - و كل ذلك مجموع في القلب ، وكأن المجموع في إهاب الإنسان: خنزير ، و كلب ، وشيطان، وحكيم .

فالخنزير هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموماً للونه و شكله وصورته بل لجشعه وكلبه و حرصه .

والكلب هو الغضب فإن السبع الضاري أو الكلب العقور ليس كلباً ولاسبعاً باعتبار الصورة واللون والشكل، بل روح معنى السبعية من الضراوة والعدوان والعقر وفي باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه و حرص الخنزير وشبقه ، فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر ، والسبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء .

والشيطان لايزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغري أحدهما بالآخر و يحسن لهما ماهما مجبولان عليه .

والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان و مكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ، و نوره المشرق الواضح و أن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة و يدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه و يجعل الكل مقهوراً تحت سياسته فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر و ظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه ، فلا يزال في استنباط الحيل و تدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب فيكون دائماً في عبادة كلب أو خنزير .

و هذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همهم البطن والفرج و منافسة الأعداء والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ، ولو كشف الغطاء عنه و كوشف بحقيقة حاله و مثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين إما في النوم أوفي

اليقظة لرأى نفسه ماثلاً بين يدي خنزير ساجداً له مرّة و راكعاً اُخرى و منتظراً لإشارته و أمره فمهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته و إحضار شهوته أو رأى نفسه ماثلاً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً سامعاً لما يقتضيه ويلتمسه مدقّقاً للفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع في مسرّة شيطانه فإنّه الّذي يهيّج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما ، فليراقب كلّ عبد حركاته وسكناته وسكوته و نطقه وقيامه و قعوده و لينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلّا ساعياً طول النّهار في عبادة هؤلاء ، و هذا غاية الظّلم إذ جعل المالك مملوكاً ، والرّبّ مربوباً ، والسيّد عبداً ، والقاهر مقهوراً ، إذ العقل هو المستحقّ للسّيادة والقهر والاستيلاء ، وقد سخّره لخدمة هؤلاء الثلاثة ، فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعته هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتّى يصير طبعاً فيه و ريناً مهلكاً للقلب ومميتاً له .

أمّا طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء و الهتكة و المجانة والعبث و الحرص والجشع والملق و الحقد و الحسد والشماتة و غيرها .

وأمّا طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التّهوّر والبذالة والبذخ والصلف و الاستشاطة والتكبّر والعجب و الاستهزاء والفخر و الاستخفاف و تحقير الخلق وإرادة الشرّ و شهوة الظّلم وغيرها .

و أمّا طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب ، فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدّهاء والجربزة والتلبيس والتضريب والغشّ والخبّ والخنى وأمثالها ، ولو عكس الأمر و قهر الجميع تحت سياسة الصفة الرّبّانيّة لاستقرّ في القلب من الصّفات الرّبّانيّة العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقايق الأشياء ومعرفة الاُمور على ماهي عليه والاستيلاء على ذلك كلّه بقوّة العلم والبصيرة ، واستحقاق التقدّم على الخلق بكمال العلم و جلالته ، و لاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولا نتشر إليه من ضبط خنزير الشّهوة و ردّه إلى حدّ الاعتدال صفات شريفة مثل العفّة

والقناعة والهدوّ والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة و أمثالها ، و يحصل فيه من ضبط قوّة الغضب و قهرها و ردّها إلى حدّ الواجب صفة الشّجاعة والكرم والنجدة وضبط النّفس والصّبر والحلم والاحتمال والعفو والثّبات والنّبل والشهامة والوقار وغيرها .

فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثّرة فيه ، وهذه الآثار على التوالي واصلة إلى القلب ، أمّا الآثار المحمودة الّتي ذكرناها فإنّها تزيد مرآة القلب جلاءً وإشراقاً و نوراً و ضياءً حتّى يتلألأ فيه جليّة الحقّ و ينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدّين . وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله : « إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه »[١] و بقوله صلّى الله عليه وآله : « من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ »[٢] و هذا القلب هو الّذي يستقرّ فيه الذّكر قال الله تعالى « ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب »[٣].

و أمّا الآثار المذمومة فإنّها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ، ولا يزال يتراكم عليه مرّة بعد أُخرى إلى أن يسودّ و يظلم و يصير بالكلّيّة محجوباً عن الله تعالى ، و هو الطبع والرّين قال الله تعالى : « كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »[٤] و قال الله : « أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم و نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون »[٥] فربط عدم السّماع بالطبع بالذّنوب كما ربط السّماع بالتّقوى حيث قال : « واتّقوا الله واسمعوا »[٦] ، « فاتّقوا الله و أطيعون »[٧] ، « واتّقوا الله و يعلّمكم الله »[٨] .

---

(١) أخرجه أبومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ام سلمة واسناده ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٢) قال العراقي : لم اجد له أصلا . أقول : في النهج خ ٨٨ نظيره ، وروى الشيخ في اماليه باسناده عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : « ابن آدم لا تزال بخير ما كان لك واعظ » .

(٣) الرعد : ٢٨ .
(٤) المطففين : ١٤ .
(٥) الاعراف : ٩٩ .
(٦) المائدة : ١٠٨ .
(٧) آل عمران : ٥٠
(٨) البقرة : ٢٨٢ .

و مهما تراكمت الذّنوب طبع على القلب و عند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحقّ وصلاح الدّين ويستهين بأمر الآخرة و يستعظم أمر الدّنيا و يصير مقصور الهمّ عليه فإذا قرع سمعه أمر الآخرة و ما فيها من الأخطار دخل من اُذن و خرج من الاُخرى ، و لم يستقرّ في القلب ولم يحرّكه إلى التّوبة والتّدارك ، اُولئك الّذين « يئسوا من الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور » و هذا هو معنى اسوداد القلب بالذّنوب كما نطق به القرآن والسنّة .

أقول: روى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ما من عبد إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء فإن أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السّواد وإن تمادى في الذّنوب زاد ذلك السّواد حتّى يغطّي البياض فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً ، و هو قول الله عزّ وجلّ : « كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » [(١)] .

و عنه عليه السلام : « إنّ القلوب ثلاثة قلب منكوس لا يعي شيئاً من الخير و هو قلب الكافر ، و قلب فيه نكتة سوداء والخير والشرّ فيه يعتلجان فأيّهما كانت منه غلب عليه ، و قلب مفتوح فيه مصابيح يزهر لا يطفىء نوره إلى يوم القيامة و هو قلب المؤمن » [(٢)] .

---

(١) رواه الكليني فى الكافي ج ٢ ص ٢٧٣ تحت رقم ٢٠ . وقوله عليه السلام : « تمادى في الذنوب » اى لج فيها ودام عليها والرين الطبع و تحقيق الكلام فى المقام هو أن من عمل عملا صالحاً أثر فى نفسه و بازدياد العمل يزداد الضياء والصفاء حتى تصير كمرآة مجلوة صافية . ومن أذنب ذنباً أثر ذلك أيضاً و اورث لها كدورة فان تحقق عنده قبحه و تاب عنه زال الاثر و صارت النفس مصقولة صافية و ان أصر عليه زاد الاثر الميشوم و فشا فى النفس ، و الاعتراف بالتقصير و الرجوع الى الله بالتوبة و الاستغفار والانقلاع عن المعاصى لا محل لشيء من ذلك الى هذا القلب المظلم و المستغاث بالله ولا حول ولا قوة الا بالله على العظيم .

(٢) الكافي ج ٢ ص ٤٢٣ و قوله : « لا يعي شيئاً » اى لا يحفظ . و الاعتلاج : المصارعة وما يشابهها ، وقوله عليه السلام : « منه غلب عليه » « من » سببية والضمير للقلب .

و إنّما قال : إلى يوم القيامة لأنّ القلب بهذا المعنى لا يخرب بخراب البدن .

قال أبو حامد : و عن النبيّ صلى الله عليه وآله « قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر ، و قلب الكافر أسود منكوس »[1] فطاعة الله تعالى بمخالفة الشّهوات مصقلة للقلب و معاصيه مسوّدات له ، فمن أقبل على المعاصي اسودّ قلبه ، و من أتبع السيّئة الحسنة ومحى أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره كالمرآة الّتي يتنفّس فيها ، ثمّ تمسح ثمّ يتنفّس ، ثمّ تمسح فإنّها لا تخلو عن كدورة ، قال الله تعالى : « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشيطان تذكّروا فإذاهم مبصرون »[2] فأخبر أنّ جلاء القلب و إبصاره يحصل بالذكر وأنّه لا يتمكّن منه إلّا الّذين اتّقوا ، فالتقوى باب الذّكر ، والذكر باب الكشف ، والكشف باب الفوز الأكبر وهو الفوز بلقاء الله تعالى.

(بيان مثال القلب بالاضافة الى العلوم خاصة)

اعلم أنّ محلّ العلم هو القلب وأعني بالقلب اللّطيفة المدبّرة لجميع الجوارح المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء و هي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلوّنات فكما أنّ للمتلوّن صورة و مثال تلك الصورة ينطبع في المرآة و يحصل بها فكذلك لكلّ معلوم حقيقة و لتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتّضح فيها و كما أنّ المرآة غيرٌ ، و صور الأشخاص غيرٌ وحصول مثالها في المرآة غير . فهي ثلاثة اُمور فكذلك ههنا ثلاثة اُمور : القلب ، و حقائق الأشياء ، وحصول نفس الحقائق في القلب و حضورها فيه .

فالعالم عبارة عن القلب الّذي يحلّ فيه مثال حقائق الأشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء ، والعلم عبارة عن حصول العلوم في القلب كحصول المثال في المرآة ، فكما أنّ المرآة لا تنكشف فيها الصّور لخمسة اُمور : أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدوّر ويشكّل ويصقل ، والثاني لخبثها وصدأها و كدورتها وإن كانت تامّة الشكل ، والثالث لكونها معدولاً بها عن جهة الصّورة إلى غيرها كما

---

(١) أخرجه احمد فى المسند ج ٣ ص ١٧ عن ابى سعيد الخدرى .

(٢) الاعراف : ٢٠١ .

أنّ الصّورة وراء المرآة ، والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصّورة ، والخامس للجهل بالجهة الّتي فيها الصّورة المطلوبة رؤيتها حتّى يتعذّر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها ، فكذلك القلب مرآة مستعدّة لأن يتجلّى فيها حقيقة الحقّ في الأمور كلّها و إنّما خلت القلوب عن العلوم الّتي خلت عنها بهذه الأسباب الخمسة.

أوّلها نقصان في ذات القلب كقلب الصبيّ فإنه لا يتجلّى له المعلومات لنقصانه.

والثاني لكدورة المعاصي والخبث الّذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات، فإنّ ذلك يمنع صفاء القلب و جلاءه فيمتنع ظهور الحقّ فيه بقدر ظلمته و تراكمه و إليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً » (١) أي حصلت في قلبه كدورة لا يزول أثرها أبداً إذ غايته أن يتبع الذّنب بحسنة تمحوه بها فلو جاء بالحسنة ولم تتقدّم السيّئة لازداد لامحالة إشراق القلب فلمّا تقدّمت السيّئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيّئة ولم يزدد بها نوراً و هذا خسران مبين ونقصان لامحالة ، فليست المرآة الّتي تتدنّس ثمّ تمسح بالمصقلة كالّتي لم تتدنّس أصلاً وتمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق ، فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشّهوات هو الّذي يجلو القلب و يصفيه و لذلك قال تعالى : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا » (٢) و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من عمل بما علم ورّثه الله علم مالم يعلم » (٣).

والثالث أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة ، فإنّ قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنّه ليس يتّضح فيه جليّة الحقّ لأنّه ليس يطلب الحقّ ولا يحاذي بمرآته شطر المطلوب ، بل ربّما يكون مستوعب الهمّ بتفصيل الطاعات البدنيّة أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمّل في حضرة الرّبوبيّة والحقايق الخفيّة الإلهيّة فلا ينكشف له إلّا ماهو متفكّر فيه من دقايق آفات الأعمال و خفايا عيوب النّفس إن كان متفكّراً فيها أو في مصالح المعيشة إن كان متفكّراً فيها

---

(١) قال العراقي : لم اره أصلا . (٢) العنكبوت : ٦٩ .

(٣) أخرجه ابو نعيم في الحلية من حديث أنس كما في المغني و قد تقدم .

و إذا كان تقييد الهمّ بالأعمال و تفصيل الطّاعات مانعاً من انكشاف جليّة الحقّ فما ظنّك في من صرف الهمّ إلى الشهوات الدّنيويّة ولذّاتها وعلائقها ، فكيف لايمنع عن الكشف الحقيقي ؟!.

والرابع الحجاب فإنّ المطيع القاهر لشهواته ، المتجرّد للفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبى على سبيل التقليد والقبول بحسن الظنّ ، فإنّ ذلك يحول بينه و بين حقيقة الحقّ و يمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقّفه من ظاهر التقليد ، وهذا أيضاً حجاب عظيم به قد حجب أكثر المتكلّمين والمتعصّبين للمذاهب بل أكثر الصّالحين المتفكّرين في ملكوت السماوات والأرض لأنّهم محجوبون باعتقادات تقليديّة جمدت في نفوسهم و رسخت في قلوبهم و صارت حجاباً بينهم و بين درك الحقائق .

والخامس الجهل بالجهة الّتي منها يقع العثور على المطلوب فإنّ طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلاّ بالتذكّر للعلوم الّتي يناسب مطلوبه حتّى إذا تذكّرها ورتّبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطريق الاعتبار ، فعندذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فيتجلّى حقيقة المطلوب لقلبه ، فإنّ العلوم المطلوبة الّتي ليست فطريّة لا تقتنص إلّا بشبكة العلوم الحاصلة ، بل كلّ علم فلا يحصل إلّا عن علمين سابقين يأتلفان و يزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والانثى وذلك إذا وقع بينهما أزواج مخصوص فكذلك كلّ علم فله أصلان مخصوصان و بينهما طريق في الازدواج ، يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب ، فالجهل بتلك الاُصول و بكيفيّة الازدواج هو المانع من العلم . ومثاله ماذكرناه من الجهل بالجهة الّتي الصورة فيها ، بل مثاله أن يريد الانسان مثلاً أن يرى قفاه بالمرآة فإنّه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلايظهر فيها القفا و إن رفعها وراء القفا و حاذاه ، كان قد عدل بالمرآة من عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها ، فيحتاج إلى مرآة اُخرى ينصبها وراء القفا و هذه في مقابلتها بحيث يبصرها و يرعى مناسبة بين وضع المرآتين حتّى تنطبع

صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا ، ثمّ تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأُخرى الّتي في مقابلة العين ثمّ تدرك العين صورة القفا ، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات و تحريفات أعجب ممّا ذكرنا في المرآة يعزّ على بسيط الأرض من يهتدي إلى كيفيّة الحيلة في تلك الازورارات ، فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأُمور و إلّا فكلّ قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقايق لأنّه أمر ربّانيّ شريف ، وإنّما فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصّيّة والشّرف و إليه الإشارة بقوله عزّ وجلّ : « إنّا عرضنا الأمانة على السّموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها و حملها الإنسان »(١) إشارة إلى أنّ له خاصّيّة تميّز بها عن السماوات والأرض والجبال ، بها صار مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى و تلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد ، وقلب كلّ آدميّ مستعدّ لحمل الأمانة ومطيق لها في الأصل و لكن ثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب الّتي ذكرناها ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله : « كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه و ينصّرانه و يمجّسانه »(٢) و قوله صلى الله عليه وآله : « لولا أنّ الشّياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السّماء »(٣) إشارة إلى بعض هذه الأسباب الّتي هي الحجاب بين القلب و بين الملكوت وإليه الإشارة بما روي أنّه « قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : أين الله في الأرض أو في السّماء ؟ قال : في قلوب عباده المؤمنين »(٤) و في الخبر « قال الله تعالى : لم يسعني أرضي ولا سمائي و وسعني قلب عبدي المؤمن اللّيّن الوادع »(٥) وفي الخبر « أنّه قيل للنّبيّ صلى الله عليه وآله : من خير النّاس ؟ فقال : كلّ مؤمن مخموم القلب ، فقيل : وما مخموم القلب ؟ فقال : هو التقيّ النقيّ الّذي لا غشّ فيه ولا بغي ولا غدر

---

(١) الاحزاب : ٧٢ .

(٢) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٣١ .　　(٣) تقدم آنفاً .

(٤) و (٥) لم أجدهما بهذا اللفظ انما روى الطبراني في الكبير عن ابي عتبة الخولاني بسند ضعيف كما في الجامع الصغير «ان لله تعالى آنية من اهل الارض و آنية ربكم قلوب عباده الصالحين و احبها اليه الينها و ارقها» .

ولا غلّ ولاحسد »[١] ولذلك قال عليّ عليه السلام[٢]: رأى قلبي ربّي. إذا كان قد رفع الحجاب بالتّقوى ومن ارتفع الحجاب بينه وبين ربّه تجلّى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنّة عرض بعضها كعرض السّماوات والأرض، وأما جملتها فأكثر سعة من السماوات والأرض لأنّ السماوات والأرض عبارة عن عالم الملك والشّهادة، و هو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة وأمّا عالم الملكوت و هي الأسرار الغايبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر، فلا نهاية لها نعم الّذي يلوح القلب منه مقدار متناه، ولكنّه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله تعالى فلانهاية له، و جملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمّى الحضرة الرّبوبيّة لأنّ الحضرة الرّبوبيّة محيطة بكلّ الموجودات، إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله و مملكته وعبيده من أفعاله، فما يتجلّى من ذلك للقلب هو الجنّة بعينها عند قوم، وهو سبب استحقاق الجنّة عند أهل الحقّ، ويكون سعة ملكه في الجنّة بحسب سعة معرفته و بمقدار ما تجلّى له من الله سبحانه وصفاته و أفعاله و إنّما مراد الطاعات و أعمال الجوارح كلّها تصفية القلب و تزكيته و جلاؤه و قد أفلح من زكّاه، ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه أعني إشراق نور المعرفة، و هو المراد بقوله تعالى: « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام »[٣] وبقوله: « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه »[٤]

نعم هذا التجلّي و هذا الإيمان له ثلاث مراتب: المرتبة الأولى إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض، والثاني إيمان المتكلّمين و هو ممزوج بنوع استدلال و درجته قريبة من درجة إيمان العوام السابقة، والثالث إيمان العارفين وهو المشاهدة بنور اليقين، ويتبيّن لك هذه المراتب بمثال و هو أنّ تصديقك بكون زيد مثلاً في الدّار له ثلاث درجات: الأولى أن يخبرك به من جرّبته بالصدق ولم تعرفه بالكذب

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن بسند صحيح تحت رقم ٤٢١٦ و «مخموم القلب» بالمعجمة هو النقى الذى لاغل فيه ولا حسد، و هو من خممت البيت اذا كنسته.

(٢) في الاحياء « قال عمر ».

(٣) الانعام: ١٢٥. (٤) الزمر: ٢٢.

ولا تتهمه بالجزاف في القول فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع وهذا هو الإيمان بمجرد التقليد وهو مثل إيمان العوام فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم و أمهاتهم وجود الله تعالى و علمه و إرادته و قدرته و سائر صفاته و بعثه الرسول و صدقه وما جاء به و كما سمعوه قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه ، ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لحسن ظنهم بآبائهم و أمهاتهم و معلميهم و هذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة و أهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين ، إذ الخطأ ممكن فيما يسمع من الآحاد بل من الأعداد فيما يتعلق بالاعتقادات ، فقلوب اليهود والنصارى أيضاً مطمئنة بما سمعوه من آبائهم و أمهاتهم إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ لأنهم ألقي إليهم الخطأ والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه و لكن لأنهم ألقي إليهم كلمة الحق . الدرجة الثانية أن تسمع كلام زيد و صوته في الدار ولكن من وراء جدار فتستدل بذلك على كونه في الدار فيكون إيمانك و تصديقك و يقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع ، فإنك إذا قيل لك : إن زيداً في الدار ، ثم سمعت صوته ازددت به يقيناً لأن الصوت يدل على الشكل والصورة عند من سمع الصوت في حال مشاهدة الصورة ، فقلبه يحكم بأن هذا صوت ذلك الشخص ، فهذا إيمان ممزوج بدليل والخطأ أيضاً ممكن أن يتطرق إليه إذ الصوت قد يشبه الصوت و قد يمكن التكلف أيضاً بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يجعل للتهمة موضعاً ولا يقدر في هذا التلبيس والمحاكاة غرضاً ، الدرجة الثالثة أن تدخل الدار وتنظر إليه بعينك و تشاهده فهذه هي المعرفة الحقيقية ، والمشاهدة اليقينية ، و هي تشبه معرفة المقربين والصديقين ، لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين و يتميزون عنهم برتبة يستحيل معها إمكان الخطأ نعم وهم أيضاً يتفاوتون بمقادير العلوم و بدرجات الكشف ، أما الدرجات فمثالها أن تبصر زيداً في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق الشمس فيكمل لك إدراكه ، والآخر تدركه في بيت أو من بعد أو في

وقت عشيّة ، فيتمثّل له من صورته ما يستيقن معه أنّه هو ولكن لا يتمثّل في نفسه الدقايق والخفايامن صورته ، ومثل هذا متصوّر في تفاوت المشاهدة للأُمورالالهيّة ، وأمّا مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدّار زيداً وعمراً وبكراً وغير ذلك ، وآخر لا يرى إلّا زيداً فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لامحالة ، فهذه حال القلب بالاضافة إلى العلوم .

☼(بيان حال القلب)☼
☼(بالاضافة الى أقسام العلوم العقليّة والدّينية والدُّنيوية والاُخروية)☼

اعلم أنّ القلب بغريزته مستعدٌّ لقبول حقائق المعلومات كما سبق و لكنّ العلوم الّتي تحلّ فيه تنقسم إلى عقليّة وإلى شرعيّة ، والعقليّة تنقسم إلى ضروريّة و مكتسبة ، والمكتسبة تنقسم إلى دنيويّة واُخرويّة ، أمّا العقليّة فنعني بها ما يقضي به غريزة العقل ولاتؤخذ بالتقليد والسّماع وهي تنقسم إلى ضروريّة لاتدرى من أين حصلت ولا كيف حصلت ، كعلم الانسان بأنّ الشّخص الواحد لايكون في مكانين في حالة واحدة ، والشّيء الواحد لايكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً معاً ، فانّ هذه العلوم يجد الانسان نفسه منذ الصبى مفطوراً عليها ولا يدرى متى حصلت له و لا من أين حصلت أعني أنّه لا يدرى فيه سبباً قريباً و إلّا فليس يخفى عليه أنّ الله تعالى هو الّذي خلقها . وإلى مكتسبة وهي المستفادة بالتعلّم والاستدلال و كلا القسمين قد يسمّى عقلاً ، قال عليٌّ عليه السلام :

رأيت العقل عقلين ☼ فمطبوع ومسموع ☼ ولا ينفع مسموع
إذا لم يك مطبوع ☼ كمالاتنفع الشمس ☼ وضوء العين ممنوع

والأوّل هوالمراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ماخلق الله خلقاًهوأكرم عليه من العقل »(١) والثاني هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام : « إذا تقرّب الناس إلى الله تعالى بأنواع البرّ فتقرّب إليه أنت بعقلك »(٢) إذا لايمكن التقرّب بالغريزة الفطريّة ولا

---

(١) تقدم سابقاً و أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول باسناد ضعيف .

(٢) راجع الرسالة المعراجية لا بن سينا ص ١٥ و قد تقدم فى المجلد الاول .

بالعلوم الضّروريّة بل بالمكتسبة ولكن مثل عليّ عليه السلام هو الّذي يقدر على التقرّب باستعمال العقل في اقتناص العلوم الّتي بها ينال القرب من الله تعالى ، و القلب جار مجرى العين ، وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوّة البصر في العين و قوّة الأبصار لطيفة تفقد في الأعمى وتوجد في البصير ، وإن كان قد غمض العين أو جنّ عليه اللّيل ، والعلم الحاصل فيه جار مجرى قوّة إدراك البصر ، و رؤيته لأعيان الأشياء و تأخّر العلوم عن عين العقل في مدّة الصّبى إلى أوان التّمييز أو البلوغ يضاهي تأخّر الرّؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس و فيضان نورها على المبصرات ، والقلم الّذي يسطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجري مجرى قرص الشمس ، وإنّما لم يحصل العلم في قلب الصّبي قبل التمييز لأنّ لوح قلبه ما تهيّأ بعد لقبول نقش العلم ، والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سبباً لحصول نقش العلوم في قلوب البشر ، قال الله تعالى : « علّم بالقلم ۞ علّم الإنسان مالم يعلم » (١) و قلم الله سبحانه لا يشبه قلم خلقه كما أنّ وصفه لا يشبه وصف خلقه ، فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أنّ ذاته ليست من جوهر ولا عرض ، فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظّاهر صحيحة من هذه الوجوه إلّا أنّه لا مناسبة بينهما في الشّرف فإنّ البصيرة الباطنة هي عين النّفس الّتي هي اللّطيفة المذكورة و هي كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضرّ على الفارس من عمى الفرس ، بل لا نسبة لأحد الضررين إلى الآخر ، و لموازنة بصيرة الباطنة للبصر الظّاهر سمّاه الله تعالى باسمه ، فقال : « ما كذب الفؤاد ما رأى » (٢) سمّى إدراك الفؤاد رؤية و كذلك قوله تعالى : « و كذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض » (٣) وما أراد بذلك الرّؤية الظاهرة فإنّ ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتّى يذكر في معرض الامتنان ولذلك سمّى ضدّ إدراكه عمى فقال تعالى : « فإنّها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب الّتي في الصّدور » (٤) و قال تعالى : « و من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضلّ

---

(١) العلق : ٤و٥ .　　(٢) النجم: ١١ .

(٣)الانعام : ٧٥　　(٤) الحج: ٤٦ .

سبيلاً »[١] فهذا بيان العلم العقلي.

أمّا العلوم الدّينيّة فهي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وذلك يحصل بالتعلّم لكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ وفهم معانيهما بعد السّماع وبه كمال صفة القلب وبه سلامته عن الأدواء والأمراض، فالعلوم العقليّة غير كافية في سلامة القلب، وإن كان محتاجاً إليها كما أنّ العقل غير كاف في استدامة أسباب صحّة البدن بل يحتاج إلى معرفة خواصّ الأدوية والعقاقير بطريق التعلّم من الأطبّاء، إذ مجرّد العقل لا يهدي إليها ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلّا بالعقل فلا غنى بالعقل عن السمع ولا بالسّمع عن العقل فالدّاعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلّيّة جاهل، والمكتفي بمجرّد العقل عن أنوار القرآن والسنّة مغرور، فإيّاك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين، فإنّ العلوم العقليّة كالأغذية والعلوم الشرعيّة كالأدوية والشخص المريض يتضرّر بالغذاء مهما فاته الدّواء فكذلك أمراض القلب لا يمكن علاجها إلّا بأدوية مستفادة من الشريعة، وهي وظائف العبادات والأعمال الّتي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادات الشرعيّة واكتفى بالعلوم العقليّة استضرّ بها كما يستضرّ المريض بالغذاء، وظنّ من يظنّ أنّ العلوم العقليّة مناقضة للعلوم الشرعيّة، وأنّ الجمع بينهما أمر غير ممكن، هو ظنّ صادر عن عمى في عين البصيرة، نعوذ بالله من ذلك، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعيّة لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظنّ أنّه ناقض في الدّين فيتحيّر بذلك وينسلّ من الدّين انسلال الشعرة من العجين وإنّما ذلك لأنّ عجزه في نفسه خيل إليه نقصاً في الدّين وهيهات، وإنّما مثاله مثال الأعمى الّذي دخل داراً فيعثر فيها بأواني الدّار فقال: ما بال هذه الأواني تركت على الطريق لم لا تردّ إلى مواضعها؟ فقيل له: تلك الأواني في مواضعها وإنّما أنت لست تهتدي إلى الطريق لعماك، والعجب منك أنّك لا تحيل عثرتك على عماك وإنّما تحيلها على تقصير غيرك فهذه نسبة العلوم الدّينيّة إلى العقليّة.

---

(١) الاسراء: ٧٢

فأمّا العلوم العقليّة فتنقسم إلى دنيويّة واُخرويّة فالدُّنيويّة كعلم الطّبّ والحساب والهندسة والنّجوم و سائر الحرف والصناعات ، والاُخرويّة كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال ، والعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله كما فصّلناه في كتاب العلم وهما علمان متنافيان أعني من صرف عنايته إلى أحدهما حتّى يتعمّق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ، ولذلك ضرب عليٌّ عليه السلام للدُّنيا والآخرة بثلاثة أمثلة فقال : « هما ككفّتي الميزان ، وكالمشرق و المغرب ، وكالضرّتين إذا أرضيت إحديهما أسخطت الاُخرى » (١) ولذلك ترى الأكياس في اُمور الدُّنيا وفي علم الطبّ والهندسة والحساب والفلسفة جهّالاً في اُمور الآخرة ، والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهّالاً في الأكثر بعلوم الدُّنيا ، لأنَّ قوّة العقل لا تفي بالأمرين جميعاً في الغالب فيكون أحدهما مانعاً من الكمال في الثاني ، و لذلك قال صلّى الله عليه وآله : « أكثر أهل الجنّة البله » (٢) إي البليد في اُمور الدُّنيا .

قال بعض السّلف : أدركنا أقواماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو رأوكم لقالوا : شياطين . فمهما سمعت أمراً غريباً من اُمور الدِّين جحده أهل الكياسة في سائر العلوم فلا ينفرنّك جحودهم عن قبوله ، إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب ، فكذلك يجري أمر الدُّنيا و الآخرة ولذلك قال الله تعالى : « إنَّ الّذين لا يرجون لقاءنا و رضوا بالحيوة الدُّنيا واطمأنّوا بها » (٣) وقال تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحيوة الدُّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٤) و قال تعالى : « فأعرض عن من تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحيوة الدُّنيا * ذلك مبلغهم من العلم » (٥) فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدُّنيا والدِّين لا يكاد يتيسّر

(١) في النهج ابواب الحكم تحت رقم ١٠٣ « ان الدنيا والاخرة عدوان متفاوتان و سبيلان مختلفان : فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الاخرة وعاداها ، وهما بمنزلة المشرق و المغرب و ماش بينهما ، كلما قرب من واحد بعد من الاخر و هما ضرتان .

(٢) أخرجه البزار عن أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير » .

(٣) يونس : ٧ . (٤) الروم : ٧ .

(٥) النجم : ٢٩ و ٣٠ .

إلّا لمن رسخه الله لتدبير عباده في معاشهم و معادهم وهم الأنبياء عليهم السلام ، المؤيّدون بروح القدس المستمدّون من القوّة الإلهيّة فقلوبهم يتّسع لجميع الأمور ولا يضيق عنها ، وأمّا قلوب سائر الخلق فإنّها إذا اشتغلت بأمر انصرفت عن الآخر وقصرت عن الاستكمال فيه.

☼(بيان الفرق بين الالهام والتعلم)☼

(والفرق بين طريق المجاهدين في استكشاف الحقّ وطريق النظار في الاكتساب)

اعلم أنّ العلوم الّتي ليست ضروريّة وإنّما تحصل في القلب في بعض الأحوال يختلف الحال في حصولها فتارة تهجم على القلب كأنّه أُلقي فيه من حيث لا يدري و تارة تكتسب بطريق الاستدلال و التعلّم ، فالّذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدّليل يسمّى إلهاماً ، والّذي يحصل بالاستدلال يسمّى إعتباراً واستبصاراً ، ثمّ الواقع في القلب بغير حيلة و تمحّل و اجتهاد من العبد تنقسم إلى ما لا يدري العبد أنّه كيف حصل ، و من أين حصل ، و إلى ما يطّلع معه على السّبب الّذي منه استفيد ذلك العلم و هو بمشاهدة الملك الملقي في القلب ، و الأوّل يسمّى إلهاماً و نفثاً في الرّوع ، و الثاني يسمّى وحياً ، و يختصّ به الأنبياء عليهم السلام ، و الأوّل يختصّ به الأولياء و الأصفياء ، و الّذي قبله - و هو المكتسب بطريق الاستدلال - يختصّ به العلماء.

و حقيقة القول فيه أنّ القلب مستعدّ لأن يتجلّى فيه حقيقة الحقّ في الأشياء كلّها و إنّما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة الّتي سبق ذكرها ، فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب و بين اللّوح المحفوظ الّذي هو منقوش ، بجميع ما قضى الله تعالى به إلى يوم القيامة و تجلّي حقائق العلوم من مرآة اللّوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها ، و الحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد ، وأُخرى يزول بهبوب ريح تحرّكه ، و كذلك قد تهبّ رياح الألطاف وتكشف الحجب عن أعين القلوب فيتجلّى فيها بعض ما هو مسطور في اللّوح المحفوظ ، ويكون

ذلك تارة عند المنام فينكشف فيه ما سيكون في المستقبل ، و تمام ارتفاع الحجاب بالموت وبه ينكشف الغطاء ، وفي اليقظة أيضاً قد ينقشع الحجاب بلطف خفيّ من الله تعالى ، فيلمع في القلب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف ، و اُخرى على التوالي إلى حدّ مّا ، و دوامه في غاية الندور . فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ، ولا في محلّه ، ولا في سببه ، ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب و أنّ ذلك ليس باختيار العبد ، ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم ، فإنّ العلوم إنّما تحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة و إليه الإشارة بقوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء » (١).

فإذا عرفت هذا فاعلم أنّ ميل أهل المجاهدة إلى العلوم الالهاميّة دون التعليميّة ، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم و تحصيل ما صنّفه المصنّفون و البحث عن الأقاويل والأدلّة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلّها و الإقبال بكنه الهمّة على الله تعالى ، فمهما حصل ذلك كان الله تعالى هوالمتولّي لقلب عبده والمتكفّل بتنويره بأنوار العلم فإذا تولّى الله تعالى أمر القلب فاضت الرّحمة و أشرق النور في القلب ، و انشرح الصدر و انكشف له سرّ الملكوت ، و انقشع عن وجه القلب حجاب العزّة بلطف الرّحمة و تلألأت فيه حقائق الاُمور الإلهيّة فليس على المريد إلّا الاستعداد بالتصفية المجرّدة و احضار الهمّة مع الارادة الصادقة و التعطّش التامّ ، و الترصّد بدوام الانتظار لما يفتحه الله من الرّحمة ، فالأنبياء و الأولياء انكشفت لهم الاُمور وفاض على صدورهم النور لا بالتعلّم و الدراسة للكتب بل بالزّهد في الدّنيا ، و التبرّي عن علائقها ، و تفريق القلب عن شواغلها ، والإقبال بكنه الهمّة على الله تعالى « فمن كان لله كان الله له » و زعموا أنّ الطريق في ذلك أوّلاً أن يقطع علائق الدّنيا بالكلّية ، فيفرغ قلبه عنها ويقطع همّته عن الأهل و المال و الولد و الوطن و عن العمل و الولاية و الجاه بل

(١) الشورى : ٥١ .

يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كلّ شيء وعدمه ، ثمّ يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرّواتب ، و يجلس فارغ القلب مجموع الهمّ ، ولا يفرّق فكره بقراءة قرآن و لا بالتأمّل في تفسيره و لا بكتب حديث و غيره بل يجتهد أن لايخطر بباله شيء سوى ذكر الله تعالى ، فلايزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه: « الله الله » على الدّوام مع حضور القلب إلى أن ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللّسان ويرى كأنّ الكلمة جارية على اللّسان ، ثمّ يصبر عليه إلى أن ينمحى أثره عن اللّسان و يصادف قلبه مواظباً على الذكر ، ثمّ يواظب عليه إلى أن ينمحى عن القلب صورة اللّفظ وحروفه وهيئة الكلمة و يبقى معني الكلمة مجرّداً في قلبه حاضراً فيه كأنّه لازم له لايفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحدّ و اختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس و ليس له اختيار في استجلاب رحمة الله بل هو بما فعله قد تعرّض لنفحات الرّحمة فلا يبقى إلّا الانتظار لما يفتح الله له من رحمته الّتي فتحها على الأنبياء و الأولياء بهذا الطريق ، وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همّته ، و حسنت مواظبته ، ولم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدّنيا ، فتلمع لوامع الحقّ في قلبه ، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لايثبت ثمّ يعود و قد يتأخّر وإن عاد فقد ثبت و قد يكون مختطفاً ، و إن ثبت فقد يطول ثباته ، وقد لايطول ، و قد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، و قد يقتصر على فنّ واحد ، و منازل أولياء الله فيه لا تحصى كما لايحصى تفاوت خلقهم وخلقهم ، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك و تصفية وجلاء ، ثمّ استعداد وانتظار فقطّ .

و أمّا النظار وذووا الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه ، و إفضاؤه إلى المقصد على الندور ، فإنّه أكثر أحوال الأنبياء و الأولياء ولكن استوعروا هذا الطريق و استبطؤوا ثمرته ، واستبعدوا اجتماع شروطه ، و زعموا أنّ محو العلائق إلى ذلك الحدّ كالمتعذّر و إن حصل في حاله فثباته أبعد منه إذا دنى وسواس وخاطر يشوّش القلب ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « قلب المؤمن أشدّ تقلباً من القدر في

غليانها »[١] و قال ﷺ : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن يقلّبه كيف يشاء »[٢] وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج و يختلط العقل و يمرض البدن وإذا لم يتقدّم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدّة طويلة إلى أن تزول و العمر ينقضي دون النجاح فيها ، فكم من مجاهد سلك هذا الطريق ثمّ بقي في خيال واحد عشرين سنة ، و لو كان قد أتقن العلم من قبل لا نفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال ، فالاشتغال بطريق التعلّم أوثق وأقرب إلى الغرض ، و زعموا أنّ ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلّم الفقه . وزعم أنّ النبيّ ﷺ لم يتعلّم ذلك ولكن صار فقيهاً بالوحي و الإلهام من غير تكرير وتعليق ويقول : أنا أيضاً ربّما انتهت بي الرّياضة إليه . و من ظنّ ذلك فقد ظلم نفسه و ضيّع عمره بل هو كمن ترك طريق الكسب والحراسة رجاء العثور على كنز من الكنوز فإنّ ذلك ممكن ولكنّه بعيد جدّاً فكذلك هذا فقالوا : لابدّ أوّلاً من تحصيل ما حصّله العلماء وفهم ما قالوه ثمّ لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بالمجاهدة بعد ذلك .

٭(بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس)٭

اعلم أنّ عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواسّ لأنّ القلب أيضاً خارج عن إدراك الحسّ و ما ليس مدركاً بالحواسّ يضعف الأفهام عن إدراكه إلّا بمثال محسوس و نحن نقرّب ذلك إلى أفهام الضعفاء بمثالين أحدهما إنّا لو فرضنا حوضاً محفوراً في الأرض احتمل أن يساق الماء إليه من فوقه بأنهار يفتح إليه ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقرّ الماء الصّافي فينفجر الماء من أسفل الحوض و يكون ذلك الماء أصفى و أدوم و قد يكون أغزر و أكثر

(١) أخرجه احمد فى المسند ج ٦ ص ٤ من حديث المقداد بن اسود .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٥٢٥ و ج ٤ ص ٣٢١ و فيه « ما من قلب الا - الحديث - » .

فكذلك القلب مثل الحوض و العلم مثل الماء والحواسّ الخمسة مثل الأنهار ويمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواسّ و الاعتبار بالمشاهدات حتّى يمتلي علماً ويمكن أن تسدّ عنه هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغضّ البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره وبرفع طبقات الحجب عنه حتّى ينفجر ينبوع العلم من داخله .

• فإن قلت : وكيف ينفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه ؟ فاعلم أنّ هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة والقدر الّذي يمكن ذكره أنّ حقائق الأشياء مسطورة في اللّوح المحفوظ ، بل في قلوب الملائكة المقرّبين ، فكما أنّ المهندس يسطر صورة أبنية الدّار في بياض ثمّ يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، فكذلك فاطر السّماوات والأرض كتب نسخة العالم من أوّله إلى آخره في اللّوح المحفوظ ، ثمّ أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة و العالم الّذي خرج إلى الوجود بصورته يتأدّي منه صورة اُخرى إلى الحواسّ و الخيال ، فإنّ من ينظر إلى السّماء والأرض ثمّ يغضّ بصره يرى صورة السّماء و الأرض في خياله حتّى كأنّه ينظر إليها ولو انعدمت السّماء والأرض ثمّ بقي هو لوجد صورة السّماء و الأرض في نفسه كأنّه يشاهدها وينظر إليها ، ثمّ يتأدّى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء الّتي وجدت في الحسّ والخيال فالحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال ، والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجاً عن خيال الإنسان وقلبه ، والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللّوح المحفوظ .

وكان للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في اللّوح المحفوظ و هو سابق على وجوده الجسمانيّ ، ويتبعه وجوده الحقيقي ، و يتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي أعني وجود صورته في الخيال ، و يتبع وجوده في الخيال وجوده العقليّ أعني وجود صورته في القلب .

وبعض هذه الوجودات روحانيّة وبعضها جسمانيّة ، و الرّوحانيّة بعضها أشدّ روحانيّة من بعض ، و هذا لطف من الحكمة الإلهيّة إذ جعل حدقتك على صغر

حجمها بحيث ينطبع فيها صورة العالم والسّماوات والأرض على اتّساع أكنافهاثمّ يسري من وجودها في الحسّ وجود في الخيال ، ثمّ منه وجود في القلب فإنّك أبداً لاتدرك إلّاما هو واصل إليك فلو لم يجعل للعالم كلّه مثالاً في ذاتك لما كان لك خبر بما يباين ذاتك ، فسبحان من دبّر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثمّ أعمى عن دركها القلوب والأبصار حتّى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وعجايبها . فلنرجع إلى المقصود .

فنقول : القلب يتصوّر أن يحصل فيه حقيقة العالم و صورته تارة من اقتباس الحواسّ و تارة من اللّوح المحفوظ ، كما أنّ العين يتصوّر أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها ، و تارة من النظر إلى الماء الصّافي الّذي يقابل الشمس ويحكي صورتها . فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللّوح المحفوظ رأى الأشياء فيه و يفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من مداخل الحواسّ فيكون ذلك كتفجّر الماء من عمق الأرض ، ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللّوح المحفوظ ، كما أنّ الماء إذا اجتمع من الأنهار في الحوض منع ذلك عن التفجّر من الأرض ، و كما أنّ من نظر إلى الماء الّذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس فإذن للقلب بابان باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللّوح المحفوظ وعالم الملائكة وباب مفتوح إلى الحواسّ الخمس المتمسّك بعالم الشهادة و الملك و عالم الشهادة و الملك أيضاً يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكات ، فأمّا انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواسّ فلا يخفى عليك ، و أمّا انفتاح بابه الدّاخلاني إلى عالم الملكوت و مطالعة اللّوح المحفوظ فتعلمه علماً يقيناً بالتأمّل في عجائب الرؤيا ، واطّلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل، أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواسّ ، و إنّما ينفتح ذلك الباب لمن أفرد ذكر الله تعالى .

قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « سبق المفردون . قيل : و من هم يا رسول الله ؟ قال :

المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً ـ ثمّ قال في وصفهم حكاية عن الله تعالى ـ : أقبل عليهم بوجهي أترى من واجهته بوجهي يعلم أحد أيّ شيء أُريد أن أعطيه ، ثمّ قال عزّ وجلّ : أوّل ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عنّي كما أُخبر عنهم »(١) و مدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن ، فإذن الفرق بين علوم الأنبياء والأولياء عليهم السلام و بين علوم الحكماء والعلماء هذا و هو أنّ علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكماء يأتي من أبواب الحواسّ المفتوحة إلى عالم الملك ، وعجائب عالم القلب وتردّده بين عالمي الشهادة و الغيب لايمكن أن يستقصى في علم المعاملة ، فهذا مثال يعرفك الفرق بين مدخل العلمين .

المثال الثاني يعرفك الفرق بين العملين أعني عمل الأولياء وعمل العلماء فإنّ العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب ، والأولياء يعملون في جلاء القلب و تطهيره و تزكيته و تصفيته و تصقيله فقط . وقد حكي أنّ أهل الصّين وأهل الرّوم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش فاستقرّ رأي الملك على أن يسلم إليهم صفّة لينقش أهل الصّين منها جانباً وأهل الرّوم منها جانباً و يرخى بينهم حجاب يمنع اطّلاع كلّ فريق على الآخر ، ففعل ذلك وجمع أهل الرّوم من الأصباغ الغريبة مالا ينحصر ، و دخل أهل الصّين من غير صبغ و جعلوا يجلون جانبهم و يصقلونه فلمّا فرغ أهل الرّوم ادّعى أهل الصّين أنّهم أيضاً قد فرغوا فتعجّب الملك من قولهم وأنّهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ فقيل : و كيف فرغتم من غير صبغ ؟ فقالوا : ما عليكم منّا ارفعوا الحجاب ، فرفعوا فإذا جانبهم قد تلألأت فيه عجائب الصنائع الرّوميّة مع زيادة إشراق و بريق ، إذ صار جانبهم كالمرآة المجلّية لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد الصفاء (٢).

(١) أخرجه الترمذى والحاكم بادنى اختلاف عن أبى هريرة ، والطبرانى فى الكبير عن ابى الدرداء بسند صحيح كما فى الجامع الصغير ، وأخرجه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف كما فى المغنى .

(٢) القصة نظمها المولوى فى مثنويه وجعل مكان الرومى چينى و بالعكس وقال : ←

فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب و جلائه و تزكيته و صفائه حتّى يتلألأ فيه جليّة الحقّ بنهاية الإشراق كفعل أهل الصّين وعناية العلماء والحكماء باكتساب نقش العلوم و تحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الرّوم ، و كيف ما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت وعلمه عند الموت لاينمحى وصفاؤه لا ينكدر ، و إليه أشار من قال : التراب لا يأكل محلّ الايمان ، و يكون وسيلته المقرّبة إلى الله تعالى ، أمّا ما حصله من نفس العلم أو ما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ، فلا سعادة لأحد إلّا بالعلم والمعرفة .

و بعض السعادات أشرف من بعض كما أنّه لاغنى إلّا بالمال فصاحب الدّراهم غنيٌّ و صاحب الخزائن المترعة غنيٌّ ، و تتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة و الايمان كما يتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلّة المال و كثرته ، والمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلّا بأنوارهم قال الله تعالى : « يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم » (١) وقد ورد في الخبر « أنّ بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل و بعضهم يعطى نوراً أصغر منه حتّى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوراً على

← اهل چین وروم در بحث آمدند — رومیان در علم واقف تر بدند
چینیان گفتند یکخانه بما — خاص بسپارید و یك آن شما
بود دو خانه مقابل در بدر — آن یکی چینی ستد رومی دگر
چینیان صد رنگ از شه خواستند — پس خزینه باز کرد آن ارجمند
هر صباحی از خزینه رنگها — چینیان را راتبه بود وعطا
رومیان گفتند نی نقش و نه رنگ — در خور آید کار را جز دفع زنگ
در فرو بستند و صیقل میزدند — همچو گردون ساده وصافی شدند
چینیان چون از عمل فارغ شدند — از پی شادی دهلها میزدند
شه در آمد دید آنجا نقشها — میربود آن عقل را و فهم را
بعد از آن آمد بسوی رومیان — پرده را بالا کشیدند از میان
عکس آن تصویر آن کردارها — زد بر این صافی شده دیوارها
هر چه آنجا بود اینجا به نمود — دیده را از دیده خانه میربود

(١) الحديد : ١٢

قدر إبهام قدمه، فيضيء مرّة وينطفيء أخرى فإذا أضاء قدّم قدمه فمشى وإذا طفيء قام ، و مرورهم على الصراط على قدر نورهم ، ومنهم من يمرّ كطرف العين و منهم من يمرّ كالبرق ومنهم من يمرّ كالسحاب ومنهم من يمرّ كانقضاض الكوكب[١] ومنهم من يمر كشدّ الفرس و الّذي أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه و رجليه تخرّ منه يد وتعلّق أخرى وتخرّ رجل و تعلّق أخرى و تصيب جوانبه النار قال : ولايزال كذلك حتّى يخلص - الحديث - » .

فبهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان ، فإيمان آحاد العوام نوره مثل نور السراج ، و بعضهم نوره كنور الشمعة ، وإيمان الصدّيقين نوره كنور النجوم والقمر ، و إيمان الأنبياء كنور الشّمس ، و كما ينكشف في نور الشّمس صورة الآفاق مع اتّساع أقطارها و لا ينكشف في نور السراج إلّا زاوية ضيّقة من البيت ، فكذلك يتفاوت انشراح الصّدر بالمعارف و انكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين .

و لذلك جاء في الخبر « أنّه يقال : يوم القيامة أخرجوا من النّار من في قلبه مثقال من الإيمان ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرّة»[٢] كلّ ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان ، فإنّ هذه المقادير من الإيمان لاتمنع دخول النّار و في مفهومه أنّ من إيمانه يزيد على مثقال فإنّه لايدخل النّار ولو دخل لأمر بإخراجه أوّلاً فإنّ من في قلبه مثقال ذرّة لا يستحقّ الخلود في النار و إن دخلها .

و كذلك قوله ﷺ : « ليس شيء خير من ألف مثله إلّا الإنسان أو المؤمن»[٣] إشارة إلى تفضيل قلب العارف المؤمن فإنّه خير من قلب ألف من عوام النّاس .

و قد قال الله تعالى : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»[٤] تفضيلاً للمؤمنين

(١) انقض الطائر انقضاضاً : هوى ليقع والخبر أخرج صدره الحاكم فى المستدرك ج ٢ ص ٤٧٨ بأدنى اختلاف بسند صحيح على شرط الشيخين ، وأخرجه ابن ابى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن ابى حاتم وابن مردويه ايضاً كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ١٧٢ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٢ ص ١١٧ بادنى اختلاف فى اللفظ .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير عن سلمان بسند صحيح كما فى الجامع الصغير

(٤) آل عمران : ١٣٩ .

على المسلمين و المراد به المؤمن العارف دون المقلّد ، وقال تعالى : « يرفع الله الّذين آمنوا منكم و الّذين اُوتوا العلم درجات » (١) فأراد ههنا بالّذين آمنوا الّذين صدقوا من غير علم و ميّزهم عن الّذين اُوتوا العلم ويدلّ ذلك على أنّ اسم المؤمن يقع على المقلّد و إن لم يكن تصديقه عن بصيرة و كشف ، و فسّر ابن عبّاس قوله تعالى : « والّذين اُوتوا العلم درجات » (١) قال : يرفع الله العالم فوق المؤمن سبعمائة درجة ، بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » (٢) و في رواية « كفضل القمر على سائر الكواكب » و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أكثر أهل الجنّة البله ، و علّيّون لذوي الألباب » (٣) فبهذه الشواهد يتّضح تفاوت درجات أهل الجنان بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم و لهذا كان يوم القيامة يوم التغابن إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن و الخسران ، و المرحوم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كنظر الغنيّ الّذي يملك عشرة دراهم إلى الغنيّ الّذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب و كلٌّ واحد منهما غنيٌّ ولكن ما أعظم الفرق بينهما و ما أعظم الغبن على من بخس حظّه منه ، قال الله تعالى : « وللآخرة أكبر درجات و أكبر تفضيلاً » (٤) .

✿(بيان شواهد الشرع)✿

على صحّة طريق أهل المجاهدة في اكتساب المعرفة لا من التعلّم . و لا من الطرق المعتادة

اعلم أنّ من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفاً بصحّة الطريق و من لم ير ذلك من نفسه قطّ

(١) المجادلة : ١١ .

(٢) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ١٥٨ و قد تقدم فى المجلد الاول ص ١٦ .

(٣) تقدم آنفاً دون هذه الزيادة .

(٤) الاسراء : ٢١ .

فينبغي أن يؤمن به فإنّ درجة المعرفة فيه غريزة جدّاً و يشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات .

أمّا الشواهد فقوله عزّ و جلّ : « و الّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا »(١) فكلّ حكمة تظهر في القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلّم فهو طريق الكشف و الإلهام ، وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم(٢) ووفّقه فيما يعمل حتّى يستوجب الجنّة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفّق فيما يعمل حتّى يستوجب النّار » وقال الله تعالى : « ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً و يرزقه من حيث لا يحتسب »(٣) قيل : يجعل له مخرجاً من الاشكالات والشبه ، « ويرزقه من حيث لا يحتسب » يعلّمه علماً من غير تعلّم ويفطنه من غير تجربة ، وقال تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً »(٤) قيل : نوراً يفرق به بين الحقّ والباطل ويخرج به من الشبهات و لذلك كان أكثر قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في دعائه سؤال النور ، فقال : « اللّهمّ أعطني نوراً و زدني نوراً و اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً - حتّى قال - في شعري وبشري ولحمي ودمي نوراً »(٥) وسئل صلّى الله عليه وآله وسلّم عن قوله عزّ وجلّ : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه »(٦) فقيل : ما هذا الشرح ؟ فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « هو التوسعة إنّ النور إذا قذف به في القلب اتّسع له الصدر وانشرح » وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم لابن عبّاس : « اللّهمّ فقّهه في الدّين وعلّمه التأويل »(٧) .

و قال عليّ عليه السلام : « ما عندنا شيء أسرّه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلينا إلّا أن يؤتي الله

(١) العنكبوت : ٦٩ .

(٢) الى هنا تقدم آنفا وما عثرت على بقيتها .

(٣) الطلاق : ٢ . (٤) الانفال : ٢٩ .

(٥) أخرجه احمد فى مسنده ج ١ ص ٣٧٣ فى حديث طويل .

(٦) الزمر : ٢٢ . و الخبر راجع الدر المنثور ج ٥ ص ٣٢٥ ذيل الاية بادنى تغيير عن ابن مردويه عن عبدالله بن مسعود .

(٧) اخرجه احمد فى مسنده ج ١ ص ٣١٤ .

عزّ وجلّ عبداً فهماً في كتابه »[١] وليس هذا بالتعلّم ، و قيل في تفسير قوله تعالى : « يؤتي الحكمة من يشاء »[٢]: إنّه الفهم في كتاب الله عزّ وجلّ ، و قال تعالى : « ففهّمناها سليمان »[٣] خصّ ما انكشف له باسم الفهم ، و كان أبو الدّرداء يقول : المؤمن من ينظر من وراء ستر رقيق والله إنّه للحقّ يقذفه الله في قلوبهم و يجريه على ألسنتهم ، وقال بعض السّلف ظنّ المؤمن كهانة .

وقال ﷺ : « اتّقوا فراسة المؤمن فانّه ينظر بنور الله »[٤] وإليه يشير قوله تعالى : « إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين »[٥] . و قوله تعالى : « قد بيّنّا الآيات لقوم يوقنون »[٦] . و عن رسول الله ﷺ أنّه قال : « العلم علمان فعام باطن في القلب فذلك هو النافع »[٧]. و سئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو ؟ قال : هو سرّ من سرّ الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبّائه لم يطّلع عليه بشر ولا ملكاً ، وقد قال ﷺ « إنّ من امّتي محدّثين ومكلّمين »[٨] وقرأ ابن عبّاس « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ (ولا محدّث) »[٩] يعني الصدّيقين و المحدّث هو الملهم ، والملهم هو الّذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الدّاخل لا من جهة المحسوسات الخارجة .

و القرآن مصرّح بأنّ التقوى مفتاح الهداية و الكشف و ذلك علم من غير

---

(١) تقدم فى المجلد الثانى ص٢٣٩ .

(٢) البقرة : ٢٦٩ . (٣) الانبياء : ٧٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى التاريخ و الترمذى فى السنن عن ابى سعيد و الطبرانى وابن عدى عن ابى امامة كما فى الجامع الصغير .

(٥) الحجر : ٧٥ . (٦) البقرة : ١١٨ .

(٧) أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر و ابن عبد البرفى العلم كما فى مختصره ص ٩٠ من حديث الحسن مرسلا باسناد صحيح و اسنده الخطيب فى التاريخ من رواية الحسن عن جابر باسناد جيدو اعله ابن الجوزى كما فى المغنى ، و أخرجه ابن ابى شيبة عن الحسن كما فى الجامع الصغير وقدمر نحوه فى المجلد الاول ص ١٢٥ .

(٨) راجع صحيح البخارى ج ٥ ص ١٥ .

(٩) الحج : ٥٢ .

تعلّم قال الله تعالى : « وما خلق الله في السماوات و الأرض لآيات لقوم يتّقون»[١] خصّصها بهم و قال تعالى : « هذا بيان للنّاس وهدى وموعظة للمتّقين » [٢] . و كان أبو يزيد و غيره يقول : ليس العالم الّذي يتحفّظ من كتاب فإذا نسي ما حفظ صار جاهلاً إنّما العالم الّذي يأخذ علمه من ربّه أيّ وقت شاء بلا تحفّظ و لا درس ، و هذا هو العالم الرّبّاني و إلى مثله الإشارة بقوله تعالى : « آتيناه رحمة من عندنا و علّمناه من لدنّا علماً » [٣] مع أنّ كلّ علم من لدنه ولكن بعضه بواسطة تعليم الخلق فلا يسمّى ذلك علماً لدنّياً ، بل العلم اللّدنّي هو الّذي ينفتح في سرّ القلب من غير سبب مألوف من خارج ، فهذه شواهد الشرع و العقل ولو جمع كلّ ما ورد فيه من الآيات و الأخبار والآثار لخرج عن الحصر ، وأمّا مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضاً خارج عن الحصر و قد ظهر ذلك على الصحابة و التابعين و من بعدهم .

أقول: و قد ظهر على الأئمّة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام من ذلك شيء كثير كما هو مذكور في كتاب الحجّة من الكافي للكلينيّ ـ رحمه الله ـ و في كتاب بصائر الدرجات لمحمّد بن الحسن الصفار ، و كتاب الخرايج و الجرائح للراونديّ ، و كتاب كشف الغمّة للإربلي ، وغيرها من الكتب المصنّفة في ذلك من تفرّسهم عليهم السلام و إخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم ، و مشاهدتهم الخضر عليه السلام و الحديث معه ، وصحبتهم للملائكة ، وتحدّثهم معهم ، و تسخيرهم للجنّ ، و بعثهم إيّاهم في حوائجهم إلى غير ذلك من فنون الكرامات ، و قد ذكرنا نبذاً منها في كتاب أخلاق الإمامة من ربع العادات ، و من الأخبار النبويّة في هذا المقام : « ليس العلم بكثرة التعلّم إنّما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد الله أن يهديه » [٤] « العلم نور و ضياء يقذفه الله في قلوب أوليائه و أنطق به على لسانهم » [٥] « العلم علم الله لا يعطيه إلّا

(١) يونس : ٦ .
(٢) آل عمران : ١٣٨ . (٣) الكهف : ٦٥ .
(٤) معروف من حديث عنوان البصري عن الصادق عليه السلام راجع بحار الانوار ج ١ ص ٦٨ .
(٥) ماعثرت عليها في أي أصل .

الأولياء » (١) « الجوع سحاب الحكمة فإذا جاع العبد مطر بالحكمة » (٢) « من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » (٣) « ما من عبد إلّا و لقلبه عينان وهما غيب يدرك بهما الغيب » (٤) « فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه فيرى ما هو غائب عن بصره » (٥).

قال أبو حامد : والحكايات لاتنفع الجاحد مالم يشهد ذلك في نفسه ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل ، و الدّليل القاطع الّذي لا يقدر أحدٌ على جحده أمران .

أحدهما عجائب الرُّؤيا الصادقة فإنّه ينكشف بها الغيب و إذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلّا في ركود الحواسّ وعدم اشتغالها بالمحسوسات و كم من متيقّظ غائص الفكر لايسمع ولايبصر لاشتغاله بنفسه .

و الثاني إخبار رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن الغيب و اُمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم جاز لغيره إذ النبيّ عبارة عن شخص كوشف بحقائق الاُمور و شغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص يكاشف بالحقائق ولا يشغل بإصلاح الخلق و هذا لا يسمّى نبيّاً بل يسمّى وليّاً فمن آمن بالأنبياء عليهم السلام وصدق بالرُّؤيا الصحيحة لزمه لامحالة أن يقرّ بأنّ للقلب بابين باب إلى الخارج وهو باب الحواسّ وباب إلى الملكوت من داخل القلب و هو باب الإلهام و النفث في الرّوع و الوحي ، و إذا أقرّ بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلّم و مباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن يكون المجاهدة سبيلاً إليه ، فهذا

---

(١) و (٢) ما عثرت عليها فى أى أصل .

(٣) أخرجه ابونعيم فى الحلية عن ابى ايوب بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٤) لم أجد له أصلا .

(٥) ما عثرت عليه الا مارواه ابوالشيخ عن ابى ذر بسند ضعيف « اذا اراد الله بعبد خيراً فتح له قفل قلبه ، وجعل فيه اليقين والصدق ، و جعل قلبه وعياً لماسلك فيه ، وجعل قلبه سليماً ولسانه صادقاً و خليقته مستقيمة وجعل اذنه سميعة وعينه بصيرة » راجع الجامع الصغير باب الهمزة

مما ينبّه على حقيّة ما ذكرناه من عجائب تردّد القلب بين عالم الشهادة و عالم الملكوت.

و أمّا السبب في انكشاف الأمور في المنام بالمثال المحوج إلى التعبير و كذلك تمثّل الملائكة بصور مختلفة للأنبياء و الأولياء فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذلك إلّا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ما ذكرناه فانّه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها.

☼(بيان تسلّط الشيطان على القلب بالوسواس)☼

☼(ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها)☼

اعلم أنّ القلب مثاله مثال قبّة لها أبواب تنصبّ إليها الأحوال من كلّ باب و مثاله أيضاً مثال هدف تنصبّ إليه السهام من الجوانب، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فيتراءى فيها صورة بعد صورة ولايخلو عنها، أو مثال حوض ينصبّ إليه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه و إنّما مداخل هذه الآثار المتجدّدة في القلب في كلّ حال إمّا من الظاهر فالحواسّ الخمس، وإمّا من الباطن فالخيال و الشهوة و الغضب و الأخلاق المركّبة في مزاج الانسان، فانّه إذا أدرك بالحواسّ شيئاً حصل منه آثر في القلب و كذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل أوبقوّة في المزاج حصل منها في القلب أثروإن كفّ عن الإحساس والخيالات الحاصلة في النّفس تبقى، و ينتقل الخيال من شيء إلى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال، والمقصود أنّ القلب في التغيّر و التأثّر دائماً من هذه الأسباب، وأخصّ الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر، وأعني بالخواطر ما يعرض فيه من الأفكار و الأذكار، و أعني به إدراكاته علوماً إمّا على سبيل التجدّد و إمّا على سبيل التذكّر فانّها تسمّى خواطر من حيث أنّها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها، والخواطر هي المحرّكات للإرادات فانّ النيّة والعزم والإرادة إنّما يكون بعد خطور المنويّ بالبال لامحالة، فمبدأ الأفعال الخواطر، ثمّ الخاطر

يحرّك الرّغبة والرّغبة تحرّك العزم، والعزم يحرّك النيّة، والنيّة تحرّك الأعضاء.

و الخواطر المحرّكة للرّغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشرّ أعني ما يضرّ في العاقبة، و إلى ما يدعو إلى الخير أعني ما ينفع في الآخرة فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمّى إلهاماً، والخاطر المذموم أعني الدّاعي إلى الشرّ يسمّى وسواساً، ثمّ إنّك تعلم أنّ هذه الخواطر حادثة، و كلّ حادث لابدّ له من سبب، ومهما اختلفت الحوادث دلّ على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنّة الله عزّ وجلّ في ترتيب المسبّبات على الأسباب، فمهما استنار حيطان البيت بنور النّار و أظلم سقفه و اسودّ بالدّخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة، فكذلك لأنوار القلب و ظلماته سببان مختلفان: فسبب الخاطر الدّاعي إلى الخير يسمّى ملكاً و سبب الخاطر الدّاعي إلى الشرّ يسمّى شيطاناً، و اللّطف الّذي به يتهيّأ القلب لقبول إلهام الملك يسمّى توفيقاً، و الّذي به يتهيّأ لقبول وسواس الشيطان يسمّى إغواءً وخذلاناً، فإنّ المعاني المختلفة يفتقر إلى أسامي مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى، شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم و كشف الحقّ و الوعد بالخير والأمر بالمعروف، وقد خلقه الله و سخّره لذلك، و الشيطان عبارة عن خلق شأنه ضدّ ذلك و هو الوعد بالشرّ و الأمر بالفحشاء و التخويف عند الهمّ بالخير بالفقر. فالوسوسة في مقابلة الإلهام و الشيطان في مقابلة الملك و التوفيق في مقابلة الخذلان و إليه الإشارة بقوله تعالى: «و من كلّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون»[1] فإنّ الموجودات كلّها متقابلة مزدوجة إلّا الله تعالى فإنّه لا مقابل له، بل هو الواحد الحقّ الخالق للأزواج كلّها.

فالقلب متجاذب بين الشيطان و الملك فقد قال ﷺ: «في القلب لمّتان لمّة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحقّ، فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله فليحمد الله، ولمّة من العدوّ إيعاد بالشرّ وتكذيب بالحقّ ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك

(١) الذاريات: ٤٩.

فليتعوذ بالله من الشيطان ثم تلا « الشيطان يعد كم الفقر - الآية »(١) وقال بعض السلف : إنما هما همان يجولان في القلب هم من الله و هم من العدو فرحم الله عبداً وقف عند همه فما كان من الله أمضاه وما كان للعدو جاهده ، ولتجاذب القلب بين هاتين اللمتين قال رسول الله ﷺ : «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن »(٢) والله سبحانه و تعالى منزه أن يكون له أصبع مركبة من لحم و دم وعظم تنقسم بالأنامل ، ولكن روح الأصبع سرعة التقليب و القدرة على التحريك والتغيير ، فإنك لا تريد أصبعك لشخصها بل لفعلها في التقليب و الترديد ، و كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك فالله تعالى إنما يفعل مايفعله باستسخار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته في تقليب القلوب كما أن أصابعك مسخرة لك في تقليب الأجسام مثلاً ، والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملائكة ولقبول آثار الشياطين صلاحاً متساوياً ليس يترجح أحدهما على الآخر و إنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها و مخالفتها فإن اتبع الإنسان مقتضى الشهوة و الغضب ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى ، وصار القلب عش الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه و تشبه بأخلاق الملائكة صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ، ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة و لذلك قال رسول الله ﷺ : «ما منكم من أحد إلا وله شيطان ، قالوا : و أنت يا رسول الله ؟ قال : و أنا إلا أن الله عز وجل أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير »(٣) و إنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صار لا ينبسط إلا حيث

---

(١) البقرة : ٢٦٨ ، والخبر رواه الترمذى فى السنن ج ١١ ص ١٠٩ و قال : هذا حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه الحاكم كما تقدم آنفا .

(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٣٩ من حديث ابن مسعود .

ينبغي و إلى الحدّ الّذي ينبغي فشهوته لا تدعوه إلى الشرّ، فالشيطان المتدرّع بها لا يأمر إلّا بالخير.

و مهما غلب على القلب ذكر الدّنيا و مقتضيات الهوى و جد الشيطان مجالاً فوسوس، و مهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك و الهمّ، فالتطارد بين جندي الملائكة و الشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيسكن ويستوطن و يكون اجتياز الثاني اختلاساً، و أكثر القلوب قد فتحها جنود الشيطان و ملكوها فامتلأت بالوساوس الدّاعية إلى إيثار العاجلة وإطراح الآخرة، ومبدء استيلائها اتّباع الهوى. ولايمكن فتحها بعد ذلك إلّا بتخلية القلب عن قوت الشيطان و هو الهوى و الشهوات وعمارته بذكر الله تعالى إذ هو مطرح أثر الملائكة، قال جرير بن عبيدة العدويّ: شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال: إنّما مثل ذلك مثل البيت الّذي يمر به اللّصوص فإن كان فيه شيء عالجوه و إلّا مضوا و تركوه. يعني أنّ القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان، و لذلك قال الله تعالى: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان» [1] و كل من اتّبع الهوى فهو عبد الهوى لاعبد الله فلذلك تسلّط عليه الشيطان، وقال الله تعالى: «أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه» [2] هو إشارة إلى أنّ الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لاعبدالله.

و قال عثمان بن أبي العاص: «يا رسول الله حال الشيطان بيني و بين صلاتي وقراءتي، فقال: ذلك شيطان يقال له خنزب، إذا أحسست به فتعوّذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً، قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عنّي» [3] و في الخبر «أنّ للوضوء شيطاناً يقال له: ولهان فاستعيذوا بالله منه» [4] و لا يمحو وسوسة الشيطان عن القلب

---

(١) الاسراء: ٦٥. (٢) الجاثية: ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٢١. وقال النووي قوله «حال بيني وبين صلاتي» اى نكدني فيها ومنعني لذتها والفراغ للخشوع فيها.

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢١ و في هامشه قوله ﷺ «و لهان» مصدر «وله» اذا تحير الشيطان لالقاء الناس في التحير سمى بهذا الاسم.

إلّا ذكر شي، سوى ما يوسوس به لأنّه إذا حضر في القلب ذكر شي، انعدم عنه ما كان فيه من قبل ولكن كلّ شي، سوى ذكر الله و سوى ما يتعلّق به فيجوز أن يكون أيضاً مجالاً للشيطان ، فذكر الله سبحانه هو الّذي يؤمن جانبه ويعلم أنّه ليس للشيطان فيه مجال ولا يعالج الشي، إلّا بضدّه و ضدّ جميع وساوس الشيطان ذكر الله تعالى والاستعاذة به و التبرّي عن الحول والقوّة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم ، و ذلك لا يقدر عليه إلّا المتّقون الّذين الغالب عليهم ذكر الله و إنّما الشيطان يطوف بقلوبهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة ، قال الله تعالى : « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون» [1] و قال مجاهد في قوله تعالى : « من شرّ الوسواس الخنّاس » قال : هو منبسط على قلب الإنسان فإذا ذكر الله سبحانه خنس وانقبض و إذا غفل انبسط على قلبه ، فالتطارد بين ذكر الله و وسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظّلام و بين اللّيل و النّهار و لتطاردهما قال الله سبحانه : « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله » [2].

و في الحديث « إنّ الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإن نسي الله التقم قلبه » [3].

و قال ابن وضّاح في حديث ذكره : « إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه ، وقال : بأبي وجه لا يفلح » [4].

فصل

و كما أنّ الشهوات ممتزجة بلحم الآدمي و دمه فسلطنة الشيطان أيضاً سارية

---

(١) الاعراف : ٢٠١. (٢) المجادلة : ١٩ .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان وابو يعلى و البيهقي في الشعب من من حديث انس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٤) قال العراقي لم أجده أصلا .

في لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ، ولذلك قال النبي ﷺ : « إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدّم فضيّقوا مجاريه بالجوع » [١] و ذلك لأنّ الجوع يكسر الشّهوة و مجرى الشّيطان الشهوات و لأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخباراً عن إبليس : « لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم و عن شمائلهم » [٢] وقال رسول الله ﷺ: « إنّ الشيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الإسلام فقال له : أتسلم وتترك دينك و دين آبائك ؟ فعصاه فأسلم ، ثمّ قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك ونساءك ؟ فعصاه فهاجر ، ثمّ قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد و هو تلف النّفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك ؟ فعصاه فجاهد ، قال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنّة » [٣] .

فقد ذكر رسول الله ﷺ معنى الوسوسة و هي هذه الخواطر الّتي تخطر للمجاهد أنّه يقتل وتنكح نساؤه وغير ذلك ممّا يصرفه عن الجهاد و هذه الخواطر معلومة ، فإذاً الوسواس معلوم بالمشاهدة و كلّ خاطر فله سبب ويفتقر إلى إسم يعرفه ، فاسم سببه الشيطان ولا يتصوّر أن ينفكّ عنه آدميّ وإنّما يختلفون بعصيانه و متابعته ولذلك قال ﷺ : « ما من أحد إلّا و له شيطان » [٤] و قد اتّضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة و الإلهام والملك و الشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر من ينظر في ذات الشيطان و أنّه جسم لطيف أوليس بجسم و إن كان جسماً فكيف يدخل في بدن الإنسان ماهو جسم ؟ فهذا الآن غير محتاج إليه في علم المعاملة بل مثال الباحث عن هذا كمثال من دخل في ثوبه حيّة و هو محتاج إلى دفع

(١) أخرجه الدارمي ج ٢ ص ٣٢٠ واحمد في المسند ج ٣ ص ١٥٦ و٢٨٥ و٣٠٩ دون قوله « فضيقوا مجاريه بالجوع » .
(٢) الاعراف : ١٦ .
(٣) أخرجه النسائي ج ٦ ص٢٢ واحمد والطبراني وابن حبان والبيهقي في الشعب عن سبرة بن أبي فاكه كما في الدر المنثور ج ٣ ص ٧٣.
(٤) تقدم آنفاً .

ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها و شكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فمصادمة الخواطر الباعثة على الشرّ قد علمت و دلّ ذلك على أنّه عن سبب لامحالة ، وعلم أنّ الدّاعي إلى الشرّ المحذور في المستقبل عدوّ فقد عرف العدوّ فينبغي أن يشتغل بمجاهدته .

و قد عرّف الله تعالى عداوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى : « إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّاً إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير »(١) وقال تعالى : « ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين »(٢) فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدوّ عن نفسه لابالسّؤال عن أصله ونسبه و مسكنه ، نعم ينبغي أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه ، وسلاح الشيطان الهوى و الشهوات و ذلك كاف للعاملين ، فأمّا معرفة صفة ذاته و حقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين في علوم المكاشفات ولا يحتاج في المعاملة إلى معرفته ، نعم ينبغي أن يعلم أنّ الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعاً أنّه داع إلى الشرّ فلا يخفى كونه وسوسة و إلى ما يعلم أنّه داع إلى الخير فلا يشكّ في كونه إلهاماً ، وإلى ما يتردّد فيه فلا يدرى أنّه من لمّة الملك أو لمّة الشيطان فإنّ من مكائد الشيطان أن يعرض الشرّ في معرض الخير ، والتمييز في ذلك غامض و أكثر العباد به يهلكون ، فإنّ الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشرّ الصريح فيصوّر الشرّ بصورة الخير كما يقول للعالم بطريق الوعظ : أما تنظر إلى الخلق و هم موتى من الجهل ، هلكى من الغفلة ، قد أشرفوا على النّار أمالك رحمة على عباد الله عزّ وجلّ تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك ، وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة فكيف تكفر نعمته و تتعرّض لسخطه و تسكت عن إشاعة العلم و دعوة خلق الله سبحانه إلى الصراط المستقيم فلايزال يقرّر ذلك في نفسه ويستجرّه بلطائف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس ثمّ يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزيّن لهم ويتصنّع بتحسين اللّفظ و إظهار الخير و يقول له : إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك عن

---

(١) فاطر : ٦ (٢) يس : ٦٠ .

قلوبهم و لم يهتدوا إلى الحق فلا يزال يقرر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق و لذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير و إنما قصده الجاه و القبول فيهلك بسببه و هو يظن أنه عند الله بمكان و هو عند الله ممن قال فيهم رسول الله ﷺ : « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم » (١) « و إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » (٢).

ولذلك روي أن إبليس تمثل لعيسى عليه السلام فقال له قل : لا إله إلا الله فقال : كلمة حق ولكن لا أقولها بقولك ، لأن له تحت الخير أيضاً تلبيسات و تلبيسات الشيطان من هذا الجنس لاتتناهى و بها يهلك العلماء و العباد و الزهاد و الفقراء و الأغنياء و أصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولايرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة .

و سنذكر جملة من مكائد الشيطان في كتاب الغرور من آخر هذا الربع ، و لعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتاباً على الخصوص نسميه « تلبيس إبليس» فإنه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد لاسيما في المذاهب والأعمال حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها كل ذلك إذعان لتلبيسات الشيطان و مكائده ، فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ليعلم أنه لمة الملك أو لمة الشيطان و إن يمعن النظر فيه بنور البصيرة لا بهوى من الطبع ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى وغزارة العلم ، كما قال تعالى: « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا (أي رجعوا إلى نور العلم) فإذا هم مبصرون » أي انكشف لهم الإشكال ، فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان لتلبيسه بمتابعة الهوى ويكثر فيه غلطه ويتعجل فيه هلاكه و هو لا يشعر ، وفي مثلهم قال الله تعالى : « وبدالهم من الله مالم يكونوا

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه والنسائى فى سننه عن أنس ، و احمد والطبرانى فى الكبير عن ابى بكرة كما فى الجامع الصغير .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٢ ص ٣٠٩ . وقد تقدم ورواه البخارى عن ابى هريرة .

يحتسبون» [١] قيل هي أعمال ظنّوها حسنات فإذا هي سيّئات و أغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النّفس و مكائد الشيطان ، و ذلك فرض عين على كلّ عبد و قد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجرّ إليهم الوسواس وتسلّط عليهم الشيطان و تنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه ، ولاينجي من كثرة الوسواس إلّا سدّ أبواب الخواطر ، و أبوابها من خارج الحواسّ الخمس و أبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدّنيا و الخلوة في بيت مظلم تسدّ باب الحواس و التجرّد عن المال و الأهل يقلّل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنه من التخيّلات الجارية في القلب وذلك لا يدفع إلّا بشغل القلب بذكر الله سبحانه ، ثمّ إنّه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلابدّ من مجاهدته وهذه مجاهدة لا آخر لها إلّا الموت إذ لا يتخلّص أحدٌ من الشيطان مادام حيّاً نعم قد يقوي الأسباب بحيث لاينقاد له ويدفع عن نفسه مكره بالجهاد ولكن لا يستغني قطّ عن الجهاد و المدافعة مادام يجري الدّم في بدنه فانّه مادام حيّاً فأبواب الشياطين مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق و هي الشهوة و الغضب و الحسد و الطمع و الشّره و غيرها كما سيأتي شرحها .

ومهماكان الباب مفتوحاً والعدوّ غير غافل لم يدفع إلّا بالحراسة والمجاهدة ، قال رجل لبعض السلف : أينام إبليس ؟ فتبسّم و قال : لو نام لوجدنا عنه راحة . فإذاً لاخلاص للمؤمن عنه نعم له سبيل إلى دفعه و تضعيف قوّته كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّ المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر» [٢] وقال ابن

(١) الزمر : ٤٧ .

(٢) أنضى البعير : هزله . والخبر أخرجه أحمد في المسند وابن ابي الدنيا في مكائد الشيطان عن ابي هريرة كما في الجامع الصغير و ذكره الشريف الرضي في المجازات النبوية ص ٢٦٤ ، و قال هذه استعارة والمراد أن المؤمن يصعب قياده على الشيطان فلا يصغى الى وساوسه ولا يجعل لهو اجسه ، اعتصاماً منه بدينه و استيلاماً عليه في جنة يقينه ، فشيطانه أبداً مكدود معه لطول منازعته القياد ومغالتته الزمام ، فشبهه صلى الله عليه وآله لا تعابه الشيطان في الاحتجار عن اضلاله والامتناع من اتباعه بالمنضى بعيره في السفر اذا طال سفره واستفرغ قوته وحسن عربكته .

مسعود : شيطان المؤمن مهزول . و قال قيس بن الحجّاج : قال لي شيطاني : دخلت فيك و أنا مثل الجزور ، و أنا الآن مثل العصفور ، فقلت : و لم ذاك ؟ قال : تذيبني بكتاب الله ، وأهل التقوى لا يتعذّر عليهم ترصّد أبواب الشيطان و حفظها بالحراسة أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجليّة الّتي تفضي إلى المعاصي الظاهرة ، وإنّما يتعثّرون في طرقه الغامضة فإنّهم لايهتدون إليها ليحرسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعّاظ ، والمشكل أنّ الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة ، وباب الملائكة باب واحد وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذا الكثير فالعبد فيه مثاله مثال المسافر الّذي يبقى[1] في بادية كثيرة الطرق، غامضة المسالك، في ليلة مظلمة، فلا يكاد يفلح إلّا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة ، فالعين البصيرة ههنا هو القلب المصفّى بالتقوى و الشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى و من سنّة رسوله ﷺ فبهما يهتدي إلى غوامض طرقه ، و إلّا فطرقه كثيرة غامضة ، قال عبد الله بن مسعود : « خطّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطّاً فقال : هذا سبيل الله ثمّ خطّ خطوطاً عن يمين الخطّ و عن شماله ، فقال : هذه سبل الشيطان على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثمّ تلا هذه الآية « و إنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه و لا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله »[2] يعني تلك الخطوط ، فبيّن ﷺ كثرة طرقه .

وقد ذكرنا مثالاً للطريق الغامض من طرقه وهو الّذي يخدع به العلماء والعبّاد المالكين لشهواتهم الكافّين عن المعاصي الظاهرة فلنذكر مثالاً لطريقه الواضح الّذي لا يخفى إلّا أن يضطرّ الآدمي إلى سلوكه ، و ذلك كما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : «كان راهبٌ في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها و ألقى في قلوب أهلها أنّ دواءها عند الرّاهب فأتي بها الرّاهب ، فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتّى

---

(١) في بعض النسخ [يسمى] .

(٢) الاية في سورة الانعام : ١٥٣ ، والخبر رواه احمد ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، والبزار ، وابن المنذر ، وابن ابي حاتم ، وابو الشيخ ، وابن مردويه ، والحاكم و صححه عن ابن مسعود كما في الدر المنثور ج ٣ ص ٥٥ و ٥٦

قبلها ، فكانت عنده ليعالجها فأتاه الشيطان فوسوس إليه وزيّن له مقاربتها فلم يزل به حتّى واقعها فحبلت منه فوسوس إليه فقال : الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن أتاك أهلها فقل ماتت ، فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنّه أحبلها ثمّ قتلها ودفنها ، فأتاه أهلها فسألوه عنها ، فقال : ماتت فألقى إليهم الشيطان أنّها مدفونة عنده ، ففتّشوا فوجدوها مقتولة فأخذوه فأتاه الشيطان فقال : أنا الّذي أخذتها و أنا الّذي ألقيت في قلوب أهلها فأطعني تنج و اُخلّصك منهم ، فقال : بماذا ؟ قال : اسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فقال له الشيطان : إنّي بريء منك ، وهو الّذي قال الله تعالى فيه : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال إنّي بريء منك » (١).

فانظر الآن إلى حيلته و اضطراره الرّاهب إلى هذه الكبائر و كلّ ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة و هو أمر هيّن وربّما يظنّ صاحبه أنّه خير و حسنة فيحسن ذلك في قلبه بخفيّ الهوى فيقدّم عليه كالرّاغب في الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره و يجرّه البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصاً ، فنعوذ بالله من تضييع أوائل الاُمور و إليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من حام حول الحمى يوشك إن يقع فيه » (٢).

(بيان تفصيل مداخل الشيطان الى القلب)

اعلم أنّ القلب مثاله مثال حصن والشيطان عدوّ يريد أن يدخل الحصن ويملكه و يستولي عليه ولا يقدر على حفظ الحصن عن العدوّ إلّا بحراسة أبواب الحصن و مداخله و مواضع ثلمه ولا يقدر على حراسة أبواب الحصن عن العدوّ من لا يعرف

(١) الاية في سورة الحشر: ١٦ ، والخبر رواه ابن ابي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس كما في الدر المنثور ج ٦ ص ١٩٩.

(٢) رواه البخاري بلفظ « من برتع حول الحمى يوشك ان يوقعه » عن النعمان ابن بشير ونقله الشريف الرضي في المجازات النبوية ص ٨١ مع بيانه هكذا « فمن ارتع حول الحمى كان قمناً ان يرتع فيه ».

أبوابه ، وحماية القلب عن فساد الشيطان واجبة و هي فرض عين على كلّ عبد مكلّف وما لا يتوصّل إلى الواجب إلّا به فهو أيضاً واجبٌ ولا يتوصّل إلى دفع الشيطان إلّا بمعرفة مداخله ، فصارت معرفة مداخل الشيطان واجبة ، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة ولكنّا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدُّروب الّتي لاتضيق عن كثرة جنود الشيطان .

فمن أبوابه العظيمة الحرص و الحسد ، فمهما كان العبد حريصاً على شيء أعماه حرصه وأصمّه إذ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « حبّك الشيء يعمي ويصمّ » (١) ونور البصيرة هو الّذي يعرف مداخل الشيطان ، فإذا غطّاه الحرص أو الحسد لم يبصر فوجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كلُّ ما توصله إلى شهوته و إن كان منكراً و فاحشاً ، فقد روي أن نوحاً عليه السلام لما ركب البحر وحمل في السفينة من كلّ زوجين اثنين كما أمر فرأى في السفينة شيخاً لم يعرفه فقال له نوح عليه السلام : ما أدخلك ؟ قال : دخلت لأُصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي و أبدانهم معك ، قال نوح عليه السلام : اُخرج منها يا عدوّ الله فإنّك رجيمٌ ، قال له إبليس : خمس اُهلك بهنّ النّاس و ساُحدّثك منهنّ بثلاث و لا اُحدّثك بالثنتين فأوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام أنّه لا حاجة بك إلى الثلاث مره فليحدّثك بالثنتين فقال : ما الثنتان ؟ فقال : هما اللّتان لا تكذبانني ، هما اللّتان لا تخلفانني بهما أهلك النّاس الحرص و الحسد بالحسد لُعنت وجُعلت شيطاناً رجيماً و أمّا الحرص فإنّه اُبيح لآدم الجنّة كلّها فأصبت حاجتي منه بالحرص » (٢) .

ومن أبوابه العظيمة الغضب و الشهوة ، فإنّ الغضب غول العقل فإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ، ومهما غضب الانسان لعب به الشيطان كما يلعب الصبي بالكرة ، فقد روي أنّ إبليس لقي موسى عليه السلام فقال : يا موسى أنت الّذي اصطفاك

---

(١) أخرجه أبوداود في السنن ج ٢ ص ٦٢٧ .

(٢) أخرجه ابن ابي الدنيا في مكائد الشيطان . وابن عساكر عن ابن عمر كما في الدر المنثور ج ٣ ص ٣٢٣ .

الله برسالته و كلّمك تكليماً ، و أنا من خلق الله أذنبت ذنباً و أُريد التوبة فاشفع لي إلى ربّي أن يتوب عليّ ، قال موسى : نعم فدعا موسى عليه السلام ربّه عزّ وجلّ ، فقال : يا موسى قد قُضيت حاجتك فمره أن يسجد لقبر آدم ، فلقى موسى عليه السلام إبليس فقال له : اُمرت أن تسجد لقبر آدم ليتاب عليك ، فاستكبر و غضب ، و قال : لم أسجد له حيّاً فكيف أسجد له ميّتاً ، ثمّ قال إبليس : يا موسى إنّ لك عليّ حقّاً بما شفعت لي إلى ربّك فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهنّ اذكرني حين تغضب فإنّ روحي في قلبك وعيني في عينك ، و أجري منك مجرى الدّم ، و اذكرني حين تلقى الزحف فإنّي آتي ولد آدم حين يلقى الزحف فأذكره ولده و زوجته و أهله حتّى يولّي ، وإيّاك أن تجالس امرأة ليست لك بذات محرم فإنّي رسولها إليك ورسولك إليها»[1] فقد أشار في هذا إلى الشهوة والغضب والحرص فإنّ الفرار من الزحف حرص على الدّنيا ، و امتناعه عن سجوده لآدم منشاؤه الحسد وهو من أعظم مداخله . و قال بعض الأنبياء عليهم السلام لإبليس : بأيّ شيء تغلب ابن آدم ؟ قال : آخذه عند الغضب و عند الهوى .

و ظهر إبليس لراهب فقال له : أيّ أخلاق بني آدم أعون لك ؟ قال : الحدّة إنّ العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة . و قيل : إنّ الشيطان يقول : كيف يغلبني ابن آدم ؟ وإذا رضي جئت حتّى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتّى أكون في رأسه .

ومن أبوابه العظيمة حبّ التزيّن بالثياب و الأثاث و الدّار فإنّ الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب إنسان باض فيه و فرخ فلا يزال الشيطان يدعوه إلى عمارة الدّار و تزيين سقوفها وحيطانها و توسيع أبنيتها و يدعوه إلى التزيّن بالثياب والدّوابّ و يستسخره فيها طول عمره و إذا أوقعه في ذلك فقد استغنى عن معاودته فإنّ بعض ذلك يجرّه إلى البعض ولا يزال يؤدّيه شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان عن ابن عمر كما في الدر المنثور ج ١ ص ٥١ ، والمجلد الرابع عشر من بحار الانوار ص ٦٣٤ .

أجله فيموت و هو في سبيل الشيطان و اتّباع الهوى ومن ذلك يخشى سوء الخاتمة بالكفر نعوذ بالله منه .

ومن أبوابه العظيمة الشبع من الطعام و إن كان حلالاً صافياً فإنّ الشبع يقوّي الشّهوات والشّهوات أسلحة الشيطان ، روي أنّ إبليس ظهر ليحيى عليه السلام فرأى عليه مغاليق من كلّ شيء فقال له يحيى عليه السلام : يا إبليس ما هذه المغاليق ؟ قال : هذه الشّهوات الّتي اُصبت بها بني آدم ، قال : فهل لي فيها شيء ؟ قال : ربّما شبعت فثقّلناك عن الصلاة وعن الذّكر ، قال : هل غير ذلك قال : لا قال يحيى الله عليّ أن لا املأ بطني من طعام أبداً ، فقال إبليس : ولله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً [١] .

ومن أبوابه العظيمة الطمع في الناس فإذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحسن التصنّع والتزيّن لمن طمع فيه بأنواع الرّياء والتلبيس حتّى يصير المطموع فيه كأنّه معبوده فلا يزال يتفكّر في حيلة التودّد و التحبّب إليه و يدخل كلّ مدخل في الوصول إلى ذلك وأقلّ أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة معه بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

و قد روى صفوان بن سليم : أنّ إبليس تمثّل لعبد الله بن حنظلة و قال : يا ابن حنظلة احفظ عنّي شيئاً اُعلّمكه ، قال : لا حاجة لي به : قال : انظر فإن كان خيراً قبلت ، و إن كان شرّاً رددت ، يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله شيئاً سؤال رغبة ، وانظر كيف تكون إذا غضبت .

ومن أبوابه العظيمة العجلة و ترك التثبّت في الاُمور ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : «العجلة من الشيطان و التأنّي من الله عزّ و جلّ» [٢] وقال تعالى : «خلق الإنسان من عجل» [٣] و قال : «وكان الإنسان عجولاً» [٤] وقال لنبيّه صلّى الله عليه وآله : «ولا تعجل

---

(١) رواه ابن الشيخ في مجالسه بنحو أبسط راجع بحار الانوار ج ١٤ ص ٦٢٠ .

(٢) أخرجه الترمذي كما في كنوز الحقائق للمناوي باب العين هكذا « العجلة من الشيطان والاناءة من الله » .

(٣) الانبياء : ٣٧ . (٤) الاسراء : ١١ .

بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » (١) و هذا لأنّ الأعمال ينبغي أن تكون بعد البصيرة و المعرفة ، والبصيرة تحتاج إلى تأمّل ومهلة ، و العجلة تمنع من ذلك ، فعند الاستعجال يروّج الشيطان شرّه من حيث لا يدرى ، روي أنّه لمّا ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالت : أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها ، قال : هذا حادثٌ قد حدث مكانكم ، فطار حتّى جال خافقي الأرض ولم يجد شيئاً ، ثمّ وجد عيسى عليه السلام قد ولد ، و إذا الملائكة قد حفّت حوله فرجع إليهم فقال : إنّ نبيّاً قد ولد البارحة ما حملت اُنثى قطُّ ولا وضعت إلّا وأنا بحضرتها إلّا هذا فآيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه اللّيلة ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفّة .

ومن أبوابه العظيمة الدّراهم و الدّنانير و سائر أصناف الأموال من العروض و الأثاث والدّوابّ والعقار ، و كلّ ما يزيد على قدر القوت و الحاجة فهو مستقرّ الشيطان فإنّ من معه قوته فهو فارغ القلب فلو وجد مائة دينار مثلاً على طريق انبعثت من قلبه مائة شهوة يحتاج كلّ شهوة منها إلى مائة دينار ؟ فلا يكفيه مائة واحدة بل يحتاج إلى تسعمائة اُخرى ، و قد كان قبل وجود المائة مستغنياً فالآن وجد مائة و ظنّ أنّه صار غنيّاً به ، و قد صار محتاجاً إلى تسعمائه ليشتري بها داراً ويعمرها و يشتري جارية ويشتري أثاث البيت و يشتري الثياب الفاخرة ، و كلّ شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به و ذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنّم ولا آخر لها سواه .

قال ثابت : لمّا بعث النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال إبليس لشياطينه : لقد حدث أمر فانظروا ماهو ؟ فانطلقوا ، ثمّ جاؤوا وقالوا : ماندري ، قال إبليس : أنا آتيكم بالخبر فذهب وجاء ، وقال : قد بُعث محمّد - صلّى الله عليه وآله وسلّم - فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فينصرفون خائبين و يقولون : ماصحبنا قوماً قطُّ مثل هؤلاء نصيب منهم ، ثمّ يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك قال إبليس : رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدّنيا

---

(١) طه : ١١٤

فهناك تصيبون حاجتكم منهم (١).

و روي أنّ عيسى عليه السلام توسّد حجراً فمرّ به إبليس فقال : يا عيسى رغبت في الدّنيا فأخذه من تحت رأسه و رمى به ، وقال : هذا لك مع الدّنيا و على الحقيقة من يملك حجراً ليتوسّده عند النوم فقد ملك من الدّنيا ما يمكن أن يكون عدّة للشيطان عليه فإنّ القائم باللّيل مثلاً للصّلاة مهما كان بالقرب منه حجر يمكن أن يتوسّده فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسّده ولولم يكن ذلك لكان لايخطرله ذلك ولا تتحرّك رغبته للنوم ، هذا في حجر فكيف من يملك المخادّ الوثيرة والفرش الوطئة و المتنزّهات الطيّبة ، فمتى ينشط لعبادة الله تعالى .

ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر فإنّ ذلك هو الّذي يمنع من الإنفاق و التصدّق و يدعوا إلى الادّخار والكنز و العذاب الأليم هو الموعد للكانزين كما نطق به القرآن ، قال خيثمة بن عبد الرّحمن : إنّ الشيطان يقول : ما غلبني عليه ابن آدم فلن يغلبني على ثلاث أن آمره بأخذ المال من غير حقّه ، و إنفاقه في غير حقّه ، ومنعه من حقّه . وقيل : ليس للشيطان سلاح على الإنسان مثل خوف الفقر فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ، و منع من الحقّ ، وتكلّم بالهوى ، وظنّ بربّه ظنّ السّوء .

و من آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق بجمع المال ، و الأسواق هي معشّش الشيطان ، روى أبو أمامة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « إنّ إبليس لمّا اُنزل إلى الأرض قال : يا ربّ أنزلتني إلى الأرض و جعلتني رجيماً فاجعل لي بيتاً ، قال : الحمّام ، قال : فاجعل لي مجلساً ، قال : الأسواق و مجامع الطرق ، قال : فاجعل لي طعاماً ، قال : مالم يذكر اسم الله عليه ، قال : اجعل لي شراباً ، قال : كلّ مسكر ، قال : اجعل لي مؤذّناً ، قال : المزامير ، قال : اجعل لي قرآناً ، قال : الشعر ، قال : اجعل لي كتاباً ، قال : الوشم ، قال : اجعل لي حديثاً ، قال :

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى مكائد الشيطان مرسلا كما فى المغنى .

الكذب ، قال : اجعل لي مصائد ، قال النساء » [١]

ومن أبوابه العظيمة التعصّب للمذاهب و الأهواء و الحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء و الاستحقار ، وذلك ممّا يهلك الفسّاق والعبّاد جميعاً ، فإنّ الطعن في النّاس والاشتغال بذكر نقصانهم صفة مجبولة في طبع الإنسان من الصفات السبعيّة ، فإذا خيل الشيطان إليه أنّ ذلك هو الحقّ وكان موافقاً لطبعه غلبت حلاوته على قلبه ، فاشتغل به بكلّ همّته و هو بذلك فرحان مسرور يظنّ أنّه يسعى في الدّين و هو ساع في اتّباع الشيطان [٢].

ترى الواحد منهم يتعصّب لعليّ عليه السلام وكان من زهد عليّ عليه السلام و سيرته أنّه لبس في خلافته ثوباً اشتراه بثلاثة دراهم و قطع رأس الكمّين إلى الرسغ ، وترى الفاسق لابساً الثياب الحرير و متجمّلاً بأموال اكتسبها من الحرام و هو يتعاطى حبّ عليّ عليه السلام و يدّعيه و هو أوّل خصمائه يوم القيامة و ليت شعري من أخذ ولداً عزيزاً لإنسان و هو قرّة عينه و حياة قلبه فأخذ يضربه ويمزّقه وينتف شعره و يقطعه بالمقراض و هو مع ذلك يدّعي حبّ أبيه و ولاءه فكيف يكون حاله عنده و معلوم أنّ الدّين و الشرع كانا أحبّ إلى عليّ عليه السلام من الأهل والولد ، بل من نفسه عليه السلام ، و المقتحمون لمعاصي الشرع هم الّذين يمزّقون الشرع و يقطعونه بمقاريض الشهوات ويتودّدون به إلى إبليس عدوّ الله وعدوّ أوليائه ، فيرى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند عليّ عليه السلام و عند أولياء الله تعالى ، لا بل لو كشف الغطاء و عرف هؤلاء ما يحبّه أولياء الله في أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله لاستحيوا أن يجروا على اللّسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ، ثمّ الشيطان يخيل إليهم أنّ من مات محبّاً لعليّ عليه السلام فالنّار لا تحوم حوله ، و كلّ من ادّعى مذهب إمام و هو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه إذ يقول له : كان مذهبي العمل دون الحديث باللّسان وكان الحديث

(١) قال العراقي : أخرجه الطبراني في الكبير واسناده ضعيف جداً ، ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٢) في بعض النسخ [في اتباع الهوى والشياطين]

باللّسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان فمالك خالفتني في العمل بالسيرة الّتي هي مسلكي ومذهبي الّذي سلكته و ذهبت فيه إلى الله، ثمّ ادّعيت مذهبي كاذباً.

أقول: و ممّا ورد في ذلك من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي: ياجابر أيكتفي من انتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت، فو الله ما شيعتنا إلّا من اتّقى الله و أطاعه و ما كانوا يعرفون يا جابر إلّا بالتواضع والتخشّع والأمانة و كثرة ذكر الله و الصوم و الصلاة و البرّ بالوالدين و التعهّد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة و الغارمين و الأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن و كفّ الألسن عن الناس إلّا من خير وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء. قال جابر: يا ابن رسول الله ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصّفة، فقال: يا جابر لاتذهبنّ بك المذاهب حسب الرجل أن يقول: أحبّ عليّاً و أتولّاه ثمّ لا يكون مع ذلك فعّالاً، فلو قال: إنّي أحبّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فرسول الله خير من عليّ ثمّ لا يتّبع سيرته ولا يعمل بسنّته ما نفعه حبّه إيّاه شيئاً، فاتّقوا الله و اعملوا لما عندالله. ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى الله وأكرمهم عليه تعالى أتقاهم وأعملهم بطاعته، ياجابر: والله مايتقرّب إلى الله تعالى إلّا بالطاعة، وما معنا براءة من النّار، و لا على الله لأحد من حجّة، من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ، و ما تنال ولايتنا إلّا بالعمل والورع» (١).

و قد ذكرنا هذا الحديث في كتاب العلم من ربع العبادات و في كتاب أخلاق

---

(١) المصدر ج٢ ص ٧٤ . و قوله «و ما معنا براءة من النار» : اى ليس معنا صك وحكم ببراءتنا وبراءة شيعتنا من النار و ان عملوا بعمل الفجار . « ولا على الله لاحد من حجة » اى ليس لاحد على الله حجة اذا لم يغفر له بان يقول كنت من شيعة على فلم لم تغفر لى ، لان الله تعالى لم يحتم بغفران من ادعى التشيع بلاعمل او المعنى ليس لنا على الله حجة فى انقاذ من ادعى التشيع من العذاب ويؤيده ان فى المجالس « ومالنا على الله حجة » . « من كان لله مطيعاً » كانه جواب عمايتوهم فى هذا المقام انهم عليهم السلام حكموا بان شيعتهم و اولياء هم لايدخلون النار فاجاب عليه السلام بان العاصى لله ليس بولى لنا ولا تدرك ولايتنا الا بالعمل بالطاعات والورع عن المعاصى .

الإمامة وآداب الشيعة من ربع العادات أيضاً وإنّما أعدنا ذكره ههنا لشدّة مناسبته لهذا المقام وشدّة احتياج أكثر النّاس إليه.

و بإسناده عن حنان بن سدير قال: «قال أبو الصّباح الكناني لأبي عبد الله عليه السلام ما نلقى من النّاس فيك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: و ما الّذي تلقى من النّاس فيّ؟ فقال: لا يزال يكون بيننا وبين الرّجل الكلام فيقول: جعفريّ خبيث، فقال: يعيّر كم النّاس بي؟ فقال أبو الصباح: نعم، قال: فما أقلّ و الله من يتبع جعفراً منكم إنّ أصحابي من اشتدّ ورعه، و عمل لخالقه، و رجا ثوابه هؤلاء أصحابي»[١].

و بإسناده عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال: «كثيراً ما كنت أسمع أبي يقول: ليس من شيعتنا من لا يتحدّث المخدّرات بورعه في خدورهنّ، وليس من أوليائنا من في قرية فيها عشرة آلاف رجل فيهم خلق الله أورع منه»[٢].

قال أبو حامد: فهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم و قد سلّمت المنابر لأقوام قلّ من الله خوفهم وضعفت في الدّين بصيرتهم و قويت في الدّنيا رغبتهم و اشتدّ على الاستتباع حرصهم، ولم يتمكّنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلّا بالتعصّب، فحسّنوا ذلك في صدورهم ولم ينهوهم على مكيدة الشيطان فيه بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته، فاستمرّ الناس عليه و نسوا مهمّات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا والله تعالى يتوب علينا وعليهم. قال بعض السّلف: بلغنا أن إبليس قال سولت لأمّة محمّد المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار فسوّلت لهم ذنوباً لا يستغفرون الله منها وهي الأهواء. وقد صدق الملعون فإنّهم لا يعلمون أنّ ذلك من الأسباب الّتي تجرّ إلى المعاصي، فكيف يستغفرون منها و من عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب و الخصومات، قال

(١) المصدر ج ٢ ص ٧٧. و في ذكر الرجاء بعد العمل و الورع تنبيه على انهما سبب لرجاء الثواب لا للثواب وعلى انه لا ينبغي لاحد ان يتكل بعمله، غاية ما في الباب له ان يجعله وسيلة للرجاء لان الرجاء بدونهما غرور وحمق. وفيه دلالة على انه كره ماقاله ابو الصباح لما فيه من الخشونة وسوء الادب (قاله المؤلف في وافيه).

(٢) المصدر ج ٢ ص ٧٩.

ابن مسعود : قعد قوم يذكرون الله ، فأتاهم الشيطان ليقيمهم من مجلسهم فيفرّق بينهم فلم يستطع ، فأتى رفقة أُخرى يتحدّثون بحديث الدّنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتلون وليس إيّاهم يريد فقام الّذين يذكرون الله تعالى و اشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرّقوا عن مجلسهم وذلك مراد الشيطان منهم .

ومن أبوابه العظيمة حمل العوام و الّذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحّروا فيه على التفكّر في ذات الله وصفاته و في أُمور لايبلغها حدّ عقولهم حتّى يشكّكهم بذلك في أصل الدّين أو يخيّل إليهم في الله خيالاً يتعالى الله عنه فيصير به كافراً أو مبتدعاً و هو به فرح مسرور متبجّح بما وقع في صدره يظنّ أنّ ذلك هو المعرفة والبصيرة و أنّه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله ، وأشدّ النّاس حماقة أقويهم اعتقاداً في عقل نفسه ، وأثبت النّاس عقلاً أشدّهم إتّهاماً لنفسه وظنّه ، وأحرصهم على السؤال من العلماء ، روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « إنّ الشيطان يأتي أحدكم فيقول : من خلقك ؟ فيقول : الله تبارك وتعالى ، فيقول : فمن خلق الله تعالى ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله تعالى و برسله ، فإنّ ذلك يذهب عنه »[١] فالنبيّ صلّى الله عليه وآله لم يأمر في علاج هذا الوسواس بالبحث فإنّ هذا وسواس يجده عوام النّاس دون العلماء ، و إنّما حقّ العوام أن يؤمنوا و يسلموا و يشتغلوا بعباداتهم و بمعايشهم و يتركوا العلم إلى العلماء ، فالعاميّ لو زنا أو سرق كان خيراً له من أن يتكلّم في العلم فإنّه من تكلّم من غير إتقان العلم في الله و في دينه وقع في الكفر من حيث لا يدري ، كمن يركب لجّة البحر وهو لا يعرف السباحة . ومكائد الشيطان فيما يتعلّق بالعقائد و المذاهب لا حصر لها ، و إنّما قصدنا بما أوردناه المثال .

ومن أبوابه سوء الظنّ بالمسلمين ولذلك قال الله تعالى: «اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم» ومن حكم بشرّ على غيره بالظنّ بعثه الشّيطان على أن يطول فيه اللّسان بالغيبة فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتوانى في إكرامه أو ينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه وكلّ ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشّرع

---

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى مكائد الشيطان بسند حسن كما فى الجامع الصغير .

من التعرّض للتّهم فقال رسول الله ﷺ : «اتّقوا مواضع التّهم »(١) حتّى أنّ رسول الله ﷺ كان معتكفاً فأتيته فتحدّثت عنده فلمّا أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فمرّ به رجلان من الأنصار فسلّماثمّ مضياً فدعاهما فقال : إنّها صفيّة بنت حييّ ، قالا يا رسول الله أفنظنّ بك إلّا خيراً ؟! قال : إنّ الشّيطان ليجري من بني آدم مجرى الدّم و إنّي خشيت أن يدخل عليكما » (٢) فانظر كيف أشفق على دينهما فحرسهما و كيف أشفق على أمّته فعلّمهم طريق الاحتراز من التّهمة حتّى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدّين في أحواله فيقول : مثلي لايظنّ به إلّا الخير إعجاباً منه بنفسه فإنّ أورع الناس و أتقاهم و أعلمهم لاينظر النّاس كلّهم إليه بعين واحدة بل بعين الرّضا بعضهم و بعين السخط بعضهم .

و عين الرّضا عن كلّ عيب كليلةٌ ✿ ولكنّ عين السّخط تُبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن السّوء وعن تهمة الأشرار فإنّ الأشرار لايظنّون بالناس كلّهم إلّا الشرّ فمهما رأيت إنساناً يسيىء الظنّ بالناس طالباً للعيوب فاعلم أنّه خبيث في الباطن وأنّ ذلك خبثه يترشّح منه ، وإنّمايرى غيره من حيث هو ، فإنّ المؤمن يطلب المعاذير ، و المنافق يطلب العيوب ، والمؤمن سليم القلب في حقّ كافّة الخلق فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولوأردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه و في هذا القدر ماينبّه على غيره ، فليس في الآدمي صفة مذمومة إلّا و هي سلاح للشيطان ومدخل من مداخله .

فصل

فإن قلت : فما العلاج في دفع الشيطان و هل يكفي ذكر الله تعالى و قول الإنسان «لاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم » ؟ فاعلم أنّ علاج ذلك سدّ هذه المداخل

(١) ذكره المولى على القارى فى الموضوعات الكبير ص٢٤ ، وقال : هو فى معنى قول عمر « من سلك مسالك التهم اتهم » رواه الخرائطى فى مكارم الاخلاق عن عمر موقوفاً بلفظ « من أقام نفسه مقام التهم فلايلومن من أساء به الظن » .

(٢) اخرجه البخارى ومسلم ج ٧ ص ٨ وقد تقدم .

وتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة ، وذلك يطول ذكره وغرضنا في هذا الرّبع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات ، و يحتاج كلّ صفة إلى كتاب مفرد على ماسيأتي شرحه إن شاء الله ، نعم إذا قلعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأنّ حقيقة الذكر لاتتمكّن من القلب إلّا بعد عمارة القلب بالتقوى و تطهيره من الصفات المذمومة ، وإلّا فيكون الذكر حديث النفس لاسلطان له على القلب فلايدفع سلطان الشيطان ، و لذلك قال الله تعالى : « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشيطان تذكّروا » خصّص ذلك بالمتّقين و مثل الشيطان مثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز فإنّه يزجر عنك بأن تقول له : اخسأ فمجرّد الصوت يدفعه ، وإن كان بين يديك شيءٌ من ذلك وهو جائع فإنّه يهجم ولم يندفع بمجرّد الكلام ، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرّد الذكر ، فأمّا الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذّكر إلى حواشي القلب ، ولم يتمكّن من سويدائه فيستقرُّ الشيطان في سويداء القلب ، و أمّا قلوب المتّقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنّه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوّها بالغفلة عن الذكر ، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان و دليل ذلك قوله تعالى : « فاستعذ بالله [١] » و سائر الأخبار و الآيات الواردة في الذكر ، فمهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرّد الذكر كما يندفع عنهم كان محالاً و كنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشحونة بغليظ الأطعمة ويطمع أن ينفع كما نفع الّذي شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة ، والذكر دواء و التّقوى احتماء يخلي القلب من الشهوات ، فإذا نزل الذكر قلباً فارغاً من غير الذكر اندفع الشيطان عنه كما تندفع العلّة بنزول الدّواء في معدة خالية عن الأطعمة ، قال الله تعالى: « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان قلب »[٢] وقال تعالى : « كتب عليه أنّه من تولّيه فإنّه يضلّه و يهديه إلى عذاب السعير »[٣] .

---

(١) الاعراف : ١٩٩ . (٢) ق : ٣٧ . (٣) الحج : ٤ .

و من ساعد الشيطان بعلمه فقد تولّاه وإن ذكر الله بلسانه ، و إن كنت تقول : الحديث قدورد مطلقاًبانّ الذكر يطرد الشيطان . و لم تفهم أنّ أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط يعرفها علماء الدّين ، فانظر إلى نفسك فليس الخبر كالمعاينة وتأمّل أنّ منتهى ذكرك وعبادتك صلاتك ، فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يتجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين ، و كيف يمرّ بك في أودية الدّنيا و مهالكها حتّى أنّك لاتتذكّر مانسيته من فضول الدّنيا إلّا في صلاتك ولاتزدحم الشياطين على قلبك إلّا إذاصلّيت و الصلاة محك القلوب فيها تظهر مساويها ومحاسنها فالصّلاة لاتقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدّنيا فلاجرم لايطرد عنك الشيطان ، بل ربمايزيد عليك الوسواس كما أنّ الدّواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر ، فإن شئت الخلاص من الشيطان فقدّم الاحتماء بالتقوى ثمّ اردفه بدواء الذكر ، وقدفرّ الشيطان منك ، ولذلك قال وهب بن منبّه : اتّق الله ولاتسبّ الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السرّ ، أي أنت مطيع له ، وقال بعضهم : ياعجبا لمن يعصي الله بعد معرفته بإحسانه ويطيع اللّعين بعد معرفته بطغيانه ، و كما أنّ الله تعالى قال : « ادعوني أستجب لكم[1] » وأنت تدعوه فلايستجيب لك فكذلك تذكر الله ولايهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدّعاء .

قيل لابراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا و قد قال الله تعالى : « ادعوني أستجب لكم » ؟ قال : لأنّ قلوبكم ميتة قيل : وماالّذي أماتها ؟ قال : ثمان خصال : عرفتم حقّ الله فلم تقوموا بحقّه . و قرأتم القرآن فلم تعملوا بحدوده ، و قلتم : نحبّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و تركتم سنّته ، و قلتم : نخشى الموت ولم تستعدّوا له ، وقال الله عزّ وجلّ : «إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّا »[2] فواطأتموه[3] على المعاصي ، وقلتم : نخاف النّار وأرهقتم أبدانكم فيها ، وقلتم : نحبّ الجنّة ولم تعملوا لها ، و إذاقمتم من فرشكم رميتم بعيوبكم و راء ظهوركم و قدّمتم عيوب النّاس أمامكم فأسخطتم ربّكم فكيف يستجيب لكم ؟ .

---

(١) المؤمن : ٦٠ . (٢) فاطر : ٦ . (٣) أى وافقتموه .

فصل

فإن قلت : فالداعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفة ؟ فاعلم أنه لا حاجة بك إلى معرفة ذلك في المعاملة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته كما يقال : كل البقل من حيث تؤتى به ولا تسألن عن المبقلة ، ولكن الذي يتضح بنور الاستبصار و شواهد الأخبار أنهم جنود مجندة و أن لكل نوع من المعاصي شيطاناً يخصه ويدعو إليه ، فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذي ذكرناه ، وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد الدخان .

وأما الأخبار فقد قال مجاهد : لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره ، فذكر أن أسماءهم ثبر والأعور ومبسوط وداسم وزلنبور فأما ثبر فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالثبور و شق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية ، وأما الأعور فإنه صاحب الرياء يأمر به ويزينه ، وأما مبسوط فهو صاحب الكذب ، وأما داسم فيدخل مع الرجل إلى أهله يريه العيب فيهم و يغضبه عليهم ، وأما زلنبور فهو صاحب السوق و بسببه لا يزالون متظلمين ، و شيطان الصلاة يسمى خنزب ، وشيطان الوضوء يسمى الولهان ، وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة ، و كما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة كثرة وقد ذكرنا في كتاب الصبر والشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل ينفرد به ، وقد قال أبو أمامة قال رسول الله ﷺ : «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه ما لم يقدر عليه ، من ذلك للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذبون عن قصعة العسل الذباب في اليوم الصائف ، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كلهم باسط يده فاغر فاه ، وما لو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين (١) » .

وقال أيوب بن يونس : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان ، والطبراني في المعجم الكبير باسناد ضعيف كما في المغني .

ينشئون معهم ، وقال جابر بن عبدالله : إن آدم عليه السلام لما هبط قال : « يارب هذا العبد الّذي جعلت بيني وبينه عداوة إن لا تعينني عليه لاأقوى عليه قال الله تعالى : لا يولد لك ولد إلّا وكّل به ملك ، قال : يا ربّ زدني ، قال الله عزّ وجلّ : أجزي بالسيّئة سيّئة وبالحسنة عشراً إلى ما اُريد ، قال : ربّ زدني ، قال الله عزّ وجلّ : باب التوبة مفتوح مادام في الجسد الرّوح ، قال إبليس: ربّ هذا العبد الّذي كرّمته عليّ إن لاتعينني عليه لاأقوى عليه ، قال الله : لا يولد له ولدٌ إلّا ويولد لك ولد ، قال : ربّ زدني ، قال : تجري منهم مجرى الدّم و تتّخذون صدورهم بيوتاً ، قال : ربّ زدني قال تعالى : « أجلب عليهم بخيلك و رجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم و ما يعدهم الشيطان إلّا غروراً » (١).

وعن أبي الدّرداء قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « خلق الله الجنّ ثلاثة أصناف صنف حيّات و عقارب و خشاش الأرض ، و صنف كالريح في الهواء ، و صنف عليهم الحساب والعقاب ، وخلق الله الانس ثلاثة أصناف صنف كالبهائم قال الله تعالى : « لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها - الآية - »(٢)، وصنف أجسادهم أجساد بني آدم و أرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف في ظلّ الله يوم لا ظلّ إلّا ظلّه » (٣).

و قال وهيب بن الورد : بلغنا أنّ إبليس تمثّل ليحيى بن زكريّا عليهما السلام فقال له : أنصحك ، قال : لااُريد ذلك ولكن أخبرني عن بني آدم ؟ قال : هم عندنا ثلاثة أصناف ، أمّا صنف منهم فهم أشدّ الأصناف علينا نقبل على أحدهم حتّى نفتنه ونتمكّن منه ، ثمّ يفزع إلى الاستغفار و التّوبة ، فيفسد علينا كلّ شيء أدركنا منه ، ثمّ نعود إليه فلا نحن نيأس منه ولانحن ندرك منه حاجتنا ، فنحن منه في عناء ، وأمّا الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم نتلقّفهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم ، و أمّا الصنف الآخر فهم معصومون مثلك لا نقدر منهم على شيء .

(١) الاسراء : ٦٤ والخبر رواه البيهقى فى الشعب كما فى الدرالمنثور ج ٤ ص١٩١.
(٢) الاعراف : ١٧٩ .
(٣) أخرجه الحكيم و ابن أبى الدنيا فى مكائد الشيطان و ابوالشيخ فى العظمة و ابن مردويه فى التفسير بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

﴿ فصل ﴾

فإن قلت كيف يتمثّل الشيطان لبعض الناس دون بعض ؟ و إذا رأى صورته فهي صورته الحقيقيّة أو هومثال له تمثّل به ؟ وإن كان صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة ؟ و كيف يرى في وقت واحد في مكانين ؟ وعلى صورتين حتّى يراه شخصان بصورتين مختلفتين ؟ فاعلم أنّ الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما ولا يدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلّا بأنوار النبوّة كما رأى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جبرئيل عليه السلام في صورته مرّتين (١) وذلك أنّه صلّى الله عليه وآله سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده ذلك بحراء ، فطلع له جبرئيل عليه السلام فسدّ الاُفق من المشرق إلى المغرب ، و رآه مرّة اُخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وإنّما كان يراه في صورة الآدمي غالباً وكان يراه في صورة دحية الكلبي (٢) وكان رجلاً حسن الوجه والأكثر أنّه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته ، فيتمثّل الشيطان له في اليقظة فيراه بعينه و يسمع كلامه باُذنه و يقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصّالحين ، و إنّما المكاشف في اليقظة هو الّذي ينتهي إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواسّ بالدّنيا عن المكاشفة الّتي يكون في النّوم فيرى في اليقظة ما يراه غيره في النّوم ، كما روى أنّ رجلاً سأل ربّه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم فرأى في النّوم جسد رجل شبه البلّور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه و اُذنه ، له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه ، يوسوس إليه فإذا ذكر الله خنس ، و مثل هذا يشاهد بعينه في اليقظة ، وقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جاثم على جيفة

---

(١) أخرجه البخاري ج ٦ ص ١٧٦

(٢) «حديث أنه كان يرى جبرئيل عليه السلام فى صورة دحية الكلبى» أخرجه الشيخان من حديث اسامة بن زيد « أن جبرئيل أتى النبى صلى الله عليه و آله و عنده ام سلمة فجعل يحدث ثم قام فقال النبى صلى الله عليه و آله لام سلمة : من هذا ؟ قالت : دحية » .

يدعو الناس إليها ، وكانت الجيفة مثال الدّنيا ، و هذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقيّة فإنّ القلب لابدّ وأن يظهر فيه حقيقة من الوجه الّذي يقابل عالم الملكوت و عند ذلك يشرق أثره على وجهه الّذي يقابل عالم الملك و الشهادة ، لأنّ أحدهما متّصل بالآخر ، و قد بيّنا أنّ القلب له وجهان وجه إلى عالم الغيب و هو مدخل الإلهام والوحي ووجه إلى عالم الشهادة ، فالّذي يظهر منه في الوجه الّذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلّا صورة متخيّلة لأنّ عالم الشهادة كلّها متخيّلات إلّا أنّ الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحسّ فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى حتّى يرى شخص جميل الصورة و هو خبيث الباطن قبيح السرّ لأنّ عالم الشهادة عالم كثير التلبيس ، أمّا الصورة الّتي تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سرّ القلب فلا يكون إلّا محاكية للصفة و موافقة لها ، لأنّ الصّورة في عالم الملكوت تابعة للصفة فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلّا بصورة قبيحة فيرى الشيطان في صورة كلب و ضفدع و خنزير و غيره ، و يرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصّورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق ، و لذلك يدلّ القرد والخنزير في النّوم على إنسان خبيث ، و يدلّ الشاة على إنسان سليم الجانب و هكذا جميع أبواب الرّؤيا و التعبير ، وهذا له أسرارٌ عجيبة وهي من عجائب علوم القلب ، ولايليق ذكرها بعلم المعاملة وإنّما المقصود أن يصدّق بأنّ الشيطان ينكشف لأرباب القلوب و كذا الملك تارة بطريق التمثّل والمحاكاة كما في النّوم ، وتارة بطريق الحقيقة ، والأكثر هو التمثّل بصورة محاكية للمعنى هي مثال المعنى لا عين المعنى إلّا أنّه يشاهد بالعين مشاهدة محقّقة ، و ينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حواليه كالنائم .

☼(بيان ما يؤاخذ العبد به)☼

☼(من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصدها و ما يعفى عنه ولا يؤاخذ به)☼

اعلم أنّ هذا أمرٌ غامضٌ و قد ورد فيه آيات و أخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلّا على سماسرة العلماء بالشرع فقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

« عفي عن اُمّتي ماحدّثت به نفوسها »[١]

وعنه صلى الله عليه وآله قال : « يقول الله تعالى للحفظة : إذا همّ عبدي بسيّئة فلاتكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيّئة ، و إن همّ بحسنة و لم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشراً » وقد أخرجه مسلم والبخاري في الصحيحين ، وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمّه بالسيّئة .

و في لفظ آخر « من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن همّ بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلي سبعمائة ضعف ، و من همّ بسيّئة ولم يعملها لم يكتب عليه ، وإن عملها كتبت عليه سيّئة »[٢]

و في لفظ آخر « وإذا تحدّث بأن يعمل سيّئة فأنا أغفرها له مالم يعملها »[٣] و كلّ ذلك يدل على العفو .

أقول : ومن طريق الخاصّة مارواه في الكافي باسناده عن أحدهما عليهما السلام قال : « إنّ الله تعالى جعل لآدم في ذرّيّته من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، ومن همّ بحسنة وعملها كتبت له عشراً ، ومن همّ بسيّئة ولم يعملها لم تكتب عليه ، ومن عمل بها كتبت عليه سيّئة »[٤] .

قال أبوحامد : فأمّا مايدلّ على المؤاخذة فقوله سبحانه : « وإن تُبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه يحاسِبْكم به اللهُ فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء »[٥]

وقال تعالى : « ولاتقفُ ما ليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ اُولئك كان عنه مسئولاً »[٦] فدلّ على أنّ عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلايعفى عنه .

---

(١) راجع صحيح مسلم ج ١ ص ٨١ ، و أخرجه الطيالسى فى مسنده ص ٣٢٢ تحت رقم ٢٤٥٩ عن أبى هريرة هكذا « ان الله تجاوز لامتى عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به او تعمل به » .

(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٢٨ و مسلم ج ١ ص ٨٣ من حديث ابن عباس .

(٣) اخرجه مسلم ج ١ ص ٨٢ من حديث ابوهريرة .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٤٢٨ . (٥) البقرة : ٢٨٤ .

(٦) الاسراء : ٣٦ .

وقال تعالى : « ولاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنّه آثمٌ قلبه » (١)

وقالسبحانه : « لايؤاخذ كمالله باللّغو في أيمانكمولكن يؤاخذ كم بما كسبت قلوبكم » (٢) .

فالحقُّ في هذهالمسألة عندناأنّهلايوقف عليه مالم يقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدء ظهورها إلىأن يظهر العمل علىالجوارح . فنقول أوّل مايرد على القلب الخاطر كمالو خطر له مثلاً صورة امرأة وأنّها وراء ظهره في الطريق لوالتفت إليها لرآها ، والثاني هيجان الرَّغبة إلى النظر وهوحركة الشهوة الّتي في الطبع ، وهذا يتولّد منالخاطر الأوّل ونسمّيه ميل الطبع، والأوّل يسمّى حديث النفس ، الثالث حكم القلب بأنّ هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها فإنّ الطبع إذا مال لم تنبعث الهمّة والنيّة مالم يندفع الصوارف فإنّه قديمنعه حياء أوخوف من الالتفات ، و عدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمّل وهوعلى كلّ حال حكم من جهة العقل ويسمّى هذا اعتقاداً ، وهو يتبع الخاطر ، و الميل الرّابع تصميم العزم علىالالتفات وجزم النيّة فيه وهذا نسمّيه همّاً بالفعل و نيّة و قصداً ، وهذه الهمّة قد يكون لها مبدءٌ ضعيف ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأوّل حتّى طالت مجاذبته للنفس تأكّدت هذه الهمّة و صارت إرادة مجزومة ، فإذا انجزمت الارادة فربماينـدم بعد الجزم فيترك الغمل وربما يغفل بعارض فلايعمل بها ، ولايلتفت إليه وربمايعوّقه عائق فيتعذّرعليهالعمل ، فههنا أربعة أحوال للقلب قبلالعمل بالجارحة الخاطر ، وهو حديث النفس ، ثمّالميل ، ثمّالاعتقاد ، ثمّ الهمّ ، فنقول : أمّاالخاطر فلايؤخذ به لأنّه لايدخل تحت الاختيار و كذلك الميل و هيجان الشهوة لأنّهما أيضالايدخلانتحت الاختيار وهماالمرادان بقوله صلى الله عليه وآله : « عفي عنأمّتي ماحدّثت به نفوسها »(٣) فحديث النّفسعبارة عنالخواطرالّتي تهجس في النفس ولايتبعها عزم على الفعل ، فأمّا العزم والهمّ فلا يسمّى حديث النفس ، بل حديث النفس كما

---

(١) البقرة : ٢٨٣ . (٢) البقرة : ٢٢٥ .

(٣) تقدم آنفاً عن الطيالسي ومسلم في صحيحه .

روي عن عثمان بن مظعون حيث قال : « يا رسول الله إنّ نفسي تحدّثني أن اُطلّق خولة ، قال : مهلاً إنّ من سنّتي النكاح ، قال : نفسي تحدّثني أن أجب نفسي ، قال : مهلاً خصاء اُمّتي دؤب الصيام ، قال : نفسي تحدّثني أن أترهّب ، قال : مهلاً رهبانيّة اُمّتي الجهاد و الحجّ ، قال : نفسي تحدّثني أن أترك اللّحم ، قال : مهلاً فإنّي اُحبّه و لوأصبته في كلّ يوم لأكلته ، ولوسألت الله لأطعمنيه »[١].

فهذه الخواطر الّتي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس ، و لذلك شاور فيها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، إذ لم يكن معها عزم و همّ بالفعل ، و أمّا الثالث و هو الاعتقاد و حكم القلب بأنّه ينبغي أن يفعل ، فهذا مردّد بين أن يكون اضطراراً واختياراً ، والأحوال تختلف فيه ، فالاختياريّ منه يؤاخذ به والاضطراريّ لايؤاخذ به ، وأمّا الرابع و هو الهمّ بالفعل فإنّه يؤاخذ به إلّا أنّه إن لم يفعل نظر ، فإن تركه خوفاً من الله تعالى وندم على همّه كتبت له حسنة لأنّ همّه سيّئة وامتناعه و مجاهدته نفسه حسنة ، و الهمّ على وفق الطبع لايدلّ على تمام الغفلة عن الله و الامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوّة عظيمة ، فجدّه في مخالفة الطبع وهو العمل لله سبحانه أشدّ من جدّه في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتبت له حسنة لأنّه رجّح جهده في الامتناع وهمّه به على همّه بالفعل ، وإن تعوّق الفعل لعائق أوتركه لعذر لاخوفاً من الله تعالى كتبت عليه سيّئة ، فإنّ همّه فعل من القلب اختياريّ .

و الدليل على هذا التفصيل ما ورد في الصحيح متّصلاً في لفظ الحديث قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « قالت الملائكة : ربّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيّئة وهو أبصر ، فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها عليه بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنّما تركها من أجلي »[٢] وحيث قال : « لم يعملها » أراد به تركها لله ، فأمّا إذا عزم على فاحشة وتعذّرت عليه بسبب أو بغفلة فكيف يكتب له حسنة ؟ وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

(١) ما عثرت عليه في حديث واحد و انما جاء مضمونه في احاديث عدة .
(٢) أخرجه مسلم ج ١ ص ٨٢ و فيه « انما تركها من جرائي » و المعنى واحد .

« إنّما يحشر النّاس على نيّاتهم »[١] و نحن نعلم أنّ من عزم ليلاً على أن يصبح ويقتل مسلماً أو يزني بامرأة فمات تلك اللّيلة مات مصرّاً ويحشر على نيّته وقدهمّ بسيّئة ولم يعملها .

والدّليل القاطع فيه ماروي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النّار ، قيل : يا رسول الله هذا القاتل فمابال المقتول ؟ قال : لأنّه أراد قتل صاحبه[٢] » .

وهذانصّ في أنّه صارمن أهل النّار بمجرّد الارادة مع أنّه قتل مظلوماً فكيف يظنّ أنّ الله لايؤاخذ بالنيّة والهمّ ، بل كلّ مادخل تحت اختيار العبد فهومأخوذ به إلّا أن يكفره بحسنة ، و نقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتب حسنة ، و أمّا فوات المراد بعائق فليس بحسنة ، وأمّاالخواطر وحديث النفس وهيجان الرّغبة فكلّ ذلك لايؤاخذ به لأنّه لايدخل تحت الاختيار ، والمؤاخذة به تكليف لمالايطاق ، ولذلك لما نزل قوله تعالى : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله »[٣] جاء ناس من الصحابه إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و قالوا : كلّفنا مالانطيق ، إنّ أحدنا ليتحدّث نفسه بمالايحبّ أن يثبت في قلبه ، ثمّ يحاسب بذلك ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لعلّكم تقولون كما قالت بنو إسرائيل : سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا ، فأنزل الله تعالى الفرج بقوله عزّوجلّ : « لايكلّف الله نفساً إلّا وسعها »[٤] .

أقول : ومن طريق الخاصّة ما رواه في الاحتجاج[٥] عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل « أنّ هذه الآية عرضت على الأنبياء والاُمم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها وقبلها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وعرضها على اُمّته فقبلوها ، فلمّارأى الله عزّوجلّ منهم القبول علم أنّهم لايطيقونها .... قال : أما إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم مافيها و قد عرضتها على الاُمم فأبوا أن يقبلوها و قبلها اُمّتك ، فحقّ عليّ أن أرفعها عن

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٣٩ من حديث جابر .
(٢) متفق عليه . و أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٦٤ .
(٣) البقرة : ٢٨٤ .
(٤) الاية في البقرة : ٢٨٦ . و الخبر أخرجه مسلم ج ١ ص ٨٠ . (٥) ص ١١٧

أمّتك ، و قال : « لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها » ـ الآية ـ .

قال أبوحامد : فظهر به أنّ كلّ ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الّذي لا يؤاخذ به فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس ، و كلّ من يظن أنّ كلّ ما يجري على القلب يسمّى حديث النفس ، و من لم يفرّق بين هذه الأقسام الثلاثة فلابدّ وأن يغلط ، و كيف لايؤاخذ بأعمال القلوب والكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد و جملة الخبائث من أعمال القلب بل السمع والبصر والفؤاد و كلّ اُولئك كان عنه مسؤلاً ، أي عمّا يدخل تحت الاختيار فلو وقع البصر بغير اختياره على غير محرم لم يؤاخذ بها فإن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذاً بهالأنّه مختار وكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنّه الأصل قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « التقوى ههنا » ـ و أشار إلى القلب ـ[1] وقال الله عزّ وجلّ : «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم »[2] والتقوى في القلب ، وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الإثم حوازّ القلب »[3] وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « البرّ ما اطمأنّ إليه القلب و إن أفتوك و أفتوك »[4] حتّى أنّا نقول : إذا حكم قلب المفتي بإيجاب شيء و كان مخطئاً صار مثاباً على فعله ، بل من ظنّ أنّه متطهّر فعليه أن يصلّي فإن صلّى ثمّ تذكّر كان له ثواب بفعله فإن ترك ثمّ تذكّر كان معاقباً ، و من وجد على فراشه امرأة فظنّ أنّها زوجته لم يعص بوطيها وإن كانت أجنبيّة وإن ظنّ أنّها أجنبيّة عصى بوطيها وإن كانت امرأته ، كلّ ذلك نظراً إلى القلب دون الجوارح .

(بيان ان الوسواس هل يتصوران ينقطع بالكلية عند الذكر ام لا)

اعلم أنّ العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها و عجايبها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق فقالت فرقة : أنّ الوسوسة تنقطع بذكر الله تعالى لأنّ

---

(١) أخرجه مسلم من حديث ابى هريرة فى حديث كما فى المغنى .

(٢) الحج : ٣٧ .   (٣) تقدم فى المجلد الاول ص ٥٧ مع بيانه .

(٤) أخرجه الطبرانى من حديث ابى ثعلبة ، ولاحمد نحوه فى حديث عن وابصة كما فى المغنى .

النبيّ ﷺ قال: « إذا ذكر الله خنس الشيطان »(١) والخنوس هو السكوت فكأنّه يسكت. وقالت فرقة: لا ينعدم أصلها ولكن يجري في القلب ولا يكون لها أثر لأنّ القلب إذا صار مستوعباً بالذّكر صار محجوباً عن التأثّر بالوسوسة كالمشغول بهمّة فإنّه قد يكلّم فلا يفهم وإن كان الصّوت يمرّ على سمعه، وقال فرقة: لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضاً ولكن يسقط غلبتها للقلب وكأنّه يوسوس من بُعد وعلى ضعف، وقالت فرقة: ينعدم عند الذّكر في لحظة وينعدم الذّكر بها في لحظة ويتعاقبان في أزمنة متقاربة: فظنّ لتقاربها أنّها متساوقة، وهو كالكرة الّتي عليها نقط متفرّقة فإنّها إذا أُديرت بسرعة رأيت النقط دوائر لسرعة تواصلها بالحركة، واستدلّ هؤلاء بأنّ الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلّا هذا، وقالت فرقة: إنّ الوسوسة والذّكر يتساوقان في القلب على الدّوام تساوقاً لا ينقطع، وكما أنّ الإنسان قد يرى في حالة واحدة بعينه شيئين فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين وقد قال رسول الله ﷺ: « ما من عبد إلّا وله أربعة أعين عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه »(٢) وإلى هذا ذهب المحاسبيّ.

والصحيح عندنا في هذا أنّ كلّ هذه المذاهب صحيحة ولكن كلّها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوساوس وإنّما نظر كلّ واحد من الفرق إلى صنف واحد من الوساوس فأخبر عنه، والوسواس ثلاثة أصناف الأوّل أن يكون من جهة التلبيس للحقّ فإنّ الشيطان قد يلبّس الحقّ فيقول للانسان: لا تترك التنعّم واللّذات فإنّ العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حقّ الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال: الصبر عن الشهوات شديد ولكنّ الصبر على النّار أشدّ منه ولابدّ من أحدهما، فإذا ذكر العبد وعد الله

(١) هذا جزء من الخبر الذى مر ص ٥١ «ان الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم».

(٢) قال العراقى: أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ «الاخرة» مكان «دينه» و فيه الحسين بن احمد بن محمد الهروى السماخى الحافظ كذ به الحاكم و الافة منه.

ووعيده وجدّد إيمانه ويقينه خنس الشيطان و هرب ، إذلا يستطيع أن يقول : ليس النّار أشدّ من الصبرعن المعاصي ولايمكنه أن يقول : المعصية لاتفضي إلى النّار ، فإن إيمانه بكتاب الله يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه ، و كذلك يوسوس إليه بالعجب في علمه و عمله و يقول له : أيّ عبد يعرف الله كما تعرفه و يعبده كما تعبده فما أعظم مكانك عندالله فيذكر العبد أنّ معرفته و قدرته و قلبه و أعضاءه الّتي بها علمه وعمله كلّ ذلك من خالق الله فمن أين يعجب به فيخنس الشيطان ؟ إذ لا يمكنه أن يقول : ليس هذا من الله لأنّ المعرفة والإيمان يدفعه فهذا نوع من الوسوسة ينقطع بالكلّيّة عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة .

الصنف الثاني أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة و تهييجها وهذا ينقسم إلى ما يعرف العبد يقيناً أنّه معصية وإلى ما يظنّه بغالب الظنّ ، فإن علم يقيناً خنس الشيطان عن تهييج يؤثّر في التحريك و لم يخنس عن التهييج ، و إن كان مظنوناً بما يبقى مؤثّراً بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنّها مدفوعة غير غالبة .

الصنف الثالث أن يكون وسواسه بمجرّد الخواطر و تذكّر الأحوال الغايبة والتفكّر في الصّلاة في غير أمر الصّلاة مثلاً فإذا أقبل على الذكر تصوّر أن يندفع ساعة و يعود و يندفع و يعود فيتعاقب الذّكر والوسوسة و تصوّر أن يتساوقا جميعاً حتّى يكون الفهم مشتملاً على فهم معنى القراءة و على تلك الخواطر كأنّهما في موضعين من القلب و بعيد جدّاً أن يندفع هذا الخنس بالكلّيّة بحيث لا يخطر ، و لكنّه ليس محالاً إذ قال صلّى الله عليه وآله : « من صلّى ركعتين لم يحدّث فيهما نفسه بشيء من أمر الدّنيا غفر له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر »(١) فلو لا أنّه متصوّر لما ذكره إلّا أنّه لا يتصوّر ذلك إلّا في قلب استولى عليه الحبّ حتّى صار كالمستهتر ، فإنّا قد نرى المستوعب القلب بعدوّ وتأذّى به قد يتفكّر بمقدار ركعتين ور كعات في مجادلة عدوّه بحيث لا يخطر بباله غيره ، و كذلك المستغرق في الحبّ قد يتفكّر في محادثة محبوبه بقلبه

(١) أخرجه أحمد وقد مر فى المجلد الاول ص ٣٤٩ .

فيغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه ، ولو كلّمه غيره لم يسمع ولو اجتازواحدٌ بين يديه لكان كأنّه لايراه ، و إذا تصوّر هذا في خوف من عدوّه وعند الحرص على جاه و مال فكيف لا يتصوّر من خوف النّار والحرص على الجنّة ، ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله واليوم الآخر .

فإذا تأمّلت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أنّ لكلّ مذهب من المذاهب وجهاً ولكن في محلّ مخصوص ، وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أوساعة غير بعيد ، ولكنّ الخلاص منه عمراً طويلاً بعيدٌ أومحال ، ولاينقطع وسوسة عروض الدّنيا ونقدها إلّا بالرّمي والمفارقة فمادام يملك شيئاًوراء حاجته ولودينارا واحداً فلايخلّيه الشيطان في صلاته عن التفكّر في ديناره وإنّه كيف يحفظه وفيما ذاينفقه و كيف يخفيه حتّى لايعلم به أحدٌ أو كيف يظهره حتّى يتباهى به إلى غير ذلك من الوسواس ، فمن أنشب مخالبه في الدّنيا و طمع في أن يتخلّص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظنّ أنّه لايقع الذّباب عليه و هو محالٌ ، فالدّنيا باب عظيم لوسواس الشيطان وليس له باب واحد بل أبواب .

قال حكيم من الحكماء : الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي ، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتّى يلقيه في بدعة ، فإن أبى أمره بالتحرّج والشدّة حتّى يحرم عليه ما ليس بحرام ، فإن أبى شكّكه في وضوئه وصلاته حتّى يخرجه عن العلم ، فإن أبى خفّف عليه أعمال البرّ حتّى يراه الناس صابراً عفيفاً فتميل قلوبهم إليه ويعجب بنفسه وبه يهلكه وعندذلك تشتدّ الحاجة فإنّها آخر درجة ويعلم أنّه لوجاوزها أفلت منها إلى الجنّة .

✡ (بيان سرعة تقلّب القلب) ✡
✡ (وانقسام القلوب في التغير والثبات) ✡

اعلم أنّ القلب كماذكرناه تكتنفه الصفات الّتي ذكرناها وتنصبّ إليه الآثار والأحوال من الأبواب الّتي وصفناها فكأنّه هدف يصاب على الدّوام من كلّ جانب

فإذا أصابه شيءٌ و يتأثّر به أصابه من جانب آخر مايضادّه فيغيّر وصفه ، فإن نزل الشيطان به ودعاه إلى الهوى و التفت القلب إليه نزل الملك به وصرفه عنه ، و إن جذبه شيطان إلى شرّ جذبه شيطان آخر إلى غيره ، وإن جذبه ملك إلى خير جذبه ملك آخر إلى غيره ، فتارة يكون متنازعاً بين ملكين ، و تارة بين شيطانين ، و تارة بين ملك و شيطان و لا يكون قطّ مهملاً ، و إليه الإشارة بقوله تعالى : « و نقلّب أفئدتهم و أبصارهم » [1] و لاطّلاع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عظيم صنع الله في عجائب القلب وتقلّبه كان يحلف به ويقول : « لا ، و مقلّب القلوب » [2] .

وكان كثيراً ممّا يقول صلى الله عليه وآله وسلم : « يامقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك . قالوا : أوتخاف يارسول الله ؟ فقال: ومايؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرّحمن يقلّبه كيف يشاء » و في لفظ آخر « إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه » [3] .

و ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أمثلة فقال : « مثل القلب مثل العصفور يتقلّب في كلّ ساعة » [4] .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « مثل القلب في تقلّبه كالقدر إذا استجمعت غلياناً » [5] .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلّبها الرّياح ظهراً لبطن » [6] .

و هذه التقليبات من عجيب صنع الله ، وعجائب صنع الله في تقلّبها من حيث

---

(١) الانعام : ١١٠ .

(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٦٠ من حديث ابن عمر واخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٠٩٢ عن سالم عن أبيه وفيه « لا ومصرف القلوب » .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٩٩ . والحاكم ج ١ ص ٥٢٦ و ج ٤ ص ٣٢١ . و قد مر ، وقوله : «أقامه» اى على الحق ، و «ازاغه» اى عن الحق .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣٠٧ و قال : صحيح على شرط مسلم .

(٥) أخرجه احمد ج ٦ ص ٤ من حديث المقداد وفيه « أجمعت غلياً » .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٨٨ ، والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الاشعري .

لايهتدي إليه لايعرفه إلّا المراقبون لقلوبهم و المراعون لأحوالهم مع الله تعالى.

و القلوب في الثبات على الخير والشرّ والتردّد بينهما ثلاثة: قلب عمر بالتقوى وزكى بالرّياضة، وطهر من خبائث الأخلاق فتنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب و مداخل الملكوت فينصرف العقل إلى التفكّر فيما خطر ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده، فينكشف له بنور البصيرة وجهه فيحكم بأنّه لابدّ من فعله ويستحثّ عليه ويدعو إلى العمل به، فينظر الملك إلى القلب فيجده طيّباً في جوهره، طاهراً بتقواه، مستنيراً بضياء العقل، معموراً بأنوار المعرفة و يراه صالحاً لأن يكون مستقرّاً له و مهبطاً فعند ذلك يمدّه بجنود لاترى و يهديه إلى خيرات اُخرى حتّى ينجرّ الخير إلى الخير و كذلك على الدّوام لايتناهى إمداده بالترغيب في الخير وتيسير الأمر عليه و إليه الإشارة بقوله تعالى: «فأمّا من أعطى و اتّقى ۞ وصدّق بالحُسنى ۞ فَسَنُيَسِّرُه لليسرى»(١) وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكوة الرّبوبية حتّى لايخفى فيه الشرك الخفيّ الّذي هو أخفى من دبيب النملة السّوداء في اللّيلة الظلماء، ولايخفى على هذا النور خافية ولايروّج عليه شيء من مكائد الشيطان، بل يقف عليه الشيطان ويوحي زخرف القول غروراً ولايلتفت إليه، وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معموراً بالمنجيات الّتي سنذكرها من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزّهد والمحبّة و الرّضا و الشوق والتوكّل و التفكّر والمحاسبة والمراقبة و غير ذلك، وهو القلب الّذي أقبل الله تعالى عليه بوجهه وهو القلب المطمئنّ المراد بقوله تعالى: «ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب»(٢) وبقوله عزّ وجلّ: «ياأيّتها النفس المطمئنّة»(٣).

القلب الثاني القلب المخذول المشحون بالهوى المدنّس بالخبائث، الملوّث بالأخلاق الذّميمة، المفتّحة فيه أبواب الشياطين، المسدودة عنه أبواب الملائكة، و مبدء الشرّ فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل

(١) الليل: ٥ و ٦ و ٧. (٢) الرعد: ٢٨.
(٣) الفجر: ٢٧.

ليستفتي منه ويستكشف وجه الصواب فيه فيكون العقل قدألف خدمة الهوى وأنس به واستمرّ على استنباط الحيل له في موافقة الهوى و مساعدته فتسوّل النفس له وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى و تنبسط فيه ظلماته لانخناس جند العقل عن مدافعته فيقوى سلطان الشيطان لاتّساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين و الغرور والأماني و يوحي بذلك زخرفاً من القول غروراً فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ويخبو نور اليقين بخوف الآخرة إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتّى تنطفىء أنواره فيصير العقل كالعين الّتي ملأ الدّخان أجفانها فلايقدر على أن تنظر، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتّى لايبقى للقلب إمكان التوقّف والاستبصار ولوبصّره واعظ و أسمعه ما هو الحقّ فيه عمى عن الفهم وصمّ عن السمع وهاجت الشهوة ونشط الشيطان وتحرّكت الجوارح على وفق الهوى وظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من خزائن الغيب بقضاء من الله وقدره وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى: «أرأيت مَن اتّخذ إلٰهه هواه - إلى آخر الآيتين - [(١)]» وبقوله عزّ وجلّ: «لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لايؤمنون» [(٢)] وبقوله تعالى: «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون [(٣)]» [وربّ قلب هذا حاله بالإضافة إلى الشهوات] وربّ قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالّذي يتورّع عن بعض الأشياء ولكنّه إذا رأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه، أو كالّذي لايملك نفسه فيما فيه الجاه والرّئاسة والكبر ولايبقى معه مسكة للتثبّت عند ظهور أسبابه أو كالّذي لايملك نفسه عند الغضب مهما استحقر أوذكر عيب من عيوبه، أو كالّذي لايملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروّة والتقوى و كلّ ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتّى يظلم و تنطفىء منه أنواره البصيرة فينطفىء منه نور الحياء و المروّة والإيمان و يسعى في تحصيل مراد الشيطان.

القلب الثالث قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشرّ فيلحقه خاطر

(١) الفرقان: ٤٣. (٢) سورة يس: ٧. (٣) يس: ١٠.

الإيمان فيدعوه إلى الخير فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشرّ فتقوّي الشهوة وتحسّن التمتّع والتنعّم، فينبعث العقل إلى خاطر الخير و يدفع في وجه الشهوة ويقبّح فعلها وينسبها إلى الجهل، ويشبّهها بالبهيمة والسبع في تهجّمها على الشرّ و قلّة أكتراثها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل، فيحمل الشيطان حملة على العقل ويقوّي داعية الهوى و يقول: ما هذا التحرّج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذّي نفسك وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه؟ أويترك غرضه؟ أفتترك ملاذّ الدّنيا لهم فيتمتّعون فيها؟ و تحجر على نفسك حتّى تبقى محروماً شقيّاً متعوباً يضحك عليك أهل الزّمان أتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا؟ أما ترى العالم الفلاني ليس يحترز عن فعل ذلك ولو كان ذلك شرّاً لامتنع عنه، فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه فيحمل الملك حملة على الشيطان فيقول: هل هلك إلّا من اتبّع لذّة الحال ونسي العاقبة؟ أفتقنع بلذّة يسيرة وتترك لذّة الجنّة ونعيمها أبدالآباد؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولاتستثقل ألم النّار؟ أتغترّ بغفلة الناس عن أنفسهم؟ و اتّباعهم هواهم، ومساعدتهم للشيطان؟ مع أنّ عذاب النّار لايخفّف عنك بمعصية غيرك أرأيت لو كنت في صيف و وقف الناس كلّهم في الشمس و كان لك بيت بارداً كنت تساعد الناس، أم تطلب لنفسك الخلاص؟ فكيف تخالف الناس خوفاً من حرّ الشمس ولاتخالفهم خوفاً من حرّ النّار؟ فعند ذلك تميل النفس إلى قول الملك فلايزال القلب يتردّد بين الجندين متجاذباً بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب من هو أولى به، فإن كانت الصفات الّتي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية الّتي ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشياطين معرضاً عن حزب الله تعالى و أوليائه ومساعداً لحزب الشيطان وأعدائه، وجرى على جوارحه بسابق القدر ماهوسبب بعده عن الله تعالى، و إن كان الغالب على القلب الصفات الملكيّة لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان و تحريضه إيّاه على العاجلة، و تهوينه أمر الآجلة (١) بل مال إلى حزب الله تعالى و ظهرت الطاعة بموجب ماسبق من القضاء على جوارحه « و قلب

(١) في الاحياء « أمر الاخرة ».

المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن » أي بين تجاذب هذين الحزبين و هو الغالب على القلوب أعني التقلّب والانتقال من حزب إلى حزب ، أمّا الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو حزب الشياطين فنادر من الجانبين .

و هذه الطاعات و المعاصي تظهر من خزائن الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنّه من خزائن الملكوت ، و هي إذا ظهرت كانت علامات تعرف أرباب القلوب سابق القضاء، فمن خلق للجنّة يسّرت له الطاعة و أسبابها و من خلق للنار يسّرت له أسباب المعصية و سلّط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان فإنّه بأنواع الحكم يغرّ الحمقى كقوله : إنّ الله تعالى رحيم فلاتبال ، وإنّ الناس كلّهم ما يخافون الله فلاتخالفهم ،فإنّ العمر طويل فاصبر حتّى تتوب غداً « يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً » يعدهم بالتوبة و يمنّيهم بالمغفرة فيهلكهم بإذن الله بهذه الحيل و ما يجري مجراها ، فيوسّع قلبه لقبول الغرور ويضيّقه عن قبول الحقّ و كلّ ذلك بقضاء من الله وقدره « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعّد في السّماء » ، « إن ينصركم الله فلاغالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الّذي ينصركم من بعده » فهو الهادي والمضلّ يفعل مايشاء ويحكم مايريد ، لارادّ لحكمه ولامعقّب لقضائه ، خلق الجنّة وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالطاعة و خلق النار و خلق لها أهلاً فاستعملهم بالمعصية وعرف الخلق علامات أهل النار وأهل الجنّة فقال تعالى : « إنّ الأبرار لفي نعيم وإنّ الفجّار لفي جحيم» : «فتعالى الله الملك الحقّ»، « لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون » .

ولنقتصر الآن على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإنّ استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة و إنّما ذكرنا منه مايحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة و علومها وأسرارها لينتفع بها من لايقنع بالظواهر ولايجتزىء بالقشور عن اللّباب ، بل يتشوّق إلى معرفة دقائق الأسباب ، وفيماذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى .

هذا آخر كتاب شرح عجائب القلب من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء .

ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب ، والحمد لله أوّلاً وآخراً .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كتاب رياضة النفس﴾

﴿وتهذيب الاخلاق و معالجة أمراض القلب﴾

(وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء)

الحمد لله الّذي صرّف الأمور بتدبيره، و عدّل تركيب الخلق فأحسن في تصويره، و زيّن صورة الإنسان بحسن تقويمه و تقديره، و حرسه عن الزّيادة والنقصان في شكله و مقاديره، و فوّض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد و تشميره، واستحثّه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره. و سهّل على خواصّ عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه و تيسيره، و امتنّ عليهم بتسهيل صعبه و عسيره.

والصّلاة على محمّد عبده و نبيّه و حبيبه و صفيّه و بشيره و نذيره، الّذي كان يلوح نور النبوّة من أساريره، و تنكشف حقيقة الحقّ من مخائله و تباشيره، وعلى آله وأصحابه الّذين طهّروا وجه الإسلام عن ظلم الكفر و دياجيره، وحسموا مادّة الباطل ولم يتدنّسوا لا بقليله و لا بكثيره.

أما بعد فإنّ الخُلق الحسن صفة سيد المرسلين و أفضل أعمال الصدّيقين، و هو على التحقيق شطر الدّين، و هو ثمرة مجاهدة المتّقين، و رياضة المتعبّدين، والأخلاق السيّئة هي السموم القاتلة، والمهلكات الدّامغة، والمخازي الفاضحة، والرّذائل الواضحة، والخبائث المبعّدة من جوار ربّ العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشيطان اللّعين، و هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نار الله الموقدة الّتي تطّلع على الأفئدة كما أنّ الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرّحمن، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس

إلّا أنّه مرض يفوت حياة الأبد ، و أين منه المرض الّذي لا يفوت إلّا حياة الجسد ؟ و مهما اشتدّت عناية الأطبّاء بضبط قوانين العلاج للأبدان و ليس في مرضها إلّا فوت حياة فانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب و فيها فوت حياة باقية أولى ، و هذا النوع من الطبّ واجبٌ تعلّمه على كلّ ذي لبّ إذ لايخلو قلبٌ من القلوب عن أسقام لو اُهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنّق في معرفة عللها و أسبابها ثمّ إلى تشمير في معالجتها و إصلاحها فمعالجتها هي المراد بقوله تعالى : « قد أفلح من زكّيها »[1] وإهمالها هو المراد بقوله عزّ وجلّ : « و قد خاب من دسّيها »[1].

و نحن في هذا الكتاب نشير إلى جمل من أمراض القلوب و كيفيّة القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل العلاج لخصوص الأمراض فإنّ ذلك يأتي في بقيّة الكتب من هذا الرّبع ، وغرضنا الآن النظر الكلّيّ في تهذيب الأخلاق وتمهيد مناهجها و نحن نذكر ذلك و نجعل علاج البدن مثالاً له ليقرّب من الأفهام دركه ، و يتّضح ذلك ببيان فضيلة حُسن الخلق ، ثمّ بيان حقيقة حسن الخلق ، ثمّ بيان قبول الأخلاق للتغيير بالرّياضة ، ثمّ بيان السبب الّذي به ينال حسن الخلق ، ثمّ بيان تفصيل الطّرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النّفوس ، ثمّ بيان العلامات الّتي بها يعرف مرض القلوب ، ثمّ بيان الطرق الّتي بها يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ثمّ بيان شواهد النقل على أنّ طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير ، ثمّ بيان علامات حُسن الخلق ، ثمّ بيان الطريق في رياضة الصّبيان في أوّل النشوء ، ثمّ بيان شروط الإرادة ومقدّمات المجاهدة .

فهي أحد عشر فصلاً يجمع مقاصد هذا الكتاب إن شاء الله .

✿ (بيان فضيلة حسن الخلق و مذمة سوء الخلق) ✿

قال الله تعالى لنبيّه وحبيبه صلّى الله عليه وآله وسلّم مُثنياً عليه ومُظهِراً نعمته لديه : « وإنّك

(١) الشمس : ١٠ و ١١ .

لعلى خلق عظيم »(١).

و قالت عائشة : « كان خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن »(٢).

وسأل رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله عزَّ وجلَّ : « خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين »(٣)، ثمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «وهو أن تصل من قطعك و تعطي من حرمك و تعفو عمن ظلمك »(٤).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنَّما بعثت لأُتمِّم مكارم الأخلاق »(٥).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أثقل ما يوضع في الميزان تقوى الله والخلق الحسن »(٦).

و جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بين يديه فقال : يا رسول الله ما الدِّين فقال : حسن الخلق ، ثمَّ أتاه من قبل يمينه فقال : يا رسول الله ما الدِّين ؟ فقال : حسن الخلق ، ثمَّ أتاه من قبل شماله فقال : ما الدِّين فقال : حسن الخلق ، ثمَّ أتاه من ورائه فقال : ما الدِّين ؟ فالتفت إليه فقال : أما تفقه هو أن لا تغضب »(٧).

و قيل : « يا رسول الله ما الشؤم ؟ فقال : سوء الخلق »(٨).

و قال : رجلٌ : « يا رسول الله أوصني ، فقال : اتّق الله حيث كنت ، قال :

---

(١) القلم : ٤ .

(٢) أخرجه ابن سعد فى الطبقات ج ١ القسم الثانى ص ٨٩ .

(٣) الاية فى سورة الاعراف : ١٩٩ ، والخبر رواه ابن مردويه فى التفسير من حديث جابر و قيس بن سعدبن عبادة وأنس بأسانيد حسان كما فى المغنى .

(٤) أخرجه البيهقى فى الشعب كما فى الدر المنثور ج ٣ ص ١٥٤ .

(٥) راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٣ رواه عن الطبرانى والبزار بلفظ آخر .

(٦) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٦٨ . من حديث أبى الدرداء هكذا « ما من شىء يوضع فى الميزان أثقل من حسن الخلق » و فى حديث آخر عن أبى هريرة « سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : تقوى الله وحسن الخلق »

(٧) رواه محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة مرسلا عن [أبى] العلاء بن الشخّير بلفظ « أى العمل أفضل » كما فى الترغيب والترهيب ج٣ ص ٤٠٥ .

(٨) أخرجه الطبرانى فى الاوسط عن جابر بسند ضعيف كما فى مجمع الزوائد ج٨ ص ٢٥ .

زدني ، قال : اتّبع السيّئة الحسنة تمحها . قال : زدني قال : خالق الناس بخلق حسن »(١).

و سئل رسول الله ﷺ : « أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : حسن الخلق »(٢).

و قال ﷺ : « ما حسّن الله خلق امرىء و خُلقه فيطعمه النّار »(٣).

و قال الفضيل : « قيل لرسول الله ﷺ : إنّ فلانة تصوم النهار وتقوم اللّيل وهي السيّئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال : لاخير فيها هي من أهل النّار »(٤).

وقال أبوالدّرداء : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : أفضل ما يوضع في الميزان حسن الخلق والسّخاء ، ولما خلق الله تعالى الايمان قال : اللّهمّ قوّني فقوّاه بحسن الخلق والسخاء ، ولما خلق الله الكفر قال : اللّهمّ قوّني فقوّاه بالبخل وسوء الخلق »(٥).

و قال رسول الله ﷺ : « إنّ الله تعالى استخلص هذا الدّين لنفسه ولايصلح لدينكم إلّا السّخاء و حسن الخلق ، ألا فزيّنوا دينكم بهما »(٦).

و قال رسول الله ﷺ : « حسن الخلق خلق الله الأعظم »(٧).

وقيل : « يا رسول الله أيّ المؤمنين أفضلهم إيماناً ؟ قال : أحسنهم خلقاً »(٨).

و قال ﷺ : « إنّكم لن تسعوا النّاس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه و

(١) أخرجه الدارمى ج٢ ص٣٢٣ من حديث أبى ذر ، وأحمد فى المسند ج ٥ ص٢٢٨.

(٢) مر ص ٨٩ تحت رقم ٧ .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الاوسط والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة كمافى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٠٧ .

(٤) أخرجه البزار وأحمد من حديث أبى هريرة بسند صحيح كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٦٩ .

(٥) أخرج صدره الترمذى ج ٨ ص ١٦٨ ، و أبو داود ج ٢ ص ٥٥٢ و لم أجد ذيله فى أصل .

(٦) أخرجه الطبرانى فى الكبير عن عمران بن حصين وهو متروك كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٠ .

(٧) أخرجه الطبرانى فى الكبير بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٨) أخرجه الدارمى ج ٢ ص ٣٢٣ .

حسن الخلق »(١).

و قال ﷺ أيضاً : « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخلّ العسل »(٢).

و عن جرير بن عبدالله قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إنّك لامرؤ قد حسن الله خلقك ، فحسّن خُلقك »(٣).

وعن البراء بن عازب قال : «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خُلقاً »(٤).

و عن أبي مسعود البدري قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللّهم قد حسّنت خلقي فحسّن خُلقي »(٥).

و عن عبدالله بن عمر قال : «كان رسول الله ﷺ يكثر الدّعاء فيقول : « اللّهمّ إنّي أسألك الصحّة والعافية و حسن الخلق »(٦).

و عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ قال : « كرم المرء دينه ، و مروءته عقله ، و حسبه حسن خلقه »(٧).

و عن اُسامة بن شريك قال : شهدت الأعاريب يسألون النبيّ ﷺ يقولون: ما خير ما اُعطي العبد ؟ قال : « حسن الخلق »(٨).

و قال ﷺ : « إنّ أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم

---

(١) أخرجه الطبرانى والبزار و أبويعلى من حديث أبى هريرة و بعض طرق البزار رجاله ثقات كما فى المغنى .

(٢) أخرجه الحاكم فى الكنى عن ابن عمر بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٣) أخرجه الخرائطى فى مكارم الاخلاق وأبوالعباس الدغولى فى كتاب الاداب و فيه ضعف كما فى المغنى .

(٤) متفق عليه بسند صحيح عن البراء كما فى الجامع الصغير باب الشمائل

(٥) أخرجه الطيالسى فى مسنده ص ٤٩ .

(٦) أخرجه الخرائطى فى المكارم باسناد فيه لين كما فى المغنى .

(٧) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقى فى الكبرى بسند صحيح كما فى الجامع الصغير

(٨) أخرجه الطيالسى فى مسنده ص ١٧١ تحت رقم ١٢٣٣ .

أخلاقاً » (١) .

وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهنّ فلا يعتدّ بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن محارم الله ، وحلم يكفّ به السفيه ، و خلق يعيش به في الناس » (٢) .

وكان من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم في افتتاح الصلاة « اللّهمّ اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلّا أنت ، واصرف عنّي سيّئها لا يصرف عنّي سيّئها إلّا أنت » (٣) .

وقال أنس : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً إذ قال : « إنّ حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد » (٤) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من سعادة المرء حسن الخلق » (٥) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اليمن حسن الخلق » (٦) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذرّ : « ياأباذرّ لاعقل كالتدبير ولاحسب كحسن الخلق» (٧) .

و عن أنس قال : « قالت امُّ حبيبه : يارسول الله أرأيت المرأة منّا يكون لها زوجان في الدُّنيا فتموت و يموتان و يدخلان الجنّة لأيّهما هي ؟ قال : لأحسنهما خلقاً كان عندها في الدُّنيا ، ياامُّ حبيبة ذهب حسن الخلق بخيري الدُّنيا والآخرة » (٨) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ المسلم المسدّد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه

(١) أخرجه أحمد فى مسند عبدالله بن عمر باسناد جيد كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢١ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير عنه ، والخرائطى فى المكارم عن ام سلمة باسناد ضعيف كما فى المغنى .

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ج ٢ ص ٣٣ من حديث على عليه السلام .

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط بسند ضعيف كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٤ .

(٥) أخرجه البيهقى فى الشعب عن جابر بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٦) أخرجه الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث على عليه السلام كمافى المغنى .

(٧) أخرجه ابن ماجه فى السنن تحت رقم ٤٢١٨ .

(٨) رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط كما فى الترغيب ج ٣ ص ٤١١ .

و كرم ضريبته » (١) . وفي رواية أُخرى « درجة الظمآن في الهواجر » (٢)

و قال أنس : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة و شرف المنازل و إنّه لضعيف العبادة » (٣).

و قال صلى الله عليه وآله : « سوء الخلق ذنب لا يغفر و سوء الظنّ خطيئة تفوح » (٤).

و قال صلى الله عليه وآله : « إنّ العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنّم » (٥).

أقول : و قد ذكرنا الأخبار في فضيلة حسن الخلق و مذمّة سوء الخلق من طريق الخاصّة في أوّل كتاب آداب الصحبة والمعاشرة من ربع العادات فلا نطول الكلام بإعادتها .

☼(الآثار)☼

قال ابن لقمان الحكيم لأبيه : يا أبه أيّ الخصال من الإنسان خير ؟ قال : الدّين ، قال : فإذا كانتا اثنتين ؟ قال : الدّين والمال ، قال : فإذا كانت ثلاثاً ؟ قال : الدّين والمال والحياء ، قال : فإذا كانت أربعاً ؟ قال : الدّين والمال والحياء و حسن الخلق ، قال : فإذا كانت خمساً ؟ قال : الدّين والمال والحياء و حسن الخلق والسخاء ، قال : فإذا كانت ستّاً ؟ قال : يا بنيّ إذا اجتمعت فيه هذه الخمس فهو تقيّ نقيّ ولله وليّ و من الشيطان بريء .

و قيل : من ساء خلقه عذّب نفسه .

و قال يحيى بن معاذ : في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق .

و قال وهب بن منبّه : مثل السيّىء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعاد طيناً .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده عن عبدالله بن عمر ، والضريبة : الطبيعة وزناً ومعنى .

(٢) أخرجه أحمد أيضاً فى مسند أبى هريرة . والطبرانى كما فى الترغيب ج٣ ص٤٠٤.

(٣) رواه الطبرانى كما فى الترغيب ج ٣ ص ٤٠٤ .

(٤) ما عثرت على أصل له بهذا اللفظ .

(٥) هذا تتمة لحديث أنس ، الحديث الاسبق .

و قال الفضيل : لأن يصحبني فاجرٌ حسن الخلق أحبُّ إليَّ من أن يصحبني عابد سيّئ الخلق .

و صحب ابن المبارك رجلٌ سيّئ الخلق في سفره فكان يحتمل منه و يداريه فلمّا أن فارقه بكى ، فقيل له في ذلك ، فقال : أترحّم عليه ، فارقته وخلقه معه لم يفارقه .

و قال الجنيد : أربع يرفع العبد إلى أعالي الدّرجات و إن قلَّ علمه و عمله الحلم والتواضع والسّخاء و حسن الخلق و هو كمال الإيمان .

و قال يحيى بن معاذ : سوء الخلق سيّئة لا تنفع معها كثرة الحسنات وحسن الخلق حسنة لا تضرُّ معها كثرة السيّئات .

وسئل ابن عبّاس ما الكرم ؟ فقال : ما بيّن الله تعالى في كتابه «إنَّ أكرمكم عندالله أتقيكم» (١) قيل له : ما الحسب ؟ قال : أحسنكم خلقاً أفضلكم حسباً .

و قيل : لكلِّ بنيان أساس و أساس الإيمان حسن الخلق .

و قال ابن عطاء : ما ارتفع من ارتفع إلّا بالخلق الحسن ولم ينل أحد كماله إلّا المصطفى محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وأقرب الخلق إلى الله تعالى السالكون آثاره بحسن الخلق .

☆(بيان حقيقة حسن الخلق و سوء الخلق)☆

اعلم أنَّ الناس قد تكلّموا في حقيقة الخلق الحسن وأنّه ما هو ؟ وما تعرّضوا لحقيقته وإنّما تعرّضوا لثمرته ، ثمَّ لم يستوعبوا جميع ثمراته بل ذكر كلٌّ واحد من ثمراته ما خطر له وكان حاضراً في ذهنه ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حدّه و حقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب ، وذلك كقول بعضهم : حسن الخلق بسط الوجه ، وبذل الندى ، و كفُّ الأذى ، وقال الواسطي : هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدّة معرفته بالله ، وقال بعضهم : هو أن يكون من الناس قريباً وفيما بينهم غريباً ، و قال أبو عثمان : هو الرّضا عن الله ، فهذا و أمثاله كثيرٌ و هو تعرّض

(١) الحجرات : ١٣ .

لثمرات حسن الخلق لا لنفسه، ثمّ ليس محيطاً بجميع الثمرات أيضاً.

وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة، فنقول: الخلق والخُلق عبارتان مستعملتان معاً يقال: فلان حسن الخلق والخلق أي حسن الظاهر والباطن فيراد بالخلق الصّورة الظّاهرة، و يراد بالخلق الصّورة الباطنة، و ذلك لأنّ الإنسان مركّب من جسد مدرك بالبصر، ومن روح و نفس مدركة بالبصيرة، و لكلّ واحد منهما هيئة وصورة إمّا قبيحة وإمّا جميلة، والرّوح المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر و لذلك عظّم الله أمره بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى: «إنّي خالق بشراً من طين فإذا سوّيته و نفخت فيه من روحي»[١] فنبّه على أنّ الجسد منسوب إلى الطين ٭ والرّوح منسوب إلى الله تعالى، والمراد بالرّوح والنفس في هذا المقام واحد، فالخلق عبارة عن هيئة للنّفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة و يسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً و شرعاً سمّيت الهيئة خلقاً حسناً، و إن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سمّيت الهيئة الّتي هي المصدر خلقاً سيّئاً و إنّما قلنا: إنّها هيئة راسخة لأنّ من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال: خلقه السّخاء مالم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، و إنّما شرطنا أن تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير رويّة لأنّ من تكلّف بذل المال والسّكوت عند الغضب بجهد ورويّة لا يقال: خلقه السّخاء والحلم، فههنا أربعة أمور: أحدها فعل الجميل والقبيح، والثاني القدرة عليهما، والثالث المعرفة بهما، والرابع هيئة للنفس و بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسّر عليها أحد الأمرين إمّا الحسن أو القبيح، وليس الخلق عبارة عن الفعل فربّ شخص خلقه السّخاء ولا يبذل إمّا لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إمّا لباعث أو لرياء، وليس هو عبارة عن القدرة إلى الإمساك والإعطاء، بل إلى الضدّين واحدة، و كلّ إنسان خلق بالفطرة قادراً على الإعطاء والإمساك و ذاك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السّخاء، و ليس هو عبارة

(٢) ص: ٧١ و ٧٢.

عن المعرفة فإنّ المعرفة تتعلّق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد، بل هو عبارة عن المعنى الرّابع وهي الهيئة الّتي بها تستعدُّ النفس لأن يصدر منها الإمساك والبذل فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لايتمُّ بحسن العينين دون الأنف والفم والخدّ بل لابدَّ من حسن الجميع ليتمَّ حسن الظاهر، فكذلك في الباطن أربعة أركان لابدّ من الحسن في جميعها حتّى يتمَّ حسن الخلق، فإذا استوت الأركان الاربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهي قوّة العلم وقوّة الغضب وقوّة الشهوة وقوّة العدل بين هذه القوى الثلاث، أمّا قوّة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل لها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال وبين الحقّ والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الأفعال فإذا تحصّلت هذه القوّة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة وهي الّتي قال الله تعالى فيها: «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً»(١) وإمّا قوّة الغضب فحسنها في أن يقتصر انقباضها وانبساطها على حدّ ما تقتضيه الحكمة، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة أعني إشارة العقل والدّين، وأمّا قوّة العدل فهي في ضبط قوّة الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع، فالعقل منزلته منزلة الناصح المشير وقوّة العقل هي القدرة ومنزلتها منزلة المنفذ الممضي لإشارة العقل، والغضب هو الّذي ينفذ فيه الإشارة، ومثال الغضب مثال كلب الصيد فإنّه يحتاج إلى أن يؤدّب حتّى يكون استرساله وتوقّفه بحسب الإشارة لابحسب هيجان النفس، والشهوة مثالها مثال الفرس الّذي يركب في طلب الصيد فإنّه تارة يكون مروضاً مؤدّباً وتارة يكون جموحاً، فمن استوت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً ومن اعتدل فيه بعضها دون بعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصّة كالّذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض.

وحسن القوّة الغضبيّة واعتدالها يعبّر عنها بالشجاعة وحسن قوّة الشهوة واعتدالها يعبّر عنه بالعفّة، فإن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة

(١) البقرة: ٢٦٩.

سمّي ذلك تهوّراً ، و إن مالت إلى الضعف و النقصان سمّي ذلك جبناً وخوراً ، و إن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزّيادة سمّي شرهاً ، و إن مالت إلى النقصان سمّي خموداً ، و المحمود هو الوسط وهو الفضيلة ، و الطرفان رذيلتان مذمومتان ، والعدل إذا فات فليس له طرفان زيادة ونقصان بل له ضدّ واحد وهو الجور .

وأمّا الحكمة فيسمّى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبّاً وجربزة ، ويسمّى تفريطها بلهاً والوسط هو الّذي يختصّ باسم الحكمة فإذن أمّهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة و العدل ، ونعني بالحكمة حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية ، و نعني بالعدل حالة للنفس وقوّة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال و الانقباض على حسب مقتضاها ، و نعني بالشجاعة كون قوّة الغضب منقادة للعقل في إقدامها و إحجامها ، و نعني بالعفة تأدّب قوّة الشهوة بتأديب العقل و الشرع .

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلّها ، إذ من اعتدال قوّة العقل يصدر حسن التدبير وجودة الذّهن وثقافة الرّأي و إصابة الظنّ والتفطّن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ، ومن إفراطها تصدر الجربزة والمكر والخداع والدّهاء ، ومن تفريطها يصدر البله والغمارة و الحمق و الجنون ، و أعني بالغمارة قلّة التجربة في الأمور مع سلامة التخيّل ، و قد يكون الإنسان غمراً في شيء دون شيء ، والفرق بين الحمق والجنون أنّ الأحمق مقصوده صحيح لكن سلوكه للطريق فاسد فلا يكون له رويّة صحيحة في طريق الوصول إلى الغرض . و أمّا المجنون فإنّه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصل إيثاره واختياره فاسداً .

وأمّا خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة و كسر النفس والاحتمال والحلم و الثبات و كظم الغيظ و الوقار و التؤدة و أمثالها ، وهي أخلاق محمودة وأمّا إفراطها و هو التهوّر فيصدر منه الصلف و البذخ و الاستشاطة والتكبّر و العجب ، وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلّة والجزع و الخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحقّ الواجب .

وأمّا خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصّبر والمسامحة والقناعة والورع والأمانة والطلاقة والمساعدة والظرف وقلّة الطمع ، وأمّا ميلها إلى الافراط والتفريط فيصدر منه الحرص والشره والوقاحة والخبث و التبذير والتّقتير و الرّياء و الهتكة و المجانة و العبث و الملق و الحسد و الشماتة و التذلّل للأغنياء و استحقار الفقراء وغير ذلك .

فأمّهات محاسن الأخلاق هذه الصفات والفضائل الأربعة وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقي فروعها ، ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربعة إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والنّاس بعده متفاوتون في القرب و البعد منه فكلّ من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و كلّ من جمع كمال هذه الأخلاق استحقّ أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلّهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال ، و من انفكّ عن جميع هذه الأخلاق كلّها واتّصف بأضدادها استحقّ أن يخرج من بين العباد والبلاد فإنّه قد قرب من الشيطان المبعد اللّعين فينبغي أن يبعد كما أنّ الأوّل قريبٌ من الملك المقرّب فينبغي أن يقتدى به ويتقرّب إليه ، ولم يبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا ليتمّ محاسن الأخلاق كما قال [(١)] .

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى : « إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله و رسوله ثمّ لم يرتابوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصّادقون » [(٢)] . فالايمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوّة اليقين وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة ، والمجاهدة بالمال هو السخاء الّذي يرجع إلى ضبط قوّة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة الّتي ترجع إلى استعمال قوّة الغضب على شرط العقل وحدّ الاعتدال ، وقد وصف الله به الصحابة فقال : « أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم » [(٣)] إشارة إلى أنّ للشدّة موضعاً و للرّحمة موضعاً و ليس الكمال في الشدّة بكلّ حال ولا في الرّحمة بكلّ حال .

---

(١) راجع مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٥ ، والمصابيح للبغوى ج ٢ ص ١٣٤ .
(٢) الحجرات : ١٦ . (٣) الفتح : ٢٩ .

فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه .

✿ (بيان قبول الاخلاق للتغيير بطريق الرياضة) ✿

اعلم أنّ بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة و الرّياضة و الاشتغال بتزكية النّفس وتهذيب الأخلاق ، ولم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره و نقصه وخبث دخلته ، وزعم أنّ الأخلاق لا يتصوّر تغييرها وأنّ الطباع لا تتغيّر فاستدلّ فيه بأمرين : أحدهما أنّ الخُلق هو صورة الباطن كما أنّ الخلق هو صورة الظاهر والخلقة الظاهرة لا يقدر على تغيير ها فالطويل لا يقدر أن يجعل نفسه قصيراً ، ولا القصير يقدر على أن يجعل نفسه طويلاً ، و لا القبيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك الخُلق الباطن يجري هذا المجرى ، والثاني أنّهم قالوا : حسن الخلق بقمع الغضب والشهوّة وقد جرّبنا ذلك بطول المجاهدة و عرفنا أنّ ذلك من مقتضى المزاج والطبع و أنّه قطّ لا ينقلع عن الآدمي فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة فإنّ المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محالٌ وجوده .

فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « حسّنوا أخلاقكم »[1] وكيف ينكر هذا في حقّ الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل الصيد من التوحّش إلى الأنس و الكلب من شره الأكل من الصيد إلى التأدّب والإمساك ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد و كلّ ذلك تغيير الأخلاق ، والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول :

أنّ الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدميّ و اختياره في أصله و تفصيله كالسّماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كلّ ما هو حاصلٌ كاملٌ وقع الفراغ من وجوده و كماله ، و إلى ما وجد وجوداً ناقصاً و جعل فيه قوّة قبول الكمال بعد أن وجد شرطه ، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فإنّ النواة ليست بتفّاح ولا نخل إلّا أنّها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلاً

(١) أخرج الديلمي في الفردوس من حديث معاذ كما في كنوز الحقائق للمناوي باب الياء هكذا « يا معاذ حسّن خلقك للناس » .

إن انضاف إليها التربية ولاتصير تفاحاً أصلاً ولابالتربية فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب و الشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لايبقى لهماأثرلم نقدر عليه أصلاً ولوأردنا إسلاسهما و انقياد هما بالرياضة و المجاهدة قدرنا عليه و قد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا و وصولنا إلى الله تعالى ، نعم الجبلات مختلفة فبعضها سريعة القبول و بعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان أحدهما قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة و الغضب والتكبر موجودة في الإنسان ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التغيير قوة الشهوة فإنها أقدم وجوداً إذ الصبي في مبدء الفطرة تخلق له الشهوة ثم بعدسبع سنين ربما يخلق له الغضب وبعدذلك يخلق له قوة التميز .

والسبب الثاني أن الخلق قديتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً والناس فيه على أربع مراتب :

الأولى هوالإنسان الغافل الذي لايميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقي كما فطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلايحتاج إلا إلى معلم مرشد و إلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة ، فيحسن خلقه فيأقرب زمان .

والثانية أن يكون قدعرف قبح القبيح لكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهواته و إعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول إذقدتضاعفت الوظيفة عليه إذعليه وظيفتان : الأولى قلع مارسخ في نفسه من كثرة التعود للفساد والاُخرى أن يغرس في نفسه صفة التعود للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم .

والثالثة أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل و تربى على ذلك ، فهذا يكادتمتنع معالجته ولايرجى صلاحه إلا على الندور و ذلك لتضاعف أسباب الضلال .

والرابعة أن يكون مع وقوع نشوئه على الرّأي الفاسد و تربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشرّ و استهلاك النّفوس و يباهي به ، و يظنّ أنّ ذلك يرفع من قدره وهذا هو أصعب المراتب وفي مثله قيل : و من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذّئب .

والأوّل من هؤلاء جاهل فقط ، والثاني جاهل وضالٌ ، والثالث جاهل وضال وفاسق ، والرّابع جاهل وضالٌ وفاسقٌ وشريرٌ .

وأمّا الخيال الآخر الّذي استدلّوا به و هو أنّ الآدميّ مادام حيّاً فلاينقلع عنه الغضب والشهوة وحبّ الدّنيا وسائر هذه الأخلاق . فهذا غلطٌ وقع لطائفة ظنّوا أنّ المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلّيّة و محوها وهيهات فإنّ الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلّة لو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النّسل ولو انعدم الغضب بالكلّية لم يدفع الإنسان عن نفسه مايهلكه ولهلك ، ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لامحالة حبّ المال الّذي يوصل إلى الشهوة حتّى يحمل ذلك على إمساك المال ، وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلّيّة بل المطلوب ردّها إلى الاعتدال الّذي هو وسط بين الإفراط و التفريط ، فالمطلوب في صفة الغضب حسن الحميّة وذلك بأن يخلو عن التهوّر و عن الجبن جميعاً وبالجملة أن يكون في نفسه قويّاً ومع قوّته منقاداً للعقل ، ولذلك قال الله تعالى : «أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم»(١) وصفهم بالشدّة و إنّما تصدر الشدّة عن الغضب ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفّار و كيف يقصد قلع الغضب و الشهوة بالكلّية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكّوا عن ذلك ، قال سيّدهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إنّما أنا بشرٌ أغضب كما يغضب البشر»(٢) وكان يتكلّم بين يديه بمايكرهه فيغضب حتّى تحمرّ و جنتاه ولكن لايقول إلّا حقّاً(٣) فكان الغضب لايخرجه عن الحقّ ، قال الله تعالى :

(١) الفتح : ٢٩ .
(٢) أخرجه مسلم ج٨ ص ٢٧ من حديث أنس .
(٣) تقدم فى المجلد الرابع ابواب اخلاق النبى صلى الله عليه و آله مايدل على ذلك .

« و الكاظمين الغيظ »[١] و لم يقل : و الفاقدين الغيظ ، فردّ الغضب والشهوة إلى الاعتدال بحيث يقهر واحد منهما العقل ولايغلبه ، بل يكون العقل هو الضابط لهما و الغالب عليهما ممكن . و هو المراد بتغيير الخلق فإنّه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لايقوى عقله على دفعها عن الانبساط إلى الفواحش ، وبالرّياضة تعود إلى حدّ الاعتدال ، فدلّ على أنّ ذلك ممكنٌ والتجربة و المشاهدة تدلّ على ذلك دلالة لايشكّ فيها ، و الّذي يدلّ على أنّ المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أنّ السخاء خلق مطلوب شرعاً وهووسط بين طرفي التبذير و التقتير وقدأثنى الله تعالى عليه .

فقال : « و الّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً »[٢].

وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط »[٣]

و كذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره و الخمود قال الله تعالى : « كلوا و اشربوا ولاتسرفوا »[٤] .

و قال تعالى في الغضب : « أشدّاء على الكفّار رُحَماء بينهم »[٥] .

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « خير الاُمور أوساطها »[٦] وهذا له سرّ وتحقيقٌ وهو أنّ السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم ، قال الله تعالى : « إلّا من أتى الله بقلب سليم »[٧] والبخل من عوارض الدّنيا والجود أيضاً من عوارض الدّنيا وشرط القلب أن يكون سليماً بينهما أي لايكون ملتفتاً إلى المال ولايكون حريصاً على إنفاقه فإنّ الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أنّ الحريص على الإمساك مصروف القلب إليه ، فكان كمال القلب في أن يصفو عن الوصفين جميعاً

---

(١) آل عمران : ١٣٤ . (٢) الفرقان : ٦٧ .

(٣) الاسراء : ٢٩ . (٤) الاعراف : ٣٠ .

(٥) الفتح : ٢٩ .

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب من رواية مطرف بن عبدالله معضلا كما في المغني .

(٧) الشعراء : ٨٩ .

فإذا لم يمكن ذلك في الدّنيا طلبنا ما هو الأشبه بعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط ، فإنّ الفاتر لا حارّ ولا بارد وهو وسط بينهما كأنّه خال عن الوصفين فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير والشجاعة بين الجبن والتهوّر ، والعفّة بين الشره والخمود ، وكذلك سائر الأخلاق ، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم فهذا هو المطلوب وهو ممكنٌ جدّاً ، نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبّح عنده الغضب رأساً ويذمّ إمساك المال رأساً ولا يرخّص له في شيء من ذلك لأنّه لو رخّص له في أدنى شيء منه اتّخذ ذلك عذراً في استيفاء بخله وغضبه ، وظنّ أنّه القدر المرخّص فيه فإذا قصد قلع الأصل وبالغ فيه لم يتيسّر له إلّا كسر سورته بحيث يعود إلى الاعتدال ، فالصّواب له أن يطلب قلع الأصل حتّى يتيسّر له القدر المقصود ، ولا يكشف هذا السرّ للمريد فإنّه موضع غرور الحمقى إذ يظنّ بنفسه أنّ غضبه بحقّ وأنّ إمساكه بحقّ .

✡ (بيان السبب الذى به ينال حُسن الخلق على الجملة) ✡

قد عرفت أنّ حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوّة العقل بكمال الحكمة وإلى اعتدال قوّة الغضب والشهوة وكونهما مطيعين للعقل والشرع ، وهذا الاعتدال يحصل على وجهين أحدهما بجود إلهي وكمال فطريّ بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل ، حسن الخلق ، قد كفى سلطان الشهوة والغضب ، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع ، فيصير بغير معلّم عالماً وبغير مؤدّب متأدّباً كعيسى ويحيى عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام ، ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب فربّ صبيّ يخلق صادق اللّهجة سخيّاً جريّاً ، وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالتعوّد ومخالطة المتخلّقين بهذه الأخلاق ، وربما يحصل بالتعلّم والوجه الثاني لاكتساب هذه الأخلاق المجاهدة والرياضة ، وأعني بها حمل النفس على الأعمال الّتي يقتضيها الخلق المطلوب ومن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلّف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال فلا يزال يواظب عليه

تكلّفاً مجاهداً لنفسه فيه حتّى يصير ذلك له طبعاً ويتيسّر عليه، فيصير نفسه جواداً، وكذلك من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وغلب عليه التكبّر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدّة مديدة، وهو فيها مجاهدٌ نفسه ومتكلّف إلى أن يصير ذلك له خلقاً وطبعاً فيتيسّر عليه، وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق وغايتها أن يصير الفعل الصّادر منه لذيذاً فالسخيّ هو الّذي يستلذّ بذل المال دون الّذي يبذله عن كراهة، والمتواضع هو الّذي يستلذّ التواضع، ولن يترسّخ الأخلاق الدّينيّة في النفس مالم تتعوّد جميع العادات الحسنة ولم يترك جميع العادات السيّئة، ومالم يواظب عليها مواظبة من يشتاق معها إلى الأفعال الجميلة ويتنعّم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألّم بها كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جعلت قرّة عيني في الصّلاة»[1] ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهية واستثقال فهو النقصان ولاينال كمال السعادة به، نعم المواظبة عليه بالمجاهدة خير ولكن بالاضافة إلى تركه لابالاضافة إلى فعله عن طوع، ولذلك قال تعالى: «إنّها لكبيرة إلّا على الخاشعين»[2] وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اعبدالله في الرّضا فان لم تستطع ففي الصبر على ماتكره خيرٌ كثير»[3].

ثمّ لايكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون كذلك على الدّوام، وفي جملة العمر، وكلّما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل، ولذلك لمّا سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن السعادة فقال: «طول العمر في طاعة الله»[4]، ولذلك كره الأنبياء والأولياء عليهم السلام الموت فإنّ الدّنيا مزرعة الآخرة، كلّما كانت العبادات أكثر لطول العمر كان الثواب أجزل، والنفس أزكى وأطهر، والأخلاق أقوى

(١) أخرجه النسائي وابوداود من حديث أنس وقد تقدم، وفي الكافي ج ٥ ص ٣٢١.
(٢) البقرة: ٤٥.
(٣) أخرجه الطبراني كما في المغني.
(٤) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب وأبومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعيف كما في المغني.

وأرسخ ، وإنّما مقصود العبادات تأثيرها في القلب وإنّما تتأكّد آثارها بكثرة المواظبة على العبادات ، وغاية هذه الأخلاق أن ينقلع عن النفس حبّ الدّنيا ويترسّخ فيها حبّ الله تعالى ، فلا يكون شيء أحبّ إليه من الله سبحانه و من لقاء الله ، فلا يستعمل جميع ماله إلّا على الوجه الّذي يوصله إليه ، و غضبه و شهوته من المسخّرات له فلا يستعملهما إلّا على الوجه الّذي يوصله إلى الله سبحانه ، و ذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والعقل ، ثمّ يكون مع ذلك فرحاً به و ملتذّاً ، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة قرّة عين و مصير العبادات لذيذة فإنّ العادة تقتضي في النفس عجائب أعجب من ذلك ، فإنّك ترى الملوك و المتنعّمين في أحزان دائمة ، و يرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من اللّذّة و الفرح بقماره و ما هو فيه ما يستنكر معه فرح الناس بغير القمار ، مع أنّ القمار ربما سلب ماله و أخرب داره و تركه مفلساً ، ومع هذا فهو يحبّه ويلتذّ به ، وذلك لطول ألفه و ردّه نفسه إليه مدّة ، و كذلك اللّاعب بالحمام قد يقف طول نهاره في حرّ الشمس قائماً على رجليه و هو لا يحسّ بألمه لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها و تحليقها في جوّ السماء وعودها بل ترى الفاجر العيّار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع و الصبر على السياط وعلى أن يتقدّم به إلى الصلب ، وهو مع ذلك متبجّج بنفسه وبقوّته في الصبر على ذلك حتّى يرى ذلك فخراً لنفسه ، حتّى يقطع الواحد منهم إرباً إرباً على أن يقرّ بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصرّ على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحاً بما يعتقده كمالاً وشجاعة ورجوليّة ، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرّة عينه و سبب افتخاره ، بل لا حالة أخسّ و أقبح من حال المخنّث في تشبّهه بالاناث في نتف الشعر و وشم الوجه و مخالطة النساء ، و ترى المخنّث في فرح بحاله وافتخار بكماله في تخنّثه حتّى يتباهى به مع المخنّثين ، حتّى يجري بين الحجّامين و الكنّاسين التفاخر و المباهاة كما يجري بين الملوك و العلماء ، و كلّ ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدّوام مدّة مديدة ، و مشاهدة ذلك من المخالطين و المعارف ، فإذا كانت النفس بالعادة تستلذّ الباطل وتميل إليه وإلى القبايح فكيف لا تستلذّ الحقّ لو ردّت إليه مدّة

و ألزمت المواظبة عليه بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين و قد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فأمّا ميلها إلى الحكمة و حبّ الله تعالى و معرفته و عبادته فهو كالميل إلى الطعام و الشراب فهو مقتضى طبع القلب فإنّه أمر ربّاني ، و ميله إلى مقتضيات الشهوات غريب من ذاته ، عارض على طبعه ، و إنّما غذاء القلب الحكمة و المعرفة وحبّ الله تعالى : ولكن انصرف عن مقتضى طبعه بمرض حلّ به كما يحلّ المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببا حياتها ، فكلّ قلب مال إلى حبّ شيء سوى حبّ الله فلا ينفكّ عن مرض بقدر ميله إلّا إذا أحبّ ذلك الشيء لكونه معيناً له على حبّ الله تعالى و على دينه ، فعند ذلك لا يدلّ ذلك على المرض فإذن قد عرفت بهذا قطعاً أنّ هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرّياضة و هي تكلّف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، و هذا من عجيب العلاقة بين القلب و الجوارح أعني النفس و البدن ، فإنّ كلّ صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتّى تتحرّك لا محالة على وفقها و كلّ فعل يجري على الجوارح فإنّه يرتفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور يعرف ذلك بمثال .

و هو أنّ من أراد أن يصير الحذق في الكتابة صفة له نفسيّة حتّى يصير كاتباً بالطبع فلا طريق له إلى ذلك إلّا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق و يواظب عليه مدّة طويلة و هو حكاية الخطّ الحسن فإنّ فعل الكاتب هو الخطّ الحسن فيتشبّه بالكاتب تكلّفاً ، ثمّ لا يزال يواظب عليه حتّى يصير ذلك صفة راسخة في نفسه فيصدر منه في الآخر الخطّ الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الابتداء تكلّفاً ، فكان الخطّ الحسن هو الّذي جعل خطّه حسناً ولكن الأوّل بتكلّف إلّا أنّه ارتفع منه أثر إلى النفس ، ثمّ انخفض من النفس اثر إلى الجارحة ، فصار يكتب الخطّ الحسن بالطبع ، و كذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلّا أن يتعاطى أفعال الفقهاء و هو التكرار للفقه حتّى ينعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس فكذلك من أراد أن يصير سخيّاً عفيفاً حليماً متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء

تكلّفاً حتّى يصير له ذلك بالعادة طبعاً ولا علاج له إلاّ ذاك ، وكما أنّ طالب فقه النفس لا ييأس من نيل هذه الرّتبة بتعطيل ليلة ولاينالها بتكرار ليلة ، فكذلك طالب تزكية النفس و تكميلها و تحليتها بالأخلاق الحسنة لاينالها بعبادة يوم ولا يحرمها بعصيان يوم ، و هو معنى قولنا أنّ الكبيرة الواحدة لا يوجب الشّقاء المؤبّد ، ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها ، ثمّ تتداعى قليلاً حتّى يأنس القلب بالكسل ويهجر التحصيل رأساً فيفوته فضيلة الفقه ، فكذلك صغائر المعاصي يجرّ بعضها إلى بعض حتّى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة ، وكما أنّ تكرار ليلة لايحسّ تأثيره في تفقيه النفس بل يظهر فقه النفس شيئاً فشيئاً على التدريج مثل نموّ البدن و ارتفاع القامة ، فكذلك الطاعة الواحدة لا يحسّ تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فإنّ الجملة الكثيرة منها مؤثّرة ، وإنّما اجتمعت الجملة من الآحاد فلكلّ واحد منها تأثير فما من طاعة إلاّ ولها أثر وإن خفي فلها لامحالة ثواب لأنّ الثواب بإزاء الأثر و كذلك المعصية ، و كم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوّف نفسه يوماً فيوماً إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه ، فكذا من يستهين بصغائر المعاصي و يسوّف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بغتة أو تترا كم ظلمة الذّنوب على قلبه و تتعذّر عليه التوبة ، إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيّداً بسلاسل الشهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها ، و هو المعنى بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً الآية - »[١] ولذلك قال عليّ عليه السلام : « الإيمان يبدو في القلب لمظة بيضاء فكلّما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض ، فإذا استكمل العبد الإيمان ابيضّ القلب كلّه ، و إنّ النفاق يبدو في القلب نكتة سوداء كلّما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسودّ القلب كلّه »[٢].

---

(١) سورة يس : ٦ .

(٢) أورد الشريف الرضي - رحمه الله - صدره في النهج باب مختار غريب كلامه عليه السلام تحت رقم ٥ واللمظة - بضم اللام وسكون الميم - مثل النكتة اونحوها من البياض

فإذن قد عرفت أنّ الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع و الفطرة و تارة باعتياد الأفعال الجميلة و تارة بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير و إخوان الصلاح إذ الطبع يسرق من الطبع الشرّ والخير جميعاً ، فمن تظاهرت في حقّه الجهات الثلاث حتّى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلّماً فهو في غاية الفضيلة ، و من كان رذلاً بالطبع واتّفق له أقران السوء فتعلّم منهم وتيسّرت له أسباب الشرّ حتّى تعوّدها فهو في غاية البعد من الله تعالى ، وبين الرّتبتين مَن اختلف به هذه الجهات ، و لكلّ درجة في القرب و البعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ✡ و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » (١)، « و ما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٢) .

✡(بيان تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق)✡

قد عرفت من قبل أنّ الاعتدال في الأخلاق هو صحّة النفس ، و الميل عن الاعتدال سقم و مرض فيها كما أنّ الاعتدال في مزاج البدن هو صحّة له و الميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتّخذ البدن مثالاً فنقول : مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديّة عنها و كسب الفضائل والأخلاق الجميلة لها وجلبها إليها مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه و كسب الصحّة له وجلبها إليه ، و كما أنّ الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وإنّما تعتري العلّة المغيّرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كلّ مولود يولد معتدلاً صحيحاً على الفطرة ، و إنّما أبواه يهوّدانه أوينصّرانه أويمجّسانه ، أي بالتعوّد والتعلّم يكتسب الرّذائل ، و كما أنّ البدن في الابتداء لايخلق كاملاً ، و إنّما يكمل ويقوى بالنشوء و التربية بالغذاء ، فكذلك النفس يخلق ناقصة قابلة للكمال ، و إنّما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم ، و كما أنّ البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحّة وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحّة إليه فكذا النفس منك إن كانت زكيّة

---

(١) الزلزال : ٧ و ٨ .　(٢) النحل : ٣٣ .

طاهرة مهذّبة الأخلاق فينبغي أن تسعى لحفظها و حفظ صحّتها و جلب مزيد قوّة إليها واكتساب زيادة صفائها و إن كانت عديمة الكمال و الصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها و كما أنّ العلّة المغيّرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلّا بضدّها إن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذا الرّذيلة الّتي هي مرض القلب علاجها بضدّها فيعالج مرض الجهل بالتعلّم و مرض البخل بالتسخّي و مرض الكبر بالتواضع و مرض الشّره بالكفّ عن المشتهي تكلّفاً و كما أنّه لابدّ من احتمال مرارة الدّواء وشدّة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لابدّ من احتمال مرارة المجاهدة و الصبر لمداواة مرض القلب ، بل مرض القلب أولى فإنّ مرض البدن يحصل منه الموت و مرض القلب و العياذ بالله يحصل منه عذاب يدوم بعد الموت أبد الآباد ، و كما أنّ كلّ مبرّد لايكفي لعلّة سببها الحرارة إلّا إذا كان على حدّ مخصوص ، و يختلف ذلك بالشدّة و الضعف و الدّوام وعدمه و بالكثرة و القلّة ولابدّ له من معيار يعرف به مقدار النافع منه و الضارّ ، فإن لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقيض الّذي يعالج به الأخلاق لابدّ له من عيار و كما أنّ عيار الدّواء مأخوذ من عيار العلّة حتّى أنّ الطبيب لايعالج ما لم يعرف أنّ العلّة من حرارة أو برودة و إن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أو قويّة فإذا عرف ذلك التفت معه إلى أحوال البدن و أحوال الزّمان و صناعة المريض وسنّه و سائر أحواله ، ثمّ يعالج بحسبها فكذلك الشيخ المتبوع الّذي يطبّ نفوس المريدين و يعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرّياضة والتكاليف في فنّ مخصوص وفي طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم كما أنّ الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرّياضة أهلكهم وأمات قلوبهم بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي سنّه وحاله ومزاجه وما يحتمله بنيته من الرّياضة و يبني عليه رياضته .

أقول: «ثمّ شرع أبوحامد في ذكر جزئيّات طريق تعليم الشيخ للمريد و لمّا

كان بناء أكثرها على إيجاب متابعة من يجوز عليه الخطأ و على بدع أخرى تخالف طريقة أهل البيت عليهم السلام كما يأتي بيانه طويناها على أن مالا بأس به من ذلك كان مما تكرر ذكره في كلامه سابقاً ولاحقاً ».

(بيان علامات مرض القلب وعلامات عوده الى الصحة)

اعلم أن كما أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به و إنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر مع نوع من الاضطراب فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش ، و مرض العين أن يتعذر عليها الابصار ، فكذلك مرض القلب هو أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله وهو العلم و الحكمة و المعرفة وحب الله تعالى و عبادته ، و التلذذ بذكره و إيثار ذلك على كل شهوة سواه ، و الاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه ، قال الله تعالى : « وما خلقت الجن و الانس إلا ليعبدون » (١) ففي كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة و المعرفة وخاصية النفس التي للآدمي ما يتميز به عن البهائم ، فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والابصار وغيرها ، بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه وأصل الأشياء و موجدها و مخترعها الذي جعلها أشياء هو الله تعالى ، فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله فكأنه لم يعرف شيئاً ، وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله أحبه ، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم - إلى قوله - أحب إليكم من الله و رسوله الآية » (٢) فمن كان عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض ، كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة ، فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها ، و مرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه ، و إن علمه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإن دواءه مخالفة الشهوات وهو

---

(١) الذاريات : ٥٦ . (٢) التوبة : ٢٤ .

نزع الرّوح من البدن ، و إن وجد من نفسه قوّة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه ، فإنّ الأطباء هم العلماء والمرض قد استولى عليهم و الطبيب المريض قلّما يلتفت إلى علاجه ، فلهذا صار الدّاء عضالاً و المرض مزمناً و اندرس هذا العلم و أنكر بالكلّيّة طبّ القلوب وأنكر مرضها و أقبل الخلق على حبّ الدّنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات و باطنها عادات و مرايات ، فهذه علامة أصل المرض.

فأمّا علامة عوده إلى الصحّة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلّة الّتي يعالجها فان كان يعالج داء البخل و هو المهلك المبعد عن الله فإنّما علاجه ببذل المال و إنفاقه ، و لكنّه قد يبذل المال إلى حدّ يصير به مبذّراً ، فيكون التبذير أيضاً داء ، ويكون كمن يعالج البرودة بالحرارة حتّى تغلب الحرارة ، فهو أيضاً داء ، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة و البرودة ، فكذلك المطلوب الاعتدال بين التقتير و التبذير حتّى يكون على الوسط من ذلك و في غاية البعد عن الطرفين ، فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الّذي يوجبه الخُلق المذموم ، فإن كان أسهل عليك و ألذّ من الّذي يضادّه فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذّ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقّه فاعلم أنّ الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل فان صار البذل على غير المستحقّ ألذّ عندك وأخفّ عليك من الإمساك بالحقّ فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك ، ولاتزال تراقب نفسك وتستدلّ على خلقك بتيسّر الأفعال و تعسّرها حتّى تنقطع علاقة قلبك عن المال فلا تميل إلى بذله و لا إلى إمساكه بل يصير عندك كالماء فلا تطلب منه إلّا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ، ولا يترجّح عندك البذل على الإمساك و لا الإمساك على البذل ، فكلّ قلب صار كذلك فقد أتى الله بقلب سليم عن هذا المقام خاصّة ، و يجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتّى لا يكون له علاقة بشيء ممّا يتعلّق بالدّنيا حتّى ترتحل النفس عن الدّنيا منقطعة العلائق عنها غير ملتفتة إليها ولا متشوّقة إلى أسبابها فعند ذلك ترجع إلى ربّها رجوع النفس المطمئنّة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله من

النبيّين و الصدّيقين و الشهداء والصالحين و حسن أولئك رفيقاً ، ولمّا كان الوسط الحقيقيّ بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدقّ من الشعر و أحدّ من السيف ، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدّنيا جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة ، و قلّما ينفكّ العبد عن ميل عن الصراط المستقيم أعني الوسط حتّى لايميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه متعلّقاً بالجانب الّذي مال إليه ، فلذلك لاينفكّ عن عذاب ما واجتياز على النار ، و إن كان مثل البرق قال الله تعالى : « و إن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً ۞ ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا »[١] أي الّذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه ، ولأجل عسر الاستقامة وجب على كلّ عبد أن يدعو الله سبحانه في كلّ يوم سبع عشر مرّة بقوله : «اهدنا الصراط المستقيم » إذ قد وجبت قراءة فاتحة الكتاب في كلّ ركعة ، فرأى بعضهم رسول الله صلّى الله عليه وآله في المنام[٢] فقال : قد قلت : يا رسول الله « قد شيّبتني سورة هود » فلم قلت ذلك ؟ قال صلّى الله عليه وآله : لقوله تعالى : « فاستقم كما اُمرت »[٣] فالاستقامة على سواء الطريق في غاية الغموض . ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقة الاستقامة ، فكلّ من أراد النّجاة فلانجاة له إلّا بالعمل الصالح ولاتصدر الأعمال الصّالحة إلّا عن الأخلاق الحسنة فليتفقّد كلّ عبد صفاته وأخلاقه وليعدّدها وليشتغل بعلاج واحد واحد منها على الترتيب .

۞ (بيان الطريق الذى به يعرف الانسان عيوب نفسه) ۞

اعلم أنّ الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه ، فمن كملت بصيرته لم تخف عليه عيوبه وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكنّ أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولايرى الجذع في عين نفسه ، فمن أراد أن يقف على عيب نفسه فله أربع طرق :

---

(١) مريم : ٧١ و ٧٢ .

(٢) راجع تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٧ ذيل الاية .

(٣) هود : ١١٣ .

الأوّل أن يجلس بين يدي بصير بعيوب النفس ، مطلع على خفايا الآفات ويحكّمه على نفسه ويتّبع إشارته في مجاهدته ، وهذا قد عزّ في هذا الزّمان وجوده .

الثاني أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديّناً فينصبه رقيباً على نفسه ليراقب أحواله و أفعاله ، فمايكرهه من أخلاقه و أفعاله وعيوبه الباطنة و الظاهرة ينبّهه عليه ، فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمّة الدّين كان بعضهم يقول : « رحم الله امرء أهدى إليّ عيوبي » (١) ، و كلّ من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقلّ إعجاباً وأعظم اتّهاماً لنفسه ، إلّا أنّ هذا أيضاً قد عزّ ، فقلّ في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب أويترك الحسد فلا يزيد على القدر الواجب ، فلايخلو أصدقاؤك عن حسود ، أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيباً ، أو عن مداهن يخفي عنك بعض عيوبك ، لهذا كان داود الطائيّ قد اعتزل عن الناس فقيل له : لمَ لا تخالط الناس؟ قال : ماذا أصنع بأقوام يخفون عنّي ذنوبي .

فقد كانت شهوة ذوي الدّين أن ينبّهوا على عيوبهم بنصيحة غيرهم ، وقد آل الأمر إلى أمثالنا و أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرّفنا عيوبنا ويكاد أن يكون هذا مفصحاً عن ضعف الإيمان فإنّ الأخلاق السيّئة حيّات و عقارب لدّاغة و لو نبّهنا منبّه على أنّ تحت ثوبنا عقرباً لتقلّدنا منه منّة و فرحنا به و اشتغلنا بإبعاد العقرب وقتلها ، وإنّما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوماً فمادونه ، ونكاية الأخلاق الرّديّة على صميم القلب ، و عسى أن يدوم بعد الموت أبداً أو آلافاً من السنين ، ثمّ إنّا لانفرح بمن ينبّهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثله ونقول أنت أيضاً تصنع كيت و كيت و تشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه و يشبه أن يكون هذا من قساوة القلب الّتي أثمرته كثرة الذّنوب ، وأصل كلّ ذلك من ضعف الإيمان ، فنسأل الله تعالى أن يعرّفنا رشدنا ، و يبصّرنا بعيوب أنفسنا ، و يشغلنا بمداواتها ويوفّقنا للقيام بشكر من يطّلعنا على مساوينا بمنّه وفضله .

الطريق الثالث أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من لسان أعدائه فإنّ عين السخط

---

(١) راجع تحف العقول ص ٣٦٦ .

تبدي المساوي، ولعلّ انتفاع الإنسان بعدوّ مشاحن يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه و يمدحه و يخفي عنه عيوبه إلّا أنّ الطبع مجبولٌ على تكذيب العدوّ، وحمل ما يقوله على الحسد، ولكنّ البصير لايخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإنّ مساويه لابدّ وأن تنتشر على ألسنتهم.

الطريق الرابع أن يخالط الناس فكلّ ما يراه مذموماً فيما بين الخلق فيطالب نفسه بتركه، و ما يراه محموداً يطالب نفسه به و ينسب نفسه إليه، فإنّ المؤمن مرآة المؤمن فيرى في عيوب غيره عيوب نفسه، و ليعلم أنّ الطباع متقاربة في اتّباع الهوى فما يتّصف به واحد من الأقران لا ينفكّ القرين الآخر من أصله، أو عن أعظم منه، أو عن شيء منه، فيتفقّد نفسه و يطهّرها عن كلّ ما يذمّه من غيره، وناهيك بهذا تأديباً فلو ترك الناس كلّهم مايكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدّب، قيل لعيسى عليه السلام: من أدّبك؟ فقال: «ما أدّبني أحدٌ، رأيت جهل الجاهل فجانبته» وهذا كلّه حال من فقد شيخاً زكيّاً عارفاً بصيراً بعيوب النّفس، مشفقاً ناصحاً في الدّين، فارغاً عن تهذيب نفسه، مشغولاً بتهذيب عباد الله ناصحاً لهم، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الّذي يخلّصه من مرضه، و ينجيه من الهلاك الّذي هو بصدده.

☼(بيان شواهد النقل من أرباب البصائر)☼

و شواهد الشرع على أنّ الطريق في معالجة أمراض القلوب بترك الشهوات وأنّ مادة أمراضها هي اتّباع الشهوات

اعلم أنّ ما ذكرناه إن تأمّلته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك و انكشفت لك علل القلوب وأمراضها و أدويتها بنور العلم واليقين، فإن عجزت عن ذلك فلاينبغي أن يفوتك التصديق و الإيمان على سبيل التلقّي والتقليد لمن يستحقّ التقليد فإنّ للإيمان درجات كما أنّ للعلم درجات والعلم يحصل بعد الإيمان و هو وراءه، قال الله تعالى: «يرفع الله الّذين آمنوا منكم و الّذين اُوتوا العلم درجات»(١) فمن

(١) المجادلة: ١١.

صدّق بأنّ مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله تعالى ولم يطّلع على سببه و سرّه فهو من الّذين آمنوا ، وإذا اطّلع على ماذكرناه من أغوار الشهوات وأسرارها فهو من الّذين اُوتوا العلم و كلاًّ وعد الله الحسنى ، و الّذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنّة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصى .

قال الله تعالى : « ونهى النفس عن الهوى ۞ فإنّ الجنّة هي المأوى » (١).

و قال تعالى : « اُولئك الّذين امتحن الله قلوبهم للتّقوى » (٢) قيل : نزع منها محبّة الشهوات .

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « المؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ، ومنافق يبغضه ، و كافرٌ يقاتله ، و شيطان يضلّه ، ونفس تنازعه » (٣) فبيّن أنّ النفس عدوٌّ منازع يجب مجاهدته .

و روي أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى داود عليه السلام : « يا داود حذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإنّ القلوب المتعلّقه بشهوات الدّنيا عقولها عنّي محجوبة » (٤).

و قال عيسى عليه السلام : « طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره » (٥).

و قال نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم لقوم قدموا من الجهاد : « مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، فقالوا : يا رسول الله و ما الجهاد الأكبر ؟ فقال : جهاد النفس » (٦).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عزّ وجلّ » (٧) .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « كفّ أذاك عن نفسك و لا تتابع هواها في معصية الله إذاً

---

(١) النازعات : ٤٠ و ٤١ . (٢) الحجرات : ٣ .

(٣) أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الاخلاق من حديث انس بسند ضعيف كما في المغني .

(٤) رواه المفيد ـ رحمه الله ـ في الاختصاص ص ٣٣٥ .

(٥) تنبيه الخواطر ج ١ ص ٩٦ .

(٦) تقدم آنفاً في شرح عجائب القلب .

(٧) أخرجه الترمذي و ابن حبان في صحيحه عن فضالة بن عبيد بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضاً إلّا أن يغفر الله تعالى ويستر برحمته »[١].

قال يحيى بن معاذ : جاهد النفس بأسياف الرّياضة و الرّياضة على أربعة أوجه : القوت من الطعام ، والغمض من المنام ، و الحاجة من الكلام ، وحمل الأذى من جميع الأنام ، فيتولّد من قلّة الطعام موت الشهوات ، و من قلّة المنام صفو الإرادات ، و من قلّة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات ، وليس على العبد شيء أشدّ من الحلم عند الجفاء و الصبر على الأذى فإذا تحرّكت من النفس إرادة الشهوات و الآثام و هاجت منها حلاوة فضول الكلام جرّدت عليها سيف قلّة الطّعام من غمد التهجّد وقلّة المنام ، وضربتها بأيدي الخمول وقلّة الكلام ، حتّى ينقطع من الظلم والانتقام فتأمن بوائقها في سائر الأيّام وتصفّيها من ظلم شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها فتصير عند ذلك روحانيّة لطيفة و نورانيّة خفيفة فتجول في ميدان الخيرات و تسير في مسالك الطاعات كالفرس الفاره في الميدان و كالملك المتنزّه في البستان .

و قال أيضاً : أعداء الإنسان ثلاثة : دنياه وشيطانه و نفسه فاحترس من الدّنيا بالزّهد فيها ، و من الشيطان بمخالفته ، ومن النفس بترك الشهوات .

و قال بعض الحكماء : من استولت عليه النفس صار أسيراً في حبّ شهواتها ، مسجوناً في سجن هواها ومنعت قلبه الفوائد .

و قال جعفر بن حميد : أجمعت العلماء و الحكماء على أنّ النعيم لا يدرك إلّا بترك النعيم .

و قال أبو يحيى الورّاق : من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات .

و قال وهيب بن الورد : من أراد شهوات الدّنيا فليتهيّأ للذّل .

و يروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد ما ملك خزائن الأرض : يا يوسف إنّ الحرص والشهوة تصيّر الملوك عبيداً وإنّ الصبر والتقوى يصيّر العبيد

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

ملوكاً ، فقال يوسف عليه السلام : قال الله تعالى : «إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لايضيع أجر المحسنين» (١).

و قال عليّ عليه السلام : «من اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات في الدّنيا» (٢).

فإذن قد اتّفق العلماء و الحكماء على أنّ الطريق إلى سعادة الآخرة لايتمّ إلّا بنهي النفس عن الهوى و مخالفة الشهوات ، فالإيمان بهذا واجبٌ

و أمّا علم تفصيل ما يترك من الشهوات و ما لا يترك فينكشف بما قدّمناه و حاصل الرّياضة وسرّها أن لاتتمتّع النفس بشيء ممّا لا يوجد معها في القبر إلّا بقدر الضرورة فيكون مقتصراً من الأكل و النكاح واللّباس والمسكن و كلّ ما هو مضطرٌ إليه على قدر الحاجة والضرورة فإنّه لو تمتّع بشيء منها أنس به و ألفه ، و إذا مات تمنّى الرّجوع إلى الدّنيا بسببه ، ولا يتمنّى الرّجوع إلى الدّنيا إلّا من لا حظّ له في الآخرة بحال ، ولا خلاص عنه إلّا بأن يكون القلب مشغولاً بمعرفة الله تعالى و حبّه و التفكّر فيه و يقتصر من الدّنيا على ما يدفع به عوائق الفكر و الذكر فقط ، فمن لايقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه ، فالناس فيه أربعة : رجل استغرق ذكر الله قلبه فلايلتفت إلى الدّنيا إلّا في ضرورات المعيشة فهو من الصدّيقين ولا ينتهي إلى هذه الرتبة إلّا بالرّياضة الطويلة و الصبر عن الشهوات مدّة مديدة ، و الثاني رجل استغرقت الدّنيا قلبه فلم يبق لله عزّ و جلّ ذكر في قلبه إلّا من حيث حديث النفس حيث يذكره باللسان ، وهذا من الهالكين ، والثالث رجلٌ اشتغل بالدّنيا والدّين لكنّ الغالب على قلبه هو الدّين فهذا لابدّ له من ورود النار إلّا أنّه ينجو منها سريعاً بقدر قوّة غلبة ذكر الله على قلبه ، والرابع رجلٌ اشتغل بهما

---

(١) يوسف : ٩٠ ، وروى الصدوق فى الامالى ص ٤ من طريق العامة عن وهب بن منبه قال : « وجدت فى بعض كتب الله عزوجل أن يوسف مرفى موكبه على امرأة العزيز وهى جالسة على مزبلة ، فقالت : الحمدلله الذى جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً ، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً الخ » .

(٢) نهج البلاغة باب الحكم والمواعظ تحت رقم ٣٠ و « سلاعنه » اى نسى وذهل ذكره .

جميعاً لكنّ الدّنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النّار لكن يخرج منها لامحالة لقوّة ذكر الله في قلبه و تمكّنه من صميم فؤاده و إن كان ذكر الدّنيا أغلب عليه.

و ربّما يقول القائل: إنّ التنعّم بالمباح مباحٌ فكيف يكون التنعّم سبب البعد من الله تعالى؟ فهذا خيالٌ ضعيفٌ بل حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة، والمباح الخارج عن قدر الحاجة من الدّنيا أيضاً، وسيأتي ذلك في كتاب ذمّ الدّنيا فإذن لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الله تعالى مالم يمتنع النفس من التنعّم من المباح فإنّ النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة و الفضول فحقّه أن يلزمه السكوت إلّا عن المهمّات حتّى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلّم إلّا بحقّ فيكون سكوته عبادة، و كلامه عبادة، ومهما اعتاد العين رمى البصر إلى كلّ شيء جميل لم تتحفّظ عن النظر إلى ما لا يحلّ، و كذلك سائر الشهوات لأنّ الّذي يشتهي به الحلال هو بعينه يشتهي به الحرام فالشهوة واحدة، و قد وجب على العبد منعها عن الحرام و إن لم يتعوّد الاقتصار على قدر الضّرورة في الشهوات غلبته الشهوة.

فهذه إحدى آفات المباحات، و وراء هذه آفة أعظم من هذه وهو أنّ النّفس تفرح بالتنعّم بالدّنيا وتركن إليها و تطمئنّ بها أشراً و بطراً حتّى تصير ممتلية بها كالسكران الّذي لا يفيق من سكر. وذلك لأنّ الفرح بالدّنيا سمّ قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الحزن و الخوف وذكر الموت وأهوال القيامة وهذا هو موت القلب، قال الله تعالى: «وفرحوا بالحيوة الدّنيا وما الحيوة الدّنيا في الآخرة إلّا متاع» (١).

و قال تعالى: «اعلموا أنّما الحيوة الدّنيا لعبٌ ولهو - إلى قوله - إلّا متاع الغرور» (٢) فأُولو الحزم من أرباب القلوب جرّبوا قلوبهم في حالة الفرح بمؤاتاة الدّنيا فوجدوها قاسية بطرة بعيدة من التأثّر بذكر الله تعالى و اليوم الآخر، و جرّبوها في حالة الحزن فوجدوها ليّنة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر فعلموا

(١) الرعد: ٢٦.
(٢) الحديد: ٢٠.

أنّ النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب البطر و الفرح ففطموها عن ملاذّها و عوّدوها الصبر عن شهواتها حلالها و حرامها وعلموا أنّ حلالها حساب و هو نوع عذاب فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذّب فخلّصوا أنفسهم من عذابها و توصّلوا إلى الحريّة والملك الدائم في الدّنيا والآخرة بالخلاص عن أسر الشهوات و رقّها، و الأنس بذكر الله تعالى والاشتغال بطاعته ، وفعلوا بها ما يفعل بالبازي ، إذا قصد تأديبه ونقله عن توثّبه وتوحّشه إلى الانقياد و التأدّب ، فإنّه يحبس أوّلاً في بيت مظلم و يخاط عيناه حتّى يحصل به الفطام عن الطيران في جوّ الهواء ، وينسي ما كان قد ألفه من طبع الاسترسال ، ثمّ يرفق به باللّحم حتّى يأنس بصاحبه و يألفه ألفاً إذا دعاه أجابه ، ومهما سمع صوته رجع إليه ، فكذلك النفس لا تألف ربّها ولا تأنس بذكره إلّا إذا فطمت عن عاداتها بالخلوة والعزلة أوّلاً لتحفّظ السمع و البصر عن المألوفات ، ثمّ عوّدت الثناء و الذّكر والدّعاء ثانياً في الخلوة حتّى يغلب عليها الأنس بذكر الله عوضاً عن الأنس بالدّنيا و سائر الشهوات ، و ذلك يثقل عليه في البداية ، ثمّ يتنعّم به في النهاية كالصبيّ يفطم عن الثدي و هو شديد عليه إذ كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يكثر بكاؤه وجزعه عند الفطام ، و يشتدّ نفوره عن الطعام الّذي يقدم إليه بدلاً عن اللّبن ولكنّه إذا منع اللّبن رأساً يوماً فيوماً و عظم تعبه في الصبر وغلبه الجوع تناول الطعام تكلّفاً ، ثمّ يصير طبعاً له فلورد إلى الثدي لم يرجع إليه فيهجر الثدي ويعاف اللّبن ويألف الطعام ، و كذلك الدّابّة في الابتداء تنفر من السرج و اللّجام و الرّكوب ولكن تحمل عليه قهراً وتمنع عن السرج الّذي ألفته بالسلاسل و القيود أوّلاً ثمّ تأنس به بحيث يترك في موضعها فيقف فيه من غير قيد ، فكذلك تؤدّب النفس كما تؤدّب الطيور والدّوابّ وتأديبها بأن تمنع عن البطر والأشر و الفرح بنعيم الدّنيا ، بل بكلّ ما يزايلها بالموت فيقال لها : أحببي ما أحببت فإنّك مفارقه ، فإذا علم أنّه من أحبّ شيئاً يلزمه فراقه فيشقى لا محالة لفراقه ، وشغل قلبه بحبّ مالا يفارقه و هو ذكر الله تعالى ، فإنّ ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه ، و كلّ ذلك يتمّ بالصبر أيّاماً قلائل فالعمر

قليل بالاضافة إلى مدّة حياة الآخرة ، و مامن عاقل إلّا وهو راض باحتمال المشقّة في سفر و تعلّم صناعة و غير ذلك شهراً ليتنعّم به سنة ، فكلّ العمر بالاضافة إلى الأبد أقلّ من الشهر بالاضافة إلى عمر الدّنيا فلابدّ من الصبر و المجاهدة « فعند الصّباح يُحمد القوم السرى ».

وطرق المجاهدة والرّياضة لكلّ إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله والأصل فيه أن يترك كلّ أحد ما به فرحه من أسباب الدّنيا فالّذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بالعزّ في القضاء و الولاية أو بكثرة الاتباع في التّدريس و الافادة فينبغي أن يترك أوّلاً ما به فرحه فانّه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينتقص بالمنع في الدّنيا فكره ذلك وتألّم به فهو ممّن فرح بالحياة الدّنيا و اطمأنّ بها و ذلك مهلك في حقّه ثمّ إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل النّاس و لينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتّى لا يشتغل إلّا بذكر الله و الفكر فيه ، وليترصّد لما يبدوله في نفسه من شهوة و وسواس حتّى يقمع مادّته مهما ظهر فانّ لكلّ وسوسة سبباً ولا تزول إلّا بقطع السبب والعلاقة وليلازم ذلك بقيّة العمر ، فليس للجهاد آخر إلّا الموت و السلام .

✡(بيان علامات حسن الخلق)✡

اعلم أنّ كلّ إنسان جاهل بعيب نفسه و إذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتّى ترك فواحش المعاصي فربما يظنّ بنفسه أنّه قد هذّب نفسه و حسّن خلقه و استغنى عن المجاهدة ، فلابدّ من إيضاح علامات حُسن الخُلق فانّ حسن الخلق هو الايمان وسوء الخلق هو النفاق ، وقد ذكر الله سبحانه صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه و هي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق ، فلنورد جملة من ذلك ليعلم بها حسن الخلق .

قال الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون - إلى قوله - : اُولئك هم الوارثون »[١]

و قال عزّ وجلّ : « التائبون العابدون - إلى قوله - : وبشّر المؤمنين »[٢].

---

(١) المؤمنون : ١ الى ١٠ . (٢) التوبة : ١١٢ .

وقال عزّ وجلّ «إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وَجِلَت قلوبهم - إلى قوله - : اُولئك هم المؤمنون حقّاً » (١)

و قال تعالى : « و عباد الرّحمن الّذين يمشون على الأرض هوناً - إلى آخر السورة - »(٢).

فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حُسن الخُلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، و وجود بعضها دون بعض يدلّ على البعض دون البعض ، فليشتغل بتحصيل ما فقده و حفظ ما وجده ، وقد وصف رسول الله صلى الله عليه و آله المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق .

فقال صلى الله عليه و آله : «المؤمن يحبّ لأخيه مايحبّ لنفسه » (٣).

وقال صلى الله عليه و آله : « من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم ضيفه » (٤).

وقال صلى الله عليه و آله : « و من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » (٥).

وقال صلى الله عليه و آله : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أوليصمت » (٦).

وذكر صلى الله عليه و آله أنّ صفات المؤمنين هي حُسن الخلق فقال صلى الله عليه و آله : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً» (٧).

و قال صلى الله عليه و آله : « إذا رأيتم المؤمن صموتاً و قوراً فادنوا منه فإنّه يلقّن الحكمة » (٨).

---

(١) الانفال : ٢ و ٣ . (٢) الفرقان : ٦٣ .

(٣) أخرج البخارى ج ١ ص ١١ باسناده عن انس عن النبى صلى الله عليه و آله قال : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه ».

(٤) و (٥) و (٦) أخرج مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٤٩ عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فيقل خيراً اوليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليكرم جاره ، ومن كان يومن بالله واليوم الاخر فليكرم ضيفه»

(٧) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٢٣ .

(٨) أخرج ابن ماجه فى السنن عن ابى خلاد قال قال : رسول الله صلى الله عليه وآله : « اذا رأيتم الرجل قد اعطى زهداً فى الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة» .

و قال ﷺ : « من سرّته حسنة وساءته سيّئة فهو مؤمن» [١]

و قال ﷺ : « لا يحلّ لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه » [٢]

و قال ﷺ : « لا يحلّ لمسلم أن يروّع مسلماً » [٣].

و قال ﷺ : « إنّما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عزّ و جلّ ، فلا يحلّ لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه » [٤].

و جمع بعضهم علامات حُسن الخُلق فقال هو : أن يكون كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، قليل الفساد ، صدوق اللّسان ، قليل الكلام ، كثير العمل قليل الزلل ، قليل الفضول ، برّاً وصولاً وقوراً صبوراً رضيّاً شكوراً حليماً رفيقاً عفيفاً شفيقاً ، لا لعّاناً و لا سبّاباً و لا نمّاماً و لا شتّاماً و لا مغتاباً و لا عجولاً ولا حقوداً ولا بخيلاً و لا حسوداً ، هشّاشاً بشّاشاً ، يحبّ في الله و يبغض في الله ، و يرضى في الله ويغضب في الله ، فهذا هو حسن الخلق .

و سئل رسول الله ﷺ عن علامة المؤمن و المنافق فقال : « إنّ المؤمن همّته في الصلاة و الصيام و العبادة ، و المنافق همّته في الطعام والشراب كالبهيمة » [٥].

وقال حاتم الأصم : المؤمن مشغول بالفكر والعبر، و المنافق مشغولٌ بالحرص و الأمل ، و المؤمن آيس من كلّ أحد إلّا من الله ، والمنافق راج كلّ أحد إلّا الله ، والمؤمن آمنٌ من كل أحد إلّا من الله ، والمنافق خائفٌ من كلّ أحد إلّا من الله ، والمؤمن يقدّم ماله دون دينه ، والمنافق يقدّم دينه دون ماله ، والمؤمن يحسن ويبكي ، والمنافق يسيء و يضحك ، والمؤمن يحبّ الوحدة والخلوة ، والمنافق يحبّ الخلطة و الملا ، و المؤمن يزرع و يخشى الفساد ، و المنافق يقلع و يرجو الحصاد ، و المؤمن يأمر

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابي موسى الاشعري بسند حسن كما في الجامع الصغير.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة مرسلا (المغني)

(٣) أخرجه ابوداود ج٢ ص ٥٩٧ . والطبراني في الكبير ورواته ثقات ، و رواه البزار من حديث ابن عمر .

(٤) أخرجه أبو الشيخ عن ابن مسعود كما في الجامع الصغير

(٥) قال العراقي لم أجده اصلا .

و ينهى للسياسة فيصلح ، و المنافق يأمر وينهى للرّياسة فيفسد ، و أولى مايمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى و احتمال الجفاء ، و من شكا من سوء خلق غيره فيدلّ ذلك على سوء خلقه لأنّ حسن الخلق احتمال الأذى .

فقد روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابيّ فجذب رداءه صلّى الله عليه وآله وسلّم جذباً شديداً وكان عليه بردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية ، قال أنس : حتّى نظرت عنق رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدّة جذبه ثمّ قال : يا محمّد هب لي من مال الله الّذي عندك فالتفت إليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فضحك ثمّ أمر له بعطاء »[1] و لمّا أكثرت قريش إيذاءه و ضربه قال : « اللّهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون » فلذلك قال الله تعالى : « وإنّك لعلى خلق عظيم »[2].

و روي « أنّ عليّاً عليه السلام دعا غلاماً له فلم يجبه فدعاه ثانياً و ثالثا فلم يجبه فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال : أما تسمع ياغلام ، فقال : نعم قال : فما حملك على ترك جوابي ؟ قال : آمنت عقوبتك فتكاسلت ، فقال : امض فأنت حرٌّ لوجه الله »[3].

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد حكايات عن الصوفيّة زعم أنّها تدلّ على حسن أخلاقهم بتذليل أنفسهم للناس وقد عرفت من طريق أهل البيت عليهم السلام أنّ الله لم يأذن لعبده أن يذلّ نفسه ، فلا حاجة بنا إلى نقلها ، و قد ذكرنا في كتاب أخلاق الإمامة و آداب الشيعة من ربع العادات من أخلاق أهل البيت و كلماتهم عليهم السلام في محاسن الأخلاق و صفات المؤمنين ما فيه بلاغ لقوم عابدين ، و كذا في كتاب آداب الصحبة والمعاشرة من ذلك الرّبع ، وأفعال أهل البيت وأقوالهم عليهم السلام هي الحجّة والقدوة في كلّ باب ، والله الموفّق.

(١) أخرجه البخاري ج ٧ ص ١٨٩. من حديث أنس .

(٢) القلم : ٤ . والخبر أخرجه ابن حبان والبيهقي في الدلائل من حديث سهل بن سعد (المغني) .

(٣) أورده ابن شهر آشوب في المناقب في فصل حلمه وشفقته عليه السلام .

☼(بيان الطريق في رياضة الصبيان)☼
☼(في أوّل النشوء و وجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم)☼

اعلم أنّ الصبيّ أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كلّ نقش وصورة ، و هو قابل لكلّ نقش و مائل إلى كلّ ما يمال به إليه فإن عوّد الخير و علّم نشأ عليه وسعد في الدّنيا والآخرة شاركه في ثوابه أبواه ، و كلّ معلّم له ومؤدّب ، وإن عوّد الشرّ واُهمل إهمال البهائم شقي وهلك ، و كان الوزر في رقبة القيّم به و الوالي عليه ، و قد قال الله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا قوا أنفسكم و أهليكم ناراً» (١) و مهما كان الأب يصونه من نار الدّنيا فبأن يصونه من نار الآخرة أولى وصيانته بأن يؤدّبه ويهذّبه و يعلّمه محاسن الأخلاق و يحفظه من القرناء السوء ولايعوّده التنعّم ولا يحبّب إليه الزّينة وأسباب الرّفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر و يهلك هلاك الأبد بل ينبغي أن يراقبه من أوّل أمره فلايستعمل في حضانته وإرضاعه إلّا امرأة صالحة متديّنة تأكل الحلال فإنّ اللّبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشوء الصبيّ انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث ، ومهما بدا فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته و أوّل ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإذا كان يحتشم و يستحيي و يترك بعض الأفعال فليس ذلك إلّا لإشراق نور العقل عليه ، حتّى رأى بعض الأشياء قبيحاً و مخالفاً للبعض ، فصار يستحيي من شيء دون شيء ، وهذه هديّة من الله تعالى إليه و بشارة تدلّ على اعتدال الأخلاق و صفاء القلب ، و هو مبشّر بكمال العقل عند البلوغ فالصبيّ المستحيي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه و تمييزه ، وأوّل ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدّب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلّا بيمينه ، ويقول : « بسم الله» عند أخذه ، ويأكل ممّا يليه ، و لا يبادر إلى الطّعام قبل غيره ، ولا يحدق إلى الطعام ولا إلى من يأكل ، ولايسرع في الأكل و يمضغ -

(١) التحريم : ٦ .

الطعام مضغاً جيّداً ولايوالي بين اللّقم ولايلطخ ثوبه ولايده ، ويعوّد الخبز القفار (١) في بعض الأوقات حتّى لايصير بحيث يرى الادم حتماً ، و يقبّح عنده كثرة الأكل بأن يشبه من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذمّ بين يديه الصبيّ الّذي يكثر الأكل ، و يمدح بين يديه الصبيّ المتأدّب القليل الأكل ، و يحبّب إليه الإيثار بالطعام وقلّة المبالاة به ، و القناعة بالطعام الخشن أيّ طعام كان ، و يحبّب إليه من الثياب البيض دون الملوّن والأبريسم ، و يقرّر عنده أنّ ذلك شأن النساء و المخنّثين و أنّ الرّجال يستنكفون منه ، و يكرر عليه ذلك ، و مهما رأى على صبيّ ثوباً من أبريسم أو ملوّن فينبغي أن يستنكر ويذمّ ذلك ، ويحفظ الصبيّ عن الصبيان الّذين تعوّدوا التنعّم و الترفّه ، ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كلّ من يسمعه ما يرغّبه فيه ، فانّ الصبيّ إذا اُهمل في ابتداء نشوءه خرج في الأكثر رديّ الأخلاق ، كذّاباً حسوداً سروقاً نمّاماً لجوجاً ذا فضول و ضحك ، و كياد ، و مجانة ، وإنّما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ، ثمّ ينبغي أن يشتغل في المكتب بتعلّم القرآن و بأحاديث الأخيار و حكايات الأبرار و أحوالهم لينغرس في نفسه حبّ الصالحين ، و يحفظ عن الأشعار الّتي فيها ذكر العشق و أهله ، و يحفظ عن مخالطة الأدباء الّذين يزعمون أنّ ذلك من الظرف ورقّة الطّبع ، فانّ ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد .

ثمّ مهما ظهر من الصبيّ خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى لأجل ذلك بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فان خالف ذلك في بعض الأحوال مرّة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ، ولايهتك ستره ، ولايكاشف به ، ولا يظهر له أنّه يتصوّر أن يتجاسر أحدٌ على مثله لاسيّما إذا ستره الصبيّ واجتهد في إخفائه فانّ إظهار ذلك ربما يفيده جسارة حتّى لايبالي بالمكاشفة بعد ذلك فان عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سرّاً ويعظم الأمر فيه ، و يقال له : إيّاك أن يطّلع عليك في مثل هذا أحدٌ فتفتضح بين يدي الناس ولاتكثر القول عليه بالعتاب في كلّ حين فانّه يهوّن عليه سماع الملامة و ركوب القبايح و يسقط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأبُ

(١) في القاموس : خبز قفر وقفار : غير مأدوم .

حافظاًهيبة الكلام معه ولا يوبّخه إلّا أحياناً و ينبغي للأمّ أن تخوّفه بالأب وتزجره عن القبايح و ينبغي أن يمنع النوم نهاراً فانّه يورث الكسل و لايمنع النوم ليلاً ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتّى يتصلّب أعضاؤه ولا يسخف بدنه ، فلا يصبر عن التنعّم بل يعوّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم ، وينبغي أن يمنع من كلّ مايفعله في خفية فانّه لايخفيه إلّاوهو يعتقد أنّه قبيح فاذا ترك تعوّد فعل القبيح ، ويعوّد في بعض النهاز المشي و الحركة والرّياضة حتّى لايغلب عليه الكسل ، ويعوّد أن لايكشف أطرافه ولايسرع المشي ولايرخي يديه بل يضمّهما إلى صدره ، و يمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء ممّا يملكه والده أوبشيء من مطاعمه و ملابسه ، أولوحه أودواته ، ويعوّد التواضع والاكرام لكلّ من عاشره والتلطّف معهم في الكلام ، و يمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً فيه بذالة حشمته إن كان من أولادالمحتشمين ، بل يعلم أنّ الرفعة في العطاء لا في الأخذ ، و أنّ الأخذ لؤم و خسّة ، وإن كان من أولاد الفقراء فيعلم أنّ الأخذ والطمع مهانة ومذلّة وأنّ ذلك من دأب الكلب فانّه يتبصبص في انتظار لقمة .

و بالجملة يقبّح إلى الصبيان حبّ الذّهب والفضّة والطمع فيهما و يحذّر منهما أكثر ممّا يحذّر من الحيّات والعقارب فانّ آفة حبّ الذّهب والفضّةوالطمع فيهما أكثر من آفة السّموم على الصّبيان بل على الأكابر أيضاً ، وينبغي أن يعوّد أن لايبصق في مجلسه ، ولايتمخّط ، ولايتمطّط ، ولايتثاءب بحضرة غيره ، ولايستدبر غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ولا يضرب كفّه تحت ذقنه ، ولايعمد رأسه بساعده ، فانّ ذلك دليل على الكسل ، ويعلّم كيفيّة الجلوس ، وينبغي أن يمنع كثرةالكلام ويبين له أنّ ذلك يدلّ على الوقاحة وأنّ ذلك فعل أولاد اللّئام ، ويمنع اليمين رأساً صدقاً أو كذباً حتّى لايتعوّد في الصغر ، ويمنع من أن يبتدىء بالكلام ويعوّد أن لايتكلّم إلّا جواباً و بقدرالسؤال ، و أن يحسن الاستماع مهما تكلّم غيره ممّن هو أكبر منه سنّاً ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسّع المكان له ، ويجلس بين يديه ، و يمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللّعن و السبّ ، ومن مخالطة من يجري على

لسانه شيءٌ من ذلك فإنّه يسري لامحالة من القرناء السّوء، وأصل تأديب الصّبيان الحفظ من القرناء السّوء، وينبغي إذا ضربه المعلّم أن لا يكثر الصّراخ والشغب، ولايستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أنّ ذلك دأب الشجعان و الرّجال و أن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان، و ينبغي أن يؤذّن له بعد الفراغ من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب الأدب بحيث لايتعب في اللّعب فإنّ منع الصّبي من اللّعب وإرهاقه إلى التعلّم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه و ينغّص العيش عليه حتّى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً، وينبغي أن يعلم طاعة والديه و معلّمه و مؤدّبه و كلّ من هو أكبر سناً منه من قريب و أجنبيّ وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللّعب بين أيديهم، ومهما بلغ سنّ التمييز ينبغي أن لايسامح في ترك الطهارة والصلاة و يؤمر بالصوم في بعض الأيّام من شهر رمضان ويجنّب لبس الحرير والذّهب و يعلّم كلّ ما يحتاج إليه من حدود الشرع، ويخوّف من السرقة وأكل الحرام والكذب والخيانة والفحش، و كلّ مايغلب على الصبيان، فإذا وقع نشوءه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور فيذكر له أنّ الأطعمة أدوية وإنّما المقصود منها أن يقوي الإنسان بها على عبادة الله وأنّ الدّنيا كلّها لاأصل لها إذلابقاء لها، وأنّ الموت يقطع نعيمها، وأنّها دار ممرّ لادار مقرّ، وأنّ الآخرة دار مقرّ لادار ممرّ، وأنّ الموت ينتظر في كلّ ساعة، وأنّ الكيّس العاقل من تزوّد من الدنيا للآخرة حتّى تعظم عند الله درجته، و يتّسع في الجنان نعمته، فإذا كان النشوء صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثّراً ناجعاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر وإن وقع النشوء بخلاف ذلك حتّى ألف الصبيّ اللّعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللّباس والتزيّن والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحقّ نبوة الحائط عن التراب اليابس فأوائل الأمور هي الّتي ينبغي أن تراعى فإنّ الصبيّ خلق بجوهره قابلاً للخير والشرّ و إنّما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين قال رسول الله ﷺ : «كلّ مولود يولد على الفطرة وإنّما أبواه يهوّدانه و ينصّرانه و يمجّسانه» [1].

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٥٢ من حديث ابى هريرة.

﴿ بيان شروط الارادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في ﴾
﴿ سلوك سبيل الارادة ﴾

اعلم أنّ من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريداً حرث الآخرة ، مشتاقاً إليه ، سالكاً سبيلها ، مستهيناً بنعيم الدّنيا و لذّاتها فإنّ من كان معه خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخرزة ، و قويت إرادته في بيعها بالجوهرة ، فمن ليس مريداً حرث الآخرة ولا طالباً للقاء الله فهو لعدم إيمانه بالله و رسوله واليوم الآخر ، ولست أعني بالإيمان حديث القلب وحركة اللّسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص فإنّ ذلك يضاهي قول من صدّق بأنّ الجوهرة خير من الخرزة إلّا أنّه لا يدري من الجوهره إلّا لفظها فأمّا حقيقتها فلا ، و مثل هذا المصدّق إذا ألف الخرزة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة فإذن المانع من الوصول عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة والمانع من الإرادة عدم الإيمان وسبب عدم الايمان عدم الهداة المذكّرين والعلماء بالله الهادين إلى طريقه والمنبّهين على حقارة الدّنيا وانقراضها و عظم أمر الآخرة و دوامها ، فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رغدتهم ، وليس في علماء الدّين من ينبّههم ، فإن تنبّه منهم متنبّه عجز عن سلوك الطريق لجهله فإنّ طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق فصار ضعف الإرادة و الجهل بالطريق و نطق العلماء بالهوى سبباً لخلوّ طريق الله عن السالكين ، و مهما كان المطلوب محجوباً و الدليل مفقوداً والهوى غالباً و الطالب غافلاً امتنع الوصول و تعطّلت الطرق لا محالة ، فإن تنبّه متنبّه من نفسه أو من تنبيه غيره و انبعثت له إرادة في حرث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم أنّ لهشروطاً لابدّ من تقديمها في بداية الإرادة وله معتصم لابدّ من التمسّك به وله حصن لابدّ من التحصّن به ليأمن الأعداء القطّاع لطريقه و عليه وظائف لابدّ من ملازمتها في وقت سلوك الطريق ، فأمّا الشروط الّتي لابدّ من تقديمها في الإرادة فيرجع مجامعها إلى رفع السدّ و الحجاب الّذي بينه و بين الحقّ فإنّ حرمان الخلق عن الحقّ سببه تراكم الحجب و وقوع السدّ

على الطريق قال الله تعالى : « و جعلنا من بين أيديهم سدّاً و من خلفهم سدّاً - الآية - »[1] و السدّ بين المريد والحقّ أربعة المال والجاه والتقليد والمعصية ، وإنّما يرتفع حجاب المال بأن يفرّقه ويخرجه عن ملكه حتّى لا يبقى له إلّا قدر ضرورته ، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه قلبه فهو مقيّد به محجوب عن الله تعالى ، و إنّما يرتفع حجاب الجاه بالبعد من موضع الجاه وبالتواضع و إيثار الخمول والهرب من أسباب الذكر و تعاطي أعمال تنفّر قلوب الخلق عنه ، وإنّما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصّب للمذاهب وأن يصدّق بمعنى قوله : « لا إله إلّا الله محمّد رسول الله» تصديق إيمان و يخوض في تحقيق صدقه بأن يرفع كلّ معبود له سوى الله ، و أعظم معبود له الهوى حتّى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الّذي تلقّفه تقليداً فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة ، فإن غلب عليه التعصّب لعقيدة ولم يبق في قلبه متّسع لغيرها صار ذلك قيداً له و حجاباً إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معيّن أصلاً[2] .

أقول: هذا إنّما يصحّ على مذاهب العامّة حيث يتعصّبون في الأصول للأشعري والمعتزليّ ونحوهما من أهل الآراء و في الفروع لأبي حنيفة و الشافعي وشبههما من أصحاب الأهواء ، وأمّا على مذهبنا الحقّ من وجوب التمسّك بحبل أهل البيت عليهم السلام الّذين هم مشايخنا وحصوننا فالانتماء إليهم شرط الاهتداء لأحكام الدّين و التعصّب لهم يزيد السالك في سلوكه يقيناً إلى يقين .

قال : و أمّا المعصية فهي حجاب ولا يرفعها إلّا التوبة و الخروج عن المظالم و تصميم العزم على ترك العود و تحقيق الندم على ما مضى و ردّ المظالم و إرضاء الخصوم ، فإنّ من لم يصحّح التوبة ولم يهجر المعاصي الظاهرة ، و أراد أن يقف على أسرار الدّين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو لا يعلم لغة العرب ، فإنّ ترجمة عربيّة القرآن لابدّ من تقديمها أوّلاً ، ثم الترقّي منها إلى أسرار معانيه ، فكذلك لابدّ من تصحيح ظاهر الشريعة بامتثال

---

(١) سورة يس : ١٠. (٢) الانتماء الى الشيء : الانتساب اليه .

الأوامر و الانزجار عن النّواهي ، ثمّ الترقّي إلى أغوارها وأسرارها ، فإذا قدّم هذه الشروط الأربعة كان حينئذ كمن تطهّر وتوضّأ و رفع الحدث ، صارصالحاً للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدي به ، و كذلك المريد يحتاج إلي شيخ واستاذ يقتدي به لامحالة ليهديه إلى سواء السّبيل ، فإنّ سبيل الدّين غامضٌ وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ومن لم يكن له شيخٌ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لامحالة فمن سلك البوادي المهلكة من غير خفير [(١)] و دليل فقد خاطر بنفسه و ربما أهلكها ويكون المستقلّ بنفسه كالشجرة الّتي تنبت بنفسها فإنّها تجفّ على القرب وإن بقيت مدّة وأورقت لم تثمر ، فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسّك به تمسّك الأعمى على شاطىء النهر بالقائد بحيث يفوّض إليه أمره بالكليّة ، ولا يخالفه في ورده ولاصدره ، ولايبقي في متابعته شيئاً ولايذر ، وليعلم أنّ نفعه في خطأشيخه لوأخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لوأصاب .

أقول : إذا جاز على الشيخ الخطأ فربما يكون إفساده أكثر من إصلاحه بل الحقّ أنّه لايجوز الاعتماد في الاعتقاد والعمل إلّاعلى معصوم من الخطأ والزّلل عرف عصمته من الله عزّ وجلّ وليس إلّا أئمّتنا عليهم السلام ، ثمّ من أذنوا لنا في الأخذ عنه من شيعتهم الآخذين عنهم وعن محكماتهم ، قال الصّادق عليه السلام : « إيّاك وأن تنصب رجلاً دون الحجّة فتصدّقه في كلّ ماقال » [(٢)] وقد ورد عنهم في الآداب والسّنن و كيفيّة السلوك في كلّ أمر مايغني عن كثير ممّا سرده أبوحامد ولله الحمد .

قال : فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه و يعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة اُمور : الخلوة و الصمت والجوع

---

(١) الخفير - بالخاء المعجمة : الحامى ، والمحافظ ، والمجير .

(٢) رواه الصدوق - رحمه الله - فى معانى الاخبار ص ١٦٩ فى حديث عن ابى حمزة قال : قال ابو عبدالله عليه السلام : « اياك و الرئاسة و اياك أن تطأ أعقاب الرجال . فقلت : جعلت فداك أما الرئاسة فقد عرفتها ، واما أن أطأ أعقاب الرجال فماثلثا مافى يدى الاىما وطأت أعقاب الرجال ؟ فقال : ليس حيث تذهب اياك أن تنصب رجلا دون الحجة فتصدقه فى كل ماقال » .

و السهر فهذا تحصن من القواطع ، فإنّ مقصود المريد إصلاح قلبه ليشاهد به ربّه ويصلح لقربه ، أمّا الجوع فإنّه ينقص دم القلب فيبيّضه و في بياضه نوره ، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رقّته وفي رقّته مفتاح المكاشفه كما أنّ قسوته سبب الحجاب ، ومهما نقص دم القلب ضاق منه مسلك العدوّ فإنّ مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات ، قال عيسى عليه السلام : « يامعشر الحواريّين جوّعوا بطونكم لعلّ قلوبكم ترى ربّكم » .

قال سهل : ماصار الأبدال أبدالاً إلّا بأربع خصال إخماص البطون والسهر و الصمت و الاعتزال عن الناس ، ففائدة الجوع في تنوير القلب أمرٌ ظاهر يشهد له التجربة ، وسيأتي بيان وجه التدريج فيه « في كتاب كسر الشهوتين » وأمّا السهر فإنّه يجلو القلب ويصفيه وينوّره وينضاف إلى الصفاء الّذي حصل من الجوع ويصير القلب كالكوكب الدّرّيّ و المرآة المجلوّة ، فيلوح فيه جمال الحقّ ويشاهد فيه رفيع الدّرجات في الآخرة و حقارة الدّنيا و آفاتها ، فيتمّ به رغبته عن الدّنيا و إقباله على الآخرة .

والسّهر أيضاً نتيجه الجوع فإنّ السهر مع الشبع غير ممكن ، والنوم يقسي القلب ويميته إلّا إذا كان بقدر الضرورة ، فيكون حينئذ سبب المكاشفة لأسرار الغيب ، فقد قيل في صفة الأبدال : إنّ أكلهم فاقة ، و نومهم غلبة ، و كلامهم ضرورة ، و قال إبراهيم الخوّاص : اجتمع رأي سبعين صدّيقاً على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء .

و أمّا الصمت فإنّه يسهله العزلة ولكن المعتزل لايخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه أو تدبير أمره فينبغي أن لايتكلّم إلّا بقدر الضرورة فإنّ الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم ، فإنّه يستروح إليه ويستثقل التجرّد للذكر والفكر ويستريح إليه ، فالصمت يلقح العقل ، ويجلب الورع ، ويعلم التقوى .

وأمّا الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر ، فإنّهما دهليز القلب و القلب في حكم حوض انصبّ إليه مياه كدرة قذرة من أنهار الحواسّ و مقصود الرّياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر فكيف يصحّ أن ينزح الماء من الحوض و الأنهار

مفتوحة إليه، فيتجدّد في كلّ حالة أكثر ممّا ينقص، فلابدّ من ضبط الحواسّ إلّا عن قدر الضرورة وليس يتمّ ذلك إلّا بالخلوة في مكان مظلم، فإن لم يكن له مكان مظلم فليلفّ رأسه في جيبه أو يتدثّر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحقّ ويشاهد جمال الحضرة الرّبوبيّة، أما ترى أنّ نداء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بلغه و هو على هذه الصفة، فقيل له: «ياأيّها المدّثّر» «يا أيّها المزّمّل»[1] فهذه الأربعة جُنّة وحصن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق، فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق وإنّما سلوكه بقطع العقبات، ولا عقبة على طريق الله إلّا صفات القلب الّتي سببها الالتفات إلى الدّنيا، وبعض تلك العقبات أعظم من بعض، والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل و هي - أعني تلك الصّفات - أسرار العلائق الّتي قطعها في أوّل الارادة وآثارها أعني آثار المال والجاه وحبّ الدّنيا والالتفات إلى الخلق و التشوّف إلى المعاصي فلابدّ وأن يخلي الباطن عن آثارها كما أخلى الظّاهر عن أسبابها الظاهرة و فيه تطول المجاهدة ويختلف ذلك باختلاف الأحوال فربّ شخص مكفي قد كفي أكثر الصّفات فلا يطول عليه المجاهدة، و قد ذكرنا أنّ طريق المجاهدة هو مضادّة الشهوة و مخالفة الهوى في كلّ صفة غالبة على نفس المريد كما سبق ذكره و إذا كفي ذلك أو ضعف بالمجاهدة فلم يبق في قلبه علاقة تشغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدّوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة بل

---

(١) أخرج البخاري ج ٦ ص ٢٠٠ من حديث جابر بن عبدالله عن النبي صلى الله عليه و آله قال: «جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم ارشيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أرشيئاً، ونظرت أمامي فلم أرشيئاً: ونظرت خلفي فلم ارشيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا على ماء بارداً، قال: فدثروني وصبوا على ماء بارداً، قال: فنزلت: يا ايها المدثر - الايات -». وفي بعض الروايات «فقلت: زملوني زملوني، فزملوني - الحديث».

أقول: من نظر في هذه الروايات وماذكره المؤرخون والمفسرون في مبدء الوحي و شأن نزول هذه الايات علم جداً أن النبي صلى الله عليه و آله بعد مشاهدة تلك الاثار عرضت عليه حالة وحشة عجيبة ورهبة شديدة عالجها بالتزمّل والتدثّر ولم يجعل ذلك نوع رياضة لنفسه صلى الله عليه وآله حتى يمكن أن يستدل بذلك على ما استدل به أبوحامد.

يقتصر على الفرائض والرّواتب ويكون ورده ورداً واحداً وهو لباب الأوراد وثمرتها أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلوّ عن ذكر غيره ولا يشغله به مادام قلبه ملتفتاً إلى علائقه.

قال الشبلي للحصري: إن كان يخطر على قلبك من الجمعة إلى الجمعة الّتي تأتيني شيءٌ غير الله فحرامٌ عليك أن تأتيني، و هذا التجرّد لايحصل إلّا مع صدق الإرادة واستيلاء حبّ الله على القلب حتّى يكون في صورة العاشق المستهتر الّذي ليس له إلّا همٌّ واحد فإذا صار كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد فيها ويوكّل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال، فإنّ أصل طريق الدّين القوت الحلال، وعند ذلك يلقنه ذكراً من الأذكار حتّى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلاً «لا إله إلّا الله، أو الله الله، أو سبحان الله أو مايأمره الشيخ من الكلمات ولايزال يواظب عليه حتّى يسقط حركة لسانه ويكون الكلمة كأنّها جارية على اللّسان من غير تحريك ثمّ لايزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللّسان ويبقى صورة اللّفظ في القلب، ثمّ لايزال كذلك حتّى ينمى عن القلب حروف اللّفظ و صورته و يبقى حقيقة معناه لازماً للقلب، حاضراً معه غالباً عليه، قد فرغ القلب عن كلّ ماسواه، لأنّ القلب إذا شغل بشيء خلا عن غيره أيّ شيء كان فإذا شغل بذكر الله وهو المقصود خلا عن غيره لامحالة، و عند ذلك يلزمه أن يراقب و سواس القلب و الخواطر الّتي يتعلّق بالدّنيا ومايتذكّر فيه ممّا قدمضى من أحواله وأحوال غيره، فإنّه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذّكر في تلك اللّحظة وكان ذلك نقصاناً فليجتهد في دفع ذلك و مهما دفع الوسواس كلّها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءته الوساوس من هذه الكلمة، وأنّها ماهي ومامعنى قولنا الله؟ ولايّ معنى كان إلهاً و كان معبوداً؟ ويعتريه عند ذلك خواطر يفتح عليه باب الفكر، وربمايرد عليه من وساوس الشيطان ماهو كفر أو بدعة، و مهما كان كارهاً لذلك ومتشمّراً لإماطته عن القلب لم يضرّه ذلك، والخواطر منقسمة إلى مايعلم قطعاً أنّ الله منزّه عنه ولكنّ الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره، فشرطه أن لايبالي به ويفزع إلى ذكر الله و يبتهل إليه

ليدفعه عنه كما قال تعالى : « وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنّه سميع عليم » (١) و قال تعالى : « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذاهم مبصرون » (٢) وإلى ما يشكّ فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شيخه بل كلّ مايجد في قلبه من الأحوال من فترة أونشاط أو التفات إلى علقة أوصدق في إرادة ، فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه و يستره عن غيره فلايطلع عليه أحداً ، ثمّ إنّ شيخه ينبغي أن ينظر في حاله ويتأمّل في ذكائه و كياسته فإن علم أنّه لوتركه وأمره بالفكر تنبّه من نفسه لحقيقة الحقّ فينبغي أن يحمله على الفكر ويأمره بملازمته حتّى يقذف في قلبه من النور ما ينكشف له حقيقته ، و إن علم أنّ ذلك ممّا لايقوى عليه مثله ردّه إلى الاعتقاد الصحيح القاطع بمايحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه ، وينبغي أن يتأنّق الشيخ ويتلطّف به . فإنّ هذه مهالك الطريق ومواقع أخطارها ، فكم من مريد اشتغل بالرّياضة فغلب عليه خيال فاسد ، فلم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه ، واشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة وذلك هو الهلاك العظيم ومن تجرّد للذّكر ودفع العلائق الشّاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فإنّه قد ركب سفينة الخطر فإن سلم كان من ملوك الدّين و إن أخطأ كان من الهالكين ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله : « عليكم بدين العجائز » (٣) وهو تلقّي أصل الإيمان

(١) الاعراف : ١٩٩ . (٢) الاعراف : ٢٠١ .

(٣) قال العراقى : « قال ابن طاهر فى كتاب التذكرة : هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على اصل يرجع اليه من رواية صحيحة ولاسقيمة الخ » انتهى . أقول : نسبه جماعة من الاكابر الى سفيان الثورى منهم الشيخ البهائى و الفاضل الجواد فى غاية المأمول و ظاهر المازندرانى فى شرحه على الزبدة حيث نقل ما يدل على أنه من كلام سفيان على نحو ما نقله صاحب القوانين فى الباب السابع منه حيث قال : والمستفاد من كلام المحقق البهائى فى حاشية الزبدة أن هذا هو حكاية دولابها و كف اليد عن تحريكها لاظهار اعتقادها بوجود الصانع المحرك للافلاك المدبر للعالم والذى ذكره القوشجى و تبعه الفاضل الجواد - رحمه الله - هو ماروى أن عمرو بن عبيد لما أثبت منزلة بين الكفر والايمان فقالت عجوزة قال الله تعالى « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » فلم يجعل الله من عباده الا الكافر والمؤمن ، فقال سفيان : عليكم بدين العجائز انتهى . ولايخفى أن صدور هذا الكلام عن سفيان لاينافى صدوره عن النبى صلى الله عليه و آله ، لكن قال السخاوى لا أصل له .

و ظاهر الاعتقاد بطريق التقليد و الاشتغال بأعمال الخير فإنّ الخطر في العدول عن ذلك كثير ولذلك يجب على الشيخ أن يتفرّس في المريد فإن لم يكن ذكيّاً فطناً متمكّناً من الاعتقاد الظاهر لم يشغله بالذّكر و الفكر بل يردّه إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة ، أو يشغله بخدمة المتجرّدين للفكر ليشمله بركتهم فإنّ العاجز عن المجاهدة في صفّ القتال ينبغي أن يسقي القوم و يتعهّد دوابّهم ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وتعمّه بركتهم ، وإن كان لايبلغ درجتهم ، ثمّ المريد المتجرّد للذّكر و الفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب و الرّياء و الفرح بما ينكشف له من الأحوال و ما يبدو من أوائل الكرامات ، ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتوراً في طريقه ووقوفاً ، بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الّذي لاترويه البحار ولو اُفيضت عليه ويدوم على ذلك ورأس ماله الانقطاع عن الخلق والخلوة ، قال بعض السياحين : قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق : كيف الطريق إلى التحقيق قال : أن تكون في الدّنيا كأنّك عابر طريق ، و قال : قلت له مرّة اُخرى : دلّني على عمل أعمله أجد فيه قلبي مع الله في كلّ وقت على الدّوام فقال لي : لاتنظر إلى الخلق فإنّ النظر إليهم ظلمة ، قلت : لابدّ لي منهم ، قال : فلا تسمع كلامهم فإنّ كلامهم قسوة ، قلت : لابدّ لي من ذلك ، قال: فلا تعاملهم فإنّ معاملتهم وحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم و لابدّ لي من معاملتهم ، قال : فلا تسكن إليهم فإنّ السكون إليهم هلكة ، قلت : هذا لعلّه ، قال : يا هذا أتنظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطّالين وتريد أن تجد قلبك مع الله على الدّوام وهذا ممّا لايكون أبداً [١].

---

(١) لايخفى أن امثال هذه التعاليم ينجر الى تعطيل الجمعة والجماعات والحج والتزاور و التواخى والاجتماعات و الضيافات ، و يؤول الى الانزواء عن الناس و الاعتزال عنهم و ترك المعاشرة معهم و المؤانسة بهم ، ومعلوم أن الاعتزال و الانقطاع مما منبت النفاق و مغرس الوسواس و الحرمان عن المشرب الاتم المحمدى صلى الله عليه و آله والمقام المحمود الجمعى وموجب لترك كثير من الفضائل والخيرات وفوت السنن الشرعية .

أقول: قد أطال أبو حامد في كلامه الخوض في أودية الضلال وادّعى جوازما هو من قبيل المحال على أنّه إبداء شريعة وإحداث بدعة شنيعة مع اشتماله باعترافه على المهالك والمفاسد الّتي لا ينجو منها من ألف ألف واحد ، و لو كان طريق إلى الحقّ أهدى ممّا اُرسل به نبيّنا صلّى الله عليه وآله لجاء به دونه ، لأنّ شرعه خير الشرائع كما أنّه خير الأنبياء ، وقد ورد في التنزيل : «وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولاتتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله» [١] فلا محالة فيما جاء به كفاية للاهتداء ، و ليس فيما جاء به شيء ممّا تكلّفوه ، بل إنّما ورد النصوص على خلاف ما وضعوه ، أمّا رفضهم المال و الجاه بالمرّة فقد ورد الحثّ الأكيد على طلب الحلال و إحراز قدر قوت السنة من المال ، وأنّ من ألقى كلّه على الناس فهو ملعون [٢] ، « و من أذلّ نفسه فهو ملوم مطعون » [٣] و إنّما المذموم حبّ المال و الجاه لا إحرازهما بقدر الضرورة من دون حبّ ، وترك التعصّب ، فقد ورد « أنّ أفضل القربات الحبّ في الله والبغض في الله » [٤] « و أنّ الدّين إنّما هو الحبّ و البغض » [٥] و ما في معناه ، و أمّا البيتوتة في بيت وحده فقد ورد « أنّ الشيطان أجرأ ما يكون على الإنسان و أشدّ ما يهمّ به إذا كان وحده » [٦] و أمّا الاقتصار في الأوراد على كلمة واحدة فقد ورد في فضل تلاوة القرآن والدّعاء ما ورد و«أنّ مخّ العبادة الدّعاء» [٧] وطلب ـ

(١) الانعام : ١٥٣ .

(٢) رواه الكلينى فى الكافى ج ٥ ص ٧٢ تحت رقم ٧ . و رواه الشيخ فى التهذيب ج ٢ ص ٩٩ .

(٣) راجع وسائل الشيعة ج ٢ ص ٤١٤ باب كراهة التعرض للذل .

(٤) و رواه الكلينى فى الكافى ج ٢ ص ١٢٦ بادنى اختلاف فى اللفظ . وأخرجه أبو داود ج ٢ ص٥٠٤ .

(٥) روى البرقى فى المحاسن فى حديث ص٢٦٣ نحوه .

(٦) رواه الكلينى فى الكافى ج ٦ ص ٥٣٣ .

(٧) أخرجه الترمذى ج ١٢ ص ٢٦٦ من حديث أنس ، والمخ خالص كل شيء ، و انما كان الدعاء كذلك لان حقيقة العبادة هو الخضوع والتذلل و هو حاصل فى الدعاء أشد الحصول وفى الكافى ج ٢ ص ٤٦٧ « ان الدعاء هو العبادة » وهكذا رواه ابن ماجه تحت رقم ٣٨٢٨ .

الحاجة إلى الله هذا مع ما ورد في فضل الجمعة والجماعات وبركة التزاور والاجتماعات و في الحديث المتّفق عليه بين الخاصّة و العامّة « لارهبانيّة في الإسلام » [١] و أنّ « من رهبانيّة اُمّتي الصيام » [٢] وفي حديث آخر « أنّ رهبانيّة اُمّتي الجلوس في المساجد » [٣] إلى غير ذلك ممّا يباين طريقة هؤلاء، فهؤلاء المبتدعون جمعوا بين الجهل وسوء الأدب مع الله ورسوله ، أمّا الجهل فلكونهم ماعرفوا وجوه الحكمة فيما كلّف الله به عباده من الأوامر و النواهي على حسب ما يليق بهم و بما هو أوفق لأفهامهم وأمزجتهم ، وأمّا سوء أدبهم فمعارضتهم له سبحانه ولرسوله بما وضعوه من عند أنفسهم ممّا زعموه طريقاً إلى معرفة الله و هم الّذين رووا عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : « من أحدث في ديننا ماليس فيه فهو ردّ » [٤] وفي حديث آخر « من غشّ اُمّتي فعليه لعنة الله و الملائكة والناس أجمعين ، قيل يا رسول الله : و ما غشّ اُمّتك ؟ قال : أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها » [٥] وفي آخر « إنّ لله ملكاً ينادي كلّ يوم من خالف سنّة رسول الله لم تنله شفاعته » [٦] وهم الّذين قالوا : مثال الجاني على الدّين بإبداع مايخالف السنّة بالنسبة إلى من يذنب ذنباً مثال من عصى الملك في قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره في خدمة معيّنة ، وذلك قد يغفر ، فأمّا قلب الدّولة فلا ، ثمّ ما يقولونه لايتمّ إلّا برفع الخواطر وهذا شيء ليس في وسع البشر ولا سيّما العوامّ منهم ، قيل لمولانا الصادق عليه السلام : « إنّ لي أهل بيت قدريّة يقولون نستطيع أن نعمل كذا وكذا و نستطيع أن لا نعمل فقال عليه السلام : قل له هل تستطيع أن لا تذكر ما تكره و أن لاتنسى ماتحبّ ؟ فإن قال : لافقد ترك قوله ، و إن قال : نعم فلا تكلّمه أبداً فقد ادّعى الرّبوبيّة » ولا يتمّ أيضاً إلّا بمتابعة شيخ لايخالفه في شيء ممّا يأتي به ويذر كما

---

(١) راجع بحارالانوار ج ١٥ الجزء الثانى ص ٥٢ واخرجه احمد فى المسند ج ٦ ص ٢٢٦ هكذا « أن الرهبانية لم تكتب علينا ».

(٢) ماعثرت على اصل له الابهذا للفظ « خصى امتى الصيام والقيام » رواه احمد.

(٣) أخرجه البغوى فى المصابيح ج ١ ص ٤٩ من حديث عثمان بن مظعون.

(٤) أخرجه ابن ماجه فى السنن تحت رقم ١٤ ، وأحمد ج ٦ ص ٢٧٠ .

(٥) و (٦) ماعثرت على اصل لهما .

قالوه ، و الشيخ جائز الخطأ باعترافهم فإنّهم لايشترطون العصمة فيه و على هذا فيجوز أن يكلّف المريد بما فيه هلاكه في دينه أو دنياه كما اعترفوا به أيضاً و نحن قد رأينا ذلك فمنهم من مات من رياضته ومنهم من فسد دينه ، ولهذا قال مولانا الصادق عليه السلام « إيّاك أن تنصب رجلاً دون الحجّة فتصدّقه في كلّ ما قال » [١] وهذا أحد معاني قوله سبحانه : « والّذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها» [٢] فإنّ متابعة مثل هذا الشيخ المبتدع الّذي لايقول عن الله ، و جاز عليه الخطأ عبادة الطاغوت ، على أنّا نرى أكثر مشايخهم الّذين سلكوا هذه الطريقة الشنعاء [٣] وحملوا الناس عليها كانوا في حيرة وعمى من معرفة الإمام ، مع أنّ بناء معرفة الدّين علماً وعملاً على معرفة الإمام المنصوب من الله سبحانه بالوحي .

و قد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في الحديث المتّفق عليه بين الخاصّة و العامّة : «من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهليّة » [٤] « ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين» [٥].

و عن الباقر عليه السلام « كلّ من دان الله بعبادة يجهد فيها نفسه و لا إمام له من الله فسعيه غير مقبول ، وهو ضالّ متحيّر ، والله شانىء لأعماله [٦] ، ومثله كمثل شاة ضلّت عن راعيها وقطيعها ، فهجمت ذاهبة [٧] و جائية يومها ، فلمّا جنّها الّليل بصرت بقطيع من غير راعيها ، فحنّت إليها [٨] واغترّت بها ، و باتت معها في مربضها ، فلمّا أن ساق الرّاعي قطيعه أنكرت راعيها وقطيعها ، فهجمت متحيّرة تطلب راعيها

(١) رواه الصدوق فى معانى الاخبار ص ١٦٩.

(٢) الزمر : ١٩ . والطاغوت فعلوت من الطغيان

(٣) أى الطريقة القبيحة المستهجنة .

(٤) تقدم فى مجلد الرابع ص ١٧٤.

(٥) القصص : ٥٠ .

(٦) أى مبغض لا عماله .

(٧) أى دخلت بلاروية .

(٨) أى اشتاقت ، والحنن الشوق وتوقان النفس كما فى القاموس .

و قطيعها ، فبصرت بغنم مع راعيها فحنّت إليها ، واغترّت بها ، فصاح بها الرّاعي الحقي براعيك وقطيعك فإنّك تائهة متحيّرة عن راعيك وقطيعك ، فهجمت ذعرة متحيّرة نادّة (١) لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها و يردّها ، فبينا هي كذلك إذا اغتنم الذئب ضيعتها فأكلها ، و كذلك والله من أصبح من هذه الأمّة لا إمام له من الله عزّ وجلّ ظاهراً عادلاً أصبح ضالاً تائهاً ، و إن مات على هذه الحال مات ميتة كفر ونفاق ، واعلم أنّ أئمّة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلّوا وأضلّوا فأعمالهم الّتي يعملونها كرماد اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف لا يقدرون ممّا كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » (٢).

و عن الصادق عليه السلام : « والله لو أنّ إبليس سجد لله تعالى بعد المعصية والتكبّر عمر الدّنيا ما نفعه ذلك ولا قبله الله تعالى مالم يسجد لآدم كما أمره الله أن يسجد له و كذلك هذه الأمّة العاصية المفتونة بعد نبيّها صلى الله عليه وآله وبعد تركهم الإمام الّذي نصبه نبيّهم صلى الله عليه وآله ، فلن يقبل الله لهم عملاً ، ولن يرفع لهم حسنة حتّى يأتوا الله من حيث أمرهم و يتولّوا الإمام الّذي أمروا بولايته ، ويدخلوا في الباب الّذي فتحه الله و رسوله لهم » .

فإن قلت : فما الطريق إلى معرفة أسرار الدّين وتحصيل اليقين ؟ فاعلم أنّ الله سبحانه جعلنا أزواجاً وجعل لكلّ منّا شرعة ومنهاجاً ، و ليس لعامّة الناس أن يسلكوا مسلك الحكماء الألبّاء أو ينهجوا منهج الرّبّانيّين من العلماء فإنّ جناب الحقّ جلّ أن يكون شريعة لكلّ وارد أو يطلع عليه إلّا واحد بعد واحد ، والمؤمن الموقن أعزّ من الكبريت الأحمر ، ثمّ لابدّ لمن أراد الشروع في تحصيل العلم المكنون عند أهله المضنون به عن غير أهله أن يكون شابّاً صحيح المزاج ، ذكيّاً أميناً عفيفاً صدوقاً ، مهذّب الأخلاق ، مبرّءاً عن الرّياء و النفاق ، مبغضاً لفضول الدّنيا ، معرضاً عن المكر والغدر والخيانة ونحوها ، معظّماً للعلم والعلماء ، مقبلاً

---

(١) « ذعرة » كوجلة وزناً ومعنى . وند البعير نداً ونديداً ونداداً : شرد ونفر .

(٢) الكافي ج١ ص ٣٧٥ .

على الوظائف الشرعيّة فرائضها ونوافلها بعدأن تعلّم أحكامها وعرف حلالها وحرامها وكان قدأخذها عن أهلها وإمامها ، قال الصادق عليه السلام : « إنّ آية الكذّاب أن يخبرك بخبر السماء و الأرض فإذا سئل عن شيء من مسائل الحلال و الحرام لم يكن عنده شيء »[1] ثمّ بعد ذلك كلّه اشتغل بتحصيل هذا العلم من طريقه وعلى وجهه بتقديم الإتيان بالفرائض ، ثمّ النوافل ، ثمّ مراعاة الآداب والسنن ، ثمّ الصبر على البلايا و المحن وملازمة الذكر و مداومة الفكر حسب الميسور ، و التخلّي عن الشهوات النّفسانيّة و الخواطر الشيطانيّة بالمقدور ، و جعل الهموم همّاً واحداً مع إخلاص النيّة وصفاء الطويّة والعمل بما يتعلّمه شيئاً فشيئاً ، و مراقبة النفس آناً فآناً حتّى يصير العلم عياناً له بعد يقين ويترقّى من علم اليقين إلى عين اليقين إلى حقّ اليقين ، و العمدة فيه الزّهد في الدّنيا و متابعة الشرع من طريق أئمّة الهدى و ملازمة التقوى ، قال الله تعالى : « و اتّقوا الله و يعلّمكم الله »[2] .

و قال : « إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً »[3] .

و قال : « ولو أنّ أهل القرى آمنوا و اتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض »[4] .

و قال : « و من يتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب»[5] .

و قال : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا »[6] .

و قال أمير المؤمنين عليه السلام :[7] « إنّ من أحبّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه[8] ، فاستشعر الحزن و تجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه - إلى إن قال : - قد خلع سرابيل الشهوات و تخلّى من الهموم إلّا همّاً واحداً انفرد به ،

(١) الكافي ج ٢ ص ٣٤٠ .
(٢) البقرة : ٢٨٢ .
(٣) الانفال : ٢٩ .
(٤) الاعراف : ٩٦ .
(٥) الطلاق : ٢ .
(٦) العنكبوت : ٦٩ .
(٧) نهج البلاغة في باب الخطب تحت رقم ٨٥ .
(٨) أي قواه وظاهره حتى غلب .

فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى وصار من مفاتيح أبواب الهدى ، ومغاليق أبواب الرّدى ،[١] قد أبصر طريقه ، و سلك سبيله ، وعرف مناره ، وقطع غماره[٢] ، و استمسك من العرى بأوثقها ، و من الحبال بأمتنها ،[٣] ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس » .

قال أبو حامد : فإذن منتهى الرّياضة أن يجد المريد قلبه مع الله أبداً ، و لايمكن ذلك إلّا بأن يخلو عن غيره و لا يخلو عن غيره إلّا بطول المجاهدة فإذا حصل قلبه مع الله انكشف له جلال الحضرة الرّبوبية وتجلّى له الحقّ ، و ظهر له من لطائف رحمة الله مالا يجوز أن يوصف بل لا يحيط الوصف به أصلاً و إذا انكشف للمريد شيء من ذلك ، فأعظم القواطع عليه أن يتكلّم به وعظاً أو نصحاً أو يتصدّى للتذكير فيجد للنفس فيه لذّة ليس وراءها لذّة ، فتدعوه تلك اللّذّة إلى أن يتفكّر في كيفيّة إيراد تلك المعاني وتحسين الألفاظ المعبّرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات و شواهد القرآن و الأخبار و تحسين صورة الكلام لتميل إليه القلوب و الأسماع و الشيطان ربما يخيّل إليه أنّ هذا منك إحياء لقلوب الموتى الغافلين عن الله ، وإنّما أنت واسطة بين الله وبين الخلق لدعوة عباده إليه ، ومالك فيه نصيب، ولا لنفسك فيه لذّة ويتّضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاماً منه ، وأجزل لفظاً ، و أقدر على جلب قلوب العوامّ ، فإنّه يتحرّك في باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كان محرّكه لذّة القبول ، و إن كان محرّكه هو الحقّ حرصاً على دعوة عباد الله عزّ وجلّ إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول : الحمد لله الّذي عضدني و أيّدني بمن يوازرني على إصلاح عباده كالّذي وجب عليه مثلاً أن

(١) المغلاق - وزان المفتاح - ضده يعنى ما يغلق به الباب .

(٢) بكسر الغين جمع غمر بالفتح و هو معظم البحر والماء الكثير ، ولعل المراد بقطع الغمار خروجه عن فتن الدنيا و مضلاتها بسفن النجاة والهدايات خاصة . (بهجة الحدائق) .

(٣) لعل المراد بأوثقها الايمان و بامتن الحبال اتباع أوامر الله و متابعة سبيل الهدى (البهجة) .

يحمل ميتاً ليدفنه إذا وجده ضائعاً ، و تعين عليه ذلك شرعاً ، فجاء من أعانه عليه فانّه يفرح به ولايحسد معينه ، فالغافلون موتى و الوعّاظ هم المنبّهون و المحيون لهم ففي كثرتهم استرواح وتناصر ، فينبغي أن يعظم الفرح بهم ، وهذا عزيز الوجود جدّاً فينبغي أن يكون المريد على حذر منه فانّه أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فانّ إيثار الحياة الدّنيا طبع غالب على الانسان ولذلك قال الله تعالى : « بل تؤثرون الحيوة الدنيا » [١] ثمّ بيّن سبحانه أنّ الشرّ قديم في الطباع ، غالب على الانسان وأنّ ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال سبحانه : « إنّ هذا لفي الصحف الاُولى صحف إبراهيم وموسى» [٢].

فهذا منهاج رياضة المريدين وترتيبه في التدريج إلى لقاء الله سبحانه أمّا تفصيل الرّياضة في كلّ صفة فسيأتي بيانه فانّ أغلب الصفات على الانسان بطنه و فرجه ولسانه أعني به الشهوات المتعلّقة بها ، ثمّ الغضب الّذي هو كالجند لحماية الشهوات ثمّ مهما أحبّ الانسان شهوة البطن والفرج وأنس بها أحبّ الدّنيا ولم يتمكّن منها إلّا بالمال والجاه وإذا طلب المال والجاه حدث فيه العجب والكبر والرئاسه ، و إذا ظهر ذلك ولم تسمح نفسه بترك الدين رأساً تمسّك من الدين بما فيه الرئاسة وغلب عليه الغرور .

فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب :

كتاب في كسر شهوة البطن والفرج ؛ و كتاب في آفة اللّسان ؛ و كتاب في كسر الغضب و الحسد و الحقد ؛ و كتاب في ذمّ الدنيا و تفصيل خدعها ؛ و كتاب في كسر حبّ المال وذمّ البخل ، و كتاب في ذمّ الرّياء و حبّ الجاه ؛ و كتاب في الكبر والعجب ؛ و كتاب في بيان مواقع الغرور .

و بذكر هذه المهلكات و تعليم طرق المعالجة فيها يتمّ غرضنا من هذا الرّبع ربع المهلكات إن شاء الله فانّ ما ذكرناه في الكتاب الأوّل هو شرح لصفات القلب الّذي هو معدن المهلكات والمنجيات ، وما ذكرناه في الكتاب الثاني هو إشارة كلّيّة

(١) الاعلى : ١٦ . (٢) الاعلى : ١٨ و ١٩ .

إلى طريق تهذيب الأخلاق و معالجة أمراض القلوب ، أمّا تفصيلها فإنّه يأتي في هذه الكتب إن شاء الله والحمد لله ربّ العالمين .

هذا آخر كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق و معالجة أمراض القلب من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين شهوة البطن و الفرج .

و الحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً و باطناً .

كتاب كسر الشهوتين شهوة البطن والفرج

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفرّد بالجلال في كبريائه و تعاليه، المستحقّ للتحميد والتقديس و التسبيح و التنزيه، القائم بالعدل فيما يبرمه و يقضيه، (١) المتطوّل (٢) بالفضل فيما ينعم به و يسديه، المتكفّل بحفظ عبده في جميع موارده و مجاريه، و المنعم عليه بما يزيد على مهمّات مقاصده بل بما يفي بأمانيه، فهو الّذي يرشده و يهديه، و هو الّذي يميته ويحييه، و إذا مرض فهو يشفيه، و إذا ضعف فهو يقويه، و هو الّذي يوفّقه للطاعة ثمّ يرتضيه، و هوالّذي يطعمه ويسقيه، و هو الّذي يحفظه عن الهلاك و يحميه، ويحرسه بالطعام والشراب عمّا يهلكه ويرديه، ويمكّنه من القناعة بقليل القوت ويقويه، (٤) حتّى يضيق بهمجاري الشيطان الّذي يناويه، (٥) ويكسر به سطوة النفس الّتي تعاديه، فيدفع شرّهما ثمّ يعبد ربّه و يتّقيه، هذا بعد أن يوسّع عليه ما يلتذّ به و يشتهيه، ويكثر عليه ما يهيج بواعثه و دواعيه، و كلّ ذلك ليمتحنه و يبتليه، فينظر كيف يؤثره على ما يهواه ويبتغيه (٦) وكيف يحفظ أوامره وينتهي عن نواهيه، ويواظب على طاعته، وينزجر عن معاصيه.

---

(١) ابرم الامر: أحكمه.

(٢) من الطول - بالفتح - و هو السعة.

(٣) اسدى فلان الى فلان معروفاً أى صنعه اليه.

(٤) كذا و فى بعض النسخ [يقريه] من قرى الضيف قرى - بالكسر - و قراء - بالفتح والمد - أى أضافه.

(٥) أى الذى يبغضه و يعاديه.

(٦) أى يطلبه و فى بعض النسخ [ينتحيه] من نحاه ينحو أى يقصده.

و الصلاة على محمد عبده النبيه ،[١] و رسوله الوجيه ، صلاة تزلفه و تحظيه[٢] ، و ترفع منزلته و تعليه ، وعلى الأبرار من عترته و أقربيه ، و الأخيار من صحابته و تابعيه .

أما بعد فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أُخرج آدم عليه السلام وحوّاء من دار القرار إلى دار الذُّلّ والافتقار ، إذ نهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتّى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، و البطن على التحقيق ينبوع الشهوات و منبت الأدواء والآفات ، إذ يتبعها شهوة الفرج وشدّة الشبق إلى المنكوحات ،[٣] ثمّ تتبع شهوة المطعم و المنكح شدّة الرّغبة في المال والجاه اللّذين هما الوسيلة إلى التوسّع في المطعومات و المنكوحات ، ثمّ يتبع استكثار المال و الجاه أنواع الرّعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ، ثمّ يتولّد من ذلك آفة الرّياء و غائلة التفاخر و التكاثر والكبرياء ، ثمّ يتداعى ذلك إلى الحسد و الحقد و العداوة و البغضاء ، ثمّ يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء .

و كلّ ذلك ثمرة إهمال المعدة ومايتولّد منها من بطر الشبع والامتلاء ، ولوذلّل العبد نفسه بالجوع وضيّق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله و لم تسلك سبيل البطر و الطغيان و لم ينجرّ به ذلك إلى الانهماك في الدّنيا وإيثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كلّ هذا التكالب على الدّنيا[٤] .

و إذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحدّ وجب شرح غوائلها و آفاتها تحذيراً منها ، و وجب إيضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيباً فيها ،

(١) أى الشريف ، و فى الصحاح نبه الرجل شرف واشتهر ، ينبه نباهة فهو نبيه و نابه و هو خلاف الخامل .

(٢) تزلفه أى تقربه ، وتحظيه أى جعله ذاحظوة ، وفى الصحاح رجل حظى اذا كان ذا حظوة و منزلة .

(٣) الشبق : شدة شهوة الجماع .

(٤) تكالب القوم : تجاهروا بالعداوة ، وتكالبوا على كذا أى تواثبوا عليه ، وتكالب الناس على الدنيا أى اشتد حرصهم عليها .

و كذلك شرح شهوة الفرج فإنّها تابعة لها ، ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى ونبيّنه في فصول تجمعها و هي بيان فضيلة الجوع ، ثمّ فوائد الجوع ، ثمّ طريق الرّياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام و التأخير ، ثمّ بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس ، ثمّ بيان الرّياضة في ترك الشهوة ، ثمّ بيان القول في شهوة الفرج ، ثمّ بيان ما على المريد من ترك التزويج وفعله ، ثمّ بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين .

✡(بيان فضيلة الجوع وذم الشبع)✡

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش ، فإنّ الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله ، و إنّه ليس من عمل أحبّ إلى الله تعالى من جوع و عطش » [1].

قال : ابن عباس : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لا يدخل ملكوت السماوات قلب من ملأ بطنه » [2].

و قيل : يا رسول الله أيّ الناس أفضل ؟ قال : « من قلّ طعمه وضحكه و رضي بما يستر به عورته » [3].

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « سيّد الأعمال الجوع و ذلّ النفس لباس الصّوف » [4].

و قال أبو سعيد الخدري : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ألبسوا [الصوف و شمّروا و] كلوا في أنصاف البطون فإنّه جزء من النبوّة » [5].

و قال الحسن : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الفكر نصف العبادة ، وقلّة الطّعام هي العبادة » [6].

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أفضلكم منزلة عند الله تعالى يوم القيامة أطولكم جوعاً وتفكّراً ، وأبغضكم إلى الله تعالى كلّ نؤم أكول شروب » [7].

---

(١) الى (٧) قال العراقى : لم أجد لهذه الاحاديث أصلا . أقول قد ورد مضمون بعضه فى حديث المعراجية الذى أورده الديلمى فى ارشاده مرسلا . وهو حديث طويل طبع مسنداً بضميمة تحف العقول الطبع الحجرى ص١٢٨ .

و في الخبر «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يجوع من غير عوز»(١) أي مختاراً لذلك.

و قال صلى الله عليه وآله: «إنّ الله يباهي الملائكة بمن قلّ طعمه في الدّنيا يقول: انظروا إلى عبدي ابتليته بالطّعام و الشراب في الدّنيا فتركهما لأجلي اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة تركها لأجلي إلّا أبدلته بها درجات في الجنّة»(٢).

و قال صلى الله عليه وآله: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإنّ القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء»(٣).

و قال صلى الله عليه وآله: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرّاً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان هو فاعلاً لامحالة فثلث لطعامه و ثلث لشرابه و ثلث لنفسه»(٤).

و في حديث أسامة بن زيد(٥) «إنّ أقرب النّاس إلى الله تعالى يوم القيامة من طال جوعه و عطشه وحزنه في الدّنيا، هم الأحفياء الأتقياء الّذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا تعرفهم بقاع الأرض وتحفّ بهم ملائكة السّماء، نعم

(١) في القاموس: العوز بالتحريك ـ: الحاجة، عوز الشيء ـ كفرح ـ لم يوجد والرجل افتقر كأعوز، وماعثرت على لفظ الخبر في أصل الاان البيهقي روى في الشعب عن عائشة قالت: «لوشئنا ان نشبع لشبعنا ولكن محمداً صلى الله عليه وآله كان يؤثر على نفسه» و قال العراقي بعد نقله: واسناده معضل.

(٢) قال العراقي: أخرجه ابن عدي في الكامل.

(٣) ماعثرت على اصل مسند له. الاأن أورده الطبرسي في المكارم في باب آداب الاكل ص ١٧١ مرسلا من كتاب روضة الواعظين للفتال.

(٤) أخرجه الترمذي ج ٩ ص٢٢٤ وفيه «اكلات يقمن» و ابن ماجه وابن حبان في صحيحه الاأن ابن ماجه قال: فان غلبت الادمي نفسه فثلث للطعام الحديث. راجع الترغيب والترهيب ج٣ ص١٣٦.

(٥) قال العراقي: أخرجه الخطيب في الزهد بطوله من حديث سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وأقل على اسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات و فيه حباب بن عبدالله بن جبلة أحد الكذابين و فيه من لايعرف وهو منقطع أيضاً ورواه الحارث بن ابي اسامة من هذا الوجه.

الناس بالدُّنيا ونعّموا بطاعة الله ، افترش الناس الفرش الوثيرة (١) ، وافترشوا الجباه و الركب ، ضيّعوا الناس فعل النبيّين وأخلاقهم وحفظوها هم ، تبكي الأرض إذا فقدتهم ويسخط الله تعالى على كلّ بلدة ليس فيها منهم أحدٌ ، لم يتكالبوا على الدُّنيا تكالب الكلاب على الجيف ، أكلوا العلق و لبسوا الخرق شعثاً غبراً يراهم النّاس فيظنّون أنّ بهم داء وما بهم داء و يقال : قد خولطوا وذهبت عقولهم وماذهبت عقولهم ولا خولطوا ولكن نظر القوم بقلوبهم إلى أمر الله الّذي أذهب عنهم الدُّنيا فهم عند أهل الدُّنيا يمشون بلاعقول ، عقلوا حيث ذهبت عقول الناس ، لهم الشرف في الدُّنيا ولهم الشرف في الأخرة ، يا أُسامة إذا رأيتهم في بلدة فاعلم أنّهم أمان لأهل تلك البلدة ، ولا يعذّب الله تعالى قوماً هم فيهم ، الأرض بهم فرحة ، والجبّار عنهم راض ، اتّخذهم لنفسك إخواناً عسى أن تنجو بهم وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع و كبدك ظمآن فافعل فإنّك تدرك بذلك شرف المنازل و تحلّ مع النبيّين و يفرح بقدوم روحك الملائكة ويصلّي عليك الجبّار » .

و قال عيسى عليه السلام : «أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم فلعلّ قلوبكم ترى الله عزّ وجلّ ، وروي ذلك أيضاً عن نبيّنا صلى الله عليه وآله» (٢) .

و في التورية مكتوب « انّ الله ليبغض الحبر السمين » لأنّ السمن يدلّ على الغفلة و كثرة الأكل و ذلك قبيح خصوصاً بالحبر ، ولأجله قال ابن مسعود : إنّ الله يبغض القارىء السمين ، وفي حديث مرسل « أنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدّم فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش » (٣) .

و في الخبر « إنّ الأكل على الشبع يورث البرص » (٤) .

(١) الوثيرة أى الكثيرة اللحم .

(٢) ماعثرت على أصل له .

(٣) تقدم كراراً .

(٤) رواه الشيخ فى اماليه باسناده عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبى صلى الله عليه و آله كمافى الوسائل كتاب الاطعمة باب آداب المائدة الباب الثانى تحت رقم ٨ .

وقال عليه السلام: «المؤمن يأكل في معى واحد والمنافق يأكل في سبعة أمعاء»[١] إي يأكل سبعة أضعاف ما يأكله المؤمن وتكون شهوته سبعة أضعاف شهوته، ويكون المعى كناية عن الشهوة لأنّ الشهوة هي الّتي تقبل الطعام و تأخذه كما يأخذ المعى وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن.

و عنه صلى الله عليه وآله: «أديموا قرع باب الجنّة يفتح، قيل: و كيف نديم قرع باب الجنّة؟ قال: بالجوع والظماء»[٢].

وروي «أنّ أباجحيفة تجشّأ في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: «أقصر من جشائك فإنّ أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدّنيا»[٣].

و كانت عائشة تقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يمتل شبعاً قطّ و ربّما بكيت رحمة ممّا أرى به من الجوع فامسح بطنه بيدي و أقول: نفسي لك الفداء لو تبلّغت من الدّنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع، فيقول: «يا عائشة إخواني من اُولي العزم من الرّسل قد صبروا على ماهو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربّهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحي إن ترفّهت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم فإن أصبر أيّاماً يسيرة أحبّ إليّ من أن ينقص حظّي غداً في الآخرة ومامن شيء أحبّ إليّ من اللّحوق بإخواني وأخلّائي» قالت: فوالله مااستكملت بعد ذلك جمعة حتّى قبضه الله تعالى[٤].

وعن أنس قال: جاءت فاطمة بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: ماهذه الكسرة؟ قالت: قرص خبزته ولم تطب لنفسي حتّى أتيتك منه بهذه الكسرة،

---

(١) أخرجه البخارى ج ٧ ص ٩٢. و فيه «والكافر» مكان «المنافق». و أخرجه مسلم ج٦ ص ١٣٢ هكذا و رواه الصدوق فى الخصال ج ٢ ص٧ باسناده عن ابى عبدالله عليه السلام عن النبى صلى الله عليه و آله كمافى الصحيحين.

(٢) قال العراقى: لم أجدله اصلا.

(٣) حديث ابى جحيفة رواه الطبرانى فى الاوسط و الكبير باسانيد راجع مجمع الزوائد ج ٥ ص ٣١.

(٤) أخرجه أبوموسى المدينى المتوفى سنة ٥٨١ فى كتاب استحلاء الموت.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «أما والله إنّه أوّل طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيّام »(١) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أهل الجوع في الدّنيا هم أهل الشبع في الآخرة وإنّ أبغض النّاس إلى الله تعالى المتّخمون الملأى ، وماترك عبد أكلة فيشتهيها إلّا كانت له درجة في الجنّة » (٢) .

أقول: روى في الكافي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « كثرة الأكل مكروه » (٣).

و عنه عليه السلام قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بئس العون على الدّين قلب نخيب ، وبطن رغيب ، ونعظ شديد » (٤).

و عنه عليه السلام قال : « إنّ البطن ليطغى من أكله و أقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا جفّ بطنه ، وأبغض ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا امتلاء بطنه » (٥)

و عنه عليه السلام قال أبوذر رحمه الله : « أطولكم جشاء في الدّنيا أطولكم جوعاً في الآخرة ، أوقال : يوم القيامة » (٦) .

و عنه عليه السلام قال : « الأكل على الشبع يورث البرص » (٧) .

و عنه عليه السلام قال : « كل داء من التخمة ماخلا الحمّى فإنّها ترد وروداً » (٨) .

و عنه عليه السلام قال : « ليس لابن آدم بدّ من أكلة يقيم بها صلبه ، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليجعل ثلث بطنه للطعام ، و ثلث بطنه للشراب ، وثلثه للنفس ولاتسمّنوا سمن الخنازير للذّبح » (٩).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : «إذا شبع البطن طغى » (١٠).

و عنه عليه السلام قال : « ما من شيء أبغض إلى الله من بطن مملوء » (١١).

(١) أخرجه الحارث بن أبي اسامة في مسنده بسند ضعيف كما في المغني .

(٢) أخرجه الطبراني وابو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٣) و (٤) و(٥) الكافي ج ٦ ص ٢٦٩ والنخيب : الجبان الذي لافؤاد له ، وقيل الفاسد العقل ، والرغيب : الواسع ويكني به عن كثرة الاكل . وانعظ الرجل اذا اشتهى الجماع والانعاظ : الشبق يعني انه أمرشديد .

(٦) الى (١١) الكافي ج ٦ ص ٢٦٩ و ٢٧٠ .

و في مصباح الشريعة [1] عن الصّادق عليه السلام قال : « قلّة الأكل محمودٌ على كلّ حال و عند كلّ قوم ، لأنّ فيه المصلحة للباطن والظاهر ، والمحمود من المأكول أربعة : ضرورة وعدّة وفتوح وقوت ، فالضرورة للأصفياء ، والعدّة لقوام الأتقياء ، والفتوح للمتوكّلين ، و القوت للمؤمنين . و ليس شيء أضرّ لقلب المؤمن من كثرة الأكل وهي مورثة شيئين قسوة القلب وهيجان الشهوة ، والجوع إدام للمؤمن ، وغذاء للرّوح ، وطعام للقلب ، و صحّة للبدن ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ماملأ ابن آدم وعاء أشرّ من بطنه » .

و قال داود عليه السلام : ترك لقمة مع الضرورة إليها أحبّ إليّ من قيام عشرين ليلة ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « المؤمن يأكل بمعى واحدة والمنافق يأكل بسبعة أمعاء ، و قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « ويل للناس من القبقبين فقيل : وما هما يا رسول الله ؟ قال : الحلق والفرج » وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : « ما أمرض القلب بأشدّ من القسوة ، وما اعتلّت نفس بأصعب من نغض الجوع وهما ذماما الطرد والخذلان » .

قال أبو حامد : وأمّا الآثار قال لقمان لابنه : «يابنيّ إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة و خرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة » .

و قال شقيق : العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلتها المجاعة .

و قال الفضيل : إلهي أجعتني وأجعت عيالي و تركتني في ظلم اللّيالي بلا مصباح ، و إنّما تفعل هذا بأوليائك فبايّ منزلة نلت هذا منك .

وقال يحيى بن معاذ : جوع الرّاغبين منبّهة ، وجوع التائبين تجربة ، وجوع المجتهدين كرامة ، وجوع الصابرين سياسة ، وجوع الزّاهدين حكمة ، وفي التورية إتّق الله وإذا شبعت فاذكر الجياع .

و قال أبو سليمان : لأن أترك لقمة من عشائي أحب إليّ من قيام ليلتي إلى الصّبح » .

و قال أيضاً : الجوع عندالله في خزائنه لايعطيه إلّا لمن أحبّ .

(١) المصدر باب ٤١ باب الاكل .

وكان سهل التستري : يطوي نيّفاً وعشرين يوماً لا يأكل وكان يكفيه لطعامه في السنة درهم وكان يعظّم الجوع ويبالغ فيه حتّى قال : لا يوافي يوم القيامة عمل برّ أكبر من ترك فضل الطعام والاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وآله في أكله .

و قال : لم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدّين والدُّنيا .

و قال : لا أعلم شيئاً أضرّ على طلاب الآخرة من الأكل الكثير .

و قال : وضعت الحكمة والعلم في الجوع و جعل الجهل والمعصية في الشبع .

و قال : ما عبدالله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال .

و قال في الحديث : ثلث للطعام فمن زاد عليه فإنّما يأكل من حسناته .

و سئل عن الزيادة فقال : لا يجد الزيادة حتّى يكون الترك أحبّ إليه من الأكل فيكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين ، فإذا كان ذلك وجد الزّيادة .

و قال أيضاً : ما صار الأبدال أبدالاً إلّا باخماص البطون و الصمت و السهر و الخلوة .

و قال : رأس كلّ برّ بين السّماء والأرض الجوع ، ورأس كلّ فجور بينهما الشبع ، وقال من جوّع نفسه انقطعت عنه الوساوس .

و قال : إذا أقبل الله على العبد ابتلاه بالجوع والسقم والبلاء إلّا من شاء الله .

و قال : اعلموا أنّ هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلّا بذبح نفسه و قتلها بالصبر والجوع والجهد .

و قال : ما أظنّ أحداً على وجه الأرض شرب من هذا الماء حتّى يروي فسلم من المعصية و إن شكر الله فكيف الشبع من الطّعام .

و سئل حكيم بأيّ قيد أقيد نفسي ؟ قال : بالجوع والعطش و ذلّلها باخمال الذكر وترك العزّ ، وصغّرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة ، واكسرها بترك زيّ القرّاء عن ظاهرها وانج من آفاتها بدوام سوء الظنّ بها و أصحبها بخلاف هواها.

و كان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى أنّ الله عزّ وجلّ ما صافى عبداً إلّا بالجوع ولا والاهم الله إلّا بالجوع ، ولا مشوا على الماء إلّا بالجوع ولا طويت لهم

الأرض إلّا بالجوع .

وقال أبوطالب المكّي : مثل البطن مثل المزمار و هوالعود المجوّف ذوالاوتار إنّما حسن صوته لخفّته ورقّته ولأنّه أجوف غير ممتلىء فكذلك الجوف إذا خلي كان أعذب للتلاوة و أدوم للقيام وأقلّ للمنام .

و قال بكر بن عبدالله : ثلاثة يحبّهم الله : رجلٌ قليل الأكل قليل النّوم قليل الرّاحة .

و روي أنّ عيسى عليه السلام مكث يناجي ربّه ستّين صباحاً لم يأكل و لم يخطر بباله الأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة ، فإذا رغيف موضوع فقعد يبكي لفقد المناجاة ، فإذا شيخ قد أظلّه فقال له عيسى : يا وليّ الله بارك الله فيك ادع الله تعالى لي فإنّي كنت في حالة فخطر ببالي الخبز فانقطعت عنّي ، فقال الشيخ : اللّهمّ إن كان الخبز خطر ببالي منذ عرفتك ، فلا تغفر لي ، بل كان إذا حضره شيء أكله من غير فكر و خاطر ، وروي أنّ موسى عليه السلام لما قرّبه الله نجيّاً كان قد ترك الأكل أربعين يوماً ، ثلاثين ثمّ عشراً على ما ورد في القرآن وأنّه استاك بعد ثلاثين يوماً فزيد عشرة أيّام لأجل ذلك .

✡(بيان فوائد الجوع و آفات الشبع)✡

لعلّك تقول : هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو وما سببه ؟ و ليس فيه إلّا إيلام المعدة و مقاساة الأذى فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الفضل في كلّ ما يتأذّى به الإنسان من ضربه نفسه و قطعه لحمه و تناوله الأشياء الكريهة و مايجري مجراها .

فاعلم أنّ هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به فظنّ أنّ منفعته لمرارة الدّواء و كراهيته فأخذ يتناول كلّ ماهو مكروهٌ مرٌّ المذاق وهو غلطٌ منه بل نفعه في خاصّيته في الدّواء و ليس لكونه مرّاً و إنّما يقف على تلك الخاصّية الأطبّاء فكذلك لايقف على علّة نفع الجوع إلّا سماسرة العلماء ، و من أجاع نفسه مصدّقاً لماجاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علّة المنفعة كما أنّ من شرب

الدّواء انتفع به و إن لم يعرف عين المنفعة وعلّتها ووجه كونه نافعاً ولكنّا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الايمان إلى درجة العلم قال الله تعالى : « يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين أوتوا العلم درجات »(١) فنقول : في الجوع عشر فوائد :

الاولى صفاء القلب ، وإيقاد القريحة ، وإنفاذ البصيرة ، فإنّ الشبع يورث البلادة ، ويعمي القلب و يكثر البخار في الدّماغ كشبه السكر حتّي يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار فيحرمه عن سرعة الإدراك بل الصبيّ إذا أكثر الأكل بطل حفظه و فسد ذهنه وصار بطيء الفهم و الإدراك ، قال أبو سليمان . عليك بالجوع فإنّه مذلّة للنفس ، ورقّة للقلب ، و يورث العلم السّماوي .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أحيوا قلوبكم بقلّة الضحك و الشبع ، وطهّروها بالجوع تصفو وترق »(٢) .

و يقال : مثل الجوع مثل الرّعد ، والقناعة كالسحاب ، والحكمة كالمطر .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه » .

و قال ابن عبّاس : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « من شبع ونام قسا قلبه ، ثمّ قال : إنّ لكلّ شيء زكاة وزكاة البدن الجوع »(٣) .

و قال الشبلي : ماجعت لله يوماً إلّا رأيت في قلبي باباً مفتوحاً من الحكمة والعبرة مارأيته قطّ ، وليس يخفى أنّ غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحقّ ، و الشبع يمنع منه و الجوع يفتح بابه ، و المعرفة باب من أبواب الجنّة ، فبالحريّ أن يكون ملازمة الجوع قرعاً لباب الجنّة و لهذا قال لقمان لابنه : يابنيّ إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، و خرست الحكمة ، وقعدت

---

(١) المجادلة : ١١ .

(٢) قال العراقي : لم أجده أصلا . و كذلك الخبر الآتي .

(٣) حديث من شبع ونام أخرج ابن ماجه ذيله من حديث ابي هريرة تحت رقم ١٧٤٥ هكذا « لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم » .

الأعضاء عن العبادة .

و قال أبويزيد : الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة .

و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « نور الحكمة الجوع ، والبعد من الله الشبع ، و القربة إلى الله حبّ المساكين والدّنوّ منهم . لاتشبعوا فينطفي نور المعرفة من قلوبكم و من بات يصلّي في خفّة من الطعام باتت الحور العين حتى يصبح »[١] .

الفائدة الثانية رقّة القلب و صفاؤه الّذي به يتهيّأ لإدراك لذّة المناجاة والتأثّر بالذّكر فكم من ذكر يجري على اللّسان مع حضور القلب و لكن القلب لايلتذّ به ولايتأثّر عنه حتى كأنّ بينه و بينه حجاباً من قساوة القلب ، و قد يرقّ في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذّذه بالمناجاة ، و خلوّ المعدة هو السبب الأظهر فيه ، قال أبوسليمان : أحلى ماتكون إليّ العبادة إذالصق بطني بظهري .

و قال الجنيد : يجعل أحدهم بينه وبين الله مخلاة من الطعام و يريد أن يجد حلاوة المناجاة .

و قال أبو سليمان : القلب إذا جاع وعطش صفى ورقّ ، فإذا شبع و روى عمي وغلظ ، فإذاً تأثّر القلب بلذّة المناجاة أمرٌوراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة ، فهذه فائدة ثانية .

الفائدة الثالثة الانكسار و الذّل و زوال البطر و الفرح والأشر الّذي هو مبدء الطغيان و الغفلة عن الله ، ولا تنكسر النفس ولا تذلّ بشيء كما تذلّ بالجوع فعنده تستكين لربّها و تخشع له وتقف على عجزها و ذلّها إذضعفت منّتها[٢] وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدّنيا بشربة ماء تأخّرت عنها ، ومالم يشاهدالإنسان ذلّ نفسه وعجزه لايرى عزّة مولاه و لاقهره ، وإنّما سعادته في

---

(١) ذكره ابومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة و كتب عليه انه مسندوهى علامة مارواه باسناده (المغنى) . «أقول: أورده الطبرسى فى المكارم ص١٧١ من كتاب روضة الواعظين للفتال .

(٢) المنة - بضم الميم - القوة .

أن يكون دائماً مشاهداً نفسه بعين الذّل والعجز ومولاه بعين العزّ والقدرة والقهر فليكن دائماً جائعاً ذليلاً مضطرّاً إلى مولاه، مشاهد للاضطرار بالذوق، ولذلك لما عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدّنيا و خزائنها فقال: «لا بل أجوع يوماً و أشبع يوماً فإذا جعت صبرت و تضرّعت و إذا شبعت شكرت[1]» أو كما قال.

والبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع، والذّل والانكسار باب من أبواب الجنّة و أصله الجوع و من أغلق باباً من أبواب النار فقد فتح له باب من أبواب الجنّة بالضرورة لانّهما متقابلان كالمشرق والمغرب فالقرب من أحدهما بعد من الآخر[2].

الفائدة الرابعة أن لاينسى بلاء الله وعذابه ولاينسى أهل البلاء، فإنّ الشبعان ينسى الجائعين وينسى الجوع، والعبد الفطن لايشاهد بلاء إلّا و يتذكّر بلاء الآخرة فيتذكّر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة، و من جوعه جوع أهل النّار حين يجوعون فيطعمون الزقّوم والضريع ويسقون الغسّاق والمهل، ولا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فإنّه هوالّذي يهيّج الخوف ومن لم يكن في قلّة ولا علّة ولا ذلّة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثّل في نفسه ولم يغلب على قلبه، فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء، و أولى ما يقاسيه من البلاء بلاء الجوع فإنّ فيه فوائد جمّة سوى تذكّر عذاب الآخرة، و هذا أحد الأسباب الّتي اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء و الأولياء والأمثل فالأمثل، ولذلك لمّا قيل ليوسف عليه السلام: لم تجوع وفي يديك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإنّ ذلك يدعوه إلى الرّحمة و الإطعام والشفقة على خلق الله والشبعان في غفلة من ألم الجائع.

(١) أخرجه الترمذى وقد تقدم.

(٢) كما قال أمير المؤمنين عليه السلام «الدنيا والاخرة عدوان متعاديان وسبيلان مختلفان، من احب الدنيا و والاها أبغض الاخرة وعاداها مثلهما مثل المشرق و المغرب والماشى بينهما لايزداد من احدهما قرباً الاازداد من الاخر بعداً». رواه ابن شعبة فى التحف ص ٢١٢.

الفائدة الخامسة - وهي من كبار الفوائد - كسر شهوات المعاصي كلّها والاستيلاء على النفس الأمّارة بالسوء، فإنّ منشأ المعاصي كلّها الشهوات والقوى ومادّة القوى والشهوات لامحالة الأطعمة، فتقليلها يضعّف كلّ شهوة وقوّة، وإنّما السعادة كلّها في أن يملك الرّجل نفسه و الشقاوة كلّها في أن يملكه نفسه، و كما أنّك لاتملك الدّابة الجموح إلّا بضعف الجوع وتضميرها [١] فإذا شبعت قويت و شردت وجمحت فكذلك النفس.

و قيل لبعضهم: ما بالك مع كبرك لاتتعهّد بدنك و قد انهدّ؟، فقال: لأنّه سريع المرح، فاحش الأشر، فأخاف أن يجمح بي فيورّطني ولئن أحمله على الشدائد أحبّ إليّ من أن يحملني على الفواحش.

و قال ذوالنون: ماشبعت قطّ إلّا وقد عصيت الله أوهممت بمعصيته.

وقالت عائشة: إنّ أوّل بدعة حدثت بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الشبع، إنّ القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى الدّنيا. وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزائن الله تعالى.

وأقلّ ما يندفع بالجوع شهوة الفرج و شهوة الكلام فإنّ الجائع لايتحرّك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلّص به من آفات اللّسان كالغيبة و الفحش و النميمة والكذب وغيرها، فيمنعه الجوع عن كلّ ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكّه لامحالة بأعراض الناس «ولايكبّ الناس على مناخرهم في النار إلّا حصائد ألسنتهم» [٣]

و أمّا شهوة الفرج فلاتخفى غائلتها والجوع يكفي شرّها فإذا شبع الرّجل لايملك فرجه و إن منعه التقوى فلايملك عينيه و العين تزني كما يزني الفرج فإن ملك عينيه بغطاء التقوى فلا يملك فكره فيخطر له من الأفكار الرديّة و حديث النفس

---

(١) تضمير الخيل هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن ثم لاتعلف الاقوتاً لتخف (النهاية)

(٢) راجع الكافي ج ٢ ص ١١٥ تحت رقم ١٤.

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١١٥ و «حصائد ألسنتهم» يعني مايقطعون من الكلام الذي لاخير فيه، واحدتها حصيدة، تشبيهاً بما يحصل من الزرع و تشبيهاً للسان و ما يقطعه من القول بحد المنجل الذي يحصد به. (قاله المؤلف في الوافي).

بأسباب الشهوة ما يتشوّش به مناجاته و ربّما عرض له ذلك في أثناء الصلاة و إنّما ذكرنا آفة الفرج واللّسان مثالاً وإلّا فجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوّة بالشبع ، قال حكيم : كلّ مريد صبّر على السياسة فيصبر على الخبز البحت سنة لايخلط معه شيئاً من الشهوات و يأكل بنصف بطنه رفع الله عنه مؤونة النساء .

الفائدة السادسة دفع النوم و دوام السهر فإنّ من شبع شرب كثيراً و من كثر شربه كثر نومه ، فلذلك كان يقول بعض المشايخ لأصحابه على رأس السفرة : معاشر المريدين لاتأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً ، وأجمع رأي سبعين صدّيقاً على أن كثرة النوم من كثرة الشرب و في كثرة النوم ضياع العمر ، وفوت التهجّد ، وبلادة الطبع ، وقساوة القلب . والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتّجر ، والنوم موت فتكثيره ينقص من العمر ، ثمّ فضيلة التهجّد لاتخفى و في النوم فواته ، ومهما غلبه النوم فإن تهجّد لم يجد حلاوة العبادة ، ثمّ المتعزّب إذا نام على الشبع احتلم و يمنعه ذلك أيضاً من التهجّد ويحوجه إلى الغسل إما بالماء البارد فيتأذّى به أويحتاج إلى الحمام ، و ربّما لايقدر عليه باللّيل فيفوته صلاة اللّيل ثمّ يحتاج إلى مؤونة الحمام وربّما يقع عينه على عورة في الحمام فإنّ فيه أيضاً أخطاراً قد ذكرناها في كتاب الطهارة ، و كلّ ذلك أثر الشبع ، و قد قال أبوسليمان : الاحتلام عقوبة . وإنّما قال ذلك لأنّه يمنع عن عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كلّ حال ، فالنوم منبع الآفات و الشبع مجلبة له والجوع مقطعة له .

الفائدة السابعة تيسّر المواظبة على العبادة فإنّ الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنّه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل و ربّما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه ، ثمّ يحتاج إلى غسل اليد والخلال ثمّ يكثر تردّاده إلى بيت الماء لكثرة شربه ، والأوقات المصروفة إلى هذه لو صرفها إلى الذكر و المناجاة و ساير العبادات لكثر ربحه ، قال السري : رأيت مع عليّ الجرجانيّ سويقاً يستفّ منه[1] فقلت له : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إنّي حسبت مابين المضغ إلى الاستفاف سبعين

---

(١) استف الدواء والسويق ونحوهما : قمحه وقيل : أخذه غير ملتوت .

تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة (١) فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيّعه في المضغ، و كلّ نفس من العمر جوهر نفيس لاقيمة له فينبغي أن يستوفى منه خزانة باقية في الآخرة لاآخر لها وذلك بأن يصرفه إلى ذكر الله تعالى و طاعته.

و من جملة ما يتعذّر بكثرة الأكل الدّوام على الطّهارة و ملازمة المسجد فإنّه يحتاج إلى الخروج لشرب الماء وإراقته وفيه ضرر.

و من جملة الفوائد الصوم فإنّه يتيسّر لمن تعوّد الجوع، فالصوم و دوام الاعتكاف و دوام الطهارة وصرف أوقات شغل الأكل و أسبابه إلى العبادة فيه أرباح عظيمة إنّما يستحقرها الغافلون الّذين لم يعرفوا قدر الدّين لكن رضوا بالحياة الدّنيا واطمأنّوا بها «يعلمون ظاهراً من الحيوة الدّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» وقد أشار أبوسليمان الدّاراني إلى ستّ آفات في الشبع، فقال: من شبع دخل عليه ستّ آفات: فقد حلاوة العبادة، وتعذّر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق لأنّه إذا شبع ظنّ الخلق كلّهم شباعاً، و ثقل العبادة، و زيادة الشهوات، و إنّ سائر المؤمنين الجياع يدورون حول المساجد والشباع يدورون حول المزابل.

الفائدة الثامنة يستفيد من قلّة الأكل صحّة البدن و دفع الأمراض فإنّ سببها كثرة الأكل و حصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق ثمّ المرض يمنع من العبادات و يشوّش القلب و يمنع من الفكر والذكر و ينغّص العيش و يحوج إلى الفصد والحجامة والدّواء و الطبيب و كلّ ذلك يحتاج إلى مؤن و نفقات لا يخلوا الإنسان منها بعد التعب من أنواع من المعاصي و اقتحام الشبهات و في الجوع ما يدفع عنه كلّ ذلك.

---

(١) يالله من هذا الرأى التافه، والفكرة الضئيلة، والنسج المزوّر، والنسك الفارغ الخَلِق البالى والزهد المزهود عنه وليس هذا الامر الاستبداد بالرأى، والبعد عن الرسول واهل بيته صلى الله عليه وعليهم وعن علومهم وحكمهم، وذنب التقاعس عن الاقتداء بهم والاخذ عنهم كيف لاوقد ورد عنهم آلاف ماهو خلاف هذا الفقه المزيف والعرفان الذميم المخالف للعقل السليم، و ما خلق الله سبحانه شيئاً من الاعضاء عبثاً ولا باطلا، أعاذنا الله من هذا المجون.

حكي أنّ الرّشيد جمع أربعة أطبّاء هندياً و رومياً وعراقياً وسوادياً فقال: ليصف كلٌّ واحد منكم الدّواء الّذي لاداء فيه، فقال الهندي: الدّواء الّذي لاداء فيه عندي الإهليلج الأسود، وقال الرّومي: هو حبُّ الرّشاد الأبيض، وقال العراقي: هو الماء الحارّ، وقال السوادي وكان أعلمهم: الإهليلج يعفص المعدة وهذاداء، وحبّ الرّشاد يزلق المعدة وهذاداء، والماء الحارّ يرخي المعدة وهذاداء، قالوا: فماعندك؟ قال: الدّواء الّذي لاداء معه عندي أن لاتأكل طعاماً حتى تشتهيه، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه، فقالوا: صدقت.

و ذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس» فتعجّب منه، وقال: ما سمعت كلاماً في قلّة الأكل أحكم من هذا وإنّه لكلام حكيم.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: «البطنة أصل الدّاء والحمية أصل الدّواء وعوّدوا كلّ بدن ما اعتاد» (١) وأظن أنّ تعجّب الطبيب من هذا الخبر لامن ذلك.

و قال ابن سالم: من أكل خبز الحنطة بحتاً بأدب لم يعتلّ إلّا علّة الموت، قيل له: و ماالأدب؟ قال: تأكل بعد الجوع و ترفع قبل الشبع.

و قال بعض أفاضل الأطباء في ذمّ الاستكثار من الأكل: إنّ أنفع ماأدخل الإنسان معدته الرّمّان، وإنّ أضرّ ماأدخل معدته المالح ولأن يقلّل من المالح خيرٌ له من أن يستكثر من الرّمّان.

و في الخبر المشهور «صوموا تصحّوا» ففي الصوم والجوع وقلّة الأكل صحّة الأجسام من الأسقام و صحّة القلوب من سقم الطّغيان والبطر وغيرهما.

الفائدة التاسعة خفّة المؤونة فإنّ من تعوّد قلّة الأكل كفاه من المال قدر

---

(١) قال العراقي: لم أجدله أصلا. أقول: نقله صاحب مكارم الاخلاق في باب آداب المريض ص ٤١٩ من حديث موسى بن جعفر عليهما السلام.

(٢) أخرجه ابن السني و ابونعيم في الطب عن ابي هريرة. بسند حسن. كما في الجامع الصغير.

يسير ، والّذي تعوّد الشبع صاربطنه غريماً ملازماً له يأخذ بمخنقه كلّ يوم فيقول : ماذاتأ كل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصي أومن الحلال فيذلّ ويتعب ، وربّما احتاج إلى أن يمدّ عين الطمع إلى الخلق و هو غاية الذلّ ، والمؤمن خفيف المؤونة .

قال بعض الحكماء : إنّي لأقضي عامّة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لنفسي .

و قال آخر : إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أوزيادة استقرضت من نفسي فتركت الزيادة فهو خير غريم لي .

و كان إبراهيم بن أدهم يسأل أصحابه عن الشيء من المأكول فيقال له : إنّه غال ، فيقول : أرخصوه بالترك .

قال سهل : الأكول مذموم في ثلاث خصال : إن كان من أهل العبادة فيكسل ، و إن كان مكتسباً فلايسلم من الآفات ، و إن كان ممّن يدخل عليه شيء فلاينصف الله من نفسه ، وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدّنيا ، و سبب حرصهم البطن والفرج ، و سبب شهوة الفرج شهوة البطن وفي تقليل الأكل مايحسم هذه الأبواب كلّها وهي أبواب النار ، و في حسمها فتح أبواب الجنّة ، كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أديموا قرع باب الجنة بالجوع (١) » فمن قنع برغيف في كلّ يوم قنع في سائر الشهوات أيضاً وصار حرّاً واستغنى عن الناس و استراح من التعب و تخلّى لعبادة الله و تجارة الآخرة فيكون من الرّجال الّذين لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله ، فإنّه لاتلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة فأمّا المحتاج فتلهيه لامحالة .

الفائدة العاشرة أن يتمكّن به من الإيثار و التصدّق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين و يكون يوم القيامة في ظلّ صدقته كما جاء في الخبر (٢) فمايأكله فخزانته الكنيف وما يتصدّق به فخزانته فضل الله فليس للعبد من ماله إلّا ماتصدّق

(١) تقدم سابقاً .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٤١٦ من حديث عقبة بن عامر .

فأبقى ، أوأكل فأفنى ، أولبس فأبلى ، فالتصدّق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع ، ونظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى رجل سمين البطن فأومأ بأصبعه إلى بطنه وقال : « لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك » [1].

أي لو قدّمته لآخرتك وآثرت به غيرك .

و عن الحسن قال : والله لقد أدركنا رجالاً كان الرّجل منهم ليمسي وعنده من الطعام مايكفيه فلوشاء لأكله كلّه فيقول : والله لاأجعل هذا كلّه في بطني حتّى أجعل بعضه لله .

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعّب عن كلّ فائدة فوائد لاتنحصر حدودها ولا تتناهى فروعها ، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة ، ولهذا قال بعض السّلف : الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد ، والشبع مفتاح الدّنيا وباب الرغبة ، و كلّ ذلك صريح في الأخبار الّتي رويناها ، وبالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني تلك الأخبار إدراك علم و بصيرة ، وإذا لم تعرف هذا و صدّقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلّدين في الايمان .

✡(بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن)✡

اعلم أنّ على المريد في مأكوله وبطنه أربع وظائف : الأولى إن لايأكل إلّا حلالاً ، فالعبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحر وقد ذكرما تجب مراعاته من درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وتبقى ثلاث وظائف خاصّة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام في القلّة والكثرة وتقدير وقته في الابطاء والسرعة و تعيين الجنس المأكول في تناول المشتهيات و تركها .

امّا الوظيفة الأولى في تقليل الطعام فسبيل الرّياضة فيه التدريج فمن تعوّد الأكل الكثير و انتقل دفعة إلى الأكل القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقّته ، فينبغي أن يتدرّج إليه قليلاً قليلاً و ذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده ص ١٧١ تحت رقم ١٢٣٥ من حديث جعدة الجشمي .

المعتاد ، فإن كان يأكل رغيفين مثلاً وأراد أن يردّ نفسه إلى واحد فينقص كلّ يوم ربع سبع رغيف وهو ينقص منه جزءاً من ثمانية وعشرين جزءاً أوجزءاً من ثلاثين جزءاً فيرجع إلى رغيف في شهر ولا يتضرّر به ولا يظهر أثره فإن شاء فعل ذلك بالوزن و إن شاء بالمشاهدة ، فيترك كلّ يوم مقدار لقمة و ينقصه عمّا أكله بالأمس ، ثمّ هذا فيه أربع درجات أقصاها أن يرد نفسه إلى قدر القوام الّذي لايبقى دونه و هو عادة الصدّيقين وهواختيار سهل التستري إذ قال : استعبدالله الخلق بثلاث بالحياة والعقل والقوّة ، فإن خاف العبد على اثنتين منها وهي الحياة والعقل أكل و أفطر إن كان صائماً وتكلّف الطلب إن كان فقيراً ، وإن لم يخف عليهما بل على القوّة ، قال : فينبغي أن لايبالي ولوضعف حتّى يصلّي قاعداً ورأى أنّ صلاته قاعداً مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع كثرة الأكل .

أقول : هذا ليس بشيء لأنّه خلاف مايظهر من آثار أهل البيت عليهم السلام ، فالصّواب أن يحافظ السالك على قوّتهما أمكنه كما يحافظ على حياته وعقله ، قال الله عزّ وجلّ : « كلوا من الطيّبات واعملوا صالحاً »(١) وقال تعالى : « قل من حرّم زينة الله الّتي أخرج لعباده و الطيّبات من الرّزق قل هي للّذين آمنوا في الحيوة الدّنيا خالصة يوم القيمة » (٢) ويأتي تمام الكلام فيه .

قال : الدرجة الثّانية أن يردّ نفسه بالرّياضة في اليوم و اللّيلة إلى نصف مدّ و هو رغيف وشيء ممّا يكون الاربعة منه منّاً ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حقّ الأكثرين كما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله وهو فوق اللّقيمات (٣) لأنّ هذه الصيغة في الجمع للقلّة وهو لما دون العشرة .

الدّرجة الثّالثة أن يردّ نفسه إلى مقدار المدّ وهو رغيفان ونصف وهذا يزيد

---

(١) تمام الآية في سورة المؤمنون : ٥٢ « يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً انى بما تعملون عليم ».

(٢) الاعراف : ٣١ .

(٣) تقدم سابقاً قوله صلى الله عليه وآله «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وان كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

على ثلث البطن في حقّ الأكثرين ويكاد ينتهي إلى ثلثي البطن ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شيء للذكر وفي بعض الألفاظ «ثلث للذّكر» بدل قوله ﷺ: «ثلث للنفس».

الدرجة الرابعة أن يزيد على مقدار المدّ إلى المنّ ويشبه أن يكون ما وراء المنّ إسرافاً مخالفاً لقوله تعالى: «ولا تسرفوا» (١) أعني في حقّ الأكثرين فإنّ مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالشخص والسنّ والعمل الّذي يشتغل به، وههنا طريق خامس لاتقدير فيه، ولكنّه موضع غلط وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده عن الطعام وهو على شهوة صادقة بعد، ولكن الغالب أنّ من لم يقدر مع نفسه رغيفاً أو رغيفين فإنّه لايتبيّن له حدّ الجوع الصادق ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة.

وقد ذكر للجوع الصّادق علامات إحداها أن لايطلب النفس الإدام بل تأكل الخبز وحده بشهوة أيّ خبز كان فمهما طلبت نفسه خبزاً بعينه أوطلبت اُدماً فليس ذلك بجوع، وقيل: من علامته أن يبصق فلايقع الذّباب عليه أي لايبقى فيه دهنية ولادسومة فيدلّ ذلك على خلوّ المعدة، ومعرفة ذلك غامض فالصواب للمريد أن يقدر مع نفسه القدر الّذي لايضعفه عن العبادة الّتي هو بصددها فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته.

وعلى الجملة فتقدير الطعام لايمكن لأنّه يختلف بالأحوال والأشخاص نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعاً من حنطة في كلّ جمعة، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعاً ونصفاً، وصاع الحنطة أربعة أمداد فيكون في كلّ يوم قريباً من نصف مدّ وهو ماذكرنا أنّه قدر ثلث البطن وفي التمر احتيج إلى زيادة لسقوط النوى منه، وقد كان أبوذرّ - رضي الله عنه - يقول: طعامي في كلّ جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله ﷺ والله لاأزيد عليه حتّى ألقاه، فإنّي سمعته ﷺ يقول: «أقربكم منّي مجلساً يوم القيامة وأحبّكم إليّ من مات على ما هو عليه اليوم» (٢) وكان يقول في

---

(١) الاعراف: ٣٠.

(٢) أخرجه احمد في كتاب الزهد ومن طريقه ابو نعيم في الحلية دون قوله «واحبكم الى» وهو منقطع كما في المغني.

إنكاره على بعض الصحابة قدغيّرتم ، ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل ، و خبزتم المرقق ، و جمعتم بين إدامين ، واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحدكم في ثوب وراح في آخر ، ولم تكونوا كذا في عهد رسول الله ﷺ و قد كان قوت أهل الصفّة مدّاً من تمر بين اثنين في كلّ يوم[1] والمدّ رطل و ثلث ويسقط منه النوى .

وقال بعض السلف : المؤمن مثل القبّرة يكفيه الكفّ من الحشف ، والقبضة من السويق ، و الجرعة من الماء ، و المنافق مثل السبع الضاري بلعاً بلعاً ، و سرطاً سرطاً [2] ، لايطوى بطنه لجاره ولايؤثر أخاه بفضله وجّهوا هذه الفضول أمامكم .

و قال سهل : لو كانت الدّنيا دماً عبيطاً كان قوت المؤمن منها حلالاً لأنّ أكل المؤمن عند الضّرورة بقدر القوام فقط .

الوظيفة الثانية في وقت الأكل ومقدار تأخيره وفيه أيضاً درجات .

الدرجة العليا أن يطوى[3] ثلاثة أيّام فما فوقها ، وفي المريدين من ردّ الرّياضة إلى الطّي لا إلى المقدار حتّى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً أو أربعين يوماً وانتهى إليه جماعة من العلماء يكثر عددهم كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة ، و قال بعض العلماء من أطوى أربعين يوماً من الطعام ظهرت له قدرة من الملكوت . أي كوشف ببعض الأسرار الإلهيّة ، وقد وقف بعض هذه الطائفة على راهب فذاكر في حاله وطمع في إسلامه و ترك ماهو عليه من الغرور ، فكلّمه في ذلك كلاماً كثيراً إلى أن قال له الراهب : كان المسيح يطوى أربعين يوماً وإنّه معجزة لاتكون إلّا لنبيّ صادق ، فقال له الصوفي : فان طويت خمسين يوماً تترك ما أنت عليه ؟ و تدخل في دين الإسلام ؟ وتعلم أنه حقّ وأنّك على باطل ؟ قال : نعم فقعد لايبرح إلّا حيث يراه حتّى طوي خمسين يوماً قال : وأزيدك أيضاً فطوي على تمام السّتين ، فتعجّب الراهب منه وقال : ما كنت أظنّ أحداً أن يجاوز المسيح وكان ذلك سبب إسلامه ؛ فهذه درجة عظيمة قلّ من يبلغها إلّا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه في

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٣ س ١٥ من حديث طلحة البصري .

(٢) سرطه سرطاً واسترطه : ابتلعه . (٣) طوى كعلم اى جاع .

لذّته وأنساه جوعته وحاجته (١).

الدّرجة الثانية أن يطوي يومين إلى ثلاثة وليس ذلك خارجاً عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجدّ والمجاهدة.

الدّرجة الثالثة وهي أدناها أن يقتصر في اليوم واللّيلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقلّ وما جاوز ذلك فهو إسراف ومداومة للشبع حتّى لا يكون له حالة جوع و ذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنّة.

روى أبو سعيد الخدريّ «أنّه كان صلّى الله عليه وآله إذا تغدّى لم يتعشّ وإذا تعشّى لم يتغدّ» (٢) وكان السلف يأكلون في كلّ يوم أكلة.

و قال صلّى الله عليه وآله لعائشة: «إيّاك والإسراف فإنّ أكلتين في يوم من السرف» (٣)، فكان أكلتان في يوم سرفاً وأكلة واحدة في يومين إقتاراً وأكلة في كلّ يوم قواماً بين ذلك وهو المحمود في كتاب الله (٤). ومن اقتصر في اليوم على أكلة واحدة فيستحبّ له أن يأكلها في السحر قبل طلوع الصبح فيكون أكله بعد التهجّد قبل الصبح ويحصل له جوع النهار للصّيام، وجوع اللّيل للقيام، وخلوّ القلب لفراغ المعدة ورقّة الفكر، واجتماع الهمّ وسكون النفس إلى المعلوم فلا تنازعه قبل وقته.

وفي حديث عائشة «كان صلّى الله عليه وآله يواصل إلى السحر» (٥).

---

(١) ان صحّ ذلك وكان هذا من أعلى الدرجات فنبينا الاعظم صلى الله عليه وآله لم يبلغ الى هذه الدرجة لعدم نقل مثله فى سيرته ولا سنته فى المأكل والمشرب، وقد نهى صلى الله عليه وآله امّته عن صوم الوصال كما يأتى عنقريب، نعم الوصال فى يومين من خصائصه لكن لم يُعهد عنه غير هذا. والحق أن أمثال هذه الخرافات من مخاريق الصوفية ومنسوجاتهم المزوّرة و الا فالقرآن ينادى بأعلى صوته «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات و اعملوا صالحاً».

(٢) أخرجه ابونعيم فى الحلية بسند صحيح كما فى الجامع الصغير باب الشمائل.

(٣) أخرجه البيهقى فى الشعب كما فى الدر المنثور ج ٣ ص ٨٠.

(٤) فى قوله تعالى: «والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً».

(٥) قال العراقى: لم أجده من فعله و انما هو من قوله «فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر» رواه البخارى ج ٣ ص ٤٧ من حديث ابى سعيد و اما هو فكان يواصل وهو من خصائصه .وأخرجه مسلم ج ٣ ص ١٣٣.

أقول : وذلك بشرط أن لايجعل ذلك صوم وصال بل أفطر بعدالمغرب فإنّ الوصال من خصائص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهوحرامٌ على اُمّته كما رويناه عن أهل البيت عليهم السلام (١).

قال : وإن كان يلتفت قلب الصائم إلى الطعام بعد المغرب وكان يشغله عن حضور القلب في التهجّد أيضاً فالأولى أن يقسم طعامه بنصفين فإن كان رغيفين مثلاً أكل رغيفاً عندالفطر ورغيفاً عند السحر لتسكن نفسه ويخفّ عندالتهجّد بدنه ولا يشتدّ بالنهار جوعه لأجل تسحّره ، فيستعين بالرغيف الأوّل على التهجّد وبالثاني على الصوم ، ومن كان يصوم يوماً ويفطر يوماً فلابأس أن يأكل يوم فطره قبل الظهر ويوم صومه وقت السحر ، فهذه هي الطرق في مواقيت الأكل وتقاربه وتباعده .

أقول: روى في الكافي بإسناده عن ابن أخي شهاب بن عبدربّه قال : « شكوت إلى أبي عبدالله عليه السلام ماألقى من الأوجاع والتخم ، فقال لي : تغدّ وتعشّ ولا تأكل بينهما شيئاً فإنّ فيه فساد البدن . أما سمعت الله تعالى يقول : « لهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً » (٢) .

وعنه عليه السلام قال : «قال أمير المؤمنين عليه السلام : عشاء الأنبياء عليهم السلام بعد العتمة فلا تدعوه فإنّ ترك العشاء خراب البدن » (٣) .

وعنه عليه السلام قال : « ترك العشاء مهرمة (٤) وينبغي للرّجل إذا أسنّ أن لايبيت إلّا وجوفه من الطعام ممتلٍ » (٥).

وعن الرّضا عليه السلام « إنّ في الجسد عرقاً يقال له : العشاء فإذا ترك الرّجل العشاء لم يزل يدعو عليه ذلك العرق إلى أن يصبح يقول : أجاعك الله كما أجعتني ،

---

(١) راجع من لايحضره الفقيه ص ١٩٧ باب النوادر من كتاب الصوم و كتاب الوسائل ج ٢ باب صوم الوصال و صحيح البخاري ج ٣ ص ٤٦ .

(٢) المصدر ج ٦ ص ٢٨٨ والاية فى سورة مريم : ٦٢ .

(٣) المصدر ج ٦ ص ٢٨٨ .

(٤) اى مظنة للضعف و الهرم ذكره الجزري فى النهاية والزمخشري فى الفائق .

(٥) المصدر ج ٦ ص ٢٨٨ .

و أظمأك الله كما أظمأتني ، فلا يدعنّ أحدكم العشاء ولو بلقمة من خبز أو بشربة من ماء »[١].

و عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : « ما بال أصحابي لا يأكلون اللّحم ، ولا يشمّون الطيب ، ولا يأتون النساء ؟ أما إنّي آكل اللّحم وأشمّ الطيب وآتي النساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي »[٢].

و قال صلى الله عليه وآله : « من أتى عليه أربعون يوماً ولم يأكل اللّحم فليستقرض على الله وليأكله »[٣].

و لقد بالغ أبو حامد في التقشّف في هذا الباب سابقاً ولاحقاً ولم نتعرّض له في كلّ كلّ من أقواله بل اكتفينا بما ذكرنا ، وحذفنا بعض حكاياته عن الصوفيّة ممّا تمجّه الطباع السليمة كنقله عن سهل بن عبدالله أنّه أكل دقاق التين ثلاث سنين ثمّ اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين إلى غير ذلك .

قال : الوظيفة الثالثة في نوع الطعام وترك الإدام وأعلى الطعام مخّ البرّ فإن نخل فهو غاية الترفّه ، و أوسطه شعير منخول ، وأدناه شعير لم ينخل ، وأعلى الإدام اللّحم والحلاوة ، وأدناه الملح والخلّ ، وأوسطه المزوّرات بالأدهان من غير لحم ، و عادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدّوام ، بل الامتناع عن الشهوات ، فإنّ كلّ لذيذ يشتهيه الإنسان وأكله اقتضى ذلك بطراً في نفسه وقسوة في قلبه وأُنساً لقلبه بلذائذ الدّنيا حتّى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى وتصير الدّنيا جنّة في حقّه ، ويكون الموت سجناً له ، وإذا منع نفسه من شهواتها و ضيّق عليها ، و حرّمها لذّاتها صارت الدّنيا عليه سجناً ومضيقاً له واشتهت نفسه الانفلات منها ، و يكون الموت إطلاقها وإليه أشار يحيى بن معاذ حيث قال : معاشر الصدّيقين جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس ، فإنّ شهوة الطعام على قدر تجويع النفس ، و كلّ ما ذكرناه

(١) الكافي ج ٦ ص ٢٨٩ .

(٢) الكافي ج ٥ ص ٤٩٦ . وأخرجه مسلم في صحيحه ج ٤ ص ١٢٩ .

(٣) الكافي ج ٦ ص ٣٠٩ .

من آفات الشبع فإنّها تجري في أكل الشهوات و تناول اللّذّات فلانطول بإعادته، فلذلك يعظم الثواب في ترك الشهوات من المباحات و يعظم الخطر في تناولها حتّى قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « شرار اُمّتي الّذين يأكلون مخّ الحنطة »(١) وليس هذا بتحريم بل هو مباح على معنى أنّه من أكله مرّة أو مرّتين لم يعص ، و من داوم عليه فلايعصي أيضاً بتناوله ولكن تتربّي نفسه في التنعّم وتأنس بالدّنيا وتألف اللّذات و يسعى في طلبها فيجرّه ذلك إلى المعاصي فهم شرار الاُمّة لأنّ مخّ الحنطة يقودهم إلى اقتحام اُمور تلك الاُمور معاص .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « شرار اُمّتي الّذين غذّوا بالنعيم ونبتت عليها أجسامهم وإنّما همّتهم ألوان الطعام وأنواع اللّباس ويتشدّقون في الكلام » (٢) .

و أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام «اذكر أنّك ساكن القبر فيمنعك ذلك عن كثير من الشهوات » وقد اشتدّ خوف السّلف من تناول لذائذ الأطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا أنّ ذلك علامة الشقاوة ورأوا منع الله ذلك عنهم غاية السعادة ، حتّى روي أنّ وهب بن منبّه قال : التقى ملكان في السّماء الرّابعة فقال أحدهما للآخر : من أين ؟ قال : اُمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهوديّ لعنه الله ، وقال الآخر : اُمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد . وهذا تنبيه على أنّ تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير .

و عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم « أيّما امرىء اشتهى شهوة فردّ شهوته و آثر بها على نفسه غفر الله له » (٣) .

---

(١) لم أجده أصلا .

(٢) اورده ابن ابى الدنيا فى ذم الغيبة هكذا « شرار امتى الذى غذوا بالنعيم الذين يأكلون من الطعام ألوانا ويلبسون الوان الثياب و يتشدقون فى الكلام ». و رواه البيهقى فى الشعب بسندضعيف عن فاطمة عليها السلام . وروى الحاكم فى المستدرك عن عبدالله بن جعفر مثله بسند صحيح راجع الجامع الصغير باب الشين .

(٣) أخرجه ابن حبان فى كتاب الثواب . وقال المقدسى فى تذكرة الموضوعات ص ٥٠ فيه عمرو بن خالد الواسطى كذاب .

وعنه صلى الله عليه وآله: « إذا سددت كلب الجوع برغيف و كوز من ماء القراح فعلى الدُّنيا وأهلها الدمار » [١] أشاربه إلى أنَّ المقصود ردُّ ألم الجوع ودفع ضرره دون التنعّم بلذّات الدُّنيا ، وقد امتنع السلف من أكل الشهوات ومن الشبع من الأقوات و كان امتناعهم للفوائد الّتي ذكرناها ، و في بعض الأوقات لأنّه كان لايصفولهم حلال فلم يرخّصوا لأنفسهم إلّا في قدر الضرورة ، والشهوات ليست من الضرورات حتّى قال بعضهم : الملح شهوة لأنّه زيادة على الخبز ، و ما وراء الخبز شهوة و هذه هي النهاية فمن لم يقدر على ذلك فينبغي أن لايغفل عن نفسه ولاينهمك في الشهوات، فكفى بالمرء إسرافاً أن يأكل كلّ مايشتهيه ويفعل كلّ مايهواه ، فينبغي أن لايواظب على أكل اللّحم .

قال عليٌّ عليه السلام : «من ترك اللّحم أربعين يوماً ساء خلقه ، ومن داوم عليه أربعين يوماً قسا قلبه » [٢] .

و قيل : إنّ للمداومة على اللّحم ضراوة كضراوة الخمر [٣] ومهما كان جايعاً و تاقت نفسه إلى الجماع فلاينبغي أن يأكل ويجامع فيعطي نفسه شهوتين فتقوى عليه ، وربما طلبت النفس الأكل لينشط على الجماع ، ويستحبُّ أن لاينام على الشبع فيجمع بين غفلتين يعتاده الفتور ويقسو قلبه لذلك ولكن ليصلِّ أوليجلس فيذكر الله تعالى فهو أقرب للشكر .

و في الحديث « أذيبوا طعامكم بالصلاة و الذّكر و لاتناموا عليه فتقسوا قلوبكم » [٤] ومهما اشتهى شيئاً من طيبات الفواكه فينبغي أن يترك الخبز ويأكل الفاكهة بدلاً عن الخبز ليكون قوتاً ولا يكون تفكّهاً ولئلّا يجمع للنفس بين عادة

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابي هريرة باسناد ضعيف (المغني)

(٢) مروي صدره في الكافي ج ٦ ص ٣٠٩ والمحاسن ص ٤٦٦ عن الصادق والرضا عليهما السلام وما عثرت على ذيله في كتب الاحاديث .

(٣) في النهاية : في حديث عمر « ان للحم ضرواة كضراوة الخمر» اى ان له عادة ينزع اليها كعادة الخمر .

(٤) أخرجه ابن السني في اليوم والليلة ص ١٣١ .

و شهوة ، ومهما وجد طعاماً لطيفاً وغليظاً فليقدم اللّطيف فإنّه لا يشتهي الغليظ بعده ، ولو قدّم الغليظ لأكل اللّطيف أيضاً للطفه ، وكان بعضهم يقول لأصحابه : لا تأكلوا الشهوات فإن أكلتم فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلا تحبّوها . وطلب بعض أنواع الخبز شهوة .

و على الجملة لاسبيل إلى إهمال النفس في الشهوات في المباحات و اتّباعها بكلّ حال وبقدر ما يستوفي العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة : « أذهبتم طيّباتكم في حيوتكم الدّنيا واستمتعتم بها »[1] وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتّع في الآخرة بشهواته .

و قال تعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيّام الخالية »[2] وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات لأكلها ولهذا قيل : ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها .

✡(بيان اختلاف حكم الجوع و فضيلته باختلاف أحوال الناس)✡

أعلم أنّ المطلوب الأقصى في جميع الأحوال والأخلاق الوسط إذ خير الأمور أوساطها ، و كلا طرفي قصد الأمور ذميم وما أوردناه في فضائل الجوع ربّما يومي إلى أنّ الإفراط فيه مطلوب وهيهات ولكن من أسرار حكمة الشريعة أنّ كلّ ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه على وجه يومي عند الجاهل إلى أنّ المطلوب مضادّة ما يقتضيه الطّبع بغاية الإمكان ، والعالم يدرك أنّ المقصود هو الوسط لأنّ الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغي أن يطلب غاية الجوع حتّى يكون الطّبع باعثاً و الشرع مانعاً فيتقاومان و يحصل الاعتدال ، فإنّ من يقدر على قمع الطّبع بالكلّية بعيد فيعلم أنّه لا ينتهي إلى الغاية فإنّه إن أسرف مسرف في مضادّة الطبع كان في الشرّع أيضاً ما يدلّ على إساءته ، كما أنّ الشرع بالغ في الثناء على قيام اللّيل و صيام النهار ثمّ لما علم النبيّ ﷺ

(١) الاحقاف : ٢٠ .
(٢) الحاقة : ٢٤ .

من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه ، فإذا عرفت هذا فاعلم أن الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لايحس بثقل المعدة ولايحس بألم الجوع ، بل ينسى بطنه فلايؤثر فيه الجوع أصلاً فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة ، وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها، فالمقصود أن يأكل أكلاً معتدلاً بحيث لا يبقى للأكل فيه أثر ليكون متشبهاً بالملائكة ، فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع ، وغاية الإنسان الاقتداء بهم ، وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط و هو الاعتدال .

و مثال طلب الآدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة أُلقيت في وسط حلقة محماة على النار ، مطروحة على الأرض ، فإن النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لاتقدر على الخروج فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الّذي هو الوسط ولو ماتت ماتت على الوسط لأن الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة الّتي في الحلقة المحيطة ، فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص فأشبه أحواله بهم البعد و أبعد المواضع عن الأطراف الوسط فصار الوسط مطلوباً في جميع هذه الأحوال المتقابلة ، وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «خير الأُمور أوساطها»(١) وإليه إشارة بقوله تعالى: « كلوا واشربوا ولاتسرفوا » و مهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوي على العمل مع خفته ، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع أمّا في بداية الأمر إذا كانت النفس جموحاً ، متشوقة إلى الشهوات ، مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لاينفعها بل لابد من المبالغة في إيلامها بالجوع كما يبالغ في إيلام الدابة الّتي ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل ، فإذا ارتاضت و استوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها و إيلامها ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريده بما

(١) أخرجه البيهقي في الشعب مرسلا وقد تقدم .

لايتعاطاه هو بنفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع و يمنعه الفواكه و الشهوات و قد لايمتنع هومنها ، لأنّه قد فرغ عن تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب ، ولمّا كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والامتناع عن العبادة كان الأصلح لها الجوع الّذي تحسّ بألمه في أكثر الأحوال لتنكسر ، و المقصود أن تنكسر حتّى تعتدل ، فتردّ بعد ذلك في الغذاء أيضاً إلى الاعتدال ، وإنّما يمتنع عن ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة إمّا صدّيق و إمّا مغرور أحمق ، أمّا الصدّيق فلاستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحقّ ، وأمّا المغرور فلظنّه بنفسه أنّه الصدّيق المستغني عن تأديب نفسه ، الظّانّ بنفسه خيراً ، وهذا غرور عظيم وهو الغالب ، فإنّ النفس قلّما تتأدّب تأدّباً كاملاً ، و كثيراً ماتغترّ ، فينظر المغرور إلى الصدّيق ومسامحته نفسه في ذلك فيسامح نفسه كالمريض ينظر إلى من قد صحّ من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظنّ بنفسه الصحّة حتّى يهلك والّذي يدلّ على أنّ تقدير الطعام بمقدار يسير و وقت مخصوص ونوع مخصوص ليس مقصوداً في نفسه و إنّما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحقّ غير بالغة رتبة الكمال ، إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يكن له تقدير وتأقيت في طعامه ، قالت عائشة : « كان صلّى الله عليه وآله يصوم حتّى نقول : لايفطر، ويفطر حتّى نقول : لايصوم » (١) .

وكان يدخل على أهله فيقول : « أعندكم من شيء ، فإن قالوا : نعم أكل وإن قالوا لا ، قال : إنّي إذن أصوم ، و قد كان يقدم إليه الشيء فيقول : أما إنّي كنت أردت الصوم ثمّ يأكل » (٢) .

وخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله يوماً وقال : « إنّي صائم ، فقالت له عائشة : قد اُهدي إلينا حيس ، فقال : كنت أردت الصوم ولكن قرّبيه » (٣) .

و قد كان معروف الكرخي يهدى إليه طيّبات الطعام فيأكل فيقال له : إنّ

---

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦٢ والبخارى ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) أخرجه ابوداود ج ١ ص ٥٧١ والترمذى ج ٣ ص ٢٧٠ .

(٣) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٥٩ من حديث عائشة .

أخاك بشراً لا يأكل من هذا ، فيقول : أخي بشراً قبضه الورع ، وأنا بسطتني المعرفة ، ثمّ قال : إنّما أنا ضيف في دار مولاي إذا أطعمني أكلت وإذا جوّعني صبرت ، مالي وللاعتراض و التمييز .

و دفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم فقال خذلنا بهذه زبداً وعسلا و خبزاً حواريا ، فقال : يا أبا إسحق بهذا كلّه ، فقال : ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرّجال و إذا عدمنا صبرنا صبر الرّجال . وأصلح ذات يوم طعاماً كثيراً ودعا نفراً يسيراً ، فقيل له : أما تخاف أن يكون هذا إسرافاً ؟ فقال : ليس في الطعام إسراف إنّما الإسراف في الثياب والأثاث . فالبصير بأسرار المعرفة يعلم أنّ كلّ ذلك حقّ ولكن بالاضافة إلى اختلاف الأحوال .

☼(بيان آفة الرياء المتطرّق الى من يترك أكل الشهوات أو يقلل الأكل)☼

أعلم أنّه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان ، هما أعظم من أكل الشهوات : إحداهما أن لاتقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ولكن لايريد أن يعرف بأنّه يشتهيها فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة مالا يأكله في الجماعة وهذا هو الشرك الخفيّ وهذه آفة عظيمة ، بل حقّ العبد إذا ابتلي بالشهوات وحبّها أنّه يظهره فإنّ هذا صدق الحال وهو يدلّ على فوات المجاهدة في الأعمال ، فإنّ إخفاء النقص وإظهار ضدّه من الكمال هما نقصانان متضاعفان والكذب مع الإخفاء كذبان فيكون مستحقّاً لمقتين ولا يرضى منه الا بتوبتين صادقتين ، ولذلك شدّ الله أمر المنافقين فقال : « إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار » (١) لأنّ الكافر كفر و أظهر و هذا كفر وستر فكان ستره لكفره كفراً آخر لأنّه استخفّ بنظر الله إلى قلبه وعظم أعين المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره وأثبته في باطنه ، فالعارفون يبتلون بالشهوات بل المعاصي ولا يبتلون بالرّياء والغشّ والاخفاء ، بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطاً لمنزلته من قلوب الخلق و قد كان بعضهم يشترى

---

(١) النساء : ١٤٤ .

الشهوات فيعلّقها في بيته وهو فيها من الزّاهدين ، و لكن يبتغي به تلبيس حاله ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين حتّى لايشوّشون عليه حاله ، فنهاية الزّهد الزهد في الزّهد باظهار ضدّه وهذا عمل الصدّيقين ، فانّه جمع بين صدقين كما أنّ الاوّل جمع بين كذبين ، فهذا قد حمل على النفس ثقلين وجرّعها كأس الصبر مرّتين : مرّة بشربه ومرّة بقذفه ، فلاجرم اُولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا و هذه تضاهي طريق من يأخذ مايعطى جهراً ويردّ سرّاً ليكسر نفسه بالذّل جهراً و بالفقر سرّاً .

أقول: لاأرى صدقاً في تلبيس الحال ولا خيراً في مثل هذه الفعال ، بل أري كذباً بحتاً ورياء صرفاً ونظراً إلى الناس وإظهاراً لما ليس .

قال : فمن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته إظهار شهوته و نقصانه و الصدق فيه ولاينبغي أن يغرّه قول الشيطان : إنّك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحاً لغيرك لأنّه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهمّ عليه من غيره فهو إنّما يقصد الرياء المجرّد ويروّجه عليه الشيطان في معرض إصلاح غيره ولذلك يثقل عليه ظهور ذلك منه ، وإن علم أنّ من اطّلع عليه ليس يقتدي به في الفعل أولا ينزجر باعتقاده أنّه تارك للشهوات .

الآفة الثانية أن يقدر على ترك الشهوات ولكنّه يفرح أن يعرف به و يشتهر بالتعفّف عن الشهوات فقد خالف شهوة ضعيفة و هي شهوة الأكل وأطاع شهوة هي شرّ منها و هي شهوة الجاه و تلك هي الشهوة الخفيّة ، فمهما أحسّ بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة أهمّ من كسر شهوة الطعام فليأكل وهو أولى به .

قال أبوسليمان : إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصب منها شيئاً يسيراً ولا تعط نفسك مناها فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة و تكون قد نغّصت على نفسك إذلم تعطها شهوتها .

وقال جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام : « إذا قدمت إليّ شهوة نظرت إلى نفسي فان أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها ، و إنْ أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئاً » و هذا طريق في عقوبة

النفس على هذه الشهوة الخفيّة .

أقول : لايشبه هذا بكلام مولانا الصّادق عليه السلام بل هو بكلام الصوفية أشبه .

قال : وبالجملة من ترك شهوة الطعام و وقع في شهوة الرّياء كان كمن هرب من عقرب و فزع إلى حيّة لأنّ شهوة الرّياء أضرّ كثيراً من شهوة الطعام .

(القول في شهوة الفرج)

اعلم أنّ شهوة الوقاع سلّطت على الإنسان لفائدتين: إحداهما أن يدرك لذّاته فيقيس بها لذّات الآخرة فإنّ لذّة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذّات الأجساد كما أنّ النّار وآلمها أعظم آلام الجسد ، فالترهيب والترغيب يسوقان الخلق إلى سعاداتهم وليس ذلك إلّا بألم محسوس ولذّة مدركة فإنّ مالايدرك بالذّوق لايعظم إليه الشّوق .

الفائدة الثّانية بقاء النسل ودوام الوجود ، فهذه فائدتها ولكن فيها من الآفة مايهلك الدّين والدّنيا إن لم يضبط ولم يقهر ولم يرد إلى حدّ الاعتدال ، وقد قيل في قوله تعالى : « ربّنا ولاتحمّلنا مالاطاقة لنا به »[1] معناه شدّة الغلمة .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : « ومن شرّ غاسق إذا وقب »[2] قال : هو قيام الذكر ، وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أنّه قال في تفسيره الذكر إذا دخل .[3] و قد قيل : إذا قام ذكر الرّجل ذهب ثلثا عقله ، وكان صلى الله عليه وآله يقول : « اللّهم إنّي أعوذبك من شرّ سمعي وبصري وقلبي ومنيّي »[4] .

و قال صلى الله عليه وآله : «النساء حبائل الشيطان ، ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرّجال»[5].

---

(١) البقرة : ٢٨٠ . (٢) الفلق : ٣ .

(٣) قال العراقى هذا حديث لااصل له .

(٤) أخرجه النسائي ج ٨ ص ٢٥٥ و «منيي» هو الماء المعروف مضافاً الى ياء المتكلم .

(٥) أخرجه الاصفهانى فى الترغيب و الترهيب من حديث خالدبن زيد الجهنى . باسناد فيه جهالة كما فى المغنى .

و روي أنّ موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذا أقبل عليه إبليس وعليه برنس يتلوّن فيه ألوان ، فلمّا دنامنه خلع البرنس فوضعه ، ثمّ أتاه فقال : السّلام عليك فقال موسى : من أنت ؟ قال : أنا إبليس قال : فلاحيّاك الله ماجاء بك ؟ قال : جئتك لأُسلّم عليك لمنزلتك من الله ومكانك منه ، قال : فما الّذي رأيت عليك؟ قال : به أختطف قلوب بني آدم ، قال : فما الّذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه؟ قال : إذا أعجب بنفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه ، وأُحذّرك ثلاثاً : لاتخل بامرأة لاتحلّ لك ، فإنّما خلا رجل بامرأة لاتحلّ له إلّا كنت صاحبه دون أصحابه حتّى أفتنه بها وأفتنها به ، ولاتعاهد الله عهداً إلّا وفيت به ، ولاتخرجنّ صدقة إلّا أمضيتها فإنّما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلّا كنت صاحبه دون أصحابه حتّى أحول بينه و بين الوفاء بها ، ثمّ ولي و هو يقول : يا ويلتا علم موسى مايحذّر به بني آدم .

وعن سعيد بن المسيّب قال : ما بعث الله نبيّاً فيما خلا ، إلّا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولاشيء أخوف عندي منهنّ ، وما بالمدينة بيت أدخله إلّا بيتي وبيت ابنتي ، أغتسل فيه يوم الجمعة ثمّ أروح .

وقال بعضهم : إنّ الشيطان قال للمرأة : أنت نصف جندي ، وأنت سهمي الّذي أرمي به فلاأخطىء ، وأنت موضع سرّي ، وأنت رسولي في حاجتي .

فنصف جنده الشهوة ، و نصفه الغضب ، وأعظم الشهوة شهوة النساء و هذه الشهوة لها أيضاً إفراط و تفريط واعتدال فالإفراط مايقهر العقل حتّى يصرف همّة الرّجال إلى التمتّع بالنساء و الجواري فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدّين حتّى يجرّ إلى اقتحام الفواحش وقد ينتهي إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين أحدهما أن يتناولوا ما يقوّي شهواتهم ليستكثروا من الوقاع كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوّي المعدة لتعظم شهوتها للطعام و ما مثال ذلك إلّا كمن ابتلي بسباع ضارية وبهائم عادية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتال لأثارتها وتهييجها ، ثمّ يشتغل بعلاجها و إصلاحها ، فإنّ شهوة الطّعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذّة بسبب الخلاص .

فإن قلت: فقد روي في غرائب الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «شكوت إلى جبرئيل ضعف الوقاع فأمرني بأكل الهريسة»(١).

فاعلم أنّه كان تحته صلى الله عليه وآله وسلم تسع نسوة و وجب عليه تحصينهنّ بالإمتاع و حرم على غيره نكاحهنّ وإن طلّقهنّ، فكان طلبه القوّة لهذا لا للتمتّع.

أقول: هذا الحديث من طريق الخاصّة هكذا «شكوت إلى جبرئيل كثرة الأزواج فأمرني بالهريسة»(٢) وعلى هذا سقط السؤال.

قال: والأمر الثاني أنّه قد ينتهي هذه الشهوة ببعض الضلّال و الجهّال إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع وهو مجاوزة في النهمة لحدّ البهائم لأنّ المتعشّق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع وهي أقبح الشهوات و أجدرها بأن يستحي منها حيث ما اتّفق حتّى اعتقد أنّ الشهوة لا تنقضي إلّا من محلّ واحد، والبهيمة تقضي الشّهوة أين اتّفق فيكتفي به وهذا لا يكتفي إلّا بواحد معيّن حتّى يزداد به ذلا إلى ذلّة وعبوديّة إلى عبوديّة، وحتّى يستسخر العقل لخدمة الشهوة، و قد خلق ليكون مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة محتالاً لأجلها، وما العشق إلّا منبعه إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لا همّة له وإنّما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر و الفكر وإلّا فإذا استحكم عسر دفعه، فكذلك عشق الجاه و المال و العقار والأولاد حتّى حبّ اللّعب بالطنبور و النرد و الشطرنج، فإنّ هذه الأمور قد يستولي على طائفة بحيث تنغّص عليهم الدّين والدّنيا ولا يصبرون عنها ألبتّة، ومثال من يكسر سورة العشق في أوّل انبعاثه مثال من يصرف عنان الدّابّة عند توجّهها إلى باب لتدخله، وما أهون منعها بصرف عنانها ومثال علاجها بعد استحكامها مثال من يترك الدّابّة حتّى تدخل وتجاوز الباب ثمّ يأخذ بذنبها ويجرّها إلى ورائها، و ما أعظم

---

(١) و (٢) في الكافي ج ٦ ص ٣٢٠ عن الصادق عليه السلام قال: «ان نبياً من الانبياء شكا الى الله عزوجل الضعف وقلة الجماع فأمره بأكل الهريسة» وفيه أيضاً عن الصادق عليه السلام «انه صلى الله عليه وآله شكا الى ربه وجع الظهر فأمره بأكل الحب باللحم يعني الهريسة».
وقال العراقي أخرجه العقيلي في الضعفاء والطبراني في الاوسط من حديث حذيفة وهو موضوع.

التفاوت بين الأمرين في العسر واليسر ، فليكن الاحتياط في بدايات الأمور فأمّا أواخرها فلا تقبل العلاج إلاّ بجهد شديد يكاديوازي نزع الرّوح .

فاذن إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحدّ و هو مذموم جدّاً و تفريطها بالعنّة أوبالضعف عن امتاع المنكوحة وهوأيضاًمذموم ، وإنّما المحمود أن تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع في انبساطها و انقباضها ومهما أفرطت فكسرها بالجوع وبالنكاح قال صلى الله عليه وآله وسلم : « معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّ الصوم له وجاء » (١) .

(بيان ماعلى المريد في ترك التزويج وفعله)

اعلم أنّ المريد في ابتداء أمره لاينبغي أن يشغل نفسه بالتزويج ، فإنّ ذلك شغل شاغل يمنعه عن السلوك ويستجرّه إلى الاُنس بالزّوجة ومن أنس بغيرالله شغل عن الله ، ولا يغرّنّه كثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنّه كان لايشغل قلبه جميع ما في الدّنيا عن الله تعالى فلايقاس الملائكة بالحدّادين و كيف يقاس غير رسول الله به وكان استغراقه بحبّ الله بحيث كان يخاف إحتراقه فيه إلى حدّ كان يخشى في بعض الأحوال أن يسري ذلك إلى قالبه فيهدمه ، فلذلك كان يضرب بيده على فخذعائشة أحياناً ويقول : « كلّميني يا عائشة » (٢) تشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه و قد كان صلى الله عليه وآله وسلم طبعه الاُنس بالله ، وكان اُنسه بالخلق عارضاً رفقاً ببدنه ، ثمّ كان لايطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم فإذا ضاق صدره قال : « أرحنا يا بلال » (٣) حتّى يعود إلى ما هو قرّة عينه فالضعيف إذا لاحظ أحواله في مثل هذا فهو مغرور لأنّ الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله ، فشرط المريد

---

(١) أخرجه مسلم والبخارى ج ٧ ص ٣ وابن ماجه وأبو داود من حديث ابن عباس .

(٢) قال العراقى : لم أجد له أصلا . أقول : المعروف هكذا « كلمينى ياحميراء » و قال المولى على القارى : قال المزى : كل حديث فيه ياحميراء فهوموضوع . الموضوعات الكبير ص ١٤٣ .

(٣) تقدم فى المجلد الاول ص ٣٧٧ .

العزوبة في الابتداء إلى أن يقوي في المعرفة وهذا إذا لم تغلبه الشهوة، فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصّوم الدّائم، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لايقدر على حفظ العين مثلاً وإن قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة، وإلّا فمهما لم يتحفّظ عينه لم يتحفّظ فكره وتفرّق همّه، وربّما وقع في بليّة لايطيقها.

أقول: الحاجة إلى النكاح في الابتداء أكثر منها في الانتهاء فينبغي لمن أراد المعرفة أن يتزوّج تزوّجاً لايشغله عنها كالمتعة ونحوها، وقد مضى تحقيق هذه المباحث مفصّلاً في كتاب آداب النكاح.

قال: وزنى العين من كبار الصغاير، وهي تؤدّي على القرب إلى الكبيرة الفاحشة وهي زنى الفرج ومن لم يقدر على غضّ بصره لم يقدر على حفظ فرجه.

قال عيسى عليه السلام: «إيّاكم والنظرة فإنّها تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة».

وقال داود لابنه عليهما السلام: «يا بنيّ امش خلف الأسد والأسود، ولا تمش خلف المرأة».

وقيل ليحيى بن زكريّا عليهما السلام: ما بدء الزّنى قال: النظر والتمنّي.

وقال الفضيل: يقول إبليس: هي قوسي القديمة وسهمي الّذي لا اُخطىء به، يعني النظر.

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «النظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس فمن تركها خوفاً من الله أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه» (١).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ماتركت بعدي فتنة أضرّ على الرّجال من النساء» (٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اتّقوا فتنة الدّنيا وفتنة النساء فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل

---

(١) رواه الطبرانى والحاكم فى المستدرك من حديث حذيفة، وقال: صحيح الاسناد كما فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٤.

(٢) اخرجه البخارى ومسلم والترمذى واحمد والنسائى وابن ماجه تحت رقم ٣٩٩٨ من حديث اسامة بن زيد.

كانت من قبل النساء »[١].

و قال تعالى : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم »[٢].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لكلّ ابن آدم حظٌّ من الزنى ، فالعينان تزنيان و زناهما النظر . واليدان تزنيان وزناهما البطش ، و الرجلان تزنيان وزناهما المشي ، والفم يزني وزناه القُبلة ، والقلب يهمُّ ويتمنّى و يصدّق ذلك الفرج أو يكذّبه »[٣].

و قالت أمُّ سلمة : استأذن ابن امّ مكتوم الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أنا وميمونة جالستان ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم : « احتجبا عنه ، فقلنا : أو ليس بأعمى لا يبصرنا ؟ فقال : و أنتما لا تبصرانه »[٤].

و هذا يدلُّ على أنّه لايجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت العادة به في المآتم والولائم فيحرم على الأعمى الخلوة بالنّساء ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى و تحديق النظر إليه بغير حاجة و إنّما جوّز للنّساء محادثة الرّجال و النظر إليهم لأجل عموم الحاجة . وإن قدر على حفظ عينيه عن النّساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به فإنّ الشرّ في الصّبيان أكثر فإنّه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح والنظر بالشهوة إلى وجه الصبيّ حرام بل كلُّ من يتأثّر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه و بين الملتحي لم يحلّ له النظر إليه .

فإن قلت : كلُّ ذي حسّ يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لامحالة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة لامحالة .

فأقول : فلست أعني تفرقة العين فقط بل ينبغي أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة بين شجرة خضراء ويابسة وماء صاف وماء كدر وشجرة عليها أزهارها

(١) أخرجه مسلم من حديث ابى سعيد الخدرى كما فى المغنى .

(٢) النور : ٣١ .

(٣) رواه البخارى ومسلم باختصار ، والنسائى . وابوداود ج ١ ص ٤٩٦ ، وراجع الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٦ .

(٤) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٣٨٤ بادنى تغيير فى اللفظ .

و أنوارها ، وشجرة تساقطت أوراقها فإنّه يميل إلى إحديها بعينه وطبعه ولكن ميلاً خالياً عن الشهوة ولذلك لايشتهي ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها ولا تقبيل الماء الصّافي ، و كذلك البشرة الحسنة قد تميل العين إليها و تدرك التفرقة بينها و بين الوجه القبيح و لكنّها تفرقة لاشهوة فيها ، و يعرف ذلك بميل النفس إلى القرب و الملامسة ، فمهما وجد ذلك الميل في قلبه و أدرك تفرقة بين الوجه الجميل و بين النبات الحسن و بين الأثواب المنقّشة و السقوف المزخرفة فنظره نظر شهوة و هو حرام ، وهذا ممّا يتهاون به الناس ويجرّهم ذلك إلى المعاطب وهم لايشعرون .

و قال بعض التابعين : ما أنا بأخوف من السبع الضارى على الشابّ الناسك من غلام أمرد يجلس إليه ، و عن بعض السّلف قال : سيكون في هذه الاُمّة ثلاثة أصناف لوطيّون ، صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، و صنف يعملون ، فإذن آفة النظر إلى الأحداث عظيمة فمهما عجز المريد عن غضّ بصره و ضبط فكره فالصواب له أن يكسّر شهوته بالنكاح فربّ نفس لايسكن توقانها بالجوع ، و قال بعضهم : غلبت عليّ شهوتي في بدء إرادتي بمالم أطق فأكثرت الضجيج إلى الله تعالى فرأيت شخصاً في المنام فقال : مالك ؟ فشكوت إليه فقال : تقدّم إليّ فتقدّمت إليه فوضع يده على صدري فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي فأصبحت و قد زال مابي و بقيت معافى سنة ثمّ عاودني ذلك فأكثرت الاستغاثة فجاءني شخص في المنام فقال : أتحبّ أن يذهب ماتجد وأضرب عنقك ؟ قلت : نعم ، قال : مدّ رقبتك فمددتها فجرّد سيفاً من نور وضرب به عنقي فأصبحت وقد زال مابي ، فبقيت معافى سنة ثمّ عاودني ذلك أو أشدّ منه فرأيت شخصاً في المنام يخاطبني فيما بين صدري و جنبي ويقول : ويحك كم تسأل الله رفع مالايحبّ رفعه تزوّج ، قال : فتزوّجت فانقطع ذلك عنّي وولدلي . ومهما احتاج إلى النكاح فلاينبغي أن يترك شرط الإرادة في ابتداء النكاح ودوامه أمّا في ابتدائه فبالنيّة الحسنة و دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة كما قد فصّلنا جميع ذلك في آداب النكاح ، فلانطول بإعادته ، وأمارة صدق إرادته أن ينكح فقيرة متديّنة ولا يطلب الغنيّة قال بعضهم : من تزوّج

غنيّة كان له منها خمس خصال : مغالاة الصداق ، وتسويف الزفاف ، وفوت الخدمة، وكثرة النفقة ، وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفاً من ذهاب مالها ، والفقيرة بخلاف ذلك ، وقد قال بعضهم : ينبغي أن يكون المرأة دون الرّجل بأربع وإلّا استحقرته : بالسنّ والطول والمال والحسب وأن يكون فوقه بأربع بالجمال و الأدب و الخلق والورع ، وعلامة صدق الإرادة في دوام النكاح الخلق ، تزوّج بعض المريدين امرأة فلم يزل يخدمها حتّى استحيت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت : قد تحيّرت في هذا الرجل أنا في منزله منذ سنين ما ذهبت إلى الخلاء قطّ إلّا و حمل الماء معي أو قبلي إليه وتزوّج بعض الصوفية امرأة سيّئة الخلق و كان يصبر عليها فقيل له لم لا تطلّقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوّجها من لا يصبر على خلقها فيتأذّى بها ، فإن نكح المريد فهكذا ينبغي أن يكون ، و إن قدر على الترك فهو له أولى إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أنّ ذلك يشغله عن حاله ، كما روي أنّ محمّد بن سليمان الهاشمي يملك غلّته ثمانين ألف درهم في كلّ يوم فكتب إلى كبراء أهل البصرة و علمائهم في امرأة يتزوّجها فأجمعوا كلّهم على رابعة العدوية فكتب إليها : بسم الله الرحمن الرّحيم أمّا بعد فإنّ الله تبارك و تعالى قد ملكني من غلّة الدّنيا في كلّ يوم ثمانين ألف درهم و ليس تمضي اللّيالي والأيّام حتّى أتمّها مائة ألف درهم وأنا أصير لك مثلها ومثلها فاجيبيني إلى ماسألت فكتبت إليه بسم الله الرحمن الرّحيم أمّا بعد فإنّ الزّهد في الدنيا راحة البدن والرّغبة فيها تورث الهمّ والحزن فإذا أتاك كتابي فهيّىء زادك و قدّم لمعادك و كن وصيّ نفسك ولا تجعل الرّجال أوصياءك فيقسموا ميراثك ، وصم الدّهر واجعل فطرك الموت ، وأمّا أنا فلو أنّ الله عزّ وجلّ خوّلني أمثال الّذي خوّلك وأضعافه ماسرّني أن أشتغل عن الله طرفة عين . وهذه إشارة إلى أنّ كلّ ما يشغل عن الله فهو نقصان فلينظر المريد إلى حاله وقلبه فإن وجده في العزوبة خالياً عن الشهوات بحيث لم يشوش حاله فهو الأقرب وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به ، ودواء هذه العلّة ثلاثة اُمور : الجوع وغضّ البصر والاشتغال بشغل يستولي على القلب فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الّذي يستأصل مادّتها فقط

ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح وإلى تزويج البنات .

قال سعيد بن المسيّب : ما يئس الشيطان من قلب إلّا أتاه من قبل النساء وقال سعيد و هو ابن أربع وثمانين سنة ، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأُخرى : ما من شيء أخوف عندي من النساء .

وعن عبدالله بن أبي وداعة قال : كنت اُجالس سعيد بن المسيّب ففقدني أيّاماً فلمّا جئته قال : أين كنت فقلت : تُوفّيت أهلي فاشتغلت بها قال : هلّا أخبرتنا فشهدنا ، قال : ثمّ أردت أن أقوم فقال : هل استحدثت امرأة فقلت : يرحمك الله ومن يزوّجني وما أملك إلّا درهمين أو ثلاثة قال : أنا ، فقلت : وتفعل ؟ قال : نعم ، ثمّ حمد الله وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله وزوّجني ابنته بمحضر من كان على درهمين أو ثلاثة ، قال : فقمت ما أدري ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلي وجعلت أفكّر ممّن آخذ وممّن أستدين فصلّيت المغرب وانصرفت إلى منزلي و أسرجت و كنت وحدي صائماً فقدمت عشائي حتّى أفطر به و كان خبزاً وزيتاً فإذا بابي يقرع ، فقلت : من هذا ؟ فقال : سعيد فأفكرت في كلّ إنسان اسمه سعيد بالمدينة إلّا سعيد بن المسيّب فإنّه لم ير منذ أربعين سنة إلّا بين بيته والمسجد فقمت و خرجت فإذا أنا به ، فظننت أنّه قد بدا له فقلت : يا أبا محمّد ألّا أرسلت إليّ فأتيتك ؟ قال : لا أنت أحقّ أن تؤتى ، فقلت : فما تأمرني قال : إنّك كنت رجلاً عزباً فتزوّجت فكرهت أن أبيتك اللّيلة وحدك وهذه امرأتك فإذا هي قائمة خلفه في طوله ثمّ أخذ بيدها فدفعها في الباب و ردّ الباب فسقطت المرأة من الحياء ، وقال : بارك الله فيكما ولكما برحمته فانصرف فاستوثقت من الباب ثمّ تقدّمت إلى القصعة الّتي فيها الزّيت والخبز فوضعتها في ظلّ السراج لكيلا تراه ثمّ صعدت إلى السطح فرميت الجيران فجاؤني فقالوا : ما شأنك ؟ قلت : ويحكم زوّجني سعيد بن المسيّب ابنته اليوم وقد جاء بها اللّيلة على غفلة ، فقالوا : أو سعيد زوّجك ؟ فقلت : نعم قالوا : وهي في الدّار ؟ قلت : نعم فنزلوا إليها و بلغ اُمّي الخبر فجاءت وقالت : وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن اُصلحها إلى ثلاثة أيّام ، قال : فأقمت ثلاثة أيّام ثمّ دخلت بها فإذا هي من أجمل النّاس

و أحفظ النّاس لكتاب الله و أعلمهم بسنّة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحقّ الزّوج ، قال : فمكثت شهراً لايأتيني سعيد ولا آتيه ، فلمّا كان بعد الشّهر أتيت سعيداً و هو في حلقته فسلّمت عليه فردّ السلام عليّ ولم يكلّمني حتّى تفرّق أهل المجلس ، فقال : ماحال ذلك الإنسان فقلت : خيراً ياأبا محمّد على مايحبّ الصّديق ويكره العدوّ فقال : إن رابك شيء فدونك والعصا ، فانصرفت إلى منزلي فوجّه إليّ بعشرين ألف درهم .

قال عبدالله بن سليمان : وكانت بنت سعيد بن المسيّب قدخطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولّاه العهد فأبى سعيد أن يزوّجه فلم يزل عبدالملك يحتال على سعيد حتّى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصبّ عليه جرّة ماء بارد وألبسه جبّة صوف . فاستعجال سعيد في الزفاف تلك اللّيلة يعرفك غائلة الشهوة و وجوب المبادرة في الدّين إلى تطفئة نارها بالنكاح .

(بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين)

اعلم أنّ هذه الشهوة أغلب الشهوات على الإنسان و أعصاها عند الهيجان على العقل إلّا أنّ مقتضاها قبيح يستحيى منه ويخشى من اقتحامه و امتناع أكثر النّاس عن مقتضاها إمّا لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه وليس في شيء من ذلك ثواب فإنّه إيثار حظّ من حظوظ النفس على حظّ آخر ، نعم من العصمة أن لا يقدر ففي هذه العوائق فائدة و هي دفع الاثم فإنّ من ترك الزّنى اندفع عنه إثمه بأيّ سبب كان تركه ، وإنّما الفضل و الثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة عليه وارتفاع الموانع و تيسّر الأسباب لاسيّما عند صدق الشهوة و هذه درجة الصديقين و لذلك قال رسول الله ﷺ : « من عشق فعفّ فكتم فمات فهو شهيد » (١) .

قال رسول الله ﷺ : « سبعة يظلّهم الله يوم لاظلّ إلّا ظلّه و عدّ منهم رجلاً

(١) أخرجه الخطيب في التاريخ من حديث ابن عباس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

دعته امرأة ذات حسب وجمال إلى نفسها فقال: إنّي أخاف الله ربّ العالمين »[(١)].

وقصّة يوسف عليه السلام وامتناعه عن زليخا مع القدرة و رغبتها معروفة و قد أثنى الله تعالى بذلك عليه في كتابه و هو إمام كلّ من وفّق لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة.

روي عن عبدالله بن عمر قال: [(٢)]« سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « انطلق ثلاثة نفر ممّن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنّه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلّا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم قال رجل منهم: اللّهم إنّك تعلم أنّه كان لي أبوان شيخان كبيران و كنت لا أغبق قبلها أهلاً ولا ولداً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتّى ناما، فحلبت لهما غبوقهما[(٣)] فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً و ولداً أو مالاً، فلبثت والقدح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر و الصبية يتضاغون بين قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللّهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج، وقال الآخر: اللّهمّ إنّه كانت لي ابنة عمّ و كانت من أحبّ الناس إليّ، فراودتها عن نفسها فامتنعت منّي حتّى ألمّت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها مائة و عشرين ديناراً على أن تخلّي بيني و بين نفسها ففعلت حتّى إذا قدرت عليها قالت: اتّق الله يا عبدالله، لا يحلّ لك أن تفضّ الخاتم إلّا بحقّه، فتحرّجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي من أحبّ الناس إليّ وتركت الذّهب الّذي أعطيتها، اللّهمّ إن كنت تعلم أنّي فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنّا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنّهم لا يستطيعون الخروج منها، وقال الثالث: اللّهمّ إنّك تعلم أنّي استأجرت

---

(١) أخرجه ابن زنجويه عن الحسن مرسلا وابن عساكر عن ابى هريرة والبيهقى فى الاسماء عن ابى هريرة أيضا بسند حسن ورواه البخارى ومسلم وقد تقدم فى كتاب النكاح.

(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ٣ بطوله.

(٣) الغبوق - بفتح الغين -: مايشرب بالعشى وأيضا اسم مايحلب بالعشى.

اُجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحدترك الّذي له و ذهب فثمرت أجرته حتّى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال : يا عبدالله هات أجري فقلت : كلّ ما ترى من أجرك من الابل و البقر والغنم و الرّقيق ، فقال : ياعبدالله لاتستهزىء بي فقلت : إنّي لاأستهزىء بك ، فأخذه كلّه فاستاقه فلم يترك منه شيئاً ، اللّهمّ فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنّا مانحن فيه فانفرجت الصّخرة وخرجوا يمشون ».

فهذا فضل من تمكّن من قضاء هذه الشهوة فعفّ ويقرب منه من تمكّن من قضاء شهوةالعين فإنّ النظر مبدء الزّنى فحفظه مهمّ وهوعسير من حيث أنّهقديستهان به ولا يعظم الخوف فيه و الآفات كلّها منه تنشأ ، فالنظرة الأولى إذا لم يقصدها لايؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها ، قال صلّى الله عليه وآله : « لك الاُولى و عليك الثانية » (١) أي النظرة .

و قال العلا بن زياد : لاتتبع بصرك رداء المرأة فإنّ النظرة تزرع في القلب شهوة ، و قلّما يخلو الإنسان في تردّداته عن وقوع البصر على النساء و الصبيان ، ومهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة ، وعنده ينبغي أن يقرّر على نفسه أنّ هذه المعاودة عين الجهل لأنّه إن حقّق النظر و استحسن ثارت الشهوة و عجز عن الوصول ولا يحصل له إلّا التحسّر ، و إن استقبح لم يتلذذ به و يأثم لأنّه قصد التلذّذ فقد فعل ما آلمه فلايخلو في كلتي حالتيه عن معصية وعن تألّم وتحسّر ، ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات وإن أخطأت عينيه و حفظ الفرج مع التمكّن فذلك يستدعى غاية القوّة و نهاية التوفيق .

روي عن [أبي] بكر بن عبدالله المزني أنّ قصّاباً أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية اُخرى فتبعها فراودها عن نفسها ، فقالت له : لاتفعل

---

(١) رواه الدارمى ج ٢ ص ٢٩٨ و احمد فى مسند على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وآله قال : ياعلى ان لك كنزاً فى الجنة وانك ذوقرنيها فلاتتبع النظرة النظرة فانما لك الاولى وليست لك الاخرة . وروى الترمذى وابوداود من حديث بريدة نحوه وقدم تقدم .

لأنا أشدّ حبّاً لك منك لي ولكنّي أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه و أنا لا أخافه فرجع تائباً فأصابه العطش حتّى كاد ينقطع عنقه فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله ، فقال : مالك ؟ فقال : العطش قال : تعال ندعو الله حتّى تظلّنا سحابة حتّى ندخل القرية ، قال : مالي من عمل فأدعو ، قال : فأنا أدعو وأمّن أنت ، فدعا الرّسول وأمّن هو فأظلّتهما سحابة حتّى انتهيا إلى القرية فأخذ القصاب إلى مكانه و مالت السحابة معه ، فقال له صاحبه : زعمت أن ليس لك عملٌ وأنا الّذي دعوت و أنت الّذي أمّنت فأظلّتنا سحابة ثمّ تبعتك لتخبرني بأمرك فأخبره بالقصّة فقال الرسول إنّ التائب من الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه .

و عن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال : كان عندنا بالكوفة شابٌّ متعبّد ملازم لمسجد الجامع لايكاد يخلو منه ، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال ذلك عليها ، فلمّا كان ذات يوم وقفت له على طريقه وهو يريد المسجد فقالت له : يافتى اسمع منّي كلمةً اُكلّمك بها ثمّ اصنع ما شئت ، فمضى ولم يكلّمها ثمّ وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله و قالت له : يافتى اسمع مني كلمة اُكلّمك بها ، قال : فأطرق مليّاً و قال لها : هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً ، فقالت له : والله ما وقفت موقفي هذا جهالة منّي بأمرك ولكن معاذ الله أن يشرف العبّاد إلى مثل هذا منّي و الّذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي لمعرفتي أنّ القليل من هذا عند الناس كثير وأنتم معاشر العبّاد في مثال القوارير أدنى شيء يعيبها وجملة ما اُكلّمك به أنّ جوارحي كلّها مشغوفة بك فالله الله في أمري و أمرك ، قال : فمضى الشابّ إلى منزله فأراد أن يصلّي فلم يعقل كيف يصلّي ، فأخذ قرطاساً و كتب كتاباً ، ثمّ خرج من منزله فإذا بالمرأة واقفة في موضعها فألقى إليها الكتاب و رجع إلى منزله وكان في الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم اعلمي أيّتها المرأة أنّ الله تبارك و تعالى إذا عصي حلم فإذا عاد العبد في المعصية ستره فإذا لبس لها ملابسها غضب الله عزّ و جلّ لنفسه غضبة تضيق منها السّماوات والأرض والجبال والشجر والدّوابّ فمن ذا يطيق

غضبه فإن كان ما ذكرت باطلاً فإنّي أذكرك يوم تكون السماء كالمهل و تكون الجبال كالعهن ، و تجثوا الأمم لصولة الجبّار العظيم ، فإنّي والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري ، وإن كان ما ذكرته حقّاً فإنّي أدلّك على طبيب يداوي الكلوم الممرضة والأوجاع المرمضة ، ذلك الله ربّ العالمين ، فاقصديه على صدق المسئلة ، وارجعي إليه فإنّي متشاغل عنك بقوله : « و أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع ۞ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » (١) فأين المهرب عن هذه الآية ؟ ، ثمّ جاءت بعد ذلك بأيّام فوقفت له على طريقه فلمّا رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها ، فقالت : يافتى لاترجع فلاكان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلّا بين يدي الله عزّ وجلّ وبكت بكاء شديداً ، وقالت : أسأل الله الّذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهّل عليّ ما قد عسر من أمرك ، ثمّ تبعته فقالت : امنن عليّ بموعظة أحملها عنك و أوصني بوصيّة أعمل عليها ، فقال لها الفتى : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك و أذكّرك قوله عزّ وجلّ : « و هو الّذي يتوفّيكم باللّيل و يعلم ماجرحتم بالنهار » (٢) ، قال : فأطرقت الجارية و بكت بكاء شديداً أشدّ من بكائها الأوّل ، ثم أفاقت ولزمت بيتها وأخذت في العبادة ، فلم تزل على ذلك حتّى ماتت كَمَداً (٣) ، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثمّ يبكي عليها ، فقيل له : ممّ بكاؤك و أنت قد آيستها من نفسك فيقول : إنّي قد ذبحت طمعها منّي في أوّل أمرها وجعلت قطعها ذخيرة لي عند الله عزّ وجلّ و أنا أستحي من الله أن أسترد ذخيرة ادّخرتها عنده والحكم لله .

هذا آخر كتاب كسر الشهوتين من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء ويتلوه إن شاء الله كتاب آفات اللّسان و الحمد لله أوّلاً وآخراً و ظاهراً و باطناً وصلّى الله على محمّد وآله وسلم .

---

(١) المؤمن : ١٨ و ١٩ . (٢) الانعام : ٦٠ .

(٣) الكمد - بالتحريك - تغير اللون و ذهاب صفائه والحزن الشديد .

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرّابع من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الّذي أحسن خلق الإنسان وعدّله، وألهمه نور الإيمان فزيّنه به وجمّله، وعلّمه البيان فتقدّمه به وفضّله، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله، ثمّ أرسل عليه سترا من رحمته وأسبله، ثمّ أمدّه بلسان يترجم عمّا حواه القلب ويقبله، و يكشف عنه سرّه الّذي أرسله. فأطلق بالحمد مقوله، و أفصح بالشكر عمّا أولاه وخوّله، من علم حصّله ونطق سهّله، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، و أنّ محمّداً عبده و رسوله الّذي أكرمه وبجّله، ونبيّه الّذي أرسله بكتاب أنزله، وتبيان فصّله، ودين سهّله.

صلّى الله عليه و على آله و أصحابه ومن قبله، ما كبّره عبدٌ وهلّله.

أما بعد فإنّ اللّسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنّه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلّا بشهادة اللّسان، وهما غاية الطاعة والطغيان، ثمّ إنّه ما من موجود أو معدوم، خالق أو مخلوق، متخيّل أو معلوم، مظنون أو موهوم إلّا واللّسان يتناوله و يتعرّض له بإثبات أونفي، فإنّ كلّ مايتناوله العلم يعرب عنه اللّسان إمّا بحقّ أو باطل، ولاشيء إلّا والعلم متناول له، وهذه خاصيّة لا توجد في سائر الأعضاء، فإنّ العين لاتصل إلى غير الألوان والصّور، والاُذن لاتصل إلى غير الأصوات، واليد لاتصل إلى غير الأجسام و كذا سائر الأعضاء، واللّسان رحب الميدان ليس له مردٌّ ولا لمجاله منتهى ولاحدٌّ فله في الخير مجال رحب، وله في الشرّ مجرى سحب فمن أطلق عذبة اللّسان وأهمله مرخى العنان

سلك به الشيطان في كلّ ميدان ، و ساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطرّه إلى البوار « ولايكبّ النّاس على مناخرهم إلّاحصائد ألسنتهم »ولاينجي من شرّ اللّسان إلّا أن يقيّد بلجام الشرع فلايطلقه إلّا فيما ينفعه في الدّنيا و الآخرة و يكفّ عن كلّ ما يخشى غائلته في عاجله وآجله ، وعلم ما يحمد إطلاق اللّسان فيه أو يذمّ غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير ، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللّسان فإنّه لاتعب في تحريكه ولامؤونة في إطلاقه ، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصايده وحبائله وإنّه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان ونحن بتوفيق الله و حسن تيسيره نفصّل مجامع آفات اللّسان و نذكرها واحدة واحدة بحدودها و أسبابها و غوائلها و نعرف طريق الاحتراز منها وإيراد ماورد من الأخبار والآثار في ذمّها .

فنذكر أوّلاً فضل الصمت ونردفه بذكر آفات الكلام فيما لايعني ، ثمّ آفة فضول الكلام ، ثمّ آفة الخوض في الباطل ، ثمّ آفة المراء والمجادلة ، ثمّ آفة الخصومة ، ثمّ آفة التقعّر في الكلام بالتشدّق و تكلّف السجع والفصاحة والتصنّع فيه وغيره ذلك ممّا جرت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة ، ثمّ آفة الفحش والسبّ وبذاءة اللّسان ، ثمّ آفة اللّعن إمّا لحيوان أولجماد أوللإنسان ، ثمّ آفة الغناء و الشعر ، ثمّ آفة المزاح ، ثمّ آفة السخريّة والاستهزاء ، ثمّ آفة إفشاء السرّ ، ثمّ آفة الوعد الكاذب ، ثمّ آفة الكذب في القول و اليمين و غوائله ، ثمّ بيان ما يرخّص فيه من الكذب ، ثمّ بيان الحذر من الكذب بالمعاريض ، ثمّ بيان آفة الغيبة ، ثمّ بيان معنى الغيبة وحدّها ، ثمّ بيان أنّ الغيبة لايقتصر على اللّسان ، ثمّ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة ، ثمّ بيان العلاج الّذي يمنع اللّسان من الغيبة ، ثمّ بيان تحريم الغيبة بالقلب ، ثمّ بيان الأعذار المرخّصة في الغيبة ، ثمّ بيان كفّارة الغيبة ، ثم آفة النميمة وما يجب في ردّها ، ثمّ آفة ذي اللّسانين الّذي يتردّد بين المتعادين و يكلّم كلّ واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام ، لاسيّما فيما يتعلّق بالله وصفاته ويرتبط بأُمور الدّين ، ثمّ آفة سؤال العوام

عن صفات الله عزّ وجلّ وعن كلامه و عن الحروف وأنّها قديمة أو محدثة و مايتعلّق بذلك ، وهي تمام الآفات وجملتها عشرون آفة .

☼(بيان عظم خطر اللسان وفضيلة الصمت)☼

إعلم أنّ خطر اللّسان عظيم ولانجاة من خطره إلّا بالصمت فلذلك مدح الشرع الصمت وحثّ عليه فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من صمت نجا »(١) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : « الصمت حكم وقليل فاعله »(٢) أي هو حكمة وحزم .

وروى عبدالله بن سفيان ، عن أبيه قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسئل عنه أحداً بعدك ، قال : قل آمنت بالله ثمّ استقم ، قلت : فما أتّقي ؟ فأومأ بيده إلى لسانه »(٣) .

و قال عقبة بن عامر : « قلت لرسول صلى الله عليه وآله وسلم : ما النجاة ؟ قال : أملك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وأبك على خطيئتك »(٤) .

و قال سهل بن سعد السّاعدي : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من يتكفّل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفّل له بالجنّة »(٥) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : «من وقي شرّ قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقي »(٦) والقبقب البطن ، والذبذب الفرج ، و اللّقلق اللّسان ، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللّسان لمّا فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج .

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « عن أكثر مايدخل النّاس الجنّة ، فقال : تقوى

---

(١) أخرجه احمد ج ٢ ص ١٧٧ من حديث ابن عمر بسند ضعيف والدارمي ج٢ ص٢٩٩.

(٢) أخرجه القضاعي عن أنس والديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٧٢ عن سفيان بن عبدالله الثقفي .

(٤) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٤٧ وقال : هذا حديث حسن .

(٥) أخرجه البخاري والترمذي ج ٩ ص ٢٤٨ وقال هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب عن انس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النّار ، قال : الأجوفان : الفم والفرج » (١) فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفة اللّسان لأنّه محلّه ، و يحتمل أن يكون المراد به البطن لأنّه منفذه .

و قال معاذ : قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال : « ثكلتك اُمّك يا ابن جبل ، وهل يكبّ الناس على مناخرهم إلّا حصائد ألسنتهم » (٢) .

و قال عبدالله الثقفيّ : « قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : حدّثني بأمر أعتصم به ، قال: قل : ربي الله ثمّ استقم ، وقال : قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ ؟ فأخذ بلسانه ثمّ قال : هذا » (٣).

و قال أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنّة رجل لا يأمن جاره بوائقه » (٤).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من سرّه أن يسلم فليلزم الصمت » (٥) .

وعن سعيد بن جبير مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أنّه قال : « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلّها تستكفي اللّسان أي تقول اتق الله فينا فإنّك إن استقمت

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٤٦ من حديث ابي هريرة .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٧٣ في حديث طويل من حديث معاذ وقوله صلى الله عليه و آله « يكب » من كبه ، اذا صرعه . « حصائد ألسنتهم » اى محصوداتهم ، على تشبيه ما يتكلم به الانسان بالزرع المحصود بالمنجل فكما ان المنجل يقطع من غير تمييز بين رطب و يابس وجيد وردى كذلك المكثار فى الكلام بكل فن من الكلام من غير تمييز بين ما يحسن وما يقبح (كذا فى هامش السنن) .

(٣) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٤٩ وقد تقدم والدارمى ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٤) رواه احمد وابن ابى الدنيا فى الصمت و كلاهما من رواية على بن مسعدة الباهلى عن قتادة عن أنس كما فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٥٢٨ .

(٥) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو الشيخ فى فضائل الاعمال وغيرهما كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٦ .

استقمنا وإن اعوججت أعوججنا » (١) .

وعن ابن مسعود أنّه كان على الصفا يلبّي وهو يقول : يا لسان قل خيراً تغنم أو اصمت تسلم من قبل أن تندم ، قيل له : يا أبا عبدالرّحمن أهذا شيءٌ تقوله أوشيء سمعته ؟ قال : لابل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إنّ أكثر خطايا ابن آدم في لسانه » (٢) .

وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كفّ لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره » (٣) .

وروي « أنّ معاذ بن جبل قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أوصني قال : اعبدالله كأنّك تراه ، واعدد نفسك في الموتى ، وإن شئت أنبأتك بماهو أملك لك من هذا كلّه وأشار بيده إلى لسانه » (٤) .

وعن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا اُخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق » (٥) .

وقال أبوهريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (٦) .

وقال الحسن : ذكر لنا أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : « رحم الله عبداً تكلّم خيراً فغنم ، أو سكت فسلم » (٧) .

---

(١) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٤٧ وفيه « تكفر اللسان » من باب التفعيل اى تذكره أن يخشى الله فلايقول هجراً .

(٢) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب بسند حسن كما فى المغنى ورواه الطبرانى بسند صحيح كمافى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٤ .

(٣) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت بسند حسن كما فى المغنى .

(٤) أخرجه ابن ابى الدنيا أيضاً فى الصمت بسند جيد كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٢ .

(٥) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت مرسلا كمافى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٣ ورواه ابوالشيخ فى طبقات المحدثين من حديث ابى ذر وأبى الدرداء مرفوعاً .

(٦) أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٩ فى حديث .

(٧) أخرجه ابوالشيخ عن ابى امامة بسند ضعيف ونحوه البيهقى فى الشعب عن أنس وعن الحسن مرسلا بسند حسن كمافى الجامع الصغير .

و قال سفيان : قالوا لعيسى عليه السلام : دلّنا على عمل ندخل به الجنّة ، قال : لا تنطقوا أبداً ، قالوا : لانستطيع على ذلك ، قال : فلا تنطقوا إلّا بخير .

وقال سليمان بن داود عليهما السلام : «إن كان الكلام من فضّة فالصمت من ذهب» .

وعن البراء بن عازب قال : « جاء أعرابيٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : دلّني على عمل يدخلني الجنّة ، قال : أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، و أمر بالمعروف ، و انه عن المنكر ، فإن لم تطق فكفّ لسانك إلّا من خير » (١).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اخزن لسانك إلّا من خير فإنّك بذلك تغلب الشيطان » (٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنَّ الله عند لسان كلّ قائل فليتّق الله امرءٌ على مايقول » (٣).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنّه يلقي الحكمة » (٤).

وقال ابن مسعود : قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الناس ثلاثة غانمٌ وسالمٌ و شاجبٌ : فالغانم الّذي يذكر الله ، والسالم الساكت ، والشاجب الّذي يخوض في الباطل » (٥).

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلّم بشيء تدبّره بقلبه ، ثمَّ أمضاه بلسانه ، وإنَّ لسان المنافق أمام قلبه فإذا همَّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبّره بقلبه » (٦).

---

(١) أخرجه الطيالسى فى مسند البراء تحت رقم ٧٣٩ فى حديث .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الصغير كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٢ .

(٣) أخرجه ابن ابى شيبة واحمد فى الزهد والحكيم الترمذى عن عمر بن ذر عن ابيه عنه صلى الله عليه وآله كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ١٠٥ .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠١ هكذا « اذا رأيتم الرجل قد اعطى زهداً فى الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة » .

(٥) قال العراقى : أخرجه الطبرانى وابو يعلى من حديث ابى سعيد الخدرى و فيه «المجالس ثلاثة وضعفه ابن عدى ولم اجده من حديث ابن مسعود .

(٦) قال العراقى لم أجده مرفوعاً وانما رواه الخرائطى فى مكارم الاخلاق من رواية الحسن البصرى قال : كانوا يقولون .

وقال عيسى عليه السلام : «العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت وجزء في الفرار عن الناس».

و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم : «من كثر كلامه كثر سقطه ، و من كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به»(١).

أقول: وروي في كتاب مصباح الشريعة عن مولانا الصادق عليه السلام أنّه قال : «الصّمت شعار المحقّقين بحقائق ما سبق ، وجفّ به القلم ، و هو مفتاح كلّ راحة من الدّنيا والآخرة ، و فيه رضا الرّبّ ، و تخفيف الحساب ، والصون من الخطايا والزّلل ، قد جعله الله ستراً على الجاهل ، وزيناً للعالم ، ومعه عزل الهوى ، ورياضة النّفس ، وحلاوة العبادة ، وزوال قسوة القلب ، والعفاف والمروّة والظرف ، فأغلق باب لسانك عمّا لك منه بدلاً سيّما إذا لم تجد أهلاً للكلام والمساعد في المذاكرة لله وفي الله ، وكان الربيع بن خثيم يضع قرطاساً بين يديه فيكتب كلّ ما يتكلّم به ، و يحاسب نفسه عشيّته ، ماله وما عليه ، ويقول : آوه نجا الصامتون و بقينا ، و كان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يضع حصاة في فمه فإذا أراد أن يتكلّم بما علم أنّه لله و في الله و لوجه الله أخرجها فإنّ كثير أصحابه - رضي الله عنهم - كانوا يتنفّسون تنفّس الغرقى و يتكلّمون شبه المرضى و إنّما سبب هلاك الخلق و نجاتهم الكلام والصمت ، فطوبى لمن رزق معرفة عيب الكلام وصوابه و علم الصمت و فوائده فإنّ ذلك من أخلاق الأنبياء و شعار الأصفياء و من علم قدر الكلام أحسن صحبة الصمت و من أشرف على ما في لطايف الصمت وائتمنه على خزائنه كان كلامه و صمته كلّه عبادة ولا يطلع على عبادته هذه إلّا الملك الجبّار»(٢).

وفي الكتاب المذكور عنه عليه السلام أيضاً أنّه قال : «الكلام إظهار ما في القلب من الصفا و الكدر ، و العلم و الجهل ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : المرء مخبوء تحت لسانه ، فزن كلامك وأعرضه على العقل والمعرفة ، فإن كان لله وفي الله فتكلّموا به ،

---

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط عن ابن عمر كما في الجامع الصغير .
(٢) المصدر الباب السابع والعشرون في الصمت .

وإن كان غير ذلك فالسكوت خيرٌ منه و ليس على الجوارح عبادة أخفُّ مؤونة و أفضل منزلة و أعظم قدراً عند الله من الكلام فيه رضاالله ولوجهه ونشر آلائه ونعمائه في عباده ، ألا ترى أنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل فيما بينه و بين رسله معنى يكشف ما أسرّ إليهم من مكنونات علمه و مخزونات وحيه غير الكلام ، و كذلك بين الرّسل والأُمم ، فثبت بهذا أنّه أفضل الوسائل وألطف العبادة ، و كذلك لامعصية أثقل على العبد و أسرع عقوبة عند الله ، و أشدّها ملامة ، و أعجلها سآمة عند الخلق منه ، و اللّسان ترجمان الضمير ، وصاحب خبر القلب ، و به ينكشف ما في سرّ الباطن وعليه يحاسب الخلق يوم القيامة ، والكلام خمرٌ يسكر العقول ماكان منه لغير الله ، وليس شيء أحقّ بطول السجن من اللّسان ، قال بعض الحكماء : احفظ لسانك عن خبث الكلام وفي غيره لا تسكت إن استطعت فأمّا السكينة فهو هيئة حسنة رفيعة من الله عزّ وجلّ لأهلها وهم أمناء أسراره في أرضه » (١) .

﴿ فصل ﴾

قال : أبوحامد : وأما الآثار ـ قال طاؤوس : لساني سبع إن أطلقته أكلني .

و قال وهب بن منبّه : فيحكمة آل داود « حقّ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه » (٢) .

وقال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه .

وقال الأوزاعي : كتب إلينا عمر بن عبدالعزيز : أمّا بعد فانّ من أكثر ذكر الموت رضي من الدّنيا باليسير ، و من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه فيما لايعنيه .

وقال بعضهم : الصّمت يجمع للرّجل خصلتين : السّلامة في دينه ، والفهم عن صاحبه .

وقال محمّد بن الواسع لمالك بن دينار : يا أبايحيى حفظ اللّسان أشدّ على الناس من حفظ الدّنانير والدّراهم .

---

(١) المصدر الباب السادس والاربعون في الكلام .

(٢) راجع الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٥٣١ .

و قال يونس بن عبيد : ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بال إلّا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله .

و قال الحسن : كانوا يتكلّمون عند معاوية والأحنف ساكت فقالوا : مالك لاتتكلّم يا أبابحر ؟ فقال : أخشى الله إن كذبت وأخشاكم إن صدقت .

وقال أبوبكر بن عيّاش : اجتمع أربعة ملوك على ذمّ الكلام ملك الهند و ملك الصّين و كسرى و قيصر ، فقال أحدهم : أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل ، و قال الآخر : إنّي إذا تكلّمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها وإذا لم أتكلّم بها ملكتها ولم تملكني ، و قال الثالث : عجبت للمتكلّم إن رجعت عليه كلمته ضرّته وإن لم ترجع لم تنفعه ، و قال الرابع : أنا على ردّ ما لم أقل أقدر منّي على ردّ ما قلت .

و قيل : إنّ المنصور بن المعتز لم يتكلّم بعدالعشاء الآخرة أربعين عاماً .

وقيل : ما تكلّم الرّبيع بن خثيم بكلام الدّنيا عشرين سنة و كان إذا أصبح وضع دواتاً وقرطاساً وقلماً كلّ ما تكلّم به كتبه ثمّ يحاسب نفسه عند المساء .

﴿ فصل ﴾

فان قلت : فهذا الفضل الكثير للصمت ما سببه ؟ فاعلم أنّ سببه كثرة آفات اللّسان من الخطأ و الكذب و النميمة و الغيبة و الرّياء والنفاق والفحش والمراء و تزكية النّفس والخصومة والفضول والخوض في الباطل والتحريف والزّيادة والنقصان وإيذاء الخلق و هتك العورات ، فهذه آفات كثيرة وهي سباقه إلى اللّسان لاتثقل على اللّسان و لها حلاوة في القلب و عليها بواعث من الطبع ومن الشيطان فالخائض فيها قلّما يقدر على أن يزمّ اللّسان فيطلقه بما يجب و يكفّه عمّا لا يجب فانّ ذلك من غوامض العلم كما سيأتي تفضيله و في الخوض خطر وفي الصمت سلامة ، فلذلك عظم فضل هذا مع مافيه من جمع الهمّ ودوام الوقار والفراغ للفكر والعبادة والذّكر والسلامة من تبعات القول في الدّنيا و من حسابه في الآخرة ، وقد قال تعالى : « ما

يلفظ من قول إلّا لديه رقيبٌ عتيد » (١) و يدلّك على فضل لزوم الصمت أمر و هو أنّ الكلام أربعة أقسام قسم هو ضررٌ محض و قسم هو نفع محض ، و قسم فيه ضرر و منفعة ، و قسم ليس فيه ضرر ولامنفعة أمّا الّذي هو ضررٌ محض فلابدّ من السكوت عنه و كذلك ما فيه ضررٌ ومنفعة لا تفي بالضرر المنفعة وأمّا الّذي لا منفعة فيه و لا ضرر فهو فضول و الإشتغال به تضييع زمان و هو عين الخسران فلا يبقى إلّا القسم الرّابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام و بقي ربع و هذا الرّبع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقايق الرّياء والتصنّع والغيبة و تزكية النفس و فضول الكلام امتزاجاً يخفى دركه فيكون الإنسان به مخاطراً ، و من عرف دقائق آفات اللّسان على ما سنذكره علم قطعاً أنّ ماذكره رسول الله صلّى الله عليه وآله هو فصل الخطاب حيث قال : « من صمت نجا » (٢) فلقد أوتي والله جواهر الحكم وجوامع الكلم و لا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلّا خواصّ العلماء و فيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاءالله و نحن الآن نعدّ آفات اللّسان ونبتدئ بأخفّها و نترقّى إلى الأغلظ قليلاً قليلاً ونؤخّر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإنّ النظر فيها أطول و هي عشرون آفة .

✲(الافة الاولى الكلام فيما لايعنيك)✲

اعلم أنّ أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات الّتي ذكرناها من الغيبة والكذب والمراء والنفاق وغيره و تتكلّم بما هو مباح لاضرر فيه عليك ولا على مسلم أصلاً إلّا أنّك تتكلّم بما أنت مستغن عنه ولاحاجة بك إليه ، فإنّك به تضيّع زمانك وتحاسب على عمل لسانك ، و تستبدل الّذي هو أدنى بالّذي هو خير لأنّك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربّما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عندالفكرة مايعظم جدواه إذلو هلّلت الله وسبّحته وذكرته لكان خيراً لك ، فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنّة و من قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ بدله

(١) ق : ١٨ .

(٢) تقدم عن الدارمى وأحمد .

مدة لاينتفع بها كان خاسراً خسراناً مبيناً ، و هذا مثال من ترك ذكر الله و اشتغل بمباح لايعنيه فإنّه وإن لم يأثم فقد خسر من حيث فاته الرّبح العظيم بذكر الله فانّ المؤمن لايكون صمته إلّا فكراً ونظره إلّاعتباراً ونطقه إلّاذكراً ، هكذا قاله النبيّ صلى الله عليه وآله (١) ، بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى مالايعنيه ولم يدّخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضيّع رأس ماله ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه » (٢) بل ورد ماهو أشدّ من هذا .

قال أنس : استشهد غلامٌ منّا يوم اُحد و وجدنا على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت اُمّه التراب عن وجهه و قالت : هنيئاً لك الجنّة يا بنيّ ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : وما يدريك لعلّه كان يتكلّم بمالايعنيه ويمنع مالايضرّه » (٣).

و في حديث آخر « أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله فقد كعباً فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشي حتّى أتاه فلمّا دخل عليه قال أبشر يا كعب فقالت اُمّه : هنيئاً لك الجنّة يا كعب ، فقال صلى الله عليه وآله من هذه المتألّية (٤) على الله قال هي امّي يارسول الله قال : وما يدريك ياأمّ كعب لعلّ كعباً قال مالايعنيه أو منع مالا يغنيه » (٥) و معناه أنّه إنّما تتهنّأ الجنّة لمن لايحاسب و من يتكلّم فيما لايعنيه حوسب عليه و إن كان كلامه مباحاً فلاتتهنّأله الجنّة مع المناقشة في الحساب فإنّه نوع من العذاب .

(١) قال العراقي : لم أجدله أصلا . لكن رواه الكليني في الكافي ج٢ ص٢٣٧ في حديث عن الصادق عن النبي صلى الله عليه وآله « ان اولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكراً ، ونظروا فكان نظرهم عبرة ، ونطقوا فكان نطقهم حكمة ، ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة ... الحديث ».

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٧٦ .

(٣) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ١٩٦ و قال : هذا حديث غريب وفيه « فلعله تكلم فيما لايعنيه أو بخل بمالاينقصه » و رواه ابن ابي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف .

(٤) أي الحاكمة على الله الذي يحلف به ، من الالية أي اليمين ، يقال : آلى يولي ايلاء وتألى يتألى تأليا .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث كعب بن عجرة باسناد جيد الا أن الظاهر انقطاعه بين صحابي وبين الراوي عنه كما في المغني .

و عن محمد بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ أوّل من يدخل من هذا الباب رجلٌ من أهل الجنّة فدخل رجلٌ اسمه عبدالله بن سلام فقام إليه ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فأخبروه بذلك و قالوا : أخبرنا بأوثق عملك في نفسك ترجوبه ، فقال : إنّي لضعيف و إنّ أوثق ما أرجوبه الله سلامة الصدر وترك مالا يعنيني [١].

و قال أبوذرّ - رضي الله عنه - قال لي رسول الله ﷺ : « ألا أعلّمك بعمل خفيف على البدن ، ثقيل في الميزان ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : هو الصمت و حسن الخلق وترك مالايعنيك » [٢].

و قال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول خمسٌ لهنّ أحسن من الدّهم [٣] الموقفة : لاتتكلّم فيما لايعنيك فانّه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلّم فيما يعنيك [٤] حتّى تجدله موضعاً ، فانّه ربّ متكلّم في أمر يعنيه قدوضعه في غيرموضعه ففتن [٥]، ولاتمار حليماً ولا سفيهاً فانّ الحليم يقليك [٦] بصمته ، و إنّ السّفيه يؤذيك بمنطقه ، و اذكر أخاك إذا تغيّب عنك بما تحبّ أن يذكرك به إذا غبت عنه ، وأعفه ممّا تحبّ أن يعفيك منه ، واعمل عمل رجل يرى أنّه مجازى بالإحسان

---

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت كمافى المغنى .

(٢) رواه البزاروالطبرانى وابويعلى دون قوله : « وترك مالايعنيك » والبيهقى فى الشعب معه . كمافى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٣ .

(٣) اى العدد الكثيرمن النوق الواقفة بذخاً وترفاً ونعيما .

(٤) كذا ، و معناه اذا تحادثت فى مهام امورك فأصب المرمى وابحث عن الاجادة واختر الموقع الذى ينجحك .

(٥) فى بعض المصادر « فعيب » موضع « ففتن » و فى بعضها « فعتب » و قوله « ولاتمار » اى لاتجادل ولا تخاصم . ولصلاح الدين الصفدى :

ولاتمار سفيهاً فى محاورة ولا حليماً لكى تنجو من الزلل
ولا يغرنك من تبدو بشاشته اليك مكرا فان السم فى العسل

(٦) اى يبغضك ويكرهك .

مأخوذٌ بالإجرام (١) .

و قيل للقمان الحكيم : ما حكمتك قال : لاأسئل عمّا كفيت ولا أتكلّف مالا يعنيني .

وقال المورق العجلّي : أمرأنا في طلبه منذعشرين سنةلم أقدر عليه ولست بتارك طلبه ، قالوا : وماهو ؟ قال : الصمت عمّالايعنيني .

و قال آخر: لاتتعرّض لما لايعنيك، واعتزل عدوّك، واحذرصديقك من القوم إلّا الأمين ولاأمين إلّا من يخشى الله ولاتصحب الفاجر فتتعلّم من فجوره ولاتطلعه على سرّك واستشر في أمرك الّذين يخشون الله تعالى . و حدّ مالايعنيك أن تتكلّم مالو سكتّ عنه لم تأثم ولم تتضرّر في حال أومآل ، مثالها أن تجلس مع قوم فتحكي معهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار وما وقع لك من الوقائع و ما استحسنته من الأطعمة والثياب وما تعجّبت منه من مشايخ البلاد و وقايعهم ، فهذه اُمورلوسكتّ عنها لم تأثم ولم تتضرّر وإذا بالغت في الاجتهاد حتّى لم يمتزج بحكاياتك زيادة ولا نقصان ولاتزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ولا اغتياب لشخص ولامذمّة لشيء ممّاخلقه الله فإنّك مع ذلك كلّه مضيّع زمانك فأنّى تسلم من الآفات الّتي ذكرناها ، ومن جملتها أن تسأل غيرك عمّالايعنيك وأنت بالسؤال مضيّع وقتك وقد ألجأت أيضاً صاحبك بالجواب إلى التضييع هذا إذا كان الشيء ممّالايتطرّق إلى السؤال عنه آفة ، و أكثر الأسولة فيها آفات فإنّك تسأل غيرك مثلاً عن عبادته فتقول : هل أنت صائمٌ ؟ فإن قال : نعم ، كان مظهراً عبادته فيدخل عليه الرياء ، و إن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان عبادة السرّ و عبادة السرّ تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال : لا ، كان كاذباً ، وإن سكت كان مستحقراً إيّاك وتأذّيت به ، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه ، فقد عرّضته بالسؤال إمّا للرياء أو الكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدّفع ، و كذلك سؤالك عن سائر عباداته ، و كذلك سؤالك عن كلّ ما يخفيه و يستحي منه ، و سؤالك عمّا يحدث

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت كما فى الترغيب و الترهيب ج ٣ ص ٥٣٥ .

به غيرك فتقول : ماذا تقول وفيم أنت ، و كذلك ترى إنساناً في الطريق فتقول :من أين وربما يمنع مانع من ذكره فإن ذكره تأذّى واستحيى وإن لم يصدق وقع في الكذب و كنت السّبب فيه ، و كذلك تسأل عن مسئلة لاحاجة بك إليها فالمسئول ربّما لايسمح نفسه بأن يقول : لاأدري فيجيب عن غير بصيرة ولست أعني بالتكلّم بما لا يعني هذه الأجناس فإنّ هذا يتطرّق إليه إثم أوضرر ، وإنّما مثال مالايعني مايروى أنّ لقمان دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدّرع ولم يكن رآها قبل ذلك فجعل يتعجّب ممّا يرى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته الحكمة ، فأمسك نفسه ولم يسأله فلمّا فرغ قام داود ولبسها فقال : نعم الدّرع للحرب ، فقال لقمان : الصّمت حكم وقليلٌ فاعله ، أي حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال . و قيل : كان قديتردّد إليه سنة وهويريد أن يعلم ذلك ولم يسأل . فهذا وأمثاله من الأسولة إذا لم يكن فيها ضررٌ و هتك ستر و توريط في رياء و كذب فهو ممّا لايعني و تركه من حسن الإسلام .

فهذا حدّه وأمّا سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة مالا حاجة به إليه أوالمباسطة بالكلام على سبيل التودّد أو تزجية الوقت بحكايات أحوال لافائدة فيها، وعلاج ذلك كلّه أن يعلم أنّ الموت بين يديه و أنّه مسئول عن كلّ كلمة ، و أنّ أنفاسه رأس ماله ، و أنّ لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين فإهماله وتضييعه خسران ، هذا علاجه من حيث العلم ، وأمّا علاجه من حيث العمل فالعزلة وأن يضع في فيه حجراً وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه ليتعوّد اللّسان ترك مالايعنيه ، وضبط اللّسان في هذا على غير المعتزل شديدٌ جدّاً .

✡(الآفة الثانية فضول الكلام)✡

و هو أيضاً مذمومٌ وهذا يتناول الخوض في مالايعني والزيادة في ما يعني على قدر الحاجة ، فإنّ من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسّمه و يقرّره و يكرّره و مهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول أي فضل على الحاجة وهو أيضاً مذمومٌ لما سبق ، و إن لم يكن فيه إثم و لا ضرر ،

و قال عطاء بن أبي رباح : إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فصول الكلام و كانوا يعدّون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أوأمراً بمعروف أونهياً عن منكر أو نطقاً بحاجتك في معيشتك الّتي لابدّ لك منها أتنكرون « أنّ عليكم حافظين كراماً كاتبين ، عن اليمين و عن الشّمال قعيد ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد » أمايستحي أحدكم أن لونشرت عليه صحيفة الّتي أملاها صدرنهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه، و عن بعض الصحابة أنّه قال : إنّ الرّجل ليكلّمني بالكلام اجوابه أشهى إليّ من الماء البارد على الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً ، وقال مطرف : ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار اللّهمّ اخزه .

وأعلم أنّ فضول الكلام لاينحصر بل المهمّ محصور في كتاب الله تعالى قال الله تبارك و تعالى : « لاخير في كثير من نجويهم إلّا من أمر بصدقة أومعروف أو إصلاح بين الناس »(١) .

و قد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه و أنفق الفضل من ماله » (٢) فانظر كيف قلّب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال و أطلقوا فضل اللّسان .

و عن مطرف بن عبدالله عن أبيه قال : قدمت على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في رهط من بني عامر فقالوا : أنت و الدنا ، وأنت سيدنا ، وأنت أفضلنا علينا فضلاً ، وأنت أطولنا علينا طولاً ، وأنت الجفنة الغرّاء ، و أنت و أنت ، فقال : « قولوا قولكم ولا يستهوينّكم الشيطان » (٣) إشارة إلى أنّ اللّسان إذا اُطلق في الثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزّيادة المستغنى عنها .

و قال ابن مسعود : اُنذركم فضول الكلام فحسب امرىء مابلغ به حاجته .

---

(١) النساء : ١١٣ .

(٢) رواه ابن شعبة فى التحف ص ٣٠ مرسلا و البيهقى عن ركب المصرى كمافى الدر المنثور ج ٢ ص. ٢٢١ بنحوه .

(٣) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت كما فى المغنى .

و عن مجاهد قال : إنّ الكلام ليكتب حتّى أنّ الرجل يسكت ابنه فيقول له : سأبتاع لك كذا و كذا فيكتب عليه كذبة .

أقول : قدجاء من طريق الخاصّة الرخصة في مثل هذه الكذبة (١) .

قال : وقال الحسن : ياابن آدم بسطت لك صحيفة و وكّل بها ملكان كريمان يكتبان عملك فاعمل ماشئت وأكثر أو أقلّ .

و روي أنّ سليمان بن داود عليهما السلام بعث بعض عفاريته و بعث نفراً ينظرون ما يقول و يخبرونه قال : فأخبروه أنّه مرّ على السوق رافعاً رأسه إلى السّماء ثمّ نظر إلى الناس و هزّ رأسه ، فسأله سليمان فقال : عجبت من الملائكة على رؤس الناس ما أسرع ما يكتبون و من الّذين أسفل منهم ما أسرع مايملون .

و قال إبراهيم التيمي : المؤمن من إذا أراد أن يتكلّم نظر فإن كان له خيراً تكلّم وإلّا أمسك ، والفاجر إنّما يرسل لسانه رسلاً رسلاً .

و قال عمرو بن دينار : تكلّم رجلٌ عند النبيّ صلّى الله عليه وآله فأكثر فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « كم دون لسانك من باب ؟ فقال : شفتاي وأسناني قال : أما كان في ذلك ما يردّ كلامك »(٢) .

و في رواية اُخرى أنّه قال ذلك في رجل أثنى عليه فاستهتر في الكلام ، ثمّ قال : « ما اُوتي رجلٌ شرّاً من فضل في لسان » .

و قال بعض الحكماء : إذا كان المرء في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتكلّم .

و قال يزيد بن أبي حبيب : من فتنة العالم أن يكون الكلام أحبّ إليه من الاستماع ، وإن وجد من يكفيه فلا يتكلّم فإنّ في الاستماع سلامة وفي الكلام تزيّن

(١) روى الكليني في الكافي ج٢ص ٣٤٢ تحت رقم ١٨ حديثاً عن الصادق عليه السلام قال : كل كذب مسئول عنه صاحبه يوماً الا في ثلاثة : رجل كائد في حربه فهو موضوع عنه ، او رجل أصلح بين اثنين يلقى هذا بغير مايلقى به هذا يريد بذلك الاصلاح مابينهما ، او رجل وعد أهله شيئاً وهو لا يريد أن يتم لهم » .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت مرسلا كما في المغني .

و زيادة ونقصان .

و رأى أبو الدّرداء امرأة سليطة اللّسان فقال : لو كانت هذه خرساء لكان خيراً لها .

و قال إبراهيم : يهلك النّاس في خصلتين : فضول المال و فضول الكلام أي مالايعنيه .

فهذه مذمّة كثرة الكلام و فضوله و سببه الباعث عليه و علاجه ما سبق في الكلام فيما لايعني .

☆(الآفة الثالثة الخوض فى الباطل)☆

و هو الكلام في المعاصي كحكايات أحوال النساء و مجالس الخمر ، ومقامات الفسّاق ، و تنعّم الأغنياء ، و تجبّر الملوك ، و مراسمهم المذمومة ، و أحوالهم المكروهة ، فإنّ كلّ ذلك ممّا لايحلّ الخوض فيه فهذا حرامٌ ، و أمّا الكلام فيما لايعني أو أكثر ممّايعني فهوترك الأولى ولا تحريم فيه ، نعم من يكثر الكلام فيما لايعني فلابدّ من أن يغلب عليه الخوض في الباطل وأكثر النّاس يتجالسون للتفرّج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكّه بأعراض النّاس أو الخوض في الباطل ، وأنواع الباطل لايمكن أن تحصى لكثرتها و تفنّنها فلذلك لا مخلص منه إلّا بالاقتصار على مايعني من مهمّات الدّين والدّنيا و في هذا الجنس يقع من الكلمة ما تهلك صاحبها و هو مستحقرٌ لها .

و قد قال بلال بن الحارث : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « إنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله مايظنّ أنّها تبلغ به مابلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة من سخط الله مايظنّ أنّها تبلغ به ما بلغت فكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة » قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث [(١)] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى حديث تحت رقم ٣٩٦٩ من حديث علقمة بن وقاص قال سمعت بلال بن حارث المزنى صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ... الحديث ، وأخرجه احمد ج ٣ ص ٤٦٩ أيضاً .

و قال النبيّ ﷺ : « إنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريّا » (١) .

و قال ﷺ : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل » وإليه الإشارة بقوله تعالى : « و كنّا نخوض من الخائضين » (٢) و بقوله « فلا تقعدوا معهم حتّى يخوضوا في حديث غيره » (٣) .

وقال سلمان : إنّ أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله (٤) .

و قال ابن سيرين : كان رجلٌ من الأنصار يمرّ بمجلس لهم فيقول : توضّأوا فإنّ بعض ما تقولون شرٌّ من الحدث ، فهذا هو الخوض في الباطل و هو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها ، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبّر في الوصول إليها من غير حاجة دعته إلى ذكرها ، و يدخل فيه أيضاً الخوض في حكايات البدع والمذاهب الفاسدة فإنّ الحديث في ذلك كلّه خوض في الباطل .

☼(الآفة الرابعة المراء والمجادلة)☼

و ذلك منهيٌّ عنه فقد قال ﷺ : « لاتمار أخاك ، ولا تمازحه ، ولا تعده موعداً فتخلفه » (٥) .

و قال ﷺ : « ذروا المراء فإنّه لاتفهم حكمته ، ولاتؤمن فتنته » (٦) .

---

(١) أخرجه البغوى في المصابيح ج ٢ ص ١٥٣ بنحوه وابن ابى الدنيا من حديث ابى هريرة بسند حسن كما فى المغنى .

(٢) المدثر : ٤٥ .

(٣) النساء : ١٣٩ . والخبر أخرجه احمد من حديث ابن مسعود كما فى الدر المنثور ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد عنه رضى الله عنه كما فى الدر المنثور ج٢ ص ٢٢١ .

(٥) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٦٠ وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٦) أخرجه ابن الدنيا فى الصمت موقوفاً على ابن مسعود كمافى المغنى .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من ترك المراء وهو محقّ بني له بيت في أعلى الجنّة ، و من ترك المراء وهو مبطلٌ بني له بيت في ربض الجنّة »(١).

و عن أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ أوّل ما عهد إليّ ربّي و نهاني عنه عبادة الأوثان وشرب الخمر وملاحاة الرّجال »(٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : « ماضلّ قومٌ بعد هدى إلّا اُوتوا الجدل »(٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : « لايستكمل عبدٌ حقيقة الإيمان حتّى يدع المراء والجدل و إن كان محقّاً »(٤).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : « ستٌّ من كنّ فيه بلغ حقيقة الإيمان : الصّيام في الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ، و تعجيل الصلاة في يوم الدّجن ، و الصبر على المصائب ، وإسباغ الوضوء على المكاره ، وترك المراء وهو صادق »(٥).

و قال لقمان لابنه : « يابنيّ لاتجادل العلماء فيمقتوك » .

و قال بلال بن أبي سعيد : إذا رأيت الرّجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمّت خسارته .

و قال أبوالدرداء : كفى بك إثماً أن لاتزال ممارياً .

و قال عيسى عليه السلام : « من كثر كذبه ذهب جماله ، ومن لاحى الرّجال سقطت مروّته ، ومن كثر همّه سقم جسمه ، ومن ساء خلقه عذّب نفسه » .

و قيل لميمون بن مهران : مالك لاتفارق أخاً لك عن قلى فقال : لأنّي لا اُشاريه ولا اُماريه . وماورد في ذمّ الجدال والمراء كثير .

(١) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٥٩ وقد تقدم .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى والطبرانى بسند ضعيف كما فى المغنى ومجمع الزوائد ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٨ من حديث ابى أمامة . وأحمد ج ٥ ص ٢٥٢ .

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت بسند ضعيف كمافى المغنى .

(٥) أخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابى مالك الاشعرى بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

و قال ﷺ: « تكفير كلّ لحاء ركعتان »(١) و حدّ المراء هو كلّ اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إمّا في اللّفظ و إمّا في المعنى وإمّا في قصد المتكلّم. وترك المراء بترك الإنكار و الاعتراض ، فكلّ كلام سمعته فإن كان حقّاً فصدّق به وإن كان باطلاً ولم يكن متعلقاً بأمور الدّين فاسكت عنه ، و الطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللّغة أو العربيّة ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم و تأخير ، وذلك تارة يكون من قصور المعرفة و تارة يكون بطغيان اللّسان و كيفما كان فلاوجه لإظهار خلله ، وأمّا في المعنى بأن يقول : ليس كما تقول وقد أخطأت فيه لكذا و كذا ، و أمّا في قصده مثل أن يقول : هذا الكلام حقّ ولكن ليس قصدك منه الحقّ ، وإنّما أنت فيه صاحب غرض و ما يجري مجراه وهذا الجنس إن جرى في مسئلة علميّة ربّما خصّ باسم الجدل وهو أيضاً مذموم بل الواجب السّكوت عنه أوالسّؤال في معرض الاستفادة لاعلى صيغة العناد والنكارة ، أوالتلطّف في التعريف لا في معرض الطعن فإنّما المجادلة عبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه و تنقيصه من جهة القدح في كلامه و نسبته إلى القصور والجهل فيه وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحقّ من جهة اُخرى مكروهة عند المجادل، بل يحبّ أن يكون هو المظهر له خطأه ليبيّن به فضل نفسه و نقصان صاحبه ولانجاة من هذا إلّا بالسّكوت عن كلّ مالا يأثم به لوسكت ، وأمّا الباعث على هذا فهو الترفّع بإظهار الفضل والتهجّم على الغير بإظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان للنفس قويّتان ، و أمّا إظهار الفضل فهو من تزكية النفس و هي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلوّ و الكبرياء و هي من صفات الرّبوبيّة ، وأمّا تنقيص الآخر من مقتضى طبع السّبعيّة فإنّه يقتضي أن يمزّق غيره و يقصمه و يصدمه ويؤذيه وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان و إنّما قوّتهما بالمراء و الجدال فالمواظب عليهما مقوّ لهذه الصّفات المهلكة ، وهذا مجاوز حدّ الكراهية ، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير ، ولا تنفكّ المماراة عن الايذاء و تهييج الغضب و حمل المعترض عليه على أن

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث ابى امامة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير.

يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حقّ أو باطل ويقدح في قائله بكلّ ما يتصوّر له . فيثور التشاجر بين المتمارين كما يثور التهارش بين الكلبين يقصد كلّ واحد منها أن يعضّ صاحبه بما هو أعظم نكاية و أقوى في إفحامه وإلجامه ، وأمّا علاجه فبأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله والسّبعية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتي ذلك في كتاب ذمّ الكبر والعجب و كتاب ذمّ الغضب ، فإنّ علاج كلّ علّة بإماطة سببها و سبب المراء ما ذكرناه ثمّ المواظبة عليه تجعله عادة و طبعاً حتّى يتمكّن من النفس و يعسر الصبر عنه ، و قيل لداود الطائي : لم آثرت الانزواء ؟ قال : لأجاهد نفسي بترك الجدال فقيل : احضر المجالس واسمع ما يقال ولاتتكلّم قال : ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشدّ عليّ منها و هو كما قال ، لأنّ من يسمع من غيره خطأ و هو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عنه جدّاً و لذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من ترك المراء و هو محقّ بُني له بيت في أعلى الجنّة » لشدّة ذلك على النفس ، وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد ، فإنّ المراء طبع فإذا ظنّ أنّ له عليه ثواباً اشتدّ عليه حرصه و تعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض بل ينبغي للإنسان أن يكفّ لسانه عن أهل القبلة وإذا رأى مبتدعاً تلطّف في نصحه على خلوة لابطريق المجادلة فإنّ المجادلة يخيّل إليه أنّه حيلة منه في التلبيس وإنّ ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوافتستمرّ البدعة في قلبه بالجدل وتتأكّد فإذا عرف أنّ النصح لاينفع اشتغل بنفسه وتركه ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « رحم الله من كفّ لسانه عن أهل القبلة إلّا بأحسن مايقدر عليه (١) » قال هشام بن عروة : كان عليه السلام يردّد قوله هذاسبع مرّات .

و كلّ من تعوّد المجادلة مدّة و أثنى الناس عليه لنفسه بسببها عزّاً و قبولاً قويت فيه هذه المهلكات فلا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الكبر والغضب والرياء وحبّ الجاه والتعزّز بالفضل و آحاد هذه الصفات تشقّ مجاهدتها فكيف بمجموعها .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا باسناد ضعيف . و رواه ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث هشام ابن عروة عن عائشة بنحوه وهو منقطع وضعيف جداً كما في المغني .

(الآفة الخامسة الخصومة)

وهي أيضاً مذمومة و هي وراء المراء و الجدال ، فالمراء طعن في كلام الغير باظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرضٌ سوى تحقير الغير وإظهار مزيد الكياسة، و الجدال عبارة عن مراء يتعلّق باظهار المذاهب و تقريرها ، و الخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حقّ مقصود وذلك تارة يكون ابتداء و تارة يكون اعتراضاً و المراء لا يكون إلّا اعتراضاً على كلام سبق فقد قالت عائشة : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ أبغض الرّجال إلى الله الألدّ الخصم » (١) .

و قال أبوهريرة : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتّى ينزع » (٢)

و قال بعضهم : إيّاك و الخصومة فإنّها تمحق الدّين و يقال : ما خاصم قطُّ ورع في الدّين . وقال ابن قتيبة : مرّ بي بشر بن عبدالله بن أبي بكر فقال : مايجلسك ؟ فقلت : خصومة بيني وبين ابن عمّ لي فقال : إنّ لأبيك عندي يداً و إنّي اُريد أن اُجازيك بها و إنّي والله ما رأيت شيئاً أذهب للدّين ، ولا أنقص للمروّة ، و لا أضيع للذّة ، ولا أشغل للقلب من الخصومة ، قال : فقمت لأرجع ، فقال خصمي : مالك ؟ قلت : لا اُخاصمك أبداً ، قال : عرفت أنّه حقّي ، قلت : لا ولكنّي أكرم نفسي عن هذا ، قال : فإنّي لا أطلب منك شيئاً هو لك .

فإن قلت : إذا كان للإنسان حقٌّ فلا بدّ له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه و كيف تذمّ خصومته ؟ فاعلم أنّ هذا الذّمّ يتناول الّذي يخاصم بالباطل والّذي يخاصم بالحقّ بغير علم مثل وكيل القاضي فإنّه قبل أن يعرف أنّ الحقّ في أيّ جانب هو يتوكّل في الخصومة من أيّ جانب هي تكون فيخاصم من غير علم ويتناول الّذي يطلب حقّه و لكنّه لا يقتصر على قدر الحاجة

---

(١) أخرجه و كيع واحمد والبخارى و مسلم والترمذى والنسائى و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عنها عن النبى صلى الله عليه وآله كمافى الدر المنثور ج ١ ص ٢٣٩ .

(٢) أخرجه ابن ابى الدنيا فى ذم الغيبة عن ابى هريرة بسند حسن كما فى الجامع الصغير .

بل يظهر اللّدد في الخصومة على قصد التسلّط أوعلى قصد الإيذاء ، و يتناول الّذي يمزج بالخصومة كلمة مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجّة و إظهار الحقّ و يتناول الّذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم و كسره مع أنّه قد يستحقر ذلك القدر من المال ، ومن الناس من يصرح به فيقول : إنّما قصدي عناده و كسرعرضه ، وإنّي إذا أخذت منه هذا المال رميته في البئر ولا اُبالي ، فهذامقصوده اللّدد واللّجاج و هو مذموم جدًّا ، أمّا المظلوم الّذي ينصر حجّته بطريق الشرع من غيرلدد وإسراف وزيادة لجاج على الحاجة ، و من غيرقصدعناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ولكنّ الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً ، فإنّ ضبط اللّسان في الخصومة على حدّ الاعتدال متعذّر ، والخصومة توغر الصدر وتهيّج الغضب ، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه و بقي الحقد بين المتخاصمين حتّى يفرح كلّ واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرّته و يطلق اللّسان في عرضه ، فمن ابتدأ بالخصومة فقد تعرّض لهذه المحذورات و أقلّ ما فيه تشويش خاطره حتّى أنّه في صلاته يشتغل بمحاجّة خصمه فلا يبقى الأمر على حدّ الواجب ، فالخصومة مبدأ كلّ شرّ ، وكذلك الجدال والمراء ، فينبغي أن لايفتح بابه إلّا لضرورة وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللّسان والقلب عن تبعات الخصومة ، و ذلك متعذّر جدًّا ، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم عن الإثم ، ولاتذمّ خصومة إلّا أنّه إن كان مستغنياً عن الخصومة فيه لأنّ معه مايكفيه فيكون تاركاً للأولى ولا يكون آثماً ، نعم أقلّ ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب إذأقلّ درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ولاخشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الّذي حاصله إمّا تجهيل و إمّا تكذيب فإنّ من جادل غيره أوماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام .

وقدقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «يمكّنكم من الجنّة طيب الكلام و إطعام الطعام»(١)

(١) قال العراقي : أخرجه الطبراني من حديث جابر وفيه من لاأعرفه وله من حديث هاني ابن شريح باسناد جيد « يوجب الجنة اطعام الطعام ، وحسن الكلام ».

و قد قال تعالى : «وقولوا للناس حسناً »[١].

و قال ابن عباس : من سلّم عليك من خلق الله فاردد عليه و إن كان مجوسيّاً لأنّ الله تعالى يقول : « وإذا حييتم بتحيّة فحيّوا بأحسن منها أوردّوها »[٢]. وقال أيضاً : لوقال لي فرعون خيراً لرددت عليه . وقال أنس : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إنّ في الجنّة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها و باطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام »[٣].

و روي أنّ عيسى عليه السلام مرّ به خنزير فقال : مرّ بسلام ، فقيل : يا روح الله تقول هذا للخنزير ؟ فقال : أكره أن اُعوّد لساني الشرّ .

و قال نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الكلمة الطيّبة صدقة »[٤]

و قال صلّى الله عليه وآله : «اتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة فإن لم تكن فبكلمة طيّبة »[٥].

و قيل : البرّ شيء هيّن : وجهٌ طليق ، و كلام لين .

وقال بعض الحكماء : كلّ كلام لايسخط ربّك إلّا أنّك ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلاً فلعلّه يعوّضك منه ثواب المحسنين .

و قال بعض الحكماء : الكلام اللّين يغسل الضغائن المستكنّة في الجوارح ، و هذا كلّه في فضل الكلام الطيب و تضادّه الخصومة و المراء و اللّجاج والجدال فإنّه الكلام المستنكر الموحش المؤذي للقلب المنغّص للعيش ، المهيّج للغضب ، الموغر للصدر .

✡ (الآفة السادسة) ✡

التقعّر في الكلام بالتشدّق وتكلّف السجع والفصاحة والتصنّع فيه بالتشبيبات والمقدّمات و ماجرت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة و كلّ ذلك من التصنّع

---

(١) البقرة : ٨٣ . (٢) النساء : ٨٦ .

(٣) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٥ من حديث أمير المؤمنين عليه السلام عن النبى (ص) .

(٤) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٨٣ فى حديث عن أبى هريرة .

(٥) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٤ من حديث عدى بن حاتم .

المذموم ومن التكلّف الممقوت الّذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا والأتقياء من اُمّتي براء من التكلّف»[١].

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجلساً الثرثارون المتفيهقون المتشدّقون»[٢].

وقالت فاطمة عليها السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «شرار اُمّتي الّذين غذّوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدّقون في الكلام»[٣].

وقال صلى الله عليه وآله: «ألاهلك المتنطّعون - ثلاث مرات -»[٤] والتنطّع هو التعمّق والاستقصاء.

وهذا أيضاً من آفات اللّسان ويدخل فيه أيضاً كلّ سجع متكلّف، وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة وكذلك تكلّف السجع في المحاورات إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وآله لغرّة الجنين فقال بعض قوم الجاني: كيف ندي من لاشرب ولا أكل ولاصاح ولااستهلّ ومثل ذلك يطلّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أسجعاً كسجع الكهان»[٥] فأنكر ذلك لأنّ أثر التكلّف والتصنّع بيّن عليه، فينبغي أن يقتصر في كلّ شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض فماوراء ذلك تصنّع مذموم ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب، لأنّ المقصود منهما تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، ولرشاقة اللّفظ تأثير فيه فهو لائق به،

(١) أخرجه الديلمى وابن عساكر عن الزبير أن النبى صلى الله عليه وآله قال: «انى لألى من التكلف وصالحوا امتى». الدر المنثور ج ٥ ص ٣٢١.

(٢) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٧٥، وتقدم ج ٣ ص ٨٦. وفى النهاية: هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق والثرثرة كثرة الكلام وترديده.

(٣) تقدم آنفاً.

(٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٥٨ وقال النووى المتنطعون: المتعمقون الغالون المتجاوزن الحدود فى اقوالهم وافعالهم.

(٥) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١١٠. وقوله «ندى» من ودى يدى دية. وقوله «يطل» اى يهدر ولا يضمن، يقال: «طل دمه» بضم الطاء اذا هدر دمه.

وأمّا المحاورات الّتي تجري في قضاء الحاجات فلا يليق بها التسجيع والتشدّق فالاشتغال به من التكلّف المذموم ولا باعث عليه إلّا الرّياء وإظهار الفصاحة والتمييز بالبراعة وكلّ ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه.

(الآفة السابعة الفحش والسبّ وبذاءة اللسان)

وهو منهيّ عنه مذموم ومصدره الخبث واللّؤم، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إيّاكم والفحش فإنّ الله لا يحبّ الفحش ولا التفحّش»(١).

ونهى رسول الله صلّى الله عليه وآله عن أن تسبّ قتلى بدر من المشركين وقال: «لا تسبّوا هؤلاء فإنّه لا يخلص إليهم شيء ممّا تقولون، وتؤذون الأحياء ألا إنّ البذاء لؤم»(٢).

وقال صلّى الله عليه وآله: «ليس المؤمن بالطّعان ولا الفاحش ولا البذيء»(٣).

وقال صلّى الله عليه وآله: «الجنّة حرام على كلّ فاحش أن يدخلها»(٤).

وقال صلّى الله عليه وآله: «أربعة يؤذون أهل النّار على ما بهم من الأذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور: رجل يسيل فوه قيحاً ودماً فيقال له: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى، فيقول: إنّ الأبعد كان ينظر إلى كلّ كلمة فزعة خبيثة فيستلذّها كما يستلذّ الرّفث»(٥).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ١ ص ١٢ في حديث عن ابي هريرة. وروى احمد والطبراني في الكبير من حديث اسامة بن زيد عنه صلى الله عليه وآله يقول: « ان الله لا يحب كل فاحش متفحش ». راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٤.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر عليهما السلام مرسلا ورجاله ثقات (المغني).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ١ ص ١٢ من حديث عبدالله، والترمذي ج ٨ ص ١٤٩ وحسنه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وابو نعيم في الحلية من حديث عبدالله بن عمر بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن ماتع واختلف في صحبته فذكره أبو نعيم في الصحابة، وابن حبان والبخاري من التابعين. (المغني).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يا عائشة لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء » (١) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق » (٢) و يحتمل أن يكون المراد بالبيان هو كشف ما لا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضاً المبالغة في الإيضاح حتّى ينتهي إلى حدّ التكلّف ، و يحتمل أيضاً البيان في اُمور الدّين في صفات الله تعالى فإنّ إلقاء ذلك مجملاً إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك و وساوس ، و إذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول و لم يضطرب ولكن ذكره مقروناً بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه فإنّ الأولى في مثله الإغماض والتّغافل دون الكشف والبيان .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله تعالى لا يحبّ الفاحش المتفحّش الصياح في الأسواق » (٣) .

وقال جابر بن سمرة : كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي وأمّي فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الفحش و التفحّش ليسا من الإسلام في شيء ، و إنّ أحسن الناس إسلاماً أحاسنهم أخلاقاً » (٤) .

فهذه مذمّة الفحش ، فأمّا حدّه وحقيقته فهو التعبير عن الاُمور المستقبحة بالعبارة الصريحة ويجري أكثر ذلك في ألفاظ الوقاع وما يتعلّق به ، فإنّ لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون من التعرّض لها بل يكنون عنها ويدلّون عليها بالرّموز ويذكرون ما يقارب بها ويتعلّق بها ، قال ابن عبّاس : إنّ الله حييٌّ كريم يعفو و يكني كني باللّمس عن الجماع فالمسّ واللّمس والدّخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها

(١) رواه الكلينى فى الكافى ج ٢ ص ٣٢٥ تحت رقم ١٢ .
(٢) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٨٣ . والحاكم فى المستدرك ج ١ س ٩ .
(٣) أخرجه البخارى فى الادب المفرد من حديث جابر بسند حسن كما فى الجامع الصغير .
(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا وأحمد باسناد صحيح كما فى المغنى .

أفحش من بعض وربّما اختلفت بعادة البلاد وأوائلها مكروهة و أواخرها محظورات و بينهما درجات يتردّد فيها وليس تخصّ هذا بالوقاع بل الكناية بقضاء الحاجة عن البول و التغوّط أولى من لفظ التغوّط و الخراء وغيرها ، فإنّ هذا أيضاً ممّا يخفى فكلّ ما يخفى ويستحيى منه فلاينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنّه فحش ولذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال : قالت زوجك كذا بل يقال : قيل في الحجرة وقيل منوراء السّتر كذا ، أوقالت أمالأولاد كذا والتلطّف في هذهالألفاظ محمود والتصريح يفضي إلى الفحش و كذلك من به عيوب يستحي منه فلاينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص و القرع و البواسير بل يقال العارض الّذي يشكوه و مايجري مجراه ، فالتصريح فيذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللّسان .

والباعث على الفحش إمّا قصدالايذاء وإمّا الاعتياد الحاصل من مخالطة الفسّاق وأهل الخبث و اللّؤم و من عادتهم السّبّ .

و قال أعرابيّ لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أو صني فقال : « عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيّرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيّره بشيء تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ، ولا تسبنّ شيئاً من خلق الله » قال : فما سببت شيئاً بعده [١] .

و قال عياض بن حمار [٢] قلت : يا رسول الله الرّجل من قومي يسبّني وهو دوني هل عليّ من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال : « المتسابّان شيطانان يتعاونان و يتهاتران » [٣] .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « المتسابّان ماقالا فعلى البادى، حتّى يعتدي المظلوم » [٤] .

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني باسناد جيد من حديث أبي جري الجمحي و قيل اسمه جابر بن سليم و قيل سليم بن جابر . (المغني)

(٢) بكسر الحاء المهملة وتخفيف الميم التميمي المجاشعي صحابي سكن البصرة وعاش الى حدود الخمسين .

(٣) أخرجه الطيالسي في مسنده ص ١٤٦ تحت رقم ١٠٨٠ في حديث .

(٤) أخرجه احمد ج ٢ ص ٥١٧ ورواه مسلم ج ٨ ص ٢١ هكذا « المستبان ماقالا فعلى البادي مالم يعتدي المظلوم » .

و قال ﷺ : « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر »(١) .

و قال ﷺ : « ملعونٌ من سبّ والديه »(٢) .

وفي رواية « من أكبر الكبائر أن يسبّ الرّجل والديه ، قالوا : يا رسول الله وكيف يسبّ والديه ؟ فقال : يسبّ الرّجل فيسبّ أباه فيسبّ الآخر أباه »(٣) .

أقول: و من طريق الخاصّة مارواه في الكافي (٤) عن أبي جعفر عليه السلام قال : « خرج رسول الله ﷺ لعرض الخيل فمر بقبر أبي أُحيحة (٥) . فقال أبوبكر : لعن الله صاحب هذا القبر فوالله إن كان ليصدّ عن سبيل الله و يكذّب رسول الله ، فقال خالد ابنه : بل لعن الله أبا قحافة فوالله ما كان يقري الضيف ولايقابل العدوّ ، فلعن الله أهونهما على العشيرة فقداً ، فألقى رسول الله ﷺ خطام(٦) راحلته على غاربها ، ثمّ قال : إذا أنتم تناولتم المشركين فعمّموا ولاتخصّوا ثمّ وقف فعرضت عليه الخيل ثمّ ساق الحديث إلى أن ذكر طائفة لعنهم رسول الله ﷺ و عدّ منهم و من لعن أبويه ، قال : فقال رجلٌ : يا رسول الله ، أيوجد رجل يلعن أبويه فقال : نعم يلعن آباء الرّجال وأمّهاتهم فيلعنون أبويه »(٧) .

أقول: و يدخل في قوله : « و من لعن أبويه » أبوبكر بن أبي قحافة لأنّه لعن أباحيحة فلعن ابنه أباه ومعلوم أنّه من لعنه رسول الله ﷺ لايصلح لخلافته .

---

(١) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٨ من حديث ابن مسعود .

(٢) أخرجه احمد ج ١ ص ٢١٧ هكذا « ملعون من سب أباه » .

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٦٥ وفيه «من الكبائر شتم الرجل والديه ... الحديث » .

(٤) المصدر ج ٨ ص ٧٠ .

(٥) بضم الهمزة والمهملتين بينهما مثناة تحتانية مصغر يسمى بها ويكنى .

(٦) بالخاء المعجمة والطاء المهملة اى زمامها .

(٧) هذه من رواية عمرو بن شمر ولايحتج بحديثه لانه ضعيف جداً زيد احاديث فى كتب جابر الجعفى ينسب بعضها اليه والامر ملتبس كما قال النجاشي - رحمه الله - .

✿(الآفة الثامنة اللعن اما لحيوان اولجماد اولانسان)✿

و ذلك مذموم قال النّبي ﷺ : « المؤمن ليس بلعّان »[(١)].

و قال ﷺ : «لاتلاعنوا بلعنةالله ولا بغضبه ولابجهنّم »[(٢)].

و قال حذيفة : « ماتلاعن قوم قطّ إلّا حقّ عليهم القول».

و قال عمران بن حصين : بينا رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصارعلى ناقةلها فضجرت منها فلعنتهافقال ﷺ : «خذواما عليهافأعروهافإنّها ملعونة ، قال : فكانّي أرى تلك الناقة تمشي في الناس لايتعرّض لها أحد»[(٣)].

و قال أبوالدّرداء : ما لعن أحدٌ الأرض إلّا قالت : لعن الله أعصانالله.

و قال ﷺ :« إنّ اللّعّانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة »[(٤)]

و قال أنس : كان رجل مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال النبيّ ﷺ : « يا عبدالله لاتسر معنا على بعير ملعون »[(٥)] قال : ذلك إنكاراً عليه.

واللّعن عبارة عن الطرد و الإبعاد من الله تعالى ، و ذلك غير جائز إلّا على من يتّصف بصفة تبعّده من الله تعالى و هي الكفر و الظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين و على الكافرين ، و ينبغي أن يتّبع فيه لفظ الشرع فإنّ في اللّعنة خطراً عظيماً لأنّه حكم على الله بأنّه أبعد الملعون ، وذلك غيبٌ لايطّلع عليه غيرالله ويطّلع عليه رسوله إذااطّلعه الله عليه ، والصفات المقتضية للّعن ثلاثة الكفر والبدعة والفسق واللّعن في كلّ واحدة ثلاث مراتب الأولى اللّعن بالوصف الأعم كقولك : لعنةالله على الكافرين و المبتدعة والفسقة ، و الثاني اللّعن بأوصاف أخصّ منها كقولك :

---

(١) أخرج الترمذى ج ٨ ص ١٤٩ فى حديث «ليس المؤمن بالطعان ولااللعان ».

(٢) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٧٥ بادنى اختلاف فى اللفظ.

(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢٣ من حديث عمران.

(٤) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٧٥ ومسلم ج ٨ص ٢٤.

(٥) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت وابويعلى باسناد جيد كما فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٧٤.

لعنةالله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدريّة و الخوارج و على الزنادقة و الظلمة وآكل الرّبا ، وكلّ ذلك جايز و لكن في لعن أصناف المبتدعة خطرٌ لأنّ معرفة البدعة غامضة فما لم يجيء فيه لفظ مأثور فينبغي أن يمنع منه العوام لأنّ ذلك يستدعي المعارضة بمثله و يثير نزاعاً بين الناس وفساداً ، و الثالث اللّعن على الشخص و هذا فيه نظرٌ كقولك زيد لعنه الله و هو كافر أوفاسق أو مبتدعٌ والتفصيل فيه أنّ كلّ شخص ثبت لعنته شرعاً فيجوز لعنه كقولك فرعون لعنه الله وأبوجهل لعنهالله لأنّه ثبت أنّ هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعاً ، وأمّا شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنهالله وهو يهوديٌ فهذا فيه خطرٌ لأنّه ربّما يسلم فيموت مقرّباً عندالله فكيف يحكم بكونه ملعوناً .

أقول: قد ثبت عن أهل البيت عليهم السلام جواز لعن المتأمّرين على أمير المؤمنين عليه السلام ظلماً وعدواناً والمتسمّين بخلفاء رسول الله زوراً وبهتاناً ومن والاهم على ذلك من أعوانهم وأنصارهم بأشخاصهم و أعيانهم ، و ما ثبت عنهم عليهم السلام فقد ثبت عن الله و عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عندنا و على هذا فقد ثبت جواز لعنهم لنا بأشخاصهم على ما ذكره أبوحامد ، ثمّ أقول : قد تكرّر ذكر اللّعن في كلام الله سبحانه و كلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم و كلام أهل البيت عليهم السلام على وجه أفاد أنّه من جملة العبادات المقرّبة إلى الله سبحانه و أنّه يجوز أن ينسب إلى الشخص المعيّن إذا عرف بكفر أونفاق أوفسق قال الله سبحانه : « أولئك عليهم لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين »(١) و هذا في معنى الأمر .

و قال عزّ وجلّ : « أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون »(٢) وجعلهالله وسيلة إلى اثبات دعوى النّبوة وحجّة على الجاحدين لها في المباهلة لنصارى نجران حيث قال سبحانه : «ثمّ نبتهل فنجعل لعنةالله على الكاذبين »(٣) ولذلك انقطعوا ولجاؤا إلى الصّلح وبذل الجزية ولم يجدوا إلى ترداد القول سبيلا . و كذا اللّعان بين الزّوجين

(١) البقرة : ١٦١ .　(٢) البقرة : ١٥٩ .
(٣) آل عمران : ٦١ .

مسقط للحدّ عنهما و موجب لنفي الولد بحيث لاينسب إلى الملاعن أبداً و ربّما أوجب الحدّ على المرأة إذا نكلت من غير شهود ولا بيّنة ، وقد روي أنّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : « لعن الله الكاذب ولو كان مازحاً » (١) و قال في جواب أبي سفيان حين هجاه بألف بيت «اللّهمّ إنّي لاأحسن الشعر ولاينبغي لي اللّهمّ العنه بكلّ حرف ألف لعنة » (٢) إلى غير ذلك .

وقد لعن أمير المؤمنين عليه السلام جماعة و روي أنّه عليه السلام كان يقنت في الصّلاة المفروضة بلعن معاوية وعمرو بن العاص وأبي موسى وأبي أعور السّلمي (٣) مع أنّه عليه السلام أحلم الناس عن ذنب وأعظم قدراً من أن يخرج نفسه النفيسة زلّة بشر ، فلولا أنّه كان يرى لعنهم من أقرب القربات لما كان يتخيّر محلّه في الصلوات المفروضات.

و قد روى العامّة أنّ عائشة لعنت عثمان و لعنها و خرجت غضبى عليه إلى مكّة (٤) .

---

(١) ماعثرت على لفظه انما أخرج احمد فى مسنده من طريق ابى هريرة ج ٢ ص ٣٥٢ « لايؤمن العبد الايمان كله حتى يترك الكذب من المزاحة » الحديث و فى جامع الاخبار عن انس عن على عن النبى صلى الله عليه وآله « المؤمن اذا كذب من غير عذر لعنه سبعون ألف ملك وخرج من قلبه نتن حتى يبلغ العرش ويلعنه حملة العرش و كتب الله عليه لتلك الكذبة سبعين زنية أهونها كمن يزنى مع امّه» .

(٢) انما ذكر ذلك فى عمرو بن العاص كما رواه الطبرسى فى الاحتجاج ص١٤٩ عن الحسن بن على عليهما السلام قال لعمرو بن العاص : قد هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتاً من شعر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم أنى لااحسن الشعر ولاينبغي لى ان أقوله فالعن عمرو بن العاص بكل بيت ألف لعنة » . وفيه ص١٤٧ أن النبى صلى الله عليه وآله لعن أباسفيان فى سبعة مواطن ... الخ و راجع الخصال ابواب السبعة .

(٣) رواه محمد بن المثنى فى كتابه مسنداً عن ابامعقل المزنى راجع بحار الانوار ج ٨ ص ٥٦٦ وفى كتاب نصر بن مزاحم كان على عليه السلام بعد الحكومة اذا صلى الغداة والمغرب وفرغ من الصلاة وسلم قال : « اللهم العن معاوية وعمراً وابا موسى وحبيب بن مسلمة » راجع سفينة البحار ج٢ ص ٥١٤ .

(٤) ذكره الثقفى فى تاريخه عن الحسن بن سعيد راجع بحار الانوار ج ٨ ص ٣٤١ .

و قد روى أصحابنا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقنت في بعض نوافله بلعن صنمي قريش يعني بهما أبابكر وعمر (١).

و قد روى الشيخ الطوسي - رحمه الله - في التهذيب (٢) أنّ الصادق عليه السلام كان ينصرف من الصلاة بلعن أربعة رجال منهم أبو بكر وعمر ، ومن نظر إلى ماوقع للحسن عليه السلام مع معاوية و أصحابه و كيف لعنهم وقذفهم بالفحش على ما رواه العامّة ويتتبّع ماورد من الآثار عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام في الكافي للكليني - رحمه الله - و غيره من كتب الحديث والأدعية في لعنهم من يستحقّ اللّعن من رؤساء الضّلال و التصريح بأسماء هؤلاء علم أنّ ذلك من شعب الدّين و شعائره بحيث لا يتخالجه شكّ ولا يعتريه مرية .

و في الكافي (٣) عن أبي الحسن موسى عليه السلام أنّه قال : «لعن الله أبا حنيفة كان يقول : قال عليّ وقلت - وفي رواية - وقالت الصحابة وقلت » .

و أمّا حديث « لا تكونوا لعّانين » فلعلّه نهي عن أن يكون السبّ خلقاً لهم بسبب المبالغة فيه والإفراط في ارتكابه بحيث يلعنون كلّ أحد كما يدلّ عليه قوله « لعّانين » لا أنّه نهى عن لعن المستحقين وإلّا لقال : لاتكونوا لاعنين ، فإنّ بينهما فرقاً يعلمه من أحاط بدقائق لسان العرب .

و أمّا ما روي « أنّ أمير المؤمنين عليه السلام نهى عن لعن أهل الشّام » فإن صحّ فلعلّه عليه السلام كان يرجو إسلامهم و رجوعهم إليه ، كما هو شأن الرّئيس المشفق على الرّعيّة .

و لذلك قال : « ولكن قولوا اللّهمّ أصلح ذات بيننا وهذا قريبٌ من قوله تعالى في قصّة فرعون « فقولا له قولاً ليّناً » (٤)

---

(١) راجع مصباح الكفعمي دعاء صنمي قريش .

(٢) المصدر ج ١ ص ٢٢٧ (٣) المصدر ج ١ ٥٧

(٤) أقول نهى امير المؤمنين أصحابه عن لعن اهل الشام مذكور في النهج تحت عنوان « ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين » وقال ابن ابي الحديد في شرحه ج ٣ ص ٤ والذى كرهه عليه السلام منهم أنهم كانوا يشتمون ←

وأمّا ماذكره أبوحامد في هذا الباب من الكلام في لعن يزيد - لعنه الله - فينبغي أن يطوى ولا يروى .

← أهل الشام ولم يكن يكره منهم لعنهم اياهم ، والبداءة منهم لا كما يتوهّمه قوم من الحشوية فيقولون : لايجوز لعن أحد ممن عليه اسم الاسلام و ينكرون على من يلعن ومنهم من يغالي في ذلك فيقول : لا ألعن الكافر ولا ألعن ابليس وان الله تعالى لايقول لاحد يوم القيامة لم لم تلعن ؟ وانما يقول : لم لعنت؟ .

و اعلم أن هذا خلاف نص الكتاب لانه تعالى قال : « ان الله لعن الكافرين واعدّلهم سعيراً » (الاحزاب ٦٤) وقال : « اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » (البقرة ١٥٩) و قال في ابليس : « ان عليك لعنتي الى يوم الدين » (ص ٧٨) وقال : « ملعونين أينما ثقفوا » (الاحزاب ٦١) و في الكتاب من ذلك الكثير الواسع .

وكيف يجوز للمسلم أن ينكر التبرّي ممن يجب التبرى منه ؟ ألم يسمع هؤلاء قول الله تعالى : « لقد كان لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذقالوا لقومهم انابراء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء أبداً » (الممتحنة ٤) وانما يجب النظر فيمن قد اشتبهت حاله ، فان كان قد قارف كبيرة من الذنوب يستحق بها اللعن والبراءة فلاضير على من يلعنه ويبرأ منه ، وان لم يكن قد قارف كبيرة لم يجز لعنه ولا البراءة منه .

وممّا يدل على أنّ من عليه اسم الاسلام اذا ارتكب الكبيرة يجوز لعنه ، بل يجب في وقت ، قول الله تعالى في قصة اللعان « فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ۞ والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الصادقين » (النور ٦ و ٧) وقال تعالى في القاذف . « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » (النور ٢٣) .

فهاتان الايتان في المكلفين من أهل القبلة والايات قبلهما في الكافرين و المنافقين ولهذا قنت أمير المؤمنين عليه السلام على معاوية وجماعة من أصحابه ، ولعنهم في أدبار الصلوات .

فان قلت : فما صورة السب الذى نهى عنه امير المؤمنين عليه السلام ؟ قلت : كانوا يشتمونهم بالاباء والامهات ومنهم من يطعن في نسب قوم منهم ، ومنهم من يذكرهم باللؤم ، و منهم من يعيرهم بالجبن والبخل وبانواع الاهاجي التى يتهاجى بها الشعراء وأساليبها معلومة ، فنهاهم عليه السلام عن ذلك وقال : اني اكره لكم ان تكونوا سبّابين ولكن الاصوب أن تصفوا لهم اعمالهم وتذكروا حالهم الخ .

قال: ولا يجوز أن يرمى مسلم بفسق و كفر من غير تحقيق، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يرمي رجلٌ رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلّا ارتدّت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك»(١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما شهد رجل على رجل بالكفر إلّا باء به أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال، وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إيّاه»(٢). و هذا معناه أن يكفّره و هو يعلم أنّه مسلم فإن ظنّ أنّه كافرٌ ببدعة أوغيرها كان مخطئاً كافراً.

والتعرّض للأموات أشدّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لاتسبّوا الأموات فإنّهم قد أفضوا إلى ماقدّموا»(٣).

و يقرب من اللّعن الدّعاء على الإنسان بالشرّ حتّى الدّعاء على الظالم كقول الإنسان: لاصحّح الله جسمه ولا سلّمه الله، و مايجري مجراه فكلّ ذلك مذموم، و في الخبر: «أنّ المظلوم ليدعو على الظالم حتّى يكافيه ثمّ يبقى للظالم عنده فضيلة يوم القيامة»(٤).

☼(الآفة التاسعة الغناء و الشعر)☼

و قد ذكرنا في كتاب السماع مايحرم من الغناء مايحلّ فلانعيده.

أقول: حاصل ماذكره هناك ما أورده في آخر ذلك الكتاب من أنّ السماع قد يكون حراماً محضاً، و قد يكون مباحاً، و قد يكون مستحبّاً، و قد يكون مكروهاً.

أمّا الحرام فهو لأكثر الناس من الشبّان ومن غلبهم شهوة الدّنيا فلايتحرّك السماع منهم إلّا ماهو الغالب على قلوبهم من الصّفات المذمومة.

(١) رواه مسلم ج ١ص ٥٧ والبخاري ج٨ص ١٨ واللفظ له بادنى تقديم وتأخير و رواه احمد والبزار ورجاله رجال الصحيح من حديث ابى ذر راجع مجمع الزوائد ج٨ ص٧٣.

(٢) أخرجه ابومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابى سعيد الخدرى بسند ضعيف كمافى المغنى وروى نحوه مسلم ج ١ ص ٥٧ من صحيحه.

(٣) أخرجه البخارى والنسائى وأحمد من حديث عائشة بسند صحيح كمافى الجامع الصغير.

(٤) الكافى ج ٢ص ٣٣٤ نحوه.

و أمّا المكروه فهولمن لاينزّه له على صورة المخلوقين ولكن يتّخذه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللّهو .

و أمّا المباح فهولمن لاحظّ له منه إلّا التلذّذ بالصّوت الحسن .

وأمّا المندوب فهو لمن غلب عليه حبّ الله تعالى و لم يحرّك السماع منه إلّا الصفات المحمودة . هذا كلامه .

و في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « فاجتنبوا الرّجس من الأوثان و اجتنبوا قول الزّور » قال الغناء (١) .

و عنه عليه السلام في قوله عزّوجلّ : « لايشهدون الزّور » قال : الغناء (٢) .

و عنه عليه السلام قال : « الغناء عشر النفاق »(٣) .

و عن الباقر عليه السلام : الغناء ممّا وعدالله عزّوجلّ عليه النّار وتلاهذه الآية «ومن النّاس من يشتري لهوالحديث ليضلّ عن سبيل الله » (٤) .

و عنه عليه السلام : « إذا ميّز الله بين الحقّ والباطل فأين يكون الغناء »(٥) .

و في التهذيب (٦) عن الصّادق عليه السلام أنّه سئل عن بيع جواري القينات قال : « شراؤهنّ وبيعهنّ حرامٌ ، و تعليمهنّ كفرٌ ، و استماعهنّ نفاقٌ » .

و عنه عليه السلام « المغنّية ملعونة ملعون من أكل من كسبها »(٧) .

و عنه عليه السلام : « أجر المغنّية الّتي تزفّ العرائس ليس به بأس ليست بالّتي يدخل عليها الرّجال » (٨) .

و عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن كسب المغنّيات فقال : الّتي يدخل عليها

---

(١) المصدر ج ٦ ص ٤٣١ والاية في سورة الحج : ٣٠ .

(٢) المصدر ج ٦ ص ٤٣١ والاية في الفرقان : ٧٢ .

(٣) المصدر ج ٦ ص ٤٣١ وفيه « عش النفاق » .

(٤) المصدر ج ٦ ص ٤٣١ والاية في لقمان : ٦ .

(٥) المصدر ج ٦ ص ٤٣٥ .

(٦) و (٧) المصدر ج ٢ ص ١٠٧ .

(٨) المصدر ج ٢ ص ١٠٨ .

الرّجال حرامٌ والّتي يدعى إلى الأعراس ليس به بأس و هو قول الله عزّ و جلّ: « من الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله »[١].

و في كتاب من لايحضره الفقيه « سأل رجل عليّ بن الحسين عليهما السلام عن شراء جارية لها صوت فقال: ما عليك لو اشتريتها فذكّرتك الجنّة »[٢] يعني بقراءة القرآن والزّهد والفضائل الّتي ليست بغناء فأمّا الغناء فمحظورٌ. انتهى.

و في الكافي عن الباقر عليه السلام قال: « رجّع بالقرآن صوتك فإنّ الله تعالى يحبّ الصوت الحسن ترجّع به ترجيعاً »[٣].

وعن الصّادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإيّاكم ولحون أهل الفسق والكبائر فإنّه سيجيء بعدي أقوام يرجّعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية لاتجوز تراقيهم، قلوبهم مقلوبة و قلوب من يعجبه شأنهم »[٤].

و قد ذكرنا في كتاب آداب تلاوة القرآن من ربع العبادات[٥] أخباراً أُخر في هذا الباب ويستفاد من مجموعها اختصاص حرمة الغناء وما يتعلّق به من الاستماع والأجر والتعليم وغيرها بماكان على النحو المتعارف في زمن بني اُميّة وبني العباس من دخول الرّجال عليهنّ و تكلّمهنّ بالأباطيل ولعبهنّ بالملاهي والعيدان والقضيب و أمّا ماسوى ذلك فإمّا مندوب إليه كالترجيع بالقرآن و ما يكون منه وسيلة إلى ذكر الله والدّار الآخرة، و إمّا مباح أو مكروه كما ذكرهما أبوحامد ولايبعد أن

---

(١) التهذيب ج ٢ ص١٠٨.

(٢) الفقيه ص ٤٨٢ تحت رقم ٩.

(٣) الكافي ج ٢ ص ٦١٦.

(٤) الكافي ج ٢ ص ٦١٤ ولحن في قراءته اذا طرب بها وغرد و هو ألحن الناس اذا كان أحسنهم قراءة او غناء. وترجيع الصوت ترديده في الحلق كقراءة اصحاب الالحان قاله الجوهري. وفي النهاية: التراقي جمع ترقوة والمعنى أن قراءتهم لايرفع الى الله ولا يقبله.

(٥) راجع ج ٢ ص ٢٣٢ من هذا الكتاب.

يختلف الحكم في بعض أفراده بالإضافة إلى تفاوت درجات الناس فإنّه لايليق بذوي المروّات مايليق بمن دونهم.

قال أبو حامد: وأمّا الشعر فكلام حسنه حسنٌ وقبيحه قبيحٌ إلّا أنّ التجرّد له مذمومٌ، قال رسول ﷺ: «لأن يمتلي بطن أحد كم قيحاً و دماً حتّى يراه خيرٌ له من أن يمتلي شعراً» (١).

و سئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال: اجعل مكان هذا ذكراً فإنّ ذكر الله خيرٌ من الشعر. وعلى الجملة فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام يكره، قال ﷺ: «إنّ من الشعر لحكمة» (٢) نعم مقصود الشعر المدح والذّم والتشبيب وقد يدخلها الكذب و قد أمر رسول الله ﷺ حسّاناً بهجاء الكفار (٣)، و التوسّع في المدح و إن كان كذباً فإنّه لايلتحق في التحريم بالكذب كقول حبيب الشاعر:

ولولم يكن في كفّه غير روحه لجاد بها فليتّق الله سائله

فإنّ هذه عبارة عن الوصف بنهاية السّخاء فإن لم يكن صاحبه سخيّاً كان كذباً و إن كان سخيّاً فالمبالغة من صنعة الشعر ولايقصد منه أن يعتقد صورته، وقد أنشدت بين يدي رسول الله ﷺ أشعار لو تتبّعت لوجد فيها مثل ذلك ولم يمنع منها قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يخصف نعله و كنت أغزل، قالت: فنظرت إلى رسول الله ﷺ فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولّد نوراً قالت: فبهتُّ فنظر إليّ فقال: مالك بهتّ؟ فقلت: يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق، و جعل عرقك يتولّد نوراً ولو رآك أبو كثير الهذلي لعلم أنّك أحقّ بشعره، قال: وما يقول يا عائشة أبو كثير الهذلي؟ فقلت: يقول:

---

(١) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح والطبراني وفيه يزيد بن سفيان وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٢٠. (٢) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٩٨.

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٤٥ من حديث البراء انه (ص) قال لحسان أهجو و جبرئيل معك.

ومبرّأ من كلّ غُبّر حيضة و فساد مرضعة وداء مغيل
و إذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلّل

قالت : فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماكان بيده وقام إليّ فقبّل مابين عينيّ وقال: جزاك الله يا عائشة خيراً ما سررت منّي كسروري منك اليوم » (١).

و لمّا قسّم الغنائم أمر للعبّاس بن مرداس بأربع قلائص من الإبل فانبعث العبّاس يشكو في شعر له و في آخر :

و ما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع
و ما كنت دون امرىء منهما و من تضع اليوم لا يرفع
وقد كنت في الحرب ذاتُدرَا فلم أعط شيئاً ولم أمنع

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : اقطعوا عنّي لسانه فذهب به أبو بكر حتّى اختار مائة من الإبل ثمّ رجع وهو من أرضى الناس فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أتقول الشعر؟ فجعل يعتذر و يقول : بأبي أنت واُمّي إنّي لأجد للشعر دبيباً على لساني مثل من دبيب النمل، ثمّ يقرضني كما يقرض النمل فلا أجد بدّاً من أن أقول ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : « لاتدع العرب الشعر حتّى تدع الإبل الحنين »(٢).

أقول: لم يبيّن أبوحامد معنى الشعر و أنّه على أيّ كلام يطلق كما كان يبيّن نظائره من الآفات .

فاعلم أنّ الشعر يطلق على معنين أحدهما الكلام الموزون المقفّى سواء كان حقّاً أوباطلاً وعلى حقّه يحمل حديث « إنّ من الشعر لحكمة » وحديث « أنّ لله كنوزاً تحت عرشه و مفاتيحه في ألسنة الشعراء » و كذا كلّ ما ورد في مدح الشعر و نفي البأس عنه كما سنذكره فإنّ المراد منه ماكان حقّاً من الموزون المقفّى ليس فيه تمويه و كذب ، والمعني الثاني الكلام المشتمل على التخييلات المؤذية والتمويهات

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل كما فى المغنى .
(٢) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٠٨ من حديث رافع بن خديج وقد تقدم . و أورده الطبرى فى الحوادث السنة الثامنة .

المزخرفة الّتي لاأصل لها ولا حقيقة سواء كان لها وزن و قافية أم لا و عليه يحمل ما ورد في ذمّه وهو المراد من قول قريش حيث نسبوا القرآن إلى الشعر و قالوا للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّه شاعر فإنّ القرآن ليس بموزون ومن هذا القبيل مجادلات المتكلّمين في المذاهب وشبهاتهم المزخرفة المضلّة ، قال الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « والشعراء يتّبعهم الغاوون » : هل رأيت شاعراً يتبعه أحد إنّما هم قوم تفقّهوا لغير الله فضلّوا وأضلّوا »[1]. و قال الصّادق عليه السلام : « هم قوم تعلّموا و تفقّهوا بغير العلم فضلّوا و أضلّوا »[2] . و قال بعض علمائنا[3] طاب ثراهم : إنّها نزلت في الّذين غيّروا دين الله وخالفوا أمر الله عزّ وجلّ هل رأيتم شاعراً قطّ يتبعه أحد وإنّما عنى بذلك الّذين وضعوا ديناً بآرائهم فيتّبعهم النّاس على ذلك قال : « ألم ترأنّهم في كلّ واد يهيمون » يعني يناظرون بالأباطيل و يجادلون بالحجج المضلّين وفي كلّ مذهب يذهبون يعني بهم المغيّرين دين الله « وأنّهم يقولون مالا يفعلون » يعني يعظون الناس ولايتّعظون وينهون عن المنكر ولاينتهون و يأمرون بالمعرف ولايعملون قال : وهم الّذين غصبوا آل محمّد حقّهم ».

فأمّا ماورد في مدح الشعر بالمعنى الأوّل ماكان منه حقّاً من طريق الخاصّة فمنه مارواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في كتاب عيون أخبار الرّضا عليه السلام بإسناد حسن عن عبدالله بن الفضل الهاشمي قال : قال أبوعبدالله عليه السلام : « من قال فينا بيت شعر بنى الله له بيتاً في الجنّة »[4] .

و بإسناده عنه عليه السلام قال : « ما قال فينا قائل بيت شعر حتّى يؤيّد بروح القدس »[5] .

وبإسناده عن الحسن بن الجهم قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول : « ماقال فينا

(١) رواه ابن بابويه كما فى تفسير البرهان ج ٣ ص ١٩٤ . و الاية فى سورة الشعراء ٢٢٤ :

(٢) رواه العياشى فى تفسيره كما فى مجمع البيان ذيل الاية .

(٣) المراد على بن ابراهيم القمى فى تفسيره المشهور .

(٤) و (٥) المصدر ص ٥ .

مؤمن شعراً يمدحنا به إلّا بنى الله له مدينة في الجنّة أوسع من الدّنيا سبع مرّات يزوره فيها كلّ ملك مقرّب و كلّ نبيّ مرسل »[1].

و باسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام « أنّه سأله رجل عن أوّل من قال الشّعر فقال : آدم ، قال : وما كان شعره ؟ قال : لمّا اُنزل إلى الأرض من السّماء فرآى تربتها وسعتها وهواها ، وقتل هابيل فقال عليه السلام :

تغيّرت البلاد و من عليها ✿ فوجه الأرض مغبرّ قبيح
تغيّر كلّ ذي لون و طعم ✿ وقلّ بشاشة الوجه المليح

الحديث »[2].

و في التّهذيب [3] باسناده عن خلف بن حمّاد عن الرّضا عليه السلام قال : قلت : « إنّ أصحابنا يروون عن آبائك عليهم السلام أنّ الشعر ليلة الجمعة ويوم الجمعة و في شهر رمضان و في اللّيل مكروه و قد هممت أن أرثي أبا الحسن عليه السلام وهذا شهر رمضان فقال رثّ أبا الحسن عليه السلام في ليلة الجمعة و في شهر رمضان و في اللّيل و في سائر الأيّام فإنّ الله عزّ وجل يكافيك على ذلك ».

و في الصحيح عن عليّ بن يقطين عن الكاظم عليه السلام قال : « سألته عن إنشاد الشعر في الطواف فقال : ما كان من الشعر لابأس به فلا بأس به »[4].

و في الصحيح عن عليّ بن جعفر عن أخيه الكاظم عليه السلام قال : « سألته عن الشعر أيصلح أن ينشد في المسجد ؟ قال : لابأس »[5].

و أمّا ماورد في ذمّ الشعر بالمعنى الأوّل ماكان منه باطلاً فمنه ما رواه جعفر ابن إبراهيم في الصحيح عن زين العابدين عليه السلام قال : « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من سمعتموه ينشد الشعر في المسجد فقولوا : فضّ الله فاك ، إنّما نصبت المساجد

---

(١) المصدر ص ٥ .

(٢) عيون اخبار الرضا ص ١٤٣ . (٣) وقع هنا في النسخ اشتباه والصواب كتاب الاداب الدينية وهو مخطوط وأورده صاحب الوسائل آخر كتاب المزار منه .

(٤) التهذيب ج ١ ص ٤٨٥ . (٥) التهذيب ج ١ ص ٣٣٠ باب فضل المساجد .

للقرآن »[١] فإنّه محمول على الشعر الباطل.

و كذا ما رواه سماعة في الموثّق قال: « سألته عن نشيد الشعر هل ينقض الوضوء أوظلم الرّجل صاحبه أوالكذب فقال: نعم إلّا أن يكون شعراً يصدّق فيه أو يكون يسيراً من الشعر، الأبيات الثلاثة و الأربعة. فأمّا أن يكثر من الشعر الباطل فهو ينقض الوضوء »[٢].

ولعل المراد نقصان ثواب الوضوء به واستحباب إعادته لاوجوب ذلك.

وأمّا ما رواه حمّادبن‌عثمان وغيره في‌الصحيح عن‌الصادق عليه السلام قال: « لاينشد الشعر بليل ولاينشد في شهررمضان بليل ولانهار، فقال‌له إسماعيل: ياأبتاه وإن‌كان فينا، قال: وإن‌كان فينا »[٣].

و ما رواه حماد أيضاً في الصحيح عنه عليه السلام قال: «يكره رواية الشعر للصائم والمحرم و في‌الحرم و في يوم الجمعة وأن يروى باللّيل، قال: قلت: وإن كان شعر حقّ؟ قال: وإن كان شعر حقّ »[٤] فمحمول على الموزون المشتمل على التخيلات المزخرفة والكاذبة وذلك لأنّ كون موضوعه حقّاً كحكمة أو موعظة أو كونه‌فيهم عليهم السلام لايخرجه عن المبالغات الشعرية الكاذبة فإن لم يكن مشتملاً على شيء منها فلا بأس بالوزن.

☼(الآفة العاشرة المزاح)☼

و أصله مذموم منهيٌ عنه إلّا قدراً يسيراً يستثنى منه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لاتمارأخاك ولاتمازحه»[٥] فإن‌قلت: المماراة إيذاء لأنّ فيه‌تكذيباًللأخ أوالصديق أو تجهيلاً، و أمّا المزاح فمطايبة و فيه انبساط وطيبة قلب‌فلم ينهى‌عنه؟ فاعلم أنّ

(١) التهذيب ج ١ ص ٣٣٣.
(٢) الاستبصار ج ١ ص ٨٧، والتهذيب ج ١ ص ٥.
(٣) التهذيب ج ١ ص ٤٠٧ باب ٤٨ سنن الصيام وفى الكافى ج ٤ ص ٨٨.
(٤) التهذيب ج ١ ص ٤٠٧ باب سنن الصيام.
(٥) تقدم عن الترمذى وغيره.

المنهيُّ عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه أمّا المداومة فلأنّه اشتغال باللّعب والهزل واللّعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة، وأمّا الإفراط فيه فإنّه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار، فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذمّ كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «إنّي لأمزح ولا أقول إلّا حقّاً»[1] ومثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلّا حقّاً، وأمّا غيره فإذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيف كان وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة فيضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريّا»[2] وقال بعضهم: من كثر ضحكه قلّت هيبته ومن مزح استخفّ به ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه، ولأنّ الضحك يدلّ على الغفلة عن الآخرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً»[3].

وقال رجل لأخيه: يا أخي هل أتاك أنّك واردُ النّار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنّك خارجٌ منها؟ فقال: لا، فقال: ففيم الضحك؟ قال: فما رُئي ضاحكاً حتّى مات. ونظر بعضهم إلى قوم يضحكون في يوم فطر فقال: إنّ كان هؤلاء غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين.

وقال آخر لنفسه: أتضحك ولعلّ أكفانك قد خرجت من عند القصّار.

وقال ابن عباس: من أذنب ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكي.

فهذه آفات الضحك فالمذموم منه أن يستغرق ضحكاً والمحمود التبسّم الّذي ينكشف فيه السنّ ولا يسمع الصوت، وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[4].

---

(١) اخرجه الطبراني في الصغير من حديث ابن عمر كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٨٩.

(٢) تقدم آنفاً.

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٩١ عن أنس واحمد ج ٢ ص ٢٥٧ عن أبي هريرة.

(٤) أخرج الترمذي في الشمائل ص ١٦ عن عبد الله بن حارث قال: «لما كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وآله إلا تبسماً».

و قال القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ على قلوص له صعب فسلّم فجعل كلّما دنى إلى النّبي ﷺ ليسأله نفر به وجعل أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون به ففعل ذلك ثلاث مرّات ثمّ وقصه فقتله ، فقيل : يا رسول إنّ الأعرابي قد صرعه قلوصه فهلك ، قال : نعم وأفواهكم ملأى من دمه »(١) .

و أمّا إذا أدّى المزاح إلى إسقاط الوقار فقد قيل : من مزح استخفّ به . وقال بعضهم لابنه : يابنيّ لاتمازح الشريف فيحقد عليك ولا تمازح الدّني فيجترىء عليك وقال آخر : إيّاكم والممازحة فإنّها تورث الضغينة وتجرّ القبيحة تحدّثوا بالقرآن و تخالطوا به فإن ثقل عليكم فحديث حسن من أحاديث الرّجال . و قيل : أتدرون لم سمّي المزاح مزاحاً ؟ قالوا : لا ، قال : لأنّه أزاح صاحبه عن الحقّ ، و يقال : لكلّ شيء بذر وبذر العداوة المزاح ، ويقال : المزاح مسلبة للبهاء ومقطعة للأصدقاء .

فإن قلت : فقد نقل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فنقول : إن قدرت على ما قدر رسول الله ﷺ وهو أن تمزح ولا تقول إلّا حقّاً ولا تؤذي قلباً ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحياناً وعلى الندور فلا حرج عليك فيه ولكن من الغلط العظيم أن يتّخذ الإنسان المزاح حرفته و يواظب عليه ويفرط ثمّ يتمسّك بفعل رسول الله ﷺ و هو خطأ إذ من الصّغائر ما يصير كبيرة بالإصرار و من المباحات مايصير صغيرة بالإصرار ، فلاينبغي أن يغفل عن هذا نعم روى أبو هريرة أنّهم قالوا : « يا رسول الله إنّك تداعبنا فقال : إنّي وإن داعبتكم فلا أقول : إلّا حقّاً »(٢)

و قال عطاء : إنّ رجلاً سأل ابن عباس فقال : أكان رسول الله ﷺ يمزح ؟ قال : نعم ، فقال الرّجل : فما كان مزاحه ؟ فقال ابن عباس : إنّه ﷺ كسى ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها : ألبسيه و احلفي و أحمدي و جرى منه ذيلاً كذيل العروس »(٣). وروى أنس « أنّ النبيّ ﷺ كان من إفكه الناس »(٤) وروي

---

(١) أخرجه ابن مبارك فى الزهد والرقائق كما فى المغنى .

(٢) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٥٧ وحسنه .

(٣) قال العراقى : لم أقف عليه . (٤) تقدم .

«أنّه كان كثير التبسّم»(١). و عن الحسن قال: أتت عجوز إلى النبي ﷺ فقال ﷺ لها: لاتدخل الجنّة عجوز فبكت، فقال: إنّك لست يومئذ بعجوز قال الله تعالى: «إنّا أنشأناهنّ إنشاءً فجعلناهنّ أبكاراً»(٢).

و روى زيد بن أسلم أنّ امرأة يقال لها: امُّ أيمن جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إنّ زوجي يدعوك فقال: ومن هو أهو الّذي بعينه بياض؟ فقالت: لا والله ما بعينه بياض فقال: بلى إنّ بعينه بياضاً، قالت: لا والله فقال ﷺ: ما من أحد إلّا بعينه بياض»(٣) أراد به البياض المحيط بالحدقة.

و جاءته امرأة اُخرى فقالت: «يا رسول الله: احملني على بعير فقال ﷺ: بل نحملك على ابن البعير، فقالت: ما أصنع به إنّه لايحملني فقال رسول الله ﷺ: هل من بعير إلّا وهو ابن بعير؟»(٤) وكان يمزح به.

و روى علقمة عن أبي سلمة أنّ رسول الله ﷺ كان يدلع لسانه للحسين ابن علي عليهما السّلام فيرى الصبيّ لسانه فيهش له وقال عيينة بن بدر الفزاري: والله ليكون لي الابن رجلاً قد تزوّج وبقل وجهه وما قبّلته قطّ فقال رسول الله ﷺ: «إنّ من لم يرحم لم يرحم»(٥).

فأكثر هذه المطائبات منقولة مع النساء والصبيان، وكان ذلك من رسول الله ﷺ معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل، وقال ﷺ لصهيب و به رمد وهو يأكل التمر: أتأكل التمر وأنت أرمد؟ فقال: إنّما آكل بالشقّ الآخر فتبسّم رسول الله ﷺ قال بعض الرواة: حتّى نظرت إلى نواجذه(٦).

---

(١) تقدم. (٢) أخرجه الترمذي في كتاب الشمائل ص ١٦ مرسلا.

(٣) أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة و المزاح، و رواه ابن ابى الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهرى مع اختلاف (المغنى).

(٤) أخرجه ابوداود ج ٢ ص٥٩٦ بادنى اختلاف فى اللفظ.

(٥) أخرجه ابويعلى من هذا الوجه دونما فى آخره من قول عيينة و أخرج مسلم ذيله من قول الاقرع بن حابس بادنى تغيير (المغنى).

(٦) أخرجه الحاكم ج٣ ص ٣٩٩ وقال: صحيح ولم يخرجا وأخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢ و ٣٤.

و روي أنّ خوّات بن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكّة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا أبا عبد الله مالك مع النسوة؟ قال: يفتلن ضفيراً لجمل لي شرود، قال: فمضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحاجته ثمّ طلع فقال: يا أباعبدالله أمّا ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قال: فسكتّ واستحييت، قال: فكنت بعد ذلك أتفرّر منه كلّما رأيته حياء منه حتّى قدمت المدينة و بعد ما قدمت المدينة حتّى طلع عليّ يوماً و أنا اُصلّي في المسجد فجلس إليّ فطوّلت فقال: لا تطول فانّي أنتظرك فلمّا فرغت قال: ياأبا عبدالله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قال فسكتّ واستحييت فقام فكنت أتفرّر منه حتّى لقيني وهو على حمار وقد جعل رجليه في شقّ واحد فقال: أباعبدالله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قال: قلت: والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً ما شرد منذ أسلمت فقال: الله أكبر الله أكبر اللّهمّ اهد أباعبدالله قال: فحسن إسلامه و هداه الله»[1] و كان نعيمان الأنصاريّ مزّاحاً و كان يشرب فيؤتى به إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيضربه بنعله و يأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم فلمّا كثر ذلك منه قال له رجل من الأصحاب: لعنك الله فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: لا تفعل فإنّه يحبّ الله ورسوله وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلّا اشترى منها ثمّ جاء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و يقول: هذا أهديته لك فإذا جاء صاحبه يطلب نعيمان بثمنه جاء به إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و قال: يا رسول الله أعطه ثمن متاعه فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أولم تهده لنا فيقول: يارسول الله إنّه لم يكن والله عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه[2].

فهذه مطائبات يباح مثلها على الندور لا على الدّوام و المواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من رواية زيد بن اسلم عن خوّات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات كما في المغني.

(٢) أخرجه الزبير بن بكار في الفكاهة ومن طريقه ابن عبدالبر من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا كما في المغني.

﴿ الآفة الحادية عشر السخرية والاستهزاء ﴾

و هذا محرّم مهما كان مؤذياً قال الله تعالى : « لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » (١) ومعنى السخريّة الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول وقد يكون بالإشارة والإيماء و إذا كان بحضرة المستهزء به لم يسمّ ذلك غيبة و فيه معنى الغيبة قالت عائشة: حاكيت إنساناً فقال ﷺ : « ما اُحبُّ أنّي حكيت إنساناً وأنّ لي كذا و كذا » (٢) و قال ابن عباس في قوله تعالى : « يا ويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصيها » (٣) الصّغيره التبسّم بالاستهزاء بالمؤمن و الكبيرة القهقهة بذلك وهو إشارة إلى أنّ الضحك على الناس من الجرائم والذّنوب .

وعن عبدالله بن زمعة أنّه سمع النبيّ ﷺ يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة ، وقال : على مَ يضحك أحدكم ممّا يفعل » (٤).

و قال ﷺ : « إنّ المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم من باب الجنّة فيقال: هلمّ هلمّ فيجيىء بكربه وغمّه فإذا أتاه أغلق دونه ، ثمّ يفتح له بابُ آخر فيقال: هلمّ هلمّ فيجيىء بكربه وغمّه فإذا أتاه أغلق دونه فمايزال كذلك حتّى أنّ الرّجل ليفتح له الباب فيقال : هلمّ هلمّ فما يأتيه » (٥) و قال معاذ بن جبل : قال رسول الله ﷺ : « من عيّر أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتّى يعمله » (٦) و كلّ هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغاراً له ، وعليه نبّه قوله تعالى : « عسى أن يكونوا خيراً منهم » (٧) أي لم تسخر به استصغاراً ولعلّه خير منك

(١) الحجرات : ١١ .
(٢) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٣١٠ و قال هذا حديث حسن صحيح .
(٣) الكهف : ٤٩ .
(٤) متفق عليه من حديث عبدالله بن زمعة .
(٥) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا كما فى الترغيب ج ٣ ص ٦١١ .
(٦) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٣١١ .
(٧) الحجرات : ١١ .

و هذا إنّما يحرم في حقّ من يتأذّى فأمّا من جعل نفسه مسخرة ويظلّ فرحاً من أن يسخر به كان السخريّة به من جملة المزاح و قد سبق مايذم منه و مايمدح ، و إنّما المحرّم منه استصغار يتأذّى به المستهزء به لما فيه من التحقير والتهاون و ذلك تارة يجري بأن يضحك على كلامه إذا تخبّط ولم ينتظم أو على أفعاله إذا كانت مشوّشة كالضحك على خطّه و على صنعته أوعلى صورته وخلقته إذا كان قصيراً أوناقصاً لعيب من العيوب ، فالضحك من جملة ذلك داخل في السخرية المنهيّ عنها المذموم أمثالها .

(الآفة الثانية عشر افشاء السر)

و هو منهيٌّ عنه لما فيه من الإيذاء و التهاون بحقّ المعارف والأصدقاء قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا حدّث الرجل الحديث ثمّ التفت فهي أمانة » [1] و قال مطلقا : « الحديث بينكم أمانة » [2] وقال الحسن : إنّ من الخيانة أن تحدّث بسرّ أخيك . وقد ذكرنا ما يتعلّق بكتمان السرّ في كتاب آداب الصّحبة فلانعيده .

(الآفة الثالثة عشر الوعد الكاذب)

فإنّ اللّسان سباق إلى الوعد ثمّ إنّ النفس ربّما لاتسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً وذلك من أمارات النفاق وقد قال الله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود » [3] وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « العدة دين » [4] وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «العدة عطيّة » [5] وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «الوأي مثل الدّين أوأفضل » [6] والوأي الوعد وقدأثنى الله تعالى على نبيّه إسماعيل صلوات الله عليه فقال : « إنّه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيّاً » فيقال إنّه واعد إنساناً في موضع فلم يرجع إليه فبقي اثنين و عشرين يوماً في انتظاره .

(١) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٦٦ .
(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا كما فى المغنى .
(٣) المائدة : ١ .
(٤) أخرجه ابن عساكر من حديث علي عليه السلام فى حديث . وقد تقدم .
(٥) أخرجه ابو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .
(٦) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس كما فى كنوز الحقايق للمناوى .

أقول: ومن طريق الخاصّة عن الصادق عليه السلام « إنّما سمّي إسماعيل صادق الوعد لأنّه وعد رجلاً في مكان فانتظره في ذلك المكان سنة فسمّاه الله صادق الوعد ثمّ إنّ الرّجل أتاه بعدذلك فقال له إسماعيل : مازلت منتظراً لك » (١) .

قال أبوحامد : وعن عبدالله بن أبي الحمساء قال : بايعت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك ، فنسيت يومي والغد فأتيته في اليوم الثالث وهوفي مكانه ، و قال : يافتى قدشققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » (٢) .

و قيل لإبراهيم : الرّجل يواعد الرّجل الميعاد فلايجيىء ، قال : ينتظره ما بينه و بين أن يدخل وقت الصلاة الّتي تجيىء ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إذا وعد وعداً قال : عسى » (٣) و كان ابن مسعود لايعد وعداً إلّا و يقول : إن شاء الله . و هو الأولى ثمّ إذا فهم معنى ذلك الجزم في الوعد فلا بدّ من الوفاء إلّا أن يتعذّر فإن كان عند الوعد عازماً على أن لايفي فهذا هو النفاق .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «ثلاث من كنّ فيه فهومنافق وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم : إذاحدّث كذب وإذا وعد أخلف ، و إذا ائتمن خان » (٤) .

و قال عبدالله بن عمر : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أربع من كنّ فيه كان منافقاً و من كانت فيه خلّة منهنّ كانت فيه خلّة من خلال النفاق حتّى يدعها : إذاحدّث كذب ، وإذا وعدأخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» (٥) وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أوترك الوفاء فأمّا من عزم على الوفاء و عنّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً و إن جرى عليه ما هو صورة النفاق ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز أيضاً من حقيقته ، ولاينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة حاجزة فقد روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان وعد أباالهيثم بن تيهان خادماً فأتى بثلاث من السبي فأعطى اثنتين وبقي واحدة فجاءت فاطمة بنت رسول الله

(١) رواه الصدوق فى العلل باب ٦٧ عن الرضا عليه السلام . والاية فى سورة مريم : ٥٤ .
(٢) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٩٥ . والبغوى فى المصابيح ٢ ص ١٥٤ .
(٣) قال العراقى : لم أجد له اصلا .
(٤) و (٥) أخرجهما مسلم ج ١ ص ٥٦ وقد تقدما .

صلى الله عليه وآله وسلم تطلب منه خادماً وهي تقول : ألاترى أثر الرّحا يا رسول الله في يدي ، فذكر موعده لأبي الهيثم فجعل يقول : كيف موعدي لأبي الهيثم فآثره به على فاطمة لما سبق من وعده له مع أنّها كانت تدير الرّحا بيدها الضعيفة (١) .

و لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً بقعا يقسّم غنايم هوازن بحنين فوقف عليه رجلٌ من الناس فقال : إنّ لي عندك موعداً يارسول الله ، فقال : صدقت فاحتكم ما شئت فقال: أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هي لك ولقد احتكمت يسيراً ولصاحبة موسى الّتي دلّته على عظام يوسف كانت أحزم و أجزل حكماً منك حين حكّمها موسى فقالت : حكمي أن تردّني شابّة و أدخل معك الجنّة قيل : فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتّى جعل مثلاً يقولون : أشحّ من صاحب الثمانين والرّاعي (٢) .

و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم : «ليس الخلف أن يعد الرجل الرّجل ومن في نيّته أن يفي» و في لفظ آخر « إذا وعد الرّجل أخاه وفي نيّته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه »(٣) .

أقول: قد سبق جواز خلف وعد النساء و الصّبيان إذا وعدوا في تطييب نفوسهنّ .

☼(الافة الرابعة عشر الكذب في القول واليمين)☼

و هو من قبائح الذّنوب و فواحش العيوب قال صلى الله عليه وآله وسلم : « كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثاً هولك مصدّق وأنت له به كاذب »(٤) .

و قال ابن مسعود : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « لايزال العبد يكذب و يتحرّى الكذب حتّى يكتب عند الله كذّاباً » (٥) .

(١) ماعثرت على تمام الحديث في أى أصل .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك مع اختلاف ج ٢ ص ٥٧٠ وقال اسناده صحيح وفيه نظر .
(٣) أخرجه أبوداود ج ٢ ص ٥٩٥ .
(٤) أخرجه البخارى في الادب المفرد وابو داود من حديث سفيان بن اسيد .
(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢٩ .

ومرّ رسول الله ﷺ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان ، يقول أحدهما : والله لاأنقصك من كذا و كذا ، ويقول الآخر : والله لاأزيدك على كذا و كذا ، فمرّ بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال : أوجب أحدهما بالإثم والكفّارة »[١].

و قال النبيّ ﷺ : «الكذب ينقص الرزق »[٢] .

و قال ﷺ : « إنّ التجّار هم الفجّار ، فقيل : يا رسول الله أليس الله قد أحلّ البيع؟ فقال : نعم ولكنّهم يحلفون فيأثمون و يحدّثون فيكذبون »[٣] .

و قال ﷺ : « ثلاث نفر لا يكلّمهم الله يوم القيامة ، و لا ينظر إليهم ، و لا يزكّيهم : المنّان بعطيّته ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره »[٤] .

و قال ﷺ : « ماحلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلّا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة »[٥] .

وقال أبوذرّ : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يحبّهم الله : رجل كان في فئة فنصب نحره حتّى يقتل أو يفتح الله عليه و على أصحابه ، و رجل كان له جار سوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهم موت أوظعن ، ورجل كان مع قوم في سفر أوسريّة فأطالوا السُرى حتّى أعجبهم أن يمسّوا الأرض للراحة فنزلوا فتنحّى يصلّي حتّى يوقظ أصحابه للرحيل ؛ وثلاثة يشنأهم الله : التاجر أوالبايع الحلّاف والفقير المختال والبخيل المنّان »[٦] .

و قال ﷺ : « ويلٌ للّذي يحدّث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له »[٧] .

---

(١) قال العراقى : أخرجه ابوالفتح الازدى فى كتاب الاسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمى .

(٢) رواه الاصبهانى كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٠٦ .

(٣) أخرجه البيهقى فى الكبرى ج ٥ ص ٢٦٦ . من حديث عبدالرحمن بن شبل .

(٤) السنن الكبرى ج ٦ ص ٢٦٥ من صحيح مسلم من حديث غندر بن شعبة وقدتقدم .

(٥) أخرجه الترمذى والحاكم من حديث عبدالله بن انيس .

(٦) أخرجه احمد ج ٥ ص ١٥١ .

(٧) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٩٤ .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « رأيت كان رجلاً جاءني فقال : قم فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم و الآخر جالس ، بيد القائم كلّوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتّى يبلغ كاهله ، ثمّ يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمدّه فإذا مدّه رجع الآخر كما كان فقلت للّذي أقامني : ماهذا ؟ فقال : هذا رجل كذّاب يعذّب في قبره إلى يوم القيامة »(١) .

و عن عبدالله بن جراد أنّه سأل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « يا نبيّ الله هل يزني المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك ، قال : يا رسول الله هل يكذب المؤمن ؟ فقال : لا ، ثمّ أتبعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقول الله تعالى : « إنّما يفترى الكذب الّذين لايؤمنون »(٢) .

و قال أبوسعيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو ويقول : « اللّهمّ طهّر قلبي من النفاق وفرجي من الزّنى ولساني من الكذب »(٣) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاثة لايكلّمهم الله ، ولاينظر إليهم يوم القيامة ، ولايزكّيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذّاب ، وعائل مستكبر »(٤) .

و قال عبدالله بن عامر : جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيتنا وأنا صبيٌّ صغير فذهبت لألعب ، فقالت اُمّي : يا عبدالله تعال اُعطيك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ فقالت : تمراً ، فقال : أما إنّك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة »(٥) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لو أفاء الله تعالى عليّ نعماً عدد هذه الحصى لقسّمتها بينكم ثمّ لاتجدوني بخيلاً ولا كذّاباً ولاجباناً »(٦) .

---

(١) أخرجه البخارى فى حديث طويل ج ٩ ص ٥٦ عن سمرة بن جندب .

(٢) أخرجه الخرائطى فى مساوى الاخلاق و ابن عساكر ، و الخطيب فى تاريخهما كما فى الدر المنثور ج ٤ ص ١٣١ ، والاية فى سورة النحل : ١٠٥ .

(٣) قال العراقى هكذا فى نسخ الاحياء عن ابى سعيد وانما هو عن ام معبد كذا رواه الخطيب فى التاريخ دون قوله « وفرجى من الزنى » وزاد « وعملى من الرياء وعينى من الخيانة » واسناده ضعيف .

(٤) أخرجه مسلم ج ١ ص ٧٢ عن ابوهريرة .

(٥) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٩٤ .

(٦) أخرجه البخارى ج ٤ ص ١١٥ من حديث جبير بن مطعم وقد تقدم ج ٤ ص ١٥٠ .

و قال ﷺ وكان متكئاً : «ألا اُخبركم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، ثم قعد فقال : ألا وقول الزور » (١) .

و قال ابن عمر : قال النبيّ ﷺ : « إنّ العبد ليكذب الكذب فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به » (٢) .

و قال النبيّ ﷺ : « تتبّلوا لي بستّ أتقبّل لكم بالجنّة فقالوا : و ما هنّ يا رسول الله ؟ قال : إذا حدّث أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعد فلايخلف ، وإذا ائتمن فلا يخن ، و غضّوا أبصاركم ، و كفّوا أيديكم ، و احفظوا فروجكم » (٣) .

و قال ﷺ : « إنّ للشيطان كحلاً ولعوقاً و نشوقاً ، فأمّا لعوقه فالكذب وأمّا نشوقه فالغضب ، وأمّا كحله فالنوم » (٤) .

و قال ﷺ : « من حدّث عنّي بحديث وهو يرى أنّه كذب فهو أحد الكاذبين » (٥) .

و قال ﷺ : « من حلف على يمين مؤثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم بغير حقّ لقي الله يوم يلقاه وهو عليه غضبان » (٦) .

و يروى « أنّ النبيّ ﷺ ردّ شهادة رجل في كذبة كذبها » (٧) .

و قال ﷺ : « على كلّ خصلة يطبع أويطوى عليها المؤمن إلّا الخيانة

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٦٤ من حديث ابى بكرة .

(٢) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٤٧ وحسنه .

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب عن أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٤) أخرجه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف عن انس كما فى الجامع الصغير ، ورواه الصدوق فى المعانى ص ١٣٨ هكذا « ان لابليس كحلا و لعوقاً و سعوطاً فكحله النعاس و لعوقه الكذب وسعوطه الكبر » .

(٥) أخرجه مسلم ج ١ ص ٧ من حديث سمرة بن جندب .

(٦) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٦٧ من حديث عبدالله . ومسلم ج ١ ص ٨٥ .

(٧) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت من حديث موسى بن شيبة مرسلا كما فى المغنى .

والكذب »(١) .

و قالت عائشة : ماكان من خلق أشدّ عند أصحاب الرسول ﷺ من الكذب ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرّجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتّى يعلم أنّه قدأحدث لله عزّوجلّ منها توبة »(٢) .

و قال موسى عليه السلام: « يا ربّ أيّ عبادك خير عملاً ؟ قال : من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولايزني فرجه » . وقال لقمان لابنه : « يا بنيّ إيّاك و الكذب فإنّه شهيّ كلحم العصفور عمّا قليل يقلاه صاحبه » .

وقال ﷺ في مدح الصدق : « أربع إذا كنّ فيك فلا يضرّك ما فاتك من الدّنيا صدق حديث و حفظ أمانة و حسن خليقة وعفّة في طعمة »(٣) .

و قال معاذ : قال لي رسول الله ﷺ : « إنّي اُوصيك بتقوى الله و صدق الحديث ، و أداء الأمانة ، و وفاء العهد ، وبذل السلام ، وخفض الجناح »(٤) .

و قال عليّ عليه السلام : « أعظم الخطايا عندالله اللّسان الكذوب ، و شرّ الندامة ندامة يوم القيامة » .

وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب « ما من خطيب إلّا وتعرض خطبته على عمله فإن كان صادقاً صدّق و إن كان كاذباً قرضت شفتاه بمقراض من نار ، كلّما قرضتا نبتتا » .

و قال ابن السماك : ما أراني أوجر على ترك الكذب لأنّي إنّما أدعه أنفة .

(بيان ما رخص فيه من الكذب)

اعلم أنّ الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أوعلى

(١) أخرجه ابويعلى والبزار كما فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٥٩٥ .

(٢) أخرج نحوه الترمذى ج ٨ ص ١٤٨ و راجع الترغيب و الترهيب ج ٣ ص ٥٩٧ رواه عن الحاكم و قال صحيح الاسناد .

(٣) أخرجه احمد و ابن ابى الدنيا و الطبرانى و البيهقى باسانيد حسنة كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٨٩ .

(٤) أخرجه ابو نعيم فى الحلية كما فى المغنى .

غيره(✿) فإنّ أقلّ درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً و قد يتعلّق به ضرر غيره ، وربّ جهل فيه منفعة ومصلحة ، فالكذب تحصيل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه و ربّما كان واجباً كما لو كان في الصدق قتل نفس بغير حقّ ، فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد فكلّ مقصود محمود يمكن التوصّل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام وإن أمكن التوصّل بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً و واجب إن كان المقصود واجباً كما أنّ عصمة دم المسلم واجبة فمهما كان في الصدق سفك دم مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب و مهما كان لايتمّ مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه إلّا بالكذب فالكذب مباح إلاّ أنّه ينبغي أن يحترز عنه ما يمكن لأنّه إذا فتح على نفسه باب الكذب فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه و إلى ما لايقتصر فيه على حدّ الواجب و مقدار الضرورة فكان الكذب حراماً في الأصل إلّا لضرورة ، و الّذي يدلّ على الاستثناء ما روي عن امّ كلثوم قالت : « ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرخّص في شيء من الكذب إلاّ في ثلاث : الرّجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرّجل يحدّث امرأة والمرأة تحدّث زوجها »(١).

و قالت أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس بكذّاب من أصلح بين اثنين فقال : خيراً أو نمى خيراً » (٢).

(✿) فيه نظر لان الكذب اظهار ما هو خلاف الواقع عمداً سواء كان بضر أو بنفع وهذا خروج عن الحق وميل عن الصراط السوى الى الباطل الذى يشمئز عنه الفطرة السليمة والعقل و هذا حرام فى الشرع وقبيح عند العقل الا أن يقال بعدم وجود الحسن والقبح العقليين وهو خلاف ماعليه اصحابنا ، وجواز الشرع الكذب فى بعض الموارد لاختيار اقل المحذورين لمصلحة لاينافى حرمته لنفسه ويؤيد ذلك ظاهر الروايات .

(١) أخرجه البخارى ومسلم واحمد والترمذى عن ام كلثوم بنت عقبة بن ابى معيط بسند صحيح كما فى الجامع الصغير .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢٨ .

و قالت أسماء بنت يزيد : إنّ رسول الله ﷺ قال : « كلّ الكذب يكتب على ابن آدم إلّا رجلٌ كذب بين رجلين يصلح بينهما »(١).

و روي عن أبي كاهل قال : وقع بين رجلين من أصحاب النبيّ ﷺ كلامٌ حتّى تصادما ، فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان فقد سمعته يحسن الثناء عليك، ولقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتّى اصطلحا ، ثمّ قلت : أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين فأخبرت النبيّ ﷺ فقال : يا أبا كاهل أصلح بين الناس »(٢) أي ولو بالكذب .

و قال عطاء بن يسار : قال رجل للنبيّ ﷺ : أكذب أهلي ؟ قال : « لا خير في الكذب ، قال : أعدها و أقول لها ؟ قال : لا جناح عليك »(٣).

عن النوّاس بن سمعان الكلابي قال : قال رسول الله ﷺ : « مالي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النّار ، كلّ الكذب مكتوب كذباً لا محالة إلّا أن يكذب الرّجل في الحرب فإنّ الحرب خدعة ، أو يكون بين رجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدّث امرأته يرضيها »(٤).

و قال عليّ عليه السلام : « إذا حدّثتكم عن رسول الله ﷺ فلان أخرّ من السماء أحبّ إليّ من أن أكذب عليه ، و إذا حدّثتكم فيما بيني و بينكم فالحرب خدعة » فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء و في معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره ، و أمّا ما له فمثل أن يأخذه ظالم و يسأله عن ماله فله أن ينكر أو يأخذه السلطان فيسأله عن فاحشة بينه و بين الله ارتكبها فله أن ينكرها ويقول: ما زنيت ولا شربت قال رسول الله ﷺ « من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر

(١) أخرجه احمد ج ٦ ص ٤٥٥ بزيادة فيه واختلاف فى اللفظ .

(٢) أخرجه الطبرانى ولم يصح كما فى المغنى .

(٣) رواه مالك فى الموطأ ج ٢ ص ٢٥٤ . عن صفوان بن سليم . و قال العراقى رواه ابن عبدالبر فى التمهيد من رواية صفوان عن عطاء .

(٤) أخرجه ابوبكر بن لال فى المكارم بلفظ « تتبا يعون - الى قوله - فى النار » دون مابعده فرواه الطبرانى و فيهما شهر بن حوشب . (المغنى)

بستر الله »[1] وذلك لأنّ إظهار الفاحشة فاحشة أُخرى فللرجل أن يحفظ دمه و ماله الّذي يؤخذ ظلماً وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً ، وأمّا عرض غيره فبأن يسأل عن سرّ أخيه فله أن ينكره وأن يصلح بين اثنين وأن يصلح بين الضرّات من نسائه بأن يظهر لكلّ واحدة أنّها أحبّ إليه ، وكانت امرأته لا تطاوعه إلّا بوعد لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطييباً لقلبها ، أو يعتذر إلى إنسان بالكذب و كان لا يطيب قلبه إلّا بإنكار ذنب و زيارة تودّد فلا بأس به ولكن الحدّ فيه أنّ الكذب محذور ولكن لو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر و يزن بالميزان القسط ، فإذا علم أنّ المحذور الّذي يحصل بالصدق أشدّ وقعاً في الشرع من الكذب فله الكذب و إن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، و قد يتقابل الأمران بحيث يتردّد فيهما وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأنّ الكذب يباح بضرورة أو حاجة مهمّة فإذا شكّ في كون الحاجة مهمّة فالأصل التحريم فيرجع إليه .

و لأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه و كذلك مهما كانت الحاجة له فيستحبّ له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأمّا إذا تعلّق بغرض غيره فلا يجوز المسامحة بحقّ الغير و الإضرار به ، و أكثر كذب الناس إنّما هو لحظوظ أنفسهم ثمّ هو لزيادات المال و الجاه و لأُمور ليس فواتها محذوراً حتّى أنّ المرأة لتحكي عن زوجها ما تتفاخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرّات وذلك حرام ؛ قالت أسماء : سمعت امرأة سألت رسول الله صلّى الله عليه وآله قالت : إنّ لي ضرّة و أنا أتكثّر من زوجي بما لم يفعل أضارّها بذلك فهل عليّ فيه شيء ؟ فقال : المتشبّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور »[2].

---

(١) أخرجه الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ « اجتنبوا هذا القاذورات التى نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله » واسناده حسن .

(٢) أخرج نحوه ابوداود ج ٢ ص ٥٩٥ ، واحمد ج ٦ ص ٣٤٥ وقال النورى معناه المتكثر بماليس عنده بأن يظهر أن عنده ماليس عنده ويتكثر بذلك عند الناس ويتزين بالباطل فهو مذموم ، كما يذم من لبس ثوبي زور ، وقال ابوعبيدة وغيره : الذى يلبس ثوبى زور هو الذى ←

وقال النبيُّ ﷺ : « من تطعم بمالا يطعم ، أوقال: لي وليس له ، أوأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور يوم القيامة »(١) ويدخل في هذا فتوى العالم بمالايتحقّقه و روايته الحديث الّذي لا يتثبّته ، إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول : لا أدري ، وهذا حرامٌ و ممّا يلتحق بالنساء الصبيان ، فإنّ الصبيّ إذا كان لايرغب في المكتب إلّا بوعد أو وعيد أوتخويف كاذب كان ذلك مباحاً نعم روِّينا في الأخبار أنّ ذلك يكتب كذباً ولكنّ الكذب المباح أيضاً يكتب ويحاسب عليه و يطالب بتصحيح قصده فيه ثمّ يعفى عنه لأنّه إنّما اُبيح بقصد الإصلاح ، ويتطرّق إليه غرور كثير فإنّه قد يكون الباعث له حظّه وغرضه الّذي هو مستغنى عنه و إنّما يتعلّل ظاهراً بالإصلاح فلهذا يكتب ، و كلُّ من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أنّ المقصود الّذي كذب لأجله هل هو أهمّ في الشرع من الصدق أولا ؟ وذلك غامض جدّاً ، فالحزم في تركه إلّا أن يصير واجباً بحيث لايجوز تركه كما لو أدّى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان ، وقد ظنّ ظانّون أنّه يجوز وضع الأخبار في فضائل الأعمال و في التشديد في المعاصي و زعموا أنّ القصد منه صحيح وهو خطأ محض إذ قال ﷺ : « من كذب عليّ متعمّداً فليتبوَّء مقعده من النار »(٢) و هذا لايرتكب إلّا بضرورة و لا ضرورة ههنا إذ في الصدق مندوحة عن الكذب ، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها ، وقول القائل : إنّ ذلك قد تكرّر على الأسماع و سقط وقعه و ما هو جديد على الأسماع فوقعه أعظم فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض الّتي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ و على الله تعالى و يؤدّي فتح بابه إلى اُمور تشوّش الشريعة فلا يقاوم خير هذا بشرّه أصلاً ، فالكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر الّتي لايقاومها شيء .

← يلبس ثياب اهل الزهد والورع ومقصوده أن يظهر للناس من التخشع والزهد اكثر مما في قلبه فهذه ثياب زور ورياء . ا هـ .

(١) قال العراقى : لم أجده بهذا اللفظ .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ و ٣٧ .

☼(بيان الحذر من الكذب بالمعاريض)☼

قد نقل عن السّلف أنّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب ، و عن ابن عبّاس و غيره « أمّا في المعاريض ما يغني الرّجل عن الكذب » و إنّما أرادوا من ذلك إذا اضطرّ الإنسان إلى الكذب فأمّا إذا لم تكن حاجة و ضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً ولكنّ التعريض أهون .

و مثال المعاريض ما روي أنّ مطرفاً دخل على زياد فاستبطأه فتعلّل بمرض فقال : ما رفعت جنبي منذ فارقت الأمير إلّا رفعني الله .

وقال إبراهيم : إذا بلغ الرّجل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقل : إنّ الله ليعلم ما قلت من ذلك من شيء ، فيكون قوله : « ما » حرف النفي عند المستمع وعنده للإبهام .

و كان النخعيّ لا يقول لابنته أشتري لك سكّراً بل يقول : أرأيت لو اشتريت لك سكّراً فإنّه ربّما لا يتّفق .

وكان إبراهيم إذا طلبه في الدّار من يكرهه قال للجارية : قولي له : اطلبه في المسجد ، وكان لا يقول ليس ههنا لئلّا يكون كاذباً .

وكان الشعبيّ إذا طلب في البيت وهو يكرهه فيخطّ دائرة و يقول للجارية : ضعي الأصبع فيها و قولي ليس ههنا .

و هذا كلّه في موضع الحاجة ، و أمّا في غير موضع الحاجة فلا ، لأنّ هذا تفهيم للكذب و إن لم يكن اللّفظ كذباً و هو مكروه على الجملة كما روى عن عبدالله بن عتبة قال : دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز فخرجت و عليّ ثوب فجعل الناس يقولون : هذا كساكه أمير المؤمنين فكنت أقول : جزى الله أمير المؤمنين خيراً ، فقال لي أبي : يا بنيّ اتّق الكذب إيّاك والكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأنّ فيه تقريراً لهم على ظنّ كاذب لأجل غرض المفاخرة و هو غرض باطل فلا فائدة فيه ، نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

« لا تدخل الجنّة عجوز ، و في عين زوجك بياضٌ ، و نحملك على ولد البعير » (١)
فأمّا الكذب الصريح فكما يعتاده الناس من مداعبة الحمقاء بتغريرهم بأنّ امرأة قد رغبت في تزويجك فإن كان فيه ضررٌ يؤدّي إلى إيذاء قلب فهو حرامٌ ، وإن لم يكن إلّا لمطائبة فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه ، و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يستكمل المرء الإيمان حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه ، و حتّى يجتنب الكذب في مزاحه » (٢).

و أمّا قوله صلى الله عليه وآله وسلم . « إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوي بها أبعد من الثريّا » (٣) أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح .

و من الكذب الّذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله : قلت لك كذا مائة مرّة ، وطلبتك مائة مرّة ، فإنّه لا يراد بها تفهيم المرّات بعددها بل تفهيم المبالغة فإن لم يكن طلبه إلّا مرّة واحدة كان كاذباً و إن كان طلبه مرّات لا يعتاد مثلها في الكثرة فلا يأثم و إن لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرّض مطلق اللّسان بالمبالغة فيها الخطر الكذب ، و ممّا يعتاد الكذب فيه و يتساهل به أن يقال : كل الطعام ، فيقول لا أشتهيه ، وذلك منهيٌّ عنه و هو حرامٌ وإن لم يكن فيه غرض صحيحٌ .

قال مجاهد قالت : أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة في اللّيلة الّتي هيّأتها و أدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعي نسوة ، قالت : فوالله ما وجدنا عنده قرى إلّا قدحاً من لبن فشرب ثمّ ناوله عائشة قالت : فاستحيت الجارية فقلت : لا تردّي يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خذي منه ، قالت : فأخذت منه على حياء فشربت منه ، ثمّ قال : ناولي صواحبك ،

---

(١) تقدم الثلاثة فى الافة العاشرة .
(٢) أخرجه ابن عبدالبر فى الاستيعاب من حديث ابى مليكة الذمارى دون قوله « وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه » وللدارقطنى فى المؤتلف والمختلف من حديث ابى هريرة « لا يؤمن عبد الايمان كله حتى يترك الكذب فى مزاحه » . وتقدم عن احمد فى مسنده ج ٢ ص ٣٥٢ « لا يؤمن العبد الايمان كله حتى يترك الكذب من المزاحة الحديث » .
(٣) تقدم فى الافة الثالثة .

فقلن لانشتهيه فقال : لا تجمعن جوعاً و كذباً ، قالت : فقلت : يارسول الله إن قالت أحدٌ منّا لشيء نشتهيه لا أشتهيه أيعدُ ذلك كذباً ؟ قال : إنَّ الكذب ليكتب حتّى تكتب الكذيبة كذيبة » (١).

و قد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب ، قال اللّيث ابن سعد : كانت ترمص عينا سعيد بن المسيّب حتّى يبلغ الرّمص خارج عينيه فيقال له : لو مسحت هذا الرّمص ، فيقول : فأين قول الطبيب و هو يقول لي : لا تمسُ عينيك فأقول : لا أفعل ، وهذه من مراقبة أهل الورع ، ومن تركه انسلَّ لسانه في الكذب عن حدّ اختياره فيكذب ولا يشعره وعن خوّات التيميّ قال : جاءت اُخت الرّبيع بن خثيم عائدة إلى بنيّ لي فانكبت عليه فقالت : كيف أنت يا بنيَّ فجلس الرّبيع فقال : أرضعتيه ؟ فقالت : لا ، قال : ما عليك لوقلت يا ابن أخي فصدقت .

و من العادة أن يقول : يعلم الله فيما لا يعلمه ، قال عيسى عليه السلام : « إنَّ من أعظم الذّنوب عند الله أن يقول العبد : إنَّ الله يعلم لما لايعلم و ربّما يكذب في حكاية المنام والإثم فيه عظيم إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنَّ من أعظم الفرى أن يدعي الرّجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم تريا أو يقول عليّ ما لم أقل » (٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «من كذب في حلمه كلّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين» (٣).

✿(الآفة الخامس عشر الغيبة)✿

و النظر فيها طويل فنذكر أوّلاً مذمّة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع ،

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن اسماء بنت يزيد وهو الصواب فان اسماء بنت عميس كانت اذذاك بالحبشة لكن فى طبقات الاصبهانيين لابى الشيخ من رواية عطاء بن ابى رباح عن اسماء بنت عميس « زففنا الى النبى صلى الله عليه وآله بعض نسائه الحديث » فاذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خيبر فلامانع من ذلك (المغنى) .

(٢) أخرجه البخارى ج ٩ ص ٥٤ من حديث ابن عمر .

(٣) أخرجه البخارى ج ٩ ص ٥٤ من حديث ابن عباس .

و قد نصّ الله سبحانه على ذمّها في كتابه و شبّه صاحبها بآكل لحم الميتة ، و قال : « و لا تجسّسوا و لا يغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » (١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » (٢) و الغيبة تناول العرض و قد جمع بينه و بين الدّم والمال .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لاتحاسدوا ، ولاتباغضوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، و كونوا عباد الله إخواناً » (٣).

و عن جابر وأبي سعيد قالا : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « إيّاكم و الغيبة فإنّ الغيبة أشدّ من الزّنا ، فإنّ الرّجل قديزني فيتوب فيتوب الله عليه ، وإنّ صاحب الغيبة لايغفر له حتّى يغفر له صاحبه » (٤).

و قال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مررت ليلة أُسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم ، فقلت : يا جبرئيل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الّذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم » (٥).

و قال سليم بن جابر أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : علّمني خيراً ينفعني الله به ، فقال : « لاتحقرنّ من المعروف شيئاً ولو أنّ تصبّ من دلوك في إناء المستقي ، و أن تلقى أخاك ببشر حسن وإذا أدبر فلا تغتبه » (٦).

و قال البراء خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى أسمع العواتق في بيوتهنّ فقال :

---

(١) الحجرات : ١٢ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١١ من حديث ابى هريرة .

(٣) متفق عليه دون قوله « لايغتب بعضكم بعضاً » راجع صحيح البخارى ج ٨ ص ٢٥ ، ومسلم ج ٨ ص ١١ .

(٤) رواه الطبرانى فى الاوسط وفيه عباد بن كثير وهو متروك كمافى مجمع الزائد ج ٨ ص ٩٢ . وفى الحاوى للفتاوى رسالة خاصة فى ذلك وهى بذل الهمة فى طلب براءة الذمة .

(٥) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٦٨ مسنداً ومرسلا .

(٦) أخرجه ابن ابى الدنيافى الصمت واللفظ له وأحمد فى المسند نحوه كمافى المغنى .

« يا معشر من آمن بلسانه و لم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتّبعوا عوراتهم فإنّه من تتبّع عورة أخيه تتبّع الله عورته و من تتبّع الله عورته يفضحه في جوف بيته »(١).

و أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام « من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنّة و من مات مصرّاً عليها فهو أوّل من يدخل النار ».

و قال أنس : أمر النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم الناس بصوم يوم وقال : لا يفطرنّ أحدٌ حتّى آذن له ، فصام الناس حتّى إذا أمسوا جعل الرّجل يجيء فيقول : يا رسول الله ظللت صائماً فأذن لي لأفطر فيأذن له ، ثمّ الرّجل والرّجل حتّى جاء رجل فقال : يا رسول الله فتاتان من أهلي ظلّتا صائمتين و إنّهما تستحييان أن تأتياك فأذن لهما فلتفطرا فأعرض عنه ، ثمّ عاوده فأعرض عنه ثمّ عاوده فقال : إنّهما لم تصوما و كيف صام من ظلّ هذا اليوم يأكل لحوم الناس إذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا ، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا فقاءت كلّ واحدة منهما علقة من دم فرجع إلى النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم فأخبره فقال : و الّذي نفس محمّد بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار »(٢).

و في رواية « أنّه لما أعرض عنه جاءه بعد ذلك و قال : يا رسول الله : إنّهما و الله لقد ماتتا أو كادتا أن تموتا فقال النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم : ائتوني بهما فجاءتا فدعا بعسّ أو قدح فقال لأحدهما : قيئي فقاءت من قيح و دم و صديد حتّى ملأت القدح ، وقال للأُخرى : قيئي فقاءت كذلك فقال : إنّ هاتين صامتا عمّا أحلّ الله لهما وأفطرتا على ما حرّم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأُخرى فجعلتا تأكلان لحوم النّاس »(٣).

---

(١) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٦٨ .

(٢) أخرجه ابن مردويه و البيهقي في الشعب كما في الدر المنثور ج ٦ ص ٩٦ . والحديث من رواية يزيد الرقاشي وهوابوعمر البصري القاص زاهد ضعيف .

(٣) أخرجه احمد ج ٥ ص ٤٣١ من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وفيه من لم يسم .

و قال أنس : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله فذكر الزّنا و عظم شأنه فقال : « إنّ الدّرهم يصيبه الرّجل من الرّبوا أعظم عند الله في الخطيئة من ستّ و ثلاثين زنية يزنيها الرّجل وأربى الرّبوا عرض الرّجل المسلم » (١).

و قال جابر : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في مسير فأتى على قبرين يعذّب صاحباهما فقال : « أما إنّهما ليعذّبان و ما يعذّبان في كبيرة ، أمّا أحدهما فكان يغتاب النّاس ، وأمّا الآخر فكان يستنزه من بوله ، و دعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسّرهما ثمّ أمر بكلّ كسرة فغرست على قبر فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : أمّا إنّه سيهوّن من عذابها ما كانتا رطبتين أو ما لم ييبسا » (٢).

ولمّا رجم رسول الله صلى الله عليه وآله ماعزاً في الزّنى قال رجلٌ لصاحبه : هذا أقعص الكلب فمرّ النّبيّ صلى الله عليه وآله معهما بجيفة فقال : انهشا منها ، فقال : يارسول الله ننهش جيفة ؟ فقال : ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه » (٣).

و سمع عليّ بن الحسين عليهما السلام رجلاً يغتاب آخر فقال : « إيّاك والغيبة فإنّها إدام كلاب النار» (٤).

و عن مجاهد في قوله تعالى : « ويلٌ لكلّ همزة لمزة » (٥) فإنّ الهمزة الطعّان في الناس ، و اللّمزة الّذي يأكل لحوم الناس ، وكان الصحابة يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون خلافه عادة المنافقين ، وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصّوم ولا في الصّلاة ولكن في

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الغيبة كما في الترغيب و الترهيب ج ٣ ص ٥٠٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الادب المفرد ، وابن ابي الدنيا كما في الدر المنثور ج ٦ ص ٩٦ .

(٣) أخرجه النسائي و ابوداود ج ٢ ص ٤٥٩ نحوه باسناد جيد .

(٤) رواه الطبرسي في الاحتجاج ص ١٧٢ ، ومروى نحوه عن امير المؤمنين عليه السلام كما في الوسائل ج ٢ ص ٢٣٨ كتاب الحج باب١٥٢ تحريم الغيبة .

(٥) الهمزة : ٢ .

الكفّ عن أعراض النّاس .

و قال ابن عبّاس إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك ، و قال بعضهم : يبصر أحدكم القذا في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه ، وقال آخر يا ابن آدم إنّك لن تصيب حقيقة الإيمان حتّى لاتعيب النّاس بعيب هو فيك وحتّى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك ، وإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصّة نفسك ، و أحبّ العباد إلى الله من كان هكذا .

وقال مالك بن دينار : مرّ عيسى ابن مريم عليه السلام ومعه الحواريّون على جيفة كلب فقال الحواريّون : ما أنتن ريح هذا الكلب فقال عيسى : ما أشدّ بياض أسنانه كأنّه نهاهم عن غيبة الكلب ونبّههم على أنّه لايذكر شيء من خلق الله إلّا أحسنه .

أقول: قال بعض علمائنا : إنّه ليس المقتضي لما قاله عيسى عليه السلام كون كلام الحواريّين غيبة بل الوجه فيه أنّ نتن الجيفة و نحوه ممّا لا يلائم الطباع غيرمستند إلى فعل من يحسن إنكار فعله و كلام الحواريّين ظاهر في الإنكار كما لايخفى وكأنّ عيسى عليه السلام نظر إلى أنّ الأمور الملائمة وغيرها ممّا هو من هذا القبيل كلّها من فعل الله تعالى على مقتضى حكمته ، و قد أمر بالشكر على الأولى و الصبر على الثانية ، وفي إظهار الحواريّين لانكار نتن الرائحة دلالة على عدم الصبر أو الغفلة عن حقيقة الأمر فصرفهم عنه إلى أمر يلائم طباعهم و هو شدّة بياض أسنان الكلب و جعله مقابلاً للأمر الّذي لايلائم وشاغلاً لهم عنه وهذا معنى لطيف تبيّن لي من الكلام .

و من طريق الخاصّة ما رواه الصدوق رحمه الله ـ بإسناده إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : « من مشى في غيبة أخيه و كشف عورته كانت أوّل خطوة خطاها وضعها في جهنّم ، و كشف الله عورته على رؤوس الخلائق ، و من اغتاب مسلماً بطل صومه و نقض وضوءه . فإن مات وهو كذلك مات وهو مستحلّ لما حرّم الله » (١).

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : الغيبة أسرع في دين

(١) اورده في آخر كتاب عقاب الاعمال في خطبة النبي صلى الله عليه و آله وهي آخر خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه و آله بالمدينة .

الرّجل المسلم من الاُكلة في جوفه » (١).

قال : « وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : الجلوس في المسجد انتظاراً للصلاة عبادة ما لم يحدث ، فقيل : يا رسول الله و ما الحدث ؟ قال : الاغتياب » (٢).

و روى ابن أبي عمير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « من قال في مؤمن مارأته عيناه وسمعته اُذناه فهو من الّذين قال الله عزّ و جلّ : إنّ الّذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الّذين آمنوا لهم عذاب أليم» (٣).

و عن المفضّل بن عمر قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : « من روى على مؤمن رواية يريدبها شينه وهدم مروّته ليسقط عن أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان» (٤).

وعن الصادق عليه السلام قال : «الغيبة حرامٌ على كلّ مسلم ، وإنّها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» (٥).

﴿بيان معنى الغيبة وحدّها﴾

اعلم أنّ حدّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرت نقصاناً في بدنه أو في نسبه أو خلقه أو في فعله أو في قوله أوفي دينه أو في دنياه وحتّى في ثوبه و في داره ودابّته ، أمّا البدن فكذكرك العمش و الحول و القرع و القصر و الطول و السواد و الصفرة وجميع ما يتصوّر أن يوصف به ممّا يكرهه ، وأمّا النسب فبأن تقول : إنّ أباه نبطيٌّ أو هنديٌّ أو فاسقٌ أو خسيسٌ أو إسكاف أو زبّالٌ أو جزّارٌ أو شيءٌ ممّا يكرهه كيفما كان ، وأمّا الخلق فبأن تقول : إنّه سيّىء الخلق بخيل متكبّر مرائي شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهوّر ، و ما يجري مجراه ، وأمّا في أفعاله المتعلّقة بالدّين كقولك سارق أو كذّاب أوشارب خمر أوخائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة والزكاة ، لا يحسن الركوع و السجود أو لا يحترز عن

(١) و (٢) و (٣) الكافي ج ٢ ص ٣٥٧ .
(٤) الكافي ج ٢ ص ٣٥٨ .
(٥) راجع مصباح الشريعة الباب التاسع والاربعين .

النجاسات أوليس بارّاً بوالديه أولايضع الزكاة مواضعها أولايحسن قسمتها أولايحرس صومه من الرفث و الغيبة و التعرّض لأعراض النّاس ، و أمّا فعله المتعلّق بالدّنيا كقولك : إنّه قليل الأدب متهاونٌ بالناس ولا يرى لأحد على نفسه حقّاً و يرى لنفسه حقّاً ، أوإنّه كثير الكلام كثير الأكل ، أوإنّه نؤوم ينام في غير وقته ويجلس في غيرموضعه ، و أمّا في ثوبه بأنّه واسعُ الكمّ طويل الذّيل وسخ الثياب كبير العمامة .

و قد قال قوم لاغيبة في الدّين لأنّه ذمٌّ ما ذمّه الله فذكره بالمعاصي وذمّه يجوز بدليل ما روي أنّه ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم امرأة و كثرة صومها و صلاتها ولكنّها تؤذي جيرانها بلسانها ؟ فقال : هي في النار»[1]. وذكرت امرأة اُخرى بأنّها بخيلة فقال : « فما خيرها إذاً »[2].

و هذا فاسد لأنّهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرّف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولايحتاج إليه في غيرمجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و الدّليل عليه إجماع الاُمّة على أنّ من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنّه داخلٌ فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حدّ الغيبة فكلٌّ هذا وإن كنت صادقاً فيه فأنت به مغتاب عاص لربّك وآكل لحم أخيك بدليل ما روي أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : « هل تدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بمايكره ، قيل : أرأيت إن كان في أخي ما أقوله ، قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، فإن لم يكن فيه فقد بهتّه »[3].

و قال معاذبن جبل : ذكر رجلٌ عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : ما أعجزه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اغتبتم صاحبكم ، قالوا : يا رسول الله قلنا مافيه ، قال : إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتّموه »[4].

و عن حذيفة عن عائشة أنّها ذكرت امرأة فقالت : إنّها قصيرة فقال النبيّ

---

(١) أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابى هريرة . (المغنى) .

(٢) أخرجه الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث ابى جعفر محمد بن على عليهما السلام مرسلا .

(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ وابوداود ج ٢ ص ٥٦٧ من حديث أبى هريرة .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير بسند فيه على بن عاصم و هو ضعيف كمافى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٩٤ .

صلى الله عليه وآله وسلم : « اغتبتها »(١).

و قال الحسن : ذكر الغير بالسوء ثلاثة أقسام : الغيبة والبهتان والإفك ، و الكلُّ في كتاب الله ، و الغيبة أن تقول ما فيه ، و البهتان أن تقول ما ليس فيه ، والإفك أن تقول ما بلغك .

و ذكر ابن سيرين رجلاً فقال : ذلك الرّجل الأسود ، ثمّ قال : أستغفر الله إنّي أراني قد اغتبته ، و ذكر ابن سيرين إبراهيم فقال : النّخعي ولم يقل الأعور .

و قالت عائشة : لا تغتابنّ منكنّ أحداً فإنّي قلت لامرأة مرّة و أنا عند النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ هذه لطويلة الذّيل فقال : الفظي الفظي ، فلفظت بضعة من لحم »(٢).

أقول: هذه الأخبار العامّية لا تصلح لإثبات حكم شرعيّ ولا سيّما مع وجود الدّاعي لهم إلى اختلاق مثلها ، فإنّ كثرة عيوب أئمّتهم ونقائص رؤسائهم تحوّج إلى سدّ باب إظهارها بكلّ وجه ليروّج حالهم و يأمنوا نفرة الرّعية عنهم ، و كما أنّ في التعرّض لإظهار عيوب الناس خطراً و محذوراً فكذا في حسم مادّته و سدّ بابه فإنّه تقرير لأهل النقائص و مرتكبي المعاصي على ما هم عليه ، كذا قال : بعض علمائنا .

و في مصباح الشريعة(٣) عن الصّادق عليه السلام : صفة الغيبة أن يذكر أحدٌ بما ليس هو عند الله عيب و يذمّ ما يحمده العلم فيه ، و أمّا الخوض في ذكر غائب بما هو عند الله مذمومٌ و صاحبه فيه ملومٌ فليس بغيبة و إن كره صاحبه إذا سمع به و كنت أنت معافى عنه خالياً منه و تكون مبيّناً للحقّ من الباطل ببيان الله ورسوله ولكن على شرط أن لا يكون للقائل بذلك مراد غير بيان الحقّ والباطل في دين الله

---

(١) أخرجه احمد و ابو داود ج ٢ ص ٥٦٧ والترمذى عن ابى حذيفة عن عائشة وفى الاحياء عن حذيفة عن عائشة كما فى المتن وهكذا أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت عن حذيفة وهو خطأ والصواب « ابى حذيفة » واسمه سلمة بن صهيب .

(٢) أخرجه ابن مردويه والبيهقى فى الشعب والخرائطى فى مساوى الاخلاق كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ٩٥ وفى اسناده امرأة مجهولة .

(٣) الباب التاسع والاربعون .

و أمّا إذا أراد به نقص المذكور بغير ذلك المعنى فهو مأخوذ بفساد مراده و إن كان صواباً .

و عنه عليه السلام « الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه وأمّا الأمر الظاهر فيه مثل الحدّة و العجلة فلا »[١] و في خبر آخر « هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل[٢] وتبثّ عليه أمراً قد ستره الله عليه لم يقم عليه فيه حدّ »[٣].

وخصّ بعض علمائنا تحريم الغيبة بمن يعتقد الحقّ لأنّ أدلّة الحكم غير متناولة لأهل الضلال لأنّ الحكم فيها منوط بالمؤمنين أو بالأخ و المراد إخوة الإيمان فلا يتناول من لا يعتقد الحقّ .

✿(بيان أن الغيبة لاتقتصر على اللسان)✿

إعلم أنّ الذكر باللّسان إنّما حرّم لأنّ فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض فيه كالتصريح و الفعل فيه كالقول و الإشارة والايماء و الغمز و الرّمز و الكتابة والحركة و كلّ ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة و هو حرام و من ذلك قول عائشة : دخلت علينا امرأة فلمّا ولّت أومأت بيدي أنّها قصيرة فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « قداغتبتها »[٤]و من ذلك المحاكاة بأن تمشي متعارجاً أو كما يمشي فهو غيبة بل هو أشدّ من الغيبة لأنّه أعظم في التصوير و التفهيم و كذلك الغيبة بالكتاب ، فإنّ القلم أحد اللّسانين ، و ذكر المصنّف شخصاً معيناً و تهجين كلامه في الكتاب غيبة إلّا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره كما سيأتي بيانه ، و أمّا قوله قال قوم كذا فليس ذلك بغيبة إنّما الغيبة التعريض لشخص

---

(١) الحدة ـ بالكسر ـ : مايعترى الانسان من الغضب والنزق ، والعجلة : السرعة .

(٢) المراد بمالم يفعل العيب الذى لم يكن باختياره وفعله الله فيه كالعيوب البدنية ، فيخص بما اذا كان مستوراً وهذا بناء على أن « فى دينه » صفة « لاخيك » اى الذى اخوته بسبب دينه ، ويمكن أن يكون « فى دينه » متعلق بالقول اى كان ذلك القول طعناً فى دينه بنسبة كفر او معصية اليه ويدل على ان الغيبة تشمل البهتان .

(٣) الكافى ج ٢ ص ٣٥٧ .

(٤) أخرجه الخرائطى و ابن مردويه والبيهقى كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ٩٤ .

معيّن ، إمّا حيّ أو ميّت ، و من الغيبة أن تقول : بعض من مرّ بنا اليوم أو بعض من رأيناه ، إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيّناً لأنّ المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم ، فأمّا إذا لم يفهم عينه جاز ، كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذا كره من إنسان شيئاً قال : « ما بال أقوام يفعلون كذا و كذا »(١) وكان لايعيّن .

فقولك : بعض من قدم من السفر وبعض من يدّعي العلم إذا كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهو غيبة ، وأخبث أنواع الغيبة غيبة القرّاء المرائين فإنّهم يفهمون المقصود على صنيعة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفّف عن الغيبة و يفهمون المقصود ولا يدرون بجهلهم أنّهم جمعوا بين فاحشتين الرّياء والغيبة ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد الله الّذي لم يبتلنا بالدّخول على السلطان والتبذّل في طلب الحطام ، أو يقول : نعوذ بالله من قلّة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها وإنّما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدّعاء ، و كذلك قد يقدّم مدح من يريد غيبته فيقول : ما أحسن أحوال فلان ماكان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما يبتلى به كلّنا وهو قلّة الصبر ، فيذكر نفسه ومقصوده أن يذمّ غيره و يمدح نفسه بالتشبّه بالصالحين في ذمّ أنفسهم فيكون مغتاباً ومرائياً ومزكّياً نفسه و يجمع بين ثلاث فواحش وهو يظنّ بجهله أنّه من الصالحين المتعفّفين عن الغيبة و كذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادات من غير علم فإنّه يتعبهم و يحبط بمكائده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم ، ومن ذلك يذكر عيب إنسان فلا يتنبّه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتّى يصغى إلى المغتاب و يعلم ما يقوله فيذكر الله و يستعمل اسمه آلة في تحقيق خبثه و هو يمنّ على الله بذكره جهلاً منه وغروراً و كذلك يقول : لقد ساءني ما جرى على صديقنا فلان من الاستخفاف فنسأل الله أن يروّح سرّه ويكون كاذباً في دعوى الاغتمام وفي إظهار الدّعاء له ، بل لو قصد الدّعاء لأخفاه في خلوة عقيب صلاته ولو كان يغتمّ به لاغتمّ أيضاً باظهار مايكرهه ، و كذلك يقول : ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو في

---

(١) أخرجه ابوداود ج ٢ص ٥٥٠ من حديث عائشة .

كلّ ذلك يظهر الدّعاء و الله تعالى مطّلع عن خبث ضميره وخفيّ قصده وهو لجهله لا يدري أنّه قد تعرّض لمقت أعظم ممّا يتعرّض له الجهّال إذا جاهروا ، ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجّب به فإنّه إنّما يظهر التعجّب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيه فكأنّه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول : عجبٌ ما علمت أنّه كذلك ، ما عرفته إلى الآن إلّا بالخير و كنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه ، فإنّ كلّ ذلك تصديق للمغتاب و التصديق للغيبة غيبة بل الساكت شريك القائل قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « المستمع أحد المغتابين » (١).

و قد روي عن أبي بكر وعمر أنّ أحدهما قال لصاحبه : إنّ فلاناً لنؤوم ثمّ طلبا اُدماً من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ليأكلا مع الخبز فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : قد ائتدمتما ، فقالا : لانعلمه ، فقال : بلى إنّكما أكلتما من لحم صاحبكما » (٢).

فانظر كيف جمعهما و كان القائل أحدهما و الآخر مستمعٌ و قال للرّجلين اللّذين قال أحدهما لصاحبه : أقعص الرّجل كما يقعص الكلب : (٣)« انهشا من هذه الجيفة » فجمع بينهما ، فالمستمع لايخرج من إثم الغيبة إلّا بأن ينكر لسانه وإن خاف فبقلبه و إن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعله لزمه الإثم ، وإن قال بلسانه : اُسكت و هو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق و لا يخرجه عن الإثم ما لم يكرهه بقلبه ،ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أي اُسكت أو يشير بحاجبه وجبينه فإنّ ذلك استحقار للمذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذبّ عنه صريحاً .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من أذلّ عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره أذلّه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق » (٤).

و قال أبو الدّرداء : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان

---

(١) أخرج الطبراني عن ابن عمر قال نهى رسول الله صلى الله عليه و آله عن الغيبة وعن الاستماع الى الغيبة راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٩١ .

(٢) أخرجه الضياء المقدسى فى المختارة عن أنس كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ٩٥ .

(٣) أخرجه أبو داود والنسائى كما تقدم .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٣ ص ٤٨٧ من حديث سهل بن حنيف .

حقاً على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة »(١) .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم أيضاً: « من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقّاً على الله أن يعتقه من النار »(٢) .

و قد ورد في نصرة المسلم في الغيبة و فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة و حقوق المسلمين فلا نطول بالإعادة .

☼(بيان الاسباب الباعثة على الغيبة)☼

إعلم أنّ البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سبباً ثمانية تطّرد في حقّ العامّة ، وثلاثة تختصّ بأهل الدّين والخاصّة .

أمّا الثمانية فالأوّل يشفي الغيظ وذلك إذا جرى سبب يغضب به عليه فإنّه إذا هاج غضبه يشفي الغيظ بذكر مساويه فيسبق اللّسان إليه بالطبع إن لم يكن ثمّة دين وازع وقد يمنع تشفّي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن ويصير حقداً ثابتاً ويكون سبباً دائماً لذكر المساوي فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

الثاني موافقة الأقران و مجاملة الرفقاء و مساعدتهم على الكلام فإنّهم إذا كانوا يتفكّهون بذكر الأعراض فيرى أنّه لو أنكر أو قطع المجلس استثقلوه و نفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة و يظنّ أنّه مجاملة في الصحبة وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب بغضبهم إظهاراً للمساهمة في السرّاء والضرّاء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي فيهلك معهم .

الثالث أن يستشعر من إنسان أنّه سيقصده و يطول لسانه فيه أو يقبّح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبّح هو حاله و يطعن فيه ليسقط أثر شهادته أو يبتدي بذكر ما هو فيه صادقاً ليكذب عليه بعده فيروّج كذبه بالصدق

---

(١) رواه ابن ابى الدنيا فى الصمت وفيه شهر بن حوشب ، وهو عند الطبرانى بلفظ آخر .(المغنى)

(٢) رواه أحمد ج ٦ ص ٤٦١ عن اسماء بنت يزيد باسناد حسن بنحوه والطبرانى ايضاً ، وابن ابى الدنيا فى الصمت عن ابى الدرداء كما فى المتن .

الأوّل و يستشهد به ويقول : ما من عادتي الكذب فإنّي أخبرتكم بكذا و كذا من أحواله فكان كما قلت .

الرّابع أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرّأ منه بذكر الّذي فعله ، و كان من حقّه أن يبرّىء نفسه ولايذكر الّذي فعله فلاينسب غيره إليه ، أويذكرغيره بأنّه كان مشاركاً له في الفعل ليمهّد بذلك عذر نفسه في فعله .

الخامس إرادة التصنّع و المباهاة و هو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول : فلانٌ جاهلٌ ، وفهمه ركيك ، و كلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه و يريهم أنّه أفضل منه أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك .

السادس الحسد وهو أنّه ربّما يحسد من يثني الناس عليه ويحبّونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلّا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتّى يكفّوا عن إكرامه و الثناء عليه لأنّه يثقل عليه أن يسمع ثناء الناس عليه وإكرامهم له ، وهذا هوعين الحسد وهوغير الغضب والحقد فإنّ ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والقرين الموافق .

السابع اللّعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة والتعجّب والتعجيب .

الثامن السخريّة و الاستهزاء استحقاراً له فإنّ ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضاً في الغيبة و منشاؤه التكبر و استصغار المستهزأ به .

و أمّا الأسباب الثلاثة الّتي في الخاصّة فهي أغمضها وأدقّها لأنّها شرورخبّأها الشيطان في معرض الخيرات ، وفيها خيرٌ ولكن شاب الشيطان بها الشرّ .

الأوّل أن ينبعث من الدّين داعية التعجّب من إنكار المنكر و الخطأ في الدّين فيقول : ما أعجب ما رأيت من فلان فإنّه قد يكون به صادقاً و يكون تعجّبه من المنكر ولكن كان حقّه أن يتعجّب ولا يذكر اسمه فيسهّل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجّبه فصار به مغتاباً من حيث لا يدري و آثماً من حيث لا يدري ،

و ذلك قول الرّجل تعجّبت من فلان كيف يحبّ جاريته وهي قبيحة و كيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل .

الثاني الرّحمة وهو أن يغتمّ بسبب ما يبتلي به فيقول : مسكين فلان قد غمّني أمره و ما ابتلي به فيكون صادقاً في اغتمامه و يلهيه الغمّ عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غمّه ورحمته خيراً و كذا تعجّبه ولكنّه ساقه الشيطان إلى شرّ من حيث لا يدري ، والترحّم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيّجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل بذلك ثواب اغتمامه وترحّمه .

الثالث الغضب لله فإنّه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه و يذكر اسمه ، و كان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف ولا يظهر على غيره أو يستر اسمه ولا يذكره بالسّوء ، فهذه الثلاثة ممّا يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام فإنّهم يظنّون أنّ التعجّب والرّحمة و الغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً في ذكر الاسم و هو خطأ ، بل المرخّص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتي ، روي عن عامر بن واثلة أنّ رجلاً مرّ على قوم في حياة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فسلّم عليهم فردّوا السلام عليه ، فلمّا جاوزهم قال رجل منهم : إنّي لأبغض هذا لله ، فقال أهل المجلس : و الله لبئس ما قلت و الله لننبّئنّه ، قم يا فلان - لرجل منهم - فأدركه فأخبره بما قال ، قال : فأدركه رسولهم فأخبره ، فأتى الرّجل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وحكى له ما قال و سأله أن يدعوه ، فدعاه فسأله ، فقال : قد قلت ذلك ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لم تبغضه ؟ قال : أنا جاره وأنا به خبير و الله ما رأيته يصلّي صلاة قطّ إلّا هذه المكتوبة ، قال : فاسأله يا رسول الله هل رآني أخّرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الرّكوع أو السجود ؟ فسأله فقال : لا ، قال : و الله ما رأيته يصوم شهراً قطّ إلّا هذا الشهر الّذي يصومه البرّ و الفاجر ، قال : فاسأله يا رسول الله هل رآني قطّ أفطرت فيه أو نقصت من حقّه شيئاً؟ فسأله ، فقال : لا ، قال : والله ما رأيته يعطي سائلاً قطّ ولا مسكيناً ، ولا رأيته ينفق من ماله شيئاً في سبيل الخير إلّا هذه الزكاة الّتي يؤدّيها البرّ و الفاجر ، قال:

فأسأله هل رآني نقصت منها شيئاً أوما كست فيها طالبها الّذي يسألها ؟ فسأله ، فقال: لا ، فقال للرّجل : قم فلعلّه خيرٌ منك »[١].

أقول: و في مصباح الشريعة [٢] عن الصّادق عليه السلام « انّ أصل الغيبة متنوّع بعشرة أنواع : شفاء غيظ و مساعدة قوم و تهمة و تصديق خبر بلا كشفه و سوء ظنّ و حسد و سخريّة و تعجّب و تبرّم و تزيّن ، قال : فإن أردت السّلامة فاذكر الخالق لا المخلوق فيصير لك مكان الغيبة عبرة ومكان الإثم ثواباً » .

✡ (بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة) ✡

إعلم أنّ مساوي الأخلاق كلّها إنّما تعالج بمعجون العلم و العمل و إنّما علاج كلّ علّة بمضادّة سببها فلنفحص عن سببها ، و علاج كفّ اللّسان عن الغيبة على وجهين أحدهما على الجملة و الآخر على التفصيل ، أمّا على الجملة فهو أن يعلم تعرّضه لسخط الله بغيبته بهذه الأخبار الّتي رويناها أن يعلم أنّها محبطة لحسناته فإنّه تنقل يوم القيامة حسناته إلى من اغتابه بدلاً عمّا استباحه من عرضه ، فإن لم تكن له حسنة نقل إليه من سيّئاته و هو مع ذلك متعرّض لسخط الله و مشبه عنده بآكل الميتة بل العبد يدخل النار بأن تترجّح كفّة سيّئاته ، وربّما تنقل إليه سيّئة واحدة ممّن اغتابه فيحصل به الرّجحان و يدخل به النّار وإنّما أقلّ الدّرجات أن ينقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة و السّؤال و الجواب والحساب قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما النّار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنة العبد » [٣] وروي أنّ رجلاً قال لآخر : بلغني أنّك تغتابني ، فقال : ما بلغ من قدرك عندي أنّي اُحكّمك في حسناتي ، فمهما آمن العبد بما وردت به الأخبار لم ينطلق لسانه بالغيبة خوفاً من ذلك وينفعه أيضاً أن يتدبّر في نفسه فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه، و ذكر قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب النّاس »[٤] و مهما وجد عيباً

---

(١) أخرجه احمد ج ٥ ص ٤٥٥ من حديث أبى الطفيل عامر بن واثلة .

(٢) الباب التاسع والاربعون .

(٣) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٤) أخرجه الديلمى فى الفردوس بسند حسن من حديث أنس كما فى الجامع الصغير .

فينبغي أن يستحيي من أن يترك نفسه ويذمّ غيره ، بل ينبغي أن يعلم أنّ عجز غيره عن نفسه في التنزّه عن ذلك العيب كعجزه وهذا إن كان ذلك عيباً يتعلّق بفعله و اختياره ، و إن كان أمراً خلقياً فالذمّ له ذمّ للخالق فإنّ من ذمّ صنعة فقد ذمّ الصانع قال رجل لبعض الحكماء : يا قبيح الوجه ، فقال : ما كان خلق وجهي إليّ فأُحسنه ، و إن لم يجد العبد عيباً في نفسه فليشكر الله و لا يلوّثنّ نفسه بأعظم العيوب فإنّ ثلب الناس و أكل لحوم الميتة من أعظم العيوب بل لو أنصف لعلم أن ظنّه بنفسه أنّه بريء من كلّ عيب جهلٌ بنفسه و هو من أعظم العيوب ، و ينفعه أن يعلم أنّ تألّم غيره بغيبته كتألّمه بغيبة غيره له ، و إذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغي أن لا يرضى لغيره مالا يرضاه لنفسه ، فهذه معالجات جمليّة .

أمّا التفصيل فهو أن ينظر إلى السبب الباعث له على الغيبة فإنّ علاج العلّة بقطع سببها ، و قد قدّمنا الأسباب ؛ أمّا الغضب فيعالجه بما سيأتي في كتاب آفات الغضب و هو أن يقول : إن أمضيت غضبي عليه لعلّ الله يمضي غضبه عليّ بسبب الغيبة إذنهاني عنها و استجرأت على نهيه و استخففت بزجره وقد قال صلّى الله عليه وآله : «إنّ لجهنّم باباً لا يدخله إلّا من شفي غيظه بمعصية الله» (١) .

و قال صلّى الله عليه وآله : « من اتّقى ربّه كلّ لسانه ولم يشف غيظه» (٢) .

و قال صلّى الله عليه وآله : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتّى يخيّره في أيّ الحور شاء » (٣) .

و في بعض كتب الله « يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق » .

وأمّا الموافقة فبأن تعلم أنّ الله يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضى المخلوقين

(١) أخرجه البزار وابن ابى الدنيا وابن عدى والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس .

(٢) أخرجه ابن ابى الدنيا فى التقوى عن سهل بن سعد بسند ضعيف (الجامع الصغير) .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٨٦ وقوله « كظم غيظاً » اى حبس نفسه عن اجراء مقتضاه ، و « يمضيه » اى قادر على أن يأتى بمقتضاه و فى المصدر « ينفذه » مكان « يمضيه » ، وأخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٤٨ .

فكيف ترضى لنفسك أن توقّر غيرك و تحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلّا أن يكون غضبك لله وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء، بل ينبغي أن تغضب لله على رفقائك إذ ذكروه بالسّوء فإنّهم عصوا ربّك بأفحش الذّنوب و هي الغيبة.

و أمّا تنزيه النّفس بنسبة الخيانة إلى الغير حيث تستغني عن ذكر الغير فمعالجته بأن تعرف أنّ التعرّض لمقت الخالق أشدّ من التعرّض لمقت الخالق وأنت بالغيبة متعرّض لسخط الله يقيناً ولاتدري أنّك تتخلّص من سخط النّاس أم لافتخلّص نفسك في الدّنيا بالتوهّم و تهلك في الآخرة و تخسر حسناتك بالحقيقة و تحصل ذمّ الله لك نقداً وتنتظر دفع ذمّ الخلق نسيئة و هذا غاية الجهل والخذلان.

و أمّا عذرك كقولك: إنّي إن أكلت الحرام ففلان يأكله، و إن قبلت مال السلطان ففلان يقبله، فهذا جهل لأنّك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فإنّ من خالف أمر الله لا يقتدي به كائناً من كان و لو دخل غيرك النّار وأنت تقدر على أن لاتدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفّه عقلك ففيماذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجّلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك و غباوتك و كنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردي نفسها من الجبل فهي أيضاً تردي نفسها من الجبل ولو كان لها لسان ناطق وصرحت بالعذر و قالت: العنز أكيس منّي وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثمّ لاتتعجّب ولاتضحك من نفسك.

و أمّا قصدك المباهاة و تزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك فينبغي أن تعلم أنّك بما ذكرته أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر، وربّما نقص اعتقادهم فيك إذ عرفوك بثلب الناس (١) فتكون قد بعت ماعند الخالق يقيناً بما عند المخلوقين وهماً، ولوحصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئاً.

و أمّا الغيبة للحسد فهو جمع بين عذابين لأنّك حسدته على نعمة الدّنيا

(١) ثلبه من باب ضرب اى عابه، لامه، اغتابه، سبه، طرده.

و كنت فيها معذّباً بالحسد فما قنعت بذلك حتّى أضفت إليه عذاباً في الآخرة فكنت خاسراً في الدّنيا فجعلت نفسك أيضاً خاسراً في الآخرة لتجمع بين نكالين فقدقصدت محسودك فأصبت نفسك و أهديت إليه حسناتك ، فإذاً أنت صديقه و عدوّ نفسك إذ لا تضرّه غيبتك و تضرّك ، و تنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيّئاته ولاتنفعك ، فقد جمعت إلى خبث الحسدجهل الحماقة ، وربّما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك فقد قيل :

و إذا أراد الله نشر فضيلة ✿ طويت أتاح لها لسان حسود

و أمّا الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة و النبيّين فلو تفكّرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم تحمل سيّئات من استهزأت به و تساق إلى النّار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك و لو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك فإنّك سخرت به عندنفر قليل و عرضت نفسك لأن يأخذ بيدك في القيامة على ملأ من النّاس و يسوقك تحت سيّئاته كما يساق الحمار إلى النّار مستهزءاً بك و فرحاً بخزيك و مسروراً بنصر الله تعالى إيّاه و تسليطه على الانتقام منك .

و أمّا الرّحمة له على إثمه فهو حسن ولكن حسدك إبليس فاستنطقك بماتنقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبراً لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوماً وتنقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً إذ أحبط أجرك ونقصت من حسناتك و كذلك الغضب لله لا يوجب الغيبة وإنّما الشيطان حبّب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وعملك و تصير متعرّضاً لمقت الله تعالى بالغيبة .

و أمّا التعجّب إذا أخرجك إلى الغيبة فينبغي أن تتعجّب من نفسك أنّك كيف أهلكت دينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدّنيا وهو أن يهتك الله سترك كماهتكت بالتعجّب ستر أخيك فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقطّ والتحقّق بهذه الأُمور الّتي هي من أبواب الإيمان فمن قوي إيمانه بجميع ذلك انكفّ لسانه عن الغيبة لامحالة .

☼(بيان تحريم الغيبة بالقلب)☼

إعلم أنَّ سوء الظنّ حرامٌ مثل سوء القول ، وكما يحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بمساوي الغير فليس لك أن تحدّث نفسك بذلك و لا تسيء الظنّ بأخيك ، ولست أعني به إلاّ عقد القلب و حكمه على غيره بالسّوء ، و أمّا الخواطر و حديث النفس فهو معفوٌ عنه بل الشكّ أيضاً معفو عنه ، ولكنّ المنهيّ عنه أن تظنّ و الظنُّ عبارة عمّا تركن إليه النّفس وتميل إليه القلب و قد قال تعالى(١): « اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم » و سبب تحريمه أنّ أسرار القلوب لا يعلمها إلاّ علاّم الغيوب فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلاّ إذا انكشف لك بعيان لا يحتمل التأويل فعند ذلك لا يمكنك أن لا تعتقد ما علمته وشاهدته و مالم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأُذنك ثمّ وقع في قلبك فإنّما الشيطان يلقيه إليك فينبغي أن تكذّبه فإنّه أفسق الفسّاق و قد قال الله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة » (٢) فلا يجوز تصديق إبليس و إن كان ثمّة مخيلة تدلّ على فساد و احتمل خلافه لم يجز أن تصدّق به و إن كان الفاسق يتصوّر أن يصدّق في خبره و لكن لا يجوز لك أن تصدّق به حتّى أنّ من استنكه فوجد في فيه رائحة الخمر لا يجوز أن يحدّ إذ يقال : يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر و مجّه و ما شربه أو حمل عليه قهراً ، فكلّ هذه دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظنّ بالمسلم بها ، فقد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ الله حرّم من المسلم دمه و ماله وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السّوء » (٣) فلا يستباح ظنّ السّوء إلاّ بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بيّنة عادلة فإذا لم يكن ذلك وخطر لك سوء الظنّ فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرّر عليها أنّ حاله عندك مستور كما كان فإنّ ما رأيته فيه يحتمل الخير والشرّ .

---

(١) و(٢) الحجرات : ١٢ و ٦ .

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف (المغني) و لا بن ماجه نحوه من حديث ابن عمر تحت رقم ٣٩٣٢ .

فإن قلت : فبماذا يعرف عقد سوء الظنّ و الشكوك تختلج و النفس تحدث؟ فأقول : أمارة عقد سوء الظنّ أن يتغيّر القلب معه عمّا كان فينفر عنه نفوراً لم يعهده و يستثقله ويفترعن مراعاته و تفقّده و إكرامه و الاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظنّ و تحقيقه ، وقد قال صلّى الله عليه وآله : « ثلاث في المؤمن لا يستحسن وله منهنّ مخرج فمخرجه من سوء الظنّ أن لا يحقّقه »[١] أي لا يحقّقه في نفسه بعقد و لا فعل لا في القلب ولا في الجوارح ، أمّا في القلب فبتغيّره إلى النفرة والكراهة ، و في الجوارح بالعمل بموجبه والشيطان قد يقدر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ويلقي إليه أنّ هذا من فطنتك و سرعة تنبّهك و ذكائك و أنّ المؤمن ينظر بنور الله و هو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته ، فأمّا إذا أخبرك به عدل فمال ظنّك إلى تصديقه كنت معذوراً لأنّك لو كذّبته لكنت جانياً على هذا العدل إذ ظننت به الكذب وذلك أيضاً من سوء الظنّ فلا ينبغي أن تحسن الظنّ بواحد و تسيء بالآخر نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة و مقت فتتطرّق التهمة بسببه وقد ردّ الشرع شهادة العدوّ على عدوّه للتهمة[٢] فلك عند ذلك أن تتوقّف في إخباره وإن كان عدلاً فلا تصدّقه ولا تكذّبه ولكن تقول في نفسك : المذكور حاله كان في ستر الله عنّي و كان أمره محجوباً وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره ، وقد يكون الرّجل ظاهره العدالة و لا محاسدة بينه و بين المذكور ولكن يكون من عادته التعرّض للنّاس بذكر مساويهم فهذا قد يظنّ أنّه عدل وليس بعدل فإنّ المغتاب فاسق ، و إذا كان ذلك من عادته ردّت شهادته إلّا أنّ الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق . و مهما خطر لك خاطر سوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته و تدعو له بالخير فإنّ ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي

---

(١) أخرجه الطبرانى من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف كما فى المغنى

(٢) أخرج ابوداود ج ٢ ص ٢٧٥ « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردشهادة الخائن والخائنة ، و ذى الغمر على أخيه ، وردشهادة القانع لاهل البيت وأجازها لغيرهم » والقانع : الاجير التابع مثل الاجير الخاص ، وايضاً راجع الكافى ج ٧ ص ٣٩٥ باب ما يرد من الشهود .

إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدّعاء و المراعاة ، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجّة فانصحه في السرّ و لا يخدعنّك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه و إذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرورٌ باطّلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم و تنظر إليه بعين الاستصغار و ترتفع عليه بدلالة الوعظ ولكن قصدك تخليصه من الإثم و أنت حزين كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك وينبغي أن يكون تركه ذلك من غير نصيحتك أحبُّ إليك من تركه بالنّصيحة فإذا أنت فعلت ذلك كنت جمعت بين أجر الوعظ و أجر الغمّ بمصيبته و أجر الإعانة له على دينه ، ومن ثمرات سوء الظنّ التجسّس فإنّ القلب لا يقنع بالظنّ و يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسّس وهو أيضاً منهيٌّ عنه ، قال الله تعالى : «ولاتجسّسوا» فالغيبة وسوء الظنّ والتجسّس منهيٌّ عنها في آية واحدة ومعنى التجسّس أن لاتترك عباد الله تحت ستر الله فتتوصّل إلى الاطّلاع و هتك الستر حتّى ينكشف لك ما لو كان مستوراً عنك لكان أسلم لقلبك و لدينك ، و قد ذكرنا في كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حكم التجسّس وحقيقته .

✡(بيان الاعذار المرخصة فى الغيبة)✡

إعلم أنّ المرخّص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصّل إليه إلّا به فيدفع ذلك إثم الغيبة وهي ستّة اُمور :

الأوّل التظلّم فإنّ من ذكر قاضياً بالظلم و الخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً عاصياً أمّا المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلّم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لايمكنه استيفاء حقّه إلّا به و قد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لصاحب الحقّ مقال » [١] و قال : « مطل الغني ظلم» [٢] وقال : «ليُّ الواجد يحلُّ عرضه وعقوبته» [٣].

---

(١) و (٢) أخرجه مسلم والبخارى من حديث ابى هريرة وقدتقدما .

(٣) أخرجه ابوداود وابن ماجه تحت رقم ٢٤٢٧ من حديث الشريد ، « ولى الواجد » اى مطله . والواجد : القادر على الاداء وقوله صلى الله عليه وآله : «ويحل عرضه وعقوبته» اى الذى يجد مايؤدى يحل عرضه للدائن بان يقول : ظلمنى ، وعقوبته بالحبس والتعزير كذا فى هامش السنن .

الثاني الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح و إنّما إباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراماً .

الثالث الاستفتاء كما يقول للمفتي : قد ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي فكيف طريقي في الخلاص ؟ و الأسلم التعريض بأن يقول : ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو زوجته ، ولكنّ التعيين مباح بهذا القدر لما روي عن هند أنّها قالت للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّ أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني إيّاي و ولدي أفآخذ من غير علمه ؟ قال : خذي ما يكفيك و ولدك بالمعروف »(١) فذكرت الشحّ و الظلم لها و لولدها ولم يزجرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء .

الرابع تحذير المسلمين من الشرّ فإذا رأيت متفقّهاً يتردّد إلى أهل الشرّ أو مبتدع أو فاسق و خفت أن يتعدّى إليه بدعته فلك أن تكشف له بدعته و فسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة إلى غيرهم وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ، ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق ، و كذلك من اشترى مملوكاً وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك فإنّ في سكوتك ضرراً على المشتري وفي ذكرك ضرر على العبد ، والمشتري أولى بمراعاة جانبه ، و كذلك المزكّي إذا سئل عن الشاهد فله الطعن إن علم مطعناً ، و كذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة ، و إن علم أنّه يترك التزويج بمجرّد قوله : لا يصلح لك فهو الواجب ، فإن علم أنّه لا ينزجر إلّا بالتصريح بعيبه فله أن يصرّح به ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أترعون عن ذكر الفاجر حتّى لا يعرفه النّاس ، اذكروه بما فيه يحذره النّاس »(٢) و كانوا يقولون : ثلاثة لا غيبة لهم : الإمام الجائر و المبتدع و المجاهر بفسقه .

---

(١) أخرجه مسلم والبخارى ج ٧ ص ٨٥ .

(٢) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت فى ذم الغيبة والحكيم فى نوادر الاصول والحاكم فى الكنى والشيرازى فى الالقاب كما فى الجامع الصغير .

الخامس أن يكون الانسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج و الأعمش فلا إثم على من يقول روى أبو الزّناد عن الأعرج و سلمان عن الأعمش و ما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف و لأنّه صار ذلك بحيث لا يكرهه صاحبه لوعلمه بعد أن صار مشهوراً به ، نعم لو وجد عنه معدلاً و أمكنه التعريف بعبارة اُخرى فهو أولى ولذلك يقال للأعمى : البصير ، عدولاً عن اسم النقص .

السّادس أن يكون مجاهراً بالفسق كالمخنّث و صاحب الماخور[1] والمجاهر بشرب الخمر و مصادرة النّاس و كلُّ من يتظاهر بالفسق بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به ، فاذا ذكر فيه مايتظاهر به فلا إثم قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلاغيبة له »[2] و ذلك لأنّه ربّمايتفاخر به فكيف يكره ذلك و هويقصد إظهاره ، نعم لو ذكره بغير مايتظاهر به أثم .

أقول : قال السيّد العلاّمة فضل الله بن عليّ الحسنيّ في شرح الشهاب في تفسير قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ليس لفاسق غيبة » : إنّ الغيبة ذكر الغائب بما فيه من عيب من غير حاجة إلى ذكره ثمّ قال : فأمّا إذا كان يغتاب فاسقاً فانّه ليس ما يذكر به غيبة و إنّما يسمّى ما يذكر في غيبته غيبة إذا كان تائباً نادماً فأمّا إذا كان مصرّاً عليه فليس بغيبة كيف و هو يرتكب ما يغتاب به جهاراً . انتهى كلامه .

و يؤيّده الأخبار و كلام أهل اللّغة قال الجوهري : الغيبة أن تتكلّم خلف إنسان مستور بما يغمّه لو سمعه فإن كان صدقاً سمّي غيبة و إن كان كذباً سمّي بهتاناً ، و عن الصادق عليه السلام : «الغيبة أن تقول في أخيك ما ستر الله عليه و أمّا الأمر الظاهر فيه مثل الحدّة و العجلة فلا ، و البهتان أن تقول فيه ما ليس فيه»[3].

و عن أبي الحسن عليه السلام « من ذكر رجلاً من خلفه بما هو فيه ممّا لا يعرفه النّاس اغتابه ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته »[4].

---

(١) اى مجلس الفساق .

(٢) أخرجه البيهقى وضعفه عن أنس كمافى الدر المنثور ج ٦ ص ٩٧ .

(٣) و (٤) الكافى ج ٢ ص ٣٥٨ .

(بيان كفّارة الغيبة)

إعلم أنّ الواجب على المغتاب أن يندم و يتوب ويتأسّف على ما فعله ليخرج به عن حقّ الله ثمّ يستحلّ المغتاب ليحلّه فيخرج عن مظلمته و ينبغي أن يستحلّه وهو حزين متأسّف نادمٌ على ما فعله إذ المرائي قد يستحلّ ليظهر من نفسه الورع و في الباطن لايكون نادماً فيكون قدقارف معصية اُخرى . و قيل : يكفيه الاستغفار دون الاستحلال و ربّما يحتجّ في ذلك بما روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « كفّارة من اغتبته أن تستغفر له » (١) و قال مجاهد : كفّارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير .

و سئل بعضهم عن التوبة عن الغيبة فقال : تمشي إلى صاحبك و تقول : كذبت فيما قلت ، وظلمت وأسأت فإن شئت أخذت بحقّك و إن شئت عفوت ، و هذا هو الأصحّ . وقول القائل : « العرض لاعوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال» كلام ضعيف إذقدوجب في العرض حدّ القذف وتثبت المطالبة به بل في الحديث الصحيح ما روي أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : « من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هنالك دينارٌ ولا درهمٌ إنّما يؤخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنة اُخذ من سيّئات صاحبه فزيدت على سيّئاته » (٢).

أقول : الكلام الصحيح الجامع بين الأخبار و الأقوال الواردة في هذا الباب ما قاله الصادق عليه السلام أنّه « إن اغتبت فبلغ المغتاب فاستحلّ منه وإن لم تبلغه فاستغفر الله له » (٣) وذلك لأنّ في الاستحلال مع عدم البلوغ إليه أثارة للفتنة وجلب للضغاين وفي حكم من لم يبلغه من لم يقدر على الوصول إليه بموت أوغيبة .

قال أبوحامد : فإن كان غائباً أو ميّتاً فينبغي أن يكثر الاستغفار له و الدّعاء و يكثر من الحسنات فإن قلت : فالتحليل هل يجب ؟ فأقول : لا لأنّه نوع تبرّع و التبرّع فضل و ليس بواجب ولكنّه مستحسنٌ و سبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء

(١) أخرجه ابن ابى الدنيافى الصمت بسند صحيح عن انس كما فى الجامع الصغير .
(٢) أخرجه أحمد فى المسند ج ٢ ص ٥٠٦ من حدبث أبى هريرة .
(٣) مصباح الشريعة الباب التاسع والاربعون .

عليه و التودّد إليه و يلازم ذلك حتّى يطيب قلبه فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره و تودّد حسنة محسوبة له يقابل بها سيّئة الغيبة في القيامة فكان بعض السلف لايحلّل الظالم ، قال سعيد بن المسيّب : لا اُحلّل من ظلمني . وقال ابن سيرين : إنّي لم اُحرّمها عليه فاحلّلها له ، إنّ الله حرّم الغيبة عليه وما كنت لاُحلّل ما حرّم الله أبداً .

فإن قلت : فما معنى قول رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم : « وينبغي أن يستحلّها » وتحليل ما حرّمه الله غير ممكن ؟ فنقول : المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالاً ، وما ذكره ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة فإنّه لايجوز له أن يحلل لغيره الغيبة .

فإن قلت : فما معنى قول رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم : « أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال : اللّهمّ إنّي قد تصدّقت بعرضي على الناس »(١) فكيف يتصدّق بالعرض و من تصدّق به فهل يباح تناوله فإن كان لاتنفذ صدقته فما معنى الحثّ عليه ؟ فنقول : معناه إنّي لا أطلب مظلمة في القيامة منه و لا اُخاصمه وإلّا فلاتصير الغيبة حلالاً به ولاتسقط المظلمة عنه لأنّه عفو قبل الوجوب إلّا أنّه وعد وله العزم على الوفاء بأن لايخاصم فإن رجع وخاصم كان قياسه قياس سائر الحقوق و إنّ له ذلك ، بل صرّح الفقهاء بأنّ من أباح القذف لم يسقط حقّه من حدّ القذف ، و مظلمة الآخرة مثل مظلمة الدّنيا ، و على الجملة فالعفو أفضل فقد ورد : إذا جثت الاُمم بين يدي الله عزّ و جلّ يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله ، فلا يقوم إلّا من عفا عن مظلمته في الدّنيا ، و قد قال الله تعالى : « خذ العفو و أمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم : يا جبرئيل ما هذا العفو ؟ فقال : إنّ الله يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك »(٢) .

و روي عن بعضهم أنّ رجلاً قال له : إنّ فلاناً قد اغتابك ، فبعث إليه طبقاً من الرّطب و قال : بلغني أنّك أهديت إليّ من حسناتك فأردت أن اُكافيك عليها فاعذرني فإنّي لا أقدر أن اُكافيك على التمام .

---

(١) أخرجه ابن السنى فى العمل اليوم والليلة ص ١٨ ، من حديث أنس .

(٢) تقدم مراراً فى كتاب رياضة النفس وغيره .

☼(الآفة السادسة عشر النميمة)☼

قال الله تعالى : « همّاز مشّاء بنميم ☼ منّاع للخير معتد أثيم ☼ عتلّ بعد ذلك زنيم »[١] قال عبدالله بن المبارك : الزنيم ولد الزّنى الّذي لا يكتم الحديث ، وأشار به إلى أنّ كلّ من لا يكتم الحديث ومشى بالنميمة دلّ على أنّه ولد الزّنى ، استنباطاً من قوله تعالى : « عتلّ بعد ذلك زنيم » و الزنيم هو الدّعي .

وقال تعالى : « ويل لكلّ همزة لمزة »[٢] قيل : الهمزة : النّمام ، واللّمزة : المغتاب ، وقال تعالى : « حمّالة الحطب »[٣] قيل : إنّها نمّامة حمّالة للحديث .

و قال تعالى : « فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً »[٤] قيل : كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان ، وامرأة نوح كانت تخبر أنّه مجنون ، وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لا يدخل الجنّة نمّام » و في حديث آخر « لا يدخل الجنّة قتّات ، و القتّات هو النمّام »[٥] .

وعنه صلّى الله عليه وآله وسلّم : «أحبّكم إلى الله أحاسنكم أخلاقاً الموطؤن أكنافاً الّذين يألفون و يؤلفون ، وإنّ أبغضكم إلى الله المشّاؤن بالنميمة بين الأحبّة ، المفرّقون بين الأحزاب ، الملتمسون للبرآء العثرات»[٦] .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ألا اُخبركم بشرار كم ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : المشّاؤن بالنميمة ، المفسدون بين الأحبّة ، الباغون للبرآء العيب»[٧] .

---

(١) القلم : ٦٨ الى ٧٠ والهماز : العياب ، والعتل : الفظ الغليظ ، و الزنيم : المعلق بالقوم وليس منهم .

(٢) الهمزة : ٢ . (٣) اللهب : ٤ .

(٤) التحريم : ٦٦ .

(٥) أخرجه البخارى ومسلم وابوداود ج ٢ ص ٥٦٧ والترمذى ج ٨ ص ١٨٢ من حديث حذيفة .

(٦) أخرجه الطبرانى فى الصغير والاوسط دون قوله : «المفرقون بين الاحزاب الخ» من حديث أبى هريرة ، والبزار من حديث ابن مسعود باختصار .

(٧) أخرجه احمد فى المسند ج ٦ ص ٥٥٩ من حديث اسماء بنت يزيد .

و قال أبوذرّ : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حقّ شانه الله في النار يوم القيامة » (١).

و قال أبو الدّرداء قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أيّما رجل أشاع على رجل كلمة و هو منها بريء ليشينه بها في الدّنيا كان حقّاً على الله عزّ وجلّ أن يذيبه بها يوم القيامة في النار » (٢).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله تعالى لمّا خلق الجنّة قال لها : تكلّمي ، فقالت : سعد من دخلني ، قال الجبّار جلّ جلاله : وعزّتي وجلالي لايسكن فيك ثمانية نفر من النّاس : لايسكنك مدمن خمر ، ولامصرّ على الزّنى ، ولاقتّات وهو النمّام ، ولا ديّوث ، ولاشرطيّ ، ولا مخنّث ، ولاقاطع رحم ، ولاالّذي يقول عليّ عهدالله أن أفعل كذا و كذا ثمّ لم يف به » (٣).

أقول : ومن طريق الخاصّة ما روّيناه عن الصادق عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : « شرار كم المشّاؤن بالنميمة المفرّقون بين الأحبّة المبتغون للبرآء المعايب » (٤).

وعن الباقر عليه السلام قال : « الجنّة محرّمة على المغتابين والمشّائين بالنميمة » (٥).

قال أبو حامد : وروى كعب أنّه أصاب بني إسرائيل قحطٌ فاستسقى موسى مرّات فما اُجيب فأوحى الله تعالى إليه أنّي لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمّام قد أصرّ على النميمة ، فقال موسى : يا ربّ من هو حتّى نخرجه من بيننا ؟ فقال : يا موسى أنهاكم عن النميمة و أكون نمّاماً فتابوا بأجمعهم فسقوا .

و يقال : اتبع رجلٌ حكيماً سبعمائة فراسخ في سبع كلمات فلمّا قدم عليه قال : إنّي جئتك للّذي آتاك الله من العلم فأخبرني عن السماء و ما أثقل منها ، وعن الأرض و ما أوسع منها ، وعن الحجر و ما أقسى منه ، وعن النّار و ما أحرّ منها ،

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب بسند حسن كما في الجامع الصغير .
(٢) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت موقوفاً على ابى الدرداء كما فى المغنى .
(٣) لم أجده هكذا بتمامه ولكن مضمون جملاته مخرج في المصادر راجع المغنى .
(٤) و (٥) الكافى ج ٢ ص ٣٦٩ .

و عن الزمهرير و ما أبرد منه ، و عن البحر و ما أغنى منه ، و عن اليتيم و ما أذلّ منه ؟ قال : البهتان على البريء أثقل من السماوات ، و الحقّ أوسع من الأرض ، و القلب القانع أغني من البحر ، و الحرص و الحسد أحرّ من النّار ، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزّمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمّام إذا بان أمره أذلّ من اليتيم . ويقال : إنّ ثلث عذاب القبر من النميمة .

✡(بيان حد النميمة وما يجب في ردها)✡

إعلم أنّ اسم النميمة إنّما يطلق في الأكثر على من ينمّ قول الغير إلى المقول فيه كما يقال فلان يتكلّم فيك بكذا و كذا وليست النميمة مخصوصة بالمقول فيه بل حدّها كشف مايكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث ، و سواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرّمز أو الايماء ، و سواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاناً على المنقول عنه أولم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السرّ وهتك الستر عمّا يكره كشفه ، بل كلّ مارآه الانسان من أحوال الناس ممّا يكره فينبغي أن يسكت عنه إلّا ما في حكايته فائدة لمسلم أودفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحقّ المشهود له فأمّا إذا كان رآه يخفي مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة و إفشاء للسرّ فإن كان ما ينمّ به نقصاناً وعيباً في المحكيّ عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة .

و الباعث على النميمة إمّا إرادة السوء بالمحكي عنه و إظهار الحبّ للمحكي له ، أو التفرّج بالحديث ، أو الخوض في الفضول . و كلّ من حملت إليه النميمة وقيل له : إنّ فلاناً قال فيك كذا و كذا أو فعل فيك كذا و كذا أوهو يدبّر في إفساد أمرك أو في ممالاة عدوّك أو في تقبيح حالك اوما يجري مجراه فعليه بستّة اُمور :

الأوّل أن لا تصدّقه لأنّ النمّام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى : «يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة» (١) .

(١) الحجرات : ٦ .

الثاني أن تنهاه عن ذلك وينصحه ويقبّح له فعله قال الله تعالى : «وأمر بالمعروف وانه عن المنكر»[١] .

الثالث أن تبغضه في الله فإنّه بغيض عند الله ، ويجب بغض من يبغضه الله .

الرّابع أن لا تظنّ بأخيك الغائب السوء لقوله تعالى «اجتنبوا كثيراً من الظنّ» .

الخامس أن لا يحملك ما حكي لك على التجسّس والبحث ليتحقّق قال الله تعالى : «ولا تجسّسوا» .

السادس أن لا ترضى لنفسك مانهيت عنه النمّام فلا تحكي نميمة فتقول فلان قد حكى له كذا و كذا فتكون به نمّاماً و مغتاباً ، و تكون قد أتيت بما عنه نهيت .

و قد روي عن عليّ عليه السلام أنّ رجلاً أتاه يسعى إليه برجل ، فقال : يا هذا نحن نسأل عمّا قلت فإن كنت صادقاً مقتناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، فإن شئت أن نقيلك أقلناك ؟ قال : أقلني يا أمير المؤمنين »[٢] .

و ذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه وأ خبره بخبر عن غيره فقال له الحكيم : قد أبطأت عن الزّيارة و أتيتني بثلاث جنايات بغّضت إليّ أخي وشغلت قلبي الفارغ ، و اتّهمت نفسك الأمينة .

و روي أن سليمان بن عبد الملك كان جالساً و عنده الزّهري فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغني أنّك وقعت فيّ وقلت كذا و كذا ، فقال الرّجل : ما فعلت ولا قلت ، فقال سليمان : إنّ الّذي أخبرني كان صادقاً ، فقال الزّهري : لا يكون النمّام صادقاً ، فقال سليمان : صدقت إذهب بسلام .

و قال بعضهم : من نمّ إليك نمّ عنك . وهذا إشارة إلى أنّ النمّام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بصداقته ، و كيف لا يبغض وهو لا ينفكّ من الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغلّ و الحسد والنفاق و الإفساد بين الناس و الخديعة وهو ممّن قدسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل قال الله تعالى : « و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل

(١) لقمان : ١٧ .

(٢) رواه المفيد - رحمه الله - في الاختصاص ص ١٤٢ .

و يفسدون في الأرض » (١) و قال عزّ و جلّ : « إنّما السبيل على الّذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ » (٢) والنمّام منهم .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ من شرّ النّاس من اتّقاه النّاس لشرّه » (٣) والنمّام منهم .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لا يدخل الجنّة قاطع » قيل : وما القاطع ؟ قال : هو قاطعٌ بين الناس وهو النمّام (٤) ، وقيل : قاطع الرّحم ، وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال : ما ظنّكم بقوم يحمد الصدق من كلّ طبقة من الناس إلّا منهم .

و السعاية هي النميمة إلّا أنّها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سمّيت سعاية .

وقد قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم : « السّاعي بالنّاس إلى النّاس لغير رشدة » (٥) يعني ليس بولد حلال .

وقال لقمان الحكيم : يا بنيّ أُوصيك بخلال إن تمسّكت بها لم تزل بها سيّداً أبسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللّئيم ، واحفظ إخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك ، وليكن أخدانك من إذا فارقتهم و فارقوك لم تغتبهم و لم يغتابوك .

وقال بعضهم : النميمة مبنيّة على الكذب والحسد والنفاق وهي أثافي الذّل (٦) .

و قال بعضهم : لو صحّ ما نقله النمّام إليك لكان هو المجترىء بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لأنّه لم يقابلك بشتمك ، وعلى الجملة فشرّ النمّام عظيم فينبغي أن يتوقّى ، قال حمّاد بن سلمة باع رجل عبداً فقال للمشتري : ما فيه عيب إلّا النميمة قال : قد رضيت فاشتراه فمكث الغلام أيّاماً ثمّ قال لزوجة مولاه : إنّ زوجك لا يحبّك ، وهو يريد أن يتسرّى عليك و أنا أسحره لك في شعره فقالت : كيف أقدر

---

(١) البقرة : ٢٧ . (٢) الشورى : ٤٢ .

(٣) رواه الكليني في الكافي ج٢ ص٣٢٧ ، والبخاري ومسلم نحوه .

(٤) أخرجه البخاري ج ٨ ص٦ ومسلم ج ٨ ص ٨ من جبير بن مطعم عن ابيه .

(٥) أخرجه الحاكم من حديث ابي موسى هكذا « من سعى بالناس فهو لغير رشدة او فيه شيء منها » .

(٦) الاثافي جمع الاثفية وهي الحجارة التي تنصب وتجعل عليه القدر .

على أخذ شعره ؟ فقال : إذا نام فخذي الموسى و احلقي من قفاه عند نومه شعرات حتّى أسحره عليهافيحبّك ، ثمّ قال للزّوج : إنّ امرأتك اتّخذت خليلاً وتريدأن تقتلك فتناوم لهاحتّى تعرف ذلك ، فتناوم فجاءتهالمرأة بالموسى فظنّ أنّها يقتله فقام فقتلها ، فجاء أهلها و قتلوا الزّوج فوقع القتال بين القبيلتين وطال الأمر بينهم .

(الآفة السابعة عشر كلام ذي اللسانين)

و هو الّذي يأتي هؤلاء بوجه و هؤلاء بوجه ويتردّد بين المتعادين ويكلّم كلّ واحد بكلام يوافقه وقلّما يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عين النفاق .

و قال عمّار بن ياسر : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من كان له وجهان في الدّنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة »(١) .

و عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم : « تجدون من شرّ عباد الله يوم القيامة : ذا الوجهين الّذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث »(٢) وفي لفظ «الّذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »(٣) .

و قال مالك بن دينار : قرأت في التورية بطلت الأمانة والرّجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين ، يهلك الله يوم القيامة كلّ شفتين مختلفتين .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أبغض خليقة الله إليه يوم القيامة : الكاذبون و المستكبرون و الّذين يكثرون البغضاء لإخوانهم في صدورهم فإذا لقوهم تملّقوا لهم و الّذين إذا دعوا إلى الله و رسوله كانوا بطاء وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعاً »(٤) .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه الصدوق بإسناده إلى عليّ عليه السلام قال : « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : يجيء يوم القيامة ذوالوجهين دالعاً لسانه في قفاه وآخر من قدّامه يلتهبان ناراً حتّى يلهبان خدّه ، ثمّ يقال : هذا الّذي كان في الدّنيا ذاوجهين

(١) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٦٧ بسند حسن .

(٢) و (٣) احمد فى مسند ابى هريرة والبخارى ومسلم نحوه كمافى الجامع الصغير وأخرجه ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف كما فى المغنى .

(٤) قال العراقى : لم اقف له على أصل .

وذالسانين يعرف بذلك يوم القيامة »(١).

و بالإسناد إلى الباقر عليه السلام قال : « بئس العبد عبداً يكون ذا وجهين و ذا لسانين يطري أخاه شاهداً و يأكله غائباً ، إن أعطي حسده وإن ابتلي خذله» (٢).

و بالإسناد عنه عليه السلام قال : « بئس العبد عبد همزة لمزة ، يقبل بوجه ويدبر بآخر »(٣).

و بالإسناد قال : «قال الله تعالى لعيسى ابن مريم عليهما السلام : ليكن لسانك في السرّ و العلانية لساناً واحداً و كذلك قلبك ، إنّي اُحذّرك نفسك و كفى بك خبيراً لا يصلح لسانان في فم واحد ولا سيفان في غمد واحد ، و كذلك الأذهان» (٤).

قال أبو حامد : واتّفقوا على أنّ ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها ، وقد روي أنّ رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مات فلم يصلّ عليه حذيفة فقال عمر : يموت رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لا تصلّي عليه ؟ فقال : ياأمير المؤمنين إنّه منهم ، قال : ونشدتك الله أنا منهم أم لا؟ فقال : اللّهمّ لا ولا أؤمن منها أحداً بعدك .

فإن قلت : فبما ذا يصير الرّجل ذا لسانين وما حدّ ذلك ؟ فأقول : إذا دخل على متعادين وجامل كلّ واحد منهما و كان صادقاً فيه لم يكن منافقاً ولاذا لسانين فإنّ الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حدّ الاُخوّة إذ لو تحقّقت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء كما ذكرناه في كتاب آداب الصحبة و الاُخوّة نعم لو نقل كلام كلّ واحد إلى الآخر فهو ذو لسانين وذلك شرّ من النميمة إذ يصير نمّاماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقطّ فإن نقل من الجانبين فهو شرّ من النميمة و إن لم ينقل كلاماً ولكن حسّن لكلّ واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، و كذلك إذا وعد كلّ واحد منهما أنّه ينصره و كذلك إذا أثنى على كلّ واحد منهما في معاداته و كذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمّه فهو ذو لسانين بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحقّ

(١) الى (٤) عقاب الاعمال باب عقاب من كان ذاوجهين وذالسانين .

من المتعادين ويثني في حضوره و في غيبته وبين يدي عدوّه ، قيل لبعض الصّحابة : إنّا ندخل على أُمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره ، فقال : كنّا نعدّ ذلك نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ . و هذا نفاق مهما كان مستغنياً عن الدّخول على الأمير و عن الثناء عليه فلو استغنى عن الدّخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن ، فهو نفاق لأنّه الّذي أحوج نفسه إليه و إن كان يستغني عن الدّخول لو قنع بالقليل وترك المال و الجاه فدخل لضرورة الجاه و الغنى و أثنى فهو منافق وهذا معنى قوله ﷺ : « حبّ المال و الجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » (١) لأنّه يحوّج إلى الأمراء ومراعاتهم ومراءاتهم ، فأمّا إذا ابتلي به لضرورة و خاف إن لم يثن فهو معذور فإنّ اتّقاء الشرّ جائز ، قال أبو الدّرداء : إنّا لنكشر (٢) في وجوه أقوام و إنّ قلوبنا لتبغضهم ، و قالت عائشة : « استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال : ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو فلمّا دخل أقبل عليه و ألان له القول ، فلمّا خرج قالت عائشة : قد قلت بئس رجل العشيرة ثمّ ألنت له القول ؟ فقال : يا عائشة إنّ شرّ النّاس الّذي يكرم اتّقاء لشرّه » (٣).

ولكن هذا ورد في الإقبال و في الكشر و التبسّم و أمّا الثناء فهو كذب صريح فلا يجوز إلّا لضرورة أو إكراه يباح الكذب لمثلها كما ذكرناه في آفة الكذب ، بل لا يجوز الثناء و لا التصديق و تحريك الرّأس في معرض التقرير على كلّ كلام باطل فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر بلسانه و بقلبه فإن لم يقدر فليسكت بلسانه ولينكر بقلبه .

☼(الآفة الثامنة عشر المدح)☼

و هو منهيّ عنه في بعض المواضع أمّا الذّم فهو الغيبة والوقيعة قد ذكرنا

(١) أخرجه ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس بنحوه من حديث ابي هريرة بسند ضعيف كما في المغني .

(٢) كشر عن اسنانه : كشف عنها وابداها عند الضحك وغيره .

(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ وقد تقدم .

حكمها ، و المدح يدخله ستّ آفات أربعة في المادح و اثنتان في الممدوح ، فأمّا المادح فهو أنّه قد يفرط فينتهي الإفراط به إلى الكذب ، الثانية أنّه قد يدخله الرّياء فإنّه بالمدح مظهر للحبّ و قد لا يكون مضمراً له و لا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً ، الثالثة أنّه قد يقول ما لا يتحقّقه ولا سبيل له إلى الاطّلاع عليه . روي أنّ رجلاً مدح رجلاً عند النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ثمّ قال : إن كان لا بدّ أحدكم مادحاً أخاه فليقل أحسب فلاناً و لا أزكّي على الله أحداً حسيبه الله إن كان يرى أنّه كذلك »[1] وهذه الآفة تتطرّق إلى المدح بالأوصاف المطلقة الّتي تعرف بالأدلّة كقوله أنّه متّق و ورع و زاهد و خيّر و ما يجري مجراه ، أمّا إذا قال : رأيته يصلّي باللّيل و يتصدّق و يحجّ فهذه أمور مستيقنة ومن ذلك قوله أنّه عدل رضيّ فإنّ ذلك خفي فلا ينبغي أن يجزم القول به إلّا بعد خبرة باطنة ، الرابعة أنّه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إنّ الله ليغضب إذا مدح الفاسق »[2] وقيل: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يعصى الله في أرضه . و الظالم فاسق ينبغي أن يذمّ ليغتمّ ولا يمدح ليفرح ؛ وأمّا الممدوح فيضرّه من وجهين : أحدهما أنّه يحدث فيه كبراً و إعجاباً وهما مهلكان ، الثاني هو أنّه إذا أثني عليه بالخير فرح به و فتر ورضي عن نفسه و من أعجب بنفسه قلّ تشمّره وإنّما يتشمّر للعمل من يرى نفسه مقصّراً فإذا انطلقت الألسنة بالثناء عليه ظنّ أنّه قد أدرك ولهذا قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « قطعت عنق صاحبك ولو سمعها ما أفلح» وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنّما أمررت على حلقه الموسى »[3] وقال أيضاً لمن مدح رجلاً : « عقرت الرّجل

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢٢٧ ، و ابوداود ج٢ ص ٥٥٤ بأدنى اختلاف فى اللفظ وأخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت بلفظ المصنف .

(٢) أخرجه ابن ابى الدنيا فى ذم الغيبة والبيهقى وأبو يعلى من حديث بريدة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير.

(٣) اخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا كما فى المغنى .

عفرك الله »[1] و قال مطرف : ما سمعت ثناء أو مدحة إلّا تصاغرت إلى نفسي .

وقال زياد بن أبي مسلم : ليس أحدٌ يسمع ثناء عليه أو مدحة إلّا تراءى له الشيطان و لكنّ المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : قد صدق كلاهما أمّا ما ذكره زياد فتلك قلوب العوام ، و أمّا ما قاله مطرف فتلك قلوب الخواص".

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لو مشى رجلٌ إلى رجل بسكّين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه » و قيل : المدح الذّبح وذلك لأنّ المذبوح هو الّذي يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور ، أولأنّ المدح يورث الكبر والعجب وهما مهلكان كالذّبح ولذلك شبّه به فإن سلم المدح من هذه الآفات في حقّ المادح و الممدوح لم يكن به بأس ، بل ربّما كان مندوباً إليه ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الصحابة ولكنّه قال عن صدق و بصيرة و كانوا أجلّ رتبة من أن يورثهم ذلك كبراً وعجباً و فتوراً بل مدح الرّجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر و التفاخر و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أنا سيّدُ ولد آدم و لا فخر »[2] أي لست أقول هذا تفاخراً كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم ، وذلك لأنّ افتخاره كان بالله و بقربه من الله لا بولد آدم وتقدّمه عليهم كما أنّ المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنّما يفتخر بقبوله إيّاه و به يفرح لا بتقدّمه على بعض رعاياه ، وبتفصيل هذه الآفات نقدر على الجمع بين ذمّ المدح و بين الحثّ عليه إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم : « وجبت الجنّة » لما أثنوا على بعض الموتى ثمّ قال : « أنتم شهداء الله في الأرض »[3].

و قال مجاهد : « إنّ لبني آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر أخاه المسلم بخير قالت الملائكة : ولك مثله و إذا ذكره بسوء قالت الملائكة : يا ابن آدم المستور عورته أربع على نفسك و أحمد الله إذ ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

(بيان ما على الممدوح)

إعلم أنّ على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر و العجب

(١) قال العراقي : لم اجده أصلا و كذا الخبر الاتي .

(٢) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤٣٠٨ من حديث ابي سعيد الخدري .

(٣) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٥٢ في حديث طويل عن أنس .

و آفة الفتور و الرّياء ، ولا ينجو عنه إلّا بأن يعرف نفسه و يتأمّل في خطر الخاتمة و دقائق الرّياء وآفات الأعمال و أنّه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولوانكشف له جميع أسراره و ما يجري على خواطره لكفّ المادح عن مدحه ، وعليه أن يظهر كراهة المدح باذلال المادح وإليه الاشارة بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « احثوا التراب في وجوه المدّاحين » (١) وقال سفيان بن عيينة : لا يضرّ المدح من عرف نفسه ، و أثنى على رجل من الصالحين فقال : اللّهمّ إنّ هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني ، و قال آخر لمّا اُثني عليه : اللّهمّ إنّ عبدك هذا قد تقرّب إليّ بمقتك و أنا اُشهدك على مقته .

و قال عليّ عليه السلام لما اُثني عليه « اللّهمّ اغفرلي ما لايعلمون ولاتؤاخذني بما يقولون ، واجعلني خيراً ممّا يظنّون » (٢) .

✿(الآفة التاسعة عشر)✿

الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لاسيّما فيما يتعلّق بالله و صفاته و يرتبط باُمور الدّين فلايقدر على تقويم اللّفظ في اُمور الدّين إلّا العلماء الفصحاء فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزّلل ، ولكنّ الله يعفو عنه لجهالته مثاله ماقال حذيفة : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لا يقل أحد كم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثمّ شئت » (٣) و ذلك لأنّ في العطف المطلق بالواو تشريكا و تسوية وهو على خلاف الاحتراز . و قال ابن عباس : جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يكلّمه في بعض الاُمور فقال : ماشاء الله وشئت فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : أجعلتني لله عدلاً ؟! بل ماشاء الله وحده » (٤) .

وخطب رجل عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن

---

(١) أخرجه أبوداود ج ٢ ص ٥٥٤ ومسلم ج ٨ ص ٢٧٨ من حديث مقداد وقد تقدم .

(٢) أورده الشريف الرضى فى النهج باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام تحت رقم ١٠٠ .

(٣) أخرجه ابو داود ج ٢ ص ٥٩١ هكذا « لا تقولوا ما شاء الله و شاء فلان ولكن قولوا : ماشاء الله ثم شاء فلان » .

(٤) أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة ص ١٨١ من حديث ابن عباس .

يعصهما فقد غوى ، فقال : « قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى »[١]، وكره صلى الله عليه وآله وسلم قوله « و من يعصهما » لأنّه تسوية و جمع .

و عن ابن عباس أنّه قال : إنّ أحدكم يشرك حتّى يشرك بكلبه يقول : لولاه لسرقنا اللّيلة .

و عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أوليصمت »[٢].

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تسمّوا العنب الكرم إنّما الكرم الرّجل المسلم »[٣].

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « لايقولنّ أحدكم عبدي و لا أمتي كلّكم عبيد الله و كلّ نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي ، ولايقول المملوك : ربّي ولا ربّتي ولكن سيّدي وسيّدتي كلّكم عبيد الله و الرّبّ واحد »[٤].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : «لاتقولوا للمنافق سيّدنا فإنّه إن يكن سيّدكم فقد أسخطتم ربّكم »[٥].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : «من قال : أنا بريء من الإسلام فإن كان كاذباً فهو كماقال ، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً»[٦] فهذا و أمثاله ممّا يدخل في الكلام ولا يمكن حصره .

و من تأمّل جميع ما أوردناه من آفات اللّسان علم أنّه إذا أطلق لسانه لم يسلم ، و عند ذلك يعرف سرّ قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من صمت نجا »[٧] لأنّ هذه الآفات كلّها مهالك و معاطب و هي على طريق التكلّم فإن سكت سلم من الكلّ و إن

---

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٢ من حديث عدى بن حاتم .

(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٦٤ من حديث ابن عمر .

(٣) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٤٦ من حديث ابى هريرة .

(٤) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٤٦ و ابن السنى فى اليوم والليلة ص ١٠٥ .

(٥) أخرجه ابن السنى أيضاً ص ١٠٥ .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢١٠٠ من حديث بريدة .

(٧) تقدم عن الترمذى .

تكلّم خاطر بنفسه إلّا أن يوافقه لسان فصيح و علم غزير و ورع حاجز و مراقبة لازمة و تقليل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك و هو مع ذلك لاينفكّ من الخطر، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممّن تكلّم فغنم فكن ممّن سكت فسلم فالسلام إحدى الغنيمتين.

☆(الافة العشرون)☆

☆(سؤال العوام عن صفات الله وعن كلامه وعن الحروف قديمة هي أو محدثة)☆

و حقّهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلّا أنّ ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب، و العاميّ يفرح بأن يخوض في العلم إذ الشيطان يخيّل إليه أنّك من العلماء وأهل الفضل فلايزال يحبّب إليه ذلك حتّى يتكلّم بما هو كفر وهو لا يدري و كلّ كبيرة يرتكبها العاميّ فهو أسلم له من أن يتكلّم في العلم لا سيّما في ما يتعلّق بالله و صفاته و إنّما شأن العوام الاشتغال بالعبادات و الإيمان بما ورد به القرآن والتسليم بما جاء به الرّسل من غير بحث وسؤالهم عن غير ما يتعلّق بالعبادة سوء أدب منهم يستحقّون به المقت من الله تعالى ويتعرّضون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدوابّ عن أسرار الملوك وهو يوجب العقوبة، و كلّ من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدّرجة فهو مذموم فإنّه بالإضافة إليه عاميّ ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ذروني ما تركتكم فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فما نهيتكم عنه فاجتنبوه، و ما أمرتكم به فأتوا منه من استطعتم»(١).

و روي أنّه سأل الناس رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يوماً حتّى أكثروا عليه و أغضبوه، فصعد المنبر فقال: سلوني فلا تسألوني عن شيء إلّا أنبأتكم به، فقام إليه رجل فقال: يارسول الله من أبي؟ فقال: أبوك حذافة، فقام إليه شابّان أخوان قالا: يا رسول الله من أبونا؟ فقال: أبو كما الّذي تدعيان إليه، ثمّ قام إليه رجل آخر فقال: يا رسول الله أنا في الجنّة أو في النّار؟ فقال: لا بل في النّار، فلمّا رأى الناس غضب

(١) اخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢ من سننه من حديث أبي هريرة.

رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أمسكوا» (١).

و في الحديث نهى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «عن القيل و القال و كثرة السؤال و إضاعة المال» (٢).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «يوشك الناس يتساءلون بينهم حتّى يقولوا هذا خلق الله فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا : قل هو الله أحد حتّى تختموا السورة ثمّ ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم» (٣).

و قال جابر : «ما نزلت آية التلاعن إلّا لكثرة السؤال» (٤).

و في قصّة موسى و الخضر صلّى الله عليهما تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال : «فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتّى احدث لك منه ذكراً» فلمّا سأل عن السفينة أنكر عليه حتّى اعتذر و قال : «لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً» (٥) فلمّا لم يصبر حتّى سأل ثلاثاً قال : «هذا فراقُ بيني وبينك» و فارقه . فسؤال العوام عن غوامض الدّين من أعظم الآفات وهي من المثيرات للفتن فيجب ذبّهم و منعهم . وخوضهم في حروف القرآن و نظائر ذلك من العلوم ونظرهم في ذلك يضاهي اشتغال من كتب إليه الملك بكتاب يرسم له فيه اُموراً فلم يشتغل بشيء منه و ضيّع زمانه في أنّ قرطاس الكتاب عتيق أو حديث فاستحقّ به العقوبة لا محالة فكذا تضييع العاميّ حدود القرآن و اشتغاله بحروفه أنّه قديمة أو محدثة و كذا سائر صفات الله .

هذا آخر الكلام في كتاب آفات اللّسان من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء .

و يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفة الغضب والحقد والحسد والحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً والصلاة على محمّد وأهل بيته وسلّم .

---

(١) أخرجه البخارى مختصراً ج ١ ص ٣٤ و مفصلاً ج ٩ ص ١١٧ من حديث أبى موسى و ج ٩ ص ١١٨ من حديث أنس .

(٢) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة وقد تقدم راجع صحيح البخارى ج٩ ص١٢٨.

(٣) أخرج صدره البخارى ج٩ ص١١٩. (٤) أخرجه البزار كما فى المغنى .

(٥) أخرجه البخارى ج١ ص ٤١ و٤٢ . والايات فى سورة الكهف .

كتاب آفة الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي لا يتّكل إلّا على عفوه و رحمته الراجون، و لا يحذر سوى غضبه و سطوته الخائفون، الّذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون، و سلّط عليهم الشهوات و أمرهم بترك ما يشتهون، و ابتلاهم بالغضب و كلّفهم كظم الغيظ فيما يغضبون، ثمّ حفّهم بالمكاره و اللّذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون، و امتحن به حبّهم ليعلم صدقهم فيما يدّعون، و عرفهم أنّه لايخفى عليه شيء ممّا يسرّون و ما يعلنون، وحذّرهم أن يأخذهم بغتة و هم لايشعرون، فقال: «ما ينظرون إلّا صيحة واحدة تأخذهم و هم يخصّمون، فلا يستطيعون توصية و لا إلى أهلهم يرجعون».

و الصلاة على محمّد رسوله الّذي يسير تحت لوائه النبيّون والمتّقون و على آله وأصحابه الأئمّة المهديّين، والسادة المرضيّين، صلاة يوازي عددها عدد ما كان من خلق الله و ما سيكون، ويحظي ببر كتها الأوّلون والآخرون.

أمّا بعد فإنّ الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة إلّا أنّها لا تطّلع إلّا على الأفئدة، و أنّها لمستكنّة في طيّ الفؤاد استكنان الجمر تحت الرّماد، و يستخرجها الكبر الدّفين من قلب كلّ جبّار عنيد كما يستخرج الحجر النار من الحديد. وقد انكشف للناظرين بنور اليقين أنّ الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللّعين فمن استفزّته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال: «خلقتني من نار وخلقته من طين» (١) فمن شأن الطين السكون و الوقار و شأن النار التلظّي والاستعار و الحركة و الاضطراب و الاضطهار و منه قوله تعالى: «يصهر به ما في

(١) الاعراف: ١٢.

بطونهم »[١] و من نتائج الغضب الحقد و الحسد و بهما هلك من هلك و فسد من فسد ، و مغيظهما مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا كان الحقد والحسد و الغضب ممّا يسوق العبد إلى مواطن العطب فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساويه ليحذره و يتّقيه و يميطه[٢] عن القلب إن كان فيه ويعالجه إن يلج في قلبه ويداويه فإنّ من لا يعرف الشرّ يقع فيه و من عرفه فالمعرفة لا تكفيه ما لم يعرف الطريق الّذي به يدفع الشرّ و يقصيه . و نحن نذكر ذمّ الغضب و آفات الحقد و الحسد في هذا الكتاب . ويجمعها بيان ذمّ الغضب ، ثمّ بيان حقيقة الغضب ودرجاته ، ثمّ بيان أنّ الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرّياضة أم لا ، ثمّ بيان الأسباب المهيّجة للغضب ، ثمّ بيان علاج الغضب بعد هيجانه ، ثمّ بيان فضيلة كظم الغيظ ، ثمّ بيان فضيلة الحلم ، ثمّ بيان القدر الّذي يجوز الانتصار و التشفّي به من الكلام ، ثمّ القول في معنى الحقد و نتائجه و فضيلة العفو و الرّفق ، ثمّ القول في ذمّ الحسد و في حقيقته و أسبابه و معالجته و غاية الواجب في إزالته ، ثمّ بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال و الأقران و الاخوة و بني الأعمام والأقارب و تأكّده و قلّته في غيرهم و ضعفه ، ثمّ بيان الدّواء الّذي به ينفي مرض الحسد عن القلب ، ثمّ بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب .

✿(بيان ذم الغضب)✿

قال الله تعالى : « إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل الله سكينته على رسوله - الآية - »[٣] ذمّ الكفّار بما تظاهروا به من الحميّة الصادرة عن الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنعم الله عليهم من السكينة .

و روي «أنّ رجلاً قال : يا رسول الله مرني بعمل و أقلل ، قال : لا تغضب ،

---

(١) الحج : ٢٠ . وقوله تعالى : « يصهر » اى يذاب .

(٢) الاماطة : الازالة .

(٣) الفتح : ٢٦. والحمية : الانفة والغضب .

ثمّ أعاد عليه ، فقال : لا تغضب » (١) وعنه صلى الله عليه وآله وسلم « أنّه سئل ما ذا يبعد عن غضب الله قال : لا تغضب » (٢).

و قال ابن مسعود : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « ماتعدّون الصرعة فيكم ؟ قلنا : الّذي لا يصرعه الرّجال ، قال : ليس ذلك ولكنّ الّذي يملك نفسه عند الغضب » (٣).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس الشّديد بالصرعة إنّما الشّديد من يملك نفسه عند الغضب » (٤).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « من كفّ غضبه ستر الله عورته » (٥).

و قال سليمان بن داود : « يا بنيّ إيّاك و كثرة الغضب فإنّ كثرة الغضب تستخفّ فؤاد الرّجل الحليم » .

و عن عكرمة في قوله تعالى : « و سيّداً و حصوراً » (٦) قال السيّد الّذي لا يغلبه الغضب .

و قال أبو الدّرداء : قلت : « يارسول الله دلّني على عمل يدخلني الجنّة ، قال : لا تغضب » (٧).

و قال يحيى لعيسى عليهما السلام : لاتغضب قال : لا أستطيع ألّا أغضب ، إنّما أنا بشرٌ

---

(١) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٣٥ ، ورواه احمد في المسند والطبراني في الاوسط كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٩.

(٢) أخرجه احمد و فيه ابن ابي لهيعة وهولين الحديث كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٩ .

(٣) اخرجه مسلم ج ٨ ص ٣٠ .

(٤) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٣٤ و رواه الطبراني في الاوسط بسند ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٠ .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن أبي هريرة و ابن عمر بسند ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٠ .

(٦) آل عمران : ٣٩ والحصور الذي لا يأتي النساء من العفة والاجتهاد في ازالة الشهوة . او من المرض اي العنة .

(٧) اخرجه ابن ابي الدنيا بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

قال : لاتقتَنِ مالاً (*) ، قال : هذا عسى إن شاء الله تعالى .

و قال صلى الله عليه وآله : « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » [1].

و قال صلى الله عليه وآله : « ما غضب أحدٌ إلّا أشفى على جهنّم » [2].

و قال رجلٌ : « يا رسول الله أيّ شيءٍ أشدّ عليّ ؟ قال : غضب الله ، قال : فما يبعدني من غضب الله ؟ قال : لاتغضب » [3].

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخلّ العسل » [4].

و عن ميسرة قال : ذكر الغضب عند أبي جعفر عليه السلام فقال : « إنّ الرّجل ليغضب فما يرضى أبداً حتّى يدخل النار ، فأيّما رجل غضب على قوم و هو قائم فيجلس من فوره ذلك فإنّه سيذهب عنه رجز الشيطان ، وأيّما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه فليمسّه فإنّ الرّحم إذا مسّت سكنت» [5].

و عن أبي حمزة الثمالي عنه عليه السلام قال : « إنّ هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في جوف ابن آدم و إنّ أحدكم إذا غضب احمرّت عيناه و انتفخت أوداجه و دخل الشيطان فيه ، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض فإنّ رجز الشيطان يذهب عنه عند ذلك » [6]

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « الغضب مفتاح كلّ شرّ » [7].

وعنه عليه السلام قال : «سمعت أبي يقول : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله رجلٌ بدويٌّ فقال: إنّي أسكن البادية فعلّمني جوامع الكلم ، فقال : آمرك أن لا تغضب ، فأعاد الأعرابي عليه المسألة ثلاث مرّات حتّى رجع الرّجل إلى نفسه فقال : لا أسأل

(*) من الاقتناء وهو اتخاذ الشيء للنفس .

(١) في الكافي ج ٢ ص ٣٠٢ .

(٢) أخرجه البزار من حديث ابن عباس هكذا « قال رسول الله صلى الله عليه وآله « باب للنار لايدخله أحد الامن يشفي غيظه بسخط الله» راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧١ .

(٣) أخرجه احمد من حديث عبدالله بن عمر بالشطر الاخير وقد تقدم .

(٤) المصدر ج ١ ص ٣٠٢ يعني يذهب حلاوته وخاصيته وصار المجموع شيئاً آخر .

(٥) الى (٧) الكافي باب الغضب ج ٢ ص ٣٠٢ الى ٣٠٦ .

عن شيء بعد هذا ، ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا بالخير ، قال : و كان أبي يقول : أيّ شيء أشدّ من الغضب إنّ الرّجل يغضب فيقتل النفس الّتي حرّم الله و يقذف المحصنة » (١).

و عنه عليه السلام قال : « من كفّ غضبه ستر الله عورته » (٢).

و عنه عليه السلام قال : « إنّ في التوراة مكتوباً : ياابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك عند غضبي فلاأمحقك فيما أمحق ، وإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك فانّ انتصاري لك خيرٌ من انتصارك لنفسك» (٣).

و عنه عليه السلام قال : « الغضب ممحقةلقلب الحكيم ، وقال : من لم يملك غضبه لم يملك عقله » (٤).

و عنه عليه السلام قال : « قال رجل للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : علّمني ، قال : إذهب ولاتغضب فقال الرّجل : قد اكتفيت بذلك فمضى إلى أهله فاذا بين قومه حربٌ قد قاموا صفوفاً و لبسوا السلاح فلمّا رأى ذلك لبس سلاحه ثمّ قام معهم ثمّ ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لاتغضب » فرمى السلاح ثمّ جاء يمشي إلى القوم الّذين هم عدوّ قومه فقال : يا هؤلاء ما كانت لكم من جراحة أو قتل أو ضرب ليس فيه أثر فعليّ في مالي أنا أوفيكموه ، فقال القوم : فما كان فهو لكم نحن أولى بذلك منكم ، قال : فاصطلح القوم وذهب الغضب» (٥).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من كفّ نفسه عن أعراض الناس أقال الله نفسه يوم القيامة ، و من كفّ غضبه عن الناس كفّ الله عنه عذاب يوم القيامة » (٦).

و عنه عليه السلام قال : « مكتوب في التورية فيما ناجى الله به موسى عليه السلام ياموسى أمسك غضبك عمّن ملكتك عليه أكفّ عنك غضبي » (٧).

قال أبو حامد : الآثار : عن ذي القرنين أنّه لقى ملكاً من الملائكة فقال : علّمني علماً أزداد به إيماناً ويقيناً ، قال : لاتغضب فانّ الشيطان أقدر ما يكون على

(١) الى (٧) الكافى باب الغضب ج ٢ ص ٣٠٢ الى ٣٠٦ .

ابن آدم حين يغضب ، فردَّ الغضب بالكظم و سكّنه بالتؤدة ، وإيّاك و العجلة فإنّك إذا عجّلت أخطأت حظّك ، و كن سهلاً ليناً للقريب والبعيد ولاتكن جبّاراً عنيداً .

و عن وهب بن منبّه أنَّ راهباً سأل الشيطان أيّ أخلاق بني آدم أعون لك عليهم ؟ قال : الحدَّة إنَّ الرَّجل إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة .

وقال خيثمة : الشيطان يقول : كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتّى أكون في قلبه ، وإذا غضب طرت حتّى أكون في رأسه .

و قال جعفر بن محمّد عليهما السلام : « الغضب مفتاح كلّ شرّ » (١).

و قال بعض الحكماء : رأس الحمق الحدَّة و قائده الغضب ، ومن رضي بالجهل استغنى عن العلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين ومضرَّة ، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه .

و قال مجاهد : قال إبليس : ماأعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث : إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته ، فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا ، و إذا غضب قال بما لايعلم ، وعمل بما يندم ، و نبخّله بما في يديه ونمنّيه بما لايقدر عليه .

و قيل لحكيم : ما أملك فلاناً لنفسه ، قال : إذاً لاتذلّه الشهوات ، ولايصرعه الهوى ، و لا يغلبه الغضب .

و قال بعضهم : إيّاك و الغضب فإنّه يصيّرك إلى ذلّة الاعتذار .

و قال عبد الله بن مسعود : انظروا إلى حلم الرَّجل عند غضبه ، و أمانته عند طمعه ، و ما علمك بحلمه إذ لم يغضب و ما علمك بأمانته إذا لم يطمع .

و قال بعضهم لابنه : يا بنيَّ لايثبت العقل عند الغضب كما لا يثبت روح الحيِّ في التنانير المسجورة ، فأقلُّ الناس أعقلهم فإن كان للدُّنيا كان دهاءً و مكراً ، وإن كان للآخرة كان علماً وحلماً .

و قد قيل : الغضب عدوُّ العقل ، و الغضب غول العقل .

و قيل لعبدالله بن المبارك : أجمل لنا حسن الخلق في كلمة ، فقال : ترك الغضب .

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٣٠٣ وقد تقدم .

و قال نبي من الأنبياء لمن معه : من تكفل لي أن لا يغضب فيكون معي في درجتي ويكون بعدي خليفتي فقال شاب من القوم : أنا ، ثم أعاد عليه فقال الشاب : أنا أوفي به فلما مات كان في منزلته بعده وهو ذو الكفل سمي به لأنه تكفل بالغضب و وفى به .

و قال وهب بن منبه : للكفر أربعة أركان : الغضب ، و الشهوة ، والخرق ، والطمع .

(بيان حقيقة الغضب)

إعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضاً للفساد و الموتان بأسباب في داخل بدنه و أسباب خارجة منه ، أنعم عليه بما يحميه الفساد و يدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماه في كتابه ، أما السبب الداخل فهو أنه ركبه من الرطوبة و الحرارة وجعل بين الحرارة و الرطوبة عداوة و مضادة فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تنفشي أجزاؤها بخاراً يتصاعد منها ، فلولم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان ، فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء كالموكل به في جبر ما انكسر و سد ما انثلم ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب .

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان فكالسيف و السنان و سائر المهلكات التي يقصد بها فافتقر إلى قوة و حمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه فخلق الله الغضب من النار وغرزها في الإنسان و عجنها بطينته ، فمهما قصد في غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب و ثارت ثوراناً يغلي به دم القلب و ينتشر في العروق و يرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار ، و كما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ولذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين والبشرة بصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها ، و إنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه و استشعر القدرة عليه فإن صدر الغضب على من هو فوقه و كان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد

إلى جوف القلب وصار حزناً ولذلك يصفر اللّون و إن كان الغضب من نظير يشكّ فيه تولّد منه تردّد بين انقباض وانبساط فيحمرّ ويصفر ويضطرب .

و بالجملة فقوّة الغضب محلّها القلب و معناها غليان دم القلب لطلب الانتقام و إنّما يتوجّه هذه القوّة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفّي و الانتقام بعد وقوعها ، والانتقام قوت هذه القوّة و شهوتها و فيه لذّتها ، ولاتسكن إلّا به . ثمّ الناس في هذه القوّة على درجات ثلاث في أوّل الفطرة من التفريط و الإفراط و الاعتدال . أمّا التفريط فبفقد هذه القوّة أو ضعفها وذلك مذموم و هو الّذي يقال فيه : إنّه لا حميّة له ولذلك قيل : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، فمن فقد قوّة الحميّة و الغضب أصلاً فهو ناقص جدّاً ، وقد وصف الله الصحابة بالشدّة و الحميّة فقال : « أشدّاء على الكفّار » (١) و قال تعالى : « يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم » (٢) و إنّما الغلظة والشدّة من آثار القوّة الحميّة وهو الغضب .

وأمّا الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتّى تخرج من سياسة العقل والدّين و طاعتهما ، فلا يبقى للمرء معها بصيرة و نظر و فكر ولا اختيار ، بل يصير في صورة المضطرّ ، وسبب غلبته اُمورٌ غريزيّة و اُمورٌ اعتياديّة فربّ إنسان هو بالفطرة مستعدٌّ لسرعة الغضب حتّى كأنّ صورته في الفطرة صورة غضبان و يعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأنّ الغضب من النار كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله (٣) فبرودة المزاج تطفيه و تكسّر سورته . و أمّا الأسباب الاعتياديّة فهي أن يخالط قوماً يتبجّحون بتشفّي الغيظ و طاعة الغضب ويسمّون ذلك شجاعة ورجوليّة فيقول الواحد منهم : أنا الّذي لا أصبر على المحالّ و لا أحتمل من أحد أمراً ، ومعناه لاعقل لي و لاحلم ثمّ يذكره في معرض الفخر بجهله فمن سمعه فيرسخ في نفسه حسن الغضب و حبّ

---

(١) الفتح : ٢٩. (٢) التوبة : ٧٣ .

(٣) أخرجه الترمذي من حديث ابى سعيد بسند ضعيف ، و أبوداود ج ٢ ص ٥٥٠ عن عطية هكذا قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله : « ان الغضب من الشيطان ، وان الشيطان خلق من النار ، وانما تطفأ النار بالماء ، فاذا غضب أحدكم فليتوضأ » .

التشبّه بالقوم فيقوى به الغضب ، ومهما اشتدّت نار الغضب و قوي اضطرامها أعمت صاحبها وأصمّته عن كلّ موعظة فإذا وعظ لم يسمع بل تزيده الموعظة غضباً وإن أراد أن يستضيء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر على ذلك إذ يطفي نور العقل و ينمحي في الحال بدخان الغضب فإنّ معدن الفكر الدّماغ و يتصاعد عند شدّة الغضب من غليان دم القلب دخان إلى الدّماغ مظلم يستولي على معادن الفكر وربّما يتعدّى إلى معادن الحسّ فيظلم عينه حتّى لا يرى بعينه و يسودّ عليه الدّنيا بأسرها و يكون دماغه على مثال كهف أضرمت فيه نارٌ فاسودّ جوّه وحمي مستقرّه و امتلأ بالدّخان جوانبه و كان فيه سراج ضعيف فانطفي و انمحى نوره فلا تثبت فيه قدم ، ولا يسمع فيه كلام ، ولا ترى فيه صورة و لا يقدر على إطفائه لا من داخل و لا من خارج ، بل ينبغي أن يصير إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق ، فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدّماغ ، و ربّما تقوى نار الغضب فتفنى الرّطوبة الّتي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظاً كما تقوى النار في الكهف فيتشقّ و تنهدّ أعاليه على أسافله و ذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوّة الممسكة الجامعة لأجزائه فهكذا حال القلب مع الغضب ، و بالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرّياح في لجّة البحر أحسن حالاً و أرجى سلامة من النفس المضطربة غيظاً إذ في السفينة من يحتال لتسكينها و تدبيرها وينظر لها و يسوسها و أمّا القلب فهو صاحب السفينة و قد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب و أصمّه ، و من آثار هذا الغضب في الظّاهر تغيّر اللّون وشدّة الرّعدة في الأطراف و خروج الأفعال عن الترتيب و النظام ، و اضطراب الحركة و الكلام حتّى يظهر الزّبد على الأشداق و تحمرّ الأحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته ، و قبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فإنّ الظاهر عنوان الباطن و إنّما قبحت صورة الباطن أوّلاً ثمّ انتشر قبحها إلى الظاهر ثانياً فتغيّر الظاهر ثمرة تغيّر الباطن فقس الثمرة بالمثمرة فهذا أثره في الجسد .

وأمّا أثره في اللّسان فانطلاقه بالشتم والفحش و قبيح الكلام الّذي يستحي

منه ذووا العقول و يستحي منه قائله عند فتور الغضب و ذلك مع تخبّط النظم و اضطراب اللّفظ.

و أمّا أثره على الأعضاء فالضرب و التهجّم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكّن من غير مبالاة فإن هرب منه المغضوب عليه أوفاته بسبب وعجز عن التشفّي رجع الغضب على صاحبه فيمزّق ثوب نفسه و يلطم وجهه، و قد يضرب يده على الأرض و يعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحيّر، و ربّما سقط صريعاً لا يطيق العدو و النهوض لشدّة الغضب و يعتريه مثل الغشية، وربّما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة على الأرض و قد يكسّر المائدة إذا غضب عليها، وقد يتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجماد و يخاطبه و يقول: إلى متى منك و يا كيت و كيت كأنّه يخاطب عاقلاً حتّى ربّما رفسته دابّة فيرفسها و يقابلها به.

و أمّا أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد و إضمار السّوء و الشماتة بالمساءة والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السرّ وهتك الأستار والاستهزاء، و غير ذلك من القبائح. فهذه ثمرة الغضب المفرط.

و أمّا ثمرة الحميّة الضعيفة فقلّة الأنفة ممّا يأنف منه من التعرّض للحرم و الزّوجة والأمة، واحتمال الذلّ من الأخسّاء، وصغر النفس والقماءة و هو أيضاً مذموم إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرام و هي خنوثة قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ سعداً لغيور و إنّي لأغير من سعد والله أغير منّي»[1] وإنّما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب ولو تسامح الناس بها لاختلطت الأنساب و لذلك قيل: كلّ أمّة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها، و من ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات، و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «خير أمّتي أحدّاؤها»[2] يعني في الدّين، و قال

(١) أخرج مسلم ج ٤ ص ٢١١ من حديث المغيرة بن شعبة قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله «اتعجبون من غيرة سعد فوالله لانا أغير منه والله أغير مني الحديث» والمراد سعد بن عبادة.

(٢) أخرجه الطبراني في الاوسط وفيه بغنم بن سالم بن قنبر وهو كذاب كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٨ ولفظه «خيار أمتي احداؤهم».

تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » (١) بل من فقد الغضب عجز من رياضة نفسه لاتتم الرّياضة إلّا بتسليط الغضب على الشهوة حتّى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة ففقد الغضب مذموم وإنّما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدّين فينبعث حيث تجب الحميّة و ينطفي حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حدّ الاعتدال هو الاستقامة الّتي كلّف الله تعالى بها عباده و هو الوسط الّذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال : « خير الأمور أوساطها » (٢) فمن مال غضبه إلى الفتور حتّى أحسّ من نفسه بضعف الغيرة و خسّة النفس في احتمال الذّل والضيم (٣) في غير محلّه فينبغي أن يعالج نفسه حتّى يقوى غضبه و من مال غضبه إلى الإفراط حتّى جرّه إلى التهوّر واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب و يقف على الوسط الحقّ بين الطّرفين فهو الصّراط المستقيم ، وهو أدقّ من الشعر وأحدّ من السّيف فإن عجز عنه فليطلب القرب منه قال الله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النّساء ولو حرصتم فلا تميلوا كلّ الميل فتذروها كالمعلّقة » (٤) فليس كلّ من عجز عن الإتيان بالخير كلّه ينبغي أن يأتي بالشرّ كلّه ، و لكن بعض الشرّ أهون من بعض ، وبعض الخير أرفع من بعض ، فهذه حقيقة الغضب ودرجاته .

☼(بيان ان الغضب هل تمكن ازالة أصله بالرياضة أم لا)☼

إعلم أنّه قد ظنّ ظانّون أنّه يتصوّر محو الغضب بالكلّية و زعموا أنّ الرّياضة إليه تتوجّه و إيّاه تقصد ، و ظنّ آخرون أنّه أصلاً لا يقبل العلاج و هذا رأي من يظنّ أنّ الخلق كالخلق و كلاهما لا يقبل التغيير و كلا الرّأيين ضعيف ، بل الحقّ فيه ما نذكره و هو أنّه ما بقي الانسان يحبّ شيئاً و يكره شيئاً فلا يخلو عن الغيظ والغضب ، ومادام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلابدّ من أن يحبّ ما يوافقه و يكره ما

(١) النور : ٢ .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب مرسلا وقد تقدم .

(٣) الضيم : الظلم .

(٤) النساء : ١٢٩ .

يخالفه والغضب يتبع ذلك فإنّه مهما اُخذ منه محبوبه غضب لا محالة ، و إذا قصد بمكروه غضب لا محالة إلّا أنّ ما يحبّه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأوّل ما هو ضرورة في حقّ الكافّة و هو القوت والمسكن والملبس و صحّة البدن ، فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلابدّ وأن يغضب و كذلك إذا اُخذ منه ثوبه الّذي يستر عورته و كذلك إذا اُخرج من داره الّتي هي مسكنه و اُريق ماؤه الّذي هو لعطشه فهذه ضرورات لايخلوالانسان من كراهة زوالها و من غيظ على من يتعرّض لها .

القسم الثاني : ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق كالجاه و المال الكثير و الغلمان و الدّوابّ فإنّ هذه الاُمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الاُمور حتّى صار الذّهب والفضّة محبوبين في أنفسهما فيكنزان و يغضب على من يسرقهما و إن كان مستغنياً عنهما بالقوت ، فهذا الجنس ممّا يتصوّر أن ينفكّ الإنسان عن أصل الغيظ عليه فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمها ظالم فيجوز أن لا يغضب إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمر الدّنيا فيزهد في الزّيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها فإنّه لا يحبّ وجودها و لو أحبّ وجودها لغضب بالضرورة على أخذها و أكثر غضب الناس على ما هو غير ضروريّ كالجاه والصيت والتصدّر في المجالس و المباهاة بالعلم فمن غلب هذا الحبّ عليه فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على الصّدر في المحافل و من لا يحبّ ذلك فلا يبالي ولو جلس في صفّ النعال فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه ، و هذه العادات الرديّة هي الّتي أكثرت محابّ الإنسان و مكارهه فأكثرت غضبه و كلّما كانت الإرادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحطّ رتبة وأنقص لأنّ الحاجة صفة نقص فمهما كثرت كثر النقص والجاهل أبدا جهده في أن يزيد في حاجاته و في شهواته و هو لا يدري أنّه مستكثر من أسباب الغمّ والحزن حتّى ينتهي بعض الجهّال بالعادات الرّديّة ومخالطة قرناء السوء إلى أن يغضب لو قيل له إنّك لاتحسن اللّعب بالطيور واللّعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير و تناول الطعام الكثير و ما يجري مجراه من الرّذائل ، فالغضب على هذا الجنس

ليس بضروريّ لأنّ حبّه ليس بضروريّ .

القسم الثالث : ما يكون ضروريّاً في حقّ بعض الناس دون البعض كالكتاب مثلاً للعالم فإنّه مضطرّ إليه فيحبّه فيغضب على من يحرقه ويغرقه و كذلك أدوات الصناعات في حقّ المكتسب الّذي لا يمكنه التوصّل إلى القوت إلّا بها فإنّما هو وسيلة إلى الضروريّ ، والمحبوب يصير ضروريّاً ومحبوباً و هذا يختلف بالأشخاص و إنّما الحبّ الضروريّ ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله : « من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنّما حيزت له الدّنيا بحذافيرها »(١) ومن كان بصيراً بحقائق الأمور و سلمت له هذه الثلاث يتصوّر أن لا يغضب في غيرها ، فهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرّياضة في كلّ واحد منها .

أمّا القسم الأوّل : فليست الرّياضة فيه لينعدم غيظ القلب و لكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب و لا يستعمله في الظاهر إلّا على حدّ يستحبّه الشرع و يستحسنه العقل ، و ذلك ممكن بالمجاهدة و تكلّف الحلم والاحتمال مدّة حتّى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسخاً ، فأمّا قمع أصل الغيظ من القلب وذلك ليس مقتضى الطبع فهو غير ممكن ، نعم يمكن كسر سورته و تضعيفه حتّى لا يشتدّ هيجان الغيظ في الباطن و ينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه ولكن ذلك شديد جدّاً و هذا حكم القسم الثالث أيضاً لأنّ ما صار ضروريّاً في حقّ شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه فالرّياضة فيه تمنع العمل به و يضعف هيجانه في الباطن حتّى لا يشتدّ التألّم بالصبر عليه .

و أمّا القسم الثاني : فيمكن التوصّل بالرّياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه إذ يمكن إخراج حبّه من القلب ، و ذلك بأن يعلم الإنسان بأنّ وطنه القبر و مستقرّه الآخرة و إنّما الدّنيا معبر يعبر عليها و يتزوّد منها قدر الضرورة و ما وراء ذلك فهو عليه و بال في وطنه و مستقرّه فيزهد في الدّنيا و يمحو حبّها

(١) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٠٨ وابن ماجه تحت رقم ٤١٤١ . وفي النهاية الحذافير الجوانب ، وقيل : الاعالي واحدها حذفار وقيل حذفور أي فكأنما اعطي الدنيا بأسرها .

عن القلب ولو كان للإنسان كلب لا يحبّه لم يغضب إذا ضربه غيره فالغضب تبع للحبّ ، فالرّياضة في هذا قد ينتهي إلى قمع أصل الغضب وهو نادر جدّاً وقد ينتهي إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون ، فإن قلت : الضروريّ من القسم الأوّل التألّم بفوات المحتاج إليه دون الغضب فمن له شاة مثلاً و هي قوته فماتت فلا يغضب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة وليس من ضرورة كلّ كراهة غضب فالإنسان يتألّم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصّاد والحجّام فمن غلب عليه التوحيد حتّى يرى الأشياء كلّها من الله فلا يغضب على أحد من خلقه إذ يراهم مسخّرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب ، ومن وقّع عليه ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم و لا يغضب على من يذبح شاته الّتي هي قوته كما لا يغضب على موتها إذ يرى الموت والذّبح من الله فيندفع الغضب بغلبة التوحيد و يندفع أيضاً بحسن الظنّ بالله و هو أن يرى أنّ الكلّ من الله و أنّ الله لا يقدّر له إلّا بما فيه الخيرة وربما تكون الخيرة في جوعه ومرضه وجرحه و قتله فلا يغضب كما لا يغضب على الفصّاد لأنّه يرى أنّ الخيرة فيه ، فنقول : هذا على هذا الوجه غير محال ولكن غلبة التوحيد على هذا الوجه إنّما يكون كالبرق الخاطف يغلب في أحوال مختلفة ولا يدوم ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعاً طبيعيّاً لا يندفع عنه ، ولو تصوّر ذلك على الدّوام لبشر لتصوّر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنّه كان يغضب حتّى تحمرّ وجنتاه (١).

و قال عبدالله بن عمرو بن العاص : « يا رسول الله أكتب عنك كلّ ماقلت في الغضب والرّضا ؟ فقال : اكتب فوالّذي بعثني بالحقّ مايخرج منه إلّا حقّ - و أشار إلى لسانه - »(٢) فلم يقل : إنّي لا أغضب ولكن قال : إنّ الغضب لا يخرجني عن الحقّ أي لا أعمل بموجب الغضب .

وغضبت عائشة مرّة فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « مالك جاءك شيطانك فقالت : ومالك شيطان

(١) اخرجه مسلم ج ٣ ص ١١ من حديث جابر بن سمرة .

(٢) اخرجه أبوداود ج ٢ ص ٢٨٦ بنحوه حديث عبدالله بن عمر .

فقال : بلى ولكنّي دعوت الله فأعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلّا بخير [١] » فلم يقل لاشيطان لي وأراد شيطان الغضب لكن قال : لايحملني على الشرّ .

وقال عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لايغضب للدُّنيا فإذا أغضبه الحقّ لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتّى ينتصر له » [٢] فكان يغضب على الحقّ و إن كان غضبه لله فهو الالتفات إلى الوسائط على الجملة ، بل كلّ من غضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته الّتي لابدّ له في دينه منها فإنّما غضب لله فلايمكن الانفكاك عنه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري إذا كان القلب مشغولاً بضروري أهمّ منه فلايكون في القلب متّسع للغضب لاشتغاله بغيره ، فإنّ استغراق القلب ببعض المهمّات يمنع الاحساس بماعداه ، وهذا كما أنّ سلمان لماشتم قال : إن خفّت موازيني فأنا شرٌّ ممّا تقول ، وإن ثقلت موازيني لم يضرّني ماتقوله . فقد كان همّه مصروفاً إلى الآخرة فلم يتأثّر قلبه بالشتم ، و كذلك شتم رجل الرّبيع بن خثيم فقال : ياهذا قد سمع الله كلامك و إنّ دون الجنّة عقبة إن قطعتها لم يضرّني ماتقول ، و إن لم أقطعها فأنا شرٌّ ممّا تقول ، وسبّ رجل بعضهم فقال : إن كنت صادقاً فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك ، فهذه الأقاويل دالّة في الظّاهر على أنّهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمّات دينهم ، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثّر في قلوبهم ولكنّهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم فإذاً اشتغال القلب ببعض المهمّات لايبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحابّ فإذاً يتصوّر فقد الغيظ إمّا باشتغال القلب بمهمّ أو بغلبة نظر التّوحيد أو بسبب ثالث و هو أن يعلم أنّ الله يحبّ منه ألا يغتاظ فيطفي شدّة حبّه لله غيظه ، وذلك غير محال في أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أنّ طريق الخلاص من نار الغضب محو حبّ الدُّنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدُّنيا وغوائلها كما سيأتي في كتاب ذمّ الدُّنيا ، ومن أخرج حبّ الدُّنيا عن القلب تخلّص من أكثر أسباب الغضب ومالايمكن محوه فيمكن كسره و تضعيفه فيضعف الغضب بسببه

(١) اخرجه مسلم ج ٨ ص ١٣٩ من حديث عائشة .

(٢) اخرجه الترمذى فى الشمائل و قد تقدم فى ج ٤ .

ويهون دفعه .

✿ (بيان الاسباب المهيّجة للغضب) ✿

قد عرفت أنّ علاج كلّ علّة بحسم مادّتها وإزالة أسبابها ، فلابدّ من معرفة أسباب الغضب وقدقال يحيى لعيسى عليهما السلام : أيّ شيء أشدّ؟ قال عيسى : الكبر والفخر والتعزّز والحميّة ، والأسباب المهيجّة للغضب هي الزهو والعجب و المزاح والهزل و الهزء والتعيير و المماراة والمضادّة والغدر وشدّة الحرص على فضول المال و الجاه وهي بأجمعها أخلاق رديّة مذمومة شرعاً ولاخلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلابدّ من إزالة هذه الأسباب بأضدادها فينبغي أن تميت الزّهو بالتواضع و تميت العجب بالمعرفة بنفسك كماسيأتي في كتاب الكبر والعجب وتزيل الفخر بأنّك من جنس عبدك إذالناس يجمعهم في الأنتساب أب و إنّما اختلفوا بالفضل أشتاتاً فبنو آدم جنس واحد و إنّما الفخر بالفضائل والفخر والعجب أكبر الرذائل وهما رأسها و أصلها فإذالم تخل عنها فلافضل لك على غيرك فلا تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية و النسب و الأعضاء الظاهرة والباطنة ، وأمّا المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمّات الدّينية الّتي تستوعب العمر وتفضل عنه إذاعرفتها ، وأمّا الهزل فتزيله بالجدّ في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدّينيّة الّتي تبلغك إلى سعادة الآخرة ، وأمّا الهزء فتزيله بالتكرّم عن إيذاء الناس ، وبصيانة النفس عن أن يستهزىء بك ، وأمّا التعيير فبالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مرّ الجواب ، و أمّا شدّة الحرص على مزايا العيش فيزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعزّ الاستغناء و ترفّعاً عن ذلّ الحاجة ، و كلّ خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجها إلى رياضة وتحمّل مشقّة وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها ثمّ المواظبة على مباشرة أضدادها مدّة مديدة حتّى تصير بالعادة مألوفة هيّنة على النفس ، فإذا انمحت عن النفس فقدزكت وطهرت عن هذه الرّذائل وتخلّصت أيضاً عن الغضب الّذي يتولّد منها ، ومن أشدّ البواعث للغضب عند أكثر الجهّال تسميتهم الغضب شجاعة ورجوليّة وعزّ نفس و كبر همّة و تلقّبه بالألقاب المحمودة غباوة

وجهلاً حتّى تميل النفس إليه وتستحسنه وقد يتأكّد ذلك بحكاية شدّة الغضب من الأكابر في معرض المدح بالشجاعة والنفوس مائلة إلى التشبّه بالأكابر ويهيج الغضب في القلب بسببه ، و تسمية هذا عزّة نفس و شجاعة جهل محض بل هو مرض قلب و نقصان عقل و هو لضعف النفس و نقصانها و آية أنّه لضعف النفس أنّ المريض أسرع غضباً من الصحيح ، والمرأة أسرع غضباً من الرّجل ، والصبيّ أسرع غضباً من الكبير ، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل و ذو الخلق السيّىء والرّذايل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل فالرّذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللّقمة و لبخله إذا فاتته الحبّة حتّى يغضب على أهله وولده وأصحابه ، بل القويّ من يملك نفسه عند الغضب كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس الشديد بالصّرعة إنّما الشديد الّذي يملك نفسه عند الغضب »[١] بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن يتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ ، فإنّ ذلك منقول عن الأنبياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك والفضلاء وضدّ ذلك منقول عن الأتراك والأكراد والجهلة والأغبياء الّذين لا عقل لهم ولا فضل .

﴿ بيان علاج الغضب بعد هيجانه ﴾

إعلم أنّ ما ذكرناه حسم لموادّ الغضب و قطع لأسبابه حتّى لا يهيج فإذا جرى سبب هيجانه فعنده يجب التثبّت حتّى لا يضطرّ صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم و إنّما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل .

أما العلم فهو ستّة اُمور : الأوّل أن يتفكّر في الأخبار الّتي سنوردها في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب في ثوابه فتمنعه شدّة الحرص على ثواب الكظم عن التشفّي والانتقام وينطفي عنه غيظه ، غضب بعضهم على رجل فقال الرّجل : « خذ العفو و أمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فخلّى عنه .

الثاني أن يخوّف نفسه بعقاب الله و هو أن يقول : قدرة الله عليّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان فلو أمضيت غضبي عليه بم آمن أن يمضي الله غضبه عليّ

(١) تقدم عن مسلم وغيره آنفاً .

يوم القيامة وأنا أحوج ما أكون إلى العفو ، وقد قال الله تعالى في بعض الكتب : يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق ، و بعث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وصيفاً له إلى حاجة فأبطأ عليه فلمّا جاء قال : « لولا القصاص لأوجعتك ضرباً »[١] أي القصاص في القيامة . و قيل : ما كان في بني إسرائيل ملك إلّا و معه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة وفيها : ارحم المساكين واخش الموت واذكر الآخرة فكان يقرأها حتّى يسكن غضبه .

الثالث أن يحدث نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمّر العدوّ لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوّف نفسه بعواقب الغضب في الدّنيا إن كان لا يخاف من الآخرة ، و هذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب و ليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه لأنّه متردّد على حظوظه العاجلة يقدّم بعضها على بعض إلّا أن يكون محذوره أن يتشوّش عليه في الدّنيا فراغه للعلم والعمل و ما يعينه على الآخرة فيكون حينئذ مثاباً عليه .

الرابع أن يتفكّر في قبح صورته عند غضبه بأن يتذكّر صورة غيره في حالة الغضب و يتفكّر في قبح الغضب في نفسه و مشابهة صاحبه بالكلب الضاري و السبع العادي ، و مشابهة الحليم الهادي التارك للغضب بالأنبياء والعلماء والحكماء و يخير نفسه بين أن يشبه بالكلاب والسّباع وأراذل النّاس و بين أن يشبه بالأنبياء والعلماء في عادتهم لتميل نفسه إلى حبّ الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل .

الخامس أن يتفكّر في السبب الّذي يدعوه إلى الانتقام و يمنعه من كظم الغيظ ، ولابدّ أن يكون سبب له مثل قول الشيطان له : إنّ هذا يحمل منك على العجز و صغر النّفس والذّلّة والمهانة و تصير حقيراً في أعين الناس فليقل لنفسه : ما أعجبك يا نفس تأنفين من الاحتمال الآن و لا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك و تحذرين من أن تصغري في أعين النّاس و لا تحذرين من أن تصغري عند الله و عند الملائكة والنبيّين بانتقامك من هذا ، فمهما كظم الغيظ

---

(١) اخرجه ابويعلى من حديث ام سلمة بسند ضعيف كمافى المغنى .

فينبغي أن يكظمه لله وذلك يعظمه عندالله فماله و للنّاس ، وذلّ من ظلمه يوم القيامة أشدُّ من ذلّه لوانتقم الآن ، أفلا يحبُّ أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلّا من عفا عن حقّ ، فهذا و أمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يقرّره على قلبه .

السّادس أن يعلم أنّ غضبه من تعجّبه من جريان الشيء على وفق مراد الله تعالى لا على وفق مراده فكيف يقول : مرادي أولى من مرادالله تعالى ، و يوشك أن يكون غضب الله أعظم من غضبه .

وأما العمل فأن تقول بلسانك : أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم ، هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقال عندالغيظ (١) وكان صلى الله عليه وآله إذا غضب عائشة أخذ بأنفها قال : « يا عويش قولي : اللّهمّ ربّ النبيّ محمّد اغفرلي ذنبي و أذهب غيظ قلبي و أجرني من مضلّات الفتن » (٢) .

و يستحبُّ أن يقول ذلك فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائماً واضطجع إن كنت جالساً و اقرب من الأرض الّتي منها خُلقت لتعرف بذلك ذلّ نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون فإنّ سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة إذ قال صلى الله عليه وآله : « إنّ الغضب جمرة تتوقّد في القلب ألم تر إلى انتفاخ أوداجه و حمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فلينم فإن لم يزل ذلك فليتوضّأ بالماء البارد وليغتسل فإنّ النار لايطفيها إلّا الماء » (٣) .

و قد قال صلى الله عليه وآله : « إذا غضب أحدكم فليتوضّأ بالماء البارد فإنّ الغضب من النّار » (٤) .

---

(١) الامر بالتعوذ بالله من الشيطان عندالغيظ أخرجه مسلم ج ٨ ص ٣٠ من حديث سليمان بن صرد الخزاعى .

(٢) أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة ص ١٢٢ من حديثها .

(٣) أخرجه الترمذى فى حديث طويل طى خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله بعد العصر رواه ابوسعيد الخدرى .

(٤) أخرجه ابوداود باللفظ الذى يأتى .

وفي رواية « إنّ الغضب من الشيطان وإنّ الشيطان خلق من النّار وإنّما يطفي النّار الماء فإذا غضب أحدكم فليتوضّأ »[١].

و قال ابن عبّاس : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا غضبت فاسكت»[٢].

و قال أبوهريرة : «كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب وهو قائمٌ جلس وإذا غضب و هو جالس اضطجع فيذهب غيظه »[٣].

و قال أبو سعيد الخدريُّ : قال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا إنّ الغضب جمرة في قلب ابن آدم ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئاً فليلصق خدَّه بالأرض »[٤]. وكان هذا إشارة إلى السجود وهو تمكين أعزّ الأعضاء من أذلّ المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذّلّ وتزائل به العزّة والزّهو الّذي هو سبب الغضب ، و قيل : كان رجلٌ ممّن كان قبلكم يغضب فيشتدُّ غضبه فكتب ثلاث صحايف فأعطى كلّ صحيفة رجلاً و قال للأوّل : إذا غضبتُ فأعطني هذه الصحيفة ، و قال للثاني : إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه ، و قال للثالث : إذا ذهب غضبي فأعطني هذه ، فاشتدّ غضبه يوماً فأُعطي الصّحيفة الأُولى فإذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنّك لست بإله إنّما أنت بشر أوشك أن يأكل بعضك بعضاً فسكن بعض غضبه ، فأُعطي الثانية فإذا فيها ارحم من في الأرض يرحمك من في السّماء ، ثمّ أُعطي الثالثة فإذا فيها خذ النّاس بحقّ الله فإنّهم لا يصلحهم إلّا ذلك ، أي لا تعطّل الحدود .

(فضيلة كظم الغيظ)

قال الله تعالى : « و الكاظمين الغيظ »[٥] وذكر ذلك في معرض المدح .

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كفّ غضبه كفّ الله عنه عذابه ، و من اعتذر

(١) تقدم عن أبي داود أخرجه ج ٢ ص ٥٥٠ .
(٢) رواه احمد والطبراني ورجال احمد ثقات كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٠ .
(٣) أخرجه ابن ابي الدنيا وفيه من لم يسم كما في المغني .
(٤) جزء من الحديث المتقدم الذي رواه الترمذي .
(٥) آل عمران : ١٢٨ .

إلى ربّه قبل‌الله عذره ، و من خزن لسانه ستر الله عورته » (١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أشدّكم من ملك نفسه عندالغضب ، و أحلمكم من عفا عند القدرة » (٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من كظم غيظاً و لو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً » . و في رواية اُخرى « أمناً و إيماناً » (٣).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « ما جرّع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله » (٤).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ لجهنّم باباً لا يدخلها إلّا من شفي غيظه بمعصية الله تعالى » (٥).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من جرعة أحبّ إلى الله تعالى من جرعة غيظ يكظمها عبدٌ وما كظمها عبدٌ إلّا ملأ الله جوفه إيماناً » (٦).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من كظم غيظاً و هو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يخيّره في أيّ الحور شاء » (٧).

و قال لقمان لابنه : يا بنيّ لا تذهب ماء وجهك بالمسئلة ، و لا تشف غيظك بفضيحتك ، واعرف قدرك تنفعك معيشتك ، وقال أيّوب : حلم ساعة يدفع شرّاً كثيراً.

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال :

---

(١) راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٨ رواه مختصراً عن الطبراني في الاوسط بسند ضعيف من حديث أنس .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب بسند ضعيف عن علي عليه السلام كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا بالرواية الاولى من حديث ابن عمر كما في المغني و بالرواية الثانية ابوداود ج ٢ ص ٥٤٨ .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٨٩ باسناد صحيح .

(٥) تقدم سابقاً عن مسند البزار .

(٦) أخرجه ابن ابي الدنيا في ذم الغضب عن ابن عباس كما في الجامع الصغير وقد تقدم .

(٧) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٤٨ من حديث معاذ وقد تقدم .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أحبّ السبيل إلى الله تعالى جرعتان جرعة غيظ تردّها بحلم و جرعة مصيبة تردّها بصبر»(١).

و عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول: ما اُحبّ أنّ لي بذلّ نفسي حمر النعم، و ما تجرّعت جرعة أحبّ إليّ من جرعة غيظ لا اُكافي بها صاحبها»(٢).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من كظم غيظاً و هو يقدر على إمضائه حشاالله قلبه أمناً و إيماناً يوم القيامة»(٣).

و عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها فإنّ عظيم الأجر لمن عظم البلاء، و ماأحبّ الله قوماً إلّا ابتلاهم»(٤).

و عنه عليه السلام: «مامن عبد كظم غيظاً إلّا زاده الله تعالى عزّاً في الدّنياوالآخرة وقد قال الله تعالى: «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين»(٥) و أثابه الله مكان غيظه ذلك».

و عنه عليه السلام: «من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه»(٦).

و عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام: قال: «اصبر على أعداء النعم فإنّك لن تكافي، من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله فيه»(٧).

✡(فضيلة الحلم)✡

إعلم أنّ الحلم أفضل من كظم الغيظ لأنّ كظم الغيظ عبارة عن التحلّم أي

(١) و (٢) الكافي ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠، و«حمر النعم» اى كرائم النعم كما فى (المغرب) وقال الكرمانى: حمر النعم - بضم الحاء وسكون الميم، والنعم المال الراعى وهو جمع ولاواحدله من لفظه واكثرمايقع على الابل اه ونبه بذكر تجرع الغيظ عقيب هذا على أن فى التجرع العز وفى المكافات الذل.

(٣) و(٤) الكافي ج ٢ ص ١١٠ وباب شدة ابتلاء المؤمن ص ٢٥٢.

(٥) آل عمران: ١٢٨ والخبر فى الكافى ج ٢ ص ١١٠.

(٦) و (٧) المصدر ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠.

تكلّف الحلم ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلّا من هاج غيظه و يحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ولكن إذا تعوّد ذلك مدّة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب و هو الحلم الطبيعي و هو دلالة على كمال العقل واستيلائه وانكسار قوّة الغضب و خضوعها للعقل ولكن ابتداؤه التحلّم و كظم الغيظ تكلّفاً قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّما العلم بالتعلّم والحلم بالتحلّم و من يتحرّ الخير يعطه و من يتوقّ الشرّ يوقه » (١) أشار بهذا إلى أنّ اكتساب الحلم طريقه التحلّم أوّلاً و تكلّفه كما أنّ اكتساب العلم طريقه التعلّم.

و عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم : « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ليّنوا لمن تتعلّمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم » (٢) أشار بهذا إلى أن التجبّر والكبر هو الّذي يهيّج الغضب و يمنع من الحلم واللّين.

وكان من دعاء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « اللّهمّ أغنني بالعلم وزيّنّي بالحلم وأكرمني بالتقوى و جمّلني بالعافية » (٣).

و عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ابتغوا الرّفعة عند الله ، قالوا : و ماهي يا رسول الله ؟ قال : تصل من قطعك ، و تعطي من حرمك ، و تحلم عمّن ظلمك أو جهل عليك » (٤).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « خمس من سنن المرسلين : الحياء ، والحلم ، والحجامة ، والسواك والتعطّر » (٥).

و قال عليّ عليه السلام : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ الرّجل المسلم ليدرك بالحلم

(١) أخرجه الطبراني والدار قطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف كما في المغني.

(٢) أخرجه ابن السني في رياضة المتعلمين بسند ضعيف كما في المغني.

(٣) أخرجه ابن النجار من حديث ابن عمر بسند حسن كما في الجامع الصغير.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل من حديث ابن عمر كما في الجامع الصغير.

(٥) أخرجه البخاري في التاريخ والحكيم الترمذي في نوادر الاصول والبزار في مسنده والطبراني في الكبير، وابو نعيم في المعرفة و البيهقي عن حصين الخطمي بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

درجة الصائم القائم و إنّه ليكتب جبّاراً عنيداً و ما يملك إلّا أهل بيته »[١].

و روي أنَّ رجلاً قال: « يا رسول الله إنَّ لي قرابة أصلهم و يقطعوني، و أحسن إليهم ويسيئون إليَّ، ويجهلون عليَّ وأحلم عنهم، قال: لئن كان كما تقول فكأنّما تُسِفّهم الملَّ ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك الملّ »[٢] يعني به الرَّمل.

و قال رجلٌ من المسلمين: « اللّهمَّ ليس عندي صدقة أتصدّق بها فأيّما رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو عليه صدقة فأوحى الله إلى النبيّ أن قد غفرت له بذلك »[٣].

وقيل في قوله تعالى: « ربّانيّين »[٤] أي حلماء علماء، وفي قوله: « يمشون على الأرض هوناً » أي حلماء « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » أي حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا، و قيل في قوله عزّوجلّ: « و إذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً »[٥] أي إذا أُوذوا صفحوا، وفي قوله: « و كهلاً »[٦] قيل: الكهل منتهى الحلم.

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « إنَّ الله يحبُّ الحليم الحييَّ الغنيَّ المتعفّف و يبغض الفاحش البذيّ السائل الملحف »[٧].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب كما في الترغيب ج ٣ ص ٤١٨.

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٨ وقال النووي قوله صلى الله عليه وسلم « كأنما تسفهم المل » اى كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه لما يلحقهم من الالم بما يلحق آكل الرماد الحار من الالم ولا شيء على هذا المحسن بل ينالهم الاثم العظيم في قطيعته وادخالهم الاذى عليه.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب تحت عنوان « ابو ضمضم » عن ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابي صالح عن ابي هريرة. ورواه البيهقي في الشعب وابو نعيم في الصحابة وقال العراقي: انه علبة بن زيد وابو ضمضم ليس له صحبة انما هو متقدم.

(٤) آل عمران: ٧٩.

(٥) الايات في سورة الفرقان: ٦٤ و ٧٢.

(٦) آل عمران: ٤٦.

(٧) لم أجد تمام الحديث في اى اصل و جاء مضمونه في عدة احاديث راجع الجامع الصغير ج١ ص ٧٤. وفي الكافي ج ٢ ص١١٢ « ان الله يحب الحيي الحليم العفيف المتعفف ».

و قال ابن عبّاس : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهنّ فلا يعتدن بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله ، وحلم يكفّ به السفيه و خُلق يعيش به في الناس »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناسٌ وهم يسير فينطلقون سراعاً إلى الجنّة فتلقّاهم الملائكة فيقولون : إنّا نراكم سراعاً إلى الجنّة فيقولون : نحن أهل الفضل ، فيقولون : ما كان فضلكم؟ فيقولون : كنّا إذا ظلمنا صبرنا و إذا اُسيء إلينا غفرنا ، و إذا جهل علينا حلمنا ، فيقال : لهم : ادخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين »[٢].

و قال عليٌّ عليه السلام : « ليس الخير أن يكثر مالك و ولدك ، و لكن الخير أن يكثر عملك و يعظم حلمك وأن لا تباهي الناس بعبادة ربّك ، فإذا أحسنت حمدت الله و إذا أسأت استغفرت الله » .

و عن عليّ بن الحسين بن عليّ عليهم السلام أنّه سبّه رجلٌ فرمى إليه خميصة كانت عليه و أمر له بألف درهم[٣] ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال : الحلم و إسقاط الأذى ، و تخليص الرّجل ممّا يبعده من الله وحمله على الندم والتوبة و رجوعه إلى المدح بعد الذّم ، اشترى جميع ذلك بشيء من الدّنيا يسير .

و قال رجل لجعفر بن محمّد عليهما السلام : إنّه وقع بيني و بين قوم منازعة في أمر و إنّي اُريد أن أتركه فيقال لي : إنّ تركك له ذلّ فقال جعفر عليه السلام : إنّما الذّليل الظالم . و مرّ المسيح بن مريم عليهما السلام بقوم من اليهود فقالوا له شرّاً ، فقال لهم خيراً ، فقيل له : إنّهم يقولون شرّاً و أنت تقول خيراً ؟ فقال : كلٌّ واحد ينفق ممّا عنده . وقال لقمان : ثلاثة لايعرفون إلّا عند ثلاثة : لايعرف الحليم إلّا عند الغضب ولا الشجاع إلّا عند الحرب ، ولا تعرف أخاك إلّا عند حاجتك إليه .

---

(١) أخرجه ابو نعيم فى كتاب الايجاز باسناد ضعيف والطبرانى من حديث ام سلمة باسناد فيه لين (المغنى) .

(٢) رواه الاصبهانى عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده كما فى الترغيب ج ٣ ص ٤١٨ .

(٣) لم أعثر على اصله انما أورده الشعرانى فى الطبقات ج ١ ص ٢٨ .

أقول: ومن طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله يحبّ الحييّ الحليم العفيف المتعفّف» (١).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أعزّ الله بجهل قطّ ولا أذلّ بحلم قطّ» (٢).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول: إنّه ليعجبني الرّجل أن يدركه حلمه عند غضبه» (٣).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كفى بالحلم ناصراً، وقال: إذا لم تكن حليماً فتحلّم» (٤).

وعن حفص بن أبي عائشة قال: «بعث أبو عبدالله عليه السلام غلاماً له في حاجة فأبطأ فخرج أبو عبدالله عليه السلام في أثره فوجده نائماً فجلس عند رأسه يروّحه حتّى انتبه فلمّا انتبه قال له أبو عبدالله عليه السلام: يا فلان والله ما ذلك لك تنام اللّيل والنّهار لك اللّيل ولنا منك النّهار» (٥).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان فيقولان للسفيه منهما: قلت وقلت وأنت أهل لما قلت ستجزى بما قلت، ويقولان للحليم منهما: صبرت وحلمت سيغفر الله لك إن أتممت ذلك، قال: فإن ردّ الحليم عليه ارتفع الملكان» (٦).

وعن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال: «لا يكون الرّجل عابداً حتّى يكون حليماً وإنّ الرّجل كان إذا تعبّد في بني إسرائيل لم يعدّ عابداً حتّى يصمت قبل ذلك عشر سنين» (٧).

قال أبو حامد: ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدّم إليه الطعام فخرجت امرأة الحكيم وهي سيّئة الخلق فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم فخرج الصديق مغضباً فتبعه الحكيم وقال: أتذكر يوماً كنّا في منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة وأفسدت ما عليها فلم يغضب أحدٌ منّا فقال: نعم فقال: احسب

---

(١) الى (٧) الكافي ج ٢ ص ١١٢ باب الحلم.

أنّ هذه مثل تلك الدّجاجة فسرّي عن الرّجل وانصرف وقال : صدق الحكيم ، الحلم شفاء من كلّ ألم .

و ضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب فقيل له : في ذلك فقال : أقمته مقام حجرة تعثّرت بها فوقعت فذبحت الغضب ، وقال محمود الورّاق :

سألزم نفسي الصفح عن كلّ مذنب ✿ و إن كثرت منه عليّ الجرائم
و ما الناس إلّا واحد من ثلاثة ✿ شريف و مشروف و مثل مقاوم
فأمّا الّذي فوقي فأعرف فضله ✿ و أتبع فيه الحقّ والحقّ لازم
و أمّا الّذي دوني فإن قال صنت عن ✿ أجابته عرضي و إن لام لائم
و أمّا الّذي مثلي فإن زلّ أوهفا ✿ تفضّلت إنّ الفضل بالخير حاكم

✿(بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام)✿

إعلم أنّ كلّ ظلم صدر من شخص فلاتجوز مقابلته بمثله فلاتجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولامقابلة التجسّس بالتجسّس ، ولامقابلة السبّ بالسبّ ، و كذا سائر المعاصي و إنّما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به و فصّلناه في كتب الفقه ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إن امرءُ عيّرك بما فيك فلا تعيّره بما فيه »[١].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « المستبّان شيطانان متهاتران »[٢] وشتم رجل أبابكر وهوساكت فلمّا ابتدأ لينتصر منه قام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « فقال أبوبكر : إنّك كنت ساكتاً لمّا شتمني فلمّا تكلّمت قمت ؟ قال : لأنّ الملك كان يجيب عنك فلمّا تكلّمت ذهب الملك و جاء الشيطان فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان »[٣] .

و قال قوم : تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ونهيه صلّى الله عليه وآله وسلّم عن التعيير بمثله نهي تنزيه والأفضل تركه و لكنّه لا يعصي بفعله والّذي يرخّص فيه أن تقول : من أنت و هل أنت إلّا من بني فلان ومثل قوله : يا أحمق ، قال مطرف : كلّ الناس أحمق فيما

(١) أخرجه احمد من حديث جابر بن مسلم وقد تقدم .
(٢) تقدم عن الطيالسى ورواه ابن حبان كمافى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٦٩ .
(٣) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٧٢ من حديث سعيد بن المسيب .

بينه و بين ربّه إلّا أنّ بعض الناس أقلّ حماقة من بعض ، و قال ابن عمر في حديث طويل : حتّى ترى الناس كلّهم حمقى في ذات الله ، و كذلك قوله : ياجاهل ، إذ ما من أحد إلّا و فيه جهل فقد آذاه بما ليس بكذب ، و كذلك قوله : ياسيّىء الخلق ، يا صفيق الوجه ثلاباً للأعراض (*) وكان ذلك فيه ، و كذلك قوله : لو كان فيك حياء لما تكلّمت و ما أحقرك في عيني بما فعلت وأخزاك الله وانتقم منك .

فأمّا النميمة والغيبة والكذب وسبّ الوالدين فحرام بالاتّفاق والدّليل على جواز ما ليس بكذب ولاحرام كالنسبة إلى الزّنى والسبّ والفحش ما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « المستبّان ما قالا فعلى البادي منهما حتّى يعتدي المظلوم » [(١)].

أقول : ومن طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن الكاظم عليه السلام في رجلين يتسابّان قال : « البادي منهما أظلم و وزره و وزر صاحبه عليه مالم يعتذر إلى المظلوم » [(٢)].

قال أبوحامد : فأثبت للمظلوم انتصاراً إلى أن يعتدي ، فهذا القدر هو الّذي أباحه و هو رخصة في الايذاء جزاء على إيذائه السابق ولا تبعد الرخصة في هذا القدر و لكن الأفضل تركه لأنّه يجرّ إلى ما وراءه ولايمكن الاقتصار إلى مقدار الحقّ فيه ، والسّكوت عن أصل الجواب لعلّه أيسر من الشروع في الجواب و الوقوف على حدّ الشرع فيه ، و لكن من النّاس من لايقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب و لكن يعود سريعاً و منهم من يكفّ نفسه في الابتداء و لكن يحقد على الدّوام ، والنّاس في الغضب أربعة فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضاء [(٣)] بطيىء الوقود بطيىء الخمود ، وبعضهم بطيىء الوقود سريع الخمود ، وهو الأحمد مالم ينته إلى فتور الحميّة و الغيرة ، و بعضهم سريع الوقود بطيىء الخمود و هذا هو شرّهم ، و في الخبر « المؤمن سريع الغضب سريع الرّضا فهذه بتلك » [(٤)].

قال أبو سعيد الخدريّ : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ألا إنّ بني آدم خلقوا على

(*) ثلبه ثلباً من باب ضرب : عابه وتنقصه ، والمثلبة : المسبة .

(١) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٢٣٥ و تقدم عن عدة من المصادر .

(٢) الكافي ج ٢ ص ٣٦٠ . (٣) الحلفاء : نبت معروف والغضا شجرة من الاثل خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى زمانا طويلا . (٤) تقدم سابقاً .

طبقات شتّى منهم بطيء الغضب سريع الفيء، و منهم سريع الغضب سريع الفيء، فتلك بتلك، و منهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا و إنّ خيرهم البطيء الغضب السّريع الفيء و شرّهم السّريع الغضب البطيء الفيء »[1] ولمّا كان الغضب في الحال يهيج و يثور في كلّ إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحداً في حال غضبه عليه لأنّه ربّما يتعدّى الواجب ولأنّه يكون متغيّظاً عليه فيكون متشفّياً لغيظه، مريحاً نفسه، صاحب حظّ فيه، وينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله لا لنفسه. رأى بعض الولاة سكران فأراد أن يأخذه ويعزّره فشتمه السكران فرجع وقال: أغضبني ولو عزّرته لكان ذلك لغضبي لنفسي ولم اُحبّ أن أضرب مسلماً حميّة لنفسي.

☼(القول في معنى الحقد و نتايجه و فضيلة العفو والرفق)☼

إعلم أنّ الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفّي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً و معنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه و أن يقوم على ذلك و يبقى و قد قال صلّى الله عليه وآله: « المؤمن ليس بحقود »[2] فالحقد ثمرة الغضب والحقد يثمر ثمانية اُمور: الأوّل الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن يتمنّى زوال النعمة عنه فتغتمّ بنعمة إن أصابها و تسرّ بمصيبة إن نزلت به، و هذا من فعل المنافقين - أعني الحسد - وسيأتي ذمّه، الثاني أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن فتشمت بما يصيبه من البلاء، الثالث أن تهجره و تصارمه[3] وتنقطع عنه و إن طلبك و أقبل عليك، الرابع و هو دونه أن تعرّض عنه استصغاراً له، الخامس أن تتكلّم فيه بما لا يحلّ من كذب و غيبة و إفشاء سرّ وهتك ستر وغيره، السّادس أن تحاكيه استهزاءً به و سخرية منه، السابع إيذاؤه بالضرب و ما يؤلم بدنه، الثامن أن تمنعه حقّه من صلة رحم أو قضاء دين أو ردّ مظلمة و كلّ ذلك حرام، و أقلّ درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة و لا تخرج بسبب

---

(١) أخرجه الطيالسي تحت رقم ٢١٥٦ والبزار باختلاف في لفظه من طريق بن شريك عن ابيه هما ثقتان وفيهما ضعف و بقية رجاله رجال الصحيح عن ابي هريرة كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٨. (٢) تقدم في كتاب العلم. (٣) اي تقاطعه.

الحقد إلى ما تعصي الله به و لكن تستثقله بالباطن و لا ينتهي قلبك عن بغضه حتّى تمتنع ممّا كنت تتطوّع به من البشاشة والرّفق والعناية، و القيام بحاجاته، و المجالسة معه على ذكر الله، والمعاونة على المنفعة له، أو تترك الدّعاء له والثناء عليه أو التحريض على برّه و مواساته، فهذا كلّه ممّا ينقص درجتك في الدّين و يحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل، وإن كان لا يعرضك لعقاب الله. والأولى أن يبقى على ما كان فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس و إرغاماً للشيطان فذلك هو مقام الصدّيقين وهو من فضائل أعمال المقرّبين، فللحقود ثلاثة أحوال عند القدرة أحدها أن يستوفي حقّه الّذي يستحقّه من غير زيادة أو نقصان و هو العدل، والثاني أن يحسن إليه بالعفو والصّلة و ذلك هو الفضل، والثالث أن يطلبه[1] بما لا يستحقّه وذلك هو الجور وهو اختيار الأراذل والثاني هو اختيار الصدّيقين والأوّل هو منتهى درجة الصالحين، ولنذكر الآن فضيلة العفو والإحسان.

☆(فضيلة العفو)☆

إعلم أنّ العفو أن تستحقّ حقاً فتسقطه وتبرأ عنه من قصاص أو غرامة وهو غير الحلم و كظم الغيظ، فلذلك أفردناه قال الله تعالى: «خذ العفو و أمر بالعرف - الآية -»[2] و قال تعالى: «وإن تعفوا أقرب للتقوى»[3].

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «التواضع لا يزيد العبد إلّا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، والعفو لا يزيد العبد إلّا عزّاً فاعفوا يعزّكم الله، والصدقة لا تزيد المال إلّا كثرة فتصدّقوا يغنكم الله»[4].

و قالت عائشة: «ما رأيت رسول الله صلّى الله عليه وآله منتصراً من مظلمة ظلمها قطّ مالم ينتهك حرمة من محارم الله فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدّهم في ذلك

(١) في الاحياء [أن يظلمه بما لا يستحقه].

(٢) آل عمران: ١٩٨. (٣) البقرة: ٢٣٨.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت عن محمد بن عميرة العبدي بسند ضعيف كما في الجامع الصغير ولاحمد في مسند عبدالرحمن بن عوف مثله راجع المسند ج ١ ص ١٩٣.

غضباً وما خيّر بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ممّا لم يكن مأثماً » (١).

و قال عقبة بن عامر : « لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فبدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي فقال : يا عقبة ألا اُخبرك بأفضل أخلاق أهل الدُّنيا والآخرة ؟ تصل من قطعك و تعطي من حرمك و تعفو عمّن ظلمك » (٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « قال موسى يا ربّ أيّ عبادك أعزّ عليك ؟ قال : الّذي إذا قدر عفا » (٣).

و جاء رجلٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يشكو مظلمة فأمره النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يجلس و أراد أن يأخذ له بمظلمته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ المظلومين هم المفلحون يوم القيامة » فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث (٤).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » (٥).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا بعث الله الخلايق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يا معشر الموحّدين إنّ الله قدعفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض» (٦).

و روي « أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكّة طاف بالبيت وسعى وصلّى ركعتين ثمّ أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال : ما تقولون و ما تظنّون ؟ قالوا : نقول أخ وابن عمّ حليمٌ رحيمٌ - قالوا ذلك ثلاثاً - فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أقول كما قال أخي يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم و هو أرحم الرّاحمين » قال :

---

(١) أخرجه مسلم باختلاف فى اللفظ ج ٧ ص ٨٠ و قد تقدم .

(٢) أخرجه أحمد ج ٤ ص١٤٨ و١٥٨ والطبرانى وأحداسنادى أحمد رجاله ثقات كما فى مجمع الزوائدج ٨ ص ١٨٩ .

(٣) أخرجه الخرائطى فى المكارم والبيهقى فى الشعب من حديث ابى هريرة كما فى الجامع الصغير .

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الغضب من رواية أبى صالح الحنفى بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٥) أخرجه الترمذى ج ١٣ ص ٦٦ من حديث عائشة .

(٦) ما عثرت على لفظ الحديث .

فخرجوا كأنّما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام »[١].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنّة قيل : من ذا الّذي أجره على الله ؟ قال : العافون عن الناس ، فيقوم كذا و كذا ألفاً فيدخلونها بغير حساب »[٢].

و قال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا ينبغي لوالي أمر أتى بحدّ إلّا أقامه ، والله عفوّ يحبّ العفو ثمّ قرأ فليعفوا وليصفحوا الآية »[٣].

و قال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث من جاء بهنّ مع إيمان دخل من أيّ أبواب الجنّة شاء و زوّج من الحور العين حيث شاء : من أدّى ديناً خفيّاً وقرأ في دبر كلّ صلاة « قل هو الله أحد » عشر مرّات و عفا عن قاتله ، قيل : أو إحداهنّ يا رسول الله ؟ قال : أو إحداهنّ »[٤].

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته : ألا أخبركم بخير خلائق الدّنيا والآخرة العفو عمّن ظلمك و تصل من قطعك والإحسان إلى من أساء إليك و إعطاء من حرمك »[٥].

وعنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : عليكم بالعفو فإنّ العفو لا يزيد العبد إلّا عزّاً فتعافوا يعزّكم الله »[٦].

وعن أبي حمزة الثمالي ، عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال : سمعته يقول : « إذا كان يوم القيامة جمع الله تعالى الأوّلين والآخرين في صعيد واحد ثمّ ينادي مناد أين

---

(١) أورده جل المؤرخين في قصة فتح مكة راجع تاريخ الطبرى و سيرة ابن هشام والكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٢٠ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى مكارم الاخلاق وفيه فضل بن يسار ولا يتابع على حديثه .

(٣) أخرجه أحمد ج ١ ص ٤٣٨ ، والحاكم و صححه .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الاوسط فى الدعاء بسند ضعيف كما فى المغنى .

(٥) المصدر ج ٢ ص ١٠٧ والخلائق جمع الخليقة و هو الطبيعة والمراد هنا الملكات النفسانية الراسخة .

(٦) الكافى ج ٢ ص ١٠٧ و ١٠٨ باب العفو .

أهل الفضل؟ قال: فيقوم عنق من الناس فتلقّاهم الملائكة فيقولون: و ما كان فضلكم؟ فيقولون: كنّا نصل من قطعنا، ونعطي من حرمنا، و نعفو عمّن ظلمنا، قال: فيقال لهم: صدقتم ادخلوا الجنّة»(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «الندامة على العفو أفضل و أيسر من الندامة على العقوبة»(٢).

وعنه عليه السلام قال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله اُتي باليهوديّة الّتي سمّت الشاة للنبيّ صلى الله عليه وآله فقال لها: ما حملك على ماصنعت؟ فقالت: قلت: إن كان نبيّاً لم يضرّه وإن كان ملكاً أرحت الناس منه، قال: فعفا رسول الله صلى الله عليه وآله عنها»(٣).

و عن أبي عبدالله عليه السلام «ثلاث من مكارم الدّنيا والآخرة: تعفو عمّن ظلمك و تصل من قطعك و تحلم إذا جهل عليك»(٤).

وعن أبي الحسن عليه السلام قال: «ما التقت فئتان قطّ إلّا نصر أعظمهما عفواً»(٥).

و عن معتّب قال: «كان أبو الحسن موسى عليه السلام في حائط له يصرم(٦) فنظرت إلى غلام له قد أخذ كارة من تمر فرمى بها وراء الحائط فأتيته و أخذته و ذهبت به إليه فقلت له: جعلت فداك إنّي وجدت هذا وهذه الكارة، فقال للغلام: يافلان، قال: لبّيك، قال: أتجوع؟ قال: لا يا سيّدي، قال: فتعرى؟ قال: لا يا سيّدي، قال: فلأيّ شيء أخذت هذا؟ قال: اشتهيت ذلك، قال: إذهب فهي لك و قال: خلّوا عنه».

قال أبو حامد: الآثار؛ قيل لراهب: أرأيت ذا القرنين أكان نبيّاً قال: لا ولكنّه إنّما اُعطي ما اُعطي بأربع خصال كنّ فيه: كان إذا قدر عفا، وإذا وعد وفا، و إذا حدّث صدق، ولا يجمع اليوم لغد، فقال بعضهم: ليس الحليم من ظلم فحلم حتّى إذا قدر انتقم ولكن الحليم من ظلم فحلم، ثمّ قدر فعفا. وقيل: القدرة تذهب الحفيظة يعني الحقد والغضب. و روي أن سارقاً دخل على خباء عمّار بن ياسر بصفّين فقيل له:

---

(١) الى (٥) الكافي ج ٢ ص ١٠٧ و ١٠٨ باب العفو.

(٦) صرم النخل: جزه والفعل كضرب. والخبر في الكافي ج ٢ ص ١٠٨.

اقطعه فإنّه من أعدائنا فقال : بل أستر عليه لعلّ الله أن يستر عليّ يوم القيامة .

وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع متاعاً فابتاع ثمّ طلب الدّراهم وكانت في عمامته فوجدها قد حلّت فقال : لقد جلست وإنّها لمعي فجعلوا يدعون على السارق اللّهمّ اقطع يد السارق الّذي أخذها فقال عبد الله : اللّهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها ، وإن كان حملته على الذّنب جرأة فاجعله آخر ذنوبه .

وقال الفضيل : ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان جلس إليّ في المسجد الحرام ، ثمّ قام ليطوف فسرقت دنانير كانت معه ، فجعل يبكي فقلت : أعلى الدّنانير تبكي ؟ قال : لا ولكن مثّلتني وإيّاه بين يدي الله عزّ وجلّ فأشرف عقلي على إدحاض حجّته فبكائي رحمة له .

وقيل مكتوب في الانجيل : من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان .

(فضيلة الرفق)

إعلم أنّ الرّفق محمود ويضادّه العنف والحدّة ، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة والرّفق واللّين نتيجة حسن الخلق والسلامة وقد يكون سبب الحدّة الغضب ، وقد يكون سببها شدّة الحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكّر ويمنع من التثبّت ، فالرّفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلّا حسن الخلق ولا يحسن الخلق إلّا بضبط قوّة الغضب وقوّة الشهوة وحفظهما على حدّ الاعتدال ، ولأجل هذا أثنى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على الرّفق وبالغ فيه فقال : « إنّه من اعطي حظّه من الرّفق اُعطي حظّه من خير الدّنيا والآخرة ، ومن حرم حظّه من الرّفق حرم حظّه من خير الدّنيا والآخرة » (١).

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إذا أحبّ الله أهل بيت أدخل عليهم الرّفق » (٢).

---

(١) اخرجه الترمذي بنحوه وأخرجه بلفظه أحمد والعقيلي في الضعفاء في ترجمة عبدالرحمن بن أبي بكر المليكي وضعفه عن القاسم عن عائشة (المغني) .

(٢) أخرجه احمد من حديث عائشة بسند صحيح كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٩ ولفظه هكذا «اذا اراد الله بأهل بيت خيراً - الحديث - » وهكذا رواه البزار عن جابر .

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: « إنّ الله ليعطي على الرّفق ما لا يعطي على الخرق ، و إذا أحبّ الله عبداً أعطاه الرّفق ، وما من أهل بيت يحرمون الرّفق إلّا قد حرموا محبّة الله » (١).

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: « إنّ الله رفيق يحبّ الرفق و يعطي عليه مالا يعطي على العنف » (٢).

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: « من يحرم الرّفق يحرم الخير كلّه » (٣).

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: « أتدرون من يحرم على النار كلّ هيّن ليّن سهل قريب» (٤).

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: « الرّفق يمن و الخرق شؤم » (٥).

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: « التأنّي من الله و العجلة من الشيطان » (٦).

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: « قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: لو كان الرّفق خلقاً يرى ما كان ممّا خلق شيء أحسن منه » (٧).

و عنه عليه السلام قال: « قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: إنّ الرّفق لم يوضع على شيء إلّا زانه ، ولا نزع من شيء إلّا شانه » (٨).

و عنه عليه السلام: « إنّ الله رفيق يحبّ الرفق » (٩).

و عنه عليه السلام قال: « إنّ لكلّ شيء قفلاً و قفل الايمان الرّفق ويعطى على الرّفق مالا يعطى على العنف» (١٠).

---

(١) أخرجه الطبراني ورجاله ثقات من حديث جرير بن عبدالله كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٦٨٨ .

(٣) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٥٤ من حديث جرير بن عبدالله .

(٤) أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحيهما كما في الترغيب والترهيب ج٣ ص ٤١٨ .

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٦) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٧٢ .

(٧) الى (١٠) المصدر ج٢ ص ١١٩ وص ١٢٠ باب الرفق .

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الرّفق يمنٌ والخرق شؤم » [(١)].

و عنه عليه السلام قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما اصطحب اثنان إلّا كان أعظمهما أجراً ، وأحبّهما إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه » [(٢)].

و عنه عليه السلام « من كان رفيقاً في أمره نال مايريد من الناس » [(٣)].

و عنه عليه السلام « إنّ الله رفيقٌ يحبّ الرّفق ، فمن رفقه بعباده تسليله أضغانهم ، و مضادّته لهواهم و قلوبهم ، و من رفقه بهم أنّه يدعهم على الأمر يريد إزالتهم عنه رفقاً بهم لكيلا يلقي عليهم عرى الإيمان و مثاقلته بجملة واحدة فيضعفوا ، فإذا أراد ذلك نسخ الأمر بالآخر فصار منسوخاً »[(٤)].

و عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال : « الرّفق نصف العيش» [(٥)].

و عنه عليه السلام قال لمن جرى بينه وبين قومه كلام : « ارفق بهم فإنّ كفر أحدكم في غضبه ، ولاخير فيمن كان كفره في غضبه » [(٦)].

و عن عمرو بن أبي المقدام رفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قال : « إنّ في الرّفق الزّيادة والبركة و من يحرم الرّفق يحرم الخير » [(٧)].

و عنه رفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله « ما زوي الرّفق عن أهل بيت إلّا زوي عنهم الخير » [(٨)].

قال أبو حامد بعدذكر الآثار : فهذا ثناء أهل العلم على الرّفق وذلك لأنّه محمود و مفيد في أكثر الأحوال و أغلب الأمور ، و الحاجة إلى العنف قد تقع لكن على الندور وإنّما الكامل من يميّز مواقع الرّفق عن مواقع العنف فيعطي كلّ أمر حقّه فإن كان قاصر البصيرة وأشكل عليه حكم واقعة من الوقايع فليكن ميله إلى الرّفق فإنّ النجح معه في الأكثر .

---

(١) الى (٣) الكافي ج ٢ ص ١١٩ و ص ١٢٠ باب الرفق .
(٤) المصدر ج٢ ص١١٨ والتسليل : انتزاع الشيء واخراجه في رفق ، والاضغان : الاحقاد التي في القلوب والعداوة والبغضاء ، والمضادة منع الخصم عن الامر برفق .
(٥) الى (٨) الكافي ج ٢ ص ١١٩ و١٢٠ باب الرفق .

٭(القول في ذمّ الحسد)٭

٭(و في حقيقته واسبابه و معالجته وغاية الواجب في ازالته)٭

(بيان ذمّ الحسد)

إعلم أنّ الحسد من نتائج الحقد ، و الحقد من نتائج الغضب ، فهو فرع فرع الغضب و الغضب أصل أصله ، ثمّ للحسد من الفروع الذّميمة ما لايكاد يحصى وقد ورد في ذمّ الحسد خاصّة أخبار كثيرة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النهي عن الحسد و أسبابه وثمراته : « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً»[٢].

وروي « أنّه صلى الله عليه وآله وسلم شهد لرجل من الأنصار بأنّه من أهل الجنّة فلمّا فتّشوا عن حاله ما رأوه يعمل عملاً كثيراً غير أنّه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ولم يقم حتّى يقوم لصلاة الفجر فقيل له في ذلك فقال : ما هو إلّا ما ترون غير أنّي لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشّاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إيّاه»[٣].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث لا ينجو منهنّ أحدٌ : الظنّ و الطيرة و الحسد ، وسأُحدّثكم بالمخرج من ذلك إذا ظننت فلا تحقّق ، و إذا تطيّرت فامض ، و إذا حسدت فلا تبغ»[٤]

و في رواية « ثلاث لا ينجو منهنّ أحدٌ و قلّ من ينجو منهنّ »[٥] فأثبت

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢١٠ في حديث عن أنس .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم و قد تقدم مراراً .

(٣) رواه أحمد في حديث طويل في مسند أنس باسناد على شرط الشيخين والنسائى و أبو يعلى والبزار و سمى الرجل المبهم سعداً راجع الترغيب ج ٣ ص ٥٤٩ .

(٤) و(٥) أخرجهما ابن أبى الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبى هريرة والرواية الاولى فيها يعقوب بن محمد الزهرى و موسى بن يعقوب ضعفهما الجمهور والثانية رواها ابن أبى الدنيا أيضاً مرسلا . كما في المغنى

في هذه الرّواية إمكان النجاة .

و قال صلّى الله عليه وآله : « دبّ إليكم داء الأُمم من قبلكم الحسد و البغضاء و البغضة هي الحالقة ، لا أقول : حالقة الشعر ولكن حالقة الدّين ، و الّذي نفس محمّد بيده لا تدخلون الجنّة حتّى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتّى تحابّوا ألا اُنبّئكم بما يثبت ذلك لكم افشوا السلام بينكم»[1].

و قال صلّى الله عليه وآله : «كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر»[2].

و قال صلّى الله عليه وآله : « إنّه سيصيب اُمّتي داء الأُمم ، قالوا : و ما داء الأُمم ؟ قال : الأشر و البطر والتكاثر و التنافس في الدّنيا و التباعد و التحاسد حتّى يكون البغي ثمّ يكون الهرج» [3].

و قال صلّى الله عليه وآله : « لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك » [4].

و روي أنّ موسى عليه السلام لمّا تعجّل إلى ربّه رأى في ظلّ العرش رجلاً فغبطه بمكانه و قال : إنّ هذا لكريمٌ على ربّه فسأل ربّه أن يخبره باسمه فلم يخبره باسمه و قال : اُحدّثك من عمله بثلاث : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يعقّ والديه . ولا يمشي بالنميمة .

وقال زكريّا عليه السلام : قال الله تعالى : «الحاسد عدوٌّ لنعمتي ، متسخّط لقضائي ، غير راض لقسمتي الّتي قسمت بين عبادي ». .

و قال صلّى الله عليه وآله : « أخوف ما أخاف على اُمّتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون و يقتتلون» [5].

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي من حديث الزبير بن العوام بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي و أبو مسلم الكشي أيضاً و يزيد ضعيف كما في المغني . و سيأتي عن الكافي مثله .

(٣) أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

(٤) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٣١٢ من حديث واثلة بن الاسقع .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الاشعري (المغني).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإنّ كلّ ذي نعمة محسود »[١].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ لنعم الله أعداءً فقيل : ومن أولئك ؟ قال : الّذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله »[٢].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ستّة يدخلون النار قبل الحساب بستّة قيل : يا رسول الله منهم ؟ قال : الامراء بالجور ، و العرب بالعصبيّة ، والدّهاقين بالتكبّر ، والتجّار بالخيانة و أهل الرّستاق بالجهالة ، والعلماء بالحسد »[٣].

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الرّجل ليأتي بأيّ بادرة فيكفر[٤] و إنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب »[٥].

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « آفة الدّين الحسد و العجب و الفخر »[٦].

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله تعالى لموسى بن عمران : يا ابن عمران لاتحسدنّ الناس على ما آتيتهم من فضلي ، و لا تمدّنّ عينيك إلى ذلك ولا تتبعه نفسك ، فإنّ الحاسد ساخط لنعمي ، صادّ لقسمي الّذي قسمت بين عبادي و من يك كذلك فلست منه وليس منّي »[٧].

و عنه عليه السلام قال : « اتّقوا الله و لا يحسد بعضكم بعضاً إنّ عيسى ابن مريم عليه السلام كان من شرايعه السيح في البلاد ، فخرج في بعض سيحه و معه رجلٌ من أصحابه

---

(١) أخرجه العقيلى فى الضعفاء وابن عدى فى الكامل والطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب . (الجامع الصغير)

(٢) أخرج الطبرانى فى الاوسط من حديث ابن عباس « ان لاهل النعم حساداً فاحذروهم » . (المغنى)

(٣) أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين (المغنى) .

(٤) البادرة : ما يبدر منحدتك فى الغضب من قول أو فعل ، وفى النهاية : الكلام الذى يسبق الانسان فى الغضب .

(٥) الى (٧) الكافى باب الحسد ج ٢ ص ٣٠٦ و٣٠٧.

قصيرٌ وكان كثير اللّزوم لعيسى ، فلمّا انتهى عيسى عليه السلام إلى البحر قال : بسم الله بصحّة يقين منه فمشي على ظهر الماء فقال الرّجل القصير حين نظر إلى عيسى عليه السلام جازه : بسم الله بصحّة يقين منه ، فمشى على الماء ولحق بعيسى ، فدخله العجب بنفسه فقال هذا عيسى روح الله يمشي على الماء و أنا أمشي على الماء فما فضله عليَّ قال : فرمس في الماء(*) ، فاستغاث بعيسى فتناوله من الماء فأخرجه ، ثمَّ قال له : ما قلت يا قصير ؟ قال : قلت : هذا روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي فدخلني من ذلك عجبٌ فقال له عيسى : لقد وضعت نفسك في غير الموضع الّذي وضعك الله فيه فمقتك الله على ما قلت ، فتب إلى الله عزَّ وجلَّ ممّا قلت ، قال : فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته الّتي وضعه الله فيها فاتّقوا ولا يحسدنَّ بعضكم بعضاً » [1].

وعنه عليه السلام قال : «إنَّ المؤمن يغبط ولايحسد ، والمنافق يحسد ولا يغبط»[2].

وفي مصباح الشريعة [3] عنه عليه السلام قال : « الحاسد يضرُّ بنفسه قبل أن يضرَّ بالمحسود كابليس أورث بحسده لنفسه اللّعنة ولآدم الاجتباء و الهدى والرَّفع إلى محلِّ حقائق العهد و الاصطفاء ، فكن محسوداً ولا تكن حاسداً فانَّ ميزان الحاسد أبداً خفيفٌ بثقل ميزان المحسود ، و الرّزق مقسوم فما ذا ينفع الحسد الحاسد ؟ و ما ذا يضرُّ المحسود الحسد ؟ و الحسد أصله من عمى القلب وجحود فضل الله وهما جناحان للكفر ، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد و هلك مهلكاً لاينجو منه أبداً ، ولا توبة للحاسد لأنّه مصرٌّ عليه ، معتقد به ، مطبوع فيه ، يبدو بلامعارض به ولا سبب ، و الطبع لا يتغيّر عن الأصل وإن عولج » .

قال أبوحامد : الآثار ؛ قال بعض السلف : إنَّ أوَّل خطيئة كانت هي الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام إذا اُمر أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية .

و قال بكر بن عبد الله المزني : كان رجل يغشي بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول : أحسن إلى المحسن باحسانه و المسيء سيكفيكه مساويه ، فحسده رجلٌ

(*) «فرمس» على صيغة المجهول أى غمس من رمست الميت اذا دفنته في التراب .

(١) و (٢) الكافي باب الحسد ج ٢ ص ٣٠٦ و٣٠٧.

(٣) الباب الحادى والخمسون.

على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك فقال: إنّ هذا الّذي يقوم بحذائك و يقول مايقول يزعم أنّ الملك أبخر (١)، فقال له الملك: فكيف يصحّ ذلك عندي؟ قال: تدعو به غداً إليك فإذا دنى منك وضع يده على أنفه أن لا يشمّ ريح البخر فقال له: انصرف حتّى أنظر فخرج من عند الملك فدعا الرّجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم فخرج الرّجل من عنده وقام بحذاء الملك فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه والمسيء سيكفيكه مساويه، فقال له الملك: ادن منّي فدنى منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشمّ الملك منه ريح الثوم، فقال الملك في نفسه ما أدري فلاناً إلّا صدق، قال: وكان الملك لايكتب بخطّه إلّا لجايزة أو صلة فكتب له كتاباً بخطّه إلى عامل من عمّاله إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه و اسلخه واحش جلده تبناً و ابعث به إليّ، فأخذ الكتاب و خرج فلقيه الرّجل الّذي سعى به فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال خطّ الملك أمر لي بصلة، فقال: هبه لي، فقال: هولك، فأخذه و مضى إلى العامل، فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك قال: إنّ الكتاب ليس هولي، فالله الله في أمري حتّى تراجع إلى الملك قال: ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلده تبناً و بعث به، ثمّ عاد الرّجل إلى الملك كعادته و قال مثل قوله فتعجّب الملك وقال: مافعل الكتاب فقال: لقيني فلان فاستوهبه منّي فوهبته له فقال الملك: إنّه ذكر لي أنّك تزعم أنّي أبخر؟ قال: ما قلت ذلك، قال: فلم وضعت يدك على أنفك؟ قال: كان أطعمني طعاماً فيه ثوم فكرهت أن تشمّه، قال: صدقت ارجع إلى مكانك فقد كفاك المسيء مساويه.

و قال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدّنيا لأنّه إن كان من أهل الجنّة فكيف أحسده على أمر الدّنيا و هي حقيرة في الجنّة، و إن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدّنيا وهو يصير إلى النار. وسئل بعضهم هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب نعم ولكن غمّه في صدرك و إنّه لا يضرّك ما لم تعدّ به يداً و لا لساناً. و قال أبو الدّرداء: ماأكثر عبد ذكر الموت إلّا قلّ فرحه

(١) بخر يبخر - من باب علم - الفم: انتن ريحه فهو أبخر.

و قلّ حسده . وقيل : كلّ الناس أقدر على رضاه إلّا حاسد نعمة فإنّه لا يرضيه إلّا زوالها و لذلك قيل :

كلّ العداوة قد يرجى مودّتها ✿ إلّا عداوة من عاداك من حسد

و قد قال بعض الحكماء : الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقى . وقال أعرابيٌّ : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد ، إنّه يرى النعمة عليك نقمة عليه . و قال بعضهم : الحاسد لا ينال من المجالس إلّا مذمّة و ذلّاً ، ولا ينال من الملائكة إلّا لعنة و بغضاً ، ولا ينال من الخلق إلّا جزعاً و غمّاً و لا ينال عند النزع إلّا شدّة و هولاً ، ولا ينال عند الموقف إلّا فضيحة ونكالاً .

✿(بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه)✿

إعلم أنّه لا حسد إلّا على نعمة فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان :

إحداهما أن تكره تلك النعمة و تحبّ زوالها و هذه الحالة تسمّى حسداً فالحسد حدّه كراهة النعمة وحبّ زوالها من المنعم عليه .

الحالة الثانية أن لا تحبّ زوالها ولا تكره وجودها و دوامها ولكنّك تشتهي لنفسك مثلها ، و هذه تسمّى غبطة وقد تخصّ باسم المنافسة .

و قد تسمّى المنافسة حسداً و الحسد منافسة ويوضع أحد اللّفظين بدل الآخر ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني ، و قد قال صلى الله عليه وآله : « إنّ المؤمن يغبط والمنافق يحسد »(١) فأمّا الأوّل فهو حرام لكلّ حال إلّا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين و إيذاء الخلق ، فلا يضرّك كراهتك لها ومحبّتك لزوالها فإنّك لا تحبّ زوالها من حيث أنّها نعمة بل من حيث هي آلة الفساد ولو أمنت فساده لم تغمّك بنعمته ، ويدلّ على تحريم الحسد الأخبار الّتي نقلناها ، و إنّ هذه الكراهة سخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض وذلك لا عذر فيه ولا رخصة وأيّ معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك فيها مضرّة و إلى هذا أشار القرآن بقوله : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم و إن

(١) رواه الكلينى فى الكافى ج ٢ ص ٣٠٧ تحت رقم ٧ وقد تقدم .

تصبكم سيّئة يفرحوا بها » (١) و هذا الفرح شماتة والحسد و الشماتة يتلازمان ، و قال تعالى : « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعدإيمانكم كفّاراًحسداً من عند أنفسهم » (٢) فأخبر أنّ حبّهم زوال نعمة الإيمان حسدٌ ، وقال : « ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً » (٣) و ذكر الله حسد إخوة يوسف عبّرعمّا في قلوبهم فقال : « إذ قالوا ليوسف و أخوه أحبّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين ✿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم » (٤) فلمّا كرهوا حبّ أبيه له ساءهم ذلك و أحبّوا زوالها عنه فغيّبوه عنه ، و قال تعالى : « ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا اُوتوا و يؤثرون على أنفسهم » (٥) أي لا يضيق به صدورهم و لا يغتمّون فأثنى عليهم بعدم الحسد ، وقال تعالى في معرض الإنكار : « أم يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله » (٦) و قال : « كان النّاس اُمّة واحدة - إلى قوله - إلّا الّذين اُوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم » (٧) قيل في التفسير : حسداً ، و قال تعالى : « و ما تفرّقوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » (٨) فأنزل الله العلم ليجمعهم و يؤلّف بينهم على طاعته و أمرهم أن يتألّفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كلّ واحد منهم أن يتفرّد بالرّئاسة و قبول القول فردّ بعضهم على بعض .

قال ابن عباس : كانت اليهود قبل أن يبعث النبيّ صلّى الله عليه وآله إذا قاتلوا قوماً قالوا: نسألك بالنبيّ الّذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الّذي تنزله إلّا ما نصرتنا ، فكانوا ينصرون فلمّا جاء النبيّ صلّى الله عليه وآله من ولد إسماعيل عرفوه و كفروا به بعد معرفتهم إيّاه فقال تعالى : « وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به - إلى قوله - أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أي حسداً » (٩).

(١) آل عمران : ١٢٠ . (٢) البقرة : ١٠٩.
(٣) النساء : ٨٩ . (٤) يوسف : ٨ و ٩ .
(٥) الحشر : ٩ . (٦) النساء : ٥٤ .
(٧) البقرة : ٢١٢ . (٨) الشورى : ١٤ .
(٩) أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء و ضحاك عن ابن عباس كما في الدرالمنثور ج ١ ص ٨٨ والاية في سورة البقرة : ٨٩ .

و قالت صفيّة بنت حيي للنبيّ ﷺ : جاء أبي وعمّي من عندك يوماً فقال أبي لعمّي : ما تقول فيه ؟ قال : أقول : إنّه النبيّ الّذي بشّر به موسى ، قال: فما ذا ترى ؟ قال : أرى معاداته أيّام الحياة »[(١)] فهذا حكم الحسد في التحريم .

و أمّا المنافسة فليست بحرام بل هي إمّا واجبة و إمّا مندوبة أو مباحة و قد يستعمل لفظ المنافسة بدل الحسد والحسد بدل المنافسة ، قال قثم بن العبّاس لمّا أراد هو والفضل أن يأتيا النبيّ ﷺ فيسئلانه أن يؤمّرهما على الصدقة قالا لعلي عليه السلام حين قال لهما : لاتذهبا إليه فإنّه لا يؤمّر كما عليها فقالا له : ما هذا منك إلّا نفاسة و الله لقد زوّجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك[(٢)] . أي هذا منك حسد و ما حسدناك على تزويجك فاطمة ، فالمنافسة مشتقّة في اللّغة من النفاسة و الّذي يدلّ على إباحة المنافسة قوله تعالى : « و في ذلك فليتنافس المتنافسون »[(٣)] ، و قال : « سابقوا إلى مغفرة من ربّكم »[(٤)] و إنّما المسابقة عند خوف الفوت و هو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجزع كلّ واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها ، فكيف وقد صرّح رسول الله ﷺ بذلك فقال : « لا حسد إلّا في اثنين رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحقّ ، و رجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلّمه الناس»[(٥)] ثمّ فسّر ذلك في حديث أبي كبشة الأنصاريّ فقال : « مثل هذه الأمّة مثل أربعة رجال : رجل آتاه الله مالاً و علماً فهو يعمل بعلمه في ماله ، و رجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فيقول : ربّ ! لو أنّ لي مال فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء [وهذا منه حبّ لأن يكون له مثل ما كان له من غير حبّ زوال النعمة عنه، قال :[(٦)]] و رجل آتاه الله مالاً فهو ينفق في معاصي

---

(١) أورده ابن اسحاق في السيرة قال : حدثني أبوبكر بن محمد بن عمر بن حزم قال حديث عن صفية فذكر نحوه و هو منقطع . (المغني)

(٢) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١١٨ وفيه ربيعة بن حارث مكان قثم .

(٣) المطففين : ٢٦ . (٤) الحديد : ٢١ .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٠٨ من حديث عبدالله بن مسعود .

(٦) ما بين القوسين من المؤلف (الغزالي) ذكرها توضيحاً .

الله ، و رجلٌ لم يؤته الله مالاً فيقول : لو أنَّ لي مال فلان كنت أعمل بمثل عماله ، فهما في الوزر سواء » (١) فذمّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جهة تمنّيه للمعصية لا من جهة حبّه أن يكون له من النعمة مثل ماله ، فإذاً لا حرج على من يغبط غيره في نعمة و يشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحبّ زوالها عنه ولم يكره دوامها له ، نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينيّة واجبة كالإيمان و الصلاة و الزكاة فهذه المنافسة واجبة وهو أن يحبّ أن يكون مثله لأنّه إن لم يحبّ ذلك فيكون راضياً بالمعصية و ذلك حرامٌ ، وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في المكارم و الصدقات فالمنافسة فيها مندوبٌ إليها ، و إن كانت نعمة يتنعّم فيها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحٌ و كلّ ذلك يرجع إلى إرادته مساواته واللّحوق به في النعمة وليس فيها كراهة النعمة وكان تحت هذه النعمة أمران : أحدهما راحة المنعم عليه والآخر ظهور نقصان غيره و تخلّفه عنه و هو يكره أحد الوجهين و هو تخلّف نفسه ويحبّ مساواته له .

و لا حرج على من يكره تخلّف نفسه و نقصانها في المباحات نعم ذلك ينقص من الفضل ويناقض الزّهد و التوكّل و الرّضا ، و يحجب عن المقامات الرّفيعة ولكنّه لا يوجب العصيان ، وههنا دقيقة غامضة وهو أنّه إذا أيس عن أن ينال مثل تلك النعمة و هو يكره تخلّفه و نقصانه فلا محالة يحبّ زوال النقصان وإنّما يزول نقصانه إمّا بأن ينال مثلها أو بأن تزول نعمة المحسود ، فإذا انسدّ إحدى الطريقتين فيكاد القلب لا ينفكّ عن شهوة للطريقة الاُخرى حتّى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشهى عنده من دوامها إذ بزوالها يزول تخلّفه و تقدّم غيره و هذا لا يكاد ينفكّ القلب عنه و إن كان بحيث لو ألقي الأمر إليه و ردّ إلى اختياره لسعى في إزالة النعمة عنه فهو حسود حسداً مذموماً ، وإن كان يردعه التقوى عن إزالة ذلك فيعفى عمّا يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارهاً لذلك من نفسه بعقله و دينه و لعلّه المعنيّ بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاثٌ لا ينفكّ المؤمن عنهنّ : الحسد و الظنّ و الطيرة - ثمّ قال : - و له منهنّ مخرج ، إذا حسدت

(١) أخرجه ابن ماجه فى باب النية تحت رقم ٤٢٢٨ .

فلا تبغ » (١) أي إن وجدت في قلبك شيئاً فلا تعمل به و بعيد أن يكون الإنسان مريد اللّحاق بأخيه في النعمة فيعجز عنها ، ثمّ ينفكّ عن ميل إلى زوال النعمة إذ يجد لا محالة ترجيحاً له على دوامها فهذا الحدّ من المنافسة يتآخم الحسد بحرام فينبغي أن يحتاط فيه فإنّه موضع الخطر و ما من إنسان إلّا و هو يرى فوق نفسه من معارفه وأقاربه من يحبّ أن يساويه و يكاد ينجرّ ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قويّ الإيمان وزين التقوى ، و مهما كان محرّكه خوف التفاوت و ظهور نقصانه عن غيره يجرّه ذلك إلى الحسد المذموم و إلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه حتّى ينزل هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقي إلى مساواته بإدراك النعمة و ذلك لا رخصة فيه أصلاً ، بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدّين أو مقاصد الدّنيا و لكن يعفى عنه في ذلك مالم يعمل به إن شاء الله ، و تكون كراهته لذلك من نفسه كفّارة له ، فهذه حقيقة الحسد وأحكامه .

أمّا مراتبه فأربع : الأُولى أن يحبّ زوال النعمة عنه وإن كانت لاتنتقل إليه ، و هذا غاية الخبث ، الثانية أن يحبّ زوال النعمة عنه [إليه] لرغبته في تلك النعمة مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة واسعة نالها غيره و هو يحبّ أن تكون له و مطلوبه تلك النعمة لازوالها عنه و مكروهه فقد النعمة لا تنعّم غيره بها ، الثالثة أن لا يشتهي عينها بل يشتهي لنفسه مثلها ، فإن عجز عن مثلها أحبّ زوالها عنه كيلا يظهر التفاوت بينهما ، الرابعة أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم يحصل فلا يحبّ زوالها عنه و هذا الأخير هو المعفوّ عنه إن كان في الدّنيا و المندوب إليه إن كان في الدّين ، والثالثة فيها مذموم و غير مذموم ، والثانية أخفّ من الثالثة ، و الأُولى مذموم محض ، و تسمية الثانية حسداً فيه تجوّز و توسّع ولكنّه مذموم ، قال الله تعالى : « و لا تتمنّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض » (٢) فتمنّيه لمثل

---

(١) أخرجه الطبرانى و فيه اسماعيل بن قيس الانصارى وهو ضعيف كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٨ .

(٢) النساء : ٣٢ .

ذلك غير مذموم ، أمّا تمنّيه عين ذلك فمذموم .

✿(بيان أسباب الحسد و المنافسة)✿

أمّا المنافسة فسببها حبّ مافيه المنافسة فإن كان ذلك أمراً دينيّاً فسببه حبّ الله تعالى وحبّ طاعته ، وإن كان دنيويّاً فسببه حبّ مباحات الدّنيا و التنعّم فيها ، و إنّما نظرنا الآن في الحسد المذموم ومداخله كثيرة جدًّا ولكن يحصر جملتها سبعة أسباب : العداوة و التعزّز و الكبر و التعجّب و الخوف من فوت المقاصد المحبوبة و حبّ الرئاسة وخبث النفس وبخلها فإنّه إنّما يكره النعمة عليه إمّا لأنّه عدوّه فلا يريد له الخير ، وهذا لا يختصّ بالأمثال بل يحسد الخسيس الملك بمعنى أنّه يحبّ زوال نعمته لكونه مبغضاً له بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبّه ، و إمّا أن يكون من حيث يعلم أنّه سيتكبّر بالنعمة عليه وهولا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزّة نفسه و هو المراد بالتعزّز ، و إمّا أن يكون في طبعه أن يتكبّر على المحسود و يمتنع ذلك عليه بنعمته و هو المراد بالتكبّر ، و إمّا أن يكون النعمة عظيمة و المنصب كبيراً فيتعجّب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجّب ، وإمّا أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصّل بها إلى مزاحمته في أغراضه ، و إمّا أن يكون يحبّ الرّئاسة الّتي تبتني على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها ، و إمّا أن لا يكون لسبب من هذه الأسباب بل لخبث النفس و شحّها بالخير لعباد الله ، ولا بدّ من شرح هذه الأسباب .

السبب الأوّل العداوة والبغضاء و هو أشدّ أسباب الحسد فإنّ من آذاه إنسان بسبب من الأسباب و خالفه في غرضه بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد و الحقد يقتضي التشفّي والانتقام ، فإن عجز المبغض عن أن يتشفّي منه بنفسه أحبّ أن يتشفّي منه بتغيّر الزّمان ، وربّما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله ، فمهما أصابت عدوّه بليّة فرح بذلك و ظنّها مكافاة من جهة الله له على بغضه ، و إنّما أصابه ذلك لأجله ، و مهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنّه ضدّ مراده و ربّما يظهر له أنّه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوّه الّذي آذاه بل

أنعم عليه ، بالجملة فالحسد يلزم البغض و العداوة و لا يفارقها و إنّما غاية التقى أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه ، فأمّا أن يبغض إنساناً ثمّ يستوي عنده مسرّته و مساءته فهذا غير ممكن وهذا ما وصف الله الكفّار به أعني الحسد بالعداوة ، إذ قال تعالى : « و إذا لقوكم قالوا آمنّا و إذ اخلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إنّ الله عليمٌ بذات الصدور ✿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم » [١] . و كذلك قال : « ودّوا ما عنتّم قد بدت البغضاء من أفواههم » [٢] و الحسد بسبب البغض ربّما يفضي إلى التنازع و التقاتل و استغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل وبالسعاية وهتك الستر و ما يجري مجراه .

السبب الثاني التعزّز و هو أن يثقل عليه أن يترفّع عليه غيره فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالاً خاف أن يتكبّر عليه و هو لا يطيق تكبّره ولا يسمح نفسه باحتمال صلفه [٣] و تفاخره عليه فليس من غرضه أن يتكبّر بل غرضه أن يدفع كبره فإنّه قد رضي بمساواته مثلاً ولكن لا يرضى بترفّعه عليه .

السبب الثالث الكبر وهو أن يكون في طبعه أن يتكبّر عليه و يستصغره و يستخدمه ويتوقّع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبّره و يترفّع عن متابعته أو ربّما يتشوّف إلى مساواته أو إلى أن يترفّع عليه فيعود متكبّراً بعد أن كان متكبّراً عليه ، ومن التعزّز و التكبّر كان حسد أكثر الكفّار لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ قالوا : كيف يتقدّم علينا غلامٌ يتيمٌ و كيف نطأطىء له رؤوسنا فقالوا : « لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » [٤] أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتّبعه إذا كان عظيماً ، وقال الله تعالى يصف قول قريش : « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا » [٥] كالاستحقار لهم و الأنفة منهم .

---

(١) آل عمران : ١١٩ و ١٢٠ . (٢) آل عمران : ١١٨ .
(٣) صلف ـ بكسر اللام ـ يصلف : تمدح بما ليس فيه أو عنده و أدعى فوق ذلك تكبراً فهو صلف ـ ككتف ـ و لصاحبه أى تكلم له بما يكرهه .
(٤) الزخرف : ٣١ و راجع الدر المنثور ج ٦ ص ١٦ .
(٥) الانعام : ٥٣ .

السبب الرّابع التعجّب كما أخبر الله تعالى عن الأُمم الماضية إذ قالوا : «ما أنتم إلّا بشر مثلنا » (١) و قالوا : « أنؤمن لبشرين مثلنا » (٢) ، وقالوا : « و لئن أطعتم بشراً مثلكم إنّكم إذاً لخاسرون» (٣) ، فتعجّبوا من أن يفوز برتبة الرّسالة و الوحي و القرب من الله بشر مثلهم فحسدوهم وأحبّوا زوال النبوّة عنهم جزعاً أن يفضّل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لا عن قصد تكبّر وطلب رئاسة و تقدّم عداوة و سبب آخر من ساير الأسباب و قالوا متعجّبين : « أبعث الله بشراً رسولاً » (٤) و قالوا : « لولا اُنزل علينا الملائكة » (٥) فقال تعالى : « أوعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربّكم على رجل منكم » (٦).

السبب الخامس الخوف من فوت المقاصد وذلك يختصّ بمتزاحمين على مقصود واحد فإنّ كلّ واحد منهما يحسد صاحبه في كلّ نعمة تكون عوناً له في الإنفراد بمقصوده و من هذا الجنس تحاسد الضرّات في التزاحم على مقاصد الزّوجيّة ، وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصّل به إلى مقاصد الكرامة و المال ، و كذلك تحاسد التلميذين لاستاذ واحد في نيل المنزلة في قلب الأُستاذ و تحاسد ندماء الملك و خواصّه في نيل المنزلة من قلبه للتوصّل به إلى الجاه و المال ، و كذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم ، و كذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقّهين المحصورين إذ يطلب كلّ واحد منزلة في قلوبهم للتوصّل إلى أغراض لهم .

السبب السادس حبّ الرّئاسة و طلب الجاه نفسه من غير توصّل به إلى مقصود ، و ذلك كالرّجل الّذي يريد أن يكون عديم النظير في فنّ من الفنون إذا غلب عليه حبّ الثناء و استفزّه الفرح بما يمدح به من أنّه واحد الدّهر و فريد العصر في فنّه و أنّه لا نظير له ، فإنّه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك

(١) يس : ١٥ .
(٢) المؤمنون : ٤٧ .
(٣) المؤمنون : ٣٤ .
(٤) الاسراء : ٩٤ .
(٥) الفرقان : ٢١ .
(٦) الاعراف : ٦٩ .

و أحبّ موته أو زوال النعمة عنه الّتي بها يشاركه في المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك ممّا يتفرّد هو به و يفرح بسبب تفرّده وليس السبب في هذا عداوة ولا تعزّز ولا تكبّر على المحسود ولا خوف من فوات مقصود سوى محض الرّئاسة بدعوى الانفراد و هذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس للتوصّل إلى مقاصد سوى الرّئاسة ، و قد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و لا يؤمنون به خيفة من أن تبطل به رئاستهم و استتباعهم مهما نسخ علمهم .

السبب السابع خبث النفس و شحّها بالخير لعباد الله فإنّك تجد من لا يشتغل برئاسة و تكبّر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله فيما أنعم به عليه شقّ ذلك عليه ، و إذا وصف له اضطراب اُمور النّاس و إدبارهم و فوات مقاصدهم و تنغّص عيشهم فرح به ، فهو أبداً يحبّ الإدبار لغيره ، و يبخل بنعمة الله على عباده كأنّهم يأخذون ذلك من ملكه و خزائنه ، و يقال : البخيل من يبخل بمال نفسه ، و الشحيح هو الّذي يبخل بمال غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الّذين ليس بينهم و بينه عداوة ولا رابطة و هذا ليس له سبب ظاهر إلّا خبث في النفس و رذالة في الطبع ، عليه وقعت الجبلّة ، و معالجته شديدة لأنّ الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة ويتصوّر زوالها فيطمع في إزالتها و هذا خبث في الجبلّة لا عن سبب عارض فتعسّر إزالته إذ يستحيل في العادة إزالته .

فهذه أسباب الحسد ، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم الحسد لذلك و يقوي قوّة لا يقدر معها على الإخفاء و المجاملة بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب و قلّما يتجرّد سبب واحد منها .

☼(بيان السبب فى كثرة الحسد)☼
☼(بين الامثال و الاقران و الاخوة و بنى العمّ والاقارب)☼
☼(و تأكده وقلته وضعفه فى غيرهم)☼

إعلم أنّ الحسد إنّما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب الّتي ذكرناها و إنّما

يقوى بين قوم تجتمع لهم جملة من هذه الأسباب وتتظاهر فيهم إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنّه قد يمتنع عن قبول التكبّر ولأنّه يتكبّر ولأنّه عدوّ ولغير ذلك من الأسباب و هذه الأسباب إنّما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات و يتواردون على الأغراض فإذا خالف واحد صاحبه في غرض من أغراضه نفر طبعه وأبغضه و ثبت الحقد فيه فعند ذلك يريد أن يستحقره و يتكبّر عليه و يكافيه على مخالفته لغرضه ويكره تمكّنه من النعمة الّتي توصله إلى أغراضه و تترادف جملة هذه الأسباب إذ لا رابطة بين شخصين في بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدة و كذلك في محلّتين ، نعم إذا تجاوروا في مسكن أو سوق أو مسجد أو مدرسة تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما فيثور من التناقض التنافر والتباغض و منه يثور بقيّة أسباب الحسد فلذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، والإسكاف يحسد الإسكاف و لا يحسد البزّاز إلّا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة ، و يحسد الرّجل أخاه وابن عمّه أكثر ممّا يحسد الأجانب ، والمرأة تحسد ضرّتها وسريّة زوجها أكثر ممّا يحسد أمّ الزّوج و ابنته لأنّ مقصد البزّاز غير مقصد الإسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد إذ مقصد البزّاز الثروة ولا يحصّلها إلّا بكثرة الزبون[1] وإنّما ينازعه فيه بزّاز آخر إذ حريف البزّاز لا يطلبه الإسكاف بل البزّاز ، ثمّ مزاحمة البزّاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق فلا جرم يكون حسده للجار أكثر ، و كذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد الشجاع العالم لأنّ مقصده أن يذكر بالشجاعة و يشتهر بها و يتفرّد بهذه الخصلة ، و لا يزاحمه العالم على هذا الغرض ، و كذلك يحسد العالم العالم و لا يحسد الشجاع ، ثمّ حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه و الطبيب لأنّ التزاحم بينهما على مقصود واحد أخصّ .

فأصل هذه المحاسدات العداوة و أصل العداوة التزاحم على غرض واحد

---

(١) الزبون : الحريف ، و قال الجوهري : اما الزبون للغبي والحريف فليس من كلام أهل البادية .

فالغرض الواحد لا يجمع بين متباعدين بل متناسبين فلذلك يكثر الحسد بينهم، نعم من اشتدّ حرصه و أحبّ الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنّه يحسد كلّ من هو في العالم - و إن بعد - ممّن يساهمه في الخصلة الّتي تتفاخر بها و منشأ جميع ذلك حبّ الدّنيا فإنّ الدّنيا هي الّتي تضيق على المتزاحمين، أمّا الآخرة فلا ضيق فيها، و إنّما مثال الآخرة نعمة العلم، فلا جرم من يحبّ معرفة الله تعالى و معرفة صفاته و ملائكته و أنبيائه و ملكوت أرضه و سمائه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً لأنّ المعرفة لا تضيق عن العارفين بل المعلوم الواحد يعرفه ألف ألف عالم و يفرح بمعرفته و يلتذّ به و لا تنقص لذّة واحد بسبب غيره بل تحصل بكثرة العارفين زيادة الاُنس و ثمرة الإفادة والاستفادة فلذلك لا يكون بين علماء الدّين محاسدة لأنّ مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحرٌ واسع لا ضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله سبحانه ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى لأنّ أجلّ ما عند الله سبحانه من النعيم لذّة لقائه و ليس فيها ممانعة و لا مزاحمة ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الاُنس بكثرتهم.

نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال و الجاه تحاسدوا لأنّ المال هو أعيان و أجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد آخرين و معنى الجاه ملك القلوب، و مهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا - محالة فيكون ذلك سبباً للمحاسدة، و إذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلي قلب غيره به و أن يفرح به، فالفرق بين العلم و المال أنّ المال لا يحلُّ في يد مالم يرتحل عن اليد الاُخرى و العلم في قلب العالم مستقرٌّ و يحلُّ في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه، وإنّ المال أعيان وأجسام و لها نهاية فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مالٌ ليتملّكه غيره و العلم لا نهاية له ولا يتصوّر استيعابه، فمن عوّد نفسه الفكر في جلال الله وعظمته و ملكوت أرضه و سمائه صار ذلك عنده ألذّ من كلّ نعيم و لم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأنّ غيره أيضاً لو عرف

مثل معرفته لم ينقص من لذّته بل زادت لذّته بمؤانسته فتكون لذّة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدّوام أعظم من لذّة من ينظر إلى أشجار الجنّة و بساتينها بالعين الظاهرة ، فإنّ نعيم العارف و جنّته معرفته الّتي هي صفة ذاته يأمن زوالها وهو أبداً يجني ثمارها ، فهو بروحه و قلبه متغذّ بفاكهة علمه ، و هي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، بل قطوفها دانية ، فهو و إن غمض العين الظاهرة فروحه أبداً ترتاح (١) في جنّة عالية و رياض زاهرة ، فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم ربّ العالمين : « ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخواناً على سرر متقابلين » (٢) فهذا حالهم و هم بعد في الدّنيا فماذا يظنّ بهم عند انكشاف الغطاء و مشاهدة المحبوب في العقبى فإذن لا يتصوّر أن يكون في الجنّة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الجنّة في الدّنيا محاسدة لأنّ الجنّة لا مضايقة و لا مزاحمة فيها ولا تنال إلّا بمعرفة الله الّتي لا مزاحمة فيها في الدّنيا أيضاً ، فأهل الجنّة بالضرورة برآء من الحسد في الدّنيا و الآخرة جميعاً ، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة العلّيّين إلى مضيق السجّين ، ولذلك وسم به الشيطان اللّعين وذكر من صفاته أنّه حسد آدم على ما خصّ به من الاجتباء ولمّا دعي إلى السجود استكبر و أبي و تمرّد وعصى ، فقد عرفت أنّه لا حسد إلّا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكلّ ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين الّتي هي جزء يسير من جملة الأرض ، و كلّ الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ولكن متّسعة الأقطار وافية لجميع الأبصار ، فلم يكن فيها تزاحم و لا تحاسد أصلاً ، فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه ولذّة لا مكدّر لها ، ولا يوجد ذلك في الدّنيا إلّا في معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته و أفعاله وعجائب ملكوت السماوات والأرض ، ولا ينال ذلك في الآخرة إلّا بهذه المعرفة أيضاً ، فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله و لم تجد لذّتها ففتر عنه رأيك و ضعف فيه رغبتك

---

(١) ارتاح : سر و نشط . ـ ارتاح الله له برحمته انقذه من بلية .

(٢) الحجر : ٤٧ .

فأنت فيه معذور ، فالمخنّث والعنّين لا يشتاق إلى لذّة الوقاع ، و الصبيّ لا يشتاق إلى لذّة الملك فإنّ هذه لذّات يختصّ بادراكها الرّجال دون الصبيان و المخنّثين فكذلك لذّة المعرفة أيضاً يختصّ بادراكها الرجال «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» ولا يشتاق إلى هذه اللّذّة غيرهم لأنّ الشوق بعد الذّوق و من لم يذق لم يعرف و من لم يعرف لم يشتق ومن لم يشتق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك و من لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين «و من يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين» .

✲(بيان الدواء الذى به ينفى مرض الحسد عن القلب)✲

إعلم أنّ الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب و لاتداوى أمراض القلوب إلّا بالعلم و العمل .

و العلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أنّ الحسد ضرر عليك في الدّنيا و الدّين و أنّه لا ضرر فيه على المحسود في الدّين و الدّنيا بل ينتفع بها في الدّنيا و الدّين ، ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدوّ نفسك و صديق عدوّك فارقت الحسد لا محالة ، أمّا كونه ضرراً عليك في الدّين فهو أنّك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى و كرهت نعمته الّتي قسّمها بين عباده وعدله الّذي أقامه في ملكه بخفيّ حكمته و استنكرت ذلك و استبشعته [1] و هذه جناية على حدقة التوحيد و قذى في عين الايمان وناهيك بها جناية على الدّين ، و قد انضاف إليه أنّك غششت رجلاً من المؤمنين و تركت نصيحته و فارقت أولياء الله و أنبياءه في حبّهم الخير لعباد الله و شاركت إبليس و سائر الكفّار في حبّهم للمؤمنين البلايا و زوال النعم ، و هذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النّار الحطب و تمحوها كما يمحو اللّيل النهار .

و أمّا كونه ضرراً في الدّنيا عليك : فهو أنّك تتألّم بحسدك ، و تتعذّب به ،

---

(١) استبشعه أي استقذره والبشع ضد الحسن .

ولا تزال في كدّ و غمّ إذ أعداؤك لا يخلّيهم الله عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذّب بكلّ نعمة تراها و تتألّم بكلّ بليّة تنصرف عنهم فتبقى مغموماً محزوناً متشعّب القلب ضيق النفس كما تشتهيه لأعدائك و كما يشتهي أعداؤك لك فقد كنت تريد المحنة لعدوّك فتنجّزت في الحال محنتك و غمّك نقداً ، ولا تزول النعمة على المحسود بحسدك و لولم تكن تؤمن بالبعث و الحساب لكان مقتضي الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب و مساءته مع عدم النفع ، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة فما أعجب من العاقل أن يتعرّض لسخط الله من غير نفع يناله مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة ، و أمّا إنّه لا ضرر على المحسود في دينه و دنياه فواضح لأنّ النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدّره الله من إقبال و نعمة فلا بدّ أن يدوم إلى أجل قدّره الله فلا حيلة في دفعه بل « كلّ شيء عنده بمقدار » و « لكلّ أجل كتاب » ولذلك شكا نبيّ من الأنبياء من إمرة ظالمة مستولية على الخلق بالأذى فأوحى الله تعالى إليه أن فرّ من قدّامها حتّى تنقضي أيّامها ، أي ماقدّرناه في الأزل لا سبيل إلى تغييره فاصبر حتّى تنقضي المدّة الّتي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها ، و مهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضررٌ في الدّنيا و لا يكون عليه إثم في الآخرة .

ولعلّك تقول : ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي ، و هذا غاية الجهل فإنّه بلاء تشتهيه أوّلاً لنفسك فإنّك أيضاً لا تخلو عن عدوّ يحسدك ، فلو كانت النعمة يزول بالحسد لم تبق لله عليك نعمة ولا على الخلق ولا نعمة الإيمان أيضاً لأنّ الكفّار يحسدون المؤمنين على الإيمان قال تعالى : « ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلّونكم و ما يضلّون إلّا أنفسهم و ما يشعرون » (١) إذ ما يريده الحسود لا يكون ، نعم هو يضلّ بإرادته الضلال لغيره فإنّ إرادة الكفر كفر ، فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنّه يريد أن يسلب نعمة

(١) آل عمران : ٦٩ .

الايمان بحسد الكفّار و كذا سائر النعم ، وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل و الغباوة ، فانّ كلّ واحد من حمقاء الحسّاد أيضاً يشتهي أن يخصّ بهذه الخاصيّة و لست بأولى من غيرك فنعمة الله عليك في أن لم تزل النعمة بالحسد ممّا يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تكرهها، وأمّا إنّ المحسود ينتفع به في الدّين و الدّنيا فواضح أمّا منفعته في الدّين فهو أنّه مظلوم من جهتك لا سيّما إذا أخرجك الحسد إلى القول أو الفعل بالغيبة و القدح فيه و هتك ستره وذكر مساويه فهذه هدايا تهديها إليه أعني أنّك بذلك تهدي إليه حسناتك حتّى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً عن النعمة كما حرمت في الدّنيا عن النعمة و كأنّك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل ، نعم كان الله عليه نعمة إذ وفّقك للحسنات فنقلتها إليه فأضفت له نعمة إلى نعمة وأضفت لنفسك شقاوة إلى شقاوتك .

و أمّا منفعته في الدّنيا فهو أنّ أهمّ أغراض الخلق مساءة الأعداء و غمّهم وشقاوتهم و كونهم معذّبين مغمومين ، ولا عذاب أعظم ممّا أنت فيه من ألم الحسد و غاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة و أن تكون في غمّ و حسرة بسببهم ، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم و لذلك لا يشتهي عدوّك موتك بل يشتهي أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد والغمّ لتنظر إلى نعمة الله عليه و تنقطع قلبك حسداً ولذلك قيل :

لا مات أعداؤك بل خلّدوا ✡ حتّى يروا فيك الّذي يكمد
لا زلت محسوداً على نعمة ✡ فانّما الكامل من يحسد
ولا خلاك الدّهر من حاسد ✡ فانّما الفاضل من يحسد

ففرح عدوّك بغمّك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ، و لو علم خلاصك من ألم الحسد و عذابه لكان ذلك أعظم مصيبة و بليّة عنده فما أنت ممّا تلازمه من غمّ الحسد إلّا كما يشتهيه عدوّك ، فاذا تأمّلت هذا عرفت أنّك عدوّ نفسك و صديق عدوّك إذ تعاطيت ما تضرّرت به في الدّنيا والآخرة ، و انتفع به عدوّك في الدّنيا والآخرة ، وصرت مذموماً عند الخالق والخلائق ، شقيّاً في الحال والمآل و نعمة المحسود دائمة شئت أو أبيت ، ثمّ لم تقتصر على تحصيل مراد عدوّك حتّى وصلت

إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الّذي هو أعدى أعدائك لأنّه لمّا رآك محروماً من نعمة العلم و الورع و الجاه و المال الّذي اختصّ به عدوّك عنك خاف أن تحبّ ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبّة، لأنّ من أحبّ الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير و من فاته اللّحاق بدرجة الأكابر في الدّين لم يفته ثواب الحبّ لهم مهما أحبّ ذلك فخاف إبليس أن تحبّ ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحبّ فبغّضه إليك حتّى لا تلحقه بحبّك كما لم تلحقه بعملك، و قد قال أعرابي للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الرّجل يحبّ القوم و لما يلحق بهم؟ فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: هو مع من أحبّ»[1].

وقام أعرابيّ و رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يخطب فقال: متى الساعة؟ فقال: ما أعددت لها؟ فقال: ما أعددت لها كثير صلاة و لا صيام إلّا أنّي أُحبّ الله و رسوله، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: أنت مع من أحببت»[2] قال الرّاوي: فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ. إشارة إلى أنّ أكثر ثقتهم كان بحبّ الله ورسوله[3].

وقال أبو موسى قلت: يارسول الله الرّجل يحبّ المصلّين و لا يصلّي و يحبّ الصوّام ولا يصوم - حتّى عدّ أشياء - فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «هو مع من أحبّ»[4].

و قيل: إن لم تكن عالماً ولا متعلّماً فكن محبّاً و إلّا فلا تبغضهم.

فانظر الآن كيف حسدك إبليس ففوّت عليك ثواب الحبّ ثمّ لم يقنع به حتّى بغّضه إليك وحملك على الكراهة حتّى أثمت، فكيف لا؟ وعساك أن تحاسد رجلاً من أهل العلم و تحبّ أن يخطىء في دين الله و ينكشف خطاؤه ليفتضح، وتحبّ أن يخرس لسانه حتّى لا يتكلّم أو يمرض حتّى لا يعلم ولا يتعلّم، و أيّ إثم يزيد على ذلك، فليتك إذا فاتك اللّحاق به و اغتممت بسببه سلمت من الاثم

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٤٣ من حديث ابن مسعود.

(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٤٩ من حديث أنس، ومسلم ج ٨ ص ٤٢.

(٣) في الاحياء «أن أكبر بغيتهم كانت حب الله و رسوله».

(٤) متفق عليه كما مر.

وعذاب الآخرة و قد جاء في الحديث «أهل الجنّة ثلاثة : المحسن والمحبّ له والكاف عنه »(١) أي من يكفّ عنه الأذى و الحسد و البغض والكراهة .

فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتّى لا تدور بها البتّة فقد نفذ فيك حسد إبليس و ما نفذ حسدك في عدوّك بل في نفسك ، بل لو كوشفت بحالك، في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيّها الحاسد في صورة من يرمي حجراً إلى عدوّه ليصيب به مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حدقته اليمنى فيقلعها فيزيد غضبه ثانياً فيعود فيرميها أشدّ من الأوّل فيرجع على عينه الأخرى فيعميها فيزداد غيظه فيعود ثالثاً و يرميها على رأسه فشجّه و عدوّه سالم في كلّ حال و هو إليه راجع مرّة بعد اُخرى و أعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه ، وهذه حال الحسود وسخريّة الشيطان منه ، لا بل حالك في الحسد أقبح من هذا لأنّ الحجر العائد إلى راميه لم تفوت إلّا العينين ولو بقيت لفاتت بالموت لامحالة ، والحسد يعودبالإثم و الإثم لا يفوت بالموت ولعلّه يسوقه إلى غضب الله و إلى النار ، فلأن تذهب عينه في الدّنيا خيرٌ من أن يبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النّار .

فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذا أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها منه ، ثمّ أزالها من الحاسد إذ السلامة من الإثم نعمة و السلامة من الغمّ والكمد نعمة ، وقد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى : « ولا يحيق المكر السيّىء إلّا بأهله »(٢) و ربّما يبتلى بعين ما يشتهيه لعدوّه ، و قلّما يشمت شامت بمساءة إلّا و يبتلى بمثلها ، حتّى قالت عائشة : ما تمنّيت لعثمان شيئاً إلّا نزل بي حتّى لو تمنّيت له القتل لقتلت ، فهذا إثم الحسد نفسه فكيف بما يجرّ إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحقّ وإطلاق اللّسان و اليد بالفواحش في التشفّي من الأعداء، وهوالدّاء الّذي فيه هلك الاُمم السالفة .

فهذههي الأدوية العلميّة فمهما تفكّر الإنسان فيها بذهن صافٍ وقلبحاضر

---

(١) قال العراقي : ما عثرت على أصل له .

(٢) فاطر : ٤٣

انطفى من قلبه نار الحسد و علم أنّه مهلك نفسه و مفرح عدوّه و مسخط ربّه و منغّص عيشه .

و **أما العمل** النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكلّ ما يتقاضاه الحسد من قول و فعل فينبغي أن يكلّف نفسه نقيضه ، فإن بعثه الحسد على القدح فيه كلّف لسانه المدح له و الثناء عليه ، وإن حمله على التكبّر عليه ألزم نفسه التواضع له و الاعتذار إليه ، وإن بعثه على كفّ الإنعام عنه ألزم نفسه الزّيادة في الإنعام ، فمهما فعل ذلك عن تكلّف و عرفه المحسود طاب قلبه و أحبّه و مهما ظهر حبّه عاد الحاسد وأحبّه وتولّد بينهما الموافقة الّتي يقطع مادّة الحسد ، لأنّ التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستميل قلب المنعم عليه و يسترقّه و يستعطفه و يحمله على مقابلة ذلك بالإحسان ثمّ ذلك الإحسان يعود إلى الأوّل فيطيب قلبه فيصير ما تكلّفه أوّلاً طبعاً آخراً ، ولا يصدّنّه عن ذلك قول الشيطان له : لو تواضعت و أثنيت عليه حمله العدوّ على العجز أو على النفاق و الخوف وإنّ ذلك مذلّة ومهانة ، فإنّ ذلك من خدع الشيطان و مكائده ، بل المجاملة تكلّفاً كان أو طبعاً تكسّر سورة العداوة من الجانبين وتقلّ من عزّتها (١) ويعود القلب إلى التآلف و التحابّ ، وبه يستريح القلب من ألم الحسد و غمّ التباغض ، فهذه هي أدوية الحسد و هي نافعة جدّاً إلّا أنّها مرّة جدًّا ، لكن النفع في الدّواء المرّ ، فمن لم يصبر على مرارة الدّواء لم ينل حلاوة الشفاء ، و إنّما يهون مرارة الدّواء أعني التواضع للأعداء و التقرّب إليهم بالمدح والثناء بقوّة العلم بالمعاني الّتي ذكرناها و قوّة الرّغبة في ثواب الرّضا بقضاء الله و حبّ ما أحبّه الله ، وعزّة النفس و ترفّعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل ، وعندذلك يريد ما يكون ، إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد و فوات المراد ذلّ وخيبة ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذلّ إلّا بأحد أمرين إمّا أن يكون ما يريد أو بأن يريد ما يكون ، و الأوّل ليس إليك ولا مدخل للتكلّف و المجاهدة فيه . و أمّا الثاني فللمجاهدة فيه مدخل و تحصيله بالرّياضة ممكن

(١) في الاحياء « تقل مرغوبها » .

فيجب تحصيله على كلّ عاقل، هذا هو الدّواء الكلّيّ.

فأمّا الدّواء المفصّل فهو بقمع أسباب الحسد من الكبر وعزّة النفس وشدّة الحرص على مالا يعني، و سيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها فإنّها موادّ هذا المرض ولا ينقمع المرض إلّا بقمع المادّة فإن لم يقمع المادّة لم يحصل ممّا ذكرناه إلّا تسكين و تطفية و لا يزال يعود مرّة بعد اُخرى و يطول الجهد في تسكينه مع بقاء موادّه، فإنّه مادام محبّاً للجاه فلابدّ أن يحسد من استأثر بالجاه و المنزلة في قلوب الناس دونه ويغمّه ذلك لامحالة وإنّما غايته أن يهون الغمّ على نفسه ولايظهره بلسانه ويده، فأمّا الخلوّ عنه رأساً فلايمكنه.

✡(بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب)✡

إعلم أنّ المؤذي ممقوت بالطبع و من آذاك لايمكنك أن لا تبغضه غالباً و إذا تيسّرت له نعمة فلا يمكنك أن لاتكرهها له حتّى يستوي عندك حسن حال عدوّك و سوء حاله، بل لاتزال تدرك في النفس بينهما تفرقة، ولا يزال الشيطان ينازعك في الحسد له ولكن إن قوي ذلك فيك حتّى يبعثك على إظهار الحسد بقول أوفعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختياريّة فأنت إذن حسود عاص بحسدك و إن كففت ظاهرك بالكلّيّة إلّا أنّك بباطنك تحبّ زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسودٌ عاصٍ لأنّ الحسد صفة القلب لاصفة الفعل، قال الله تعالى: «ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا اُوتوا» (١)، وقال: «ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء» (٢)، وقال: «إن تمسسكم حسنة تسؤهم» (٣)، أمّا الفعل فهو غيبة و كذب و هو عمل صادر عن الحسد و ليس هو عين الحسد، بل محلّ الحسد القلب دون الجوارح نعم هذا الحسد ليست مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك و بين الله، و إنّما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح، و أمّا إذا كففت ظاهرك و ألزمت مع ذلك قلبك كراهية ما يترشّح منه

(١) الحشر: ٩. (٢) النساء: ٨٩.
(٣) آل عمران: ١٢٠.

بالطبع من حبّ زوال النعمة حتّى كأنّك تمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهية من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع فقد أدّيت الواجب عليك ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا، فأمّا تغيير الطبع ليستوي عنده المؤذي و المحسن ويكون فرحه أو غمّه ممّا تيسّر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بليّة سواء، فهذا ممّا لا يطاوع الطبع عليه مادام ملتفتاً إلى حظوظ الدّنيا إلّا أن يصير مستغرقاً بحبّ الله تعالى مثل السكران الواله فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر إلى الكلّ بعين واحدة و هو عين الرّحمة و يرى الكلّ عباداً لله و أفعالهم أفعالاً لله و يراهم مسخّرين، وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ويرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويعود العدوّ إلى منازعته أعني الشيطان فإنّه ينازع بالوسوسة، فمهما قابل ذلك بكراهية ألزم قلبه فقد أدّى ما كلّفه و ذهب ذاهبون إلى أنّه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه.

و روي مرفوعاً أنّه « ثلاثة في المؤمن له منهنّ مخرج و مخرجه من الحسد أن لا يبغي »[1] و الأولى أن يحمل هذا على ماذكرنا من أن يكون فيه كراهة من جهة الدّين والعقل في مقابلة حبّ الطبع لزوال النعمة عن العدوّ، وتلك الكراهة تمنعه من البغي و من الإيذاء فإنّ جميع ما ورد من الأخبار في ذمّ الحسد يدلّ ظاهرها على أنّ كلّ حاسد آثم، و الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال فكلّ محبّ لمساءة المسلمين فهو حاسد فإذا كونه آثماً بمجرّد حسد القلب من غير فعل هو في محلّ الاجتهاد.

وقد عرفت من هذا أنّ لك في أعدائك ثلاثة أحوال : أحدها أن تحبّ مساءتهم بطبعك وتكره حبّك لذلك و ميل قلبك إليه بعقلك، و تمقت نفسك عليه وتودّ لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك، وهذا معفوّ عنه قطعاً، لأنّه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه، الثانية أن تحبّ ذلك و تظهر الفرح بمساءته إمّا بلسانك أو بجوارحك فهذا هو الحسد المحظور قطعاً، الثالثة وهي بين الطرفين أن تحسد بالقلب

(١) مر آنفا.

من غير مقتك لنفسك على حسدك و من غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاها وهذا محلّ الخلاف ، والظاهر أنّه لايخلو عن إثم بقدر قوّة ذلك الحبّ وضعفه .

هذا آخر كتاب ذمّ الغضب و الحقد و الحسد من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء ، و يتلوه إن شاء الله كتاب ذمّ الدّنيا . و الحمد لله أوّلاً وآخراً والصلاة على محمّد وأهل بيته وسلّم .

كتاب ذم الدنيا

و هو الكتاب السادس من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الّذي عرّف أولياءه غوائل الدّنيا وآفاتها، و كشف لهم عن عيوبها وعوراتها، حتّى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيّئاتها، فعلموا أنّه يزيد منكرها على معروفها، و لا يفي مرجوّها بمخوفها، و لا يسلم طلوعها من كسوفها، ولكنّها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها، ولها أسرار سوء قبايح تهلك الرّاغبين في وصالها، ثمّ هي فرّارة عن طلّابها، شحيحة باقبالها، وإذا أقبلت لا تؤمن من شرّها و وبالها، إن أحسنت ساعة أساءت سنة، و إن أساءت مرّة جعلتها سنّة، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة، وتجارة بنيها خاسرة بائرة، وآفاتها على التوالي لصدور طلّابها راشقة، ومجاري أحوالها بذلّ طالبيها ناطقة، فكلّ متعزّز بها إلى الذّلّ مصيره، و كلّ متكثّر بها إلى التحسّر مسيره، شأنها الهرب من طالبها و الطلب لهاربها، من خدمها فاتته، ومن أعرض عنها و اتته[١]، لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفكّ سرورها عن المنغّصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها لا يسوق إلّا إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلّا الحسرة والندم، فهي خدّاعة مكّارة طيّارة فرّارة، لاتزال تتزيّن لطلّابها حتّى إذا صاروا من أحبابها كشرت لهم عن أنيابها[٢]، و شوّشت عليهم مناظم أسبابها، و كشفت لهم عن مكنون عجائبها فأذاقتهم قواتل سمّها، ورشقتهم بصوائب سهمها[٣]، فبينما أصحابها منها في سرور و إنعام إذ ولّت

(١) في المصباح واتيته على الامر بمعنى وافقته.

(٢) كشر عن اسنانه أي أبداها و كشفها، والانياب: الاضراس.

(٣) رشقه بالسهم: رماه، و بنظره: أحد النظر اليه. و بلسانه: طعن عليه.

عنهم كأنّها أضغاث أحلام ، ثمّ عكرت عليهم بدواهيها[١] ، فطحنتهم طحن الحصيد ، و وارتهم في أكفانهم تحت الصعيد ، إن ملّكت واحداً جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته عن قريب حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، تمنّي أصحابها سروراً ، وتعدهم غروراً حتّى يأملون كثيراً ، و يبنون قصوراً ، فتصبح قصورهم قبوراً ، و جمعهم بوراً و سعيهم هباء منثوراً ، و كان أمر الله قدراً مقدوراً .

و الصلاة على محمّد عبده و رسوله المرسل إلى العالمين بشيراً ونذيراً ، وعلى من كان من آله وأصحابه له في الدِّين ظهيراً و على الظالمين نصيراً وسلّم كثيراً .

أمّا بعد فإنّ الدُّنيا عدوّة لله ، وعدوّة لأولياء الله ، وعدوّة لأعداء الله ، أمّا عداوتها لله فإنّها قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله إليها مذ خلقها[٢] ، و أمّا عداوتها لأولياء الله فإنّها تزيّنت لهم بزينتها ، و عمّتهم بزهرتها و نضارتها حتّى تجرّعوا مرارة الصبر في مقاطعتها ، وأمّا عداوتها لأعداء الله فإنّها استدرجتهم بمكرها و مكيدتها ، و اقتنصتهم بشباكها[٣] حتّى وثقوا بها وعوّلوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها ، فاجتنوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد ، ثمّ حرمتهم عن السعادة أبد الآباد فهم على فراقها يتحسّرون ، ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون بل يقال لهم : اخسؤا فيها ولا تكلّمون أولئك الّذين اشتروا الحياة الدُّنيا بالآخرة فلا يخفّف عنهم العذاب و لا هم ينصرون ، و إذا عظمت غوائل الدُّنيا و شرورها فلابدّ أوّلاً من معرفة حقيقة الدُّنيا وما هي ، و ما الحكمة في خلقها مع عداوتها ، و ما مداخل غرورها وشرورها ، فإنّ من لا يعرف الشرّ لا يتّقيه ويوشك أن يقع فيه ، و نحن نذكر ذمّ الدُّنيا و أمثلتها و حقيقتها و تفصيل معانيها ، و أصناف الأشغال المتعلّقة بها ، و وجه الحاجة إلى اُصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله .

(١) عكر عليه : كر وحمل وانصرف وعطف ، والدواهي جمع الداهية وهي النوازل والنوائب والمصيبات .

(٢) كما يأتي عن قريب في الحديث .

(٣) اقتنص الصيد أو الطير : صاده ، والشباك جمع شبكة و هي شركة الصياد .

﴿ بيان ذم الدنيا ﴾

الآيات الواردة في ذمّ الدنيا و أمثلتها كثيرة وأكثر القرآن مشتمل على ذمّ الدُّنيا و صرف الخلق عنها و دعوتهم إلى الآخرة بل هو مقصود بعث الأنبياء عليهم السلام و لم يبعثوا إلّا لذلك فلاحاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها و إنّما نورد بعض الأخبار الواردة فيها .

فقد روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ على شاة ميتة فقال : « أترون هذه الشاة الميتة هينة على صاحبها ؟ قالوا : نعم من هوانها ألقوها ؛ قال : والّذي نفسي بيده الدُّنيا أهون على الله عزّ وجلّ من هذه على صاحبها ، ولو كانت الدُّنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » (١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الدُّنيا سجن المؤمن و جنّة الكافر » (٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الدُّنيا ملعونة ملعون ما فيها إلّا ما كان لله منها» (٣).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم « من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته و من أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما يبقى على مايفنى » (٤).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « حبُّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة » (٥).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يا عجباً كلّ العجب للمصدّق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور » (٦).

---

(١) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٣٠٦ بلفظه وابن ماجه تحت رقم ٤١١٠ من حديث سهل بن سعد .

(٢) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ١٩٩ .

(٣) أخرجه أبونعيم فى الحلية بسند صحيح من جابر ، وابن ماجه تحت رقم ٤١١٢ بلفظ آخر عن أبى هريرة ، والترمذى ج ٩ ص ١٩٨ أيضاً .

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٣١٩ من حديث أبى موسى الاشعرى ، و صححه .

(٥) أخرجه البيهقى فى شعب الايمان من حديث الحسن مرسلا كما فى الجامع الصغير.

(٦) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الزهد من حديث جرير مرسلا . (المغنى)

وروي أن رسول الله ﷺ وقف على مزبلة فقال : « هلمّوا إلى الدّنيا ، وأخذ خِرقاً قد بليت على تلك المزبلة و عظاماً قد نخرت[١] فقال : هذه الدّنيا » و هذه إشارة إلى أنّ زينتها ستخلق مثل تلك الخرق وأنّ الأجسام الّتي ترى بها ستصير عظاماً بالية .

و قال ﷺ : « إنّ الدّنيا حلوة خضرة ، و إنّ الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، إنّ بني إسرائيل لمّا بسطت لهم الدّنيا و مهّدت تاهوا في الحلية و النساء و الطيب والثياب »[٢].

و قال عيسى عليه السلام : « لاتتّخذوا الدّنيا ربّاً فتتّخذ كم الدّنيا عبيداً ، اكنزوا كنز كم عند من لا يضيّعه لكم فإنّ صاحب كنز الدّنيا يخاف عليه الآفة و صاحب كنز الله لايخاف عليه الآفة » .

و قال أيضاً : « يا معشر الحواريّين إنّي قد كببت لكم الدّنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي[٣] فإنّ من خبث الدّنيا أن عصي الله فيها وإنّ من خبث الدّنيا أنّ الآخرة لاتدرك إلّا بتركها ، ألا فاعبروا الدّنيا ولاتعمروها ، واعلموا أنّ أصل كلّ خطيئة حبّ الدّنيا ، وربّ شهوة ساعة أورثت أهلها حزناً طويلاً ».

و قال أيضاً : « بطحت لكم الدّنيا[٤] وجلستم على ظهرها فلا ينازعنّكم فيها الملوك و النساء ، فأمّا الملوك فلا تنازعوهم في الدّنيا فإنّهم لن يتعرّضوا لكم ما تركتموهم و دنياهم ، و أمّا النساء فاتّقوهنّ بالصوم والصلاة » .

و قال أيضاً : « الدّنيا طالبة و مطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدّنيا حتّى يستكمل فيها رزقه وطالب الدّنيا تطلبه الآخرة حتّى يجيىء الموت فيأخذ بعنقه » .

و عن النبيّ ﷺ : « أنّ الله جلّ ثناؤه لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدّنيا

---

(١) أى بليت ، وأخرجه ابن أبي الدنيا فى الزهد والبيهقى فى الشعب من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمى مرسلا . وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه وهو مدلس كما فى المغنى .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٠٠٠ دون قوله « ان بنى اسرائيل الخ » ورواه ابن أبى الدنيا من حديث الحسن مرسلا بالزيادة التى آخرها كما فى المغنى .

(٣) نعشه الله - كمنعه - رفعه . (٤) بطحه : بسطه ، ألقاه على وجهه .

و إنّه لم ينظر إليها منذ خلقها »(١).

و روي « أنّ سليمان بن داود عليه السلام مر في موكبه و الطير تظلّه و الجنّ و الإنس عن يمينه وعن يساره ، قال : فمرّ بعابد من عبّاد بني إسرائيل فقال : والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً ، قال : فسمع سليمان فقال : لتسبيحة في صحيفة مؤمن خيرٌ ممّا اُعطي ابن داود ، فإنّ ما اُعطي ابن داود يذهب و التسبيحة تبقى .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلّا ما تصدّقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت »(٢).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الدّنيا دار من لا دار له ، و مال من لا مال له ، و لها يجمع من لا عقل له ، و عليها يعادي من لا علم له ، و عليها يحسد من لا فقه له ، و لها يسعى من لا يقين له » (٣).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من أصبح و الدّنيا أكبر همّه فليس من الله في شيء ، وألزم الله قلبه أربع خصال : همّاً لا ينقطع عنه أبداً ، وشغلاً لا يتفرّغ منه أبداً ، و فقراً لا ينال غناه أبداً ، و أملاً لا يبلغ منتهاه أبداً » (٤).

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الدّنيا موقوفة بين السماء و الأرض منذ خلقها الله عزّ و جلّ لا ينظر إليها و تقول يوم القيامة : يا ربّ اجعلني لأدنى أوليائك نصيباً

---

(١) أخرجه الحاكم فى التاريخ من حديث أبى هريرة كما فى الجامع الصغير .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٣٢٣ من حديث مطرف بن عبدالله بن الشخير عن أبيه .

(٣) ما عثرت على تمام حديث فى أصل نعم أخرج أحمد صدره فى المسند والبيهقى فى الشعب من حديث عائشة كما فى الجامع الصغير .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الاوسط من حديث أبى ذر دون قوله « الزم الله قلبه - الخ - » و كذلك رواه ابن أبى الدنيا من حديث أنس باسناد ضعيف ، والحاكم من حديث حذيفة ، و روى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر و كلاهما ضعيف كما فى المغنى .

اليوم ، فيقول : اسكني لاشيء ، إنّي لم أرضك لهم في الدّنيا أرضاك لهم اليوم »؟![١]

و روي « أنّ الله عزّ وجلّ لمّا أهبط آدم من الجنّة إلى الأرض قال له : ابن للخراب ولد للفنا »[٢].

و روي في أخبار آدم عليه السلام «أنّه لمّا أكل من الشجرة تحرّكت معدته لخروج الثفل و لم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة الجنّة إلّا في هذه الشجرة فلذلك نهى الله عن أكلها ، قال : فجعل يدور في الجنّة فأمر الله تعالى ملكاً يخاطبه فقال له : قل له : أيّ شيء تريد ؟ قال آدم : اُريد أن أضع ما في بطني من الأذى ، فقيل للملك : قل له : في أيّ مكان تريد أن تضعه ؟ أعلى الفرش أم على السرير ؟ أم على الأنهار ؟ أم تحت ظلال الأشجار ؟ هل ترى ههنا موضعاً يصلح لذلك ؟ ولكن اهبط إلى الدّنيا » .

و قال صلى الله عليه وآله : « ليجيئنّ أقوام يوم القيامة و أعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النّار ، فقيل : يا رسول الله أمصلّين ؟ قال : نعم كانوا يصومون ويصلّون ويأخذون هنة[٣] من اللّيل فإذا عرض لهم من الدّنيا شيء وثبوا عليه »[٤].

و قال صلى الله عليه وآله في بعض خطبه : « المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لايدري ما الله صانع فيه و بين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليتزوّد العبد من نفسه لنفسه و من دنياه لآخرته ، ومن حياته لموته ، و من شبابه لهرمه ، فإنّ الدّنيا قد خلقت لكم و أنتم خلقتم للآخرة ، و الّذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب

---

(١) ما عثرت على أصل له ، و روى ابن عساكر عن على بن الحسين مرسلا هكذا « ان الله تعالى لما خلق الدنيا أعرض عنها فلم ينظر اليها من هوانها عليه » راجع الجامع الصغير ج ١ ص ٧٢ .

(٢) راجع الكافى ج ٢ ص ١٣١ روى مثله .

(٣) اى ساعة بمعنى هنيهة من باب هنو .

(٤) أخرجه أبونعيم فى الحلية من حديث سالم مولى أبى حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمى من حديث أنس بسند ضعيف أيضاً . (المغنى)

ولا بعد الدّنيا من دار إلّا الجنّة أو النار»[١].

و قال عيسى عليه السلام : «لايستقيم حبّ الدّنيا و الآخرة في قلب مؤمن كما لايستقيم الماء و النار في إناء واحد».

و روي «أنّ جبرئيل عليه السلام قال لنوح عليه السلام : يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدّنيا ؟ قال : كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من آخر».

و قيل لعيسى عليه السلام : «لو اتّخذت بيتاً ؟ فقال : يكفينا خلقان من كان قبلنا».

و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله : «احذروا الدّنيا فإنّها أسحر من هاروت وماروت»[٢].

وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج ذات يوم على أصحابه فقال : «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً ؟ ألا إنّه من رغب في الدّنيا وطال فيها أمله أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد في الدّنيا وقصر أمله فيها أعطاه الله علماً بغير تعلّم وهدى بغير هداية ، ألا إنّه سيكون بعدي قوم لايستقيم لهم الملك إلّا بالقتل والتجبّر و لا الغنى إلّا بالفخر و البخل و لا المحبّة إلّا باتّباع الهوى ، ألا فمن أدرك ذلك الزّمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبّة ، و صبر على الذّلّ وهو يقدر على العزّ لايريد بذلك إلّا وجه الله أعطاه الله بذلك ثواب خمسين صدّيقاً »[٣].

و روي أنّ عيسى عليه السلام اشتدّ به المطر و الرّعد و البرق يوماً فجعل يطلب بيتاً يلجأ إليه فرفعت إليه خيمة من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسدٌ فوضع يده على رأسه و قال : إلهي جعلت لكلّ شيء مأوى و لم تجعل لي مأوى فأوحى الله إليه مأواك في مستقرّ من رحمتي لأزوّجنّك

---

(١) رواه الكليني فى الكافى ج ٢ ص ٧٠ و قوله صلى الله عليه وآله « مستعتب» أى موضع استعتاب أى طلب رضاء .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا والبيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى مرسلا و فيه ابراهيم بن الاشعث تكلم فيه أبو حاتم . (المغنى)

يوم القيامة ألف حوراء خلقتها بيدي ولأطعمنّ في عرسك أربعة آلاف عام يومٌ منها كعمر الدُّنيا ولآمرنّ منادياً ينادي أين الزُّهّاد في الدُّنيا زوروا عرس الزّاهد عيسى ابن مريم.

و قال عيسى عليه السلام: «ويلٌ لصاحب الدُّنيا كيف يموت و يتركها و ما فيها؟ و تغرّه و يأمنها، و يثق بها و تخذله، و ويل للمغترّين كيف ألزمهم ما يكرهون و فارقهم ما يحبّون و جاءهم ما يوعدون؟ وويل لمن أصبحت الدُّنيا همّه و الخطايا عمله كيف يفتضح غداً بذنبه».

و قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام «يا موسى مالك ولدار الظالمين إنّها ليست لك بدار أخرج منها همّك وفارقها بعقلك، فبئست الدّار هي إلّا لعامل يعمل فيها فنعمت الدّار هي، يا موسى إنّي مرصد للظالم حتّى آخذ منه للمظلوم».

و روي «أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعث أبا عبيدة بن الجرّاح فجاءه بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فلمّا صلّى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم انصرف فتعرّضوا له فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حين رآهم، ثمّ قال: أظنّكم سمعتم أنّ أبا عبيدة قدم بشيء؟ قالوا: أجل يا رسول الله، قال: فأبشروا و أمّلوا ما يسرّكم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنّي أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدُّنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»(١).

و قال أبوسعيد الخدريّ: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض، فقيل: ما بركات الأرض؟ فقال: زهرة الدُّنيا»(٢).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدُّنيا»(٣) فنهى عن ذكرها فضلاً

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١٢ كما في المتن والبخاري ج ٨ ص ١١٣ و فيه «و تلهيكم كما ألهتهم». و أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٨٧.

(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١١٣ و ج ٤ ص ٣٢.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب عن محمد بن النضر الحارثي مرسلا بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

عن إصابة عينها .

و قال عمّار بن سعيد : مرّ عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق فقال لهم : يا معشر الحواريّين إنّ هؤلاء ماتوا عن سخطة و لو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا ، فقالوا : يا روح الله وددنا أنّا علمنا خبرهم ، فسأل ربّه فأوحى الله إليه إذا كان اللّيل فنادهم يجيبوك ، فلمّا كان اللّيل أشرف على نشز من الأرض (*) ، ثمّ نادى يا أهل القرية ؟ فأجابه مجيبٌ : لبّيك يا روح الله ، فقال : ما حالكم و ما قصّتكم ؟ قالوا : بتنا في عافية وأصبحنا في هاوية ، قال : و كيف ذلك ؟ قال : لحبّنا الدُّنيا و طاعتنا أهل المعاصي ، قال : و كيف كان حبّكم للدُّنيا ؟ قال: حبّ الصبيّ لأُمّه إذا أقبلت فرحنا و إذا أدبرت حزنّا و بكينا ، قال : فما بال أصحابك لم يجيبوني ؟ قال : لأنّهم ملجمون بلجام من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد قال : كيف أجبتني أنت من بينهم ؟ قال : لأنّي كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلمّا نزل بهم العذاب أصابني معهم فأنا معلّق على شفير جهنّم لا أدري أنجو منها أم اُكبكب فيها ، فقال المسيح عليه السلام للحواريّين : لأكل خبز الجريش بالملح الشعير و لبس المسوح و النوم على المزابل كثيرٌ مع عافية الدُّنيا والآخرة »[1].

و روي أنّ ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله العضباء لا تسبق فجاء أعرابيٌّ بناقة له فسبقتها فشقّ ذلك على المسلمين فقال رسول الله : « إنّه حقٌّ على الله أن لا يرفع شيئاً من الدُّنيا إلّا وضعه »[2].

و قال عيسى عليه السلام : « من ذا الّذي يبني على أمواج البحر داراً ، تلكم الدُّنيا فلا تتّخذوها قراراً » .

وقيل : لعيسى عليه السلام : علّمنا عملاً واحداً يحبّنا الله عليه ، قال : « أبغضوا الدُّنيا يحببكم الله » .

و قال أبو الدَّرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً

(*) اى المكان المرتفع منها . (١) راجع الكافى ج ٢ ص ٣١٨ - باب ذم الدنيا - .

(٢) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٣٨ .

ولضحكتم قليلاً ولهانت عليكم الدُّنيا و لآثرتم الآخرة »[(١)] ثمّ قال أبو الدّرداء من قبل نفسه : لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعداء و لبكيتم على أنفسكم وتركتم أموالكم بلا حارس لها و لا راجع إليها إلّا ما لا بدّ لكم منه ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة و حضرها الأمل فصارت الدُّنيا أملك بأعمالكم و صرتم كالّذين لايعلمون ، فبعضكم شرٌّ من البهائم الّتي لا تدع هواها مخافة ممّا في عاقبته مالكم لاتتحابّون ولا تتناصحون و أنتم إخوان على دين الله ما فرّق بين أهوائكم إلّا خبث سرائركم و لو اجتمعتم على البرِّ لتحاببتم مالكم تناصحون في أمر الدُّنيا و لاتناصحون في أمر الدّين و لا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبّه و يعينه على أمر آخرته ما هذا إلّا من قلّة الإيمان في قلوبكم ، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرّها كما توقنون بالدُّنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنّها أملك باُموركم فإن قلتم : حبُّ العاجلة غالبٌ فإنّا نراكم تدعون العاجلة من الدُّنيا للآجل منها تكدُّون أنفسكم بالمشقّة و الاحتراق في طلب أمر لعلّكم لا تدركونه ، فبئس القوم أنتم ما حقّقتم أيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم فإن كنتم في شكّ ممّا جاءكم به محمّد صلّى الله عليه وآله فائتونا فلنبين لكم ولنريكم من النور ما تطمئنُّ إليه قلوبكم و الله ما أنتم بالمنقوصة قلوبكم فنعذركم أنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم و تأخذون بالحزم في اُموركم مالكم تفرحون باليسير من الدُّنيا تصيبونه و تحزنون على اليسير منها يفوتكم حتّى يتبيّن ذلك في وجوهكم و يظهر على ألسنتكم و تسمّونها المصائب و تقيمون عليها المآتم و عامّتكم قد تركوا كثيراً من دينهم ، ثمّ لا يتبيّن ذلك في وجوههم ولايتغيّر حالتكم ، إنّي لأرى الله قد تبرّأ منكم ، يلقى بعضكم بعضاً بالسرور و كلّكم يكره أن يستقبل صاحبه بمايكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله ، فأصبحتم على الغلّ ونبتت مراعيكم على الدّمن وتصافيتم على رفض الأجل ، ولوددت أنّ الله تعالى أراحني منكم فألحقني بمن اُحبُّ رؤيته ولو كان حيّاً لم يصابركم ، فإن كان

(١) أخرج صدره مسلم والبخارى ج ٨ ص ١٢٧ من حديث أبى هريرة و أخرجه الترمذى ج ٩ ص ١٩٤ وابن ماجه تحت رقم ٤١٩٠ باختلاف فى اللفظ من حديث أبى ذر.

فيكم خير فقد أسمعتكم ، و إن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيراً ، و بالله استعين على نفسي و عليكم .

و قال عيسى عليه السلام : « يا معشر الحواريّين أرضوا بدنيّ الدّنيا مع سلامة الدّين كما رضي أهل الدّنيا بدنيّ الدّين مع سلامة الدّنيا . وفي معناه قيل :

أرى رجالاً بأدنى الدّين قد قنعوا ✿ و لا أراهم رضوا في العيش بالدّون

فاستغن بالدّين عن دنيا الملوك كما اسـ ـــــتغنى الملوك بدنيا هم عن الدّين

و قال عيسى عليه السلام : « يا طالب الدّنيا لتبرّ [بها] تركك للدنيا أبرّ » .

و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله : « لتأتينّكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النّار الحطب »(١) .

و أوحي الله تعالى إلى موسى عليه السلام : « ياموسى لا تركننّ إلى حبّ الدّنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشدّ عليك منها » .

ومرّ موسى برجل و هو يبكي ورجع و هو يبكي فقال موسى : يا ربّ عبدك يبكي من مخافتك فقال : « يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه و رفع يديه حتّى تسقطا لم أغفر له وهو يحبّ الدنيا » .

و قال علي عليه السلام : « من جمع ستّ خصال لم يدع للجنّة مطلباً ولا عن النار مهرباً أوّلها من عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، و عرف الحقّ فأتبعه ، وعرف الباطل فاتّقاه ، و عرف الدّنيا فرفضها ، و عرف الآخرة فطلبها » .

و قال رجل لعليّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين صف لنا الدّنيا ، فقال : « وما أصف لك من دار من صحّ فيها ما آمن ، ومن سقم فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، و من استغنى فيها فتن ، في حلالها الحساب ، و في حرامها العذاب » .

وقيل له عليه السلام ذلك مرّة فقال : «أطوّل أو أقصّر ؟ فقال : قصّر ، فقال: حلالها حساب وحرامها عذاب »(٢) .

---

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

(٢) و راجع النهج الخطب تحت رقم ٨٢ .

و قال عليه السلام : « إنّما هي ستّة أشياء مطعوم و مشروب و ملبوس و مركوب و منكوح و مشموم : فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب ، وأشرف المشروبات الماء يستوي فيه البرّ والفاجر ، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة ، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرّجال ، وأشرف المنكوحات المرأة وهي مبال في مبال والله أنّ المرأة ليزيّن أحسن شيء منها و يراد أقبح شيء منها ، و أشرف المشمومات المسك وهو دم حيوان » .

فصل

أقول : و من طريق الخاصّة عن أهل البيت عليهم السلام في ذمّ الدُّنيا ما فيه بلاغ لقوم عابدين و سيّما عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وناهيك ما في كتاب نهج البلاغة من كلماته عليه السلام في هذا الباب و قد أسلفنا كلاماً له عليه السلام فيه في كتاب العلم من ربع العبادات عند ذكر علامات علماء الآخرة .

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « خرج النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و هو محزون فأتاه ملك و معه مفاتيح خزائن الأرض فقال : يا محمّد هذه مفاتيح خزائن الأرض يقول لك ربّك : افتح و خذ منها ماشئت من غير أن تنقص شيئاً عندي ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : الدنيا دار من لا دار له [1] و لها يجمع من لا عقل له ، فقال له الملك : و الّذي بعثك بالحقّ نبيّاً لقد سمعت هذا الكلام من ملك يقوله في السماء الرّابعة حين اُعطيت المفاتيح » [2].

و عنه عليه السلام قال : « مرّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بجدي أسكّ [3] ملقى على مزبلة ميتاً فقال لأصحابه : كم يساوي هذا ؟ فقالوا : لعلّه لو كان حيّاً لم يساو درهماً ، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : والّذي نفسي بيده الدُّنيا أهون على الله من هذا الجدي على أهله» [4].

(١) لعل المراد أن الدنيا دار من لا دار له غيرها وليس له في الاخرة من نصيب .
(٢) المصدر ج ٢ ص ١٢٩ .
(٣) الجدي : ولد المعز في السنة الاولى ، و أسك أي مصطلم الاذنين مقطوعهما .
(٤) الكافي ج ٢ ص ١٢٩ .

و عنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ في طلب الدّنيا إضراراً بالآخرة و في طلب الآخرة إضراراً بالدّنيا فأضرّوا بالدّنيا فإنّها أحقّ بالإضرار»[١].

و عنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مالي و للدّنيا و ما أنا والدّنيا إنّما مثلي و مثلها كمثل راكب رفعت له شجرة في يوم صائف فقال تحتها ثمّ راح و تركها»[٢].

و عنه عليه السلام قال: «ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيء من الدّنيا إلّا أن يكون فيها جائعاً خائفاً»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «إنّ في كتاب عليّ عليه السلام إنّما مثل الدّنيا كمثل الحيّة ما ألين مسّها وفي جوفها السمّ الناقع، يحذرها الرّجل العاقل ويهوى إليها الصبيّ الجاهل»[٤].

و عنه عليه السلام قال: «كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض أصحابه يعظه: أوصيك ونفسي بتقوى من لا يحلّ معصيته، ولا يرجى غيره، و لا الغنى إلّا به، فإنّ من اتّقى الله تعالى عزّ و قوي وشبع وروى، ورفع عقله عن أهل الدّنيا، فبدنه مع أهل الدّنيا و قلبه و عقله معاين الآخرة فأطفأ بضوء قلبه ما أبصرت عيناه من حبّ الدنيا فقذّر حرامها وجانب شبهاتها وأضرّ والله بالحلال الصافي إلّا مالا بدّ له منه من كسرة يشدّ بها صلبه[٥] و ثوب يواري به عورته من أغلظ ما يجد و أخشنه ولم يكن له فيما لابدّ منه ثقة ولا رجاء فوقعت ثقته و رجاؤه على خالق الأشياء فجدّ واجتهد وأتعب

---

(١) الخبر فى الكافى ج ٢ ص ١٣١ و يومى الى أن المذموم من الدنيا ما يضر بامر الاخرة فاما مالا يضر به كقدر الحاجة فى البقاء والتعيش فليس بمذموم.

(٢) يوم صائف أى يوم حار و قوله: «فقال تحتها» من القيلولة أى الاستراحة والخبر فى الكافى ج ٢ ص ١٣٤.

(٣) المصدر ج ٢ ص ١٢٩.

(٤) المصدر ج ٢ ص ١٣٦.

(٥) الكسر - بالكسر -: القطعة من الشىء المكسور والجمع كسر مثل قطعة و قطع والمراد كسرة الخبز.

بدنه حتّى بدت الأضلاع وغارت العينان فأبدل الله له من ذلك قوّة في بدنه وشدّة في عقله و ما ذخر له في الآخرة أكثر، فارفض الدّنيا فإنّ حبّ الدّنيا يعمي ويصم ويبكم ويذلّ الرّقاب فتدارك ما بقي من عمرك ولاتقل: غداً و بعد غد فإنّما هلك من كان قبلك بإقامتهم على الأماني والتسويف حتّى أتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون فنقلوا على أعوادهم إلى قبورهم المظلمة الضيّقة و قد أسلمهم الأولاد و الأهلون فانقطع إلى الله بقلب منيب من رفض الدّنيا وعزم[1] ليس فيه انكسار ولا انخزال[2] أعاننا الله و إيّاك على طاعته و وفّقنا وإيّاك لمرضاته »[3].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: « قال عليّ بن الحسين عليهما السلام: إنّ الدّنيا قد ارتحلت مدبرة و إنّ الآخرة قد ارتحلت مقبلة، و لكلّ واحد منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدّنيا، ألا و كونوا من الزّاهدين في الدّنيا الرّاغبين في الآخرة، ألا إنّ الزّاهدين في الدّنيا اتّخذوا الأرض بساطاً والتراب فراشاً والماء طيباً و قرّضوا من الدّنيا تقريضاً[4]، ألا ومن اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات، و من أشفق من النّار رجع عن المحرّمات، ومن زهد في الدّنيا هانت عليه المصائب، ألا إنّ لله عباداً كمن رأى أهل الجنّة في الجنّة مخلّدين و كمن رأى أهل النار في النار معذّبين شرورهم مأمونة وقلوبهم محزونة أنفسهم عفيفة و حوائجهم خفيفة صبروا أيّاماً قليلة فصاروا بعقبى[5] راحة طويلة، أمّا اللّيل فصافّون أقدامهم تجري دموعهم على خدودهم و هم يجأرون إلى ربّهم[6] يسعون في فكاك رقابهم، و أمّا النهار فحلماء علماء بررة أتقياء كأنّهم القداح قد براهم الخوف من العبادة[7] ينظر إليهم الناظر فيقول:

---

(١) عطف على «قلب».　　(٢) الانخزال: الانقطاع.

(٣) الكافي ج ٢ ص ١٣٦.

(٤) القرض القطع أي قطعوا أنفسهم من الدنيا تقطيعاً باقلاع قلوبهم عنها (الوافي).

(٥) كذا وفي فقه الرضا «فصارت لهم العقبى». (٦) أي يتضرعون، جأر الى الله أي تضرع.

(٧) القداح - بالكسر -: السهم بلا ريش و لا نصل، شبههم في نحافة أبدانهم بالاسهم، ثم ذكر مايستعمل في السهم اعني البرى وهو النحت «من العبادة» أي من كثرتها ان تعلق بقوله: «كانهم القداح» أو من قلتها ان تعلق بالخوف (الوافي).

مرضى - وما بالقوم من مرض - أم خولطوا[١] فقد خالط القوم أمر عظيم من ذكر النار وما فيها » [٢].

و عن محمّد بن مسلم بن شهاب قال : سئل عليّ بن الحسين عليهما السلام : أيّ الأعمال أفضل عند الله تعالى ؟ فقال : « ما من عمل بعد معرفة الله تعالى ومعرفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من بغض الدّنيا وإنّ لذلك لشعباً كثيرة [٣] وللمعاصي شعباً فأوّل ما عصي الله به الكبر و هي معصية إبليس حين أبى و استكبر و كان من الكافرين ، و الحرص و هي معصية آدم و حوّا حين قال الله تعالى لهما : « كلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [٤] فأخذا ما لا حاجة بهما إليه فدخل ذلك [٥] على ذريّتهما إلى يوم القيامة وذلك أنّ أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به إليه ، ثمّ الحسد و هي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله ، فتشعّب من ذلك حبّ النساء و حبّ الدّنيا و حبّ الرّئاسة و حبّ الرّاحة و حبّ الكلام و حبّ العلوّ و الثروة ، فصرن سبع خصال فاجتمعن كلّهنّ في حبّ الدّنيا فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك : حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة و الدنيا دنيا آن دنيا بلاغ و دنيا ملعونة » [٦].

و عن جابر قال : دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال : « يا جابر والله إنّي لمحزون و إنّي لمشغول القلب ، قلت : جعلت فداك و ما شغلك و ما حزن قلبك ؟ فقال : يا جابر إنّه من دخل قلبه صافي خالص دين الله شغل قلبه عمّا سواه ، يا جابر ما الدّنيا و ما عسى أن تكون الدّنيا هل هي إلّا طعام أكلته أو ثوب لبسته أو امرأة

---

(١) أى ينسبونهم باختلاط العقل والجنون . خولط فلان اى أفسد عقله بما خالطه من المفسدة .

(٢) الكافى ج ٢ ص ١٣١

(٣) أى ان لبغض الدنيا لشعباً من الصفات الحسنة والاعمال الصالحة و هى ضد شعب المعاصى .

(٤) البقرة : ٣٥ .

(٥) أى الحرص أو أخذ ما لا حاجة به .

(٦) الكافى ج ٢ ص ١٣٠

أصبتها ياجابر : إنّ المؤمنين لم يطمئنّوا إلى الدّنيا ببقائهم فيها ولم يأمنوا قدومهم الآخرة ، يا جابر الآخرة دار قرار و الدّنيا دار فناء و زوال ولكن أهل الدّنيا أهل غفلة و كأنّ المؤمنين هم الفقهاء أهل فكرة و عبرة ، لم يصمهم عن ذكر الله تعالى ما سمعوا بآذانهم ولم يعمهم عن ذكر الله تعالى ما رأوا من الزينة بأعينهم ففازوا بثواب الآخرة كما فازوا بذلك العلم ، و اعلم يا جابر أنّ أهل التقوى أيسر أهل الدّنيا مؤونة وأكثرهم لك معونة تذكر فيعينونك وإن نسيت ذكروك ، قوّالون بأمر الله قوّامون على أمر الله ، قطعوا محبّتهم بمحبّة ربّهم و وحشوا الدّنيا لطاعة مليكهم و نظروا إلى الله تعالى وإلى محبّته بقلوبهم و علموا أنّ ذلك هو المنظور إليه لعظيم شأنه ، فأنزل الدّنيا كمنزل نزلته ثمّ ارتحلت عنه ، أو كمال وجدته في منامك فاستيقظت و ليس معك منه شيء ، إنّي إنّما ضربت لك هذا مثلاً لأنّها عند أهل اللّبّ والعلم بالله كفيء الظلال ، يا جابر فاحفظ ما استرعاك الله من دينه و حكمته و لاتسألنّ عمّا لك عنده إلّا ماله عند نفسك (١) فإن تكن الدّنيا على ما وصفت لك فتحوّل إلى دار المستعتب (٢) فلعمري لربّ حريص على أمر قد شقي به حين أتاه و لربّ كاره لأمر قد سعد به حين أتاه و ذلك قول الله تعالى : « وليمحّص الله الّذين آمنوا ويمحق الكافرين » (٣).

و عنه عليه السلام قال : « مثل الحريص على الدّنيا كمثل دودة القزّ كلّما ازدادت على نفسها لفّاً كان أبعد لها من الخروج حتّى تموت غمّاً » (٤).

---

(١) الاسترعاء طلب الرعاية و لعل المراد بقوله : « لا تسألن عمالك عنده » انك لا تحتاج الى أحد تسأله عن ثوابك عندالله اذ ليس ذلك الا بقدر ماله عند نفسك أعني بقدر رعايتك دينه و حكمه فاجعله المسؤول و تعرف ذلك منه أو المراد لا تسأل عن ذلك بل سل عن هذا فانك انما تفوز بذلك بقدر رعايتك هذا .

(٢) « على ما وصفت لك » في المصدر « على غيرما وصفت لك » والشراح تكلفوا في شرحه ولكن في تحف العقول كما في المتن أي بدون لفظة « غير » والمعنى معلوم بدون التكلف . (٣) الكافي ج ٢ ص ١٣٣ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ١٣٤ .

و عن عبد الله بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً زهّده في الدّنيا وفقّهه في الدّين وبصّره عيوبها و من أوتيهنّ فقد اُوتي خير الدّنيا و الآخرة . و قال : لم يطلب أحدُ الحقّ بباب أفضل من الزّهد في الدّنيا و هوضدّ لماطلب أعداء الحقّ ، قلت : جعلت فداك ممّا ذا ؟ قال : من الرّغبة فيها ، وقال : ألا من صبّار كريم فإنّما هي أيّام قلائل ، ألا إنّه حرامٌ عليكم أن تجدوا طعم الإيمان حتّى تزهدوا في الدّنيا »(١).

قال : و سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « إذا تخلّى المؤمن من الدّنيا سما و وجد حلاوة حبّ الله و كان عند أهل الدّنيا كأنّه قد خولط و إنّما خالط القوم حلاوة حبّ الله فلم يشتغلوا بغيره . قال : وسمعته يقول : إنّ القلب إذا صفا ضاقت به الأرض حتّى يسمو »(٢).

و عنه عليه السلام قال : « جعل الخير كلّه في بيت وجعل مفتاحه الزّهد في الدّنيا ، ثمّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا يجد الرّجل حلاوة الإيمان في قلبه حتّى لا يبالي من أكل الدّنيا » (٣).

و عنه عليه السلام قال : « من زهد في الدّنيا أثبت الله الحكمة في قلبه و أنطق بها لسانه و بصّره عيوب الدّنيا داءها و دواءها ، و أخرجه من الدّنيا سالماً إلى دار السّلام » (٤).

و عنه عليه السلام قال : « مثل الدّنيا كمثل ماء البحر كلّما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتّى يقتله » (٥).

و عن أبي إبراهيم عليه السلام قال : « قال أبوذرّ - رحمه الله - : جزى الله الدّنيا عنّي مذمّة بعد رغيفين من الشعير أتغدّى بأحدهما وأتعشّى بالآخر ، وبعد شملتي الصوف أتّزر بإحديهما و أتردّى بالاُخرى»(٦).

---

(١) و (٢) الكافي ج ٢ ص ١٣٠ و قوله : «سما» من السمو اى العلو .

(٣) و (٤) المصدر ج ٢ ص ١٢٨ .

(٥) و (٦) المصدر ج ٢ ص ١٣٤ .

وعن الرّضا عليه السلام قال : « قال عيسى ابن مريم عليه السلام للحواريّين : يا بني إسرائيل لا تأسوا على ما فاتكم من الدّنيا كما لا يأسى أهل الدّنيا على ما فاتهم من دينهم إذا أصابوا دنياهم »(١).

﴿فصل﴾

قال أبوحامد : في الآثار : قال لقمان : يا بنيّ إنّ الدّنيا بحر عميق قد غرق فيها ناسٌ كثير فليكن سفينتك فيها تقوى الله عزّ وجلّ ، و حشوها الإيمان بالله عزّ وجلّ وشراعها التوكّل على الله (٢) ، لعلّك تنجو وما أراك ناجياً .

و قال بعض الحكماء : إنّك لن تصبح في شيء من الدّنيا إلّا وقد كان له أهلٌ قبلك ويكون له أهلٌ بعدك ، وليس لك من الدّنيا إلّا عشاء ليلة أو غداء يوم ، فلا تهلك نفسك في أكلة ، وصم الدّنيا و أفطر على الآخرة فإنّ رأس مال الدنيا الهوى وربحها النّار .

و قيل لبعض الزّهاد : كيف ترى الدّهر ؟ قال : يخلق الأبدان ، و يجدّد الآمال ، ويقرب المنيّة ، و يبعد الاُمنيّة ، قال : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به تعب ، و من فاته نصب ، وقد قيل :

و من يحمد الدّنيا لعيش يسرّه ✡ فسوف لعمري عن قريب يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ✡ و إن أقبلت كانت كثيراً همومها

و قال بعض الحكماء : كانت الدّنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإنّ عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إمّا بنعمة زائلة ، أو بليّة نازلة ، أو منيّة قاضية .

و قال بعضهم : من عيب الدّنيا أنّها لا تعطى أحداً ما يستحقّ لكنّها إمّا تزيد وإمّا تنقص .

---

(١) الكافى ج ٢ ص ١٣٧ وقوله : « لا يأسى » الاسى : الحزن على فوت الفائت.
(٢) الى هنا أورده الكلينى فى الكافى ج ١ ص١٦ عن موسى بن جعفر عليه السلام قال : « ان لقمان الخ » .

و قال آخر : ما ترى النعم كأنّها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها .

و قال يحيى بن معاذ : الدّنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيىء في طلبك ويأخذك .

وقال الفضيل : لو كانت الدّنيا من ذهب يفنى و الآخرة من خزف يبقى لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى ، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى .

و قال أبو حازم : إيّاكم و الدّنيا فإنّه بلغني أنّه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظماً للدنيا فيقال : هذا عظم ما حقّره الله .

وقال ابن مسعود : ما أصبح أحدٌ من الناس إلّا وهو ضيف وماله عارية ، فالضيف مرتحل والعارية مردودة ، وقد قيل :

و ما المال والأهلون إلّا وديعة ✡ و لابدّ يوماً أن تردّ الودايع

و زارت رابعة أصحابها فذكروا الدّنيا فأقبلوا على ذمّها فقالت لهم : اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ، ألا من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره . و قيل لإبراهيم بن أدهم : كيف أنت ؟ فقال :

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا ✡ فلا ديننا يبقى ولا ما نرقّع

فطوبى لعبد آثر الله ربّه ✡ و جاد بدنياه لما يتوقّع

وقيل :

أرى طالب الدّنيا وإن طال عمره ✡ ونال من الدّنيا سروراً وأنعما

كبان بنى بنيانه فأتمّه ✡ فلمّا استوى ما قد بناه تهدّما

وقيل أيضاً :

هب الدّنيا تساق إليك عفوا ✡ أليس مصير ذاك إلى انتقال

و ما دنياك إلّا مثل فيىء ✡ أظلّك ثمّ آذن بالزّوال

و قال لقمان لابنه : يا بنيّ بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ولاتبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً .

و قال مطرف بن الشّخّير [١] : لا تنظر إلى خفض عيش الملوك و لين رياشهم ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم [٢] وشرّ منقلبهم .

و قال ابن عبّاس : إنّ الله جعل الدّنيا ثلاثة أجزاء : جزء للمؤمن ، و جزء للمنافق ، وجزء للكافر ، فالمؤمن يتزوّد ، والمنافق يتزيّن ، والكافر يتمتّع .

و قال بعضهم : الدّنيا جيفة فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب ومهارشتهم ، وقيل :

يا خاطب الدّنيا إلى نفسها ✿ تنحّ عن خطبتها تسلم
إنّ الّتي تخطب غدّارة ✿ قريبة العرس من المأتم

و قال أبو الدّرداء : من هوان الدّنيا على الله أنّه لا يعصى الله إلّا فيها ، ولاينال ما عنده إلّا بتركها ، وقيل :

وما النّاس إلّاهالك وابن هالك ✿ و ذو نشب في الهالكين غريق
إذا امتحن الدّنيالبيب تكشّفت ✿ له عن عدوّ في ثياب صديق

وقيل :

يارا قد اللّيل مسروراً بأوّله ✿ إنّ الحوادث قديطرقن أسحارا
أفنى القرون الّتي كانت منعّمة ✿ كرّ الجديدين إقبالاً وإدبارا
يا من يعانق دنيا لابقاء لها ✿ يمسي و يصبح في دنياه سفّارا
هلّا تركت من الدّنيا معانقة ✿ حتّى تعانق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ✿ فينبغي لك أن لاتأمن النّارا

و قال أبو أمامة الباهلي : لمّا بعث النبيّ صلّى الله عليه وآله أتت إبليس جنوده فقالوا : قد بعث نبيّ وأخرجت أمّة ، قال : يحبّون الدّنيا ؟ قالوا : نعم ، قال : إن كانوا يحبّونها ما اُبالي أن لايعبدوا الأوثان ، و إنّما أغدو عليهم و أروح بثلاث : أخذ المال من غير حقّه ، وإنفاقه في غير حقّه ، وإمساكه عن حقّه ، والشرّ كلّه من هذا نبع .

(١) الظاهر هو مطرف بن عبدالله بن الشخير ـ بكسر الشين و شد الخاء ـ .
(٢) الظعن ـ بالظاء المعجمة ـ : الارتحال .

و قيل : اتّقوا السحّارة فإنّها تسحر قلوب العلماء - يعني الدّنيا - .

و قال وهب : في بعض الكتب : الدّنيا غنيمة الأكياس و غفلة الجهّال لم يعرفوها حتّى خرجوا منها فسألوا الرّجعة فلم يرجعوا .

و قال لقمان لابنه : يا بنيّ إنّك استدبرت الدّنيا من يوم نزلتها و استقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها .

و قال بعضهم : عجباً لمن يعرف أنّ الموت حقّ كيف يفرح ، و عجباً لمن يعلم أنّ النّار حقّ كيف يضحك ، وعجباً لمن يرى تقلّب الدّنيا بأهلها كيف يطمئنّ إليها و عجباً لمن يعلم أنّ القدر حقّ كيف ينصب ؟.

و قدم على معاوية رجلٌ من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدّنيا كيف وجدها ؟ فقال : سنيات بلاء ، و سنيات رخاء ، يوم بيوم و ليلة بليلة ، يولد ولد ويهلك هالك فلولا المولود لباد الخلق ، ولولا الهالك ضاقت الدّنيا بمن فيها ، فقال له معاوية : سل ماشئت قال : عمرٌ مضى فتردّه أو أجل حضر فتدفعه ، قال : لاأملك ذلك ، قال : لا حاجة لي إليك .

و قال بشر : من سأل الله الدّنيا فإنّما سأله طول الوقوف بين يديه .

و قال أبوحازم : ما في الدّنيا شيء يسرّك إلّا و قد ألزق الله به شيئاً يسوءك .

وقال آخر : لاتخرج نفس ابن آدم من الدّنيا إلّا بحسرات ثلاث : إنّه لم يشبع ممّا جمع ، ولم يدرك ما أمل ، و لم يحسن الزّاد لما يقدم عليه .

و قيل لبعض العبّاد : قد نلت الغنى ، فقال : إنّما نال الغنى من عتق من رقّ الدّنيا .

وقال أبوحازم : اشتدّت مؤونة الدّنيا والآخرة ، فأمّا مؤونة الآخرة فإنّك لا تجد عليها أعواناً ، و أمّا مؤونة الدّنيا فإنّك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلّا وجدت فاجراً قد سبقك إليه .

و قيل لحكيم : الدّنيا لمن هي ؟ قال : لمن تركها ، فقيل له : والآخرة لمن هي ؟ قال : لمن طلبها .

و قال حكيمٌ : الدّنيا دارخراب وأخرب منها قلب من يعمرها ، والجنّة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها .

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل : أدرهم في المنام أحبّ إليك أم دينار في اليقظة؟ فقال دينار في اليقظة ، فقال كذبت لأنّ الّذي تحبّه في الدّنيا كأنّك تحبّه في المنام و الّذي تحبّه في الآخرة كأنّك تحبّه في اليقظة .

و قال يحيى بن معاذ : العقلاء ثلاثة : من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه .

و قال أيضاً : الدّنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله فكيف الوقوع فيها .

و قيل : من أقبل على الدّنيا أحرقته نيرانها يعني الحرص حتّى يصير رماداً و من أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصارسبيكة ذهب ينتفع به و من أقبل على الله عزّ وجلّ أحرقته نيران التوحيد فصار جوهراً لاحدّ لقيمته .

انتهى الجزء الخامس ويليه الجزء السادس أوّلها
« بيان المواعظ في ذمّ الدّنيا وصفاتها »

فهرست ما فى هذا المجلد

الصفحة	الموضوع
٣	كتاب شرح عجائب القلب .
٤	بيان معني النفس والروح والعقل والقلب و المراد بهذه الأسامي .
٨	بيان جنود القلب .
١١	بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة .
١٣	بيان خاصيّة القلب للإنسان .
١٨	بيان مجامع أوصاف القلب وأمثاله .
٢٣	بيان مثال القلب بالإضافة إلى العلوم خاصّة .
٢٩	بيان حال القلب بالإضافة إلى العلوم .
٣٣	بيان الفرق بين الإلهام والتعلّم .
٣٦	بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس .
٤٢	بيان شواهد الشرع على صحّة طريق أهل المجاهدة .
٤٧	بيان تسلّط الشيطان على القلب بالوسواس ومعني الوسوسة .
٥١	سلطنة الشيطان سارية على العروق ومحيطة بالقلب .
٥٧	تفصيل مداخل الشيطان إلى القاب .
٦٧	فصل ـ العلاج في دفع الشيطان .
٧٠	فصل ـ الداعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد اوشياطين مختلفة .
٧٢	فصل ـ كيف يتمثّل الشيطان لبعض الناس دون بعض .
٧٣	ما يؤخذ العبد به من وساوس القلوب وما يعفى عنه وما لايؤاخذبه .

الصفحة	الموضوع
٧٨	هل يتصوّر أن ينقطع الوسواس بالكلّيّة عند الذكر أم لا .
٨١	سرعة تقلّب القلب و انقسام القلوب في التغيّر والثبات .
	كتاب رياضة النفس
٨٧	تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب .
٨٨	بيان فضيلة حسن الخلق ومذمّة سوء الخلق .
٩٤	بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق .
٩٩	بيان قبول الأخلاق المتغير بطريق الرّياضة .
١٠٣	بيان السبب الّذي به ينال حسن الخلق على الجملة .
١٠٨	بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق .
١١٠	بيان علامات مرض القلب وعلامات عوده إلى الصحّة .
١١٢	بيان طريق الّذي به يعرف الإنسان عيوب نفسه .
١١٤	بيان شواهد النقل من أرباب البصائر .
١٢٠	بيان علامات حسن الخلق .
١٢٤	بيان الطريق في رياضة الصبيان في أوّل النشوء .
١٢٨	بيان شروط الإرادة ومقدّمات المجاهدة .
	كتاب كسر الشهوتين
١٤٤	شهوة البطن والفرج .
١٤٦	بيان فضيلة الجوع وذمّ الشبع .
١٥٣	بيان فوائد الجوع وآفات الشبع .
١٦٢	بيان طريق الرّياضة في كسر شهوة البطن .
١٧١	بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس .
١٧٤	آفة الرّياء المتطرّق إلى من يترك أكل الشهوات أو يقلّل الأكل .

الصفحة	الموضوع
١٧٦	القول في شهوة الفرج .
١٧٩	بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله .
١٨٥	بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين .
	كتاب آفات اللسان
١٩٠	إنّ اللّسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة .
١٩٢	بيان عظم خطر اللّسان وفضيلة الصمت .
١٩٨	ما سبب هذا الفضل الكثير للصمت .
١٩٩	آفة الكلام في ما لايعنيك .
٢٠٣	آفة فضول الكلام .
٢٠٦	آفة الخوض في الباطل .
٢٠٧	آفة المراء والمجادلة .
٢١١	آفة الخصومة .
٢١٣	آفة التقعّر في الكلام بالتشدّق وتكلّف السجع والفصاحة .
٢١٥	آفة الفحش والسبّ وبذاءة اللّسان .
٢١٩	آفة لعن الحيوان والجماد والإنسان .
٢٢٤	آفة الغناء والشعر .
٢٣١	آفة المزاح .
٢٣٦	آفة السخريّة والاستهزاء .
٢٣٧	آفة إفشاء السرّ .
٢٣٧	آفة الوعد الكاذب .
٢٣٩	آفة الكذب في القول و اليمين .
٢٤٣	بيان ما رخّص فيه من الكذب .

الصفحة	الموضوع
٢٤٨	بيان الحذر من الكذب بالمعاريض .
٢٥٠	آفة الغيبة .
٢٥٥	بيان معنى الغيبة وحدّها .
٢٥٨	بيان أنّ الغيبة لا تقتصر على اللّسان .
٢٦١	بيان الأسباب الباعثة على الغيبة .
٢٦٤	بيان العلاج الّذي به يمنع اللّسان عن الغيبة .
٢٦٨	بيان تحريم الغيبة بالقلب .
٢٧٠	بيان الأعذار المرخّصة في الغيبة .
٢٧٣	بيان كفّارة الغيبة .
٢٧٥	آفة النميمة .
٢٧٧	بيان حدّ النميمة وما يجب في ردّها .
٢٨٠	آفة كلام ذي اللّسانين .
٢٨٢	آفة المدح .
٢٨٤	بيان ما على الممدوح .
٢٨٥	آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام .
٢٨٧	آفة سؤال العوام عن صفات الله وعن كلامه .
	كتاب آفات الغضب و الحقد و الحسد
٢٨٩	الغضب شعلة من نار اقتبست من نار الله الموقدة .
٢٩٠	بيان ذمّ الغضب .
٢٩٥	بيان حقيقة الغضب .
٢٩٩	بيان أنّ الغضب هل تمكن إزالته بالرياضة أم لا .
٣٠٤	بيان الأسباب المهيّجة للغضب .

الصفحة	الموضوع
٣٠٥	بيان علاج الغضب بعد هيجانه بالعلم والعمل .
٣٠٨	فضيلة كظم الغيظ .
٣١٠	فضيلة الحلم .
٣١٥	بيان القدر الّذي يجوز الانتصار والتشفّي به من الكلام .
٣١٧	القول فيمعني الحقد ونتايجه وفضيلة العفو و الرّفق .
٣١٨	فضيلة العفو .
٣٢٢	فضيلة الرّفق .
٣٢٥	ذمّ الحسد وحقيقته و أسبابه و معالجته وغاية الواجب في إزالته .
٣٣٠	بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه .
٣٣٥	بيان أسباب الحسد والمنافسة .
٣٣٨	بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران .
٣٤٢	بيان الدّواء الّذي به ينفي مرض الحسد عن القلب .
٣٤٨	بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب .
	كتاب ذم الدنيا
٣٥١	في ذمّ الدنيا وغوائلها وآفاتها .
٣٥٢	بيان ذمّ الدنيا من كلام أبي حامد وطريق العامّة .
٣٦٢	بيان ذمّ الدنيا من طريق الخاصّة .
٣٦٨	فصل - نقل الآثار في ذمّ الدنيا .

المحجة البيضاء

في تهذيب الأحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله محمد بن المرتضى المدعو

بالمولى محسن الكاشاني ره

المتوفى ۱۰۹۱ هـ

صححه وعلق عليه علي اكبر الغفاري

طبع على نفقة

دفتر انتشارات اسلامى

وابسته بجامعه مدرسين حوزه علميه قم

الجزء السادس

چاپخانه حيدرى

حمداً لك يا من جعل الحمد مفتاحاً لذكره ، و طريقاً من طرق الاعتراف بوحدانيّته ، و سبباً لمزيد فضله و نعمه ، و محجّة بيضاء لطالبي فضله و إحسانه .

و صلاة على رسولك الأعظم ، و الهادي إلى صراطك الأقوم ، وعلى آله أئمّة الهدى ، ومصابيح الدّجى .

بسم الله الرحمن الرحيم

(بيان المواعظ فى ذم الدنيا)

خطب عليٌّ عليه السلام يوماً فقال في خطبته: « إعلموا أنّكم ميّتون و مبعوثون من بعد الموت، و موقوفون على أعمالكم، و مجزيّون بها، فلا تغرنّكم الحياة الدّنيا فإنّها بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، فكلٌّ ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دول و سجال [١]، لاتدوم أحوالها، ولن يسلم من شرّ ها نزّالها، بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذاهم منها في بلاء و غرور، أحوال مختلفة، وتارات متصرّفة، العيش فيها مذمومٌ، والرّخاء فيها لا يدوم، و إنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها، وتقصّمهم بحمامها [٢] و كلٌّ جيفة فيها مقدورٌ و حظّه منها موفورٌ، واعلموا عباد الله أنّكم و ما أنتم فيه من هذه الدّنيا على سبيل من قد مضى ممّن كان أطول منكم أعماراً، و أشدَّ منكم بطشاً، و أعمر دياراً، وأبعد آثاراً، فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة [٣] من بعد طول تقلّبها، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، استبدلوا بالقصور المشيّدة، والسرر والنمارق الممهّدة الصخور والأحجار المسنّدة في القبور اللاّطئة الملحدة، فمحلّها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل عمارة موحشين وأهل محلّة متشاغلين، لايستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان، على ماكان بينهم من قرب الجوار و دُنوّ الدّار، بالدّيار،

(١) السجل ـ بفتح السين ـ : الدلو الملأى ماء ويجمع على سجال ـ بكسر السين ـ والحرب بيننا سجال اى مرة لنا ومرة علينا وأصله أن المستقين بالسجل يكون لكل واحد منهم سجل. (النهاية)

(٢) الحمام ـ بالكسر ـ الموت.

(٣) همدت النار اى خمدت.

و كيف يكون بينهم تواصل وقد طحنتهم بكلكلة البلى [١] و أكلتهم الجنادل والثرى [٢] و أصبحوا بعد الحياة أمواتاً ، و بعد غضارة العيش رفاتاً [٣] ، فجمع بهم الأحباب ، و سكنوا التراب ، وظعنوا فليس لهم إياب ، هيهات هيهات كلاّ إنّها كلمةٌ هوقائلها و من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون و كأن قد صرتم إلى ما صار وا إليه من البلى ، والوحدة في دار المثوى ، و ارتهنكم ذلك المضجع(☆) ، وضمّكم ذلك المستودع ، فكيف بكم لو قضيت الأمور ، و بعثرت القبور ، و حصّل ما في الصدور ، و أوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل ، فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذّنوب ، و هتكت عنكم الحجب والأستار ، و ظهرت منكم العيوب والأسرار ، هنالك تجزى كلّ نفس بما كسبت إنّ الله يقول : « ليجزي الّذين أساؤا بما عملوا و يجزي الّذين أحسنوا بالحسنى » وقال تعالى : « و وضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه » جعلنا الله و إيّاكم عاملين بكتابه و متّبعين لأوليائه و أحبّائه حتّى تحلّنا وإيّاكم دار المقامة من فضله إنّه حميدٌ مجيدٌ » [٤].

و قال عليه السلام أيضاً في خطبته : « اُوصيكم بتقوى الله ، والترك للدّنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبّون تركها ، المبلية لأجسامكم و إن كنتم تريدون تجديدها ، فانّما مثلكم و مثلها كمثل سفر سلكوا طريقاً فكأنّهم قد قطعوه [٥] و أمّوا إلى علم فكأنّهم قد بلغوه ، و كم عسى أن يجري المجري حتّى ينتهي إلى الغاية [٦] وما

---

(١) الكلكل ـ كجعفر ـ صدر البعير، شبه عليه السلام البلى ـ بكسر الباء ـ اى الفناء ـ بالجمل يرض بصدره مابرك عليه فطحنه .

(٢) الجنادل : الحجارة ، والثرى : التراب .

(٣) الرفاة كلما تكسر وبلى . (☆) اى حبستم كما يحبس الرهن فى يد المرتهن .

(٤) اورده الشريف الرضى فى النهج باختلاف فى اللفظ تحت رقم ٢٢٤ .

(٥) السفر ـ بفتح فسكون ـ : جماعة المسافرين اى انكم فى مسافة العمر كالمسافرين فى مسافة الطريق فلايلبثون أن يأتوا على نهايتها لانها محدودة .

(٦) « كم عسى » استفهامية للتحقير واجراء الفرس ارساله وحمله على السير . و « ماعسى » استفهامية فى معنى التحقير للبقاء .

عسى أن يبقى من له يوم في الدّنيا ، وطالب حثيث يطلبه حتّى يفارقها ، فلاتجزعوا لبؤسها و ضرّائها فإنّه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بنعمائها فإنّه إلى زوال ، عجبت لطالب الدّنيا والموت يطلبه و غافل فليس بمغفول عنه »[١].

أقول: وفي الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « فيما ناجى الله تعالى به موسى عليه السلام : يا موسى لاتركن إلى الدّنيا ركون الظالمين وركون من اتّخذها أباً وأمّاً، يا موسى لو وكلتك إلى نفسك لتنظر لها إذاً لغلب عليك حبّ الدّنيا و زهرتها ، يا موسى نافس في الخير أهله واستبقهم إليه فإنّ الخير كاسمه ، واترك من الدّنيا مابك الغنى عنه ، ولا تنظر عينك إلى كلّ مفتون بها موكّل إلى نفسه ، واعلم أنّ كلّ فتنة بدؤها حبّ الدّنيا ولاتغبط أحداً بكثرة المال فإنّ مع كثرة المال تكثر الذّنوب لواجب الحقوق ، ولا تغبطنّ أحداً برضاء الناس عنه حتّى تعلم أنّ الله راض عنه ، و لا تغبطنّ مخلوقاً بطاعة الناس له فإنّ طاعة الناس له و اتّباعهم إيّاه على غير الحقّ هلاك له ولمن تبعه »[٢].

و عنه عليه السلام قال : « فيما وعظ به لقمان ابنه : يا بنيّ إنّ الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له و إنّما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل و وعدت عليه أجراً فأوف عملك واستوف أجرك ، ولا تكن في هذه الدّنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتّى سمنت فكان حتفها[٣] عند سمنها ، ولكن اجعل الدّنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدّهر ، أخربها و لا تعمرها[٤] فإنّك لم تؤمر بعمارتها ، و اعلم أنّك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالى عن أربع : شبابك فيما أبليته[٥] وعمرك فيما أفنيته ، ومالك ممّا اكتسبته و فيما أنفقته فتأهّب لذلك وأعدّ له جواباً ، ولاتأس على

(١) اورده الشريف الرضى فى النهج على وجه أبسط . تحت رقم ٩٧ .
(٢) المصدر ج ٢ ص ١٣٥ تحت رقم ٢١ .
(٣) « حتفها » اى هلاكها . وسمن يسمن سمنا : كثر لحمه .
(٤) اى دعها خراباً بترك مالا تحتاج اليه .
(٥) البالي هوالذى استعمل حتى اشرف على الاندراس .

ما فاتك من الدّنيا فإنّ قليل الدّنيا لا يدوم بقاؤه و كثيرها لا يؤمن بلاؤه ، فخذ حذرك ، وجدّ في أمرك ، واكشف الغطاء عن وجهك ، و تعرّض لمعروف ربّك ، و جدّد التوبة في قلبك ، و اكمش [(١)] في فراغك قبل أن يقصد قصدك [(٢)] و يقضى قضاؤك و يحال بينك و بين ما تريد » [(٣)].

و عنه عليه السلام قال : « كان أبوذرّ - رضي الله عنه - يقول في خطبته : يا مبتغي العلم كأنّ شيئاً من الدّنيا لم يكن شيئاً إلّا ما ينفع خيره ويضرّ شرّه إلّا من رحم الله [(٤)]، يا مبتغي العلم لا يشغلك أهلٌ ولا مالٌ عن نفسك أنت يوم تفارقهم كضيف بتّ فيهم ثمّ غدوت عنهم إلى غيرهم والدّنيا والآخرة كمنزل تحوّلت منه إلى غيره و ما بين الموت والبعث إلّا كنومة نمتها ثمّ استيقظت منها ، يا مبتغي العلم قدّم لمقامك بين يدي الله تعالى فإنّك مثاب بعملك كما تدين تدان يا مبتغي العلم » [(٥)].

قال أبوحامد : قال بعضهم : يا أيّها النّاس اعملوا على مهل ، و كونوا من الله على وجل ، ولا تغترّوا بالأمل ونسيان الأجل ولاتركنوا إلى الدّنيا فإنّها غدّارة خدّاعة قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها ، وتزيّنت لخطّابها ، فأصبحت كالعروس المتحلّية ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئنّ إليها خذلت ، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنّها دار كثرت بوائقها ، وذمّها خالقها ، جديدها يبلى ، و ملكها يفنى ، و عزيزها يذلّ ، و كثيرها يقلّ ، و حيّها يموت ، وخيرها يفوت ، فاستيقظوا من غفلتكم ، و انتبهوا

---

(١) الكمش : السعى ، اى أسرع وعجل .

(٢) اى نحوك ، كناية عن توجّه ملك الموت اليك لقبض روحك اوتوجّه الامراض والبلايا من الله اليك .

(٣) الكافى ج ٢ ص ١٣٤ تحت رقم ٢٠ .

(٤) « الا » فى قوله : « الا ماينفع » كلمة استثناء و « ما » موصولة فالمعنى أن ما يتصور فى هذه الدنيا اماشىء ينفع خيره او شىء يضرشره الامن رحم الله ، او كل شىء فى الدنياله جهة نفع وجهة ضر لكل الناس الامن رحم الله فيوفقه للاحتراز من جهة شره .

(٥) الكافى ج ٢ ص ١٣٤ تحت رقم ١٨ .

من رقدتكم قبل أن يقال : فلان عليل أو مدنّف ثقيل ، فهل على الدّواء من دليل ؟ أوهل إلى الطبيب من سبيل ؟ فيدعى لك الأطبّاء ولا يرجى لك الشفاء ، ثمّ يقال : فلان أوصى وماله قد أُحصى ، ثمّ يقال : قدثقل لسانه ، فلا يكلّم إخوانه ، ولايعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت يقينك ، وطمحت جفونك ، و صدقت ظنونك ، و تلجلج لسانك ، و بكى إخوانك ، وقيل لك : هذا ابنك فلانٌ ، و منعت الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا ينطلق ، ثمّ حلّ بك القضاء ، و انتزعت نفسك من الأعضاء ، ثمّ عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك ، وأُحضرت أكفانك فغسّلوك و كفّنوك ، فانقطع عوادك ، واستراح حسّادك وانصرف أهلك إلى مالك ، و بقيت مرتهناً بأعمالك .

و قال بعضهم لبعض الملوك : إنّ أحقّ النّاس بذمّ الدّنيا وقلاها من بسط له فيها و أُعطي حاجته منها لأنّه يتوقّع آفة تغدو على ماله فتحتاجه أو على جمعه فتفرّقه أو يأتي سلطانه فينهدمه من القواعد أو تدبّ إلى جسمه فتسقمه أو تفجعه بشيء ثمّ هو ضنين به من أحبابه ، فالدّنيا أحقّ بالذمّ هي الآخذة ماتعطي ، الرّاجعة فيما تهب ، بينا هي تضحك صاحبها إذا ضحكت منه غيره ، و بينا هي تبكي له إذا بكت عليه ، وبيناهي تبسط كفّها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد ، تعقد التاج برأس صاحبها اليوم وتعفره بالتراب غداً ، سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء مابقي ، تجد في الباقي من الذّاهب خلفاً وترضى بكلّ من كلّ بدلاً .

وقال : وهب بن منبّه : لمّا بعث الله عزّ وجلّ موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : «لايروّعنّكما لباسه الّذي لبس من الدّنيا فإنّ ناصيته بيدي ، ليس ينطق ولا يتنفّس إلّا بإذني ، ولا يعجبنّكما ماتمتّع به منها فإنّما هي زهرة الحياة الدّنيا و زينة المترفين ولو شئت أن أزيّنكما بزينة من الدّنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ مقدرته تعجز عمّا اُوتيتما لفعلت و لكنّي أرغب بكما عن ذلك فأزوي ذلك عنكما ، و كذلك أفعل بأوليائي إنّي لأذودهم عن نعيمها كما يذود الرّاعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة ، وإنّي لأُجنّبهم سلوتها كما يجنّب الرّاعي الشفيق إبله عن مبارك

العَرَّة[1]، وماذلك لهوانهم عليّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفّراً إنّما يتزيّن لي أوليائي بالذلّ والخشوع والخوف، والتقوى يثبت في قلوبهم فيظهر على أجسادهم فهي ثيابهم الّتي يلبسون، ودثارهم الّذي يظهرون، وضميرهم الّذي يستشعرون، و نجاتهم الّتي بها يفوزون، و رجاؤهم الّذي إيّاه يأملون، و مجدهم الّذي به يفخرون، وسيماهم الّتي بها يعرفون، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، و ذلّل لهم قلبك و لسانك، و اعلم أنّه من أخاف لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة ثمّ إنّي ثائر له يوم القيامة».

و قال بعض الحكماء: الأيّام سهام والنّاس أغراض، والدّهر يرميك كلّ يوم بسهامه، و يخرمك بلياليه و أيّامه حتّى تستغرق جميع أجزائك، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيّام بك وسرعة اللّيالي في بدنك؟ لو كشف لك عمّا أحدثت الأيّام فيك من النقص لاستوحشت من كلّ يوم يأتي عليك، واستثقلت ممرّ الساعات بك، و لكن تدبير الله فوق الاعتبار و بالسلو عن غوائل الدّنيا وجد طعم لذّاتها، وأنّها لأمرّ من العلقم[2] إذا عجنها الحكيم، و قد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها، و ما يأتي به من العجائب أكثر ممّا يحيط به الواعظ فنستوهب الله رشداً إلى الصواب.

و قال بعض الحكماء ـ و قد استوصف الدّنيا وقدر بقائها ـ فقال: الدّنيا وقتك الّذي ترجع إليك فيه طرفك لأنّ ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه ومالم يأت فلا علم لك به، والدّهر يوم مقبل تنعاه ليلته و تطويه ساعته، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان، والدّهر موكّل بتشتيت الجماعات وانخرام الشمل[3] وتقلّب الدّول، والأمل طويل، والعمر قصير، وإلى الله تصير الأمور.

و خطب بعضهم فقال: يا أيّها الناس إنّكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدّقون به

---

(١) المبرك موضع البروك جمعه مبارك، والعرّة ـ بالضم ـ السرجين.

(٢) العلقم: شجرة مر ويقال للحنظل.

(٣) انخرم القرن: ذهب وانقضى. واصل الخرم الشق.

فأنتم حمقى وإن كنتم تكذّبون به فإنّكم لهلكى .

و قال محمّد بن الحسين : لمّا علم أهل العقل و العلم و المعرفة و الأدب أنّ الله عزّ وجلّ قد أهان الدّنيا ، و أنّه لم يرضها لأوليائه ، وأنّها عنده حقيرة قليلة ، وأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قد زهد فيها وحذّر أصحابه من فتنتها ، وقال : «أكلوا منها قصداً و قدّموا فضلاً » أخذوا منها ما يكفي و تركوا مايلهى ، لبسوا من الثياب ما ستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناه ممّا يسدّ الجوعة ، نظروا إلى الدّنيا بعين أنّها فانية وإلى الآخرة أنّها باقية ، فتزوّدوا من الدّنيا كزاد الرّاكب فخربوا الدّنيا وعمّروا بها الآخرة ، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنّهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنّهم سيرتحلون إليها بأبدانهم ، صبروا قليلاً ونعّموا طويلاً كلّ ذلك بتوفيق الله مولاهم الكريم أحبّوا ما أحبّ لهم و كرهوا ما كره لهم .

☼(بيان صفة الدنيا بالامثلة)☼

إعلم إنّ الدّنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء تعد بالبقاء ثمّ تخلف في الوفاء تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرّة و هي سائرة سيراً عنيفاً ومرتحلة إرتحالاً سريعاً ، ولكن الناظر إليها قدلايحسّ بحركتها فيطمئنّ إليها وإنّما يتحسّر عندانقضائها ، و مثالها الظلّ فإنّه متحرّك ساكن ، متحرّك في الحقيقة ساكن في الظاهر لا تدرك حركتها بالبصر الظّاهر بل بالبصيرة الباطنة ، ولمّا ذكرت الدّنيا عند بعضهم أنشد و قال :

أحلامُ نَوْمٍ أو كَظِلّ زائل ☼ إنّ اللّبيبَ بمثلها لايُخدَع

وكان الحسن بن عليّ عليهما السلام يتمثّل بهذا البيت :

يا أهل لذّات دنيا لا بقاءَ لها ☼ إنّ اغتراراً بِظلّ زائل حُمق

وكان يروى أنّه له ، ويقال : إنّه نزل أعرابيّ بقوم فقدّموا إليه طعاماً فأكل ثمّ قام إلى ظلّ خيمة لهم فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه و قام و هو يقول :

ألا إنّما الدّنيا كظلّ بنيّة ☼ ولابدّ يوماً أنّ ظلّك زائل

و كذلك قيل:

و إنّ امرءً دنياه أكبر همّه ✿ لمستمسك منها بحبلِ غُرور

مثال آخر للدّنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثمّ الافلاس منها بعد إفلاتها يشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « الدّنيا حلم و أهلها عليها مجازون ومعاقبون »(١).

و قال يونس بن عبيد: ما شبّهت نفسي في الدّنيا إلّا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره و ما يحبّ فبينا هو كذلك إذا انتبه فكذلك الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فإذا ليس في أيديهم شيء ممّا ركنوا إليه و فرحوا به.

و قيل لحكيم: أيّ شيء أشبه بالدّنيا؟ فقال: أحلام النُيّام.

مثال آخر للدّنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيها:

إعلم أنّ طبع الدّنيا التلطّف في الاستدراج أوّلاً والتوصّل إلى الإهلاك آخراً و هي كامرأة تتزيّن للخُطّاب حتّى إذا نكحتهم ذبحتهم، فقد روي أنّ عيسى عليه السلام كوشف بالدّنيا فرآها في صورة عجوز هتماء(٢) عليها من كلّ زينة، فقال لها: كم تزوّجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلّهم مات عنك أم كلّهم طلّقك؟ قالت: بل كلّهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين كيف تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حَذَر.

مثال آخر للدّنيا في مخالفة باطنها لظاهرها:

إعلم أنّ الدّنيا مزيّنة الظواهر، قبيحة السرائر وهي تشبه عجوزاً متزيّنة تخدع الناس بظاهرها فإذا وقفوا على باطنها و كشفوا القناع عن وجهها تمثّل لهم قبائحها فندموا على اتّباعها و خجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها، وعن ابن عبّاس قال: يؤتى بالدّنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء(٣) أنيابها بادية مشوّهة خلقها، فيشرف على الخلايق. فيقال لهم: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدّنيا الّتي تفاخرتم عليها، وبها تقاطعتم الأرحام وبها

(١) قال العراقي: لم اجدله أصلا. (٢) اى التى انكسرت ثناياها من اصولها.
(٣) يأتي معناهما.

تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثمّ يقذف بها في جهنّم فتنادي أي ربّ أين أتباعي و أشياعي ، فيقول الله عزّ وجلّ : الحقوا بها أتباعها وأشياعها .

و قال الفضيل بن عياض : بلغني أنّ رجلاً عرج بروحه إلى السّماء ، فإذا امرأة على قارعة الطريق ، عليها من كلّ زينة الحليّ والثياب و إذا لا يمرّ بها أحد إلّا جرحته ، فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس و إذا أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس ، عجوز شمطاء زرقاء عَمشاء [١] ، قال : قلت : أعوذ بالله منك ، قالت : لا والله لا يعيذك الله منّي حتّى تبغض الدّرهم ، قال : قلت : من أنت؟ قالت : أنا الدّنيا.

مثال آخر للدّنيا و عبور الإنسان بها :

إعلم أنّ الأحوال ثلاثة حالة لم تكن فيها شيئاً وهي ما قبل وجودك إلى الأزل، وحالة لا تكون فيها مشاهداً للدّنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد ، و حالة متوسطة بين الأبد والأزل و هي أيّام حياتك في الدّنيا فانظر إلى مقدار طولها و انسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتّى تعلم أنّه أقلّ من منزل قصير في سفر طويل ، ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «مالي و للدّنيا إنّما مثلي و مثل الدّنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فقال تحت ظلّها ساعة (٭) ثمّ راح وتركها» [٢] و من رأى الدّنيا بهذه العين لم يركن إلى الدّنيا ولم يبال كيف انقضت أيّامه في ضرّ وضيق أو في سعة و رفاهية ، بل لا يبني لبنة على لبنة ، توفّي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و ما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة [٣] .

---

(١) الشمطاء مؤنث أشمط ، وشمط - بالتحريك - : خالط بياض شعر رأسه سواده . والزرقاء مؤنث أزرق اى التى ظهرت بياض عينها . والعمشاء التى ضعف بصرها مع سيلان دمعتها .

(٭) « قال » من القيلولة اى استراح وقدمر .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٩ والترمذى والحاكم من حديث ابن مسعود ورواه احمد و صحّحه الحاكم من حديث ابن عباس راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٢٦ .

(٣) أخرجه ابن حبان فى الثقات وللطبرانى فى الاوسط من حديث عائشة بسند ضعيف هكذا « من سأل عنى اوسره أن ينظر الى فلينظر الى أشعث شاحب مشمّر لم يضع لبنة على لبنة - الحديث » . الترغيب ج ٤ ص ١٨٧ .

و رأى صلى الله عليه وآله بعض أصحابه يبني بيتاً من جصّ فقال : « أرى الأمر أعجل من هذا وأنكر ذلك » [(١)] وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال : « الدّنيا قنطرة فاعبروها و لا تعمروها » و هذا مثال واضح فانّ الحياة الدّنيا معبر إلى الآخرة والمهد هو الميل الأوّل على رأس القنطرة ، واللّحد هو الميل الثاني ، و بينهما مسافة محدودة ، فمن الناس من قطع نصف القنطرة ، و منهم من قطع ثلثها ، ومنهم من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلّا خطوة واحدة ، وهو غافل عنها ، و كيف كان فلابدّ له من العبور، فالبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزّينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان .

مثال آخر للدّنيا في لين موردها وخشونة مصدرها :

إعلم أنّ أوائل اُمور الدّنيا تبدو هيّنة ليّنة ، يظنّ الخائض فيها أنّ حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها و هيهات فالخوض في الدّنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد ، وقد كتب علي عليه السلام إلى سلمان الفارسي - رضي الله عنه - بمثالها فقال: مثل الدّنيا مثل الحيّة يلين مسّها و يقتل سمّها [(٢)]، فأعرض عمّا يعجبك منها لقلّة ما يصحبك منها ، وضع عنك ، همومها لما أيقنت من فراقها و كن أسرّ ما تكون منها أحذر ماتكون منها[(٣)]، فإنّ صاحبها كلّما أطمأنّ منها إلى سرور أشخصته عنه مكروهة والسلام » [(٤)].

مثال آخر للدّنيا وتعذّر الخلاص من تبعاتها بعد الخوض فيها :

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّما مثل صاحب الدّنيا كمثل الماشي في الماء هل يستطيع الّذي يمشي في الماء أن لاتبتلّ قدماه» [(٥)] وهذا يعرفك جهالة قوم ظنّوا أنّهم يخوضون في نعيم الدّنيا بأبدانهم و قلوبهم عنها مطهّرة ، وعلايقها عن بواطنهم منقطعة ، وتلك

---

(١) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٦٤٩ من حديث عبدالله بن عمرو أخرجه الترمذى وصححه .

(٢) أورده السيد الشريف الرضى فى النهج قسم الكتب منه تحت رقم ٦٨ هكذا « لين مسها قاتل سمها » .

(٣) فى النهج هكذا « وكن آنس ماتكون بها أحذر ما تكون منها » .

(٤) فى النهج هكذا « كلما اطمأن فيها الى سرور اشخصته عنه الى محذور » .

(٥) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الزهد والبيهقى فى الشعب من رواية الحسن . (المغنى)

مكيدة الشيطان ، بل لو أخرجوا ممّا هم فيه لكانوا من أعظم المتفجّعين بفراقها ، فكما أنّ المشي في الماء يقتضي بللاً لا محالة يلتزق بالقدم فكذلك ملابسة الدّنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب ، بل علاقة القلب مع الدّنيا تمنع حلاوة العبادة ، قال عيسى عليه السلام : « بحقّ أقول لكم : كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذّ به من شدّة المرض كذلك صاحب الدّنيا لا يلتذّ بالعبادة و لا يجد حلاوتها مع ما يجد من حبّ الدّنيا ، بحقّ أقول لكم : الدّابّة إذا لم تركب ولم تمتهن تصعب و تغيّر خلقها كذلك القلوب إذا لم ترفق بذكر الموت وبنصب العبادة تقسو و تغلظ ، بحقّ أقول لكم : إنّ الزق مالم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء العسل كذلك القلوب مالم تخرقها الشهوات ، أو يدنّسها الطمع ، أو يقسيها النعيم ، فسوف تكون أوعية للحكمة ، و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّما بقي من الدّنيا بلاءٌ و فتنةٌ و إنّما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله و إذا خبث أعلاه خبث أسفله »(١).

مثال آخر لما بقي من الدّنيا وقلّته بالإضافة إلى ما سبق :

عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « مثل هذه الدّنيا مثل ثوب شقّ من أوّله إلى آخره فبقي متعلّقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع »(٢).

مثال آخر لتأدية علايق الدّنيا بعضها إلى بعض حتّى الهلاك : قال عيسى عليه السلام : « مثل طالب الدّنيا مثل شارب ماء البحر كلّما ازداد شرباً إزداد عطشاً حتّى يقتله ».

مثال آخر لمخالفة آخر الدّنيا أوّلها ، ولنضارة أوايلها وخبث عواقبها :

إعلم أنّ شهوات الدّنيا في القلب لذيذة كشهوات الأطعمة في المعدة و سيجد العبد عند الموت لشهوات الدّنيا في قلبه من الكراهية والنتن والقبح مايجده لأطعمة اللّذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها ، و كما أنّ الطعام كلّما كان ألذّ طعماً وأكثر دسماً

---

(١) أخرجه احمد في المسند ج ٤ ص ٩٤ من حديث معاوية ومثله لابن شعبة في التحف ص ٥٠٦ و ٥٠٧ .

(٢) أخرجه ابن حبان في الثواب وابونعيم في الحلية والبيهقي من الشعب من حديث أنس بسند ضعيف كما في المغني .

وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشدّ نتناً ، فكذلك كلّ شهوة في القلب هي أشهى و ألذّ وأقوى فتنتها و كراهتها والتأذّي بها عند الموت أشدّ بل هي في الدّنيا مشاهدة فإن من نهبت داره وأُخذ أهله وولده وماله فتكون مصيبته وألمه و تفجّعه في كلّ ما فقده بقدر لذّته فيه و حبّه له وحرصه عليه ، فكلّ ماكان عند الوجود أشهى عنده و ألذّ فهو عند الفقد أدهى وأمرّ ، و ما للموت معنى إلّا فقدما في الدّنيا ، وقدروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال للضحّاك بن سفيان الكلابيّ : « ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ، ثمّ تشرب اللّبن عليه و الماء ؟ قال : بلى ، قال : فإلى م يصير ؟ قال : إلى ماقدعلمت يا رسول الله ، قال : فإنّ الله عزّ وجلّ قد ضرب مثل الدّنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم »(١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله تعالى ضرب الدّنيا لمطعم ابن آدم مثلاً ، و ضرب مطعم ابن آدم للدّنيا مثلاً فانظر إلى مايخرج من ابن آدم وأنّ قزحه وملحه إلى مايصير »(٢) قيل : قدرأيتهم يطيبونها بالأفاويه والطيب ، ثمّ يرمون به حيث رأيتم ، وقد قال الله عزّ وجلّ « فلينظر الإنسان إلى طعامه »(٣) قال ابن عبّاس : إلى رجيعه .

قيل لبعضهم : إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه ؟ قال : نعم إنّ الملك ليقول له : هذا ما بخلت به انظر إلى ما ذا صار .

مثال آخر في نسبة الدّنيا إلى الآخرة :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما الدّنيا في الآخرة إلّا كمثل مايجعل أحد كم أصبعه في اليمّ فلينظر بم ترجع إليه »(٤) من الأصل(٥).

مثال آخر للدّنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدّنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم

---

(١) أخرجه احمد ج ٣ ص ٤٥٢ من حديثه بنحوه .

(٢) أخرجه ابن حبان والطبرانى فى الكبير من حديث ابى بسند حسن كما فى الجامع الصغير مع اختلاف فى اللفظ .

(٣) عبس : ٢٥.

(٤) أخرجه مسلم واحمد ج ٤ ص ٢٢٩ من حديث المستورد بن شداد .

(٥) « من الاصل » كذافى جميع النسخ التى كانت موجودة عندى وليس فى الاحياء .

العظيمة بسببها .

إعلم أنّ أهل الدّنيا في غفلتهم مثلهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاّح بالخروج لقضاء الحاجة و حذّرهم المقام و خوّفهم مرور السفينة و استعجالها ، فتفرّقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم الحاجة و بادر إلى السفينة فصادف المقام خالياً فأخذ أوسع الأماكن و أليقها و أوفقها لمراده ، و بعضهم توقّف في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة ، و غياضها الملتفّة [١] ، و نغمات طيورها الطيّبة وألحانها الموزونة الغريبة ، فصار يلتقط من أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال ، الحسنة المنظر ، العجيبة النقوش ، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجها و عجائب صورها ثمّ تنبّه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلّا مكاناً ضيّقاً حرجاً فاستقرّ فيه ، و بعضهم أكبّ على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة فلم يجد في السفينة إلّا مكاناً ضيّقاً وزاده ما حمّله من الحجارة ضيقاً وصارت ثقلاً عليه ووبالاً ، فندم على أخذها ولم يقدر على رميها ولم يجد مكاناً لوضعها ، فحملها في السفينة على عنقه و هو متأسّف على أخذها ، و ليس ينفعه التأسّف ، و بعضهم تولج في الغياض ونسي المركب وبعد من متفرّجه و متنزّهه منها حتّى لم يبلغه نداء الملاّح لاشتغاله بأكل تلك الثمار و التشمّم لتلك الأنوار والتفرّج بين تلك الأشجار وهو مع ذلك خائف على نفسه من السّباع وغير خال من السقطات و النكبات ، و لا ينفكّ عن شوك ينشب بثيابه ، و غصن يجرح بدنه ، و حسكة تدخل في رجله ، و صوت هائل يفزع منه ، و عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ، ويمنعه من الانصراف لو أراده ، فلمّا بلغهم نداء أهل السفينة انصرف بعضهم مثقلاً بما معه ولم يجد في المركب موضعاً فبقي على شاطىء البحر حتّى مات جوعاً ، و بعضهم لم يبلغهم النّداء و سارت السفينة ، فمنهم من افترسته السباع ومنهم من تاه على وجهه حتّى هلك ومنهم من مات في الأوحال [٢] ومنهم من

(١) الانوار جمع نور - بالفتح - : الزهر . و الغياض جمع الغيضة و هي مجتمع الشجر في مغيض الماء .

(٢) جمع الوحل وهو الطين الرقيق .

نهشته الحيّات و تفرّقوا كالجيف المنتنة و أمّا من وصل إلى المركب بثقل ماأخذه من الأزهاروالأحجارة المزبرجة فقد استرقّته و شغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها ، و قد ضيّق عليه مكانه فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار و كمدت ألوان الأحجار و ظهر نتن رائحتها فصار مع كونه مضيّقاً عليه متأذّياً بنتنها ووحشتها فلم يجدحيلة إلّا أن ألقاها في البحر ، هارباً منها وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلّا بعد أن ظهرت عليه من الأسقام بتلك الرّوائح فبلغ سقيماً مدنفاً . ومن رجع قريباً مافاته إلّا سعة المحلّ فتأذّى بضيق المكان مدّة ولكن لمّا وصل إلى الوطن استراح . و من رجع أوّلاً وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالماً . فهذامثال أصناف أهل الدّنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم ومصدرهم و غفلتهم عن عاقبة اُمورهم ، و ما أقبح من يزعم أنّه بصير عاقل أن تغرّه أحجار الأرض و هي الذّهب والفضّة و هشيم النبت و هي زينة الحياة الدّنيا وشيء منه لا يصحبه عند الموت بل يصير كلّاً و وبالاً عليه و هو في الحال شاغل له بالخوف والحزن عليه ، وهذا هو حال الخلق كلّهم إلّا من عصمه الله عزّ وجلّ .

مثال آخر لاغترار الخلق بالدّنيا و ضعف إيمانهم بقول الله تعالى في تحذيره إيّاهم غوائل الدّنيا :

روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لأصحابه : « إنّما مثلي و مثلكم و مثل الدّنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتّى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي ؟ أنفدوا الزّاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة لازاد ولاحمولة فأيقنوا بالهلكة فبيناهم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلّة يقطر رأسه ماء فقالوا هذا قريب عهد بريف و ما جاء كم هذا إلّا من قريب ، فلمّا انتهى إليهم قال : يا هؤلاء قالوا : ياهذا ، قال : على م أنتم ؟ فقالوا : على ماترى ، قال : أرأيتم أن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ماتعملون ؟ قالوا : لانعصيك شيئاً ، قال : عهود كم ومواثيقكم بالله ، فأعطوه عهودهم و مواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً ، قال : فأوردهم ماء رواء و رياضاً خضراً فمكث فيهم ماشاء الله ثمّ قال : ياهؤلاء ، قالوا : ياهذا ؛ قال : الرّحيل ، قالوا : إلى أين ، قال :

إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليست كرياضكم فقال أكثرهم : والله ما وجدنا هذا حتّى ظننّا أنّا لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا وقالت طائفة وهم أقلّهم : ألم تعطوا هذا الرَّجل عهودكم و مواثيقكم بالله أن لا تعصوه شيئاً ؟ و قد صدقكم في أوَّل حديثه فوالله ليصدقنّكم في آخره فراح فيمن اتّبعه وتخلّف بقيّتهم فبدربهم عدوٌّ فأصبحوا من بين أسير و قتيل » [١] .

مثال آخر لتنعّم الناس بالدُّنيا ثمَّ تفجّعهم على فراقها :

إعلم أنَّ مثل الناس فيما اُعطوا من الدُّنيا مثل رجل هيّأ داراً و زيّنها و هو يدعو إلى داره على الترتيب قوماً واحداً بعد واحد ، فدخل واحد داره فقدَّم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمّه ويتركه لمن يلحقه لا ليتملّكه ويأخذه ، فجهل رسمه فظنَّ أنّه قد وهب ذلك له فتعلّق به قلبه لما ظنَّ أنّه له ، فلمّا استرجع منه ضجر و تفجّع ، و من كان عالماً برسمه انتفع به و شكره وردَّه بطيبة قلب وانشراح صدر ، فكذلك من عرف سنّة الله في الدُّنيا علم أنّها دار ضيافة سبّلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزوَّدوا منها و ينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافر بالعواري و لا يصرفون إليها كلَّ قلوبهم حتّى تعظم مصيبتهم عند فراقها .

فهذه أمثلة الدُّنيا و آفاتها و غوائلها .

أقول: وههنا مثال آخر أورده شيخنا الصدوق ـ رحمه الله ـ في كتاب إكمال الدِّين و إتمام النعمة [٢] ناقلاً عن بعض الحكماء لا بأس بإيراده و هو هذا :

مثال آخر : ما أشبه حال الإنسان واغتراره بالدُّنيا وغفلته عن الموت وما بعده من الأهوال وانهماكه في اللّذَّات العاجلة الفانية الممتزجة بالكدورات بشخص مُدلى في بئر ، مشدود وسطه بحبل ، و في أسفل ذلك البئر ثعبان عظيم متوجّه إليه منتظر سقوطه ، فاتح فاه لالتقامه ، وفي أعلى ذلك البئر جرذان أبيض و أسود لا يزال يقرضان

---

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا هكذا بطوله . ولاحمد والبزار والطبرانى من حديث ابن عباس بنحو اخصر منه واسناده حسن (المغنى) .

(٢) المصدر ص ٣٢٧ أورده المؤلف نقلا بالمعنى لا باللفظ .

ذلك الحبل شيئاً فشيئاً ولا يفتران عن قرضه آناً من الآنات ، و ذلك الشخص مع أنّه يرى ذلك الثعبان و يشاهد انقراض الحبل آناً فآناً قدأقبل على قليل عسل قد لطخ به جدار ذلك البئر و امتزج بترابه واجتمع عليه زنابير كثيرة ، و هو مشغول بلطعه ، منهمك فيه ، ملتذّ بما أصاب منه ، مخاصم لتلك الزنابيرعليه ، قد صرف باله بأجمعه إلى ذلك ، غير ملتفت إلىمافوقه وإلى ما تحته .

فالبئر هو الدّنيا والحبل هوالعمر والثعبان الفاتح فاه هو الموت والجرذان اللّيل والنهار القارضان للأعمار ، والعسل المختلطة بالتراب هولذّات الدّنيا الممتزجة بالكدورات والآلام والزنابيرهم أبناء الدّنيا المتزاحمون عليها .

و ما أشدّ انطباق هذا المثال على الممثّل له فنسأل الله الهداية والبصيرة ونعوذ به من الغفلة والغواية .

✡(بيان حقيقة الدنيا و ماهيتها فى حق العبد)✡

إعلم أنّ معرفة ذمّ الدّنيا لاتكفيك مالم تعرف الدّنيا المذمومة ما هي و ما الّذي ينبغي أن يجتنب ، وماالّذي لايجتنب ، فلابدّ أن نبيّن الدّنيا المذمومةالمأمور باجتنابها لكونها عدوّة قاطعة لطريق الله ماهي ؟

فنقول : دنياك وآخرتك عبارتان عن حالتين من أحوال قلبك والقريب الدّاني منهما يسمّى دنيا وهو كلّ ما قبل الموت و المتراخي المتأخّر يسمّى آخرة وهوما بعد الموت ، فكلّ مالك فيه حظّ و غرض ونصيب وشهوة ولذّة في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدّنيا في حقّك إلّا أنّ جميع مالك إليه ميل و فيه نصيب وحظّ فليس بمذموم بل هي ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل ما يصحبك في الدّنيا و يبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيئان العلم والعمل فقط ، و أعني بالعلم العلم بالله و صفاته و أفعاله و ملائكته و كتبه و رسله و ملكوت أرضه و سمائه والعلم بشريعة نبيّه ، و أعني بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله و قد يأنس العالم بالعلم حتّى يصير ذلك ألذّ الأشياء عنده فيهجر النوم و المنكح والمطعم في لذّته لأنّه أشهى عنده من جميعها فقد صار حظّاً عاجلاً في الدّنيا ،

و لكنّا إذا ذكرنا الدّنيا المذمومة لم نعدّ هذا من الدّنيا أصلاً بل قلنا: إنّه من الآخرة، و كذلك العابد قد يأنس بعبادته و يستلذّها بحيث لو منعت عنه لكان ذلك أعظم العقوبات عليه حتّى قال بعضهم: ما أخاف من الموت إلّا من حيث أنّه يحول بيني و بين قيام اللّيل، وكان آخر يقول: اللّهمّ ارزقني قوّة الصلاة والركوع و السجود في القبر، فهذا قد صارت الصلاة من حظوظه العاجلة و كلّ حظّ عاجل فاسم الدّنيا ينطبق عليه من حيث الاشتقاق من الدّنوّ، ولكنّا لسنا نعني بالدّنيا المذمومة ذلك، و قد قال صلّى الله عليه وآله: «حبّب إليّ من دنياكم ثلاث الطيب والنساء و قرّة عيني في الصّلاة»[1] فجعل الصلاة من جملة ملاذّ الدّنيا و ذلك لأنّ كلّ ما يدخل في الحسّ والمشاهدة فهو عالم الشهادة و هو من الدّنيا، والتلذّذ بتحريك الجوارح بالسجود والركوع إنّما يكون في الدّنيا فلذلك أضافها إلى الدّنيا إلّا أنّا في هذا الكتاب لسنا نتعرّض إلّا للدّنيا المذمومة فنقول: هذه ليست من الدّنيا.

القسم الثاني و هو المقابل للقسم الأوّل على الطرف الأقصى كلّ ما فيه حظّ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً كالتلذّذ بالمعاصي كلّها والتنعّم بالمباحات الزّائدة على قدر الضرورات والحاجات الدّاخلة في جملة الرّفاهية والرّعونات كالتنعّم بالقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة، والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، والغلمان والجواري والخيول والمواشي، والقصور و الدّور المشيّدة، و رفيع الثياب ولذائذ الأطعمة، فحظّ العبد من هذه كلّها هي الدّنيا المذمومة، و فيما يعدّ فضولاً أو في محلّ الحاجة نظر طويل.

القسم الثالث و هو متوسط بين الطرفين كلّ حظّ في العاجل معين على الأعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن و كلّ ما لابدّ منه ليتأتّى للإنسان البقاء والصحّة الّتي بها يتوصّل إلى العلم والعمل و هذا ليس من الدّنيا كالقسم الأوّل لأنّه معين على القسم الأوّل و وسيلة إليه، فمهما تناوله العبد على

(١) أخرجه احمد ج ٣ ص ١٢٨، والنسائى ج ٧ص ٦١ والحاكم والبيهقى فى السنن من حديث أنس بسند حسن كما فى الجامع الصغير.

قصد الاستعانة على العلم والعمل لم يكن به متناولاً للدّنيا ولم يصر به من أبناء الدّنيا وإن كان باعثه الحظّ العاجل دون الاستعانة على التقوى إلتحق بالقسم الثاني و صار من جملة الدّنيا و لا يبقى مع العبد عند الموت إلّا ثلاث صفات: صفاء القلب أعني طهارته عن أدناس الدّنيا، و اُنسه بذكر الله، و حبّه لله، و اعلم أنّ صفاء القلب و طهارته لا تحصل إلّا بالكفّ عن شهوات الدّنيا، والاُنس لا يحصل إلّا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه، والحبّ لا يحصل إلّا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلّا بدوام الفكر، و هذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت، وهي الباقيات الصّالحات، أمّا طهارة القلب عن شهوات الدّنيا فهي من المنجيات إذ تكون جُنّة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد في الخبر «أنّ أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من جهة رجليه جاء قيام اللّيل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه - الحديث»[1] فأمّا الاُنس والحبّ فهما من المسعدات وهما موصلان للعبد إلى لذّة اللّقاء والمشاهدة وهذه السعادة تتعجّل عقيب الموت إلى أن يدخل الجنّة فيصير القبر روضة من رياض الجنّة، و كيف لا يكون القبر عليه روضة ولم يكن له إلّا محبوب واحد وكانت العوائق تعوقه عن الاُنس بدوام ذكره و مطالعة جماله فارتفعت العوائق، وأفلت من السجن و خلّي بينه و بين محبوبه فقدم عليه مسروراً سالماً من الموانع آمناً من الفراق و كيف لا يكون محبّ الدّنيا عند الموت معذّباً ولم يكن له محبوب إلّا الدّنيا و قد غصب منه وحيل بينه وبينه، وسدّت عليه طرق الحيلة في الرّجوع إليه، وقد قيل في ذلك:

ما حالُ مَن كانَ له واحدٌ ✿ غيّب عنه ذلك الواحدُ

و ليس الموت عدماً إنّما هو فراق لمحابّ الدّنيا و قدوم على الله تعالى، فإذاً سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث وهي الذّكر والفكر والعمل الّذي يفطمه عن شهوات الدّنيا و يبغّض إليه ملاذّها ويقطعه عنها، و كلّ ذلك لا يمكن إلّا بصحّة البدن و صحّة البدن لا تنال إلّا بالقوت و الملبس والمسكن و يحتاج كلّ واحد إلى أسباب، فالقدر الّذي لابدّ منه من هذه الثلاثة

(١) أخرجه الطبراني من حديث عبدالرحمن بن سمرة بطوله (المغنى).

إذا أخذه العبد من الدّنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدّنيا وكانت الدّنيا في حقّه مزرعة الآخرة ، و إن أخذ ذلك على قصد التنعّم ولحظ النّفس صار من أبناء الدّنيا والرّاغبين في حظوظها إلّا أنّ الرّغبة في حظوظ الدّنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الله في الآخرة ويسمّى ذلك حراماً وإلى مايحول بينه و بين الدّرجات العلى و يعرضه لطول الحساب ، و يسمّى ذلك حلالاً ، والبصير يعلم أنّ طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضاً عذاب « فمن نوقش في الحساب عذّب »[(١)] فلذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « حلالها حساب وحرامها عذاب »[(٢)] وقد قال أيضاً : « حلالها عذاب » إلّا أنّه عذابٌ أخفّ من عذاب الحرام ولولم يكن الحساب لكان ما يفوت من الدّرجات العلى في الجنّة و ما يرد على القلب من التحسّر على تفويتها بحظوظ حقيرة خسيسة لا بقاء لها هو أيضاً عذابٌ و قس به حالك في الدّنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنياويّة كيف يتقطّع قلبك عليها حسرات مع علمك بأنّها سعادات منصرمة[(٣)] لابقاء لها ، و منغّصة بكدورات لاصفاء لها ، فما حالك في فوات سعادات لا يحيط الوصف بعظمتها و تنقطع الأزمان والدّهور دون غايتها ، و كلّ من تنعّم في الدّنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فهو ينقص من حظّه في الآخرة أضعافه ، والتعرّض لجواب السؤال فيه ذلّ و خوف و خطر و مشقّة و انتظار و كلّ ذلك من نقصان الحظّ ، فالدّنيا قليلها و كثيرها حلالها و حرامها ملعونة إلّا ما أعان على تقوى الله فإنّ ذلك القدر ليس من الدّنيا ، و كلّ من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدّنيا أشدّ ، حتّى أنّ عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لمّا نام ثمّ رمى به إذ تمثّل له إبليس و قال :

---

(١) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٣٩ ، ومسلم ج ٨ ص ١٦٤ باب اثبات الحساب .

(٢) أخرجه ابن ابى الدنيا والبيهقى فى شعب الايمان من طريقه موقوفاً على على ابن ابى طالب عليه السلام باسناد منقطع وفيه « وحرامها النار » وقال العراقى لم أجده مرفوعاً . أقول : اورده الشريف الرضى فى النهج تحت رقم ٧٩ من خطبه عليه السلام هكذا « فى حلالها حساب وفى حرامها عقاب » .

(٣) اى منقطعة .

رغبت في الدنيا . وحتى أن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس من لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهاناً وشدة فإن الصبر عن لذيذ الأطعمة مع وجودها أشد ، ولهذا زوى الله تعالى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فكان يطوي أياماً وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع[1] و لهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل كل ذلك نظراً لهم وامتناناً عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذيذ الفواكه ويلزمه ألم الفصد و الحجامة شفقة عليه وحباً له لا بخلاً عليه ، و قد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا و ما هو لله فليس من الدنيا .

فإن قلت : فما الذي هو لله ؟ فأقول الأشياء ثلاثة أقسام : منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمحظورات وأنواع التنعمات في المباحات و هي الدنيا المحضة المذمومة ، فهي الدنيا صورة و معنى ، و منها ما صورته لله و يمكن أن يجعل لغير الله و هو ثلاثة الفكر والذكر والكف عن الشهوات ، فهذه الثلاثة إذا جرت سراً ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهي لله وليست من الدنيا ، و إن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق باظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن أو الاشتهار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله ، و منها ما صورته لحظ النفس و يمكن أن يجعل معناه لله و ذلك كالأكل و النكاح و كل ما يرتبط به بقاؤه و بقاء ولده فإن كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : «من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله و هو عليه غضبان ، و من طلبها استعفافاً عن المسئلة و صيانة لنفسه جاء يوم القيامة و وجهه كالقمر ليلة البدر»[2] فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد فإذاً الدنيا حظ نفسك العاجل الذي

---

(١) راجع الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٥ باب عيش النبي صلى الله عليه وآله .

(٢) أخرجه ابو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابي هريرة بسند ضعيف كما في المغني .

لاحاجة إليه لأمر الآخرة ويعبّر عنه بالهوى وإليه الاشارة بقوله تعالى : « ونهى النّفس عن الهوى فانّ الجنّة هي المأوى »(١).

واعلم أنّ مجامع الهوى خمسة أمور وهي ما جمعه الله عزّ وجلّ في قوله : « إنّما الحيوة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد»(٢) والأعيان الّتي منها تحصل هذه الأمور الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى : « زيّن للنّاس حبّ الشهوات من النّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة و الخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدّنيا والله عنده حسن المآب»(٣) فقد عرفت أنّ كلّ ما هو لله ، فليس من الدّنيا ، و قدر ضرورة القوت وما لابدّ منه من مسكن و ملبس فهو لله إن قصد به وجه الله ، والاستكثار منه تنعّم وهو لغير الله وبين التنعّم والضرورة درجة يعبّر عنها بالحاجة ، ولها طرفان و واسطة : طرف يقرب من حدّ الضرورة فلا يضرّ فانّ الاقتصار على حدّ الضّرورة غير ممكن ، و طرف يزاحم جانب التنعّم و يقرب منه و ينبغي أن يحذر ، وبينهما وسائط متشابهة « ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » والحزم في الحذر والتقوى والتقرّب من حدّ الضّرورة ماأمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء إذ كانوا يردّون أنفسهم إلى حدّ الضّرورة حتّى أنّ اُويساً القرني كان يظنّ أهله أنّه مجنون لشدّة تضييقه على نفسه فبنواله بيتاً على باب دارهم فيأتي عليه السنّة والسّنتان والثلاث ما يرون له وجهاً وكان يخرج أوّل الأذان و يأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة و كان طعامه أن يلتقط النّوى فكلّما أصاب الحشف خبأها لافطاره ، فان أصاب ما يقوته من الحشف تصدّق بالنوى وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى ما يقوته وكان لباسه ما يلفظ إلى المزابل فيلتقط قطع الأكسية فيغسّلها في الفرات و يلفّق بعضها إلى بعض ثمّ يلبسها و كان ذلك لباسه ، و كان ربّما مرّ بالصّبيان فيرمونه و يظنّون أنّه مجنون فيقول لهم : يا إخوتاه إن كنتم ترموني فارموني بأحجار صغار فانّي

---

(١) النازعات : ٤٠ . (٢) الحديد : ٢٠ .
(٣) آل عمران : ١٤ .

أخاف أن تدموني فيحضر وقت الصّلاة ولا أُصيب الماء (١) ، و هكذا كانت سيرته ولهذا عظّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمره فقال : « إنّي لأجد نفس الرّحمن من جانب اليمن » (٢) إشارة إليه ، و لمّا ولي عمر بن الخطّاب قال : يا أيّها النّاس من كان منكم من أهل العراق فليقم فقاموا ، قال : اجلسوا إلّا من كان من أهل الكوفة فجلسوا ، فقال : اجلسوا إلّا من كان من مراد (٣) فجلسوا ، فقال : اجلسوا إلّا من كان من قرن فجلسوا كلّهم إلّا رجلاً و احداً فقال له عمر : أقرنيٌّ أنت ؟ فقال : نعم ، فقال : أتعرف اُويس بن عامر القرنيّ فوصفه له فقال : نعم و ماتسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين والله مافينا أحمق منه ولا أجنّ منه ولاأوحش منه ولاأدنى منه ، فبكى عمر ثمّ قال : ما قلت إلّا أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر » (٤) فقال هرم بن حيّان : لمّا سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لي همٌّ إلّا أن أطلب اُويساً القرنيّ و أسأل عنه حتّى سقطت عليه فوجدته جالساً على شاطىء الفرات نصف النهار يتوضّأ ويغسل ثوبه ، قال : فعرفته بالنعت الّذي نعت لي فإذا رجل لحيمٌ ، شديدُ الاُدمة ، محلوق الرأس ، كثُّ اللّحية ، عليه إزار من صوف ورداء من صوف ، متغيّر اللّون جدّاً ، كريه الوجه ، متهيّب المنظر ، قال : فسلّمت عليه فردّ عليّ ونظر إليّ ، فهبت فقلت : حيّاك الله من

(١) هذه الخرافة وماشابهها من الاساطير والمختلقات التى كتبتها يد الاوهام الباطلة و بالحرى أن تكتب فى طامور القصاصين ، أسفى على هذا التأليف القيم الفخم ، يحتوى أمثال هذه الخرافات دون اى ركز أو غميزة . ولقد كان اويس رجلا الهيا مقدما لم يخطأ طريق الحق والاعتدال شهد مع أمير المؤمنين عليه السلام صفين وفاز بالشهادة كما نص عليه جمع من الاعلام كالنجاشي وغيره .

(٢) قال العراقى : لم اجده له اصلا .

(٣) قال الجوهرى : مراد : أبو قبيلة من اليمن ، وهو مراد بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ . ويقال : كان اسمه يحابر - كمهاجر - فتمرد فسمى مراداً ، وهو فعال على هذا القول .

(٤) راجع رجال الكشى ص ٦٥ حديثاً طويلا فيه قال النبى صلى الله عليه وآله ذات يوم لاصحابه : « ابشروا برجل من امتى يقال له : اويس القرنى فانه يشفع لمثل ربيعة ومضر » الحديث ومثله فى الاختصاص ص ٧.

رجل ، ومَدَدت يدي لأُصافحه فأبى أن يصافحني ، فقلت رحمك الله يا أُويس وغفر لك كيف أنت رحمك الله ؟ ثمّ خنقتني العبرة من حبّي إيّاه و رقّتي عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتّى بكيت وبكى ، ثمّ قال : وأنت فحيّاك الله ياهرم بن حيّان كيف أنت يا أخي ومن دلّك عليّ ؟ قال : قلت : الله ، فقال : لا إله إلّا الله سبحان الله ، إن كان وعد ربّنا لمفعولاً ، قال : فتعجّبت حين عرفني ولا و الله ما رأيته قبل ذلك ولا رآني ، فقلت : من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم ؟ قال : نبّأني العليم الخبير ، عرف روحي روحك حين كلّمت نفسي نفسك ، إنّ الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد وإنّ المؤمنين ليعرف بعضهم بعضاً ويتحابّون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلّمون وإن نأت بهم الدار وتغرّبت بهم المنازل ، قال : قلت : حدّثني رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحديثٍ أسمعه منك ، قال : إنّي لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم تكن لي معه صحبة بأبي وأُمّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن رأيت رجالاً قد صحبوه وبلغني من حديثه نحواً ممّا بلغك ولست أُحبّ أن أفتح هذا الباب على نفسي أن أكون محدّثاً أو مفتياً أو قاضياً ، في نفسي شغل شاغل عن الناس ياهرم ابن حيّان ، فقلت : يا أخي اقرأ عليّ آية من القرآن أسمعها منك وادع لي بدعوات وأوصني بوصية أحفظها عنك فإنّي أُحبّك في الله حبّاً شديداً ، قال : فقام و أخذ بيدي على شاطىء الفرات ثمّ قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرّجيم ثمّ بكى ، ثمّ قال : قال ربّي - و الحق قول ربّي وأصدق الكلام كلامه - ثمّ قرأ : « و ما خلقنا السموات و الأرض و ما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلّا بالحق و لكنّ أكثرهم لا يعلمون - حتّى انتهى إلى قوله : - إنّه هو العزيز الرّحيم» فشهق شهقة ظننت أنّه قد غشي عليه ، ثمّ قال : يا ابن حيّان مات أبوك حيّان ويوشك أن تموت أنت فإمّا إلى جنّة وإمّا إلى نار ، ومات أبوك آدم ، وماتت أُمّك حوّاء ، ومات نوح ، ومات إبراهيم خليل الرّحمن ، ومات موسى نجي الرّحمن ، ومات داود خليفة الرّحمن ، ومات محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وهو رسول ربّ العالمين ، ومات أبو بكر ومات عمر ، ثمّ قال : واعمراه ، قال : فقلت : رحمك الله إنّ عمر لم يمت ، قال قد نعاه إليّ ربّي ونعى إليّ نفسي ، ثمّ قال : أنا وأنت

في الموتى كأنّه قدكان ثمّ صلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ دعالي بدعوات خفيّات ثمّ قال : هذه وصيّتي إليك ياهرم بن حيّان كتاب الله و نهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت إليّ نفسي ونفسك عليك بذكر الموت لايفارق قلبك طرفة عين مابقيت وأنذر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للاُمّة جميعاً وإيّاك أن تفارق الجماعة قيد شبر فيفارقك دينك و أنت لاتعلم فتدخل النّار يوم القيمة اُدع لي ولنفسك ثمّ قال : اللّهمّ إنّ هذا يزعم أنّه يحبّني فيك وزارني من أجلك فعرّفني وجهه في الجنّة ، وأدخله عليّ في دارك دار السلام ، واحفظه مادام في الدّنيا حيّاً حيثما كان وضمّ عليه ضيعته وأرضه من الدّنيا باليسير وماأعطيته من الدّنيا فيسّره له تيسيراً واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين واجزه عنّي خير الجزاء ، ثمّ قال : أستودعك الله يا هرم بن حيّان و السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، لا أراك بعد اليوم رحمك الله لاتطلبني فإنّي اُكره الشهرة والوحدة أحبّ إليّ ، إنّي كثير الهمّ شديد الغمّ مع هؤلاء الناس مادمت حيّاً فلاتسأل عنّي ولا تطلبني و اعلم أنّك منّي على بال و إن لم أرك و لم ترني فاذكرني وادع لي فإنّي سأذكرك وأدعو لك إن شاء الله انطلق أنت ههنا حتّى أنطلق أنا ههنا ، فحرصت أن أمشي معه ساعة فأبى عليّ وفارقته فبكى وأبكاني وجعلت أنظر في قفاه حتّى دخل بعض السكك ، ثمّ سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحداً يخبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له (١) .

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدّنيا و قد عرفت ممّا سبق في بيان ذمّ الدّنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أنّ حدّ الدّنيا كلّ ما أظلّته الخضراء وأقلّته الغبراء إلّا ما كان لله عزّوجلّ من ذلك ، وضدّ الدّنيا الآخرة وهو كلّ ما اُريد به الله عزّوجلّ ممّا يؤخذ بقدر الضرورة من الدّنيا لأجل قوّة طاعة الله عزّوجلّ فذلك ليس من الدّنيا ، ويتبيّن هذا بمثال : وهو أنّ الحاجّ إذا حلف أنّه في طريق الحجّ لايشتغل بغير الحجّ بل يتجرّد له ثمّ اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الرّاوية و كلّ مالابدّ للحجّ منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولاً بغير الحجّ ،

---

(١) هذا الكلام بطوله قصة خرافية نسجها بعض الصوفية .

فكذلك البدن مركب النفس يقطع به مسافة العمر فتعهد البدن بماتبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا ، نعم إذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفاً عن الآخرة و يخشى على قلبه القسوة .

قال الطنافسي : كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاوياً فسمعت في اللّيلة الثامنة منادياً وأنا بين اليقظة و النوم - يقول : ألا إنّ من أخذ من الدنيا أكثر ممّا يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه ، فهذا بيان حقيقة الدنيا .

✡ (بيان ماهيّة الدنيا في نفسها) ✡
✡ (واشغالها الّتي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم) ✡
✡ (وخالقهم وموردهم ومصدرهم) ✡

اعلم أنّ الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظّ وله في إصلاحها شغل فهذه ثلاثة امور وقد يظنّ أنّ الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك أمّا الأعيان الموجودة الّتي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وماعليها ، قال الله تعالى : « إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنَبلُوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً »(١) فالأرض فراش للآدميّين ومهاد ومسكن ومستقرّ ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ، ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام المعادن والنبات والحيوان ، وأمّا المعادن فيطلبها الآدمي للآلات والأواني كالنحاس والرصاص وللنقد كالذهب والفضّة ولغير ذلك من المقاصد ، و امّا النبات فيطلبها الآدمي للاقتيات وللتداوي ، وأمّا الحيوان فينقسم إلى الإنسان والبهائم ، أمّا البهائم فيطلب لحومها للمأكل و ظهورها للمركب و الزينة ، و أمّا الانسان فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان او ليتمتّع بهم كالجواري و النسوان و يطلب قلوب الناس ليملكها فيغرس فيها التعظيم والاكرام وهو الّذي يعبر عنه بالجاه إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميّين فهذه هي الأعيان الّتي يعبّر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله « زيّن للناس

(١) الكهف : ٧ .

حبّ الشهوات من النساء والبنين » [1] و هذا من الانس « و القناطير المُقَنْطَرَةِ من الذّهب و الفضّة » وهذا من الجواهر و المعادن و فيه تنبيهٌ على غيرها من اللآلي واليواقيت « والخيل المسوّمة والأنعام » وهي البهائم والحيوانات « والحرث » وهو النبات والزرع فهذه هي أعيان الدّنيا إلّا أنّ لها مع العبد علاقتين علاقة مع القلب وهوحبّه لها وحظّه منها و انصراف همّه إليها حتّى يصير قلبه كالعبد أو المحبّ المستهتر بالدّنيا ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلّقة بالدّنيا كالكبر والغلّ والحسد والرّياء والسمعة وسوء الظنّ و المداهنة و حبّ الثناء وحبّ التكاثر والتفاخر فهذه هي الدّنيا الباطنة ، وأمّاالظاهرة فهي الأعيان الّتي ذكرناها . والعلاقة الثانية مع البدن وهواشتغاله باصلاح هذه الأعيان ليصلح لحظوظه وحظوظ غيره وهي جملة الصناعات والحرف الّتي الخلق مشغولون بها والخلق إنّما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم لهاتين العلاقتين علاقة القلب بالحبّ وعلاقة البدن بالشغل ولوعرف نفسه وعرف ربّه وعرف حكمة الدّنيا وسرّها علم أنّ هذه الأعيان الّتي سمّيناها دنيا لم تخلق إلّا لعلف الدّابة الّتي تسير بها إلى الله تعالى وأعني بالدّابة البدن فانّه لايبقى إلّا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن ، كمالايبقى الابل في طريق الحجّ إلّا بعلف وماء وجلال ، ومثال العبد في نسيانه نفسه و مقصده مثال الحاجّ الّذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة و يتعهّدها و ينظّفها ويكسوها ألوان الثياب و يحمل إليها أنواع الحشيش ويبرّد لها الماء بالثلج حتّى تفوته القافلة وهو غافل عن الحجّ وعن مرور القافلة وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته ، و الحاجّ البصير لايهمّه من أمر الجمل إلّا القدر الّذي يقوى به على المشي فيتعهّده وقلبه إلى الكعبة و الحجّ وإنّمايلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة ، فكذلك البصير في سفر الآخرة لايشتغل بتعهّد البدن إلّا بالضرورة كمالا يدخل بيت الماء إلّا للضرورة ولافرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجه من البطن ، وأكثر ماشغل الناس عن الله هو البطن فانّ القوت ضروريّ ، وأمر الملبس و المسكن أهون ولوعرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور

(١) آل عمران : ١٤ .

واقتصروا عليها لم يستغرقهم أشغال الدّنيا فانّما استغرقتهم لجهلهم بالدّنيا وحكمتها وحظوظهم منها ولكنّهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدّنيا واتّصلت بعضها وتداعت إلى غير نهاية محدودة فتاهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقصودها ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدّنيا وكيفية حدوث الحاجة إليها وكيف غلط النّاس في مقاصدها حتّى يتّضح لك أنّ أشغال الدّنيا كيف صرفت الخلق عن الله وكيف أنستهم عاقبة أُمورهم.

فنقول: الأشغال الدّنيويّة هي الحرف والصناعات والأعمال الّتي ترى الخلق مكبّين عليها، وسبب كثرة الأشغال هو أنّ الإنسان مضطرّ إلى ثلاث القوت والمسكن والملبس، القوت للغذاء والبقاء، والملبس لرفع الحرّ والبرد، والمسكن لذلك ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحاً بحيث يستغني عن صنعة الإنسان فيه، نعم خلق الله ذلك للبهائم فانّ النبات يغذي الحيوان من غير طبخ، والحرّ والبرد لا يؤثّر في أبدانها فيستغني عن البناء ويقنع بالصحراء، ولباسها شعورها وجلودها فتستغني عن اللّباس، والإنسان ليس كذلك، فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي أُصول الصّناعات وأوائل الأشغال الدّنيويّة وهي الفلاحة والرّعاية والاقتناص والحياكة والبناء، أمّا البناء فللمسكن والحياكة وما يكتنفها من الغزل، والخياطة فللملبس، والفلاحة فللمطعم، والرّعاية للمواشي والخيل وهي أيضاً للمطعم والمركب، والاقتناص يعنى به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب، فالفلّاح يحصّل النباتات، والرّاعي يحفظ الحيوانات ويستنتجها، والمقتنص يحصّل ما نبت ونتج بنفسه من غير صنعة آدمي وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي ونعني بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدّة ثمّ هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناص، والآلات إنّما تؤخذ إمّا من النبات وهو الأخشاب أو من المعادن كالحديد والرّصاص وغيرهما أو من جلود الحيوانات، فحدثت الحاجة إلى ثلاثة أنواع أُخر من الصناعات النجارة والحدادة والخرز وهؤلاء هم عمّال الآلات ونعني بالنجّار كلّ عامل على خشب كيفما كان، وبالحدّاد كلّ من عمل على جواهر المعادن

حتّى النحّاس والإبري وغيرهما ، وغرضنا ذكر الأجناس فأمّا آحاد الحرف فكثيرة ، وأمّا الخرّاز فنعني به كلّ عامل على جلود الحيوانات وأجزائها فهذه أمّهات الصناعات، ثمّ إنّ الإنسان خلق بحيث لايعيش وحده بل يضطرّ إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك بسببين أحدهما حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان ولا يكون ذلك إلّا باجتماع الذّكر و الاُنثى وعشرتهما ، و الثاني التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد فانّ الاجتماع يفضي إلى الولد لا محالة والواحد لايستقلّ بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت ، ثمّ ليس يكفيه الاجتماع مع الأهل و الولد في المنزل ، بل لايمكنه أن يعيش كذلك مالم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفّل كلّ واحد بصناعة فانّ الشخص الواحد كيف يتولّى الفلاحة وحده و هو محتاج إلى الآلات ، ويحتاج الآلة إلى حدّاد ونجّار، ويحتاج الطعام إلى طحّان وخبّاز ، و كذلك كيف يتفرّد لتحصيل الملبس وهو يفتقر إلى حراثة القطن و آلات الحياكة والخياطة وأعمال كثيرة ، فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماعات ، ثمّ لواجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذّوا بالحرّ والبرد والمطر واللّصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل يتفرّد أهل كلّ بيت به وبما معه من الآلات والأثاث والمنازل تدفع الحرّ والبرد وتدفع أذى الجيران من اللّصوصية وغيرها ، ولكن جميع المنازل قدتقصدها جماعة من اللّصوص خارج المنازل ، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصّن بسور يحيط بجميع المنازل ، فحدثت البلاد لهذه الضرورة ، ثمّ مهما اجتمع الناس في البلاد و المنازل و تعاملوا تولّدت بينهم خصومات إذتحدث رئاسة و ولاية للزّوج على الزوجة ، وولاية للأبوين على الولد لأنّه ضعيف محتاج إلى قوّام به ، و مهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم إذليس لها قوّة المخاصمة وإن ظلمت و أمّا المرأة فتخاصم الزّوج ، والولد يخاصم الأبوين هذا في المنزل ، و أمّا أهل البلد أيضاً فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها ولوتركوا كذلك لتقاتلوا و هلكوا ، و كذلك الرّعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعي والأراضي والمياه و هي لاتفي بأغراضهم فيتنازعون لامحالة ثمّ قد يعجز بعضهم عن

الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أوهرم أو تعرض عوارض مختلفة لو ترك ضايعاً لهلك ولو وكل تفقّده إلى الجميع لتخاذلوا ولوخصّ واحد من غيرسبب يخصّه لايذعن له [١] فحدثت بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات اُخر فمنها صناعة المساحة الّتي بها تعرف مقادير الأرض لتمكّن القسمة بينهم بالعدل و منها صناعة الجنديّة لحراسة البلد بالسيف و دفع اللّصوص عنهم و منها صناعة الحكم و التوسّط بينهم لفصل الخصومة و منها الحاجة إلى الفقه و هو معرفة القانون الّذي ينبغي أن يضبط به الخلق و يلزموا الوقوف على حدوده حتّى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله في المعاملات و شروطها ، فهذه اُمور سياسيّة لابدّ منها ولا يشتغل به إلّا مخصوصون بصفات مخصوصة من التمييز والعلم والهداية وإذا اشتغلوا بها لم يتفرّغوا لصناعات اُخر و يحتاجون إلى المعائش و يحتاج أهل البلد إليهم إذلو اشتغل أهل البلد بالحرب مثلاً مع الأعداء تعطّلت الصناعات ولواشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطّلت البلاد عن الحرّاس واستضرّ الخلق فمسّت الحاجة إلى أن يصرف إلى معائشهم و أرزاقهم الأموال الضايعة الّتي لا مالك لها إن كانت أو تصرف إليهم الغنائم إن كانت العداوة مع الكفّار ، فإن كانوا أهل ديانة و ورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح ، و إن أرادوا التوسّع فتمسّ الحاجة لا محالة إلى أن يمدّهم أهل البلد بأموالهم ليمدّوهم بالحراسة فتحدث الحاجة إلى الخراج ثمّ يتولّد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة إلى صناعات اُخر إذ يحتاج إلى من يوظّف الخراج بالعدل على الفلّاحين وأرباب الأموال وهم العمّال و إلى من يستوفي منهم بالرّفق وهم الجباة [٢] والمستخرجون وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزّان وإلى من يفرّق عليهم بالعدل وهم العارض للعساكر [٣] وهذه الأعمال لو تولّاها عدد لايجمعهم رابط انخرم النظام ، فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبّرهم ،

---

(١) اذعن له : خضع وذل وأقر واسرع فى الطاعة وانقاد .

(٢) الجباة هم الذين يجمعون الخراج من اطراف البلاد .

(٣) فى القاموس عرض الجند عرض عين أمرهم عليه و نظر حالهم .

وأمير مطاع يعيّن لكلّ عمل شخصاً ، ويختار لكلّ واحد مايليق به ، ويراعي النصفة في أخذ الخراج وإعطائه واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم و تعيين جهات الحرب ، و نصب الأمير والقائد على كلّ طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك، فتحدث من ذلك بعد الجند الّذين هم أهل السّلاح وبعد الملك الّذي يراقبهم بالعين الكالئة[1] ويدبّرهم الحاجة إلى الكتّاب والخزّان والحسّاب والجباة والعمّال ، ثمّ هؤلاء أيضاً يحتاجون إلى المعيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف ، فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمّى فرع الخراج وعند هذا يكون النّاس في الصّناعات ثلاثة طوائف الفلّاحون والرّعاة والمحترفون ، والثانية الجنديّة الحماة لهم بالسيوف، والثالثة المتردّدون بين الطائفتين في الأخذ والإعطاء وهم العمّال والجباة وأمثالهم فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت و المسكن والملبس و إلى ما ذا انتهى ، وهكذا أمور الدّنيا لا يفتح منها باب إلّا و ينفتح بسببه عشرة أبواب أخر و هكذا تتناهى إلى غير حدّ محصور و كأنّها هاوية لا نهاية لعمقها و من وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى و هكذا على التوالي ، فهذه هي الحرف والصناعات إلّا أنّها لا تتمّ إلّا بالأموال والآلات فالمال عبارة عن أعيان الأرض و ما عليها ممّا ينتفع بها وأعلاها الأغذية ، ثمّ الأمكنة الّتي يأوي الإنسان إليها و هي الدّور ، ثمّ الأمكنة الّتي يسعى فيها للتعيش كالحوانيت والأسواق والمزارع ، ثمّ الكسوة ، ثمّ أثاث البيت وآلاته ثمّ آلات الآلات و قد يكون في الآلات ماهو حيوان كالكلب آلة الصيد ، والبقر آلة الحراثة ، والفرس آلة لركوب الحرب ، ثمّ يحدث من ذلك حاجة البيع فإنّ الفلّاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة والحدّاد والنجّار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة ، فبالضرورة يحتاج الفلّاح إليهما ويحتاجان إليه فيحتاج أحدهما إلى أن يبذل ما عنده للآخر حتّى يأخذ منه غرضه و ذلك بطريق المعاوضة إلّا أنّ النجّار مثلا إذا طلب من الفلّاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلّاح في ذلك الوقت إلى الآلة فلا يبيعه والفلّاح إذا طلب الآلة من النجّار بالطعام ربّما كان عنده طعام في ذلك الوقت

(١) من كلاه اى حفظه واحترسه .

فلا يحتاج إليه فتتعوّق الأغراض فاضطرّوا إلى حانوت تجمع آلة كلّ صنعة يترصّد بها صاحبها أرباب الحاجات و إلى أنبار يجمع إليها ما يحمله الفلّاحون فيشتريه منه صاحب الأنبار ويترصّد به أرباب الحاجات ، فتظهر لذلك الأسواق والمخازن فيحمل الفلّاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجاً باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها لانتظار أرباب الحاجات طمعاً في الربح و كذلك في جميع الأمتعة والأموال ، ثمّ يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردّد فيتردّد النّاس يشترون من القرى الأطعمة و من البلاد الآلات وينقلون ذلك فيتعيّشون به لتنتظم أمور النّاس في البلاد بسببهم ، إذ كلّ بلد ربّما لا يوجد فيه كلّ آلة ، و كلّ قرية لا يوجد فيها كلّ طعام فالبعض يحتاج إلى البعض فيحوج إلى النقل فيحدث التجار المتكفّلون بالنقل وباعثهم عليه حرص جمع المال فيتعبون طول اللّيل و النهار في الأسفار لأغراض غيرهم ونصيبهم منها جمع المال الّذي يأكله لا محالة غيرهم إمّا قاطع طريق و إمّا سلطان ظالم ولكن جعل الله في غفلتهم وجهالتهم نظاماً للبلاد ومصلحة للعباد بل جميع امور الدّنيا انتظمت بالغفلة و خساسة الهمّة و لو عقل الناس وارتفعت همّتهم لزهدوا في الدّنيا و لو فعلوا ذلك لبطلت المعايش و لو بطلت لهلكوا ولهلك الزّهّاد أيضاً ، ثمّ هذه الأموال الّتي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دوابّ تحملها ، و صاحب المال قد لا يملك الدّابّة فتحدث معاملة بينه و بين مالك الدّابّة تسمّى الإجارة و يصير الكراء نوعاً من الاكتساب أيضاً ، ثمّ تحدث بسبب البياعات (١) الحاجة إلى النّقدين فإنّ من يريد أن يشتري طعاماً بثوب فمن أين يدري أنّ المقدار الّذي يساويه من الطعام كم هو والمعاملة تجري في أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام و حيوان بثوب ، و هذه أُمور لا تتناسب فلابدّ من حاكم عدل يتوسّط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب بذلك العدل من أعيان الأموال ثمّ يحتاج إلى مال يطول بقاؤه لأنّ الحاجة إليه تدوم وأبقى الأموال المعادن فاتّخذت النقود من الذّهب والفضّة والنحاس ثمّ مسّت الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فحدثت الحاجة إلى دار الضّرب وإلى

---

(١) البياعة بالكسر- السلعة جمعها بياعات - (القاموس) .

الصيارفة و هكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتّى تنتهي إلى ماتراه فهذه أشغال الخلق و هي معايشهم و شيء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلّا بنوع تعلّم وتعب في الابتداء ، و في الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزاً عن الاكتساب لعجزه عن الحرف فيحتاج إلى أن يأكل ممّا سعى فيه غيره ، فتحدث منه حرفتان خسيستان اللّصوصيّة والكدية[١] إذ يجمعهما أنّهما يأكلان من سعي غيرهما ، ثمّ إنّ الناس يحترزون عن اللّصوص والمتكدّين و يحفظون منهم أموالهم فافتقروا إلى صرف عقولهم إلى استنباط الحيل والتدبيرات ، أما اللّصوص فمنهم من يطلب أعواناً و يكون في بدنه شوكة و قوّة فيجتمعون و يكاثرون و يقطعون الطرق كالأعراب والأكراد و أمّا الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إمّا بالنقب أوالتسلّق عند انتهاز فرصة الغفلة [٢] و إمّا بأن يكون طرّاراً أو سلّالاً[٣] إلى غير ذلك من أنواع التلصّص الحادثة بحسب ما انتجته الأفكار المصروفة إلى استنباطها ، فأمّا المتكدّي فانّه إذا طلب ما سعى فيه غيره قيل له : اتعب و اعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعطى شيئاً فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال و تمهيد العذر لأنفسهم في البطالة فاحتالوا للتعلّل بالعجز إمّا بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون ، و إمّا بالتعامي والتّفالج و التجانن والتمارض و إظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أنّ تلك محنة أصابت من غير استحقاق ليكون ذلك سبب الرّحمة ، وجماعة يلتمسون أفعالاً و أقوالاً يتعجّب النّاس منها حتّى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها حتّى يسخوا برفع

---

(١) الكدية ـ بالضم ـ : شدة الدهر، والارض الغليظة ، والصفاة العظيمة الشديدة والشيء الصلب بين الحجارة والطين ، و ما جمع من طعام او شراب فجعل كثبة و أيضاً الاستعطاء وحرفة السائل الملحّ . والمراد معنى الاخير .

(٢) تسلق الجدار صعد عليه ، وانتهز الفرصة : اغتنمها .

(٣) قال الفيومى : طررته طراً من باب قتل شققته ومنه الطرار وهو الذى يقطع النفقات ويأخذها على غفلة من أهلها ، وسل السيف من باب قتل وسللت الشيء : أخذته ، والسلة ـ بالفتح ـ السرقة وهى اسم من سللته سلا من باب قتل اذا سرقته .

اليد عن قليل من المال في حال التعجّب ، ثمّ قد يندم بعد زوال التعجّب ولا ينفع الندم وذلك قديكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبدة والأفعال المضحكة مثل النوارج والعجابى و قد يكون بالأشعار الغريبة أو الكلام المنثور المسجّع مع حسن الصوت والشعر الموزون أشدّ تأثيراً في النّفس لا سيّما إذا كان فيه تعصّب يتعلّق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة و فضائل أهل البيت عليهم السلام أو الّذي يحرّك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة البطّالين في الأسواق أو تسليم مايشبه العوض وليس بعوض كبيع التعويذات والحشايش إلى من يخيّل به أنّها أدوية فيخدع بها الصبيان والجهّال و كأصحاب القرعة والفال والزجر من المنجّمين و يدخل في هذه الجنس الوعّاظ المكدّون على رؤوس المنابر إذ لم يكن وراءهم طائل علميّ و كان غرضهم استمالة قلوب العوامّ وأخذأموالهم وأنواع الكدية تزيد على الألف نوع والألفين و كلّ ذلك استنبطه بدقيق الفكر لأجل المعيشة ، فهذه هي أشغال الخلق و أعمالهم الّتي أكبّوا عليها و جرّهم إلى ذلك كلّه الحاجة إلى القوت والكسوة ، ولكن نسوا في أثناء ذلك أنفسهم و مقصودهم و منقلبهم ومآلهم فضلّوا وتاهوا وسبقت إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة أشغال الدّنيا خيالات فاسدة ، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدّة أوجه فطائفة غلب عليهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمرهم فقالوا : المقصود أن نعيش أيّاماً في الدّنيا فنجهد حتّى نكسب القوت ثمّ نأكل حتّى نقوى على الكسب ثمّ نكتسب حتّى نأكل فيأكلون ليكسبوا و يكسبون ليأكلوا ، فهذه مذاهب الفلاّحين والمحترفين و من ليس له تنعّم في الدّنيا ولا قدم في الدّين فانّه يتعب نهاراً ليأكل ليلاً ويأكل ليلاً ليتعب نهاراً وذلك كسير السواني[1] فهو سفر لا ينقطع إلّا بالموت .

وطائفة اُخرى زعموا أنّهم تفطّنوا لأمر و هو أن ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل و لا يتنعّم في الدّنيا بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوات

(١) السوانى جمع السانية وهى الناضحة : الناقة التى يستقى عليها وفى المثل « السير السوانى سفر لاينقطع » . (مختار الصحاح)

الدّنيا وهي شهوة البطن والفرج فهؤلاء طائفة نسوا أنفسهم وصرفوا هممهم إلى اتّباع النسوان و جمع لذائذ الأطعمة يأكلون كما تأكل الأنعام و يظنّون أنّهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غايات السعادات فيشغلهم ذلك عن الله تعالى واليوم الآخر.

وطائفة ظنّوا أنّ السعادة في كثرة المال والاستغناء بكنز الكنوز فأسهروا ليلهم و نهارهم في الجمع فهم يتعبون في الأسفار طول اللّيل والنهار و يتردّدون في الأعمال الشاقّة و يكتسبون و يجمعون ولا يأكلون إلّا قدر الضرورة شحّاً و بخلاً عليها أن تنقص و هذه لذّتهم وفي ذلك دأبهم و حركتهم إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللّذات فيكون للجامع تعبه و وباله و للآكل لذّته و حسابه ، ثمّ إنّ الّذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك في أشباههم و أمثالهم ولا يعتبرون.

و طائفة ظنّوا أنّ السعادة في حسن الاسم و انطلاق الألسن بالثّناء والمدح بالتجمّل والمروّة ، فهؤلاء يتعبون في كسب المعايش و يضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب ، ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة والدّوابّ النفيسة ، ويزخرفون أبواب الدّور و ما يقع عليه أبصار الناس حتّى يقال: إنّه غنيّ و إنّه ذو ثروة ، و يظنّون أنّ ذلك هو السعادة فهمّتهم في ليلهم ونهارهم في تعهّد موقع نظر الخلق.

و طائفة اُخرى ظنّوا أنّ السعادة في الجاه والكرامة بين النّاس و انقياد الخلق بالتواضع والتوقير ، فصرفوا همّتهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة بطلب الولايات وتقلّد الأعمال السلطانيّة لينفذوا أمرهم بها على طائفة من الناس و يرون أنّهم إذا اتّسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة و أنّ ذلك غاية المطلب ، و هذا أغلب الشهوات على قلوب المتغافلين من الناس فهؤلاء شغلهم حبّ تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكّر في آخرتهم ومعادهم ، و وراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيّف وسبعين فرقة كلّهم ضلّوا وأضلّوا عن سواء السبيل ، وإنّما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن فنسوا ما تراد له هذه الاُمور الثلاثة والقدر الّذي يكفي منها وانجرّت بهم أوايل أسبابها

إلى أواخرها ، وتداعت بهم إلى مهاوي لم يمكنهم الرقيّ منها ، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال و عرف غاية المقصود منها فلا يخوض في شغل و حرفة وعمل إلّا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظّه و نصيبه منه ، وإنّ غاية مقصوده تعهّد بدنه بالقوت والكسوة حتّى لايهلك و ذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمّة إلى الاستعداد له و إن تعدّى به قدر الضّرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية فتشعّب به الهموم ، ومن تشعّبت به الهموم في أودية الدّنيا فلايبال الله في أيّ واد أهلكه ، فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدّنيا .

وتنبّه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدّنيا فحسدهم الشيطان فلم يتركهم وأضلّهم في الأغراض أيضاً حتّى انقسموا إلى طوائف فظنّت طائفة أنّ الدّنيا دار بلاء ومحنة وأنّ الآخرة دار سعادة لكلّ من وصل إليها سواء تعبّد في الدّنيا أو لم يتعبّد ، فرأوا أنّ الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدّنيا و إليه ذهب طوائف من عبّاد الهند فهم يتهجّمون على النار و يقتلون أنفسهم بالإحراق و يظنّون أنّ ذلك خلاص منهم من محن الدّنيا ، و ظنّت طائفة اُخرى أنّ القتل لا يخلّص بل لابدّ أوّلاً من إماتة الصفات البشريّة و قلعها عن النفس بالكلّية وأنّ السّعادة في قطع الشهوة والغضب ، ثمّ أقبلوا على المجاهدة فشدّدوا على أنفسهم حتّى هلك بعضهم بشدّة الرّياضة ، و بعضهم فسد عقله وجُنّ ، و بعضهم مرض وانسدّت عليه طرق العبادة ، و بعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلّية فظنّ أنّ ما كلّفه الشرع محال وأنّ الشرع تلبيس لا أصل له فوقع في الإلحاد والزندقة ، و ظهر لبعضهم أنّ هذا التعب كلّه لله و أنّ الله مستغن عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص ولاتزيده عبادة عابد ، فعادوا إلى الشّهوات و سلكوا مسلك الإباحة فطووا بساط الشرع والأحكام و زعموا أنّ ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أنّ الله مستغن عن عبادة العباد ، وظنّ طائفة اُخرى أنّ المقصود من العبادات المجاهدة حتّى يصل العبد بها إلى معرفة الله فإذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصال يستغني عن الوسيلة والحيلة ،

فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنّه ارتفع محلّهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف وإنّما التكليف على عوام الخلق ، و وراء هذا مذاهب باطلة وضلالة هائلة وخيالات فاسدة يطول إحصاؤها إلى أن يبلغ نيّفاً وسبعين فرقة وإنّما الناجي منها فرقة واحدة و هي السالكة ما كان عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وأصحابه و هو أن لا يترك الدّنيا بالكلّية و لا يقمع الشهوات بالكلّية أمّا الدّنيا فيؤخذ منها قدر الزّاد ، وأمّا الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ، فلا يتّبع كلّ شهوة ولا يترك كلّ شهوة بل يتّبع العدل ولا يترك كلّ شيء من الدّنيا ولا يطلب كلّ شيء من الدّنيا ، بل يعلم مقصود كلّ ما يخلق من الدّنيا ويحفظه على حدّ مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ، و من المسكن ما يحفظ به من اللّصوص والحرّ و البرد ، و من الكسوة كذلك حتّى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله بكنه همّه واشتغل بالذكر والفكر طول العمر و بقي ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتّى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك إلّا بالاقتداء بالفرقة النّاجية .

أقول: و قد عرفت معنى الفرقة الناجية في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات .

قال : (١) وقد كانوا على النهج القصد و على السّبيل الّذي فصّلناه من قبل فإنّهم ما كانوا يأخذون الدّنيا للدّنيا بل للدّين ، وما كانوا يترهّبون و يهجرون الدّنيا بالكلّية ، وما كان لهم في الاُمور تفريط ولا إفراط بل كانوا أمرهم بين ذلك قواماً وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحبّ الاُمور إلى الله كما سبق ذكره في مواضع والله المستعان لا ربّ سواه و صلّى الله على محمّد وآله أجمعين .

هذا آخر كتاب ذمّ الدّنيا من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء و يتلوه إن شاء الله كتاب ذمّ المال والحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً و باطناً و صلّى الله على محمّد و آله .

---

(١) يعني أباحامد .

كتاب ذمّ المال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضرّ بعد القنوط ، الّذي خلق الخلق ، و وسع الرّزق ، و أفاض على العالمين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلّب الأحوال ، وردّدهم فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع واليأس ، والثروة والافلاس ، والعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، و الفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإنفاق ، والتوسّع والإملاق ، والتّبذير والتقتير ، والرضا بالقليل ، واستحقار الكثير ، كلّ ذلك ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً ، و ينظر أيّهم آثر الدّنيا على الآخرة بدلاً ، وابتغى عن الآخرة عدولاً وحولاً ، واتّخذ الدّنيا ذخيرة وخَوَلاً .

والصلاة على محمّد الّذي نسخ بملّته مللاً ، و طوى بشريعته أدياناً و نحلاً ، و على آله و أصحابه الّذين سلكوا سبل ربّهم ذللاً وسلّم كثيراً .

أما بعد فإنّ فتن الدّنيا كثيرة الشعب والأطراف ، واسعة الأرجاء والأكناف ، ولكنّ الأموال أعظم فتنها وأطمّ محنها وأعظم فتنة فيها أنّه لاغنى لأحد عنها ، ثمّ إذا وجدت فلا سلامة منها ، فإن فقد فقد حصل منه الفقر الّذي يكاد أن يكون كفراً ، وإن وجد حصل منه الطغيان الّذي لاتكون عاقبة أمره إلّا خسراً ، و بالجملة فهي لا تخلو من الفوائد والآفات ، و فوائدها من المنجيات و آفاتها من المهلكات ، و تمييز خيرها عن شرّها من المعوصات الّتي لا يقوى عليها إلّا ذوو البصائر في الدّين من العلماء الرّاسخين دون المترسّمين المغترّين ، وشرح ذلك مهمّ على الانفراد فإنّ ماذكرناه في كتاب ذمّ الدّنيا لم يكن نظراً في المال خاصّة بل في الدّنيا عامّة إذ الدّنيا تتناول

كلّ حظّ عاجل و المال بعض أجزاء الدّنيا ، والجاه بعضها ، واتّباع شهوة البطن و الفرج بعضها ، و تشفّي الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها ، والكبر و طلب العلوّ بعضها ، ولها أبعاض كثيرة و يجمعها كلّ ما للإنسان فيه حظّ عاجل ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده إذفيه آفات وغوائل وللإنسان من فقده صفة الفقر و من وجوده صفة الغنى ، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان ، ثمّ للفاقد حالتان القناعة والحرص وإحداهما مذمومة والأُخرى محمودة ، وللحريص حالتان طمع فيما في أيدي الناس أوتشمّر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق ، والطمع شرّ الحالتين ، و للواجد حالتان إمساك بحكم البخل والشحّ وإنفاق ، و إحداهما مذمومة والأُخرى محمودة ، وللمنفق حالتان تبذير واقتصاد والمحمود هو الاقتصاد ، و هذه أُمور متشابهة و كشف الغطاء عن الغموض فيها مهمّ فنشرحه في فصول ، و هي أربعة عشر فصلاً : وهو بيان ذمّ المال ، ثمّ مدحه ، ثمّ تفصيل فوائد المال وآفاته ، ثمّ بيان ذمّ الحرص والطمع ، ثمّ علاج الحرص والطمع ، ثمّ فضيلة السخاء ، ثمّ حكايات الأسخياء ، ثمّ ذمّ البخل ، ثمّ حكايات البخلاء ، ثمّ الإيثار و فضله ، ثمّ حدّ السخاء والبخل ، ثمّ علاج البخل ، ثمّ مجموع الوظائف في المال ، تمّ ذمّ الغنى و مدح الفقر .

(بيان ذم المال و كراهة حبه)

قال الله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولاأولادكم عن ذكر الله و من يفعل ذلك فاُولئك هم الخاسرون »(١).

و قال الله تعالى : « إنّما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجرٌ عظيم »(٢).

و قال تعالى : « من كان يريد الحيوة الدّنيا وزينتها - الآية - »(٣).

و قال تعالى : « الهيكم التكاثر »(٤).

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « حبّ المال والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء

(١) المنافقون : ٩ . (٢) التغابن : ١٥ .
(٣) هود : ١٥ . (٤) التكاثر : ٢.

البقل »[١] .

و قال ﷺ : « ما ذئبان ضاريان أُرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حبّ الشرف والمال والجاه في دين الرّجل المسلم »[٢] .

و قال ﷺ : « هلك الأكثرون مالاً إلّا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليلٌ ماهم »[٣] .

و قيل : يا رسول الله أيّ أُمّتك شرّ ؟ قال : « الأغنياء »[٤] .

و قال ﷺ : « سيأتي بعدكم قومٌ يأكلون أطائب الطعام وألوانها وينكحون أجمل النساء و ألوانها ، و يلبسون ألين الثياب و ألوانها ، و يركبون فره الخيل و ألوانها ، لهم بطون من القليل لا تشبع ، وأنفس بالكثير لاتقنع ، عاكفين على الدّنيا يغدون ويروحون إليها ، اتّخذوها آلهة من دون إلههم وربّاً دون ربّهم ، إلى أمرها ينتهون و لهواهم يتبعون ، فعزيمة من محمّد بن عبدالله لمن أدرك ذلك الزّمان من عقب عقبكم و خلف خلفكم أن لا يسلّم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتّبع جنائزهم و لا يوقّر كبيرهم فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام »[٥] .

---

(١) قال العراقى : لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعدهذا بلفظ الجاه بدل الشرف .

(٢) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٢٣ من حديث مالك الانصارى وصححه وفيه « الشرف » وأيضاً « جائعان » بدل « ضاريان » ورواه النسائى فى السنن الكبرى هكذا لكن ليس فيها « فى زريبة » و للطبرانى فى الاوسط من حديث ابى سعيد « ماذئبان ضاريان فى زريبة غنم الحديث » وفى سنده خالد بن يزيد العمرى وهو كذاب و رواه بسند آخر جيد عن ابى هريرة بأدنى اختلاف كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٥١ .

(٣) راجع صحيح البخارى ج ٨ ص ١١٦ . ومسند احمد ج ٢ ص ٤٢٨ و ج ٣ ص ٥٢ .

(٤) ماعثرت عليه بهذا اللفظ فى اصل .

(٥) أخرجه البزار عن ابى امامة هكذا « سيكون رجال من امتى يأكلون الوان الطعام ويشربون الوان الشراب ويلبسون الوان الثياب ويتشدقون فى الكلام فاولئك شرار امتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه اجسامهم » وفى طريقه عبدالرحمن بن زياد بن نعم الافريقى وهو ضعيف فى حفظه كما قاله ابن الحجر وقد وثق و الجمهور على تضعيفه كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٥٠ . ولم أجد لبقية الحديث اصل .

و قال صلى الله عليه وسلم : « دعوا الدّنيا لأهلها من أخذ من الدّنيا فوق ما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لايشعر » (١).

و قال صلى الله عليه وسلم : « يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلّا ما تصدّقت فأمضيت ، أو أكلت فأفنيت ، أولبست فأبليت » (٢)

و قال رجل : « يا رسول الله مالي لا أُحبّ الموت ؟ فقال : هل معك من مال؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : قدّم مالك أمامك فإنّ قلب المؤمن مع ماله ، إن قدّمه أحبّ أن يلحقه و إن خلّفه أحبّ أن يتخلّف معه » (٣).

و قال صلى الله عليه وسلم : « أخلاء ابن آدم ثلاثة : واحد يتبعه إلى قبض روحه ، والثاني إلى قبره ، والثالث إلى محشره فالّذي يتبعه إلى قبض روحه فماله ، والّذي يتبعه إلى قبره فأهله ، والّذي يتبعه إلى محشره فعمله » (٤).

و قال الحواريّون لعيسى ابن مريم عليه السلام : مالك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك ؟ فقال لهم : « ما منزلة الدّينار والدّرهم عندكم ؟ قالوا : حسن ، قال : لكنّهما عندي والمدر سواء » .

و كتب سلمان إلى أبي الدّرداء : يا أخي إيّاك أن تجمع من الدّنيا ما لا تؤدّي شكره فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يجاء بصاحب الدّنيا الّذي أطاع الله فيها و ماله بين يديه كلّما تكفّأ به الصراط قال له ماله : امض فقد أدّيت حقّ الله فيّ ، ثمّ يجاء بصاحب الدّنيا الّذي لم يطع الله فيها و ماله بين كتفيه كلّما تكفّأ به الصراط قال له ماله : ويلك ألّا أدّيت حقّ الله فيّ ، فما يزال كذلك حتّى

---

(١) أخرجه ابوبكر بن لال من حديث انس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير ج ٢ ص ١٦ ورواه البزار وقال :لايروى الامن هذا الوجه كما في الترغيب ج ٤ ص ١٦٠ .

(٢) رواه الحاكم ج ٤ ص ٣٢٢ من المستدرك والترمذي ج ٩ ص ٢٠٧ وقد تقدم .

(٣) قال العراقي : لم أقف عليه .

(٤) رواه الطبراني في الكبير باسانيد أحدها صحيح ورواه في الاوسط بلفظ آخر راجع الترغيب ج ٤ ص ١٧١ ومجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

يدعوا بالثبور والويل »(١).

و كلّ ماأوردنا في كتاب الزّهد والفقر في ذمّ الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذمّ المال فلا نطول بتكريره و كذا كلّ ما ذكرناه في ذمّ الدّنيا فيتناول ذمّ المال بحكم العموم ، لأنّ المال أعظم أركان الدّنيا وإنّما نذكر الآن ما ورد في المال خاصّة .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا مات العبد قالت الملائكة : ماقدّم ، وقال الناس : ماخلّف »(٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لاتتّخذوا الضيعة فتحبّوا الدّنيا »(٣).

و روي أنّه وضع عليّ عليه السلام درهماً على كفّه ، ثمّ قال : « أما إنّك ما لم تخرج عنّي لا تنفعني » .

و قيل : إنّ أوّل ما ضرب الدّينار والدّرهم رفعهما إبليس ثم وضعهما على جبهته ، ثمّ قبّلهما و قال : من أحبّكما فهو عبدي حقّاً .

و قال يحيى بن معاذ : الدّرهم عقربٌ فان لم تحسن رقيته فلا تأخذه فإنّه إن لدغك قتلك سمّه ، قيل : ما رقيته ؟ قال : أخذه من حلّه ووضعه في حقّه .

و قال : أيضاً مصيبتان لم يسمع الأوّلون والآخرون بمثلها للعبد في ماله عند موته ، قيل : وماهما ؟ قال : يؤخذ منه كلّه و يسأل عنه كلّه .

و قيل : ما أعزّ الدّرهم أحدٌ إلّا أذلّه .

و قال العلاء بن زياد : تمثّلت لي الدّنيا وعليها من كلّ زينة ، فقلت : أعوذ بالله من شرّك ، قالت : إن سرّك أن يعيذك الله من شرّي فأبغض الدّينار والدّرهم . و ذلك لأنّ الدّينار والدّرهم هي الدّنيا كلّها إذ يتوصّل بهما إلى جميع أصنافها فمن صبر عنهما صبر عن الدّنيا ، ولذلك قيل :

---

(١) قال العراقى : ليس هو من حديث سلمان انما هومن حديث ابى الدرداء وأنه كتب الى سلمان كذا رواه البيهقى فى الشعب وقال بدل « الدنيا » « المال » وهو منقطع .

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابى هريرة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير.

(٣) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٠١ من حديث ابن مسعود وفيه « فترغبوا فى الدنيا » .

إنّي وجدت فلا تظنّوا غيره ✿ إنّ التورّع عند هذا الدّرهم
فإذا قدرت عليه ثمّ تركته ✿ فاعلم بأنّ تقاك تقوى المسلم

و قال غيره :

لايغرّنك من المرء قميص رقعه ✿ أو إزار فوق عظم الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه أثر قد خلعه ✿ أره الدّرهم فانظر حبّه أو ورعه

✿(بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم)✿

إعلم أنّ الله سبحانه قد سمّى المال خيراً في مواضع فقال : « إن ترك خيراً الاية - »[1] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « نعم المال الصالح للرّجل الصالح »[2] و كلّ ما جاء في ثواب الصدقة والحجّ فهو ثناء على المال إذ لا يمكن الوصول إليهما إلّا به و قال تعالى : « و يستخرجا كنزهما رحمة من ربّك »[3] وقال تعالى : ممتنّاً على عباده « و يمدد كم بأموال و بنين و يجعل لكم جنّات و يجعل لكم أنهاراً »[4] و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « كاد الفقر أن يكون كفراً »[5] وهو ثناء على المال ، ولا تقف على وجه الجمع بين المدح والذّم إلّا بأن تعرف حكمة المال و مقصوده و آفاته وغوائله حتّى ينكشف لك أنّه خيرٌ من وجه وشرٌّ من وجه ، وأنّه محمودٌ من حيث هو خيرٌ ومذمومٌ من حيث هو شرٌّ فإنّه ليس هو بخير محض ولا هو شرّ محض ، بل هو سبب للأمرين جميعاً و ما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة و يذمّ اُخرى ولكن البصير المميّز يدرك أنّ المحمود منه غير المذموم و بيانه بالاستمداد ممّا ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات و تفصيل درجات النعم ، والقدر المقنع فيه هو أنّ مقصد الأكياس و أرباب البصائر سعادة الآخرة الّتي هي النعيم الدّائم والملك المقيم والقصد إلى هذا دأب

---

(١) البقرة : ١٨٠ . (٢) قال العراقى : أخرجه احمد والطبرانى فى الكبير والاوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ « نعما » وقالا « للمرء » .

(٣) الكهف : ٨٢ .

(٤) نوح : ١٢ .

(٥) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

الكرام والأكياس ، إذقيل لرسول الله ﷺ : مَن أكرم الناس وأكيسهم ؟ فقال : « أكثرهم للموت ذكراً و أشدّهم له استعداداً » [١] و هذه السعادات لا تنال إلّا بثلاثة وسائل في الدّنيا وهي الفضائل النفسيّة كالعلم وحسن الخلق ، والفضائل البدنيّة كالصحّة والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن كالمال و سائر الأسباب و أعلاها النفسيّة ثمّ البدنيّة ثمّ الخارجة ، والخارجة أخسّها ، والمال من جملة الخارجات و أدناها الدّراهم والدّنانير فإنّهما خادمان ولاخادم لهما ويرادان لغيرهما ولايرادان لذاتهما إذالنفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها وأنّها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها ، والبدن يخدم النّفس بواسطة الحواسّ والأعضاء ، و المطاعم والملابس تخدم البدن .

و قد سبق أنّ المقصود من المطاعم إبقاء البدن و من المناكح إبقاء النسل و من البدن تكميل النفس و تزكيتها و تزيينها بالعلم والخلق ، و مَن عرف هذا الترتيب فقدعرف قدر المال ووجه شرفه وأنّه من حيث هوضرورة المطاعم و الملابس الّتي هي ضرورة بقاء البدن الّذي هو ضرورة كمال النفس الّذي هوخيرٌ ، ومَن عرف فائدة الشيء و غايته و مقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتاً إليها غير ناس لها فقدأحسن وانتفع وكان ما يحصل الغرض محموداً في حقّه ، فإذن المال آلة و وسيلة إلى مقصود صحيح ويصلح أن يتّخذآلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة وهي المقاصد الصادّة عن سعادة الآخرة وتسدّ سبيل العلم والعمل ، فهو إذاً محمود مذموم ، محمودٌ بالإضافة إلى المقصود المحمود و مذمومٌ بالإضافة إلى المقصود المذموم ، فمن أخذ من الدّنيا أكثر ممّا يكفيه فقد أخذ حتفه وهولا يشعر كما ورد في الخبر ، و لمّا كانت الطباع مائلة إلى اتّباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهّلاً لها وآلة إليها عظم الخطر فيمايزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شرّه حتّى قال نبيّنا ﷺ : « اللّهمّ اجعل قوت آل محمّد كفافاً » [٢] فلم يطلب من الدّنيا ما لم يتمحّض خيره ، وقال : « اللّهمّ

---

(١) رواه ابن ابى الدنيا فى الموت بسند جيد كما فى المغنى .

(٢) متفق عليه وأخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٣٩ من حديث ابى هريرة .

أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً »[١] .

واستعاذ إبراهيم صلوات الله عليه فقال : « واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام »[٢] و في بعض التفاسير أنّه عنى بهذين الحجرين الذّهب والفضّة إذ رتبة النبوّة أجلّ من أن يخشى عليها أن تعتقد الالهيّة في شيء من هذه الحجارة ، إذ قد كفي قبل النبوّة عبادتها مع الصغر ، و إنّما معنى عبادتهما حبّهما والاغترار بهما والرّكون إليهما ، قال نبيّنا ﷺ : « تعس عبد الدّرهم تعس عبد الدّينار تعس و انتكس وإذاشيك فلاانتقش »[٣] فبيّن أنّ محبّهما عابدٌ لهما و من عبد حجراً فهوعابد صنم ، بل كلّ من كان عبداً لغير الله فهوعابدصنم ، أي من قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقّه فهو كعابد صنم ، وهو شرك إلّا أنّ الشرك شركان شرك خفيّ لايوجب الخلود في النار وقلّما ينفكّ عنه المؤمنون فإنّه أخفى من دبيب النمل و شرك جليّ يوجب الخلود في النار .

✡(بيان تفصيل آفات المال و فوائده)✡

إعلم أنّ المال مثل حيّة فيها سمّ و ترياقٌ ففوائده ترياقه و غوائله سمومه فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شرّه و يستدرّ من خيره .

أما الفوائد: فهي تنقسم إلى دنيويّة ودينيّة ، وأمّا الدنيويّة فلا حاجة إلى ذكرها فإنّ معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها ، وأمّا الدّينيّة فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع :

النوع الأوّل : أن ينفقه على نفسه إمّا في عبادة أو في الاستعانة على عبادة ، أمّا

(١) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢١٣ أبواب الزهد فى حديث عن أنس وقال هذا حديث غريب . وابن ماجه تحت رقم ٤١٢٦ .

(٢) ابراهيم : ٣٥ .

(٣) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٤١ و٤٢ فى حديث عن أبى هريرة . وقوله « تعس » اى عثر وانكب بوجهه وهو دعاء عليه بالهلاك . وقوله : « وانتكس » اى انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة ، لان من انتكس فى امره فقد خاب وخسر، وقوله : « اذاشيك فلا انتقش » اى اذا شاكه شوكة فلايقدر على انتقاشها و هو اخراجها بالمنقاش . (النهاية)

في العبادة فهو كالاستعانة به على الحجّ والجهاد فإنّه لا يتوصّل إليهما إلّا بالمال وهما من أمّهات القربات ، والفقير محروم عن فضلهما ، وأمّا فيما يقوّيه على العبادة فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة ، فإنّ هذه الحاجات إذا لم تتيسّر كان القلب منصرفاً إلى تدبيرها فلا يتفرّغ للدّين ومالا يتوصّل إلى العبادة إلّا به فهو عبادة فأخذهم الكفاية من الدّنيا لأجل الاستعانة على الدّين من الفوائد الدّينيّة ، ولايدخل في هذا التنعّم والزّيادة على الحاجة ، فإنّ ذلك من حظوظ الدّنيا فقط .

النوع الثاني : مايصرفه إلى الناس وهي أربعة أقسام : الصدقة والمروّة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام ، أمّا الصدقة فلايخفى ثوابها وأنّها لتطفىء غضب الرّبّ تعالى و قد ذكرنا فضائلها ، و أمّا المروّة فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة و هديّة وإعانة وما يجري مجراها ، فإنّ هذه لا تسمّى صدقة ، بل الصدقة ما يسلّم إلى المحتاج إلّا أنّ هذا أيضاً من الفوائد الدّينيّة إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء و به يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء ، فلا يوصف بالجود إلّا من يصطنع المعروف و يسلك سبيل الفتوّة والمروّة ، و هذا أيضاً ممّا يعظم الثواب فيه ، فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات و إطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها ، و أمّا وقاية العرض فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء و ثلب السّفهاء و قطع ألسنتهم ودفع شرّهم ، وهذا أيضاً مع تنجّز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدّينيّة أيضاً قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة »(١) و كيف لايكون كذلك و فيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحترازٌ عمّا يثور من كلامه من العداوة الّتي تحمله في المكافأة و الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة ، و أمّا الاستخدام فهو أنّ الأعمال الّتي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه

(١) أخرجه ابويعلى من حديث جابر و الدارقطنى والخرائطى والبيهقى فى شعب الايمان ايضاً فى حديث عن جابر بسند حسن كما فى المغنى وأخرجه الحاكم فى المستدرك بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

كثيرة ولو تولّاها بنفسه ضاعت أوقاته و تعذّر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر و الذكر الّذي هو أعلى مقامات السالكين ، ومن لامال لهفيفتقر إلى أن يتولّى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام و طحنه و كنس البيت حتّى نسخ الكتاب الّذي يحتاج إليه و كلّ ما يتصوّر أن يقوم به غيرك و يحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به إذ عليك من العلم والعمل والفكر والذّكر مالا يتصوّر أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت في غيره خسران .

النوع الثالث : مالا يصرفه إلى إنسان معيّن ولكن يحصل به خير عامّ كبناء المسجد والقناطير والرباطات و دار المرضى و نصب الحباب في الطرق وغير ذلك من الأوقاف المرصّدة للخيرات ، وهي من الخيرات المؤبّدة الدّارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية ، وناهيك به خيراً فهذه جملة فوائد المال في الدّين سوى مايتعلّق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذلّ السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى العزّ والمجد بين الخلق و كثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء والوقار والكرامة في القلوب فكلّ ذلك ممّا يقتضيه المال من الحظوظ الدّنيويّة .

وأما الافات : فدينيّة و دنيويّة أمّا الدّينيّة فثلاثة :

الأولى أنّه يجرّ إلى المعاصي فإنّ الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء و بين المعصية و من العصمة أن لا يقدر ، و مهما كان الإنسان آيساً عن نوع من المعصية لم تتحرّك داعيته إليها فإذا استشعر القدرة عليه انبعثت الدّاعية ، والمال نوع من القدرة يحرّك داعية المعاصي وارتكاب الفجور فإن اقتحم ما اشتهاه هلك و إن صبر وقع في شدّة إذ الصبر مع القدرة أشدّ وفتنة السرّاء أعظم من فتنة الضرّاء .

الثانية أنّه يجر إلى التنعّم في المباحات و هذا أوّل الدّرجات فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الأطعمة كماكان يقدر عليه سليمان عليه السلام في ملكه فأحسن أحواله أن يتنعّم بالدّنيا ويمرّن عليه نفسه ، فيصير التنعّم مألوفاً عنده و محبوباً لا يصبر عنه و يجرّه البعض منه إلى البعض ، و إذا اشتدّ اُنسه به ربّما لا يقدر على التوصّل إليه بالكسب الحلال

فيقتحم الشبهات و يخوض في المراياة والمداهنة والكذب والنفاق و ساير الأخلاق الرّديّة لينتظم له أمر دنياه و يتيسّر له تنعّمه ، فانّ من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ومن احتاج إلى الناس فلابدّ وأن ينافقهم ويعصي الله في طلب رضاهم فان سلم الانسان من الآفة الأولى و هي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلاً ، و من الحاجة إلى الخلق تثور العداوة و الصّداقة و ينشأ عنه الحسد والحقد والرّياء والكبر والكذب والغيبة والنميمة وسائر المعاصي الّتي تخصّ القلب واللّسان ولايخلو عن التعدّي أيضاً إلى سائر الجوارح ، و كلّ ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه و إصلاحه .

الثالثة و هي الّتي لاينفكّ عنها أحدٌ و هو أنّه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى و كلّ ما شغل العبد عن الله فهو خسرانٌ ، و لذلك قال عيسى عليه السلام : في المال ثلاث آفات أن يأخذه من غير حلّه فقيل : إن أخذه من حلّه ، قال : يضعه في غير حقّه ، فقيل : إن وضعه في حقّه ، فقال : يشغله إصلاحه عن الله ، و هذا هو الدّاء العضال ، فانّ أصل العبادات ومخّها و سرّها ذكر الله تعالى والتفكّر في جلاله وذلك يستدعي قلباً فارغاً وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكّراً في خصومة الفلّاح ومحاسبته ، وخصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود ، وخصومة أعوان السّلطان في الخراج ، و خصومة الأجراء في التقصير في العمارة ، وخصومة الفلّاحين في خيانتهم وسرقتهم ، و صاحب التجارة يكون متفكّراً في خيانة شريكه وانفراده بالرّبح وتقصيره في العمل وتضييعه للمال ، و كذلك صاحب المواشي ، وهكذا سائر أصناف الأموال ، وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنوز تحت الأرض ولايزال بالفكر متردّداً فيما يصرف إليه وفي كيفيّة حفظه ، وفي الخوف ممّن يعثر عليه ، وفي دفع أطماع الناس عنه ، و أودية أفكار أهل الدّنيا لانهاية لها والّذي معه قوت يومه في سلامة عن جميع ذلك فهذه جملة الآفات الدّينيّة سوى مايقاسيه أرباب الأموال في الدّنيا من الخوف والحزن والغمّ والهمّ والتعب في دفع الحسّاد و تجشّم المصاعب في حفظ الأموال و كسبها فإذن ترياق المال أخذ القوت و صرف الباقي إلى الخيرات و ما عداه سموم وآفات .

(بيان ذم الحرص والطمع)
(ومدح القناعة واليأس مما فى أيدى الناس)

إعلم أنّ الفقر محمودٌ كما أوردناه في كتاب الفقر و لكن ينبغي أن يكون الفقير قانعاً منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك إلّا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس ، و يقتصر على أقلّه قدراً وأخسّه نوعاً ، ويردّ أمله إلى يومه أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد الشّهر فإن تشوّق إلى الكثرة أوطول الأمل فاته عزّ القناعة وتدنّس لامحالة بالطمع و ذلّ الحرص ، و جرّه الحرص و الطمع إلى مساوي الأخلاق و ارتكاب المنكرات الخارقة للمروّات و قد جبل الآدميّ على الحرص والطمع و قلّة القناعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى وراءهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب و يتوب الله على من تاب »(١).

وعن أبي واقد اللّيثي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أوحي إليه أتيناه يعلمنا بما اُوحي إليه فجئته ذات يوم ، فقال : « إنّ الله عزّوجلّ يقول : إنّا أنزلنا المال لإقام الصلاة و إيتاء الزكاة ، ولو أنّ لابن آدم وادياً من ذهب لأحبّ أن يكون إليه الثاني ، ولو كان له الثاني لأحبّ أن يكون إليهما الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب و يتوب الله على من تاب »(٢).

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « منهومان لايشبعان : منهوم العلم و منهوم المال »(٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يهرم ابن آدم و يشبّ معه اثنتان الأمل وحبّ المال أو كما قال »(٤).

(١) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١١٥ . (٢) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٥ ص ٢١٩ ولابن ماجه نحوه عن أبى هريرة تحت رقم ٤٢٣٥ .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير بسند ضعيف من حديث ابن مسعود بلفظ آخر كما فى مجمع الزوائد ج ١ ص ١٣٥ .

(٤) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١١٠ بادنى اختلاف فى اللفظ والنسائى واحمد أيضاً من حديث أنس بسند صحيح .

و لمّا كانت هذه جبلّة للآدمي مضلّة ، و غريزة مهلكة أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة ، وقال ﷺ : « طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به »(١).

و قال ﷺ : « ما من أحد غنيّ ولا فقير إلّا ودّ يوم القيامة أنّه كان اُوتي قوتاً في الدّنيا »(٢).

و قال ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنّما الغنى غنى النّفس »(٣).

و نهى عن شدّة الحرص والمبالغة في الطلب فقال : « ألا أيّها الناس اجملوا في الطلب فإنّه ليس للعبد إلّا ما كتب له ، ولن يذهب عبد من الدّنيا حتّى يأتيه ما كتب له في الدّنيا وهي راغمة »(٤).

وروي أنّ موسى عليه السلام سأل ربّه تعالى فقال : « أيّ عبادك أغنى ؟ قال : أقنعهم لما أعطيته ، قال : فأيّهم أعدل ؟ قال : من أنصف من نفسه ».

و قال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « إنّ روح القدس نفث في روعي إنّ نفساً لن تموت حتّى تستكمل رزقها فاتّقوا الله و أجملوا في الطلب »(٥).

وعنه ﷺ : « إذا اشتدّ بك الجوع فعليك برغيف و كوز من ماء وعلى الدّنيا الدّمار »(٦).

وعنه ﷺ : « كن ورعاً تكن أعبد الناس ، و كن قانعاً تكن أشكر الناس ، و أحبّ للناس ما تحبّ لنفسك تكن مؤمناً »(٧).

---

(١) أخرجه الترمذى فى صحيحه ج ٩ ص ٢١١ و قال : حسن صحيح .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤٠ باسناده عن نفيع عن انس ، وقال السيوطى : هذا الحديث اورده ابن الجوزى فى الموضوعات وأعله بنفيع فانه متروك ، وهو مخرج فى مسند احمد و له شاهد من حديث ابن مسعود أخرجه الخطيب فى تاريخه .

(٣) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١١٨ من حديث ابى هريرة .

(٤) أخرج نحوه الحاكم فى المستدرك ج ٢ ص ٤ . والبيهقى فى السنن ج ٥ ص ٢٦٤ .

(٥) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٢ ص ٤ وابن ابى الدنيا فى القناعة .

(٦) أخرجه ابن عدى والبيهقى فى الشعب عن ابى هريرة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٧) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢١٧ من حديث ابى هريرة بسند حسن .

و نهى رسول الله ﷺ عن الطمع فيما رواه أبو أيّوب الأنصاري أنّ أعرابيّاً أتى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله عظني و أوجز ، فقال : « إذا صلّيت فصلّ صلاة مودّع ، ولا تحدّثنّ بحديث تعتذر منه غداً ، وأجمع اليأس عمّا في أيدي الناس »[1].

و قال عوف بن مالك : كنّا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ قلنا : أو ليس قد بايعناك يا رسول الله ؟ ثمّ قال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا فبايعناه ، و قال قائل منّا : قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس ، و تسمعوا و تطيعوا ، ـ و أسرّ كلمة خفيّة ـ و لا تسألوا الناس شيئاً . قال : و لقد كان بعض اُولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحداً أن يناوله إيّاه[2].

الآثار قيل لبعض الحكماء : ماالغنى ؟ قال : قلّة تمنّيك ورضاك بمايكفيك .

و قال ابن مسعود : ما من يوم إلّا و ملك ينادي يا ابن آدم قليل يكفيك خيرٌ من كثير يطغيك .

و قيل لحكيم : ما مالك ؟ قال : التجمّل في الظاهر ، والقصد في الباطن ، و اليأس ممّا في أيدي الناس .

و يروى أنّ الله عزّ وجلّ قال : ياابن آدم لو كانت الدّنيا كلّها لك لم يكن لك منها إلّا القوت فاذا أنا أعطيتك منها القوت و جعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسنٌ .

و قيل لبعض الحكماء : أيّ شيء أسرّ للعاقل ، وأيّها أعون على دفع الحزن؟ قال : أسرّها إليه ماقدم من صالح العمل ، وأعونها له على دفع الحزن الرّضا بمحتوم القدر .

و قال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غمّاً الحسود ، و أهنأهم عيشاً القنوع ، و أصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدّنيا ،

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧١ وللحاكم ج ٤ ص ٣٢٦ نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص . (٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٨٦٧ .

و أعظمهم ندامة العالم المفرط . و قد قيل :

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة ✿ إنّ الّذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنّسه ✿ والوجه منه جديد ليس يخلقه
إنّ القناعة من يحلل بساحتها ✿ لم يلق في دهره شيئاً يؤرّقه

و عاتب أعرابيّ أخاه على الحرص فقال : يا أخي أنت طالب ومطلوب يطلبك ما لاتفوته و تطلب أنت ماقد كفيته ، و كلّ ما قدغاب عنك قد كشف لك وماأنت فيه قد نقلت عنه كأنّك يا أخي لم تر حريصاً محروماً و زاهداً مرزوقاً . و قيل :

أراك يزيدك الإثراء حرصاً ✿ على الدّنيا كأنّك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوماً ✿ إليها قلت حسبي قد رضيت ؟

وقال الشعبيّ : حكي أنّ رجلاً صاد قنبرة قالت : ماتريد أن تصنع بي ؟ قال: أذبحك وأكلك ، قالت : والله ماأشفي من قرم[1] ولا أشبع من جوع ولكن اُعلّمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي أمّا واحدة فاُعلّمك و أنا في يدك ، و أمّا الثانية فإذا صرت على الشجرة ، و أمّا الثالثة فإذا صرت على الجبل ، قال : هات الاُولى قالت : لا تلهفنّ على مافات ، فخلاها فلمّا طارت على الشجرة قال : هات الثانية قالت : لا تصدّقنّ بما لايكون أنّه يكون ، ثمّ طارت فصارت على الجبل و قالت : يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درّتين في كلّ واحدة عشرون مثقالاً ، قال : فعضّ على شفتيه و تلهّف و قال : هات الثالثة ، فقالت : أنت قد نسيت الثنتين فكيف اُخبرك بالثالثة ألم أقل لك لا تلهفنّ على مافاتك ولاتصدّقنّ ما لايكون ألا إنّ لحمي و دمي و ريشي لايكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي درّتان في كلّ واحدة عشرون مثقالاً ؟ ثمّ طارت فذهبت ، وهذا مثال لفرط طمع الآدميّ فإنّه يعميه عن درك الحقّ حتّى يقدّر مالا يكون أنّه يكون .

و قال عبدالله بن سلام لكعب : ما يذهب العلم من قلوب العلماء بعد إذ وعوه و عقلوه ؟ قال : الطمع وشره النفس وطلب الحوائج ، فقال رجل للفضيل : فسّر لي قول كعب ، قال : يطمع الرّجل في الشيء فيطلبه فيذهب عليه دينه ، و شره النفس

(١) القرم ـ بالتحريك ـ : شدة شهوة اللحم .

في هذا وفي هذا حتّى لا تحبّ أن يفوتها شيء ، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة ، فإذا قضاها لك خزم أنفك و قادك حيث شاء ، واستمكن منك و خضعت له ، فمن حبّك للدّنيا سلّمت عليه إذا مررت به وعدته إذا مرض ، لم تسلّم عليه لله تعالى ولم تعده لله فلو لم تكن لك إليه حاجة كان خيراً لك ، ثمّ قال : هذا خير لك من مائة حديث عن فلان و فلان .

و قال بعض الحكماء : من عجيب أمر الإنسان أنّه لو نودي بدوام البقاء في أيّام الدّنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر ممّا قد استعمله مع قصر مدّة التمتّع وتوقّع الزّوال.

و قال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له : من أين تأكل ؟ فقال : من بيدر اللّطيف الخبير الّذي خلق الرحى يأتيها بالطحين ، و أومأ بيده إلى رحى أضراسه .

☼(بيان علاج الحرص والطمع)☼
☼(والدواء الذى يكتسب به صفة القناعة)☼

اعلم أنّ هذا الدّواء مركّب من ثلاثة أركان الصبر والعلم والعمل و مجموع ذلك خمسة اُمور :

الأوّل وهو العمل : الاقتصاد في المعيشة والرّفق في الإنفاق فمن أراد عزّ القناعة فينبغي أن يسدّ على نفسه أبواب الخرج ما أمكنه و يردّ نفسه إلى ما لابدّ له فإنّ من كثر خرجه واتّسع إنفاقه لم تمكنه القناعة بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن ، ويقنع بأيّ طعام كان ، و يقلّل من الادام ما أمكنه ، و يوطّن نفسه عليه وإن كان له عيال فيردّ كلّ واحد منهم إلى هذا القدر فإنّ هذا القدر يتيسّر بأدنى جهد ويمكن معه الإجمال في الطلب ، فالاقتصاد في المعيشة هو الأصل في القناعة و نعني به الرّفق في الإنفاق و ترك الخرق فيه .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ الله يحبّ الرّفق في الأمر كلّه » (١).

(١) متفق عليه وقد تقدم .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما عال مَن اقتصد » (١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاثٌ منجيات : خشية الله في السرّ و العلانية ، و القصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرّضا والغضب » (٢).

و روي أنّ رجلاً أبصر أبا الدّرداء يلتقط حبّاً من الأرض و يقول : إنّ من فقهك رفقك في معيشتك .

و قال ابن عبّاس : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « الاقتصاد و حسن السمت و الهدي الصالح جزء من بضع و عشرين جزءاً من النبوّة » (٣).

و في الخبر « التدبير نصف المعيشة » (٤).

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « من اقتصد أغناه الله ، ومن بذّر أفقره الله ، ومن ذكر الله عزّ وجلّ أحبّه الله » (٥).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتّى يجعل الله لك فرجاً و مخرجاً » (٦) والتؤدة في الإنفاق من أهمّ الأمور .

---

(١) أخرجه احمد في مسند عبدالله بن مسعود بسند حسن كما في الجامع الصغير .

(٢) أخرجه ابو الشيخ في التوبيخ و الطبراني في الاوسط من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٤٨ عن ابن عباس وقيل في معناه : ان الطريقة الصالحة وحسن الهيئة وسلوك القصد في الامور هي التي منحها الله تعالى انبياءه (ع) فاقتدوا بهم فيها وتابعوهم عليها . وليس معنى الحديث أن النبوة تتجزء ولا أن من جمع له هذه الخصال كان فيه جزء من النبوة فان النبوة غير مكتسبة ، وانما هي كرامة من الله لمن أراد اكرامه بها من عباده وقد ختمت بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم . والخبر رواه أيضاً الطبراني في الكبير عن ابن سرخس بسند حسن كما في الجامع الصغير بتقديم وتأخير في كلاهما .

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس من حديث أنس بسند حسن كما في الجامع الصغير.

(٥) أخرجه البزار عن طلحة بن عبيدالله دون قوله « ومن ذكر الله احبه الله » بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٦) رواه ابن المبارك في البر والصلة كما في المغني و أخرجه البخاري في الادب المفرد والبيهقي في الشعب عن رجل بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

الثاني أنّه إذا تيسّر له في الحال مايكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل الاستقبال ، ويعينه على ذلك قصر الأمل والتحقّق بأنّ الرّزق الّذي قدّر له لأبدّ و أن يأتيه وإن لم يشتدّ حرصه ، فإنّ شدّة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق ، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعدالله تعالى إذ قال : « وما من دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها » (١) و ذلك لأنّ الشيطان يعده الفقر و يأمره بالفحشاء و يقول : إن لم تحرص على الجمع والادّخار فربّما تمرض وربّما تعجز و تحتاج إلى احتمال الذّل في السؤال ، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفاً من التعب و يضحك عليه في احتمال التعب نقداً مع الغفلة عن الله لتوهّم تعبه في ثاني الحال وربّما لا يكون ، و في مثله قيل :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ✡ مخافة فقر فالّذي فعل الفقر

و قد دخل ابنا خالد على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال لهما : « لا تيأسا من الرّزق ما تهزّزت رؤوسكما فإنّ الإنسان تلده امّه أحمر ليس عليه قشر ، ثمّ يرزقه الله تعالى » (٢).

و مرّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بابن مسعود و هو حزين فقال له : « لا تكثر همّك ما قدّر يكن وما ترزق يأتك » (٣).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ألا أيّها الناس أجملوا في الطلب ، فإنّه ليس لعبد إلّا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدّنيا حتّى يأتيه ما كتب له من الدّنيا وهي راغمة » (٤) ولا ينفكّ الإنسان عن الحرص إلّا بحسن ثقة بتدبير الله في تقدير أرزاق العباد وأنّ ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب ، بل ينبغي أن يعلم أنّ رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر ، قال الله تعالى : « ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً و يرزقه

---

(١) هود : ٦ .
(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٦٥ وابنا خالد هما حبة وسواء .
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث خالد بن رافع كما في المغني .
(٤) تقدم قبل عن الحاكم وغيره .

من حيث لا يحتسب »(١) فإذا انسدّ عليه باب كان ينتظر الرّزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله ، قال ﷺ : « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلّا من حيث لا يحتسب »(٢).

وقال بعضهم : اتّق الله فما رأيت تقيّاً محتاجاً. أي لايترك التقيّ فاقداً لضرورته بل يلقي الله في قلوب المؤمنين أن يوصلوا إليه رزقه.

قال الفضيل : قلت لأعرابيّ : من أين معاشك ؟ قال : نذر الحاجّ ، قلت : فإذا صدروا ؟ فبكى و قال : لولم نعش إلّا من حيث ندري لم نعش.

و قال أبو حازم : وجدت الدّنيا شيئين شيئاً منهما هولي فإن أعجلته قبل أجله لايصل ولوطلبته بقوّة السماوات والأرض ، وشيئاً منهما هولغيري فذلك لم أنله فيما مضى ولا أرجوه فيما بقي ، يمنع الّذي لغيري منّي كما يمنع الّذي لي من غيري ، ففي أيّ هذين أفني عمري ؟ فهذا دواء من جهة المعرفة لابدّ منه لدفع تخويف الشيطان و إنذاره بالفقر.

الثالث أن يعرف ما في القناعة من عزّ الاستغناء و ما في الطمع و الحرص من الذّل فإذا تحقّق له ذلك انبعث رغبته إلى القناعة لأنّه في الحرص لايخلو من تعب وفي الطمع لا يخلو من ذلّ وليس في القناعة إلّا ألم الصبر عن الشهوات و الفضول و هذا ألم لا يطّلع عليه أحدٌ إلّا الله وفيه ثواب الآخرة وذلك ممّا يضاف إليه نظر الناس وفيه الوبال والإثم ثمّ يفوته عزّ النفس والقدرة على متابعة الحقّ فإنّ من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلايمكنه دعوتهم إلى الحقّ ويلزمه المداهنة وذلك يهلك دينه و من لايؤثر عزّ النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان ، قال النبي ﷺ : « عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس »(٣).

---

(١) الطلاق : ٣.

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاء وقال المقدسي : رواه احمد بن داود وفيه عبدالغفار كان يضع الحديث راجع تذكرة الموضوعات ص ٨.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣٢٥ وصحح اسناده وأبو الشيخ في كتاب الثواب وابو نعيم في الحلية كلهم من حديث سهل بن سعد أن جبرئيل قاله للنبي (ص) في ←

ففي القناعة الحرمة والعزّ ولذلك قيل : استغن عمّن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، و أحسن إلى من شئت تكن أميره .

الرّابع أن يكثر تأمّله في تنعّم اليهود والنصارى و أراذل الناس و الحمقاء من الأكراد والأعراب و من لا دين لهم ولا عقل ، ثمّ ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء و إلى سمت الصحابة (١) والتابعين و يستمع أحاديثهم و يطالع أحوالهم و يخير عقله بين أن يكون على مشابهة أرذل الخلق أو على الاقتداء بمن هو أعزّ أصناف الخلق عند الله حتّى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير فإنّه إن تنعّم في البطن فالحمار أكثر أكلاً منه ، وإن تنعّم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه ، و إن تزيّن في الملبس والخيل ففي اليهود والنصارى من هو أعلى رتبة منه ، وإن قنع بالقليل و رضي به لم يساهمه في رتبته إلّا الأنبياء والأولياء .

الخامس أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرناه من آفات المال و ما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع وما في خلوّ اليد من الأمن والفراغ ويتأمّل ما ذكرناه من آفات المال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنّة إلى خمسمائة عام فإنّه إذا لم يقنع بما يكفيه التحق بزمرة الأغنياء و أُخرج من جريدة الفقراء ويتمّ ذلك بأن ينظر أبداً إلى من هو دونه في الدّنيا لا إلى من هو فوقه فإنّ الشيطان أبداً يصرف نظره في الدّنيا إلى من هو فوقه فيقول : لِمَ تفتر عن الطلب ؟ وأرباب الأموال يتنعّمون في المطاعم و الملابس و يصرف نظره في الدّين إلى من هو دونه فيقول : ولِمَ تضيق على نفسك وتخاف الله ؟ وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله والناس كلّهم مشغولون بالتنعّم فلِمَ تريد أن تتميّز عنهم ؟ . قال أبو ذرّ : أوصاني خليلي صلى الله عليه وآله « أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي » (٢) أي في الدّنيا .

--- اثناء حديث و فيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة و كلاهما مختلف فيه وجعله القضاعى فى مسند الشهاب من قول النبى صلى الله عليه وآله كما المغنى .

(١) السمت : هيئة أهل الخير .

(٢) أخرجه احمد في المسند ج ٥ ص ١٥٥ .

و عنه ﷺ : « إذانظر أحدكم إلى من فضّله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممّن فضّل عليه »(١) فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خُلق القناعة و عماد الأمر الصبر و قصر الأمل و أن يعلم أنّ غاية صبره في الدّنيا أيّام قلائل ليتمتّع دهراً طويلاً فيكون كالمريض الّذي يصبر على مرارة الدّواء لشدّة طمعه في انتظار الشفاء .

✿(بيان فضيلة السخاء)✿

إعلم أنّ المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلّة الحرص وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسّخاء واصطناع المعروف والتباعد من الشحّ والبخل فإنّ السخاء من أخلاق الأنبياء و هو أصل من أصول النّجاة و عنه عبّر النبيّ ﷺ حيث قال : « السخاء شجرة من شجر الجنّة أغصانها متدلّية إلى الأرض فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنّة »(٢).

و قال جابر : قال رسول الله ﷺ : « قال جبرئيل : قال الله تعالى : إنّ هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه إلّا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما مااستطعتم» وفي رواية « فأكرموه بهما ما صحبتموه »(٣).

وعنه ﷺ « ما جبل الله أولياءه إلّا على السخاء وحُسن الخلق »(٤).

وعن جابر قال قيل : يارسول الله أيّ الأعمال أفضل ؟ قال: «الصبر والسماحة»(٥).

وعنه ﷺ : « خُلقان يحبّهما الله عزّوجلّ وخُلقان يبغضهما الله عزّوجلّ فأمّا اللّذان يحبّهما الله عزّوجلّ فحسن الخلق والسخاء ، و أمّا اللّذان يبغضهما الله

---

(١) أخرجه احمد والبخارى ومسلم بسند صحيح عن ابى هريرة كما فى الجامع الصغير.

(٢) أخرجه الدار قطنى فى الافراد ، والبيهقى فى الشعب عن على عليه السلام وابن عدى عن ابى هريرة وابو نعيم فى الحلية عن جابر والخطيب عن ابى سعيد وابن عساكر عن أنس والديلمى فى الفردوس عن معاوية بسند حسن كما فى الجامع الصغير .

(٣) رواه الطبرانى فى الاوسط كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٠ .

(٤) رواه ابو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب كمافى الترغيب ج ٣ ص ٣٨٣ .

(٥) رواه البيهقى فى الزهد باسناد صحيح بزيادة كما فى المغنى .

عزّ وجلّ فسوء الخلق و البخل ، فإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله في قضاء حوائج الناس » (١).

و روى المقدام بن شريح عن أبيه عن جدّه قال : قلت : يارسول الله دلّني على عمل يدخلني الجنّة ، قال : « إنّ من موجبات المغفرة بذل الطعام و إفشاء السلام و حسن الكلام » (٢).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم « يقول الله تعالى : اطلبوا الفضل من الرّحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم ، فإنّي جعلت فيهم رضائي ، ولاتطلبوها من القاسية قلوبهم فإنّي جعلت فيهم سخطي » (٣).

و عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « تجافوا عن ذنب السخيّ فإنّ الله آخذ بيده كلّما عثر » (٤).

و قال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الرّزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير ، وإنّ الله تعالى ليباهي بمطعم الطعام الملائكة » (٥).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله تعالى جواد يحبّ الجود ، ويحبّ معالي الأخلاق و يكره سفسافها » (٦).

---

(١) رواه الاصفهانى موقوفاً على ابن عمر . ورواه الديلمى من حديث أنس هكذا « اذا اراد الله بعبده خيراً صيرحوائج الناس اليه » كمافى الجامع الصغير وقال العراقى : فى سنده يحيى بن شبيب ضعفه ابن حبان .

(٢) أخرجه الطبرانى بسند حسن كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٩ .

(٣) أخرجه الخرائطى فى مكارم الاخلاق عن ابى سعيد بسند ضعيف كمافى الجامع الصغير.

(٤) أخرجه الدار قطنى فى الافراد والطبرانى وابونعيم والبيهقى عن ابن مسعود بلفظ «تجاوزوا » بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير . ورواه الكلينى فى الكافى ج ٤ ص ٢٨ . ولفظه « اجيزوا» .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٣٥٧ دون قوله : « و ان الله الخ » من حديث ابن عباس ، ولم اجده من حديث ابن مسعود .

(٦) أخرجه البيهقى فى الشعب عن طلحة بن عبيدالله وابونعيم فى الحلية من حديث ابن عباس بسند حسن كمافى الجامع الصغير .

و قال أنس : « إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يسأل على الاسلام شيئاً إلّا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثيرة بين جبلين من شاء الصّدقة فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإنّ محمّداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة » (١).

وعنه صلى الله عليه وآله : « إنّ لله عباداً يخصّهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله عنه و حوّلها إلى غيره » (٢).

وعن الهلالي قال : اُتي رسول الله صلى الله عليه وآله بأسارى من بني العنبر فأمر بقتلهم و أفرد منهم رجلاً فقال : عليّ بن أبي طالب عليه السلام : يا رسول الله الرّبّ واحد والدّين واحد فما بال هذا من بينهم ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : نزل عليّ جبرئيل عليه السلام فقال : اُقتل هؤلاء واترك هذا فإنّ الله شكر له سخاء فيه» (٣).

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ لكلّ شيء ثمرة و ثمرة المعروف تعجيل السراح » (٤). وعنه صلى الله عليه وآله « طعام الجواد دواء و طعام البخيل داء » (٥).

وقال صلى الله عليه وآله : « من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤونة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤونة عرض تلك النعمة للزّوال » (٦).

---

(١) تقدم في المجلد الرابع في اخلاقه صلى الله عليه وآله رواه مسلم ج ٧ ص ٧٤ .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير والاوسط وأبونعيم و فيه محمد بن حسان السمتي وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن شيخه ابي عثمان عبدالله بن زيد الحمصي ضعفه الازدي كمافي مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٩٢ .

(٣) نقله العلامة المجلسي - رحمه الله - في البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر ص ٢١ عن فقه الرضا مرسلا .

(٤) قال العراقي ولم اجد له اصلا : أقول : رواه الكليني في الكافي ج ٤ ص ٣٠ والسراح - بالمهملات - : الارسال والخروج من الامر بسرعة وسهولة وفي المثل «السراح من النجاح » يعني اذا لم تقدر على قضاء حاجة أحد فآيسه فان ذلك من الاسعاف .

(٥) كتاب الامامة والتبصرة كما في المجلد الخامس عشر من البحار الجزء الثاني ص ٢١ . وأخرجه ابن عدي والدار قطني في غرائب مالك وابوعلي الصدفي في عواليه .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج من حديث عائشة والبيهقي في الشعب من حديث معاذ بسند ضعيف كما في الجامع الصغير ولفظه « ماعظمت نعمة الله .. الحديث »

و قال عيسى عليه السلام: « استكثروا من شيء لا تأكله النّار، قيل: وماهو؟ قال: المعروف ».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: « الجنّة دار الأسخياء » (١).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: « إنّ السخيّ قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنّة بعيد من النّار، و إنّ البخيل بعيدٌ من الله بعيدٌ من الناس بعيدٌ من الجنّة قريبٌ من النّار، وجاهل سخيّ أحبّ إلى الله من عالم بخيل وأدوء الدّاء البخل » (٢).

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: « اصنع المعروف إلى من هو أهله و إلى من ليس بأهله فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله و إن لم تصب أهله فأنت من أهله » (٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: « إنّ بدلاء اُمّتي لم تدخل الجنّة بصلاة ولا بصيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين » (٤).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: « إنّ الله عزّ وجلّ جعل للمعروف وجوهاً من خلقه حبّب إليهم المعروف وحبّب إليهم فعاله و وجّه طلّاب المعروف إليهم ويسّر عليهم إعطاءه كما

---

(١) أخرجه ابن عدى والدار قطنى فى المستجاد بسند ضعيف كمافى المغنى ومنقول فى جامع الاخبار ص ١١٢ مرسلا.

(٢) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٤٠ من حديث ابى هريرة وقال: هذا حديث غريب.

(٣) أخرجه الدار قطنى فى المستجاد من حديث جعفر بن محمد عليهما السلام عن ابيه عن جده مرسلا ورواه الكلينى من حديثه عليه السلام فى الكافى ج ٤ ص ٢٧ تحت رقم ٦ و٩. والخبر محمول على ماإذالم يعلم قطعاً أنه ليس من أهله ومن حاله مجهول عنده لئلاينافى مارواه الكلينى مسنداً عن الصادق عليه السلام قال للمفضل: « اذا اردت أن تعلم أشقى الرجل ام سعيد؟ فانظر سيبه [اى عطاءه] و معروفه الى من يصنعه، فان كان يصنعه الى من هو أهله فاعلم أنه الى خير وان كان يصنعه الى غيرأهله فاعلم أنه ليس له عندالله خير ». وقال فى حديث آخر « اذا اردت أن تعلم الى خير يصير الرجل ام الى شر انظر أين يضع معروفه فان كان يضع معروفه عندأهله فاعلم أنه يصير الى خير، وان كان يضع معروفه عند غيرأهله فاعلم أنه ليس له فى الاخرة من خلاق » راجع الكافى ج ٥ ص ٣١.

(٤) أخرجه ابو بكر بن لال فى المكارم و الدار قطنى فى المستجاد من حديث أنس بسند ضعيف كما فى المغنى.

يسرّ الغيث إلى البلدة الجدبة فيحييها ويحيي بها أهلها »(١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « كلّ معروف صدقة ، و كلّ ماأنفق الرّجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ، وما وقى المرء به عرضه فهوله صدقة ، وماأنفق الرّجل من نفقة فعلى الله خلفها » (٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « كلّ معروف صدقة ، والدّال على خير كفاعله ، والله يحبّ إغاثة اللّهفان » (٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « كلّ معروف فعلته إلى غنيّ أو فقير صدقة »(٤).

و روي أنّ الله أوحى إلى موسى عليه السلام : «لا تقتل السامريّ فإنّه سخيّ».

و قال جابر : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فحدّثوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فقال : « إنّ الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت » (٥).

و قال عليّ عليه السلام : « إذا أقبلت عليك الدّنيا فأنفق منها فإنّها لاتفنى و إذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنّها لاتبقى ، و أنشد :

لاتبخلنّ بدنيا و هي مقبلة ✿ فليس ينقصها التبذير والسرف

فإن تولّت فأحرى أن تجود بها ✿ فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

و سأل معاوية الحسن بن عليّ عليهما السلام عن المروّة والنجدة والكرم فقال : أمّا المروّة فحفظ الرّجل دينه وحرزه نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن المنازعة والاقدام

---

(١) أخرجه الدار قطنى فى المستجاد ورواه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٣٢١ من حديث على عليه السلام وصححه ، ورواه الكلينى فى الكافى ج ٤ ص ٢٥ تحت رقم ٢ .

(٢) أخرجه ابن عدى والدار قطنى والخرائطى والبيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند حسن كما فى المغنى والحاكم فى المستدرك بسند ضعيف كمافى الجامع الصغير .

(٣) رواه الكلينى فى الكافى ج٤ ص ٢٧ تحت رقم٤ ، والدار قطنى فى المستجاد .

(٤) أخرجه الخطيب فى الجامع من حديث جابر و الطبرانى عن ابن مسعود بسند ضعيف كمافى الجامع الصغير .

(٥) أخرجه الدار قطنى عن ابى حمزة الحميرى عن جابر ولا يعرف اسمه ولاحاله .

في الكراهية ، وأمّا النجدة فالذبّ عن الجار والصّبر في المواطن ، وأمّا الكرم فالتبرّع بالمعروف قبل السؤال ، والاطعام في المحلّ ، والرأفة بالسّائل مع بذل النائل (١).

و رفع رجل إلى الحسن بن عليّ عليهما السلام رقعة فقال : حاجتك مقضية ، فقيل له : يابن رسول الله لو نظرت في رقعته ثمّ رددت الجواب على قدر ذلك ؟ فقال : يسألني الله تعالى عن ذلّ مقامه بين يديّ حتّى أقرأ رقعته .

وقال عليّ بن الحسين عليهما السلام : من وصف ببذل ماله لطلّابه لم يكن سخياً وإنّما السخيّ من يبتدىء بحقوق الله تعالى في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حبّ الشكر له إذا كان ثقته بثواب الله تامّاً .

وقال جعفر الصادق عليه السلام : « لا مال أعود من العقل ، ولا مصيبة أعظم من الجهل ، ولا مظاهرة كالمشورة (٢) ، ألا وإنّ الله عزّ وجلّ يقول : إنّي جوادٌ كريمٌ لا يجاورني لئيمٌ ، واللّوم من الكفر ، والكفر في النار ، والجود والكرم من الإيمان والإيمان في الجنّة » .

و قال الأصمعيّ : كتب الحسن بن عليّ إلى الحسين بن عليّ عليهما السلام يعتب عليه في إعطاء الشعراء فكتب إليه خير المال ما وقي به العرض .

و تمثّل متمثّل عند عبدالله بن جعفر بهذين البيتين .

إنّ الصنيعة لا تكون صنيعة ✿ حتّى يصاب بها طريق المصنع
فإذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها ✿ لله أو لذوي القرابة أودع

فقال عبدالله بن جعفر : إنّ هذين البيتين ليبخلان الناس ولكن أمطر المعروف مطراً فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً وإن أصاب اللّئام كنت أنت له أهلاً .

و قال حذيفة : ربّ فاجر في دينه أخرق في معيشته يدخل الجنّة بسماحته .

---

(١) تحف العقول ص ٢٢٥ وحلية الاولياء لابى نعيم ج٢ ص ٣٦ والفصول المهمة لابن صباغ ص ١٦٤ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص٣٩ وفي جميع هذه المصادر هذه المسائل سألها امير المؤمنين صلوات الله عليه عن الحسن عليه السلام .

(٢) الى هنا روى الكليني فى الكافى ج ١ ص ٢٩ نحوه .

و رأى الأحنف بن قيس رجلاً وفي يده درهمٌ فقال : لمن هذا الدّرهم ؟ قال : لي ، فقال : أما إنّه ليس لك حتّى تخرجه من يدك ، و في معناه قيل :

أنت للمال إذا أمسكته ☆ فإذا أنفقته فالمال لك

و سمّي واصل بن عطاء الغزّال لأنّه كان يجلس إلى الغزّالين فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئاً .

وقال ابن السماك : عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه.

وسئل بعض الأعراب وقيل : من سيّدكم ؟ فقال : من احتمل شتمنا ، وأعطى سائلنا ، وأغضى عن جاهلنا .

و قال بعضهم : بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود .

وقيل لبعض الحكماء : من أحبّ الناس إليك ؟ قال : من كثرت أياديه عندي ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : من كثرت أيادي عنده .

وقال بعضهم : إذا الرّجل أمكنني من نفسه حتّى أضع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده .

☆(حكايات الاسخياء)☆

قيل : بكى عليٌّ عليه السلام يوماً فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : لم يأتني ضيف منذ سبعة أيّام أخاف أن يكون الله قد أهانني .

و سأل رجل الحسن بن عليّ عليهما السلام حاجة فقال له : يا هذا حقّ سؤالك إيّاي يعظم لديَّ ، ومعرفتي بما يجب لك يكبر عليَّ ، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله والكثير في ذات الله تعالى قليلٌ ، و ما في ملكي وفاء لشكرك ، فإن قبلت الميسور ورفعت عنّي مؤونة الاحتمال والاهتمام بما أتكلّف من واجب حقّك فعلت ، فقال : يا ابن رسول الله أقبل و أشكر العطيّة وأعذر على المنع ، فدعا الحسن عليه السلام بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتّى استقصاها فقال : هات الفاضل من الثلاثمائة ألف درهم فأحضر خمسين ألفاً ، قال : فما فعلت بالخمسمائة دينار قال ؟ : هي عندي ، قال : أحضرها فأحضرها فدفع الدّنانير و الدّراهم إلى الرّجل وقال : هات من يحملها لك فأتاه

بحمّالين فدفع إليه الحسن عليه السلام رداءه لكراء الحمّالين فقال له مواليه : والله ما عندنا درهم فقال : ولكنّي أرجو أن يكون لي عندالله أجرعظيم (١) .

وقال أبو الحسن المدائني : خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجّاجاً ففاتتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا فمرّوا بعجوز في خباء لها فقالوا : هل من شراب ؟ قالت : نعم فأناخوا إليها و ليس لها إلّا شويهة في كسر الخيمة فقالت : احلبوها و امتذقوا لبنها ، ففعلوا ذلك ثمّ قالوا لها : هل من طعام ؟ قالت : لا إلّا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتّى أهيّئ لكم ما تأكلون فقام إليها أحدهم فذبحها و كشطها ثمّ هيّأت لهم طعاماً فأكلوا وقاموا حتّى أبردوا ، فلمّا ارتحلوا قالوا لها : نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فإذا رجعنا سالمين فألمّي بنا فإنّا صانعون بك خيراً ثمّ ارتحلوا فأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرّجل وقال : ويلك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثمّ تقولين : نفر من قريش ، قال : ثمّ بعد مدّة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ويعيشان بثمنه فمرّت العجوز في بعض سكك المدينة فإذا الحسن بن عليّ عليهما السلام جالس على باب داره فعرف العجوز و هي له منكرة فبعث الحسن غلامه و دعا بالعجوز فقال لها : يا أمة الله أتعرفيني؟ قالت : لا، قال : أنا ضيفك يوم كذا و كذا ، قالت العجوز: بأبي أنت وأمّي أنت هو ؟ قال : نعم ، ثمّ أمر الحسن فاشتروا لها من شاء الصدقة ألف شاة و أمر لها معها بألف دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين عليه السلام فقال لها الحسين:

(١) ماعثرت عليه فى أى اصل من الاصول المعتبرة الاعلى ماأورده الاربلى فى كشف الغمة نقلا عن الكنجى الشافعى صاحب مطالب السؤول مرسلا . و العجب من ابى حامد حيث نقل قبل هذا الكلام أن مصعب بن الزبير قال : حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة فقال الحسين بن على لاخيه الحسن عليهم السلام : لاتلقه ولاتسلم عليه . فلما خرج معاوية قال الحسن ان علينا ديناً فلابد لنا من أتيانه فركب فى أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه فمروا عليه ببختى عليه ثمانون ألف دينار وقدأعيا وتخلف عن الابل وقوم يسوقونه ، فقال معاوية : ماهذا ؟ فذكروا له ، فقال : اصرفوه بما عليه الى أبى محمد . انتهى . فليت شعرى كيف توافق هاتان القصتان .

بكم وصلك أخي ؟ فقالت : بألف شاة و ألف دينار ، فأمر لها الحسين أيضاً بمثل ذلك ، ثمّ بعث بهامع غلامه إلى عبد الله بن جعفر ، فقال : بكم وصلك الحسن و الحسين ؟ قالت : بألفي شاة و ألفي دينار ، فأمر لها عبد الله بن جعفر بألفي شاة و ألفي دينار و قال لها : لو بدأت بي لاتعبتهما ، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف دينار وأربعة آلاف شاة [1].

و اجتمع قرّاء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل البصرة فقالوا : لنا جار صوّام قوّام يتمنّى كلّ واحد منّا أن يكون مثله و قد زوّج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عندهما يجهّزها به ، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم و أدخلهم داره وفتح صندوقاً فأخرج منه ستّ بدر ، فقال : احملوا فحملوا ، فقال ابن عبّاس : ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله من صيامه و قيامه و ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدّنيا من القدر ما يشغل به مؤمناً عن عبادة ربّه و ما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله ، ففعل وفعلوا .

وكان أبو طاهر بن كثير شيعياً وقال له رجل : بحقّ عليّ بن أبي طالب لمـّا وهبت لي نخلتك بموضع كذا ، قال : قد فعلت وحقّه لأعطينّك ما يليها وكان ذلك أضعاف ما طلبه الرّجل .

و كان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر : و الله ما عندي ما أُعطيك ولكن قدّمني إلى القاضي وادّع عليّ بعشرة آلاف درهم حتّى أقرّ لك بها ثمّ احبسني فإنّ أهلي لا يتركوني محبوساً ففعل ذلك فلم يمس حتّى دفع إليه عشرة آلاف درهم و أُخرج أبو مرثد من الحبس .

وكان معن بن زائدة عاملاً على العراقين بالبصرة فحضر بابه شاعر فأقام مدّة و أراد الدخول على معن فلم يتهيّأ له فقال يوماً لبعض خدم معن : إذا دخل الأمير البستان فعرّفني ، فلمّا دخل أعلمه فكتب الشاعر بيتاً على خشبة و ألقاها في الماء الّذي يدخل ببستان معن ، و كان على رأس الماء فلمّا بصر بالخشبة أخذها و قرأها

---

(١) مطالب السؤول باب جوده و كرمه ﷺ ص ٦٦ . وفي كشف الغمة ص ١٦٦ .

فإذا فيها مكتوب :

أيا جود معن ناج معناً بحاجتي ✿ فمالي إلى معن سواك شفيع

قال : فقال : من صاحب هذه ؟ فدعا بالرّجل فقال له : كيف قلت ؟ فقاله، فأمر له بعشرة بِدَرٍ فأخذها و وضع معن الخشبة تحت بساطه فلمّا كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط وقرأ ما فيها و دعا بالرّجل فدفع إليه مائة ألف درهم ، فلمّا أخذها الرّجل تفكّر و خاف أن يأخذ منه ما أعطاه ، و خرج فلمّا كان في اليوم الثالث قرأ ما فيها و دعا بالرّجل فطلب فلم يوجد فقال معن : حقّ عليّ أن أعطيه حتّى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار .

و خرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله و هو وحده ، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه فقال له عبد الله : ألك حاجة ؟ قال : صلاحك و فلاحك رأيتك تمشي وحدك فقلت أقيك بنفسي و أعوذ بالله أن يطرأ بجنابك مكروه ، فأخذ عبد الله بيده ومشى معه إلى منزله ثمّ دعا له بألف دينار فدفعها إليه و قال : استنفق هذا فنعم ما أدّبك أهلك .

و حكي أنّ قوماً من العرب جاؤوا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة فنزلوا عند قبره وقد جاؤوا من سفر بعيد فباتوا عند قبره فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر و هو يقول له : هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي ـ وكان قد خلّف الميّت نجيباً معروفاً به وكان لهذا الرّجل بعير سمين ـ فقال : نعم وباع في النوم بعيره بنجيبه فلمّا وقع بينهما العقد عمد هذا الرّجل إلى بعيره فنحره في النوم فانتبه الرّجل من نومه فإذا يثجّ الدّم من نحر بعيره فقام و نحره و قسّم لحمه فطبخوه و قضوا حاجتهم ثمّ رحلوا و ساروا فلمّا كان اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم ركب فقال رجل منهم : من فلان بن فلان منكم ؟ ـ باسم ذلك الرّجل ـ فقال : أنا ، فقال : هل بعت من فلان شيئاً ؟ ـ وذكر الميّت صاحب القبر ـ قال : نعم بعت منه بعيري بنجيبه في النوم و ذكر القصّة فقال : خذ هذا نجيبه ، ثمّ قال : هو أبي و قد رأيته في النوم و هو يقول : إن كنت ابني فادفع نجيبي إلى فلان بن فلان وسمّاه .

و قدم رجلٌ من قريش من سفر فمرّ برجل من الأعراب على قارعة الطريق و قد أقعده الدّهر و أضربه المرض فقال له : يا هذا أعنّا على الدّهر فقال الرّجل لغلامه : ما بقي من النفقة فادفعه إليه فصبّ الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم فذهب ينهض فلم يقدر من الضعف فبكى فقال الرّجل : ما يبكيك لعلك استقللت ما أعطيناك ؟ قال : لا ولكن ذكرتُ ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني .

و اشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره الّتي في السوق بتسعين ألف درهم فلمّا كان اللّيل سمع بكاء آل خالد فقال لأهله : مالهؤلاء ؟ قالوا: يبكون لدارهم ، قال : ياغلام ائتهم فأعلمهم أنّ الدّار و المال لهم جميعاً .

و قيل أنفذ هارون الرّشيد إلى مالك بن أنس خمسمائة دينار فبلغ ذلك اللّيث ابن سعد فأنفذ إليه ألف دينار فغضب هارون وقال : اُعطيه خمسمائة وتعطيه ألفاً وأنت من رعيّتي فقال : يا أمير المؤمنين إنّ لي في كلّ يوم من غلّتي ألف دينار و استحييت أن اُعطي مثله أقلّ من دخل يوم ، وحكي أنّه لم تجب عليه الزّكاة مع أنّ دخله كلّ يوم ألف دينار .

و روي أنّ امرأة سألت اللّيث شيئاً من عسل فأمر لها بزقّ فقيل له : إنّها كانت تقنع بأقلّ من هذا ، فقال : إنّها سألت على قدرها ونعطيها على قدر النعمة علينا .

وكان اللّيث بن سعد لا يتكلّم كلّ يوم حتّى يتصدّق على ثلاثمائة وستّين مسكينا .

و قال الأعمش اشتكت شاة عندي و كان خيثمة بن أبي عبد الرّحمن يعودها بالغداة و العشيّ ويسألني هل استوفت علفها و كيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها و كان تحتي لبد أجلس عليه فإذا خرج قال : خذ ما تحت اللّبد ، حتّى وصل إليّ في علّة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من برّه حتّى تمنّيت أنّ الشاة لم تبرأ .

و قيل : مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقيل له : إنّهم يستحيون ممّا لك عليهم من الدّين فقال : أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزّيارة ، ثمّ أمر منادياً ينادي من كان عليه لقيس حقٌّ فهو منه في حلّ قال : فكثرت درجته بالعشيّ لكثرة من زاره وعاده .

و قال الشيخ أبو سعد الخركوشي النيسابوري: سمعت محمّد بن محمّد الحافظ يقول: سمعت الشافعيّ المجاور بمكّة يقول: كان بمصر رجلٌ عرف بأن يجمع للفقراء شيئاً فولد لبعضهم ولدٌ قال: فجئت إليه وقلت له: ولد لي مولودٌ وليس معي شيء، فقام معي و دخل على جماعة فلم يفتح له بشيء، فجاء إلى قبر رجل كان يعرفه و جلس عنده وقال: رحمك الله كنت تفعل وتصنع و إنّي درت اليوم وكلّفت جماعة دفع شيء لمولود فلم يتّفق لي شيء، قال: ثمّ قام وأخرج ديناراً فكسّره بنصفين و ناولني نصفه وقال: هذا دين عليك إلى أن يفتح لك بشيء قال: فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتّفق لي به، قال: ورأى ذلك المحتسب تلك اللّيلة ذلك الشخص في منامه فقال: سمعت جميع ما قلت و ليس لنا إذن في الجواب ولكن احضر منزلي و قل لأولادي يحفروا مكان الكانون و يخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها إلى هذا الرّجل، قال: فلمّا كان الغد تقدّم إلى منزل الميّت وقصّ عليهم القصّة فقالوا له: انزل، وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاؤوا بها ووضعوها بين يديه فقال: هذا مالكم وليس لرؤياي فيه حكمٌ فقالوا: هو يتسخّى ميتاً و نحن لا نتسخّى أحياء فلمّا ألحّوا عليه حمل الدّنانير و جاء إلى الرّجل صاحب المولود وذكر له القصّة قال: فأخذ منها ديناراً فكسّره نصفين فأعطاه النصف الّذي أقرضه و حمل النصف الآخر، و قال: يكفيني هذا تصدّق به على الفقراء، فقال أبو سعد: فلا أدري أيّ هؤلاء أسخى.

و أتى رجلٌ صديقاً ودقّ عليه الباب، فقال: لم جئتني؟ قال: عليّ أربعمائة دينار ديناً، فوزن أربعمائة و أخرجها إليه وعاد يبكي فقالت امرأته: لم أعطيته إذ شقّ عليك؟ فقال: إنّما أبكي لأنّي لم أتفقّد حاله حتّى احتاج إلى مفاتحتي به.

❊(بيان ذم البخل)❊

قال الله تعالى: «ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون» (١).

و قال تعالى: «ولا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتيهم الله من فضله هو خيراً لهم

(١) الحشر: ١٠.

بل هو شرٌّ لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة » (١).

و قال تعالى : « الّذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل و يكتمون ما آتيهم الله من فضله » (٢).

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إيّاكم و الشحّ فإنّه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم و يستحلّوا محارمهم » (٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يدخل الجنّة بخيل ولاخبٌّ ولاخائن ولا سيّىء الملكة » - و في رواية - « ولاجبّار » - وفي رواية - « ولا منّان » (٤).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث مهلكات : شحٌّ مطاع ، و هوى متّبع ، و إعجاب المرء بنفسه » (٥).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله يبغض ثلاثة : الشيخ الزّاني ، و البخيل المنّان ، و المعيل المختال » (٦).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « مثل المنفق و البخيل كمثل رجلين عليهما جُنّتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما ، فأمّا المنفق فلا ينفق شيئاً إلّا اتّسعت أو وفرت على جلده حتّى تخفى بنانه ، وأمّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلّا قلصت ولزمت كلّ حلقه مكانها حتّى أخذت بتراقيه فهو يوسّعها ولاتتّسع » (٧).

---

(١) آل عمران : ١٧٧ . (٢) النساء : ٤١ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند والبخاري في الادب المفرد ومسلم في صحيحه والبيهقي من حديث جابر بن عبدالله في حديث كما في الدر المنثور ج ٦ ص ١٩٦ .

(٤) أخرجه أحمد في مسند أبي بكر واللفظ له دون قوله : « ولا منان » والترمذي ج ٨ ص ١٤١ و ١٤٢ وفي سنن ابن ماجه تحت رقم ٣٦٩١ « لايدخل الجنة سيىء الملكة » .

(٥) تقدم غير مرة .

(٦) ما عثرت عليه في أي أصل الا أن للطبراني في الاوسط من حديث علي عليه السلام « ان الله ليبغض الغني الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال » كما في الجامع الصغير .

(٧) متفق عليه في الصحيحين البخاري ج٢ ص ١٤٣ و مسلم ج ٣ ص ٨٩ باختلاف في اللفظ وأخرجه أحمد ج ٢ ص ٢٥٦ و ٣٨٩ و ٥٢٢ من حديث أبي هريرة .

و قال ﷺ : « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق »(١).

و قال ﷺ : « ألّلهمّ إنّي أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن اُردّ إلى أرذل العمر »(٢).

و قال ﷺ : « إيّاكم و الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة ، و إيّاكم و الفحش فإنّ الله لا يحبّ الفاحش ولا المتفحّش ، و إيّاكم و الشحّ فإنّما أهلك من كان قبلكم الشحّ ، أمرهم بالكذب فكذبوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا و أمرهم بالقطيعة فقطعوا » (٣).

و قال ﷺ : « شرّ ما في الرّجل شحّ هالعٌ وجبن خالع » (٤).

و قتل شهيدٌ على عهد رسول الله ﷺ فبكته باكية وقالت : واشهيداه ، فقال النبيّ ﷺ : « وما يدريك أنّه شهيدٌ فلعلّه كان يتكلّم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه » (٥).

و قال جبير بن مطعم : بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين علّقت برسول الله ﷺ الأعراب يسألونه حتّى اضطرّوه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف فقال : أعطوني ردائي فوالّذي نفسي بيده لو كان عدد هذه العضاه نعماً لقسمتها بينكم ثمّ لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً » (٦).

وقال عمر قسم النبيّ ﷺ قسماً فقلت : غير هؤلاء كانوا أحقّ به منهم فقال : « إنّهم يخيّروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني ولست بباخل » (٧).

(١) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٤١ من حديث أبى سعيد و قال : غريب .
(٢) أخرجه النسائى ج ٨ ص ٢٥٦ من حديث سعد و متفق عليه .
(٣) أخرجه الحاكم ج ١ ص ١١ باختلاف فى اللفظ من حديث ابن عمر.
(٤) أخرجه أبوداود ج٢ ص ١٢ والهالع : ذوالهلع ، وهو الجزع . والخالع أى الشديد ، كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه .
(٥) أخرجه أبو يعلى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف . و قد تقدم ، و أخرجه البيهقى من حديث أنس باختلاف يسير كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ١٩٦ .
(٦) أخرجه البخارى و قد تقدم والنسائى ج ٦ ص ٢٦٣ .
(٧) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٠٣ من حديث عمر .

و قال أبو سعيد : دخل رجلان على رسول الله ﷺ فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطّاب فأثنيا و قالا معروفاً وشكراً ما صنع بهما ، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالا ، فقال له رسول الله ﷺ : لكن فلاناً أعطيته ما بين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك ، إنّ أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته يتأبّطها وهي نار ، فقال عمر : فلم تعطهم ما هو نار ؟ فقال : يأبون إلّا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل » (١).

و عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الجود من جود الله تعالى فجوّدوا يجد الله تعالى لكم ، ألا إنّ الله خلق الجود فجعله في صورة رجل و جعل أُسّه راسخاً في أصل شجرة طوبى و شدّ أغصانها بأغصان سدرة المنتهى و دلى بعض أغصانها إلى الدّنيا فمن تعلّق بغصن منها أدخله الجنّة ، ألا إنّ السخاء من الإيمان و الإيمان في الجنّة وخلق البخل من مقته وجعل أُسّه راسخاً في أصل شجرة الزقّوم و دلى بعض أغصانها إلى الدّنيا فمن تعلّق بغصن منها أدخله النار ، ألا إنّ البخل من الكفر والكفر في النّار » (٢).

و قال ﷺ : « السخاء شجرة تنبت في الجنّة فلا يلج الجنّة إلّا سخيٌّ ، والبخل شجرةٌ تنبت في النار ولا يلج النار إلّا بخيل » (٣).

و عنه ﷺ : أنّه قال : « من سيّدكم يا بني سلمة ؟ قالوا : سيّدنا جدٌّ بن قيس إلّا أنّه رجلٌ فيه بخلٌ ، فقال النبيٌّ ﷺ : وأيٌّ داء أدوى من البخل ولكن

(١) أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار بنحوه . ولم يقل أحد منهما «سألاه ثمن بعير». و رواه البزار من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات (المغنى) وقال في النهاية : فيه « أما والله ان أحدكم ليخرج بمسألته من عندي يتأبطها » أي يجعلها تحت ابطه .

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس (المغنى) و كنوز الحقايق للمناوى .

(٣) تقدم نحوه و ذكره صاحب الفردوس بلفظه من حديث علي عليه السلام ولم يخرجه ولده في مسنده (المغنى) و أخرج نحوه البيهقي من حديث أبي هريرة كما في الدر المنثور ج ٦ ص ١٩٧ .

سيّدكم عمرو بن الجموح »[١].

و في رواية « إنّهم قالوا : سيّدنا جدّ بن قيس فقال : بم تسودونه ؟ قالوا : إنّه أكثرنا مالاً وإنّا على ذلك لنتّهمه بالبخل ، فقال صلى الله عليه وآله : فأيّ داء أدوى من البخل ، ليس ذلك سيّدكم قالوا : فمن سيّدنا يا رسول الله ؟ قال : سيّدكم بشر ابن البراء بن معرور »[٢].

و قال عليّ عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الله يبغض البخيل في حياته السخيّ عند موته »[٣].

و عنه صلى الله عليه وآله : « السخيّ الجهول أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من العابد البخيل »[٤].

و عنه صلى الله عليه وآله : « لا يجتمع الشحّ والإيمان في قلب عبد »[٥].

و قال صلى الله عليه وآله أيضاً : « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق »[٦].

و قال صلى الله عليه وآله : « لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً »[٧].

و قال صلى الله عليه وآله : « يقول قائلكم : الشحيح أعذر من الظالم وأيّ ظلم أظلم عند الله من الشحّ ، حلف الله بعزّته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنّة شحيح ولا بخيل »[٨].

وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يطوف بالبيت فإذا رجل يتعلّق بأستار الكعبة

---

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط وفيه أبو الربيع السمان وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ١٢٦ .

(٢) أخرجه الحاكم ج ٣ ص ٢١٩ باقتصار وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه و رواه الكليني في الكافي ج ٤ ص ٤٤ .

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخه كما في الجامع الصغير .

(٤) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٤٠ هكذا « لجاهل سخي أحب .. الحديث ».

(٥) أخرجه الحاكم و صححه و أيضاً ابن أبي شيبة والنسائي والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة كما في الدر المنثور ج ٦ ص ١٩٦ .

(٦) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٤١ وقد تقدم و هو مكرر في الباب .

(٧) قال العراقي : لم أجد له أصلا و أقول : وقد مر مضمونه سابقاً

(٨) روى الكليني نحوه في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام ج ٤ ص ٤٤ .

وهو يقول : بحرمة هذا البيت إلّا غفرت لي ذنبي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : و ما ذنبك صفه لي ، قال : هو أعظم من أن أصفه لك ، قال : ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون ؟ قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال : ويحك ذنبك أعظم أم الجبال ؟ قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم البحار ؟ قال : بل ذنبي يارسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم السماوات ؟ قال : بل ذنبي يارسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم العرش ؟ قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم الله ؟ قال : بل الله أعظم و أعلى و أجلّ ، قال : ويحك فصف لي ذنبك ، قال : يا رسول الله إنّي رجلٌ ذو ثروة من المال و إنّ السائل ليأتيني ليسألني فكأنّما يستقبلني بشعلة من نار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إليك عنّي لا تحرقني بنارك فوالّذي بعثني بالهداية و الكرامة لو قمت بين الرّكن و المقام ثمّ صلّيت ألفي ألف عام و بكيت حتّى تجري من دموعك الأنهار و تسقى بها الأشجار ثمّ متّ وأنت لئيم لأكبّك الله في النار ، ويحك أما علمت أنّ البخل كفر وأنّ الكفر في النار ، ويحك أما علمت أنّ الله يقول : « و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه » « ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون » (١).

و قال عليٌّ عليه السلام في خطبته : « أنّه سيأتي على الناس زمانٌ عضوضٌ يعضّ الموسر على ما في يديه ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى : « ولا تنسوا الفضل بينكم » (٢).

وقال عليه السلام : « ما استقصى كريم حقّه قطّ قال الله تعالى : « عرّف بعضه وأعرض عن بعض » (٣).

الآثار : قال ابن عباس : لمّا خلق الله تعالى جنّة عدن قال لها : تزيّني

---

(١) سورة محمد : ٤٠ ، والحشر : ١٠ . قال العراقي : هو بطوله باطل لا أصل له .

(٢) ليس هذا الكلام من خطبه عليه السلام انما هو من حكمه وقصارى كلامه عليه السلام أورده الرضي - رحمه الله - في النهج باب المختار من حكمه تحت رقم ٤٦٨ والعضوض - بالفتح - : الشديد . والموسر : الغني ، ويعض على ما في يده أي يمسكه بخلا على خلاف ما امره الله في قوله : « ولا تنسوا الفضل بينكم » أي الاحسان كما في هامش النهج والاية في سورة البقرة : ٢٣٨ .

(٣) التحريم : ٤ .

فتزيّنت ثمّ قال لها : أظهري أنهارك فأظهرت عين السلسبيل و عين الكافور و عين التسنيم فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللّبن ، ثمّ قال لها : أظهري سررك وحجالك و كراسيك و حليك و حللك و حور عينك ، فأظهرت فنظر إليها فقال : تكلّمي فقالت : طوبى لمن دخلني فقال الله تعالى : وعزّتي وجلالي لا أسكنك بخيلاً .

و قيل : لو كان البخل قميصاً ما لبسته ، ولو كان طريقاً ما سلكته .

و قيل : ورد على أنوشروان حكيم الهند وفيلسوف الرّوم فقال للهندي : تكلّم فقال : خير الناس من ألفى سخيّاً ، وعند الغضب وقوراً ، و في القول متأنّياً ، و في الرّفعة متواضعاً ، وعلى كلّ ذي رحم مشفقاً . وقام الرّومي فقال : من كان بخيلاً ورث عدوّه ماله ، ومن قلّ شكره لم ينل النجح ، وأهل الكذب مذمومون ، وأهل النميمة يموتون فقراء ، و من لم يرحم سلّط الله عليه من لا يرحمه .

و قال الضحاك في قوله تعالى : «إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً» (١) قال لأهل البخل أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى .

و قال كعب : ما من صباح إلّا وقد وكّل به الله ملكين يناديان اللّهمّ اجعل للممسك تلفاً وللمنفق خلفاً .

و قال الأصمعيّ : سمعت أعرابيّاً و قد وصف رجلاً فقال : لقد صغر فلان في عيني لعظم الدّنيا في عينه وكأنّما يرى السائل إذا رآه ملك الموت إذا أتاه .

و قال الجاحظ : مابقي من اللّذات إلّا ثلاث : ذمّ البخلاء ، و أكل القديد ، وحكّ الجرب .

وقال بشر بن الحارث : البخيل لا غيبة له قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إنّك إذاً لبخيل» (٢) .

و مدحت امرأة عند النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقالوا : صوّامة قوّامة إلّا أنّ فيها بخلاً قال : «فما خيرها إذاً» (٣) .

و قال بشر : النظر إلى البخيل يقسي القلب ، و لقاء البخلاء كرب على قلوب

---

(١) يس : ٨ .　(٢) كذا .　(٣) تقدم فى آفات اللسان .

المؤمنين .

وقال يحيى بن معاذ : يأبى القلب للأسخياء إلّا حباً ولو كانوا فجاراً وللبخلاء إلّا بغضاً ولو كانوا أبراراً .

و قال ابن المعتزّ : أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه .

ولقي يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس في صورته فقال له : يا إبليس أخبرني بأحبّ الناس إليك وأبغض الناس إليك ؟ قال : أحبّ الناس إليّ المؤمن البخيل ، وأبغض الناس إليّ الفاسق السخيّ ، قال له : لم ؟ قال : لأنّ البخيل قد كفاني بخله ، و الفاسق السخيّ أخاف أن يطّلع الله عليه في سخائه فيقيله ، ثمّ ولّى و هو يقول : لو لا أنّك يحيى لما أخبرتك .

✿(حكايات البخلاء)✿

قيل : كان بالبصرة رجل موسر بخيل فدعاه بعض جيرانه وقدم إليه طباهجة ببيض (١) فأكل منها فأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت فجعل يلتوي (٢) فلمّا أجهده الأمر وصف حاله لطبيب ، فقال : لا بأس عليك تقيأ ما أكلت ، فقال : هاه أتقيّؤ طباهجة ببيض ؟ ! أموت والله لا أتقيّؤ طباهجة ببيض .

وقيل : أقبل أعرابيّ يطلب رجلاً وبين يديه تين فغطّى التّين بكسائه فجلس الأعرابي ، فقال له الرّجل : هل تحسن شيئاً من القرآن ؟ قال : نعم و قرأ « والزّيتون و طور سينين » فقال : أين « والتّين » ؟ قال : هو تحت كسائك .

و دعا بعضهم أخاً له ولم يطعمه إلى العصر شيئاً حتّى اشتدّ جوعه وأخذه مثل الجنون فأخذ صاحب البيت العود وقال له : بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك ؟ قال : صوت المقلى .

ويحكى أنّ محمّد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل فسئل

---

(١) الطباهج ـ بفتح الهاء ـ طعام من لحم وبيض قال الكرخي : ولا يكون طبيخاً لان الطبيخ ماله مرق و فيه لحم أو شحم و أما القلية اليابسة و نحوها فلا (المغرب) .

(٢) لواه فتله و ثناه و عطف بعضه على بعض .

نسيب له - كان يألفه - عنه وقال له قائل : صف لي مائدته فقال : هي فتر في فتر وصحافه منقوره من حبّ الخشخاش ، قال : فمن يحضرها ؟ قال : الكرام الكاتبون ، قال : أفيأكل معه أحدٌ ؟ قال : بل الذّباب ، فقال : سوءة لك أنت خاصٌّ به و ثوبك مخرق ؟ فقال : إنّي و الله ما أقدر على إبرة أخيط بها ، فقال : ألّا استعرت منه ؟ قال : ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوّاً إبراً ثمّ جاء جبرئيل و ميكائيل ومعهما يعقوب عليه السلام يضمنون عنه إبرة ويسألونه أعرنا إيّاها لنخيط به قميص يوسف الّذي قدّ من دبر ما فعل .

ويقال : كان مروان بن أبي حفصة بخيلاً لا يأكل اللّحم بخلاً حتّى يقرم [(١)] إليه فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقيل له : نراك لا تأكل إلّا الرؤوس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك ؟ قال : نعم الرأس أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبنني فيه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه إن مسّ عيناً أو اُذناً أوخدّاً وقفت على ذلك ، وآكل منه ألواناً آكل عينه لوناً و اُذنه لوناً و غلصمته لوناً و دماغه لوناً و لسانه لوناً وأكفي مؤونة طبخه فقد اجتمعت لي فيه مرافق . وخرج يوماً يريد الخليفة المهديّ فقالت له امرأة من أهله : مالي عليك إن رجعت بالجائزة ؟ قال : إن اُعطيت مائة ألف أعطيتك درهماً فاُعطي ستّين ألفاً فأعطاها أربعة دوانق [(٢)] . واشترى مرّة لحماً بدرهم فدعاه صديقٌ له فردّ اللّحم إلى القصّاب بنقصان دانق وقال : أكره الإسراف .

و كان للأعمش جار كان لا يزال يعرض عليه المنزل فيقول : لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً فيأبى عليه الأعمش فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش فقال : سر بنا فدخل منزله فقرّب إليه كسرة وملحاً فجاء سائل فقال له ربّ المنزل : بورك فيك فأعاد عليه المسئلة فقال : له : بورك فيك فلمّا سأل الثالثة قال له : إذهب و إلّا والله خرجت إليك بالعصا قال : فناداه الأعمش فقال : إذهب ويحك فلا والله مارأيت أحداً أصدق مواعيد منه هومنذ مدّة يعدني على كسرة وملح فلا والله مازادني عليهما .

---

(١) أى يشهيه ، والقرم - بالتحريك - : شدة شهوة اللحم وقد تقدم .
(٢) الدانق - بفتح النون - سدس الدرهم جمعه دوانق .

❊(بيان الايثار وفضيلته)❊

اعلم أنّ السخاء و البخل كلٌّ واحد منهما ينقسم إلى درجات فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهوأن يجود بالمال مع الحاجة إليه وإنّما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أولغير محتاج و البذل مع الحاجة إليه أشدّ وكما أنّ السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، وكم من بخيل يمسك المال و يمرض فلا يتداوى، و يشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلّا البخل بالثمن و لووجدها مجّاناً لأكلها فهذا يبخل على نفسه مع الحاجة و ذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنّه محتاج إلى ذلك، فانظر مابين الرّجلين فإنّ الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء و ليس بعد الإيثار درجة في السخاء و قد أثنى الله تعالى على الصحابة فقال: «و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»[(١)].

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أيّما امرىء اشتهى شهوة فردّ شهوته و آثر على نفسه غفر له»[(٢)].

و قالت عائشة: ما شبع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ثلاثة أيّام متوالية حتّى فارق الدّنيا ولو شئنا لشبعنا ولكنّا كنّا نؤثر على أنفسنا»[(٣)].

و نزل برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ضيفٌ فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجلٌ من الأنصار فذهب به إلى أهله فوضع بين يديه الطعام و أمر امرأته باطفاء السراج و جعل يمدّ يده إلى الطعام كأنّه يأكل ولايأكل حتّى أكل الضيف الطعام، فلمّا أصبح قال له رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: لقد عجب الله من صنيعكم إلى ضيفكم البارحة ونزلت «و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»[(٤)]. فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى

(١) الحشر: ١٠.

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاء و أبوالشيخ في الثواب من حديث ابن عمر و قد تقدم.

(٣) تقدم كراراً.

(٤) صحيح البخاري ج ٦ ص ١٨٠.

و الإيثار أعلى درجات السخاء و كان ذلك من دأب رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى سمّاه الله تعالى عظيماً فقال تعالى: «و إنّك لعلى خلق عظيم»[1].

و قال سهل بن عبد الله: قال موسى عليه السلام: يا ربّ أرني بعض درجات محمّد صلى الله عليه وآله و اُمّته قال: يا موسى إنّك لن تطيق ذلك لكنّي أراك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضّلته بها عليك وعلى جميع خلقي قال: فكشف له عن ملكوت السماوات فنظر إلى منزلة كادت أن تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله عزّ وجلّ فقال: يا ربّ بما ذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ قال: بخلق اختصصته به من بينهم و هو الإيثار، يا موسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلّا استحيية من محاسبته و بوّأته من جنّتي حيث يشاء.

و قيل: خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم و فيها غلام أسود يعمل فيها إذ أتى الغلام بقوته ودخل الحائط كلب و دنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ثمّ رمى إليه بالثاني و الثالث فأكله وعبد الله ينظر فقال: ياغلام كم قوتك كلّ يوم؟ قال: مارأيت، قال: فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب إنّه جاء من مسافة بعيدة جايعاً فكرهت ردّه، قال: فماأنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبدالله بن جعفر: اُلام على السخاء إنّ هذا الغلام لأسخى منّي فاشترى الحائط و الغلام و ما فيه من الآلات وأعتق الغلام و وهبه له.

و قيل: اُهدي إلى الرّجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله رأس شاة فقال: إن أخي كان أحوج منّي إليه فبعث إليه به فلم يزل يبعث به الواحد إلى الآخر حتّى تداولته سبعة أبيات حتّى رجع إلى الأوّل.

و بات عليّ بن أبي طالب عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل و ميكائيل عليهما السلام: إنّي آخيت بينكما و جعلت عمر أحد كما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة فاختار كلاهما الحياة و أحبّاها، فأوحى

(١) القلم: ٥.

الله إليهما أفلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب ، إنّي آخيت بينه وبين نبيّي محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه و يؤثره بالحياة ، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه ، فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عندرجليه وجبرئيل ينادي بخ بخ من مثلك ياابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة ، فأنزل الله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله و الله رؤف بالعباد » (١).

و عن أبي الحسن الأنطاكي أنّه اجتمع عنده نيّف و ثلاثون نفساً و كانوافي قرية بقرب الرّيّ ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم فكسروا الرّغفان وأطفؤوا السراج و جلسوا للطعام ، فلمّا رفع الطعام فإذا الطعام بحاله و لم يأكل أحدمنهم شيئاً إيثاراً لصاحبه على نفسه .

و روي أن شعبة جاءه سائل و لم يكن عنده شيء فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه ثمّ اعتذر إليه .

و قال حذيفة العدويّ : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمّ لي ومعي شيء من ماء و أنا أقول : إن كان به رمق سقيته و مسحت به وجهه فإذا أنابه و به رمق فقلت : أسقيك فأشار إليّ أن نعم فإذاهمّ أن يشرب فإذا رجلٌ يقول : آه فأشار ابن عمّي إليّ أن انطلق إليه به فجئته فإذا هوهشام بن العاص فقلت : أسقيك فسمع به آخر فقال : آه فأشار هشام أن انطلق به إليه فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمّي فإذا هو قدمات .

وقال عبّاس بن دهقان : ماخرج أحدٌ من الدنيا كما دخلها إلّا بشر بن الحارث فإنّه أتاه رجل في مرضه فشكى إليه الحاجة فنزع قميصه فأعطاه و استعار ثوباً فمات فيه .

(١) الاية فى سورة البقرة : ٢٠٣ والخبر رواه الثعلبى فى تفسيره وابن عقبة فى ملحمته و أبو السعادات فى فضائل العشرة و جماعة من أصحابنا كابن بابويه والكلينى والشيخ الطوسى وابن عقدة والبرقى وابن فياض والعبدكى والصفوانى والثقفى باسانيدهم عن ابن عباس وأبى رافع وهند بن أبى هالة . راجع تفسير البرهان ذيل الاية و اشار اليه ابن سعد فى الطبقات ج ١ ص ٢٢٨ طبع بيروت ١٣٧٦ .

و عن بعض الصوفيّة قال: كنّا بطرسوس فاجتمعنا جماعة و خرجنا إلى باب الجهاد فتبعنا كلب من البلد فلمّا بلغنا باب الجهاد إذا نحن بدابّة ميتة فصعدنا إلى موضع عال و قعدنا فلمّا نظر الكلب إلى الميتة فرجع إلى البلد ثمّ عاد بعد ساعة ومعه مقدارعشرين كلباً فجاء إلى تلك الميتة و قعد ناحية و وقعت الكلاب على الميتة فما زالت تأكلها و ذلك الكلب قاعدٌ ينظر إليها حتّى أكلت الميتة وبقيت العظام ورجعت الكلاب إلى البلد فقام ذلك الكلب و جاء إلى تلك العظام فأكل ما بقي على العظم قليلاً ثمّ انصرف. و قد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار و أحوال الأولياء في كتاب الفقر والزّهد فلا نعيده[١].

(بيان حد السخاء و البخل وحقيقتهما)

لعلّك تقول: قد عرف بشواهد الشرع أنّ البخل من المهلكات ولكن ماحدُّ البخل؟ و بما ذا يصير الإنسان بخيلاً؟ وما من إنسان إلّا و هو يرى نفسه سخيّاً و ربما يراه غيره بخيلاً، و قد يصدرفعل من إنسان فيختلف الناس فيه فيقول قوم: هذا بخل ويقول آخرون: ليسَ هذا من البخل، و ما من إنسان إلّا ويجد في نفسه حبّاً للمال و لأجله يحفظ المال و يمسكه فإن كان يصير بإمساكه المال بخيلاً فإذن لاينفكّ أحدٌ عن البخل، وإذا كان الإمساك مطلقاً لا يوجب البخل فلامعنى للبخل إلّا الإمساك فما معنى البخل الّذي يوجب الهلاك، و ما حدُّ السخاء الّذي يستحقّ العبد به صفة السخاوة وثوابها.

فنقول: قد قال قائلون: حدُّ البخل منع الواجب و كلّ من أدّى ما يجب عليه فليس ببخيل و هذا غير كاف فإنّ من يردُّ اللّحم مثلاً إلى القصّاب و الخبز إلى الخبّاز بنقصان حبّة أو نصف حبّة فإنّه يعدُّ بخيلاً بالاتّفاق و كذلك من يسلّم إلى عياله القدر الّذي يفرضه القاضي ثمّ يضايقهم في لقمة زادوا عليها أوتمرة أكلوا من ماله عدّ بخيلاً. و من كان بين يديه رغيفٌ فحضر من يظنُّ أنّه يأكل معه و أخفاه عدّ

(١) كذا والصحيح أن يقال « فلانتعرض لذكرها » لان كتاب الفقر والزهد يأتي بعد، ومن هنا يعلم أن المؤلف صنف كتاب الفقر والزهد قبلا ولدى الترتيب جعله كتاب الرابع من ربع المنجيات.

بخيلاً و قال قائلون : البخيل هو الّذي يستصعب العطيّة ، و هو أيضاً قاصرٌ فإنّه إن اُريد به أنّه يستصعب كلّ عطيّة فكم من بخيل لا يستصعب العطيّة القليلة كالحبّة و ما يقرب منها ويستصعب ما فوقها و إن اُريد به أنّه يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلاّ و قد يستصعب بعض العطايا وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم وهذا لا يوجب الحكم بالبخل .

و كذلك تكلّموا في الجود فقيل : الجود عطاء بلا منّ و إسعاف من غير رويّة ، وقيل: الجود عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل ، وقيل : الجود السرور بالسائل و الفرح بالعطاء بما أمكن ، و قيل : الجود عطاء على رؤية أنّ المال لله تعالى و العبد لله تعالى فيعطي عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر ، وقيل : من أعطى البعض و أبقى البعض فهو صاحب السخاء و من بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود ، و من قاسى الضرّ وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار ، ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل ، و بجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة البخل و الجود بل نقول : المال خلق لحكمة و مقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه و يمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرّف فيه بالعدل وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ و يبذل حيث يجب البذل ، فالإمساك حيث يجب البذل بخلٌ ، و البذل حيث يجب الإمساك تبذيرٌ ، و بينهما وسط وهو المحمود ، و ينبغي أن يكون السخاء و الجود عبارة عنه إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ بالسخاء ، وقيل له : «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط » (١) وقال تعالى : « و الّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً »(٢) فالجود وسط بين الإقتار والإسراف و بين البسط و القبض و هو أن يقدّر بذله وإمساكه بقدر الواجب و لا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيّباً به غير منازع له فيه فإن بذل في محلّ وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متسخّ و ليس بسخيّ بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال

(١) الاسراء : ٣٢ . (٢) الفرقان : ٦٧ .

إلّا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه .

فان قلت : قد صار موقوفاً على معرفة الواجب فما الّذي يجب بذله ؟ فأقول: الواجب قسمان واجب بالشرع و واجب بالمروّة و العادة ، و السخيّ هو الّذي لا يمنع واجب الشرع و لا واجب المروّة ، فان منع واحداً منهما فهو بخيل ، ولكنّ الّذي يمنع واجب الشرع أبخل كالّذي يمنع أداء الزكاة ويمنع أهله وعياله النفقة أو يؤدّيهما ولكن يشقّ عليه فانّه بخيلٌ بالطبع و إنّما يتسخّى بالتكلّف أو الّذي يتيمّم الخبيث من ماله و لا يطيب له أن يعطي من أطيب ماله أو من وسطه ، فهذا كلّه بخل ، وأمّا واجب المروّة فهوترك المضايقة والاستقصاء في المحقّرات فانّ ذلك مستقبح واستقباح ذلك يختلف في الأحوال و الأشخاص فمن كثر ماله يستقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة ، ويستقبح من الرّجل من المضايقة مع أهله و أقاربه و مماليكه ما لا يستقبح مع الأجانب ، و يستقبح من الجار مالا يستقبح مع البعيد ، ويستقبح في الضيافة من المضايقة مالا يستقبح أقلّ منه في المبايعة و المعاملة فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة و بما به المضايقة من طعام أو ثوب إذ يستقبح في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرها ، ويستقبح في شراء الكفن مثلاً أو شراء الاُضحيّة أو شراء خبز الصدقة مالا يستقبح في غيره من المضايقة و كذلك يختلف بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبيّ ، وبمن منه المضايقة من صبيّ أو امرأة أو شيخ أو شابّ أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير ، فالبخيل هو الّذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إمّا بحكم الشرع و إمّا بحكم المروّة وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره ولعلّ حدّ البخل هو إمساك المال عن غرض ذلك الغرض هو أهمّ من حفظ المال فانّ صيانة الدّين أهمّ من حفظ المال ، فمانع الزّكاة والنفقة بخيل و صيانة المروّة أهمّ من حفظ المال و المضايق في الدقايق مع من لا تحسن المضايقة معه هاتك ستر المروّة لحبّ المال فهو بخيلٌ ثمّ تبقى درجة اُخرى وهو أن يكون الرّجل ممّن يؤدّي الواجب ويحفظ المروّة ولكن معه مال كثير قد جمعه وليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدّة على نوائب الزّمان و غرض

الثواب ليكون رافعاً لدرجاته في الآخرة فإمساك المال عن هذا الغرض بخلٌ عند الأكياس و ليس ببخل عند عوام الخلق وذلك لأنّ نظر العوام مقصور على حظوظ الدّنيا فيرون إمساكه لدفع نوائب الزّمان مهمّاً وربّما يظهر عند العوام أيضاً سمة البخل عليه إن كان في جواره محتاجٌ فمنعه و قال : قد أدّيت الزّكاة الواجبة وليس عليّ غيرها ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله و باختلاف شدّة حاجة المحتاج و صلاح دينه و استحقاقه ، فمن أدّى واجب الشرع و واجب المروّة اللائقة به فقد تبرّأ من البخل ، نعم لا يتّصف بصفة الجود و السخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدّرجات ، و إذا اتّسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجّه إليه الملامة في العادة فهو جوادٌ بقدر ما تتّسع له نفسه من قليل أو كثير و درجات ذلك لا تحصر و بعض الناس أجود من بعض ، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة ، و المروّة هو الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيبة نفس ولا يكون عن طمع و رجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فإن من طمع في الشكر و الثناء فهو بيّاع وليس بجواد فإنّه يشتري المدح بماله و المدح لذيذ وهو مقصود في نفسه و الجود هو بذل الشيء من غير عوض ، هذا هو الحقيقة ولا يتصوّر ذلك إلّا من الله تعالى فأمّا الآدمي فاسم الجواد عليه مجازٌ إذ لا يبذل الشيء إلّا لغرض ولكن إذا لم يكن غرضه إلّا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود و تطهير النّفس عن رذالة البخل فيسمّى جواداً فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلاً أو من ملامة الخلق أو ما يتوقّعه من نفع يناله من المنعم عليه فكلٌّ ذلك ليس من الجود لأنّه مضطرٌ إليه بهذه البواعث و هي أعواض معجّلة له عليه فهو معتاضٌ لا جواد كما روي عن بعض المتعبّدات أنّها وقفت على حبّان بن هلال و هو جالس مع أصحابه فقالت : ما السخاء عندكم ؟ قالوا : العطاء و البذل والإيثار ، قالت : هذا السخاء في الدّنيا فما السخاء في الدّين ؟ قالوا : أن نعبد الله تعالى سخيّة بها أنفسنا غير مكرهة ، قالت: فتريدون على ذلك أجراً؟ قالوا : نعم ، قالت : ولم؟ قالوا : لأنّ الله وعدنا بالحسنة عشر أمثالها ، قالت : سبحان الله فإذا أعطيتم واحدة و أخذتم عشرة

فبأيّ شيء تسخّيتم عليه ؟ قالوا لها : فما السخاء عندك يرحمك الله ؟ قالت: السخاء عندي أن تعبدوا الله متنعّمين متلذّذين بطاعته غير كارهين لا تريدون على ذلك أجراً حتّى يكون موليكم يفعل بكم ما يشاء ألا تستحيون من الله أن يطّلع على قلوبكم فيعلم منها أنّكم تريدون شيئاً بشيء ، إنّ هذا في الدّنيا لقبيح ، وقالت بعض المتعبّدات : أيحسب أحدكم أنّ السخاء في الدّرهم والدّينار فقط ؟ قيل : ففيم ؟ قالت : السخاء عندي في المهج ، وقال المحاسبيّ : السخاء في الدّين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عزّ وجلّ و يسخو قلبك ببذل مهجتك و إهراق دمك لله عزّ وجلّ بسماحة من غير إكراه ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا آجلاً ، وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنّك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله حتّى يكون مولاك هو الّذي يفعل بك ما لا تحسن أن تختاره لنفسك .

﴿بيان علاج البخل﴾

اعلم أنّ البخل سببه حبّ المال ولحبّ المال سببان :

أحدهما حبّ الشهوات الّتي لا وصول إليها إلّا بالمال مع طول الأمل ، فإنّ الإنسان لو علم أنّه يموت بعد يوم ربما كان لا يبخل بماله إذ القدر الّذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب ، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد قام له الولد مقام طول الأمل فإنّه يقدّر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم ، ولذلك قال صلّى الله عليه وآله : « الولد مبخلة مجبنة مجهلة »[1] فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلّة الثقة بمجيء الرّزق قوي البخل لا محالة .

السبب الثاني أن يحبّ عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقيّة عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ ولا ولد له ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه بإخراج الزّكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار محبّاً للدنانير عاشقاً لها يلتذّ بوجودها في يده و بقدرته عليها فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنّه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه و مع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل منها

---

(١) أخرجه أبو يعلى من حديث أبي سعيد بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

أو يتصدّق بحبّة واحدة ، و هذا مرض للقلب عظيمٌ عسير العلاج لا سيّما في كبر السنّ و هو مرض مزمن لا يرجى علاجه ، ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصاً فأحبّ رسوله لنفسه ثمّ نسي محبوبه واشتغل برسوله فإنّ الدّنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك لأنّ الموصل إلى اللّذيذ لذيذ، ثمّ قد تنسى الحاجات ويصير الذّهب عنده كأنّه محبوب في نفسه و هو غاية الضلال بل من رأى بينه وبين الحجر فرقاً فهو جاهل إلّا من حيث قضاء حاجته به فالفاضل عن قدر حاجته و الحجر بمثابة واحدة فهذه أسباب حبّ المال ، و إنّما علاج كلّ علّة بمضادّة سببها ، فيعالج حبّ الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر ، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت و النظر في موت الأقران و طول تعبهم في جمع المال و ضياعه بعدهم ، ويعالج التفات القلب إلى الولد بأن الّذي خلقه خلق معه رزقه ، و كم من ولد لم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممّن ورث ، و بأن يعلم أنّه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير و ينقلب هو إلى شرّ وأنّ ولده إن كان تقيّاً صالحاً فيكفيه الله ، و إن كان فاسقاً فيستعين بماله على المعصية و ترجع مظلمته إليه ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمّل في الأخبار الواردة في ذمّ البخل و مدح السخاء وما توعّد الله تعالى به على البخل من العقاب العظيم ، و من الأدوية النافعة كثرة التأمّل في أحوال البخلاء و نفرة الطبع عنهم واستقباحه لهم فإنّه ما من بخيل إلّا ويستقبح البخل من غيره و يستثقل كلّ بخيل من أصحابه فيعلم أنّه مستثقل و مستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه ، ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكّر في مقاصد المال وأنّه لماذا خلق ، فلا يحفظ من المال إلّا بقدر حاجته إليه والباقي يدّخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل ثواب بذله لنفسه ، فهذه أدوية من جهة المعرفة و العلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أنّ البذل خيرٌ له من الإمساك في الدّنيا و الآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً فإن تحرّكت الدّاعية فينبغي أن يجيب الخاطر الأوّل ولا يتوقّف لأنّ الشيطان يعده الفقر ويخوّفه ويصدّه عنه .

كان أبو الحسن البوشنجي ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذاً له وقال : أنزع عنّي القميص و ادفعه إلى فلان ، فقال : هلّا صبرت حتّى تخرج ؟ قال : قد خطر

لي الآن بذله ولم آمن على نفسي أن تتغيّر ، و لا تزول صفة البخل إلّا بالبذل تكلّفاً كما لا يزول العشق إلّا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقرّه حتّى إذا سافر و فارق تكلّفاً و صبر عنه مدّة تسلّى عنه قلبه فكذلك الّذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلّفاً بأن يبذله، بل لو رماه في الماء كان أولى به[1] من إمساكه إيّاه مع الحبّ له ، و من لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء فيبذل على قصد الرّياء حتّى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب لها خبث الرياء ، ولكن ينعطف بعد ذلك على الرّياء و يزيله بعلاجه ، و يكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال كما قد يسلّي الصبيّ عند الفطام عن الثدي باللّعب بالعصافير وغيرها ، لا للبخل واللّعب ولكن لينفكّ عن الثدي إليه ثمّ ينقل عنه إلى غيره فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلّط بعضها على بعض كما تسلّط الشهوة على الغضب و تكسر سورته بها و يسلّط الغضب على الشهوة و تكسر رعونتها به إلّا أنّ هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حبّ الجاه و الرّياء فيبدّل الأقوى بالأضعف ، فإن كان الجاه محبوباً عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنّه يقلع من علّة ويزيد في الأخرى مثلها إلّا أنّ علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرّياء فبذلك يتبيّن أنّ الرّياء أغلب عليه فإن كان البذل يشقّ عليه مع الرّياء فينبغي أن يبذل فإنّ ذلك يدلّ على أنّ مرض البخل أغلب على قلبه ومثال دفع بعض هذه الصفات ببعض ما يقال : من أنّ الميت تستحيل جميع أجزائه دوداً ثمّ يأكل بعض الدّيدان البعض حتّى يقلّ عددها و يكبرون ثمّ يأكل بعضهم بعضاً حتّى يرجع إلى اثنين قويّين عظيمين ثمّ لا يزالان يتقاتلان إلى أن يغلب أحدهما الآخر فيأكله و يسمن به ثمّ لا يزال يبقى وحده جائعاً إلى أن يموت فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلّط بعضها على بعض حتّى يقمعها فيجعل الأضعف قوتاً للأقوى إلى أن لا يبقى إلّا واحدة ثمّ تقع العناية بمحوها و إذابتها بالمجاهدة ، و هو منع القوت عنها ، و منع القوت عن الصفات المذمومة أن لا يعمل بمقتضاها فإنّها تقتضي لا محالة أعمالاً فإذا خولفت خمدت

(١) غير أنه حرام شرعاً .

الصفات و ماتت مثل البخل فإنّه يقتضي إمساك المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرّة بعد أُخرى ماتت صفة البخل و صار صفة البذل طبعاً و سقط التعب فيه ، فإذن علاج البخل بعلم و عمل ، العلم يرجع إلى معرفة آفة البخل و فائدة الجود ، و العمل يرجع إلى البذل على سبيل التكلّف ولكن قد يقوى البخل بحيث يُعمي ويُصم فيمنع تحقّق المعرفة بآفته وإذا لم يتحقّق المعرفة لم يتحرّك الرّغبة فلم يتيسّر العمل فتبقى العلّة مزمنة كالمرض الّذي يمنع معرفة الدّواء و إمكان استعماله فإنّه لا حيلة فيه إلّا الصبر إلى الموت ، ومن عادة بعض شيوخ الصوفيّة في معالجة علّة البخل في المريدين أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم فكان إذا توهّم في مريد فرحه بزاويته وما فيها نقله إلى زاوية غيره ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع ما ملكه ، و إذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سجّادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ويلبسه ثوباً خليقاً لا يميل إليه قلبه ، فهذا ونحوه تتجافى القلوب عن متاع الدُّنيا فمن لم يسلك هذا السبيل أنس الدُّنيا و أحبّها فإن كان له ألف متاع كان له ألف محبوب ، ولذلك إذا سرق كلّ واحد منه ألمت به مصيبة بقدر حبّه له فإذا مات نزلت به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنّه كان يحبّ الكلّ و قد سلب عنه بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد و الهلاك .

حمل إلى بعض الملوك قدحٌ من فيروزج مرصّع بالجواهر لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً فقال لبعض الحكماء عنده : كيف ترى هذا قال : أراه مصيبة أو فقراً ، قال : كيف ؟ قال : إن كسر صارت مصيبة لا جبر لها ، و إن سرق صرت فقيراً إليه و لم تجد مثله و قد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر ، ثمّ اتّفق أن كسر يوماً وعظمت مصيبة الملك فيه فقال : صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا . وهذا شأن جميع أسباب الدُّنيا فإنّ الدُّنيا عدوّة لأعداء الله إذ تسوقهم إلى النار ، وعدوّة لأولياء الله إذ تغمّهم بالصبر عنها ، و عدوّة لله إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوّة نفسها فإنّها تأكل نفسها ، فإنّ المال لا يحفظ إلّا بالخزائن و الحرّاس ، و الخزائن و الحرّاس لا يمكن تحصيلها إلّا بالمال وهو بذل الدّراهم

والدّنانير فالمال يأكل نفسه و يضادّ ذاته حتّى يفنى و من عرف آفات المال لم يأنس به و لم يفرح به ولم يأخذ منه إلّا قدر حاجته ، و من قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأنّ ما أمسكه لحاجته فليس ببخل وما لا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله ، بل هو كالماء على شطّ دجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة .

(بيان مجموع الوظائف التى على العبد فى ماله)

اعلم أنّ المال كما وصفناه خيرٌ من وجه و شرٌّ من وجه و مثاله مثال حيّة يأخذها الرّاقي، ويستخرج منها الترياق و يأخذها الغافل فيقتله سمّها من حيث لا يدري ، ولا يخلو أحد عن سمّ المال إلّا بالمحافظة على خمس وظائف :

الاُولى ـ أن يعرف مقصود المال ، وأنّه لماذا خلق ، وأنّه لم يحتج إليه حتّى يكتسب ، ولا يحفظ إلّا قدر حاجته ، ولا يعطيه من همّته فوق ما يستحقّه .

الثانية أن يراعي جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض ، و ما الغالب عليه الحرام كمال السلاطين ، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروّة كالهدايا الّتي فيها شوائب الرّشوة وكالسؤال الّذي فيه الذّلّة وهتك المروّة و مايجري مجراه .

الثالثة ـ في المقدار الّذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقلّ بل القدر الواجب و معياره الحاجة و الحاجة ملبس ومسكن و مطعم ولكلّ واحد ثلاث درجات أدنى و أوسط و أعلى و مادام مائلاً إلى جهة جانب القلّة و متقرّباً من حدّ الضرورة كان محقّاً ويجيىء في جملة المحقّين ، فإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها ، وقد ذكرنا تفصيل هذه الدّرجات في كتاب الزّهد (١).

الرّابعة ـ أن يراعي جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق غير مبذّر و لامقتّر كما ذكرناه فيضع ما اكتسبه من حلّه في حقّه ولا يضعه في غير حقّه ، فإنّ الإثم في الأخذ من غير حقّه و الوضع في غير حقّه سواء .

الخامسة ـ أن يصلح نيّته في الأخذ والترك و الإنفاق و الإمساك فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ، و يترك ما يترك زهداً فيه و استحقاراً له و إذا فعل ذلك لم يضرّه وجود المال ولذلك قال عليٌّ عليه السلام : « لو أنّ رجلاً أخذ جميع ما في

---

(١) قد يأتي في المجلد السابع انشاء الله .

الأرض و أراد به وجه الله فهو زاهدٌ ولو أنّه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله فليس بزاهد، فلتكن بجميع حركاتك و سكناتك لله مقصورة على العبادة أو على مايعين على العبادة فإنّ أبعد الحركات عن العبادة الأكل و قضاء الحاجة وهما معينان على العبادة فإذا كان ذلك قصدك بهما صارتا عبادة في حقّك، و كذلك ينبغي أن يكون نيّتك في كلّ ما يحفظك من قميص و إزار و فراش وآنية لأنّ كلّ ذلك ممّا قد يحتاج إليه في الدّين وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله فلا يمنعه منه عند حاجته فمن فعل ذلك فهو الّذي أخذ من حيّة المال جوهرها و ترياقها واتّقى سمّها فلا تضرّه كثرة المال ولكن لا يتأتّى ذلك إلّا لمن رسخت في الدّين قدمه و عظم فيه علمه والعامي إذا تشبّه بالعالم في الاستكثار من المال وزعم أنّه يشبه الأغنياء من الصحابة فشأنه شأن الصبيّ الّذي يرى المعزم الحاذق يأخذ الحيّة و يتصرّف بها ليخرج ترياقها فيقتدي به و هو يظنّ أنّه أخذها مستحسناً صورتها و شكلها و مستليناً جلدها فيأخذها اقتداءً به فيقتله في الحال إلّا أنّ قتيل الحيّة يدري أنّه قتيل وقتيل المال قدلايعرف، وقد شبّهت الدّنيا بالحيّة، وقيل:

هي دنيا كحيّة تنفث السمّ و إن كانت المجسّة لانت

و كما يستحيل أن يتشبّه الأعمى بالبصير في التخطّي قلل الجبال وأطراف البحار و الطرق المشوكة فمحال أن يشبه العاميّ بالعالم الكامل في تناول المال.

(بيان ذم الغنى و مدح الفقر)

إعلم أنّ النّاس قد اختلفوا في تفضيل الغنيّ الشاكر على الفقير الصابر، و قد أوردنا ذلك في كتاب الفقر و الزّهد و كشفنا عن تحقيق الحقّ فيه ولكنّا في هذا الكتاب ندلّ على أنّ الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال فيه ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره حارث المحاسبيّ - رحمه الله - في بعض كتبه في الردّ على بعض العلماء من الأغنياء حيث احتجّ بأغنياء الصحابة و بكثرة مال بعضهم وشبّه نفسه بهم، والمحاسبيّ له قدم في علم المعاملة و له السبق على أكثر الباحثين عن عيوب النفس و آفات الأعمال و أغوار العبادات فكلامه

جديرٌ بأن يحكى على وجهه و قد قال بعد كلام له في الرّدّ على علماء السوء : بلغنا أنّ عيسى صلوات الله عليه قال : « يا علماء السوء تصومون وتصلّون وتصدّقون ولا تفعلون ما تؤمرون و تدرسون ما لا تعملون فياسوء ما تحكمون تتوبون بالقول و الأماني وتعملون بالهوى ، و ما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم و قلوبكم دنسة ، بحقّ أقول لكم : لاتكونوا كالمنخل يخرج منه الدّقيق الطيّب ويبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغلّ في صدوركم ، يا عبيدالدّنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي شهوته من الدّنيا ولاتنقطع منها رغبته ، بحقّ أقول لكم : إنّ قلوبكم تبكي من أعمالكم ، جعلتم الدّنيا تحت ألسنتكم و العمل تحت أقدامكم ، بحقّ أقول لكم : أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم فصلاح الدّنيا أحبُّ إليكم من صلاح الآخرة ، فأيُّ الناس أخسر منكم لو تعلمون ، ويلكم حتّى متى تصفون الطريق للمدلجين و تقيمون في محلّ المتحيّرين كأنّكم تدعون أهل الدّنيا ليتركوها لكم مهلاً مهلاً ويلكم ما ذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره و جوفه وحشٌ مظلم ، كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطّلة ، ياعبيدالدّنيا لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام توشك الدّنيا أن تقلعكم عن اُصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثمّ تكبّكم على مناخركم ، ثمّ تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثمّ يرفعكم العلم من خلفكم حتّى يسلّمكم إلى الملك الدّيّان عراة فرادى[1] فيوقفكم على سوآتكم ثمّ يجزيكم بسوء أعمالكم .

ثمّ قال الحارث : إخواني فهؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس رغبوا في عرض الدّنيا و رفعتها و آثروها على الآخرة وأذلّوا الدّين للدّنيا فهم في العاجل عار و شين و في الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الله الكريم بفضله ، وبعد فانّي رأيت الهالك المؤثر للدّنيا سروره ممزوج بالتنغيص فيتفجّر عنه أنواع الهموم و فنون

---

(١) أورده ابن شعبة في التحف باختلاف وفيه «حتى يسلماكم» أى الخطايا آخذاً بالنواصي ، والعلم رافعاً من الخلف يسلماكم الى . . .

المعاصي و إلى التلف و البوار مصيره ، فرح الهالك برجائه فلم تبق له دنياه و لم يسلم له دينه ، خسر الدّنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين ، فيالها من مصيبة ما أفظعها ، ورزيّة ما أجلّها ، ألافراقبوا اللهإخواني ولا يغرّنّكم الشيطان وأولياؤه من الإنس بالحجج الدّاحضة عند الله ، فإنّهم يتكالبون على الدّنيا ، ثمّ يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج ويزعمون أنّ أصحاب محمّد صلّى الله عليه و آله وسلّم كانت لهم أموال فيتزيّن المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ولقد دهاهم الشيطان و ما يشعرون ، ويحك أيّها المفتون متى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى و أفضل من تركه فقد ازدريت محمّداً صلّى الله عليه و آله وسلّم و المرسلين و نسبتهم إلى قلّة الرّغبة و الزّهد في هذا الخير الّذي رغبت فيه أنت و أصحابك من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت ، و متى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى من تركه فقد زعمت أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم لم ينصح للأمّة إذ نهاهم عن جمع المال الحلال ، و قد علم أنّ جمع المال خيرٌ للأمّة فقد غشّهم بزعمك حين نهاهم عنه كذبت وربّ السماء على رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم لقدكان للأمّة ناصحاً و عليهم مشفقاً و بهم رؤوفاً ، ومتى زعمت أنّ جمع المال خيرٌ لهم ، أو زعمت أنّ الله عزّ و جلّ لم يعلم أنّ الفضل في الجمع فلذلك نهاهم عنه و أنت عليم بما في المال من الخير و الفضل و لذلك رغبت في الاستكثار كأنّك أعلم بمواضع الفضل و الخير من ربّك تعالى الله عن جهلك ، أيّها المفتون تدبّر ما دهاك به الشيطان حين زيّن لك الاحتجاج بمال الصحابة ويحك و ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرّحمن بن عوف فلعلّ ودّ ابن عوف في القيامةأنّه لم يؤت من الدّنيا إلّا قوتاً ولقد بلغني أنّه لمّا توفّي عبد الرّحمن بن عوف[1] قال أُناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم : إنّا نخاف على عبد الرّحمن فيما ترك فقال كعب : سبحان الله و ما تخافون على عبد الرّحمن كسب طيّباً و أنفق طيّباً و ترك طيّباً ، فبلغ ذلك أباذرّ - رضي الله عنه - فخرج مغضباً يريد كعباً فمرّ بعظم لحى بعير فأخذه بيده ثمّ انطلق يطلب كعباً فقيل لكعب : إنّ أباذرّ يطلبك فخرج هارباً

(١) راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٣٩ .

حتّى انتهى إلى عثمان يستغيث به وأخبره الخبر ، فأقبل أبوذرّ - رحمه الله - يقتصّ الأثر في طلب كعب حتّى انتهى إلى دار عثمان فلمّا دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذرّ، فقال له أبوذرّ : هيه يا ابن اليهوديّة تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرّحمن بن عوف لقد خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله يوماً نحو اُحد و أنا معه فقال: يا أبا ذرّ فقلت : لبّيك يا رسول الله ، فقال : « الأكثرون هم الأقلّون يوم القيامة إلّا من قال هكذا وهكذا عن يمينه و شماله و قدّامه و خلفه و قليلٌ ماهم ، ثمّ قال : يا أباذرّ قلت : نعم يا رسول الله بأبي أنت و اُمّي ، قال : ما يسرّني أنّ لي مثل اُحد ذهباً أنفقه في سبيل الله أموت يوم أموت و أترك منه قيراطين قلت أو قنطارين يا رسول الله ؟ قال : بل قيراطان ، ثمّ قال : ياأبا ذرّ و أنت تريد الأكثر و أنا اُريد الأقلّ» فرسول الله صلّى الله عليه وآله يريد هذا و أنت تقول - يا ابن اليهوديّة - : لا بأس بما ترك عبد الرّحمن بن عوف ، كذبت و كذب من قال بقولك ، فلم يردّ جواباً حتّى خرج (١) و بعد فالعجب كلّ العجب لكلّ مفتون يتمرّغ في مخاليط الشبهات و السّحت و يتكالب على أوساخ الناس و هو يتقلّب في الشهوات و الزّينة و المباهاة و يتقلّب في فتن الدّنيا ، ثمّ يحتجّ بالصحابة و لعمري لقد كانت لبعض الصحابة أموال أرادوا بها التعفّف و البذل في سبيل الله فكسبوا حلالاً ، و أنفقوا قصداً ، و قدّموا فضلاً ، و لم يمنعوا منها حقّاً ، و لم يبخلوا بها ، لكنّهم جادوا الله بأكثرها و جاد بعضهم بجميعها ، و في الشدّة آثروا الله تعالى على أنفسهم كثيراً فبالله أكذلك أنت إنّك لبعيد التشبّه بالقوم و بعد فإنّ أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبّين و من خوف الفقر آمنين وبالله في أرزاقهم واثقين و بمقادير الله

(١) قال العراقي : الحديث متفق عليه و قد تقدم دون هذه الزيادة التى فى أوله من قول كعب حين مات عبدالرحمن بن عوف « كسب طيباً وترك طيباً » وانكار أبي ذر عليه فلم أقف على هذه الزيادة الا فى قول الحارث المحاسبي بلغني كما ذكره المصنف (يعنى أبا حامد) و قد رواها أحمد وأبويعلى أخصر من هذا ولفظ كعب اذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به فرفع أبوذر عصاه فضرب كعباً و قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول : « ما احب لوكان هذا الجبل لي ذهباً . الحديث » وفيه ابن لهيعة .

مسرورين ، و في البلاء راضين ، و في الرّخاء شاكرين ، و في الضرّاء صابرين ، وفي السرّاء حامدين ، وكانوا لله متواضعين ، وعن حبّ العلوّ والتكاثر ورعين ، لم ينالوا من الدّنيا إلّا المباح لهم ، و رضوا بالبلغة منها ، و زجّوا الدّنيا (١) و صبروا على مكارهها ، وتجرّعوا مرارتها ، وزهدوا في نعيمها وزهرتها ، فبالله أكذلك أنت ؟ ولقد بلغنا أنّهم كانوا إذا أقبلت الدّنيا عليهم حزنوا و قالوا : ذنب عجّلت عقوبته من الله وإذا رأوا الفقر مقبلاً قالوا : مرحباً بشعار الصالحين ، وبلغنا أنّ بعضهم كان إذا أصبح و عند عياله شيء أصبح كئيباً حزيناً و إذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحاً مسروراً فقيل لهم : إنّ الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا و إذا كان عندهم شيء فرحوا و أنت لست كذلك فقال : إنّي إذا أصبحت و ليس عندي شيء فرحت إذ كانت لي بمحمّد صلى الله عليه وآله اُسوة و إذا كان عند عيالي شيء اغتممت إذ لم يكن لي بآل محمّد صلى الله عليه وآله اُسوة ، وبلغنا أنّهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرّخاء حزنوا وأشفقوا و قالوا : ما لنا و للدّنيا و ما يراد بها ، فكأنّهم على جناح خوف ، و إذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا و استبشروا ، و قالوا : الآن تعاهدنا ربّنا ، فهذه أحوال السلف و نعتهم و فيهم من الفضل أكثر ممّا وصفنا ، فبالله أكذلك أنت ؟ إنّك لبعيد التشبّه بالقوم و سأصف لك أحوالك أيّها المفتون ضدّاً لأحوالهم وذلك أنّك تطغى عند الغنى ، وتبطر في الرّخاء ، وتمرح عند السرّاء ، وتغفل عن شكر النعماء ، وتقنط عند الضرّاء ، و تسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء ، نعم و تبغض الفقر و تأنف من المسكنة ، و ذلك فخر المرسلين وأنت تأنف من فخرهم وتدّخر المال و تجمعه خوفاً من الفقر وذلك من سوء الظنّ بالله تعالى وقلّة اليقين بضمانه و كفى به إثماً ، ولعلّك تجمع المال لنعيم الدّنيا وزهرتها وشهواتها ولذّاتها ولقد بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « شرار اُمّتي الّذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم »(٢) وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم : « أذهبتم طيّباتكم في حياتكم

(١) زجه أى طعنه . وبالشيء : رمى به .
(٢) أخرجه الحاكم بسند صحيح وقد تقدم .

الدّنيا و استمتعتم بها » و أنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدّنيا فيالها حسرة و مصيبة نعم و عساك تجمع المال للتكاثر و العلوّ و الفخر و الزّينة في الدّنيا و قد بلغنا أنّ من طلب الدّنيا للتكاثر بها أوللتفاخر لقي الله وهو عليه غضبان، وأنت غير مكترث بما حلّ بك من غضب الله حين أردت التكاثر و العلوّ ، نعم وعساك المكث عندك في الدّنيا أحبّ إليك من النقلة إلى جوار الله و أنت تكره لقاء الله والله للقائك أكره وأنت في غفلة ، وعساك تأسف على مافاتك من عرض الدّنيا و قدبلغنا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « من أسف على دنيافاتته اقترب من النار مسيرةسنة» [1] و أنت تأسف على مافاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله نعم و لعلّك تخرج من دينك أحياناً لتوفير دنياك و تفرح لإقبال الدّنيا عليك و ترتاح لذلك سروراً بها وقد بلغنا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « من أحبّ الدّنيا و سرّ بها ذهب خوف الآخرة من قلبه » [2] و بلغنا أنّ بعض أهل العلم قال : إنّك محاسبٌ على الحزن على ما فاتك و محاسبٌ بفرحك في الدّنيا إذا قدرت عليها و أنت تفرح بدنياك و قد سلبت الخوف من الله تعالى ، وعساك تعني باُمور دنياك أضعاف ما تعني باُمور آخرتك ، وعساك أنّ مصيبتك في معاصيك في انتقاص دينك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك ، نعم و خوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذّنوب ، وعساك تبذل للناس ماجمعت من الأوساخ كلّها للعلوّ والرّفعة في الدّنيا ، وعساك ترضى المخلوقين بمساخط الله تعالى كيما تكرم وتعظم ، ويحك ! فكأنّ احتقار الله لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس إيّاك ، عساك تخفي من المخلوقين مساويك ولاتكترث باطّلاع الله عليك فيها فكأنّ الفضيحة عندالله أهون عليك من الفضيحة عندالناس ، و كأنّ العبيد أعلى عندك قدراً من الله تعالى ، الله عن جهلك ، فكيف تنطق عند ذوي الألباب و هذه المثالب فيك ، اُفّ لك تتلوّث في الأقذار تحتجّ بمال الأبرار ؟ هيهات ما أبعدك عن السلف و الله لقد بلغني أنّهم كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم

(١) أخرجه الرازى فى مشيخته عن ابن عمرو بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .
(٢) للحارث بن أسد المحاسبى كما ذكره المصنف .

عليكم إنّ الّذي لا بأس به عند كم كان كالموبقات[1] عندهم و كانوا للزّلّة الصغيرة أشدّ استعظاماً منكم لكبائر المعاصي فليت أطيب مالك وأحلّه مثل شبهات أموالهم ، و ليتك أشفقت من سيّئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لاتقبل ، ليت صومك على مثل إفطارهم ، وليت اجتهادك في العبادة على مثل فتورهم ونومهم ، وليت جميع حسناتك مثل واحدة من حسناتهم ، وقد بلغني عن بعض الصحابة أنّه قال : غنيمة الصدّيقين ما فاتهم من الدّنيا ، ونهمتهم[2] مازوي عنهم منها ، فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدّنيا ولا معهم في الآخرة ، فسبحان الله كم بين الفريقين من التفاوت ، فريق خيار الصحابة في العلوّ عند الله و فريق أمثالكم في السفالة أو يعفو الله الكريم بفضله ، وبعد فإن زعمت أنّك متأسّ بالصحابة بجمع المال للتعفّف والبذل في سبيل الله فتدبّر أمرك، ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم أو تحسب أنّك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا ، لقد بلغني أنّ بعض الصحابة قال : كنّا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام ، أفتطمع من نفسك في مثل هذا الاحتياط لا وربّ الكعبة ما أحسبك كذلك ويحك كن على يقين أنّ جمع المال لأعمال البرّ مكيدة من الشيطان ليوقعك بسبب البرّ في اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت و الحرام ، و قد بلغنا أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : « من اجترأ على الشّبهات يوشك أن يقع في الحرام »[3] أيّها المغرور أما علمت أنّ خوفك من اقتحام الشبهات أعلى و أفضل و أعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات و بذلها في سبيل الله و سبيل البرّ ، بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال : لأن تدع درهماً واحداً مخافة أن لايكون حلالاً خير لك من أن تتصدّق بألف دينار من شبهة لا تدري أيحلّ لك أم لا ، فإن زعمت أنّك أتقى و أورع من أن تتلبّس بالشبهات و إنّما تجمع المال بزعمك من

(١) أى المهلكات. (٢) أى فرط شهوتهم.

(٣) أخرجه البخارى ج ٣ ص ٧٠ فى حديث هكذا : « ومن اجترأ على ما يشك فيه من الاثم أوشك أن يواقع ما استبان . والمعاصى حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » . وأخرجه مسلم ج ٥ ص ٥٠ هكذا « فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه » .

الحلال للبذل في سبيل الله ويحك إن كنت كما زعمت بالغاً في الورع فلا تتعرّض للحساب فإنّ خيار الصحابة خافوا المسائلة ، وبلغنا أنّ بعض الصحابة قال: ماسرّني أن أكتسب كلّ يوم ألف دينار من حلال و أنفقها في طاعة الله و لم يشغلني الكسب عن صلاة الجماعة ، قالوا : و لم ذلك رحمك الله ؟ قال : لأنّي غنيّ عن مقامي يوم القيامة فيقول : عبدي من أين اكتسبت و في أيّ شيء أنفقت ، فهؤلاء المتّقون كانوا في جدة الإسلام و الحلال موجود لديهم تركوا المال وجلاً من الحساب مخافة أن لا يقوم خير المال بشرّه وأنت من نفاية الأمّة[1] والحلال في دهرك مفقود ، تتكالب على الأوساخ ثمّ تزعم أنّك تجمع المال من الحلال في دهرك ، ويحك أين الحلال فتجمعه ، وبعدفلو كان الحلال موجوداً لديك أما تخاف أن يتغيّر عند الغنى قلبك و قد بلغنا أنّ بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه ، أفتطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الحقّ في أمرك و أحوالك لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظنّ بنفسك الأمّارة بالسوء ، ويحك إنّي لك ناصح أرى لك أن تقنع بالبلغة من العيش و لا تجمع المال لأعمال البرّ ولا تتعرّض للحساب فإنّه بلغنا عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « من نوقش الحساب عذّب »[2] و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يؤتى برجل يوم القيامة و قد جمع مالاً من حرام فأنفقه في حرام فيقال : اذهبوا به إلى النار ، و يؤتى برجل قد جمع مالاً من حلال و أنفقه في حرام فيقال : اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى برجل قد جمع مالاً من حرام و أنفقه في حلال فيقال اذهبوا به إلى النار ، و يؤتى برجل جمع مالاً من حلال فأنفقه في حلال فيقال له : قف لعلّك أضررت في طلب هذا بشيء ممّا فرضت عليك من صلاة لم تصلّها لوقتها أو فرّطت في شيء من ركوعها و سجودها و وضوئها ، فقال : لا يارب كسبت من حلال وأنفقت منه في حلال ولم أضيّع شيئاً ممّا فرضت عليّ ، فيقال : لعلّك اختلت في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به فيقول : لا يارب لم أختل ولم أباه في شيء ، فيقال : لعلّك منعت حقّ أحد أمرتك أن تعطيه من ذوي القربى واليتامى

(١) أى بقيتها .
(٢) متفق عليه من حديث عائشة و قد تقدم كراراً .

و المساكين و ابن السبيل ؟ فيقول : لا يا ربّ كسبت في حلال وأنفقت في حلال ولم اُضيّع شيئاً ممّا افترضته عليّ ولم أختل ولما ُباه و لم اُضيّع حقّ أحد أمرتني أن اُعطيه ، قال : فيجيء أولئك فيخاصمونه فيقولون : يارب أعطيته وأغنيته وجعلته بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا ، فإن كان أعطاهم وماضيّع مع ذلك شيئاً من الفرائض و لم يختل في شيء فيقال : قف الآن هات شكر كلّ نعمة أنعمتها عليك من أكلة أوشربة أو لقمة أو لذّة فلا يزال يسأل » (١) ويحك فمن الّذي يتعرّض لهذه المسائلة الّتي كانت لهذا الرّجل الّذي يتقلّب في الحلال و قام بالحقوق كلّها و أدّى الفرائض بحدودها حوسب بهذه المحاسبة فكيف تراه يكون حال أمثالنا الغرقى في فتن الدّنيا و تخاليطها و شبهاتها و شهواتها و زينتها ، ويحك لأجل هذه المسائلة يخاف المتّقون أن يتلبّسوا بالدّنيا فرضوا بالكفاف منها و عملوا بأنواع البرّ من كسب المال فلك ويحك بهؤلاء الأخيار اُسوة ، فإن أبيت ذلك و زعمت أنّك بليغ في الورع و التقوى و لم تجمع المال إلّا من حلال بزعمك للتعفّف و البذل في سبيل الله ، ولم تنفق شيئاً من الحلال إلّا بحقّ ، و لم يتغيّر بسبب المال قلبك عمّا يحبّ الله ، و لم تسخط الله في شيء من سرائرك وعلانيتك ، ويحك فإن كنت كذلك - ولست كذلك - فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة و تعتبر بذوي الأموال إذا وقفوا للسؤال و تسق مع الرعيل الأوّل في زمرة المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم لا حبس عليك للمسائلة والحساب فإمّا سلامة وإمّا عطب فإنّه بلغنا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : « يدخل صعاليك المهاجرين الجنّة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام » (٢) يا قوم فاستبقوا السباق مع المخفّفين في زمرة المرسلين وكونوا وجلين من التخلّف و الانقطاع عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كما وجل المتّقون ، ويحك فإن تخلّفت في القيامة عن المصطفى لتنظرنّ إلى أهوال جزعت منها الملائكة و الأنبياء ، و لئن قصرت عن السباق فليطولنّ عليك اللّحاق ، و لئن أردت الكثير

(١) قال العراقى : لم أقف له على أصل .

(٢) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢١٣ وابن ماجه تحت رقم ٤١٢٣ و ٢٤ من حديث أبى سعيد وابن عمر بلفظ «فقراء» مكان « صعاليك » .

لتصيرنّ إلى حساب عسير ، ولئن لم تقنع بالقليل لتصيرنّ إلى وقوف طويل وصراخ وعويل ، أمّا علمت أنّ ترك الاشتغال بالمال و فراغ القلب بالذكر و التذكار والفكر و الاعتبار أسلم للدّين و أيسر للحساب و أخفّ للمسائلة وآمن من روعات يوم القيامة و أجزل للثواب و أعلى لقدرك عند الله و أروح لبدنك و أقلّ لتعبك و أنعم لعيشك و أرخى لبالك وأقلّ لهمومك ، فما عذرك في جمع المال ، أنت بترك المال أفضل ممّن طلب المال لأعمال البرّ ، نعم شغلك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة و الفضل في العاجل وبعد فلو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تتأسي بنبيّك صلى الله عليه وآله وسلم وترضى بما اختار لنفسه من مجانبة الدنيا ويحك تدبّر بما سمعت و كن على يقين أنّ السعادة والفوز في مجانبة الدّنيا فسر مع لواء المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم سابقاً إلى جنّة المأوى فإنّه بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « سادات المؤمنين في الجنّة من إذا تغدّى لم يجد عشاء ، و إذا استقرض لم يجد قرضاً وليس له فضل كسوة إلّا ما يواريه ولم يقدر على أن يكتسب ما يغنيه يمسي مع ذلك ويصبح راضياً عن ربّه » فأولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقاً»[1] ألا يا أخي فمتى جمعت المال بعد هذا البيان فإنّك مبطل فيما ادّعيت أنّك للبرّ و الفضل تجمعه لا ولكنّك خوفاً من الفقر تجمعه وللتنعّم والزّينة والفخر والتكاثر و العلوّ و الرّياء والسمعة والتعظّم والتكرّم تجمعه ، ثمّ تزعم أنّك لأعمال البرّ تجمع المال ويحك راقب الله و استحي من دعواك أيّها المغرور ويحك إن كنت مفتوناً بحبّ الدّنيا فكن مقرّاً أنّ الخير و الفضل في الرّضا بالبلغة و مجانبة الفضول ، نعم و كن عند جمع المال مزرياً على نفسك[2] ، معترفاً بإساءتك ، وجلاً من الحساب ،

(١) الاية فى سورة النساء : ٧٠ . والخبر عزاه صاحب مسند الفردوس للطبرانى من رواية أبى حازم عن أبى هريرة مختصراً بلفظ « سادة الفقراء فى الجنة الحديث » و قال العراقى : و لم أره فى معاجم الطبرانى .

(٢) من أزرى يزرى أى موهناً نفسك .

فذلك أنجى لك و أقرب إلى الفضل من طلب الحجج لجمع المال ، و قد نصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليل ، وفقّنا الله وإيّاكم لكلّ خير برحمته . آخر كلامه .

وفيه كفاية في إظهار فضل الفقر على الغنى و لامزيد عليه ، و يشهد لذلك جميع الأخبار الّتي أوردنا ها في كتاب ذمّ الدّنيا و في كتاب الفقر و الزّهد ، و يشهد له أيضاً ما روي عن أبي أمامة الباهليّ أنّ ثعلبة بن حاطب [1] قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً ، قال : يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لاتطيقه ، قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً ، قال : يا ثعلبة أمالك فيّ أسوة ؟ أما ترضى أن تكون مثلي ؟ أما و الّذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضّة لسارت ، قال : والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً لئن دعوت الله لي أن يرزقني مالاً لأعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه و لأفعلنّ و لأفعلنّ ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « اللّهمّ ارزق ثعلبة مالاً » فاتّخذ غنماً فنمت كما ينمو الدّود فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتّى جعل يصلّي الظهر و العصر في الجماعة ويدع ما سواهما ، ثمّ نمت و كثرت فتنحّى حتّى ترك الصلاة في الجماعة إلّا الجمعة فتنمى كما ينمى الدّود حتّى ترك الجمعة وطفق يلقى الرّكبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار وسأل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : ما فعل ثعلبة بن حاطب ؟ فقيل : يارسول الله اتّخذ غنماً فضاقت عليه المدينة واُخبر بأمره كلّه ، فقال : يا ويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة ، قال : و أنزل الله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إنّ صلوتك سكن لهم » [2] و أنزل الله تعالى فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم رجلاً من جهينة و رجلاً من بني سليم على الصدقة و كتب لهما كتاباً بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين وقال : مرّا بثعلبة بن حاطب

---

(١) أخرجه البغوي والباوردي وابن قانع وابن السكن وابن شاهين عن أبي امامة عن ثعلبة ابن حاطب بسند صحيح كما في الجامع الصغير ج ٢ ص ٨٨ . وأخرجه الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والعسكري في الامثال وابن منده وأبو نعيم في معرفة الصحابة وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن أبي امامة راجع الدر المنثور ج ٣ ص ٢٦٠ .

(٢) التوبة : ١٠٥ .

و بفلان رجل من بني سليم وخذا صداقتهما ، فخرجاحتّى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرءاه كتاب رسول‌الله ﷺ فقال : ماهذا إلّا جزيةما هذاإلّاجزية ماهذه إلّا اُخت الجزية ، انطلقا حتّى تفرغا ثمّ تعودا إليّ ، فانطلقا نحو السليمي فسمع بهما فقام إلى خيار أسنان إبله فعزلهما للصدقة ثمّ استقبلهما بها فلمّا رأوها قالوا : لا يجب عليك هذا و ما نريد أن نأخذ هذا منك ، فقال : بلى خذوها نفسي بها طيّبة وإنّما هي لتأخذوها ، فلمّا فرغا من صدقاتهما رجعا حتّى مرّا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : أرياني كتابكما فنظر فيه فقال : هذا اُخت الجزية انطلقا حتّى أرى رأياً فانطلقا حتّى أتيا رسول الله ﷺ فلمّا رآهما قال : ياويح ثعلبة قبل أن يكلّماه ودعا للسليمي ، فأخبراه بالّذي صنع ثعلبة وبالّذي صنع السليمي فأنزل الله تعالى في ثعلبة « ومنهم من عاهدالله لئن آتانا من فضله لنصدّقنّ ولنكوننّ من الصالحين ﴿ فلمّا آتاهم من فضله بخلوا به و تولّوا و هم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » (١) و عند رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة فسمع ما أنزل‌الله فيه فخرج حتّى أتى ثعلبة ، فقال : لا اُمّ لك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا و كذا ، فخرج ثعلبة حتّى أتى رسول الله ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إنّ الله منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال له رسول‌الله ﷺ : هذا عملك أمرتك فلم تطعني ، فلمّا أبى أن يقبل منه شيئاً رجع إلى منزله فلمّا قبض رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبي بكر فأبى أن يقبلها منه ، و جاء بها إلى عمر فأبى أن يقبلها و توفّي ثعلبة بعد في خلافة عثمان » فهذا طغيان المال و شومه و قد عرفته من هذا الحديث و لأجل بركة الفقر وشوم الغنى آثر رسول الله ﷺ الفقر لنفسه ولأهل بيته حتّى :

روي عن عمران بن حصين أنّه قال : كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه فقال : يا عمران بن حصين إنّ لك عندنا منزلة وجاهاً فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول‌الله ؟ فقلت : نعم بأبي أنت واُمّي ، فقام وقمت معه حتّى وقف بباب منزل

(١) التوبة : ٧٩ .

فاطمة فقرع الباب فقال : السلام عليكم أأدخل ؟ قالت : ادخل بأبي أنت وأمّي [1] يا رسول‌الله ، قال : أنا ومن معي ؟ قالت : و من معك يا رسول الله قال قالت : و الّذي بعثك بالحقّ نبيّاً ما عليّ إلّا عباءة قال : اصنعي بها هكذا و هكذا - و أشار بيده - فقالت : هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال : شدّي بها على رأسك ثمّ أذنت له فدخل فقال : السلام عليك يابنتاه كيف أصبحت؟ فقالت أصبحت والله وجعة و زادني وجعاً على مابي أنّي لست أقدر على طعام آكله فقد أجهدني الجوع ، فبكى رسول‌الله صلّى الله عليه وآله فقال : لا تجزعي يابنتاه فو الله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث و إنّي لأكرم على الله منك ولو سألت ربّي لأطعمني ولكنّي آثرت الآخرة على الدّنيا ثمّ ضرب بيده على منكبها و قال لها : ابشري فوالله إنّك لسيّدة نساء أهل الجنّة ، فقالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ؟ فقال : آسية سيّدة نساء عالمها ، ومريم سيّدة نساء عالمها ، و خديجة سيّدة نساء عالمها ، و أنت سيّدة نساء عالمك إنكنّ في بيوت من قصب لاأذى فيها ولاصخب ، ثمّ قال لها : اقنعي بابن عمّك فو الله لقد زوّجتك سيّداً في الدّنيا و سيّداً في الآخرة » [2].

فانظر الآن إلى حال فاطمة وهي بضعة رسول الله صلّى الله عليه وآله كيف آثرت الفقر و تركت المال ، و من راقب أحوال الأنبياء عليهم السلام و أقوالهم و ما ورد من أخبارهم و آثارهم لم يشكّ في أنّ فقد المال أفضل من وجوده و إن صرف إلى الخيرات إذ أقلّ ما فيه مع أداء الحقوق و التوقّي من الشبهات و الصرف إلى الخيرات اشتغال الهمّ بإصلاحه و انصرافه عن ذكر الله إذ لا ذكر إلّا مع الفراغ و لا فراغ مع اشتغال البال .

و قد روي عن جرير عن ليث قال : صحب رجلٌ عيسى ابن مريم عليه السلام فقال: أكون معك و أصحبك فانطلقا حتّى أتيا إلى شاطيء نهر فجلسا يتغدّيان و معهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين و بقي رغيف فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثمّ رجع

(١) كذا . (٢) أخرجه أحمد ج ٥ ص ٢٦ من حديث معقل بن يسار باختصار . وقال العراقى : لم أجده من حديث عمران .

فلم يجد الرّغيف فقال للرّجل : من أخذ الرّغيف فقال : لا أدري فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية و معها خشفان لها (١) فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منه فأكل هو و ذلك الرّجل ثمّ قال للخشف : قم بإذن الله فقام فذهب فقال للرّجل : أسألك بالّذي أراك هذه الآية من أخذ الرّغيف ؟ قال : لا أدري ، قال : ثمّ انتهيا إلى وادي ماء فأخذ عيسى عليه السلام بيد الرّجل فمشيا على الماء فلمّا جاوزا قال : أسألك بالّذي أراك هذه الآية من أخذ الرّغيف ؟ قال : لا أدري ، قال : فانتهيا إلى مفازة فجلسا فأخذ عيسى صلوات الله عليه يجمع تراباً أو كثيباً ثمّ قال : كن ذهباً بإذن الله فصار ذهباً فقسّمه ثلاثة أثلاث فقال : ثلث لي و ثلث لك وثلث لمن أخذ الرّغيف قال : فأنا أخذت الرّغيف ، قال : فكلّه لك و فارقه عيسى عليه السلام ، فانتهى إليه رجلان في المفازة ومعه المال ، فأرادا أن يأخذاه منه و يقتلاه فقال : هو بيننا أثلاثاً ، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتّى يشتري لنا طعاماً قال : فبعثوا أحدهم فقال الّذي بعث : لأيّ شيء أقاسم هؤلاء في هذا المال لكنّي أضع في هذا الطعام سمّاً فأقتلهما فآخذ المال وحدي قال : ففعل وقال ذانك الرّجلان : لأيّ شيء نجعل لهذا ثلثاً ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمناه المال بيننا ، قال : فلمّا رجع إليهما قتلاه و أكلا الطعام فماتا فبقي ذلك المال في المفازة و اُولئك الثلاثة قتلى عنده ، فمرّ بهم عيسى صلوات الله عليه على تلك الحال فقال لأصحابه : هذه الدّنيا فاحذروها .

و حكي أنّ ذا القرنين أتى على اُمّة من الاُمم ليس في أيديهم شيء ممّا يستمتع به الناس من دنيا هم قد احتفروا قبوراً فإذا أصبحوا تعهّدوا تلك القبور و كنسوها و صلّوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم وقيّض الله لهم في ذلك معايش من نبات الأرض ، فأرسل ذوالقرنين إلى ملكهم فقال له : أجب الملك ذا القرنين فقال : مالي إليه حاجة ، فأقبل إليه ذوالقرنين فقال له : أرسلت إليك لتأتيني فأبيت فها أنا قد جئت ، فقال : لو كانت لي إليك حاجة لأتيتك ، فقال له ذوالقرنين : مالي أراكم على الحالة الّتي لم أر أحداً من الاُمم عليها ؟ قال : و ما ذاك ؟ قال : ليس لكم

(١) الخشف بتثليث الخاء المعجمة : ولد الظبي أول ما يولد .

دينار ولا شيء أفلا اتّخذتم الذهب والفضّة فاستمتعتم بهما ؟ قالوا : إنّما كرهناهما لأنّ أحداً لم يؤت منهما شيئاً إلّا تاقت نفسه و دعته إلى ما هو أفضل منه ، فقال : مالكم قد احتفرتم قبوراً فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصلّيتم عندها ؟ قالوا : أردنا إذا نظرنا إليها و أملنا الدّنيا منعتنا قبورنا من الأمل ، قال : وأراكم لا طعام لكم إلّا البقل من الأرض أفلا اتّخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها و ركبتموها و استمتعتم بها ؟ فقالوا : كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها و رأينا في نبات الأرض بلاغاً و إنّما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطعام و أنّ ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعماً كائناً ماكان من الطعام ، ثمّ بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة فقال : يا ذا القرنين أتدري من هذا ؟ قال : لا ومن هو ؟ قال : ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض فغشم[1] و ظلم و عتا فلمّا رأى الله ذلك منه حسمه بالموت فصار كالحجر الملقى فقد أحصى الله عليه عمله حتّى يجزيه به في آخرته ، ثمّ تناول جمجمة اخرى بالية فقال : يا ذا القرنين هل تدري من هذا ؟ قال : لا ومن هو ؟ قال : هذا ملك ملّكه الله بعده قد كان يرى ما يصنع الّذي قبله بالناس من الغشم و الظلم و التجبّر فتواضع و خشع لله عزّ وجلّ و أمر بالعدل في أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتّى يجزيه به في آخرته ، ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين فقال : و هذه الجمجمة كأن قد كانت كهاتين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذو القرنين : هل لك في صحبتي فأتّخذك أخاً و وزيراً و شريكاً فيما آتاني الله من هذا المال ؟ قال : ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعاً ، قال ذو القرنين : ولِمَ ؟ قال : من أجل أنّ الناس كلّهم لك عدوّ ولي صديق ، قال : ولِمَ ؟ قال : يعادونك لما في يديك من الملك و المال والدّنيا ، ولا أجد أحداً يعاديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة و قلّة الشيء ، قال : فانصرف عنه ذو القرنين متعجّباً منه ومتّعظاً به .

فهذه الحكايات تدلّك على آفات الغنى مع ما قدّمنا من قبل ، و الله الموفّق

---

(١) غشمه أى ظلمه والغاشم : الظالم والغاصب .

لا ربّ غيره ولا معبود سواه .

هذا آخر كتاب ذمّ المال من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء و يتلوه إن شاء الله كتاب ذمّ الجاه و الرّياء ، و الحمد لله أوّلاً و آخراً .

كتاب ذمّ الجاه والرياء

و هو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علاّم الغيوب ، المطّلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبائر الذّنوب ، العالم بما تجنّه الضمائر من خفايا الغيوب ، البصير بسرائر النيّات وخفايا الطويّات ، الّذي لا يقبل من الأعمال إلّا ما كمل و وفى ، و خلص عن شوائب الرّياء و الشرك و صفا ، فإنّه المتفرّد بالملكوت والملك ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، والصلاة والسلام على محمّد و آله وأصحابه المبرّئين من الخيانة والإفك وسلّم تسليماً كثيراً .

أمّا بعد فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إنّ أخوف ما أخاف على اُمّتي الرّياء و الشهوة الخفيّة» (١) و الرّياء من الشهوة الخفيّة الّتي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في اللّيلة الظلماء ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة العلماء فضلاً عن عامّة العبّاد و الأتقياء و هو من أواخر غوائل النفس و بواطن مكائدها ، و إنّما يبتلى بها العلماء و العبّاد المشمّرون عن ساق الجدّ لسلوك سبيل الآخرة ، فإنّهم مهما قهروا أنفسهم و جاهدوها و فطموها عن الشهوات و صانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة إلى التظاهر

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٠٥ وفيه « الشرك » بدل « الرياء » وفسره بالرياء .

بالخير و إظهار العمل و العلم فوجدت مخلصاً من مشقّة المجاهدة إلى لذّة القبول عند الخلق و نظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصّلت إلى اطّلاع الخلق و لم تقنع باطّلاع الخالق و فرحت بحمد الناس و لم تقنع بحمد الله وحده ، و علمت أنّهم إذا عرفوا تركه الشهوات و توقّيه الشبهات وتحمله مشاقّ العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح و الثناء ، و بالغوا في التفريط و الإطراء ، و نظروا إليه بعين التوقير و الاحترام ، و تبرّكوا بمشاهدته و لقائه ، و رغبوا في بركة دعائه ، و حرصوا على اتّباع رأيه ، وفاتحوه بالخدمة و السلام ، و أكرموه في المحافل غاية الإكرام ، و سامحوه في البيع و المعاملات ، و قدّموه في المجالس ، و آثروه بالمطاعم و الملابس ، و تصاغروا له متواضعين و انقادوا له في أغراضه موقّرين فأصابت النفس في ذلك لذّة هي أعظم اللّذّات و شهوة هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي و الهفوات و استلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذّة اللّذّات و شهوة الشهوات فهو يظنّ أنّ حياته بالله و بعبادته المرضيّة و إنّما حياتها بهذه الشهوة الخفيّة الّتي تعمى عن دركها العقول النافذة القويّة و يرى أنّه مخلص في طاعة الله و مجتنب لمحارم الله و النفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد و تصنّعاً للخلق و فرحاً بما نالت من المنزلة و الوقار و حسن الحال و الاقبال ، و احبطت بذلك ثواب الطاعات و اُجور الأعمال و أثبت اسمه في جريدة المنافقين و هو يظنّ أنّه عند الله من المقرّبين ، و هذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلّا الصدّيقون ، و مهواة لا يرقى منها إلاّ المقرّبون ، ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حبّ الرّئاسة ، وإذا كان الرّياء هو الدّاء الدّفين الّذي هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه و حقيقته ، و درجاته و أقسامه وطرق معالجته ، و الحذر منه ، و يتّضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين الشطر الأوّل في حبّ الجاه و الشهرة و فيه بيان ذمّ الشهرة و انتشار الصيت ، و بيان فضيلة الخمول ، و بيان ذمّ الجاه ، و بيان معنى الجاه و حقيقته ، و بيان السبب في كونه محبوباً حبّاً أشدّ من حبّ المال ، و بيان أنّ الجاه كمال وهميّ

وليس بكمال حقيقي، وبيان ما يحمد من حبّ الجاه و ما يذم، وبيان السبب في حبّ المدح و الثناء و كراهية الذمّ، و بيان العلاج في حبّ الجاه، و بيان علاج حبّ المدح، و بيان علاج كراهية الذمّ، و بيان اختلاف أحوال الناس في الذمّ و المدح، فهي إثنا عشر فصلاً منها تنشأ معاني الرّياء فلابدّ من تقديمها.

✿(بيان ذمّ الشهرة وانتشار الصيت)✿

اعلم أنّ أصل الجاه هو انتشار الصيت و الاشتهار و هو مذموم بل المحمود الخمول إلّا من شهّره الله لنشر دينه من غير تكلّف طلب الشّهرة منه قال: أنس قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «حسب امرء من الشرّ أن يشير إليه بالأصابع إلّا من عصمه الله»(١). و قال جابر بن عبدالله: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «بحسب المرء من الشرّ إلّا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه و دنياه، إنّ الله لاينظر إلى صوركم و لكن ينظر إلى قلوبكم و إلى أعمالكم»(٢) و لقد ذكر الحسن للحديث تأويلاً لا بأس به إذ روى هذا الحديث فقيل له: يا أبا سعيد إنّ الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع فقال: إنّه لم يعن هذا إنّما عنى به المبتدع في دينه والفاسق في دنياه.

و قال علي عليه السلام: «تبذّل ولاتشتهر، ولاترفع شخصك لتذكر وتعلم، واكتم واصمت تسلم تسرّ الأبرار وتغيظ الفجّار».

و قال إبراهيم بن أدهم: ماصدّق الله من أحبّ الشهرة. وقال أيّوب: والله ما صدّق الله عبدٌ إلّا سرّه أن لا يشعر بمكانه. و عن خالد بن معدان أنّه كان إذا

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط بسند فيه عبدالعزيز بن حصين و هو ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٩٦. وأخرجه البيهقي في الشعب كما في مشكاة المصابيح ص ٤٥٥ و في المصابيح للبغوي ج ٢ ص ١٨١ بأدنى اختلاف.

(٢) قال العراقي: هو غير معروف من حديث جابر انما هو معروف من حديث أبي ـ هريرة رواه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب بسند فيه ضعف مقتصرين على أوله و رواه مسلم مقتصراً على الزيادة التي في آخره.

كثرت حلقته قام مخافة الشهرة . و عن أبي العالية أنّه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . وعن الحسن قال : خرج ابن مسعود يوماً من منزله فتبعه اُناس فالتفت إليهم فقال على م تتبعوني فو الله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما أتبعني منكم رجلان . و قال الحسن : إنّ خفق النعال حول الرّجال قلّما تلبث عليه قلوب الحمقى ، و روي أنّ رجلاً صحب ابن محيريز في سفر فلمّا فارقه قال : أوصني ؟ قال: إن استطعت أن تعرف ولا تعرف و تمشي ولايمشى إليك و تسأل و لا تسأل فافعل . و خرج أيّوب في سفر فتبعه ناس كثير فقال : لولا أنّي أعلم أنّ الله يعلم من قلبي أنّي لهذا كاره لخشيت المقت من الله . وقال معمر : عاتبت أيّوب على طول قميصه ، فقال : إنّ الشهرة فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في تشميره . وقال الثوريّ : كانوا يكرهون الشهرتين الثياب الجيّدة و الثياب الرديّة إذ الأبصار تمتدّ إليهما جميعاً . و قال رجل لبشر بن الحارث : أوصني فقال : أخمل ذكرك ، و طيّب مطعمك . وكان حوشب يبكي ويقول : بلغ اسمي مسجد الجامع وقال بشر : ماأعرف رجلاً أحبّ أن يعرف إلّا ذهب دينه و افتضح . و قال أيضاً : لايجد حلاوة الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه الناس .

✿(بيان فضيلة الخمول)✿

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ربّ أشعث أغبر ذي طمرين لايؤبه له ، لو أقسم على الله لأبرّه ، منهم البراء بن مالك »(١).

و قال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ربّ ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه ، لوقال : اللّهمّ إنّي أسألك الجنّة لأعطاه الجنّة و لم يعطه

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٣٦ و ١٥٤ من حديث أبي هريرة « رب أشعث مدفوع بالابواب لوأقسم على الله لابره » وللحاكم «رب أشعث اغبر ذى طمرين تنبوعنه أعين الناس لوأقسم على الله لابره» و قال : صحيح الاسناد و لابى نعيم فى الحلية من حديث أنس بسند ضعيف « رب ذى طمرين لا يؤبه له لوأقسم على الله لابره منهم البراء بن مالك» وهوعند الحاكم نحوه بهذه الزيادة و قال : صحيح الاسناد و قال العراقى فى المغنى : بل ضعيفه .

من الدّنيا شيئاً » (١).

و قال ﷺ : « ألا أدلّكم على أهل الجنّة ؟ : كلّ ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبرّه ، وأهل النار كلّ متكبّر جوّاظ » (٢).

و عنه ﷺ : « إنّ أهل الجنّة كلّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ، الّذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم ينصت لقولهم ، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره ، لو قسّم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم » (٣).

و قال ﷺ : « إنّ من امّتي من لو أتى أحدكم يسأله ديناراً لم يعطه إيّاه ولو سأله درهماً لم يعطه إيّاه و لو سأله فلساً لم يعطه إيّاه ، ولو سأل الله تعالى الجنّة لأعطاها إيّاه ، و لو سأله الدّنيا لم يعطه إيّاها ، و ما منعها إيّاه إلّا لهوانها عليه ، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه » (٤).

و عنه ﷺ : « إنّ اليسير من الرّياء شرك ، وإنّ الله يحبّ الأتقياء الأخفياء الّذين إن غابوا لم يفقدوا و إذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كلّ غبراء مظلمة » (٥).

و قال محمّد بن سويد : قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له لازم لمسجد رسول الله ﷺ فبيناهم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصلّى

---

(١) راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٦٤ وقال العراقى : أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٤ من حديث حارثة بن وهب و رواه الطبرانى فى الاوسط عن شيخه عبدالله بن محمد بن أبى مريم وهو ضعيف .

(٣) تقدم صدره وما عثرت على ذيله فى أى أصل .

(٤) رواه الطبرانى فى الاوسط ورجاله رجال الصحيح كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٦٤ .

(٥) أخرجه الطبراني والحاكم واللفظ له وقال : صحيح الاسناد وأخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٨٩ و فى اسناده عبدالله بن لهيعة وهو ضعيف .

ركعتين أوجز فيهما ثمّ بسط يديه فقال: يا ربّ أقسمت عليك إلّا أمطرت علينا الساعة فلم يردّ يديه ولم يقطع دعاءه حتّى تغشّت السماء بالغيم وأمطروا حتّى صاح أهل المدينة من خوف الغرق فقال: يا ربّ إن كنت تعلم أنّهم قد اكتفوا فارفع عنهم فسكن، و تبع محمّد بن سويد صاحب المطر حتّى عرف منزله، ثمّ بكّر عليه فخرج إليه فقال: إنّي أتيتك في حاجة، فقال: ماهي؟ قال: تخصّني بدعوة، قال: سبحان الله أنت أنت و تسألني أن أخصّك بدعوة، ثمّ قال: ما الّذي بلغك ما رأيت قال: أطعت الله فيما أمرني و نهاني فسألت الله فأعطاني.

و قال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج اللّيل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض.

و قال أبو أمامة: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذّ ذو حظّ من صلاة أحسن عبادة ربّه وأطاعه في السرّ [والعلانية] و كان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع و صبر على ذلك، قال: ثمّ نقر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بيده فقال: عجّلت منيّته و قلّ تراثه وقلّت بواكيه»[1].

و قال الفضيل: بلغني أنّ الله تعالى يقول في بعض ما يمنّ به على عبده: ألم أنعم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أخمل ذكرك؟.

وكان الخليل بن أحمد يقول: اللّهمّ اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك، و اجعلني عند الناس من أوسط خلقك.

فهذه الأخبار والآثار تعرّفك مذمّة الشهرة وفضيلة الخمول و إنّما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه و المنزلة في القلوب وحبّ الجاه هو منشأ كلّ فساد.

فإن قلت: فأيّ شهرة تزيد على شهرة الأنبياء عليهم السلام و أئمّة العلماء، فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١١٧. و رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٤١ تحت رقم ٦ باختلاف فيه.

فاعلم أنّ المذموم طلب الشهرة وأمّا وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلّف من العبد فليس بمذموم، نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهو كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم فإنّهم يتعلّقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم وأمّا القويّ فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلّقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك.

✿(بيان ذمّ حبّ الجاه)✿

قال الله تعالى: «تلك الدّار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً» (١) جمع بين إرادة الفساد والعلوّ وبين أنّ الدّار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً، وقال تعالى: «من كان يريد الحياة الدّنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ✿ أولئك الّذين ليس لهم في الآخرة إلّا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون» (٢) وهذا أيضاً متناول بعمومه لحبّ الجاه فإنّه أعظم لذّة من لذّات الحياة الدّنيا وأكثر زينة من زينتها.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حبّ الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» (٣).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ذئبان ضاريان أُرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حبّ الجاه والمال والشرف في دين الرّجل المسلم» (٤).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام: «إنّما هلك الناس باتّباع الهوى وحبّ الثناء» (٥).

أقول: ومن طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن عبد الله بن مسكان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إيّاكم وهؤلاء الرّؤساء الّذين يترأسون فوالله ما

(١) القصص: ٨٣. (٢) هود: ١٥ - ١٦.
(٣) تقدم أول هذا المجلد ص ٤٠.
(٤) تقدم ص ٤١. ورواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٩٧.
(٥) قال العراقي: لم أره بهذا اللفظ.

خفقت النعال خلف رجل إلّا هلك و أهلك »(١).

وعنه عليه السلام قال : « ملعونٌ من ترءّس ، ملعونٌ من همّ بها ، ملعونٌ من حدّث بها نفسه »(٢).

وعنه عليه السلام : « من أراد الرّئاسة هلك »(٣).

و عن أبي الربيع الشاميّ ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : «قال : لي ويحك يا أباالرّبيع لاتطلبنّ الرّئاسة ولا تكن ذئباً ولاتأكل بنا الناس فيفقرك الله ولا تقل فينا مالانقول في أنفسنا فإنّك موقوف ومسئول لامحالة فإن كنت صادقاً صدّقناك و إن كنت كاذباً كذّبناك »(٤).

و عن محمّد بن مسلم قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : « أترانى لا أعرف خيار كم من شرار كم ؟ بلى والله و إنّ شرار كم من أحبّ أن يوطّأ عقبه إنّه لابدّ من كذّاب أو عاجز الرأي »(٥).

وفي الصحيح عن معمر بن خلّاد عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام أنّه ذكر رجلاً فقال له : إنّه يحبّ الرّئاسة فقال : « ما ذئبان ضاريان في غنم قد تفرّق رعاؤها بأضرّ في دين المسلم من الرّئاسة »(٦).

☼(بيان معنى الجاه وحقيقته)☼

إعلم أنّ الجاه والمال هما ركنا الدّنيا و معنى المال ملك الأعيان المنتفع بها و معنى الجاه ملك القلوب المطلوبة تعظيمها وطاعتها ، و كما أنّ الغنيّ هوالّذي يملك

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٩٧ و خفق الارض بنعله ضرب و كل ضرب بشيء عريض خفق ، و يقال لمن ارتكب أمراً عظيماً : هلكت - منّ باب التفعيل - وأهلكت .

(٢) الى (٤) المصدر ج٢ ص ٢٩٨ .

(٥) المصدر ج ٢ ص ٢٩٩ وقال المؤلف في الوافي : أى من أحب أن يوطأ عقبه لابد أن يكون كذاباً أوعاجز الرأى لانه لا يعلم جميع ما يسأل عنه ، فان أجاب عن كل ما سئل فلابد من الكذب وان لم يجب عما لايعلم فهو عاجز الرأى ، أو المعنى أنه لابد في الارض من كذاب يطلب الرئاسة و من عاجز يتبعه .

(٦) أخرجه الكشي راجع رجاله ص ٣١٣ .

الدّنانير والدّراهم أي يقدر عليهما ليتوصّل بهما إلى الأغراض والمقاصد و قضاء الشهوات و سائر حظوظ النفس فكذلك ذوالجاه هو الّذي يملك قلوب النّاس أي يقدر على أن يتصرّف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه و مآربه و كما أنّه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ولا تصير القلوب مسخّرة إلّا بالمعارف والاعتقادات ، فكلّ من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال إنقاد له وتسخّر له بحسب قوّة اعتقاده وبحسب درجة ذلك الكمال عنده و ليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه بل يكفي أن يكون كمالاً عنده و في اعتقاده ، و قد يعتقد ماليس كمالاً كمالاً و يذعن قلبه للموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده فإنّ انقياد القلب حال للقلب وأحوال القلب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيّلاتها و كما أنّ محبّ المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترقّ الأحرار ويستعبدهم و يملك رقابهم بملك قلوبهم ، بل الرّقّ الّذي يطلبه صاحب الجاه أعظم لأنّ المالك يملك العبد قهراً والعبد متأبّ بطبعه ولو خلّي و رأيه انسلّ عن الطاعة ، و صاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً وينبغي أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع مع الفرح بالعبوديّة والطاعة له فما يطلبه طالب الجاه فوق ما يطلبه مالك الرقّ بكثير فإذاً معنى الجاه قيام المنزلة في قلوب الناس أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم و بقدر إذعان القلوب تكون قدرته على أرباب القلوب و بقدر قدرته على القلوب يكون فرحه و حبّه للجاه فهذا هو معنى الجاه و حقيقته وله ثمرات كالمدح والإطراء فإنّ المعتقد للكمال لايسكت عن ذكر ما يعتقده فيثني عليه وكالخدمة والإعانة فإنّه لايبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه وكالإيثار و ترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب ، و معنى قيام الجاه في القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إمّا بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو

قوّة في بدن أو شيء ممّا يعتقده النّاس كمالاً فإنّ هذه الأوصاف كلّها يعظم محلّها في القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه .

﴿ بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع ﴾
﴿ حتى لايخلو عنه قلب الا بشديد المجاهدة ﴾

إعلم أنّ السبب الّذي يقتضي كون الذّهب والفضّة و سائر أنواع الأموال محبوباً هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوباً بل يقتضي أن يكون أحبّ من المال كما يقتضي أن يكون الذّهب أحبّ من الفضّة مهما تساويا في المقدار و هو أنّك تعلم أنّ الدّراهم والدّنانير لا غرض في أعيانهما إذ لا تصلح لمنكح ولا لمطعم و لا لملبس وإنّما هي والحصى بمثابة واحدة ولكنّها محبوبة لأنّها وسيلة إلى جميع المحابّ وذريعة إلى قضاء الشهوات ، و كذلك الجاه لأنّ معنى الجاه ملك القلوب و كما أنّ ملك الذّهب والفضّة يفيد قدرة يتوصّل الإنسان بها إلى سائر أغراضه فكذلك ملك قلوب الأحرار والقدرة على استسخارها تفيد قدرة على التوصّل إلى جميع الأغراض فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبّة و ترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحبّ من المال ، و لملك القلوب ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه : الأوّل : أنّ التوصّل بالجاه إلى المال أيسر من التوصّل بالمال إلى الجاه فالعالم أو الزّاهد الّذي تقرّر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال يتيسّر له فإنّ أموال أرباب القلوب مسخّرة للقلوب و مبذولة لمن اعتقد فيه الكمال و أمّا الرّجل الخسيس الّذي لايتّصف بصفة كمال إذا وجد كنزاً و لم يكن له جاه يحفظ ماله و أراد أن يتوصّل بالمال إلى الجاه لم يتيسّر له فإذن الجاه آلة إلى المال ، فمن ملك الجاه فقد ملك المال أيضاً ، و من ملك المال لم يملك الجاه بكلّ حال فلذلك صار الجاه أحبّ .

الثاني هو أنّ المال معرض للبلوى والتلف لأنّه يُسرق ويُغصب ويَطمع فيه الملوك والظلمة و يحتاج فيه إلى الحفظ والحراسة و الخزائن و يتطرّق إليه أخطار كثير وأمّا القلوب إذا ملكت لم تتعرّض لهذه الآفات ، فهي على التحقيق خزائن

عقيدة لا يقدر عليها السرّاق ولا تتناولها أيدي الغصّاب وأثبت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة و الحفظ ، و أمّا خزائن القلوب فهي محفوظة بأنفسها و ذو الجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها ، نعم إنّما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال و تغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال و ذلك ممّا يهون دفعه ولا يتيسّر على محاوله فعله .

الثالث أنّ ملك القلوب يسري وينمو ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة لأنّ القلوب إذا أذعنت لشخص و اعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لامحالة بمافيها فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً له ولهذا المعنى يحبّ بالطبع الصيت و انتشار الذّكر لأنّ ذلك إذا استطار في الأقطار اقتنص القلوب و دعاها إلى الإذعان و التعظيم فلا يزال يسري من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مردٌّ معين ، وأمّا المال فمن ملك منه شيئاً فهو مالكه فقط ولا يقدر على استنمائه إلّا بتعب و مقاساة فالجاه أبداً في النماء بنفسه و لا مردّ لموقعه ، والمال واقف و لهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء استحقرت الأموال في مقابلته ، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال و إذا فصّلت كثرت وجوه الترجيح .

فإن قلت : فالاشكال قائم في المال و الجاه جميعاً فلا ينبغي أن يحبّ الإنسان المال و الجاه ، نعم القدر الّذي يتوصّل به إلى جلب الملاذّ و دفع المضارّ معلوم كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم أو كالمبتلى بمرض أو عقوبة إذا كان لا يتوصّل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلّا بمال و جاه فحبّه للمال و الجاه معلومٌ إذ كلّ مالا يتوصّل إلى المحبوب إلّا به فهو محبوبٌ و في الطباع أمرٌ عجيب وراء هذا وهو حبٌّ جمع الأموال و كنز الكنوز و ادّخار الذّخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات حتّى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى وراء هما ثالثاً ، و كذلك يحبّ الإنسان اتّساع الجاه و انتشار الصيت إلى أقاصي البلاد الّتي يعلم قطعاً أنّه قطّ لا يطؤها و لا يشاهد أصحابها ليعظّموه أو ليبرّوه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ومع اليأس من ذلك فإنّه يلتذّ به غاية الالتذاذ و حبٌّ ذلك ثابت في الطبع

و يكاد يظنّ أنّ ذلك جهل فانّه حبّ لما لافائدة فيه لا في الدّنيا ولا في الآخرة .

فنقول : نعم هذا الحبّ لا ينفكّ عنه القلوب وله سببان أحدهما جليّ تدركه الكافّة و الآخر خفيّ وهو أعظم السببين ولكنّه أدقّهما و أخفاهما و أبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء و ذلك لاستمداده من عرق خفيّ في النفس وطبيعة مستكنّة في الطبع لايكاد يقف عليها إلّا الغوّاصون ، فأمّا السبب الأوّل فهو دفع ألم الخوف لأنّ الشفيق بسوء الظنّ مولع والانسان و إن كان مكتفياً في الحال فانّه طويل الأمل و يخطر بباله أنّ المال الّذي فيه كفايته ربّما يتلف فيحتاج إلى غيره فاذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلّا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة فهو أبداً لشفقته على نفسه و حبّه للحياة يقدّر طول الحياة و يقدّر هجوم الحاجات و يقدّر إمكان تطرّق الآفات إلى الأموال ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه و هو كثرة المال حتّى إن اُصيب بطائفة من ماله استغنى بالاُخرى و هذا خوف لا يوقف له عند مقدار مخصوص من المال فلذلك لم يكن لميله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدّنيا ولذلك قال صلّى الله عليه و آله : « منهومان لايشبعان منهوم العلم ومنهوم المال »(١) و مثل هذه العلّة تطّرد في حبّه قيام المنزلة و الجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده فانّه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه و يحتاج إلى الاستعانة بهم و مهما كان ذلك ممكناً ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذّة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف ، و أمّا السبب الثاني و هو الأقوى أنّ الرّوح أمر ربّانيّ وصفه الله تعالى إذ قال : «و يسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي»(٢) ومعنى كونه ربّانيّاً من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة في إظهاره إذ لم يظهره رسول الله صلّى الله عليه و آله ولكنّك قبل معرفة ذلك تعلم أنّ للقلب ميلاً إلى صفات بهيمية كالأكل و الوقاع ، و إلى

(١) أخرجه الطبرانى فى الاوسط من حديث ابن عباس وقد تقدم فى العلم .

(٢) الاسراء : ٨٨ .

صفات سبعيّة كالقتل و الضرب والايذاء ، و إلى صفات شيطانيّة كالمكر و الخديعة و الاغواء ، وإلى صفات ربوبيّة كالكبر والعزّ والتجبّر و طلب الاستعلاء ، وذلك لأنّه مركّب من اُصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها فهو لما فيه من الأمر الربّانيّ يحبّ الرّبوبيّة بالطبع و معنى الرّبوبيّة التوحّد بالكمال و التفرّد بالوجود على سبيل الاستقلال فصار الكمال من نعوت الالهيّة و صار محبوباً بالطبع للإنسان والكمال في التفرّد بالوجود ، فإنّ المشاركة في الوجود نقص لا محالة ، فكمال الشمس في أنّها موجودة وحدها فلو كانت معها شمس اُخرى كان ذلك نقصاناً في حقّها إذ لم تكن متفرّدة بكمال معنى الشمسيّة و المتفرّد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه فإنّ ماسواه أثر من آثار قدرته لاقوام له بذاته بل هو قائم به فلم يكن موجوداً معه لأنّ المعيّة توجب المساواة في الرّتبة والمساواة في الرّتبة نقصان في الكمال بل الكامل من لا نظير له في رتبته ، وكما أنّ إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس بل هو من جملة كمالها و إنّما نقصان الشمس بوجود شمس اُخرى تساويها في الرّتبة مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كلّ ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً فلايكون متّبعاً فإذاً معنى الرّبوبيّة التفرّد بالوجود وهو الكمال و كلّ إنسان فإنّه بطبعه محبّ لأن يكون هو المتفرّد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفيّة : ما من إنسان إلّا وفي باطنه ما صرّح به فرعون من قوله «أنا ربّكم الأعلى» ولكنّه ليس يجد له مجالاً ، وهو كما قال فإنّ العبوديّة قهر على النفس و الرّبوبيّة محبوبة بالطبع وذلك للنسبة الربّانيّة الّتي أومأ إليها قوله تعالى: «قل الرّوح من أمر ربّي» ولكن لمّا عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فهي محبّة للكمال ومشتهية له و ملتذّة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال ، فكلّ موجود فهو محبّ لذاته و لكمال ذاته ومبغض للهلاك الّذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته ، و إنّما الكمال بعد أن لم يسلم التفرّد بالوجود في الاستيلاء على كلّ الموجودات ، فإنّ أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فإن لم يكن منك فأن تكون مستولياً عليه فصار

الاستيلاء على الكلّ محبوباً بالطبع لأنّه نوع كمال و كلّ موجود يعرف ذاته فإنّه يحبّ ذاته ويحبّ كمال ذاته و يلتذّ بها إلّا أنّ الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه وعلى تغييره بحسب الإرادة و كونه مسخّراً لك تردّده كيف تشاء فأحبّ الإنسان أن يكون له الاستيلاء على الأشياء الموجودة معه إلّا أنّ الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيّر في نفسه كذات الله وصفاته وإلى ما يقبل التغيّر ولكن لا يستولي عليها قدرة الخلق كالأفلاك و الكواكب و ملكوت السماوات و نفوس الملائكة و الجنّ و الشياطين و كالجبال و البحار و ما تحت الجبال و البحار ، وإلى ما يقبل التغيّر بقدرة العبد كالأرض و أجزائها و ما عليها من المعادن و النبات و الحيوان و من جملتها قلوب الناس فإنّها قابلة للتأثّر و التغيّر مثل أجسادهم و أجساد الحيوانات فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرّف فيه كالأرضيات و إلى ما لا يقدر كذات الله تعالى و الملائكة والسماوات فأحبّ الإنسان أن يستولي على السماويات بالعلم و الإحاطة و الاطّلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت القدرة و العالم كالمستولي عليه فلذلك أحبّ أن يعرف الله و الملائكة و الأفلاك والكواكب وجميع عجائب السماوات وعجائب البحار و الجبال وغيرها لأنّ ذلك نوع استيلاء عليها و الاستيلاء نوع كمال و هذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها كمن يعجز عن وضع الشطرنج فإنّه قد يشتهي أن يعرف اللّعب به وأنّه كيف وضع ، و كمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشعبذة أو جرّ الثقيل أو غيره وهو مستشعر في نفسه نقص العجز والقصور عنه لكنّه يشتاق إلى معرفة كيفيّته فهو متألّم بنقص العجز ومتلذّذ بكمال العلم إن علمه .

و أمّا القسم الثاني و هو الأرضيّات الّتي يقدر الإنسان عليها فإنّه يحبّ بالطبع أن يستولي عليها بالقدرة على التصرّف فيها كيف يريد و هي قسمان أجساد و أرواح و الأجساد الدّراهم و الدّنانير و الأمتعة فيحبّ أن يكون قادراً عليها يفعل فيها ما يشاء من الرّفع و الوضع و التسليم و المنع فإنّ ذلك قدرة و القدرة

كمال، و الكمال من صفات الرّبوبيّة، و الربوبيّة محبوبة بالطبع، فلذلك أحبّ الأموال و إن كان لايحتاج إليها في ملبسه و مطعمه وفي شهوات نفسه ولذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر و الغلبة حتّى يتصرّف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار و إن لم يملك قلوبهم فإنّها ربّما لم تعتقد كماله حتّى يصير محبوباً لها و يقوم القهر منزلته فيها فإنّ الحشمة القهريّة أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة.

القسم الثالث نفوس الآدميّين و قلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض فهو يحبّ أن يكون له استيلاء و قدرة عليها لتكون مسخّرة له متصرّفة تحت إشارته و إرادته لما فيها من كمال الاستيلاء و التشبّه بالصفات الرّبوبيّة، والقلوب إنّما تتسخّر بالحبّ ولا تحبّ إلّا باعتقاد الكمال فإنّ كلّ كمال محبوب لأنّ الكمال من صفات الإلهيّة و الصفات الإلهيّة كلّها محبوبة بالطبع للمعنى الرّبّانيّ من جملة معاني الإنسان و هو الّذي لا يبليه الموت فيعدمه و لا يتسلّط عليه التراب فيأكله لأنّه محلّ الإيمان و المعرفة، و هوالواصل إلى لقاء الله و الساعي إليه، فإذاً معنى الجاه تسخّر القلوب ومن تسخّرت القلوب له كانت له قدرة واستيلاء عليها والقدرة و الاستيلاء كمال وهو من أوصاف الرّبوبيّة فإذاً محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم و القدرة، و المال والجاه من أسباب القدرة ولا نهاية للمعلومات و لانهاية للمقدورات و مادام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن و النقصان لا يزول فلذلك قال ﷺ: «منهومان لايشبعان» فإذاً مطلوب القلب الكمال والكمال بالعلم والقدرة، و تفاوت الدرجات فيه غير محصور، فسرور كلّ إنسان ولذّته بقدر ما يدركه من الكمال، فهذا هو السبب في كون العلم و المال والجاه محبوباً، وهو أمر وراء كونه محبوباً لأجل التوصّل به إلى قضاء الشهوات فإنّ هذه العلّة قد تبقى مع سقوط الشهوات، بل يحبّ الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصّل به إلى الأغراض بل ربّما يفوت عليه جملة من الأغراض و الشهوات ولكنّ الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب و المشكلات لأنّ في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال

الّذي هو من صفات الرّبوبيّة و كان محبوباً بالطبع ، إلّا أنّ في حبّ كمال العلم و القدرة أغاليط لابدّ من بيانها .

☼(بيان الكمال الحقيقي و الكمال الوَهْمي الّذي لاحقيقة له)☼

قد عرفت أنّه لا كمال بعد فوات التفرّد بالوجود إلّا في العلم والقدرة ولكنّ الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي وبيانه أنّ كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه ؛ أحدها من حيث كثرة المعلومات وسعتها فإنّه محيط بجميع المعلومات فلذلك كلّما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى .

والثاني من حيث تعلّق العلم بالمعلوم على ما هو به و كون المعلوم مكشوفاً به كشفاً تامّاً فإنّ المعلومات مكشوفة لله سبحانه بأتمّ أنواع الكشف على ما هي عليها فلذلك مهما كان علم العبد أوضح و أتقن و أصدق و أوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم كان أقرب إلى الله تعالى .

الثالث من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغيّر ولايزول فإنّ علم الله تعالى باق لا يتصوّر أن يتغيّر ويزول و كذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لاتقبل التغيّر والانقلاب كان أقرب إلى الله تعالى ، والمعلومات قسمان متغيّرات وأزليات أمّا المتغيّرات فمثاله العلم بكون زيد في الدّار فإنّه علم لمعلوم ولكنّه يتصوّر أن يخرج زيد من الدّار و يبقى اعتقاد كونه في الدّار كما كان فينقلب جهلاً فيكون نقصاناً لا كمالاً فكلّ ما اعتقدته اعتقاداً موافقاً و تصوّر أن ينقلب المعتقد فيه عمّا اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً ويعود علمك جهلاً ، ويلتحق بهذا المثال جميع متغيّرات العالم كعلمك مثلاً بارتفاع جبل ومساحة أرض وبعدد البلاد وتباعد ما بينها من الأميال و الفراسخ و سائر ما يذكر في المسالك و الممالك و كذلك العلم باللّغات الّتي هي اصطلاحات تتغيّر بتغيّر الأعصار و الاُمم و العادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزيبق يتغيّر من حال إلى حال فليس فيه كمال إلّا في الحال و لا يبقى كمالاً في القلب ، و القسم الثاني هي المعلومات الأزليّة و هو جواز الجائزات ، و وجوب الواجبات ، واستحالة المستحيلات ، فإنّ هذه معلومات أزليّة

أبديّة إذ لا يستحيل الواجب قطّ جائزاً ولا الجائز محالاً ولا المحال واجباً و كلّ هذه الأقسام داخلة في معرفة الله تعالى و ما يجب له و ما يستحيل في صفاته و يجوز في أفعاله ، فالعلم بالله تعالى و بصفاته و أفعاله و حكمته في ملكوت السماء و الأرض و ترتيب الدّنيا و الآخرة و ما يتعلّق به هو الكمال الحقيقيّ الّذي يقرب من يتّصف به من الله تعالى و يبقى كمالاً للنفس بعد الموت و تكون هذه المعرفة نوراً للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم و بأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف مالم ينكشف في الدّنيا كما أنّ من معه سراجٌ خفيّ فإنّه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه فيكمل النور بذلك النور الخفيّ على سبيل الاستتمام و من ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك ، فمن ليس معه أصل معرفة الله سبحانه لم يكن له مطمع في هذا النور فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها بل كظلمات في بحر لجّي يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض. فإذاً لا سعادة إلّا في معرفة الله تعالى فأمّا ما عدا ذلك من المعارف فمنها مالا فائدة فيه أصلاً كمعرفة الشعر و أنساب العرب و غيرها . و منها ماله منفعة في الإعانة على معرفة الله كمعرفة لغة العرب والتفسير و الفقه و الأخبار ، فإنّ معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ، و معرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفيّة العبادات و الأعمال الّتي تفيد تزكية النفس ، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة الله تعالى كما قال الله عزّ وجلّ « قد أفلح من زكّيها »[1] و قال : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا»[2] فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى وإنّما الكمال في معرفة الله و معرفة صفاته و أفعاله ، و ينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلّها من أفعاله فمن عرفها من حيث هي فعل الله و من حيث ارتباطها بالقدرة و الإرادة والحكمة فهي من تكملة معرفة الله تعالى و هذا حكم كمال العلم

---

(١) الشمس : ١٠ . (٢) العنكبوت : ٦٩ .

ذكرناه وإن لم يكن لايقاً بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال.

وأمّا القدرة فليس فيها كمال حقيقيّ للعبد بل للعبد علم حقيقيّ وليس له قدرة حقيقيّة وإنّما القدرة الحقيقيّة لله تعالى وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة بإحداث الله كما قدقرّرناه في كتاب الصبر والشكر وكتاب التوكّل وفي مواضع شتّى من ربع المنجيات فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأمّا كمال القدرة فلا، نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوّة يده للبطش ورجله للمشي وحواسّه للإدراك فإنّ هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصّل به إلى المطعم والملبس والمسكن وذلك إلى قدر معلوم فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة الله فلا خير فيه البتّة إلّا من حيث اللّذّة الحاليّة الّتي تنقضي على القرب ومن ظنّ ذلك كمالاً فقد جهل، فالخلق كلّهم هالكون في غمرة هذا الجهل فإنّهم يظنّون أنّ القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمالٌ، فلمّا اعتقدوا ذلك أحبّوه ولمّا أحبّوه طلبوه ولمّا طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقيّ الّذي يوجب القرب من الله ومن ملائكته وهو العلم والحرّيّة، أمّا العلم فما ذكرناه من معرفة الله وأمّا الحرّيّة فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدّنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبّهاً بالملائكة الّذين لايستفزّهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، فإذاً دفع آثار الغضب والشهوة عن النفس من الكمال الّذي هو من صفات الملائكة، ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغيّر والتأثّر عليه فمن كان عن التغيّر والتأثّر بالعوارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه ومنزلته عند الله أعظم، وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة، وإنّما لم نورده في أقسام الكمال لأنّ حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان فإنّ التغيّر نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها والهلاك نقص في اللّذّات وفي صفات الكمال. فإذاً الكمالات ثلاثة إن عددنا عدم التغيّر

بالشهوات و عدم الانقياد لها كمالاً ككمال العلم و كمال الحرّيّة و أعني به عدم العبوديّة للشهوات و إرادة الأسباب الدّنياويّة و كمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم و كمال الحرّيّة ولاطريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته إذ قدرته على أعيان الأموال و على استسخار القلوب و الأبدان تنقطع بالموت و معرفته و حرّيّته لا تنعدمان بالموت بل تبقيان كمالاً فيه و وسيلة إلى القرب من الله تعالى .

فانظر كيف انقلب الجاهلون و انكبّوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالمال و الجاه و هو الكمال الّذي لا يسلم و إن سلم فلا بقاء له و أعرضوا عن كمال الحرّيّة والعلم الّذي إذا حصل كان أبديّاً لا انقطاع له و هؤلاء هم الّذين اشتروا الحياة الدّنيا بالآخرة فلاجرم لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون، و هم الّذين لم يفهموا قوله تعالى : « المال و البنون زينة الحيوة الدّنيا و الباقيات الصالحات خيرٌ عند ربّك » (١) فالعلم والحرّية هي الباقيات الصالحات الّتي تبقى كمالاً في النفس ، و المال والجاه هو الّذي ينقضي على القرب و هو كما مثّله الله تعالى حيث قال : « إنّما مثل الحياة الدّنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض - الآية - » (٢) و كلّ ما تذروه الرّياح بالموت فهو زهرة الحياة الدّنيا ، و كلّ مالا يقطعه الموت فهو من الباقيات الصالحات ، فقد عرفت بهذا أنّ كمال القدرة بالمال و الجاه كمال ظنّيّ لا أصل له و أنّ من قصر الوقت على طلبه و ظنّه مقصوداً فهو جاهل إلّا قدر البلغة منها إلى الكمال الحقيقيّ .

☼(بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم)☼

و مهما عرفت أنّ معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم ملك الأموال فإنّه عرض من أعراض الحياة الدّنيا و ينقطع بالموت كالمال ، و الدّنيا مزرعة الآخرة ، فكلّ ما خلق الله من الدّنيا فيمكن أن يتزوّد منه إلى الآخرة ، و كما أنّه لابدّ من أدنى مال لضرورة المطعم و الملبس فلابدّ من أدنى جاه لضرورة

(١) الكهف : ٤٥ . (٢) يونس ٢٥ .

المعيشة مع الخلق ، والإنسان كما لايستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحبّ الطعام أو المال الّذي يبتاع به الطعام فكذلك لايخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، و رفيق يعينه ، وأُستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبّه لأن يكون له في قلب خادمه من المحلّ ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم ، وحبّه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحلّ ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم ، وحبّه لأن يكون له في قلب اُستاذه من المحلّ ما يحسن به إرشاده و تعليمه والعناية به ليس بمذموم ، و حبّه لأن يكون له من المحلّ في قلب سلطانه ما يحثّه ذلك على دفع الشرّ عنه ليس بمذموم ، فإنّ الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال فلا فرق بينهما إلّا أنّ التحقيق في هذا يفضي إلى أن لايكون المال و الجاه في أعيانهما محبوبين بل ينزل ذلك منزلة حبّ الإنسان أن يكون في داره بيت ماء لأنّه يضطرّ إليه لقضاء حاجته و يودُّ أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتّى يستغني عن بيت الماء و هذا على التحقيق ليس محبّاً لبيت الماء فكلّ ما يراد به للتوصّل إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصّل إليه ، و تدرك التفرقة بمثال و هو أنّ الرّجل قد يحبّ زوجته من حيث أنّه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام ولو كفي مؤونة الشهوة لكان يهجر زوجته كما لو كفي قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء و لا يدور به ، و قد يحبّ زوجته لذاتها حبّ العشّاق و لو كفي الشهوة لبقي مستصحباً لنكاحها ، فهذا هو الحبّ دون الأوّل ، و كذلك الجاه و المال قد يحبّ كل واحد منهما على هذين الوجهين فحبّهما لأجل التوصّل إلى مهمّات البدن غير مذموم و حبّهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ولكنّه لايوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحبّ على مباشرة معصية وما لم يتوصّل به إلى اكتسابه بكذب وخداع و ارتكاب محظور ، و مالم يتوصّل إلى اكتسابه بعبادة ، فإنّ التوصّل إلى المال و الجاه بالعبادة جناية على الدّين و هو حرامٌ و إليه يرجع معنى الرّياء المحظور كما سيأتي .

فإن قلت : طلب الجاه و المنزلة في قلب اُستاده و خادمه و رفيقه و سلطانه

و من يرتبط به أمره مباحٌ على الإطلاق كيفما كان ؟ أو مباح إلى حدّ مخصوص أو على وجه مخصوص ؟ فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه ، وجهان منها مباح و وجه منها محظور أمّا المحظور فهوأن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة و هو منفكّ عنها مثل العلم و الورع و النسب فيظهرلهم أنّه علويّ أو عالم أو ورع و هولا يكون كذلكفهذا حرامٌ لأنّه تلبيس و كذب إمّا بالقول وإمّا بالفعل ، وأمّا أحدالمباحين فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متّصف بها كقول يوسف عليه السلام : « اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظٌ عليم » (١) فإنّه طلب المنزلة فيقلبه بكونه حفيظاً عليماً وكان محتاجاً إليه و كان صادقاً فيه ، و الثاني أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه و معصيةمن معاصيه حتّى لا يعلمه فلا تزول منزلته به ، فهذا أيضاً مباح لأنّ حفظ الستر على القبائح جائز ولا يجوز هتك الستر و إظهار القبيح فهذا ليس فيه تلبيس بلهوسدّ لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به كالّذي يخفي عن السلطان أنّه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنّه ورع فإنّ قوله : إنّي ورع تلبيس وعدم إقراره بالشرب لايوجب إعتقاده الورع بل يمنع العلم بالشرب ، ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فإنّ ذلك رياء و هو ملبّس إذ يخيّل إليه أنّه من المخلصين الخاشعين لله وهومرائيٌ بما يفعله فكيف يكون مخلصاً ، فطلب الجاه بهذا الطريق حرام و كذا بكلّ معصية و ذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق و كما لا يجوز له أن يتملّك مال غيره بتلبيس في عوض أو في غيره فلا يجوز له أن يتملّك قلبه بتزوير و خداع فإنّ ملك القلوب أعظم من ملك الأموال .

✿(بيان السبب في حبّ المدح والثناء)✿

✿(و ارتياح النفس به وميل الطباع اليه و بغضها للذم و نفرتها منه)✿

إعلم أنّ لحبّ المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب السبب الأوّل وهو الأقوى : شعور النفس بالكمال فإنّا بيّنا أنّ الكمال محبوبٌ وكلّ محبوب فإدراكه لذيذ فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزّت وتلذّذت ، والمدح يشعر نفس الممدوح

(١) يوسف : ٥٤ .

بكمالها فإنّ الوصف الّذي به مدح لا يخلو إمّا أن يكون جلياً ظاهراً أو يكون مشكوكاً فيه، فإنّ كان جلياً ظاهراً محسوساً كانت اللّذّة فيه أقلّ ولكنّه لايخلو عن لذّة كثنائه عليه أنّه طويل القامة أبيض اللّون، فإنّ هذا نوع كمال و لكنّ النفس تغفل عنه فتخلوعن لذّته فإذا استشعرت به لم يخل حدوث الشعور عن حدوث اللّذّة، و إن كان ذلك الوصف ممّا يتطرّق إليه الشكّ فاللّذّة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أوبالحسن المطلق، فإنّ الإنسان ربّما يكون شاكّاً في كمال حسنه وفي كمال علمه و كمال ورعه ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشكّ بأن يصير مستيقناً لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تطمئنّ نفسه إليه فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة و سكوناً وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذّته و إنّما تعظم اللّذّة بهذه العلّة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في القول إلّا عن تحقيق و ذلك كفرح التلميذ بثناء اُستاذه عليه بالكياسة و الذّكاء و غزارة الفضل فإنّه في غاية اللّذّة فإن صدر ممّن يجازف في الكلام أو لا يكون بصيراً في ذلك الوصف ضعفت اللّذّة، وبهذه العلّة يبغض الذّمّ أيضاً و يكرهه لأنّه يشعره بنقصان في نفسه و النقصان ضدّ الكمال المحبوب فهوممقوت و الشعور به مؤلم و لذلك يعظم الألم إذا صدر الذّمّ من بصير موثوق به في ذلك كما ذكرناه في المدح.

السبب الثاني أنّ المدح يدلّ على أنّ قلب المادح مملوك للممدوح و أنّه مريد له ومعتقد فيه و مسخّر تحت مشيّته، و ملك القلوب محبوب و الشعور بحصوله لذيذ، وبهذه العلّة تعظم اللّذّة مهما صدر الثناء ممّن تتّسع قدرته و ينتفع باقتناص قلبه كالملوك و الأكابر، ويضعف مهماكان المثني ممّن لا يؤبه له و لايقدر على شيء فإنّ القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلايدلّ المدح إلّا على قدرة قاصرة، و بهذه العلّة أيضاً يكره الذّمّ ويتألّم به القلب، و إذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأنّ الفائت به أعظم.

السبب الثالث أنّ ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كلّ من يسمعه لا سيّما إذا كان ذلك ممّن يلتفت إلى قوله ويعتدّ بثنائه، وهذا يختصّ بثناء يقع

على الملاء فلا جرم كلّما كان الجمع أكثر و المثني أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألذّ و الذّمّ أشدّ على النفس .

السبب الرّابع أنّ المدح يدلّ على حشمة الممدوح و اضطرار المادح إلى إطلاق اللّسان بالثناء عليه إمّا عن طوع و إمّا عن قهرفان الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر و القدرة و هذه اللّذّة تحصل و إن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به ولكن كونه مضطرّاً إلى ذكره نوع قهر و استيلاء عليه فلا جرم تكون لذّته بقدر تمنّع المادح وقوّته فيكون لذّة ثناء القويّ الممتنع عن التواضع بالثناء أشدّ ، فهذه الأسباب الأربعة قد يجتمع في مدح مادح واحد فيعظم به الالتذاذ ، وقد تفترق فتنقص اللّذّة به أمّا العلّة الأولى و هي استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنّه غير صادق في مدحه كما إذا مدح بأنّه نسيب أو سخيّ أو عالم بعلم أو متورّع عن المحظورات و هو يعلم من نفسه ضدّ ذلك فتزول اللّذّة الّتي سببها استشعار الكمال وتبقى لذّة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقيّة اللّذّات ، فان كان يعلم أنّ المادح ليس يعتقد ما يقوله و يعلم بخلّوه عن هذه الصفة بطلت اللّذّة الثانية و هو استيلاؤه على قلبه و بقيت لذّة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فان لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللّعب بطلت اللّذّات كلّها فلم يكن فيه أصلاً لذّة لفوات الأسباب الثلاثة ، فهذا ما يكشف الغطاء عن علّة التذاذ النفس بالمدح وتألّمها بسبب الذّم وإنّما ذكرناه ليعرف طريق العلاج لحبّ الجاه و حبّ المحمدة وخوف المذمّة ، فانّ ما لا يعرف سببه لايمكن معالجته إذ العلاج عبارة عن حلّ أسباب المرض .

✿(بيان علاج حب الجاه)✿

إعلم أنّ من غلب على قلبه حبّ الجاه صار مقصور الهمّ على مراعاة الخلق ، مشعوفاً بالتودّد إليهم و المراياة لأجلهم ، و لا يزال في أقواله و أفعاله و أعماله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم و ذلك بذر النفاق و أصل الفساد و يجرّ ذلك لامحالة إلى التساهل في العبادات و المراياة بها ، وإلى اقتحام المحظورات للتوصّل إلى اقتناص

القلوب ولذلك شبّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حبّ الشرف و المال وإفسادهما للدّين بذئبين ضاريين و قال : « إنّه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل » [(١)] إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أوالفعل و كلّ من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطرّ إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هوخال عنها ، وذلك هوعين النفاق ، فحبّ الجاه إذاً من المهلكات فيجب علاجه وإزالته عن القلب فإنّه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حبّ المال ، وعلاجه مركّب من علم وعمل ، أمّا العلم فهو أن يعلم السبب الّذي لأجله أحبّ الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم ، وقد بيّنّا أنّ ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت ، فليس من الباقيات الصالحات ، بل لو سجد لك كلّ من على وجه الأرض من المشرق إلى المغرب و إلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ، وتكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له ، فهذا لا ينبغي أن يترك به الدّين الّذي هو الحياة الأبديّة الّتي لا انقطاع لها ، و من فهم الكمال الحقيقيّ والكمال الوهميّ - كما سبق - صغر الجاه في عينه ، إلّا أنّ ذلك إنّما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنّه يشاهدها و يستحقر العاجلة و يكون الموت كالحاصل عنده ، و أبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لايمتدّ نورها إلى مشاهدة العواقب و لذلك قال تعالى : « بل تؤثرون الحيوة الدّنيا و الآخرة خير و أبقى » [(٢)] وقال تعالى : « كلّا بل تحبّون العاجلة ۞ و تذرون الآخرة» [(٣)] إلى غيرها من الآيات ، فمن هذا حدّه فينبغي أن يعالج قلبه في حبّ الجاه بالعلم بالآفات العاجلة و هو أن يتفكّر في الأخطار الّتي يستهدف لها أرباب الجاه في الدّنيا ، فإنّ كلّ ذي جاه محسود و مقصود بالإيذاء و خائف على الدّوام على جاهه ومحترز من أن تتغيّر منزلته في القلوب و القلوب أشدّ تغيّراً من القدر في غليانها وهي متردّدة بين الإقبال و الإعراض ، فكلّ ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبني على أمواج البحر فإنّه لاثبات له ، و الاشتغال

(١) تقدم آنفاً .

(٢) الاعلى : ١٦ . (٣) القيامة : ٢٢ و٢٣ .

بمراعاة القلوب و حفظ الجاه و دفع كيد الحسّاد ومنع أذى الأعداء اشتغال عن الله و تعرّض لمقته في العاجل والآجل، كلّ ذلك غموم عاجلة مكدّرة للذّة الجاه، فلا يفي في الدّنيا أيضاً مرجوّها بمخوفها فضلاً عمّا يفوت في الآخرة، فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة، و أمّا من نفدت بصيرته وقوي إيمانه لم يلتفت إلى الدّنيا، فهذا هو العلاج من حيث العلم.

و أمّا من حيث العمل فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتّى يسقط من أعين الخلق و تفارقه لذّة القبول و يأنس بالخمول و يردّ الخلق ويقنع بالقبول من الخالق، وهذا هومنهاج الملامتيّة إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه و هذا غير جائز لمن يقتدى به فإنّه يوهن الدّين في قلوب المسلمين، وأمّا الّذي لايقتدى به فلا يجوز له أن يقدّم على محظور لأجل ذلك بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس كما روي أنّ بعض الملوك قصد بعض الزّهاد فلمّا علم بقربه منه استدعى طعاماً وبقلاً و أخذ يأكل بشره و يعظم اللّقم فلمّا نظر إليه الملك سقط من عينه و انصرف، فقال الزّاهد: الحمد لله الّذي صرفك عنّي، و منهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر حتّى يظنّ به أنّه يشرب الخمر فيسقط من الأعين، وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه إلّا أنّ أرباب الأحوال ربّما يعالجون أنفسهم بما لايفتي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم، ثمّ يتدار كون مافرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم فإنّه عرف بالزّهد و أقبل الناس عليه فدخل حمّاما ولبس ثوب غيره وخرج و وقف في الطريق حتّى عرفوه فأخذوه و ضربوه و استردّوا منه الثياب و قالوا: إنّه طرّار وهجروه، وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس و الهجرة إلى موضع الخمول، فإنّ المعتزل في بيته في البلدة الّتي هو بها مشهور لايخلو عن حبّ المنزلة الّتي ترسّخ له في القلوب بسبب عزلته فربما يظنّ أنّه ليس محبّاً لذلك الجاه وهو مغرور، وإنّما سكنت نفسه لأنّها قد ظفرت بمقصودها و لو تغيّر الناس عمّا اعتقدوا فيه و ذمّوه أو نسبوه إلى أمر غير لايق به جزعت نفسه

و تألّمت وربّما توصّلت إلى الاعتذار عن ذلك و إماطة ذلك الغبار عن قلوبهم ، وربّما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولايبالي به وبه يتبيّن بعد أنّه محبّ للجاه و المنزلة ، ومن أحبّ الجاه و المنزلة فهو كمن أحبّ المال بل هو شرّ منه فإنّ فتنة الجاه أعظم ، ولايمكنه أن لايحبّ المنزلة في قلوب الناس مادام يطمع في الناس ، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة اُخرى وقطع طمعه عن الناس رأساً أصبح الناس كلّهم عنده كالأراذل ، فلا يبالي أكانت له منزلة في قلوبهم أولم تكن كما لا يبالي ذلك في قلوب الّذين هم منه في أقصى الشرق لأنّه لايراهم و لا يطمع فيهم ، و لا يقطع الطمع عن الناس إلّا بالقناعة ، فمن قنع استغنى عن الناس ، و إذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن ولايتمّ ترك الجاه إلّا بالقناعة و قطع الطمع . و يستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذمّ الجاه ومدح الخمول و الذّل مثل قولهم : « المؤمن لا يخلو من ذلّة أوعلّة أو قلّة ». و ينظر في أحوال السلف و إيثارهم الذّل على العزّ ورغبتهم في ثواب الآخرة .

✿(بيان وجه العلاج لحب المدح و كراهة الذم)✿

إعلم أنّ أكثر الخلق إنّما هلكوا بخوف مذمّة الناس وحبّ مدحهم فصارت حركاتهم كلّها موقوفة على مايوافق رضا الناس رجاءً للمدح وخوفاً من الذمّ ، و ذلك من المهلكات فيجب معالجته و طريقة ملاحظة الأسباب الّتي لأجلها يحبّ المدح و يكره الذمّ .

أمّا السبب الأوّل : فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك و تقول لنفسك : هذه الصفة الّتي يمدحك بها أنت متّصف بها أم لا ؟ فإن كنت متّصفاً بها فهي إمّا صفة تستحقّ بها المدح كالعلم و إمّا صفة لا تستحقّ بها المدح كالثروة والجاه والأعراض الدّنيويّة ، فإن كان من الأعراض الدّنيويّة فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الّذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرّياح ؛ وهذا من قلّة العقل ، بل العاقل يقول :

أشدّ الغمّ عندي في سرور ✿ تيقّن عنه صاحبه ارتحالاً

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعرض الدّنيا ، و إن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها و المدح ليس هو سبب وجودها ، و إن كانت الصفة ممّا يستحقّ الفرح بها كالعلم و الورع فينبغي أن لا يفرح بها لأنّ الخاتمة غير معلومة و هذا إنّما يقتضي الفرح لأنّه يقرّب عند الله زلفى و خطر الخاتمة باق ، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكلّ ما في الدّنيا بل الدّنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح و سرور ، ثمّ إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم و التقوى لا بمدح المادح فإنّ اللّذة في استشعار الكمال و الكمال موجود من فضل الله لا من المدح و المدح تابع له ، فلا ينبغي أن تفرح بالمدح و المدح لا يزيدك فضلاً ، وإن كانت الصفة الّتي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجهل ، ومثالك مثال من يهزؤ به إنسان ويقول له : سبحان الله ما أكثر العطر الّذي في أحشائه و ما أطيب الرّوايح الّتي تفوح منه إذا قضى حاجته ، وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار و الأنتان ، ثمّ يفرح بذلك ، فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطّلع على خبائث باطنك و غوائل سريرتك و أقذار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل ، فإذاً المادح إن صدق فليكن فرحك بصفاتك الّتي هي من فضل الله عليك و إن كذب فينبغي أن يغمّك ذلك ولا تفرح به .

و أمّا السبب الثاني : و هو دلالة المدح على تسخّر قلب المادح و كونه سبباً لتسخير قلب آخر فهذا يرجع إلى حبّ الجاه و المنزلة في القلوب و قد سبق وجه معالجته وذلك بقطع الطمع عن الناس و طلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أنّ طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك بها يسقط منزلتك عند الله فكيف تفرح به ؟.

و أمّا السبب الثالث : و هو حشمة الّتي اضطرّت المادح إلى المدح فهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لاثبات لها ولا تستحقّ الفرح بها ، بل ينبغي أن يغمّك مدح المادح وتكرهه وتغضب به كما نقل ذلك عن السلف لأنّ آفة المدح على الممدوح عظيمة كما ذكرناه في كتاب آفة اللّسان ، قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد

أمكن الشيطان من أن يدخل في قلبه .

و قال بعضهم : إذا قيل لك : نعم الرّجل أنت ؛ فكان أحبّ إليك من أن يقال لك : بئس الرّجل أنت ، فأنت والله بئس الرّجل .

و روي في بعض الأخبار ما لو صحّ فهو قاصم للظهور : إنّ رجلاً أثنى على رجل خيراً عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : « لو كان صاحبك حاضراً فرضي بالّذي قلت فمات على ذلك دخل النار »(١).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم مرّة للمادح : « ويحك قطعت ظهره ولو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة »(٢).

و قال عليه السلام : « ألا لا تمادحوا ، و إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب »(٣) فلهذا كان الصحابة على وجل عظيم من المدح وفتنته ، وما يدخل على القلب من السرور به ، وإنّما كرهوا المدح خيفة من أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق وكان اشتغال قلوبهم بأحوالهم عند الله يبغّض إليهم مدح الخلق لأنّ الممدوح على الحقيقة هو المقرّب إلى الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد عن الله الملقى في النار مع الأشرار ، فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره و إن كان من أهل الجنّة فلا ينبغي أن يفرح إلّا بفضل الله وثنائه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق ، ومهما علم أنّ الآجال والأرزاق بيد الله تعالى قلّ التفاته إلى مدح الخلق وذمّهم و سقط من قلبه حبّ المدح و اشتغل بما يهمّه من أمر دينه .

(بيان علاج كراهة الذم)

قد سبق أنّ العلّة في كراهة الذّمّ هو ضدّ العلّة في حبّ المدح ، فعلاجه أيضاً

(١) قال العراقي : لم اجده أصلا .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢٢٧ والبخاري ج ٨ ص ٢٢ بالفاظ مختلفة و قد تقدم .

(٣) أخرجه احمد في المسند والطبراني في الكبير دون قوله : « الا لاتمادحوا » و رجاله رجال الصحيح من حديث ابن عمر وقد تقدم .

يفهم منه . و القول الوجيز فيه أنّ من ذمّك لا يخلو من ثلاثة أحوال .

إمّا أن يكون قد صدق فيما قال و قصده النصح و الشفقة . و إمّا أن يكون صادقاً ولكن قصده الإيذاء و التعنّت ، أو يكون كاذباً .

فإن كان صادقاً و قصده النصح فلا ينبغي أن تذمّه و تغضب عليه و تحقد بسببه ، بل ينبغي أن تتقلّد منّته ، فإنّ من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك لك حتّى تتّقيه ، فينبغي أن تفرح به و تشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها ، فأمّا اغتمامك بسببه و كراهتك له و ذمّك إيّاه فإنّه غاية الجهل . و إن كان قصده التعنّت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به ، أو ذكّرك عيبك إن كنت غافلاً عنه ، أو قبّحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته ، و كلّ ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه ، فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمّة ، فمهما قصدت الدّخول على ملك و ثوبك ملوّث بالعذرة و أنت لا تدري ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحزّ رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة فقال لك قائل : أيّها الملوّث بالعذرة طهّر نفسك ، فينبغي أن تفرح به لأنّ تنبّهك بقوله غنيمة ، و جميع مساوي الأخلاق مهلكة في الآخرة والإنسان إنّما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن تغتنمه ، فأمّا قصد العدوّ التعنّت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت أنت به وتضرّر هو به ؟.

الحالة الثالثة : أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله فينبغي أن لا تكره ذلك و لا تشتغل بذمّه بل تتفكّر في ثلاثة اُمور : أحدها أنّك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله و أخواته وما ستر الله من عيوبك أكثر فاشكر الله إذ لم يطّلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء منه ، والثاني أنّ ذلك كفّارات لبقيّة مساويك وذنوبك ، و كأنّه رماك بعيب أنت بريء منه وطهّرك من ذنوب أنت ملوّث بها ، و كلّ من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته و كلّ من مدحك فقد قطع ظهرك ، فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات الّتي تقرّبك إلى الله

وأنت تزعم أنّك تحبّ القرب من الله . و أمّا الثالث فهو أنّ المسكين قد جنى على دينه حتّى سقط من عين الله جلّ وعزّ وأهلك نفسه بإفترائه و تعرّض لعقابه الأليم فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان و تقول : « اللّهمّ أهلكه » بل ينبغي أن تقول : « اللّهمّ أصلحه ، اللّهمّ تب عليه ، اللّهمّ ارحمه » كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله إذ قال : « اللّهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون »[1] لمّا أن ضربوه ، ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شجّ رأسه بالمغفرة ، فقيل له في ذلك ، فقال : علمت أنّي مأجور بسببه و ما نالني منه إلّا خير ، فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي . وممّا يهوّن عليك كراهة المذمّة قطع الطمع ، فإنّ من استغنيت عنه مهما ذمّك لم يعظم أثر ذلك في قلبك ، و أصل الدّين القناعة و بها ينقطع الطمع عن الجاه و المال ، و مادام الطمع قائماً كان حبّ الجاه و المدح في قلب من طمعت فيه غالباً ، و كانت همّتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة ، و لا ينال ذلك إلّا بهدم الدّين ، فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحبّ المدح ومبغض الذّمّ في سلامة دينه فإنّ ذلك بعيدٌ جدّاً .

✿(بيان اختلاف احوال الناس فى المدح و الذم)✿

إعلم أنّ للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذّامّ والمادح .

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح و يشكر المادح و يغضب من الذّمّ و يحقد على الذّامّ و يكافئه أو يحبّ مكافأته . و هذا حال أكثر الخلق و هو غاية درجات المعصية في هذا الباب .

الحالة الثانية أن يتبغّض في الباطن على الذّامّ ولكن يمسك لسانه وجوارحه من مكافأته ، ويفرح باطنه و يرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور ، و هذا من النقصان إلّا أنّه بالإضافة إلى ماقبله كمال .

الحالة الثالثة : وهي أوّل درجات الكمال أن يستوي عنده ذامّه ومادحه فلا تغمّه

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة والحديث فى الصحيح أنه صلى الله عليه و آله قاله حكاية عن نبى من الانبياء حين ضربه قومه . (المغنى)

المذمّة ولاتسرّه المدحة . و هذا قد يظنّه بعض العبّاد بنفسه و يكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته ، و علاماته أن لا يجد في نفسه استثقالاً للذّامّ عند تطويله الجلوس عنده أكثر ممّا يجده في المادح و أن لا يجد في نفسه زيادة هزّة (١) ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق مايجده في قضاء حاجة الذّام ، وأن لايكون انقطاع الذّامّ عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح ، وأن لايكون موت المادح المطري له أشدّ نكاية في قلبه من موت الذّامّ ، وأن لايكون غمّه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر ممّا يكون بمصيبة الذّامّ ، و أن لاتكون زلّة المادح أخفّ على قلبه و في عينه من زلّة الذّامّ . فمهما خفّ الذّامّ على قلبه كماخفّ المادح و استويا من كلّ وجه فقد نال هذه الرّتبة و ما أبعد ذلك و ما أشدّه على القلوب ، و أكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لايشعرون حيث لايمتحنون أنفسهم بهذه العلامات .

وربّما يشعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذّامّ ، والشيطان يحسّن له ذلك و يقول له : الذّامّ قد عصى الله بمذمّتك و المادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوّي بينهما فإنّما استثقالك للذّامّ من الدّين المحض ، وهذا محض التلبيس ، فإنّ العابد لو تفكّر علم أنّ في الناس من ارتكب من كبائر المعاصي أكثر ممّا ارتكبه الذّامّ في مذمّته ، ثمّ إنّه لايستثقلهم ولاينفر عنهم ، ويعلم أنّ المادح الّذي مدحه لايخلو عن مذمّة غيره و لا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمّة غيره كما يجد لمذمّة نفسه ، والمذمّة من حيث أنّها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أوغيره ، فإذاً العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يتبغّض ، ثمّ الشيطان يخيّل إليه أنّه من الدّين حتّى يغترّه على الله بهواه فيزيده على ذلك بعداً من الله ، و من لم يطّلع على مكائد الشيطان و آفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضايع يفوت عليه الدّنيا ويخسره في الآخرة وفيهم قال الله تعالى : «قل هل نُنَبِّئُكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيُهم في الحيوة الدّنيا و هم يَحْسَبُونَ أنّهم يُحْسِنونَ صنعاً » (٢).

---

(١) الهزة - بكسر الهاء - : النشاط والارتياح .

(٢) الكهف : ١٠٣ .

الحالة الرّابعة وهي الصدق في العبادة أن يكره المدح و يمقت المادح إذ يعلم أنّه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرّ له في الدّين و يحبّ الذّامّ إذ يعلم أنّه مهد إليه عيوبه و مرشد له إلى مهمّه و مهد إليه حسناته ، و قد قال ﷺ : « رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبرّ و التقوى » (١) و قد روي في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صحّ إذ روي أنّه ﷺ قال : « ويلٌ للصائم و ويلٌ للقائم ، و ويلٌ لصاحب الصوف إلّا من .... فقيل : يارسول الله إلّا من ؟ فقال : إلّا من تنزّهت نفسه عن الدّنيا و أبغض المدحة و استحبّ المذمّة » (٢) و هذا شديد جدًّا ، و غاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية ، وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذّامّ والمادح ولايظهره بالقول والعمل .

فأمّا الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح و الذّامّ فلسنا نطمع فيها ، ثمّ إن طالبنا نفسنا بعلامة الحالة الثانية ما وفت بها لأنّها لابدّ وأن نتسارع إلى إكرام المادح و قضاء حاجاته و نتثاقل عن إكرام الذّامّ و الثناء عليه و قضاء حوائجه ولا نقدر على أن نسوّي بينهما في الفعل الظاهر كما لانقدر عليه في سريرة القلب ومن قدر على التسوية بين المادح و الذّامّ في ظاهر الفعل فهو جديرٌ بأن يتّخذ قدوة في هذا الزّمان إن وجد فهو الكبريت الأحمر يتحدّث به ولا يرى ، فكيف بمابعده من المرتبتين ، و كلّ واحدة من هذه الرّتب فيها درجات أمّا الدّرجات في المدح فهو أنّ من الناس من تمنّى المدحة و الثناء و انتشار الصيت فيتوصّل إلى نيلها بكلّ ممكن حتّى يرائي بالعبادات ولا يبالي بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذامن الهالكين . ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ولايباشر المحظورات و هذا على شفا جرف هار فانهار به . فإنّ حدود الكلام الّذي يستميل به القلوب و حدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك

---

(١) قال العراقي : لم أجد له اصلا .

(٢) قال العراقي : لم اجده هكذا وذكره صاحب الفردوس من حديث أنس « ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله » ولم يخرجه ولده في مسنده .

أن يقع فيما لا يحلّ له ليتوصّل إلى نيل الحمد ، فهو قريب من الهالكين جدّاً . و منهم من لايريد المدحة ولا يسعى لطلبها ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلّف الكراهية فهوقريبٌ من أن يستجرّه فرط السرور إلى الرّتبة الّتي قبلها ، وإن جاهدنفسه في ذلك و كلّف قلبه الكراهية وبغّض السرور إليه بالتفكّر في آفات المدح فهو في خطر المجاهدة ، فتارة تكون اليدله و تارةتكون عليه ، و منهم من إذا سمع المدح لم يسرّ به و إذا سمع الذّمّ لم يغتمّ و لم يؤثر فيه وهذا على خير ، وإن كان قد بقي عليه بقيّة من الإخلاص ، و منهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح و ينكر عليه و أقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهوصادق فيه ، لا أن يظهر الغضب و قلبه محبّ له فإنّ ذلك عين النفاق لأنّه يريد أن يظهر من نفسه الاخلاص والصدق و هو مفلس عنه و كذلك بالضدّ من هذا تتفاوت الأحوال في حقّ الذّامّ ، و أوّل درجاته إظهار الغضب و آخرها إظهار الفرح ، ولايكون الفرح وإظهاره إلّا ممّن في قلبه حنقٌ و حقدٌ على نفسه لتمرّدها عليه و لكثرة عيوبها و مواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدوّ ، والإنسان يفرح ممّن يذمّ عدوّه ، وهذا شخص عدوّه نفسه فيفرح إذا سمع ذمّها و يشكر الذّامّ على ذلك و يعتقد فطنته و ذكاءه لما وقف على عيوبها فيكون ذلك كالتشفّي له من نفسه ويكون غنيمة عنده إذا صار بالمذمّة أوضع في أعين الناس حتّى لايبتلى بفتنة الناس ، و إذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون جبراً لعيوبه الّتي هو عاجز عن إماطتها ولوجاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة و هو أن يستوي عنده ذامّه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لايتفرّغ معه لغيره ، و بينه و بين السعادة عقبات كثيرة هذه إحدى تلك العقبات ، ولاينفع شيء منها إلّا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل .

✡(الشطر الثانى من الكتاب فى طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وهو الرّياء)✡

و فيه بيان ذمّ الرّياء ، و بيان حقيقة الرّياء وما يراءى به ، و بيان درجات الرّياء ، و بيان الرّياء الخفيّ ، و بيان ما يحبط العمل من الرّياء و ما لا يحبط ،

و بيان دواء الرّياء و علاجه ، وبيان الرّخصة في إظهار الطاعات ، وبيان الرّخصة في كتمان الذّنوب ، وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرّياء و الآفات ، وبيان ما يصحّ من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق ، و بيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها . وهي أحد عشر فصلاً .

✿(بيان ذمّ الرّياء)✿

إعلم أنّ الرّياء حرام و المرائي عند الله ممقوتٌ و قد شهدت لذلك الآيات و الأخبار والآثار .

أمّا الآيات فقوله تعالى : «فويلٌ للمصلّين ✿ الّذين هم عن صلاتهم ساهون ✿ الّذين هم يراؤون ✿ ويمنعون الماعون » (١).

و قوله تعالى : « و الّذين يمكرون السيّئات لهم عذابٌ شديدٌ ومكر اُولئك هو يبور » (٢) و قال مجاهد : هم أهل الرّياء .

و قال تعالى : « إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا »(٣) فمدح المخلصين بنفي كلّ إرادة سوى وجه الله ، والرّياء هوضدّه .

و قال تعالى : «فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربّه أحداً » (٤) ، نزل ذلك فيمن يطلب الأجر و الحمد بعباداته وأعماله وغيرذلك .

وأمّا الأخبارفقد قال صلّى الله عليه وآله حين سأله رجلٌ فقال : يا رسول الله : فيم النجاة ؟ فقال : « ألّا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس » (٥) وفي حديث الثلاثة ـ المقتول

---

(١) الماعون ٥ الى ٨ .

(٢) فاطر : ١٠« ويبور » اى يكسد ويفسد ويهلك . (٣) الانسان : ١٠ .

(٤) الكهف : ١١٠ وهو حديث أخرجه عبدالرزاق و ابن ابى الدنيا فى الاخلاص و ابن أبي‌حاتم والطبرانى والحاكم ج ٤ ص ٣٣٠ عن طاؤوس والبيهقى فى شعب الايمان موصولاعن طاؤوس عن ابن عباس . راجع الدرالمنثور ج ٤ ص ٢٥٥ .

(٥) لم أجده أصلا الا ما رواه الصدوق ـره ـ في أماليه عن رسول الله صلى الله عليه وآله « أنه سئل فيما النجاة غداً ؟ فقال : انما النجاة فى أن لا تخادعوا الله فيخدعكم فانه من يخادع الله يخدعه و يخلع منه الايمان ونفسه يخدع لو يشعر فقيل له : وكيف يخادع ←

في سبيل الله والمتصدّق بماله والقاري، لكتابه كما أوردناه في كتاب الإخلاص - فإنّ الله تعالى يقول لكلّ واحد منهم : « كذبت بل أردت أن يقال : فلانٌ شجاع ، كذبت بل أردت أن يقال : فلان جوادٌ ، كذبت بل أردت أن يقال : فلان قاري، ، فأخبر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّهم لم يثابوا و أنّ رياء هم هو الّذي أحبط أعمالهم »(١).

و عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من راءى راءى الله به و من سمع سمّع الله به »(٢).

و في حديث آخر طويل « إنّ الله تعالى يقول للملائكة : إنّ هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجّين »(٣).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصغر، قالوا : وما الشّرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرّياء يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : إذهبوا إلى الّذين كنتم تراؤون في الدّنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء »(٤).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « استعيذوا بالله من جبّ الحزن قيل : و ما هو يا رسول الله قال : وادي جهنّم اُعدّ للقرّاء المرائين »(٥).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يقول الله تعالى : من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كلّه وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشّرك »(٦).

← الله ؟ قال : يعمل بما امر الله به ثم يريد به غيره ، فاتقوا الله واجتنبوا الرّياء فانه شرك بالله ، ان المرائى يدعى يوم القيامة باربعة اسماء : يا كافر ، يا فاجر ، يا غادر ، يا خاسر حبط عملك و بطل أجرك ولاخلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممّن كنت تعمل له » انتهى .

(١) أخرجه مسلم والنسائي و الترمذي ج ٩ ص ٢٣٠ وحسنه وابن حبّان في صحيحه راجع الترغيب ج ١ ص ٥٢ .

(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٣٠ من حديث جندب . وفيه «يرائى»

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن ابى الدنيا في الاخلاص وابو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلاً (المغنى) ورواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٩٤ تحت رقم ٧ كما يأتي مع بيان له .

(٤) أخرجه احمد ج ٥ ص ٤٢٨ من حديث محمود بن لبيد .

(٥) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٣٠ وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٠٣ من حديث ابى سعيد الخدرى .

و قال عيسى صلوات الله عليه : « إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلاّ يرى الناس أنّه صائم وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله و إذا صلّى فليرخ ستر بابه فإنّ الله يقسم الثناء كما يقسم الرّزق ».

و قال نبيّنا صلى الله عليه و آله : « لايقبل الله عملاً فيه مقدار ذرّة من رياء » (١).

و عنه صلى الله عليه و آله «أدنى الرّياء شركٌ » (٢).

و قال صلى الله عليه و آله : « أخوف من أخاف عليكم الرّياء والشّهوة الخفيّة » (٣) وهي أيضاً ترجع إلى خفايا الرّياء ودقائقه.

و قال صلى الله عليه و آله : « إنّ في ظلّ العرش يومَ لاظلّ إلّا ظلّه رجلاً تصدّق بيمينه فكاد يخفيها عن شماله » (٤).

و لذلك ورد : « أنّ فضل عمل السرّ على عمل الجهر بسبعين ضعفاً » (٥).

و قال رسول الله صلى الله عليه و آله : « إنّ المرائي ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضلّ عملك وحبط أجرك ، إذهب فخذ أجرك ممّن كنت تعمل له » (٦).

و قال شدّاد بن أوس : رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله يبكي فقلت : ما يبكيك ؟ قال : «إنّي تخوّفت على اُمّتي الشّرك أما إنّهم لايعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولاحجراً ولكنّهم يراؤون بأعمالهم » (٧).

---

(١) قال العراقى : لم أجده هكذا .

(٢) أخرجه الحاكم ج ٣ ص ٢٧٠ و صحّحه . ورواه البيهقى فى الشعب عن معاذ بن جبل قال : سمعت النبى صلى الله عليه و آله يقول فى حديث له : « ان يسيراً من الرياء شرك . . الحديث » راجع الدر المنثور ج ٤ ص ٢٥٧ .

(٣) أخرجه ابن ماجه وقد تقدم اوّل الكتاب .

(٤) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٩٣ فى حديث عن ابى هريرة .

(٥) أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء باختلاف ومضمونه واحد .

(٦) قال العراقى : أخرجه ابن ابى الدنيا من رواية جبلة اليحصبى عن صحابى لم يسمّ وزاد « يا كافر ياخاسر» و لم يقل « يا مرائى » و اسناده ضعيف اه أقول : وقد مر مضمونه فى الهامش آنفاً .

(٧) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٣٣٠ باختلاف ، وابن ماجه تحت رقم ٤٢٠٥ بنحوه .

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لمّا خلق الله الأرض مادت بأهلها فخلق الجبال فصيّرها أوتاد الأرض فقالت الملائكة : ما خلق ربّنا خلقاً هو أشدّ من الجبال فخلق الله الحديد فقطع الجبل ، ثمّ خلق النار فأذاب الحديد ، ثمّ أمر الله تعالى الماء بإطفاء النار و أمر الرّيح فكدرت الماء ، فاختلفت الملائكة فقالت : نسأل الله تعالى فقالوا : يا ربّ ما أشدّ ما خلقت من خلقك ؟ قال الله تعالى : لم أخلق شيئاً هو أشدّ من [قلب] ابن آدم حين يتصدّق بيمينه بصدقة فيخفيها عن شماله فهذا أشدّ خلق خلقته »(١).

و روى عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنّه قال لمعاذ : حدّثني حديثاً سمعته من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : فبكى معاذ حتّى ظننت أنّه لا يسكت ثمّ سكت ، ثمّ قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : لي يا معاذ ، قلت : لبّيك بأبي أنت و اُمّي قال : إنّي محدّثك حديثاً إن أنت حفظته نفعك و إن أنت ضيّعته و لم تحفظه انقطعت حجّتك عند الله يوم القيامة ، يا معاذ إنّ الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات و الأرض ثمّ خلق السماوات ، فجعل لكلّ سماء من السبعة ملكاً بوّاباً عليها قد جلّلها عظماً فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى أن أمسى ، له نور كنور الشمس حتّى إذا صعدت به إلى السماء الدّنيا زكّته فكثّرته فيقول الملك للحفظة : اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربّي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري ، قال : ثمّ تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمرّ فتزكّيه وتكثّره حتّى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكّل بالسماء الثانية : قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنّه أراد بعمله هذا عرض الدّنيا أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنّه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم ، قال : و تصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نوراً من صدقة و صيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم

(١) أخرجه الترمذى ج ١٢ ص ٢٦٣ بادنى اختلاف . وقال : غريب لانعرفه الا من هذا الوجه .

الملك الموكّل بها : قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنّه كان يتكبّر على الناس في مجالسهم ، قال : و تصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدّرّيّ له دويّ من تسبيح و صلاة و حجّ و عمرة حتّى يجاوزوا به إلى السماء الرّابعة فيقول لهم الملك الموكّل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، اضربوا به ظهره وبطنه أنا صاحب العجب أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنّه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب في عمله ، قال : و تصعد الحفظة بعمل العبد يجاوزوا به إلى السماء الخامسة كأنّه العروس المزفوفة إلى بعلها فيقول لهم الملك الموكّل بها : قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنّه كان يحسد الناس من يتعلّم ويعمل بمثل عمله و كلّ من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدهم و يقع فيهم ، أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ، قال : و تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة و زكاة و حجّ و عمرة و صيام فيجاوزون به إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكّل بها : قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنّه كان لا يرحم إنساناً قطّ من عباد الله أصابه بلاء أو ضرّ بل كان يشمت به أنا ملك الرّحمة أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ، قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد و ورع له دويّ كدويّ الرّعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكّل بها : قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به جوارحه واقفلوا على قلبه إنّي أحجب عن ربّي كلّ عمل لم يرد به وجه ربّي إنّه أراد بعمله غير الله تعالى ، إنّه أراد رفعة عند الفقهاء ، و ذكراً عند العلماء ، وصيتاً في المدائن أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ، و كلّ عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائي ، قال : و تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة و زكاة وصيام وحجّ وعمرة و خلق حسن وصمت وذكر الله وتشيّعه ملائكة السماوات حتّى يقطعوا به الحجب كلّها إلى الله تعالى فيقفون بين يديه و يشهدون له بالعمل الصالح المخلص

لله قال: فيقول الله لهم: أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرّقيب على نفسه إنّه لم يردني بهذا العمل و أراد به غيري فعليه لعنتي، فتقول الملائكة كلّهم: عليه لعنتك و لعنتنا، و تقول السماوات كلّها: عليه لعنة الله ولعنتنا، وتلعنه السماوات السبع و من فيهنّ. قال معاذ: يا رسول الله أنت رسول الله و أنا معاذ، قال: اقتد بي و إن كان في عملك تقصير يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن و احمل ذنوبك عليك و لا تحملها عليهم، ولا تزكّ نفسك بذمّهم ولا ترفع نفسك عليهم، و لا تدخل عمل الدّنيا في عمل الآخرة و لا تتكبّر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك، ولا تناج رجلاً وعندك آخر، ولا تتعظّم على الناس فينقطع عنك خير الدّنيا، و لا تمزّق الناس فتمزّقك كلاب النار يوم القيامة في النار، قال الله تعالى: «والناشطات نشطاً»[1] تدري من هنّ يا معاذ قلت: ما هنّ بأبي أنت وأمّي يا رسول الله قال: كلاب في النار تنشط اللّحم والعظم، قلت: بأبي أنت و أمّي يا رسول الله فمن يطيق هذه الخصال و من ينجو منها؟ قال: يا معاذ إنّه ليسير على من يسّره الله عليه، قال: فما رأيت أحداً أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر ممّا في هذا الحديث»[2].

وقال علي عليه السلام: «للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا اُثني عليه، وينقص إذا ذمّ»[3].

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «قال الله تعالى: «أنا خير شريك من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلّا ما كان لي

---

(١) النازعات: ٢.

(٢) أخرجه بطوله ابن المبارك في الزهد عن رجل لم يسمه عن معاذ و رواه ابن حبان في غير الصحيح والحاكم وغيرهما ونقله المنذري في الترغيب ج ١ص ٦ وقال: آثار الوضع ظاهرة عليه في جميع طرقه و بجميع ألفاظه، ورواه ابن الجوزي في الموضاعات أيضا.

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٢ص ٢٩٥ وفيه «ويحب أن يحمد في جميع اموره» بدل قوله: «وينقص اذا ذم». وسيأتي عنقريب.

خالصاً » (١).

وعنه عليه السلام قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم طمعاً في الدّنيا، لا يريدون به ماعند ربّهم، يكون دينهم رياء، لايخالطهم خوف، يعمّهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم » (٢).

وعنه عليه السلام قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله تعالى: اجعلوها في سجّين إنّه ليس إيّاي أراد بها » (٣).

وبإسناده قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: « ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويحبّ أن يحمد في جميع اُموره » (٤).

وعنه عليه السلام قال: « قال أمير المؤمنين عليه السلام: اخشوا الله خشية ليست بتعذير واعملوا لله في غير رياء ولا سمعة، فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى عمله » (٥).

وعن أبيه الباقر عليه السلام قال: « الإبقاء على العمل أشدّ من العمل، قيل: وما الإبقاء على العمل؟ قال: يصل الرّجل بصلة، وينفق نفقة لله وحده لاشريك له فكتبت له سرّاً، ثمّ يذكرها فتمحى فتكتب له علانية (٦) ثمّ يذكرها فتمحى وتكتب له

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ٩.

(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٩٦ تحت رقم ١٤.

(٣) المصدر ج٢ ص ٢٩٥ تحت رقم٧، والابتهاج: السرور. وقوله «يصعد بعمل العبد» اى يشرع في الصعود. وقوله «فاذا صعد» اى تم صعوده ووصل الى موضع يعرض فيه الاعمال على الله تعالى. وقوله: «بحسناته» من قبيل وضع المظهر موضع المضمر، تصريحاً بان العمل من جنس الحسنات. و قوله: «اجعلوها في سجين» اى اثبتوا تلك الاعمال، او التي تزعمون أنها حسنات في ديوان الفجار الذى هو في سجين كما في قوله تعالى: «كلا ان كتاب الفجار لفي سجين».

(٤) المصدر ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ٨.

(٥) المصدر ج ٢ ص ٢٩٧ تحت رقم ١٧.

(٦) اى يصير ثوابه أخف.

رياء »[١].

و عن الصادق عليه السلام أنّه قال لعبّاد بن كثير البصري في المسجد : « ويلك يا عبّاد إيّاك و الرياء فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له »[٢].

و عنه عليه السلام « إجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس فإنّه ما كان لله فهو لله و ما كان للناس فلا يصعد إلى الله »[٣].

و عنه عليه السلام « كلّ رياء شرك ، إنّه من عمل للناس كان ثوابه على الناس و من عمل لله كان ثوابه على الله »[٤].

و عنه عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً »[٥] قال : الرّجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنّما يطلب تزكية الناس ، يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الّذي أشرك بعبادة ربّه ، ثمّ قال : ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيّام أبداً حتّى يُظهر الله له خيراً ، وما من عبد يسرّ شرّاً فذهبت الأيّام حتّى يُظهر الله له شرّاً »[٦].

و عنه عليه السلام قال : « ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويُسرّ سيّئاً ؟ أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أنّ ذلك ليس كذلك والله تعالى يقول : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » إنّ السريرة إذا صحّت قويت العلانية »[٧].

و عنه عليه السلام قال : « من أراد الله بالقليل من عمله أظهره الله له أكثر ممّا أراد ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه وسهر من ليله أبى الله إلّا أن يقلّله في عين من سمعه »[٨].

و عن الرّضا عليه السلام قال لمحمد بن عرفة : « ويحك يا ابن عرفة اعملوا لغير رياء

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٩٦ تحت رقم ١٦ .

(٢) الى (٤) المصدر ج ٢ ص ٢٩٣ تحت رقم ١ و ٢ و ٣ .

(٥) الكهف : ١١٠ .

(٦) الكافي ج ٢ ص ٢٩٣ تحت رقم ٤ .

(٧) المصدر ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ١١ .

(٨) المصدر ج ٢ ص ٢٩٦ تحت رقم ١٣ .

ولاسمعة فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل ، ويحك ما عمل أحد عملاً إلاّ ردّاه الله به ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ »[1] .

قال أبو حامد : وأمّا الآثار : رأى أبو أمامة رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال : أنت أنت لو كان هذا في بيتك .

و قال رجل لعبادة بن الصامت : اُقاتل بسيفي في سبيل الله اُريد وجه الله و محمدة الناس ؟ قال : لاشيء لك فسأله ثلاث مرّات كلّ ذلك يقول : لاشيء لك ، ثمّ قال في الثالثة : إنّ الله يقول « أنا أغنى الأغنياء عن الشّرك ـ الحديث ـ » .

و قال الحسن : لقد صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلّا مخافة الشّهرة . وإن كان أحدهم ليمرّ ويرى الأذى في الطريق فما منعه أن ينحّيه إلّا مخافة الشهرة ، ويقال : إنّ المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : يا غادر يا فاجر يا خاسر اذهب فخذ أجرك ممّن عملت له فلا أجر لك عندنا .

وقال الفضيل : كانوا يراؤون بما يعملون و صاروا اليوم يراؤون بما لا يعملون .

و قال عِكرِمة : إنّ الله يعطي العبد على نيّته ما لا يعطيه على عمله لأنّ النيّة لارياء فيها .

وقال الحسن : المرائي يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس : هو صالح . و كيف يقولون وقد حلّ من ربّه محلّ الارديا. فلابدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفه .

و قال قتادة : إذا راءى العبد يقول الله تعالى : انظروا إلى عبدي يستهزء بي .

و قال مالك بن دينار: القرّاء ثلاثة قرّاء الدّنيا وقرّاء الملوك وقرّاء الرّحمن .

و قال ابن المبارك : أن كان الرّجل ليطوف بالبيت و هو بخراسان ، فقيل : وكيف ذاك ؟ قال : يحبّ أن يذكر أنّه مجاور بمكّة .

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٩٤ تحت رقم ٥ . و قوله عليه السلام : « رداه » اي البسه الرداء يعني يلبسه الله تعالى ذلك العمل كالرداء .

و قال إبراهيم بن أدهم : ماصدق الله من أراد أن يشتهر .

✿ (بيان حقيقة الرّياء ومايراءى به) ✿

إعلم أنّ الرّياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع وإنّما الرّياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلّا أنّ الجاه و المنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات و اسم الرّياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلب بالعبادات وإظهارها ، فحدّ الرّياء هو إرادة المنزلة بطاعة الله تعالى فالمرائي هو العابد والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم لطلب المنزلة في قلوبهم و المراءى به هي الخصال الّتي قصد المرائي إظهارها و الرّياء هو قصده إظهار ذلك والمراءى به كثيرة وتجمعها خمسة أقسام وهي مجامع مايتزيّن به العبد للنّاس فهو البدن والزيّ والقول والعمل والأتباع والأشياء الخارجة و كذلك أهل الدّنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة إلّا أنّ طلب الجاه وقصد الرّياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرّياء بالطاعات .

القسم الأوّل : الرّياء في الدّين من جهة البدن و ذلك باظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدّة الاجتهاد و عظم الحزن على أمر الدّين و غلبة خوف الآخرة و ليدلّ بالنحول على قلّة الأكل و بالصفار على سهر اللّيل و كثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدّين و كذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدلّ به على استغراق الهمّ بالدّين وعدم التفرّغ لتسريح الشعر ، وهذه الأسباب مهما ظهرت استدلّ الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعو النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة و يقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ليستدلّ بذلك على أنّه مواظب على الصوم و أنّ وقار الشرع هو الّذي خفض من صوته أوضعف الجوع هو الّذي ضعف قوّته وعن هذا قال عيسى عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهّن رأسه ويرجّل شعره ويكحل عينيه و ذلك كلّه لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرّياء ولذلك قال ابن مسعود : أصبحوا صياماً مدهّنين ، فهذه مراياة أهل الدّين في البدن وأما أهل الدّنيا فيراؤون باظهار السمن و صفاء اللّون و اعتدال القامة و حسن الوجه ونظافة البدن

وقوّة الأعضاء و تناسبها .

الثاني الرّياء بالزيّ والهيئة أمّا الهيئة فبتشعيث شعر الرّأس وحلق الشارب وإطراق الرّأس في المشي والهدوء في الحركة و إبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب و لبس الصوف و تشميرها إلى قريب من نصف الساق و تقصير الأكمام و ترك تنظيف الثوب وتركه مخرقاً ، كلّ ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنّه متّبع للسنّة فيه و مقتدٍ فيه بعباد الله الصالحين ، ومنه لبس المرقّع والصلاة على السجّادة ولبس الثياب الزّرق تشبّهاً بالصوفيّة مع الإفلاس عن حقائق التصوّف في الباطن . و منه التقنّع بالإزار فوق العمامة ليرى به أنّه انتهى تقشّفه إلى الحذر من غبار الطريق ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميّزه بتلك العلامة و منه الدّرّاعة و الطيلسان يلبسه و هو خال من العلم ليوهم أنّه من أهل العلم .

والمراؤون بالزّيّ على طبقات منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزّهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائي بغلظها وقصرها ووسخها و تخرّقها ، ولو كلّف أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً ممّا كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذّبح و ذلك لخوفه أن يقول الناس : قد بدا له في الزّهد و رجع عن تلك الطريقة و رغب في الدّنيا . وطبقة اُخرى يطلبون القبول عند أهل الصّلاح وعند أهل الدّنيا من الملوك والتجّار ، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردّهم القرّاء ولو لبسوا الثياب المخرقة النازلة ازدرتهم أعين الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدّين و الدّنيا فلذلك يطلبون الأصواف الدّقيقة والأكيسة الرّقيقة و المرقّعات المصبوغة والفوط الرّفيعة فيلبسونها ، ولعلّ قيمة أثوابهم قيمة ثياب الاغنياء ، وهيئته ولونه لون ثياب الصلحاء ، فيلتمسون القبول عند الفريقين ، وهؤلاء لو كلّفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذّبح خوفاً من السقوط من أعين الملوك والأغنياء ، و لو كلّفوا لبس ثوب الدّيبقي والكتّان الرقيق الأبيض أو المقصّب المعلّم وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح : قد رغبوا في زيّ أهل الدّنيا و كلّ طبقة منهم رأى منزلته في زيّ مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى

مادونه أومافوقه وإن كان مباحاً خيفة من المذمّة . و أمّا أهل الدّنيا فمراءاتهم بالثياب النفيسة و المراكب الرّفيعة و أنواع التوسّع والتجمّل في الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيل و بالثياب المصبغة و الطيالسة النفيسة و ذلك ظاهر بين الناس ، فإنّهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة و يشتدّ عليهم لو برزوا للّناس على تلك الثياب مالم يبالغوا في الزّينة .

الثالث الرّياء بالقول و رياء أهل الدّين بالوعظ و التذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاورة إظهاراً لغزارة العلم و دلالة على شدّة العناية بأحوال السلف الصّالحين و تحريك الشفتين بالذّكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق وإظهار الغضب للمنكرات ، و إظهار الأسف على مقارفة الناس بالمعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام و ترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدلّ بذلك على الحزن و الخوف ، وادّعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ و الدّقّ على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنّه بصير بالأحاديث و المبادرة إلى أنّ الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه و المجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوّته في علم الدّين ، والرياء بالقول كثير وأنواعه لاتنحصر ، وأمّا أهل الدّنيا فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للإغراب على أهل الفضل وإظهار التودّد إلى الناس لاستمالة القلوب .

الرّابع الرّياء بالعمل كمراءاة المصلّي بطول القيام و مدّ الظهر و تطويل السجود و الرّكوع و إطراق الرأس و ترك الالتفات و إظهار الهدوء و السكون و تسوية القدمين و اليدين ، و كذلك بالصوم و الغزو و الحجّ و بالصدقة و بإطعام الطعام و بالإخبات في المشي عند اللّقاء كإرخاء الجفون و تنكيس الرأس و الوقار في الكلام حتّى أنّ المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا اطّلع عليه أحد من أهل الدّين رجع إلى الوقار ، وإطراق الرأس خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة و قلّة الوقار ، فان غاب الرّجل عاد إلى عجلته فاذا رآه عاد إلى خشوعه و لم

يحضره ذكر الله حتّى يكون يجدّد الخشوع له بل هو لاطّلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنّه من العبّاد و الصلحاء. و منهم من إذا سمع هذا استحيى من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس فيكلّف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتّى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير و يظنّ أنّه يتخلّص به عن الرّياء و قد تضاعف به رياؤه فإنّه صار في خلوته أيضاً مرائياً فإنّه إنّما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا لخوف من الله و حياء منه، و أمّا أهل الدّنيا فمراءاتهم بالتبختر والاختيال و تحريك اليدين و تقريب الخطا والأخذ بأطراف الذّيل و إدارة العطفين ليدلّوا بذلك على الجاه و الحشمة.

الخامس المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالّذي يتكلّف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال: إنّ فلاناً قد زار فلاناً، أو عابداً من العباد ليقال: إنّ أهل الدّين يتبرّكون بزيارته و يتردّدون إليه، أو ملكاً من الملوك أو عاملاً من عمّال السلطان ليقال: إنّهم يتبرّكون به لعظم رتبته في الدّين، و كالّذي يكثر ذكر الشيوخ ليري أنّه لقي شيوخاً كثيرة و استفاد منهم، فيباهي بشيوخه و مباهاته و مراءاته تترشّح منه عند مخاصمته، فيقول لغيره: و من لقيت من الشيوخ؟ و أنا قد لقيت فلاناً و فلاناً و درت البلاد و خدمت الشيوخ، وما يجري مجراه، فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون و كلّهم يطلبون به الجاه و المنزلة في قلوب العباد، و منهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه، فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة و كم من عابد اعتزل إلى قلّة جبل مدّة مديدة و إنّما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنّهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوّش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته بل يشتدّ لذلك غمّه و يسعى بكلّ حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم مع أنّه قطع طمعه من أموالهم ولكنّه يحبّ مجرّد الجاه فإنّه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه فإنّه نوع قدرة واستيلاء و كمال في الحال وإن كان سريع الزّوال لا يغترّ به إلّا الجهّال ولكن أكثر الناس جهّال، ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللّسان بالثناء و الحمد، ومنهم من يريد انتشار الصيت في

البلاد لتكثر الرّحلة إليه، ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته و تنجز الحوائج على يديه فيقوم له به جاه عند العامّة، ومنهم من يقصد التوصّل بذلك إلى جمع حطام و كسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام وهؤلاء شرّ طبقات المرائين الّذين يراؤون بالاسباب الّتي ذكرناها. فهذه حقيقة الرّياء وما به يقع الرّياء.

﴿فصل﴾

فإن قلت: فالرّياء حرام؟ أو مكروه؟ أو مباح؟ أو فيه تفصيل؟.

فأقول: فيه تفصيل فإنّ الرّياء هو طلب الجاه وهو إمّا أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنّه طلب منزلة في قلوب العباد ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورة فكذلك الجاه و كما أنّ كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمودٌ فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات محمودٌ وهو الّذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال: «إنّي حفيظٌ عليمٌ» وكما أنّ المال فيه سمٌّ ناقع وترياق نافع فكذلك الجاه و كما أنّ كثير المال يلهي ويطغي وينسى ذكر الله والدّار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشدّ وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال و كما أنّا لا نقول: تملّك المال الكثير حرام فلا نقول أيضاً: تملّك القلوب الكثيرة حرام إلّا إذا حملته كثرة المال و كثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز، نعم انصراف الهمّ إلى سعة الجاه مبدء الشرور كانصراف الهمّ إلى كثرة المال ولا يقدر محبّ الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللّسان و غيرها و أمّا سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه و من غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ومَن بعده من علماء الدّين ولكن انصراف الهمّ إلى طلب الجاه نقصان في الدّين ولا يوصف بالتحريم فعلى هذا نقول تحسين الثوب الّذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة و هو ليس بحرام لأنّه ليس رياء بالعبادة بل بالدّنيا وقس على هذا كلّ تجمّل للناس وتزيّن لهم والدّليل

عليه ما روي عن عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أراد يوماً أن يخرج على أصحابه فكان ينظر في حبّ من الماء ويسوّي عمامته و شعره فقالت : أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ فقال : نعم «إنّ الله يحبّ من العبد أن يتزيّن لإخوانه إذا خرج إليهم»[1]، نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبادة لأنّه كان مأموراً بدعوة الخلق و ترغيبهم في الاتّباع و استمالة قلوبهم ، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتّباعه فكان يجب عليه أن يظهر لهم من محاسن أحواله لكيلا تزدريه أعينهم فإنّ أعين عوام الخلق تمتدّ إلى الظواهر دون السرائر فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن لو قصد قاصدٌ به أن يحسن نفسه في أعينهم حذراً من ذمّهم ولومهم واسترواحاً إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمراً مباحاً إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمّة ويطلب راحة الأُنس بالإخوان ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم ، فإذاً المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحاً وقد تكون طاعة وقد تكون مذمومة و ذلك بحسب الغرض المطلوب بها ولذلك نقول الرّجل إذا أنفق ماله على جماعة من الاغنياء لا في معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنّه سخيٌّ فهذا مراءاة ليس بحرام و كذلك أمثاله .

أمّا العبادات كالصدقة والصلاة والغزو والحجّ فللمرائي فيه حالتان إحداهما أن لا يكون له قصد إلّا الرّياء المحض دون الأجر و هذا يبطل عبادته لأنّ الأعمال بالنيّات و هذا ليس بقصد العبادة ثمّ لا يقتصر على إحباط عبادته حتّى نقول : صار كما كان قبل العبادة بل يعصي بذلك و يأثم لما دلّت عليه الأخبار والآيات ، والمعنيُّ فيه أمران أحدهما يتعلّق بالعبادة وهو التلبيس والمكر لأنّه خيّل إليهم أنّه مخلص مطيع لله و أنّه من أهل الدّين وليس كذلك ، والتلبيس في أمر الدّنيا أيضاً حرام حتى لو قضى دين جماعة وخيّل إلى الناس أنّه متبرّعٌ عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم بذلك لما فيه من التلبيس و تملّك القلوب بالخداع والمكر ، والثاني يتعلّق بالله وهو أنّه مهما قصد بعبادة الله خلق الله فهو مستهزىء بالله ولذلك قال قتادة : إذا رائي العبد قال الله تعالى لملائكته : انظروا إليه كيف يستهزىء بي . و مثاله أن تمثّل بين يدي

(١) قال العراقى : أخرجه ابن عدى فى الكامل من حديث عائشة .

ملك من الملوك طول النّهار كما جرت عادة الخدم وإنّما وقوفك لملاحظتك جارية من جواري الملك أو غلاماً من غلمانه فإنّ هذا استهزاء بالملك إذا لم تقصد التقرّب إلى الملك بخدمته بل قصدت به عبداً من عبيده فأيّ استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضرّاً ولا نفعاً و هل ذلك إلّا أنّه ظنّ أنّ ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنّه أولى بالتقرّب إليه من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته وأيّ استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى؟ فهذا من كبائر المهلكات ولهذا سمّاه رسول الله صلّى الله عليه وآله «الشرك الأصغر»[1] نعم بعض درجات الرّياء أشدّ من بعض كما سيأتي بيانه في درجات الرّياء. ولا يخلو شيء منه عن أثم غليظ أو خفيف بحسب مابه المراءاة ولو لم يكن في الرّياء إلّا أنّه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية فإنّه إذا لم يقصد التقرّب إلى الله فقد قصد غير الله ولعمري لو قصد غير الله بالسجود لكفر كفراً جليّاً إلّا أنّ الرّياء هو الكفر الخفيّ لأنّ المرائي عظم في قلبه النّاس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع لهم فكان الناس هم المعظّمون بالسجود من وجه و مهما زال قصد تعظيم الله بالسجود و بقي تعظيم الخلق كان ذلك قريباً من الشرك إلّا أنّه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله فعن هذا كان شركاً خفيّاً لا شركاً جليّاً وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلّا من خدعه الشيطان و أوهم عنده أنّ العباد يملكون من نفعه و ضرّه و رزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر ممّا يملكه الله تعالى فلذلك عدل بوجهه عن الله تعالى إليهم فأقبل بقلبه عليهم يستميل بذلك قلوبهم، ولو وكله الله إليهم في الدّنيا والآخرة لكان ذلك أقلّ مكافأة له على صنيعه فإنّ العباد كلّهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً فكيف لغيرهم، هذا في الدّنيا فكيف في يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً بل يقول الأنبياء فيه: نفسي نفسي فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدّنيا من النّاس فلا ينبغي أن نشكّ في أنّ المرائي بطاعة الله في

---

(١) أخرجه احمد في مسنده ج ٥ ص ٤٢٥ من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم.

سخط الله من حيث النقل والعقل جميعاً ، هذا إذا لم يقصد الأجر فأمّا إذا قصد الأجر والحمد جميعاً في صدقته أو صلاته فهو الشرك الّذي يناقض الإخلاص و قد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص ويدلّ على ما نقلناه في الآثارههنا على أنّه لا أجر فيه أصلاً .

(بيان درجات الرّياء)

إعلم أنّ بعض أبواب الرّياء أشدّ وأغلظ من بعض واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدّرجات فيه وأركانه ثلاثة المراءى به ، والمراءى لأجله ، ونفس قصد الرّياء .

الرّكن الأول نفس قصد الرّياء و ذلك لا يخلو إمّا أن يكون مجرّداً دون إرادة عبادة الله والثّواب و إمّا أن يكون مع إرادة الثواب فإن كان كذلك لا يخلو إمّا أن تكون إرادة الثواب أقوى و أغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العباد فتكون الدّرجات أربعاً .

الدّرجة الاُولى وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلاً كالّذي يصلّي بين أظهر النّاس ولو انفرد لكان لا يصلّي ، بل ربّما يصلّي من غير طهارة مع النّاس فهذا جرّد قصده إلى الرّياء فهو الممقوت عند الله ، و كذلك من يخرج الصّدقة خوفاً من مذمّة النّاس وهو لا يقصد الثّواب و لو خلا بنفسه لما أدّاها فهذه من الدّرجة العليا من الرّياء .

الدّرجة الثانية أن يكون له قصد الثواب أيضاً ولكن قصداً ضعيفاً بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل ولو لم يكن قصد الثواب لكان قصد الرّياء يحمله على العمل فهذا قريب ممّا قبله و ما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقلّ بحمله على العمل لا ينفي عنه المقت والإثم .

الدّرجة الثالثة أن يكون قصد الثواب و قصد الرّياء متساويين بحيث لو كان كلّ واحد خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل فلمّا اجتمعا انبعثت الرّغبة ، أو كان كلّ واحد منهما لو انفرد لاستقلّ بحمله على العمل فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأساً برأس لا له ولا عليه ، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدلّ على أنّه لا يسلم وقد تكلّمنا عليه في كتاب الإخلاص .

الدّرجة الرّابعة أن يكون اطّلاع الناس مرجّحاً ومقوّياً لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرّياء وحده لما أقدم عليه والّذي نظنّه - والعلم عند الله - أنّه لا يحبط أصل الثواب ولكنّه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرّياء ويثاب على مقدار قصد الثواب، وأمّا قوله صلّى الله عليه وآله: «يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك»(١) فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرّياء أرجح.

الرّكن الثاني المراءى به وهو الطاعات و ذلك ينقسم إلى الرّياء بأُصول العبادات و إلى الرّياء بأوصافها.

القسم الأوّل وهو الأغلظ الرّياء بالأصول و هو على ثلاث درجات:

الدّرجة الأُولى الرّياء بأصل الإيمان و هو أغلظ أبواب الرّياء وصاحبه مخلّد في النار و هو الّذي يظهر كلمتي الشّهادة و باطنه مشحون بالتّكذيب ولكنّه يرائي بظاهر الإسلام وهو الّذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتّى كقوله: «إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنّك لرسول الله والله يعلم إنّك لرسوله والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون»(٢) أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم.

و قال تعالى: «و من الناس من يعجبك قوله في الحيوة الدّنيا ويشهد الله على ما في قلبه و هو ألدّ الخصام ۞ وإذا تولّى سعى في الأرض - الآية -»(٣).

و قال تعالى: «و إذا لقوكم قالوا آمنّا و إذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ»(٤).

و قال تعالى: «يراؤون النّاس ولا يذكرون الله إلّا قليلاً»(٥) و الآيات فيهم كثيرة وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ممّن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لغرض و ذلك ممّا يقلّ في زماننا ولكن يكثر نفاق من ينسلّ من الدّين باطناً فيجحد الجنّة والنّار والدّار الآخرة ميلاً إلى قول الملحدة أو يعتقد طيّ بساط الشرع و

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٠٥ وقد تقدم. وأخرجه احمد ورجاله رجال الصحيح.
(٢) المنافقون: ٢. (٣) البقرة: ٢٠١ و٢٠٢.
(٤) آل عمران: ١١٦. (٥) النساء: ١٤٢.

الأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة أويعتقد كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلّدين في النّار وليس وراء هذا الرّياء رياء، و حال هؤلاء هو أشدّ من حال الكفّار المجاهرين لأنّهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر.

الدّرجة الثانية الرّياء بأُصول العبادات مع التّصديق بأصل الدّين و هذا أيضاً عظيم عندالله و لكنّه دون الأوّل بكثير، ومثاله أن يكون مال الرّجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزّكاة خوفاً من ذمّه والله يعلم منه أنّه لوكان في يده لماأخرجها أو يدخل وقت الصلاة و هو في جمع فيصلّي معهم وعادته ترك الصلاة في الخلوة و كذلك يصوم رمضان و هو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر و كذلك يحضر الجمعة و لولاخوف المذمّة لكان لايحضرها، أو يصل رحمه ويبرّ والديه لا عن رغبة في الثواب ولكن خوفاً من الناس، أو يغزو أويحجّ كذلك فهذا المرائي معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنّه لا معبود سواه ولو كلّف أن يعبد غيرالله أو يسجد لغيرالله لم يفعل ولكنّه يترك العبادات للكسل و ينشط عند اطّلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحبّ إليه من منزلته عند الخالق و خوفه من مذمّة النّاس أعظم من خوفه من عقاب الله و رغبته في محمدتهم أشدّ من رغبته في ثواب الله وهذا غاية الجهل، و ماأجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسلّ عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الدّرجة الثالثة أن لا يرائي بالإيمان و لا بالفرائض ولكنّه يرائي بالنوافل والسنن الّتي لوتركها لا يعصي ولكنّه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولإيثار لذّة الكسل على مايرجى من الثواب، ثمّ يبعثه الرّياء على فعله و ذلك كحضور الجماعة في الصّلاة وعيادة المريض واتّباع الجنازة و غسل الميّت و كالتهجّد باللّيل وصيام يوم عرفة ونحوذلك، فقديفعل المرائي جملة ذلك خوفاً من المذمّة أوطلباً للمحمدة، ويعلم الله تعالى أنّه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض، فهذا أيضاً عظيم و لكنّه دون ما قبله فإنّ الّذي قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق، و هذا أيضاً قد فعل ذلك و اتّقى ذمّ الخلق دون ذمّ الخالق فكأنّ ذمّ الخلق أعظم عنده من عقاب الله تعالى، و أمّا هذا فلم يفعل ذلك لأنّه لم يخف عقاباً على ترك

النافلة لو تركها وكأنه على الشطر من الأول وعقابه نصف عقابه ، فهذا هو الرياء بأصول العبادات .

القسم الثاني الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها وهي أيضاً على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين ، وقد قال ابن مسعود : من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه . أي أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة فإذا اطلع آدمي عليه أحسن الصلاة ، ومن جلس بين يدي إنسان متربعاً أو متكئاً فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك تقديماً للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة ، وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة ، وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفاً من مذمته ، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمة فهذا أيضاً من الرياء المحظور لأن فيه تقديماً للمخلوق على الخالق ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات .

فإن قال المرائي: إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة فإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية فيقال له : هذه مكيدة للشيطان وتلبيس وليس الأمر كذلك فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك من غيبة غيرك ، فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر وما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة إلى ملك لينال منه ولاية يتقلدها فيهديها إليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفاً من مذمة غلامه وذلك محال بل من يراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر .

نعم للمرائي فيه حالتان إحداهما أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس ، وذلك حرام قطعاً ، والثانية أن يقول : ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع

والسجود ولو خفّفت كان صلاتي عندالله ناقصة وآذاني الناس بذمّهم وغيبتهم وأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمّتهم ولا أرجو عليه ثواباً فهو خيرٌ من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب و تحصل المذمّة . فهذا فيه أدنى نظر والصحيح أنّ الواجب عليه أن يحسن و يخلص فإن لم تحضره النيّة فينبغي أن يستمرّ على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذّم بالمراءاة بطاعة الله فإنّ ذلك استهزاء كما سبق .

الدّرجة الثّانية أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه و لكن فعله في حكم التكملة والتتمّة لعبادته كالتطويل في الرّكوع والسجود و مدّ القيام وتحسين الهيئة و رفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الاُولى و تحسين الاعتدال والزّيادة في القراءة على السورة المعتادة و كذلك كثرة الخلوة في شهر رمضان و طول الصمت و كاختيار الأجود على الجيّد في الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية في الكفّارة و كلّ ذلك ممّا لو خلّي ونفسه لكان لا يقدم عليه .

الدّرجة الثالثة أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده الصفّ الأوّل وتوجّهه إلى يمين الامام وما يجري مجراه و كلّ ذلك ممّا يعلم الله منه أنّه لوخلا بنفسه لكان لايبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة فهذه درجات الرّياء بالاضافة إلى مايرائي به وبعضه أشدّ من بعض والكلّ المذموم .

الركن الثالث المراءى لأجله فإنّ للمرائي مقصوداً لا محالة فإنّما يرائي لإدراك مال أو غرض من الأغراض لا محالة ، وله أيضاً ثلاث درجات :

الدّرجة الأولى وهي أشدّها و أعظمها أن يكون مقصده التمكّن من معصية كالّذي يرائي بعباداته و يظهر التقوى والورع بكثرة النوافل و الامتناع من أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة ، فيولّى القضاء والأوقاف أوالوصايا أو مال الأيتام فيأخذها ، أو تسلّم إليه تفرقة الزّكوات أوالصّدقات ليستأثر بما يقدر عليه منها ، أو يودع الودايع فيأخذها و يجحدها ، أو تسلّم إليه الأموال الّتي تنفق في طريق الحجّ فيختزل بعضها أو كلّها ، أو يتوصّل بها إلى استتباع الحجيج و يتوصّل بقوّتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي ، وقد يظهر بعضهم زيّ التصوّف وهيئة الخشوع

و كلام الحكمة على سبيل الوعظ والتّذكير وإنّما قصده التحبّب إلى امرأة أوغلام لأجل الفجور ، وقد يحضرون في مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرّغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النّسوان والصّبيان أو يخرج إلى الحجّ و مقصوده الظفر بمن في الرّفقة من غلام أو امرأة وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنّهم جعلوا طاعة ربّهم سلّماً إلى معصيته ، واتّخذوه آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم ، و يقرب من هؤلاء - وإن كان دونهم - من هو مقترف بجريمة اتّهم بها وهو مصرّ عليها و يريد أن ينفي التّهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالّذي جحد وديعة واتّهمه الناس بها فيتصدّق بالمال ليقال : إنّه يتصدّق بمال نفسه فكيف يستحلّ مال غيره ، و كذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أوغلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع و إظهاره التقوى .

الدّرجة الثانية أن يكون غرضه نيل حظّ مباح من حظوظه الدّنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالّذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال وترغب في نكاحه النساء ، فيقصد إمّا امرأة بعينها لينكحها ، أو امرأة شريفة على الجملة ، وكالّذي يرغب في أن يتزوّج بنت عالم أو عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته فهذا رياء محظور لأنّه طلب بطاعة الله متاع الدّنيا و لكنّه دون الأوّل فإنّ المطلوب بهذا مباح في نفسه .

الدّرجة الثالثة أن يقصد نيل حظّ و إدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خيفة من أن ينظر إليه بعين النقص ولايعدّ من الخاصّة والزّهّاد و يعتقد أنّه من جملة العامّة ، كالّذي يمشي مستعجلاً فيطّلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال : إنّه من أهل اللّهو والسهو لا من أهل الوقار ، و كذلك يسبق إلى الضحك أو يبدر منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفّس الصّعداء و إظهار الحزن و يقول : ما أعظم غفلة الآدميّ عن نفسه ، والله يعلم منه أنّه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك ، وإنّما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير ، وكالّذي يرى جماعة يصلّون النوافل ويتهجّدون أو يصومون التطوّع

أو يتصدّقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً منه ، وكالّذي يعطش في اليوم الّذي يصام فيه تطوّعاً فلا يشرب خوفاً من أن يعلم النّاس أنّه غير صائم فإذا ظنّوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجلهم أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظنّ أنّه صائم وقد لا يصرّح بأنّه صائم ولكن يقول : لي عذر ، و هو جمع بين خبثين فإنّه يري أنّه صائم ثمّ يري أنّه مخلصٌ ليس بمراء و إنّه يحترز من أن يذكر عبادته للنّاس فيكون مرائياً فيريد أن يقال : إنّه ساتر لعباداته ، ثمّ إن اضطرّ إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلّل بمرض يقتضي فرط العطش و يمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطييباً لقلب فلان ثمّ قد لا يذكر ذلك متّصلاً بشربه كيلا يظنّ به أن يعتذر رياء و لكنّه يصبر ، ثمّ يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً مثل أن يقول : إنّ فلاناً محبّ للإخوان شديد الرّغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه و قد ألحّ عليّ اليوم ولم أجد بدّاً من تطييب قلبه ، و مثل أن يقول : إنّ أمّي ضعيفة القلب مشفقة عليّ تظنّ أنّي لو صمت يوماً مرضت فلاتدعني أن أصوم ، فهذا وما يجري مجراه علامات الرّياء فلا تسبق إلى اللّسان إلّا لرسوخ عرق الرّياء في الباطن ، وأمّا المخلص فإنّه لايبالي كيف نظر الخلق إليه فإن لم يكن له رغبة في الصوم و قد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره فيه مايخالف علم الله فيه فيكون ملبّساً ، وإن كانت له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله ولم يشرك فيه غيره ، و قد يخطر له أنّ في إظهاره اقتداء غيره به و تحريك رغبة النّاس فيه ، وفيه مكيدة وغرور و سيأتي شرح ذلك وشروطه فهذه درجات الرّياء و مراتب أصناف المرائين ، و جميعهم تحت مقت الله و غضبه و هو من أشدّ المهلكات و إنّ من شدّته أنّ فيه شوائب هي أخفى من دبيب النملة كما ورد به الخبر[1] ، يزلّ فيه فحول العلماء فضلاً عن العبّاد الجهّال بآفات النفوس و غوائل القلوب .

---

(١) رواه البزار من حديث عائشة والطبرانى من حديث ابى موسى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى بكر راجع المغنى و مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٢٣ .

✿ (بيان الرّياء الخفي الّذي هو أخفى من دبيب النّمل) ✿

إعلم أنّ الرّياء جليّ وخفيّ ، فالجليّ هو الّذي يبعث على العمل ويحمل عليه لولا قصد الثواب ، وهو أجلاه ، و أخفى منه قليلاً هو ما لا يحمل على العمل بمجرّده إلّا أنّه يخفّف العمل الّذي اُريد به وجه الله كالّذي يعتاد التهجّد كلّ ليلة و يثقل عليه فإذا دخل عليه الضيفان نشط له وخفّ عليه و علم أنّه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلّي لمجرّد رياء الضيفان وأخفى من ذلك ما لا يؤثّر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنّه مع ذلك مستبطنٌ في القلب ومهما لم يؤثّر في الدّعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلّا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسرّ باطّلاع الناس على طاعته ، فربّ عبد مخلص في عمله لا يعتقد الرّياء بل يكرهه و يردّه و يتمّم العمل كذلك ولكنّ إذا اطّلع عليه الناس سرّه ذلك وارتاح له و روّح ذلك عن قلبه شدّة العبادة ، و هذا السرور يدلّ على رياء خفيّ منه يترشّح السّرور ، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطّلاع الناس ، فلقد كان الرّياء مستكنّاً في القلب استكنان النّار في الحجر فأظهر منه اطّلاع الخلق أثر الفرح و السرور ، ثمّ إذا استشعر لذّة السرور بالاطّلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتاً و غذاء للعرق الخفيّ من الرّياء حتّى يتحرّك على نفسه حركة خفيّة فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلّف سبباً يطّلع عليه بالتعريض وإلقاء الكلام عرضاً ، وإن كان لا يدعو إلى التصريح . وقد يخفى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً وتصريحاً ولكن بالشمائل كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الرّيق و آثار الدّموع و غلبة النعاس الدّال على طول التهجّد ، و أخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطّلاع ولا يسرّ بظهور طاعته ، ولكنّه مع ذلك إذا رأى الناس أحبّ أن يبدؤوه بالسلام ، و أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير ، و أن يثنوا عليه ، و أن ينشطوا في قضاء حوائجه ، و أن يسامحوه في البيع والشراء ، و أن يوسّعوا له في المكان ، وإن قصّر فيه مقصّر ثقل على قلبه و وجد لذلك استبعاداً في نفسه كأنّ نفسه يتقاضى الاحترام على الطّاعة الّتي أخفاها مع أنّه لم يطّلع عليه ولو لم يكن قد سبقت منه تلك الطاعة

لما كان يستبعد تقصير الناس في حقّه ، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كلّ مايتعلّق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله تعالى ، و لم يكن خالياً عن شوب خفيّ من الرّياء أخفى من ديبب النمل و كلّ ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولايسلم منه إلّا الصدّيقون . وقد روي عن عليّ عليه السلام أنّه قال : « إنّ الله عزّ وجلّ يقول للقرّاء يوم القيامة[1] : ألم يكن يرخّص عليكم السعر ؟ ألم تكونوا تبتدؤون بالسلام ؟ ألم تكن تقضى لكم الحوائج ». وفي الحديث الآخر - « لاأجر لكم قداستوفيتم اُجوركم » .

و قال عبدالله بن المبارك : روي عن وهب أنّه قال : إنّ رجلاً من السوّاح قال لأصحابه : إنّا إنّما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر ممّا دخل على أهل الأموال في أموالهم إنّ أحدنا إذا لقي أحبّ أن يعظّم لمكان دينه ، وإن اشترى شيئاً أحبّ أن يرخّص عليه لمكان دينه ، وإن سأل حاجة أحبّ أن تقضى له لمكان دينه . فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكبه من الناس فإذا السهل و الجبل قد امتلأ بالناس ، فقال السائح : ماهذا قيل : هذا الملك قد أظلّك ، فقال للغلام : ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر فجعل يحشو شدقه و يأكل أكلاً عنيفاً ، فقال الملك : أين صاحبكم ، قالوا : هذا قال : كيف أنت ؟ قال : كالناس - و في حديث آخر - : بخير ، فقال الملك : ماعند هذا من خير ، فانصرف عنه . وقال السّائح : الحمدلله الّذي صرفك عنّي وأنت لي ذامّ .

فلم يزل المخلصون خائفين من الرّياء الخفيّ يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصّالحة يحرصون على إخفائها أعظم ممّا يحرص الناس على إخفاء فواحشهم كلّ ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق إذ علموا أنّ الله لايقبل في القيامة إلّا الخالص و علموا شدّة حاجتهم و فاقتهم في القيامة و أنّه يوم لاينفع فيه مال ولا بنون ، ولايجزي و الدعن ولده ، و يشتغل الصدّيقون بأنفسهم فيقول كلّ واحد : نفسي نفسي ، فضلاً عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذا توجّهوا إلى مكّة فإنّهم يستصحبون مع أنفسهم الذّهب المغربي الخالص

(١) في بعض النسخ [للفقراء يوم القيامة] .

لعلمهم بأنّ أرباب البوادي لايروّج عندهم الزايف ، والحاجة تشتدّ في البادية ، ولا وطن يفزع إليه ، ولاحميم يتمسّك به ، فلاينجي إلّا الخالص من النّقد ، فهكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزّاد الّذي يتزوّدونه له التقوى فإذن شوائب الرّياء الخفيّ كثيرة لاتنحصر ومهما أدركت النفس تفرقة بين أن يطّلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرّياء فإنّه لمّا قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أوالصبيان الرّضّع أوغابوا ، اطّلعوا على حركته أولم يطّلعوا ، ولوكان مخلصاً قانعاً بعلم الله لاستحقر عقلاء العبادِ كما استحقر صبيانهم و مجانينهم ، و علم أنّ العقلاء لايقدرون له على رزق ولاأجل و زيادة ثواب ونقصان عقاب ، كمالايقدر عليه البهائم و الصبيان والمجانين ، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب رياء خفيّ ولكن ليس كلّ شوب محبطاً للاجر و مفسداً للعمل بل فيه تفصيل .

فان قلت : فمانرى أحداً ينفكّ عن السّرور إذا عرفت طاعاته فالسّرور مذموم كلّه أو بعضه محمود ؟ .

فنقول أوّلا : كلّ سرور فليس بمذموم بل السّرور منقسم إلى محمود ومذموم ، فأمّا المحمود فأربعة :

الاوّل : أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ولكن لمّا اطّلع عليه الخلق علم أنّ الله اطّلعهم عليه و أظهر الجميل من أحوالهم فيستدلّ به على حسن صنيع الله به ونظره له والطافه به فإنّه يستر الطاعة و المعصية ، ثمّ الله يستر عليه المعصية و يظهر الطاعة ، فلا لطف أعظم من ستر القبيح و إظهار الجميل ، فيكون فرحه بجميل نظرالله له لابحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم ، وقد قال الله تعالى : « قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا » (١) و كأنّه ظهر له أنّه عندالله مقبول ففرح به .

الثاني : أن يستدلّ بإظهار الله الجميل و ستره القبيح عليه في الدّنيا أنّه كذلك يفعل به في الآخرة إذقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ماستر الله على عبد ذنباً في الدّنيا

(١) يونس : ٥٨ .

إلّا ستر عليه في الآخرة »[1] فيكون الاوّل فرحاً بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل وهذا التفات إلى المستقبل .

الثالث : أن يظنّ رغبة المطّلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بماظهر آخراً ، و أجر السّرّ بما قصده أوّلاً ، ومن اقتدى به في طاعة فله أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من اُجورهم شيء ، و توقّع ذلك جديرٌ بأن يكون سبب السرور ، فإنّ ظهور مخائل الرّبح لذيذٌ وموجبٌ للسرور لامحالة .

الرّابع : أن يحمده المطّلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحتهم وبحبّهم للمطيع ، و بميل قلوبهم إلى الطاعة إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أويذمّه و يهزء به أو ينسبه إلى الرياء ولايحمده عليه ، فهذا فرح بحسن إيمان عبادالله ، وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إيّاه .

وأمّا المذموم فهو الخامس وهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتّى يمدحوه و يعظّموه و يقوموا بقضاء حوائجه و يقابلوه بالإكرام في مصادره و موارده فهذا مكروه .

✲ (بيان مايحبط العمل من الرّياء الخفيّ و الجليّ ومالايحبط) ✲

فنقول : إذا عقدالعبدالعبادة على الإخلاص ثمّ ورد وارد الرّياء فلايخلو إمّا أن يرد بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرّد بالظهور من غير إظهار فهذا لايحبط العمل إذ العمل قد تمّ على نعت الإخلاص سالماً عن الرّياء فما يطرأ بعده فنرجو أن لاينعطف عليه أثره لاسيما إذا لم يتكلّف هو إظهاره و التحدّث به ، ولم يتمنّ ذكره و إظهاره ولكن اتّفق ظهوره بإظهارالله إيّاه ولم يكن منه إلّا مادخل من السّرور والارتياح على قلبه .

أقول : و يدلّ على هذا مارواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام « أنّه سئل عن

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ من حديث ابى هريرة .

الرّجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسرّه ذلك ؟ قال : لابأس مامن أحد إلّا وهو يحبّ أن يظهر الله له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك » [١].

وقد روي أنّ رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : « يارسول الله اُسرّ العمل لا اُحبّ أن يطّلع عليه أحد فيطّلع عليه فيسرّني ؟ قال : لك أجران أجر السرّ و أجر العلانية » [٢].

رواه أبوحامد في موضع آخر ، قال ههنا : نعم لو تمّ العمل على الإخلاص من غير عقد رياء و لكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدّث به و أظهره فهذا مخوف و في الآثار و الأخبار مايدلّ على أنّه محبط ، فقد روي عن ابن مسعود أنّه سمع رجلاً يقول : قرأت البارحة سورة البقرة قال : ذلك حظّه منها .

و روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال لرجل قال له : صمت الدّهر يارسول الله ، فقال له : « ماصمت ولا أفطرت » [٣]. فقال بعضهم إنّما قال ذلك لأنّه أظهره ، وقيل : هو إشارة إلى كراهة صوم الدّهر ، و كيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن ابن مسعود استدلالاً على أنّ قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرّياء و قصد له لما أن ظهر منه التحدّث به ، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلاً للثواب بل الأقيس أن يقال : إنّه مثاب على عمله الّذي مضى و معاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها بخلاف مالو تغيّر عقده إلى الرّياء قبل الفراغ فإنّ ذلك مبطل ، وأمّا إذا ورد وارد الرّياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً وكان قد عقد على

(١) المصدر ج ٢ ٢٩٧ تحت رقم ١٨ .

(٢) قال العراقى : أخرجه البيهقى فى شعب الايمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود . وروى الترمذى ج ٩ ص ٢٣١ من حديث أبى هريرة قال رجل : يا رسول الله الرجل يعمل العمل فيسره فاذا اطلع عليه أعجبه ذلك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «له أجران أجر السّر وأجر العلانية » و قال : هذا حديث حسن غريب .

(٣) أخرج الترمذى ج ٣ ص ٢٩٧ عن ابى قتادة قال : قيل : يارسول الله كيف بمن صام الدهر ؟ قال لاصام ولا أفطر ، أولم يصم ولم يفطر . و قال العراقى لم أجده بلفظ الخطاب .

الإخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرّياء فلا يخلو إمّا أن يكون مجرّد سرور لايؤثّر في العمل ، و إمّا أن يكون رياء باعثاً على العمل فإن كان باعثاً على العمل وختم العمل به حبط أجره ، و مثاله أن يكون في تطوّع فتجدّدت له نظارة أوحضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه أو يذكر شيئاً نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمّها خوفاً من مذمّة الناس فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة ، وقد قال ﷺ : « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوّله » (١) أي النظر إلى خاتمته .

وروي « من راءى بعمله ساعة حبط عمله الّذي كان قبله » (٢) وهو منزل على الصلاة في هذه الصورة لاعلى الصدقة ولا على القراءة ، فإنّ كلّ جزء منها منفرد فما يطرأ يفسد الباقي دون الماضي ، والصوم والحجّ من قبيل الصلاة ، فأمّا إذا كان وارد الرّياء بحيث لايمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب ، كما لوحضر جماعة في أثناء صلاته ففرح بحضورهم و عقد الرياء و قصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان لولاحضورهم لكان يتمّها أيضاً فهذا رياء قدأثر في العمل وانتهض باعثاً على الحركات ، فإن غلب حتّى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة و الثواب و صار قصد العبادة مغموراً ، فهذا أيضاً ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه ، لأنّا نكتفي بالنيّة السابقة عند الإحرام بشرط أن لايطرأ عليها مايغلبها ويغمرها ، ويحتمل أن يقال : لايفسد العبادة نظراً إلى حالة العقد وإلى بقاء أصل قصد الثواب ، و إن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه .

والأقيس أنّ هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادراً عن باعث الدّين ، و إنّما انضاف إليه سرور بالاطّلاع فلا يفسد العمل لأنّه لم ينعدم به أصل نيّته و بقيت تلك النيّة باعثة على العمل و حاملة على الإتمام .

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٩٩ من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظه وسنده ضعيف كما في الجامع الصغير ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب « من سمع سمع الله به و من راءى راءى الله به » رواه مسلم من حديث ابن عباس وقد تقدم .

أقول : وقد أسلفنا مايدلّ على ذلك من النصّ .

قال(١) : أمّا الأخبار الّتي وردت في الرّياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلّا الخلق ، و إمّا ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرّياء مساوياً لقصد الثواب أو أغلب منه أمّا إذا كان ضعيفاً بالإضافة إليه فلايحبط بالكلّية ثواب الصدقة و سائر الأعمال ولاينبغي أن يفسد الصلاة ، ولايبعد أيضاً أن يقال : إنّ الّذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله والخالص مالايشوبه شيء فلايكون مؤدّياً للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه ، وقد ذكرنا في (كتاب الإخلاص) كلاماً أوفى ممّا أوردناه الآن فليرجع إليه . فهذا حكم الرّياء الطارىء بعد عقد العبادة إمّا قبل الفراغ أو بعده .

القسم الثالث الّذي يقارن حال العقد بأن يبتدء الصلاة على قصد الرّياء فإن تمّ عليه حتّى يسلّم فلا خلاف في أنّه يعصي ولايعتدّ بصلاته ، و إن ندم عليه في أثناء ذلك و استغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه ، قالت فرقة : لم تنعقد صلاته مع قصد الرّياء فليستأنف ، و قالت فرقة : تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود ويفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة لأنّ التحريم عقد والرّياء خاطر في قلبه لايخرج التحريم عن كونه عقداً ، و قالت فرقة : لايلزمه إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتمّ العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة كما لو ابتدأها بالاخلاص وختم بالرّياء لكان يفسد عمله .

و شبّهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا اُزيل العارض عاد إلى الأصل ، فقالوا : إنّ الصلاة والركوع و السجود لاتكون إلّا لله ، ولو سجد لغير الله لكان كافراً ، ولكن قد اقترن به عارض الرّياء ثمّ إن زال بالندم و التوبة و صار إلى حالة لايبالي بحمد الناس و ذمّهم فتصحّ صلاته ، و مذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدّاً خصوصاً من قال : يلزمه إعادة الرّكوع والسجود دون الافتتاح . لأنّ الرّكوع والسجود إن لم يصحّ صارت أفعالاً زائدة في الصلاة فتبطل

(١) يعنى أباحامد .

الصلاة ، و كذلك قول من يقول لوختم بالإخلاص صحّ نظراً إلى الآخر فهوأيضاً ضعيف لأنّ الرّياء يقدح في النيّة و أولى الأوقات بمراعاة الأحكام النيّة حال الافتتاح فالّذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال : إن كان باعثه مجرّد الرّياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصحّ مابعده ، و ذلك في من إذا خلا بنفسه لم يصلّ ولمّا رآه الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه أيضاً نجساً كان يصلّي لأجل الناس فهذه صلاة لانيّة فيها إذالنيّة عبارة عن إجابة باعث الدّين ، وههنا لاباعث ولا إجابة . فأمّا إذا كان بحيث لولا الناس أيضاً لكان يصلّي إلّا أنّه ظهرت له الرّغبة في المحمدة أيضاً فاجتمع الباعثان ، فهذا إمّا أن يكون في صدقة أو قراءة وما ليس فيه تحليل و تحريم أو في عقد صلاة و حجّ ، فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرّياء و أطاع بإجابة باعث الثواب « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » فله ثواب بقدر قصده الصحيح و عقاب بقدر قصده الفاسد ، ولايحبط أحدهما الآخر ، و إن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرّق خلل إلى النيّة فلا يخلو إمّا أن تكون نفلاً أو فرضاً ، فإن كانت نفلاً فحكمها أيضاً حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه إذا اجتمع في قلبه الباعثان ، وأمّا إذا كان في فرض و اجتمع الباعثان و كان كلّ واحد منهما لايستقلّ وإنّما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لايسقط الواجب عنه لأنّ الإيجاب لم ينتهض باعثاً في حقّه بمجرّده واستقلاله ، وإن كان كلّ باعث مستقلاً حتّى لو لم يكن باعث الرّياء لأدّى الفرض ، ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوّعاً لأجل الرّياء فهذا في محلّ النظر ، و هو محتمل جدّاً ، فيحتمل أن يقال : إنّ الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤدّ الواجب الخالص ، ويحتمل أن يقال : الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لايمنع سقوط الفرض عنه كما لوصلّى في دار مغصوبة فإنّه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدّار المغصوبة فإنّه مطيع بأصل الصلاة و مسقط للفرض عن نفسه ، و تعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة ، أمّا إذاكان الرّياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة ، مثل

من بادر بالصلاة في أوّل الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخّرها إلى وسط الوقت ولو لاالفرض لكن لايبتدىء صلاة لأجل الرّياء فهذامّا يقطع بصحّة صلاته وسقوط الفرض به لأنّ باعث أصل الصلاة من حيث إنهّا صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت ، فهذا أبعد عن القدح في النيّة ، هذا في رياء يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه ، فأمّامجرّد السرور باطّلاع الناس عليه إذالم يبلغ أثره إلى حيث يؤثّر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة فهذا مانراه لايقاً بقانون الفقه ، و المسألة غامضة من حيث إنّ الفقهاء لم يتعرّضوا لها في فنّ الفقه ، و الّذين خاضوا فيها و تصرّفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ، ومقتضى فتاوي الفقهاء في صحّة الصلاة و فسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب و طلب الإخلاص على إفساد العبادات بأدنى الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه والعلم عندالله تعالى فيه .

(بيان دواء الرّياء وطريق معالجة القلب فيه)

لقد عرفت ممّا سبق أنّ الرّياء محبطٌ للأعمال و سبب للمقت عندالله و أنّه من كبائر المهلكات ، و ما هذا وصفه فجديرٌ بالتشمير عن ساق الجدّ في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمّل المشاقّ ، فلاشفاء إلّافي شرب الأدوية المرّة البشعة ، وهذه مجاهدة يضطرّ إليها العباد كلّهم ، إذالصبيّ يخلق ضعيف العقل و التمييز ، ممتدّ العين إلى الخلق ، كثير الطمع فيهم ، فيرى الناس يتصنّع بعضهم لبعض فيغلب عليه حبّ التصنّع بالضرورة ويترسّخ ذلك في نفسه وإنّما يشعر بكون ذلك مهلكاً بعد كمال عقله وقد انغرس الرّياء في قلبه وترسّخ فيه ، فلايقدر على قمعه إلّابمجاهدة شديدة ومكابدة لقوّة الشهوات ، فلاينفكّ أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ولكنّها تشقّ أوّلاً و تخفّ آخراً و في علاجه مقامان : أحدهما قطع عروقه و اُصوله الّتي منها انشعابه ، و الثاني دفع مايخطر منه في الحال .

المقام الأوّل في قطع عروقه و استئصال اُصوله ، و اُصوله : حبّ المنزلة والجاه ، و إذا فصّل رجع إلى ثلاثةاُصول وهو حبّ لذّة المحمدة والفرار من ألم المذمّة والطمع لما في أيدي الناس ، ويشهد للرّياء بهذه الأسباب وأنّها الباعثة للمرائي

ماروى أبو موسى أنّ أعرابياً سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول‌الله إنّ الرّجل يقاتل حمية - ومعناه أنّه يأنف أن يقهر أويذمّ بأنّه مقهورٌ مغلوبٌ - [وقال والرّجل يقاتل ليري مكانه - وهذا هو طلب لذّة الجاه و القدر في القلوب - ، والرّجل يقاتل للذكر - وهذا هوالحمد باللّسان] - فقال رسول‌الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة‌الله هي العليا فهو في سبيل الله » (١).

وقال ابن مسعود : إذاالتقى الصفّان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم ، فلان يقاتل للذكر ، و فلان يقاتل للملك . و القتال للملك إشارة إلى الطمع في الدّنيا .

و قال ﷺ : « من غزا لايبغي إلّا عقالاً فله مانوى » (٢) فهذه إشارة إلى الطمع ، وقد لايشتهي الحمد ولايطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذّمّ كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدّقون بالمال الكثير فإنّه يتصدّق بالقليل كيلايبخّل ، وهوليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره ، وكالجبان بين الشجعان لايفرّ من الزّحف خوفاً من الذّمّ وهو لايطمع في الحمد ، وقد هجم غيره على صفّ القتال ولكن إذا يئس من الحمد كره الذّمّ ، وكالرجل بين قوم يصلّون جميع اللّيل فيصلّي ركعات معدودة كيلايذمّ بالكسل وهو لايطمع في الحمد ، وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذّة الحمد ولايقدر على الصبر على ألم الذّمّ ، وكذلك قد يترك السؤال عن علم ماهو محتاج إليه خيفة من أن يذمّ بالجهل ويفتي بغير علم و يدّعي العلم بالحديث و هو به جاهل و كلّ ذلك حذراً من الذّمّ فهذه الأُمور الثلاثة هي الّتي تحرّك المرائي إلى الرّياء ، وعلاجه ماذكرناه في الشطر الأوّل من الكتاب على الجملة .

و لكنّا نذكر الآن ما يخصّ الرّياء ، و ليس يخفى أنّ الإنسان إنّما يقصد

(١) أخرجه مسلم ج٦ ص ٤٦ هكذا « أن رجلا سأل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم عن القتال في سبيل الله عزوجل فقال : الرجل يقاتل غضباً ويقاتل حمية ، قال : فرفع رأسه اليه و مارفع رأسه اليه الا أنه كان قائماً فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله » .

(٢) أخرجه النسائي ج ٦ ص ٢٤ من حديث عبادة بن صامت .

الشيء و يرغب فيه لظنّه أنّه خيرٌ له و نافع و لذيذ إمّا في الحال و إمّا في المآل، فإن علم أنّه لذيذٌ في الحال ولكنّه ضارٌّ في المآل سهل عليه قطع الرّغبة عنه كمن يعلم أنّ العسل لذيذٌ ولكن إذا بان له أنّ فيه سمّاً أعرض عنه، فكذلك طريق قطع هذه الرّغبة أن يعلم ما فيها من المضرّة، ومهما عرف العبد مضرّة الرّياء وما يفوته من صلاح قلبه و ما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عندالله و ما يتعرّض له من العقاب العظيم والمقت الشديد و الخزي الظاهر حيث ينادى به على رؤوس العباد: يا فاجر، يا غادر، يا مرائي أما استحييت إذا اشتريت بطاعةالله عَرَضَ الدّنيا، راقبت قلوب العباد واستهزأت بنظر الله تعالى، و تحبّبت إلى العباد بالتبغّض إلى الله، و تزيّنت لهم بالشين عندالله، و تقرّبت إليهم بالبعد من الله، و تحمّدت إليهم بالتذمّم عندالله، وطلبت رضاهم بالتعرّض لسخطالله، أما كان أحدٌ أهون عليك من الله، فمهما تفكّر العبد في هذا الخزي و قابل ما يحصل لهمن العباد والتزيّن لهم في الدّنيا بما يفوته من الآخرة، و ما يحبط عليه من ثواب الأعمال مع أنّ العمل الواحد ربّما كان يترجّح به ميزان حسناته لوخلص فإذا فسد بالرّياء حوّل إلى كفّة السيّئات فترجّح به ويهوي إلى النّار، فلولم يكن في الرّياء إلّا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره وإن كانت مع ذلك سائر حسناته راجحة فقدكان ينال بهذه الحسنة علوّ الرّتبة عندالله في زمرة النبيّين والصدّيقين وقدحطّ عنهم بسبب الرّياء وردّ إلى صفّ النعال من مراتب الأولياء، هذامع مايتعرّض له في الدّنيا من تشتّت الهمّ بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإنّ رضا الناس غاية لاتدرك، فكلّ ما يرضى به فريق يسخط به فريق، و رضا بعضهم في سخط بعضهم، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه و أسخطهم أيضاً عليه ثمّ أيّ غرض له في مدحهم و إيثار ذمّ الله لأجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته، وهو يوم القيامة، و أمّا الطمع بما في أيديهم فبأن يعلم أنّ الله تعالى هو المسخّر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأنّ الخلق مضطرّون فيه ولا رازق إلّا الله و من طمع في الخلق لم يخل من الذّل والخيبة، و إن وصل إلى المراد لم يخل عن المنّة والمهانة

فكيف يترك ما عندالله برجاء كاذب و وهم فاسد ، قد يصيب و يخطىء وإذا أصاب فلا تفي لذّته بألم منّته و مذلّته وأمّا ذمّهم فلم يحذر منه ولايزيده ذمّهم شيئاً مالم يكتبه الله عليه ، ولا يعجل أجله ولا يؤخّر رزقه ولا يجعله من أهل النّار إن كان من أهل الجنّة ، ولايبغّضه إلى الله إن كان محموداً عندالله ، ولا يزيده مقتاً إن كان ممقوتاً عند الله ، فالعباد كلّهم عجزة لايملكون لأنفسهم ضرّاً ولانفعاً ولا يملكون موتاً ولاحياةً ولا نشوراً ، فإذا قرّر في قلبه آفة هذه الأسباب و ضررها فترت رغبته و أقبل على الله قلبه ، فإنّ العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره و يقلّ نفعه و يكفيه أنّ الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرّياء و إظهار الإخلاص لمقتوه و سيكشف الله عن سرّه حتّى يبغّضه إلى الناس و يعرّفهم أنّه مرائي وممقوت عندالله ، ولوأخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحبّبه إليهم و سخّرهم له وأطلق ألسنتهم بحمده والثناء عليه ، مع أنّه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمّهم كما قال شاعر من بني تميم : إنّ مدحي زين وإنّ ذمّي شين ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « كذبت ذلك الله الّذي لا إله إلّا هو »[1] إذ لا زين إلّا في مدحه ولا شين إلّا في ذمّه فأيّ خير لك في مدح الناس وأنت عندالله مذمومٌ و من أهل النار ، و أيّ شرّ لك من ذمّ الناس و أنت عندالله محمودٌ و في زمرة المقرّبين ، فمن أحضر في قلبه الآخرة و نعيمها المؤبّد و المنازل الرّفيعة عندالله تعالى استحقر ما يتعلّق بالخلق أيّام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنّة والمنغّصات واجتمع همّه وانصرف إلى الله قلبه و تخلّص من مذلّة الرّياء ومقاساة قلوب الخلق وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره ، و ينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به اُنسه بالله و وحشته للخلق واستحقاره للدّنيا واستعظامه للآخرة وسقط محلّ الخلق من قلبه وانحلّ عنه داعية الرّياء وتذلّل له منهج الإخلاص فهذا و ما قدّمناه في الشطر الأوّل هي الأودية العلمية القالعة مغارس الرّياء .

---

(١) أخرجه احمد ج ٣ ص ٤٨٨ من حديث الاقرع بن حابس وهو قائل ذلك القول ، وقال العراقي : رجاله ثقات الا أنه رواه عن الاقرع ابو سلمة بن عبدالرّحمن ولا اعرف له سماعاً عن الاقرع . ورواه الترمذي من حديث البراء وحسنه بلفظ « فقال رجل : ان حمدي » .

و أمّا الدّواء العملي فهو أن يعوّد نفسه إخفاء العبادات و إغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش حتّى يقنع قلبه بعلم الله واطّلاعه على عبادته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به ، و قد روي أنّ بعض أصحاب أبي حفص الحدّاد ذمّ الدّنيا و أهلها فقال له أبو حفص : أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعدهذا . فلم يرخّص في إظهار هذا القدر لأنّ في ضمن ذمّ الدّنيا بعض دعوى الزّهد فيها فلا دواء للرّياء مثل الإخفاء وذلك يشقّ في بداية المجاهدة و إذا صبر عليه مدّة بالتكلّف سقط عنه ثقله ، وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله و ما يمدّ به عباده من حسن التوفيق والتأييد ولكن الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم ، فمن العبد المجاهدة و من الله الهداية ، و من العبد قرع الباب و من الله فتح الباب والله لا يضيع أجر المحسنين فإن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجراً عظيماً .

المقام الثاني في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لابدّ من تعلّمه أيضاً فإنّ من جاهد نفسه و قلع مغارس الرّياء من قلبه بالقناعة و قطع الطمع و أسقط نفسه من أعين المخلوقين واستحقر مدح المخلوقين و ذمّهم فالشيطان لايتركه في أثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الرّياء ولاتنقطع عنه نزغاته ، و هوى النفس و ميلها لا ينمحي بالكلّيّة فلابدّ وأن يتشمّر لدفع ما يعرض من خاطر الرّياء وخواطر الرّياء ثلاثة قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التّدريج فالأوّل العلم باطّلاع الخلق ورجاء اطّلاعهم ، ثمّ يتلوه هيجان الرّغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم ، ثمّ يتلوه هيجان الرّغبة في قبول النفس له والرّكون إليه وعقد الضمير على تحقيقه فالأوّل معرفة ، والثاني حالة تسمّى الشهوة والرّغبة ، والثالث فعل يسمّى العزم و تصميم العقد ، و إنّما كمال القوّة في دفع الخاطر الأوّل و ردّه قبل أن يتلوه الثاني ، فإذا خطر له معرفة اطّلاع الخلق أورجاء اطّلاعهم دفع ذلك بأن قال لنفسه : مالك وللخلق علموا أولم يعلموا ؟ و الله عالمٌ بحالك ، و أيّ فائدة في علم غيره ، فإن هاجت الرّغبة إلى لذّة الحمد تذكّر ما رسخ في قلبه من قبل في آفة الرّياء وتعرّضه للمقت عند الله تعالى في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله

فكما أنّ معرفة اطّلاع الناس تثير شهوة و رغبة في الرّياء ، فمعرفة آفة الرّياء أيضاً تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة إذ يتفكّر في تعرّضه لمقت الله وعقابه الأليم والشّهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإباء ، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما و أغلبهما ، فإذن لابدّ في ردّ الرّياء من ثلاثة أُمور : المعرفة ، والكراهة ، والإباء ، و قد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص ثمّ يرد خاطر الرّياء فيقبله و لا تحضره المعرفة ولا الكراهة الّتي كان الضمير منطوياً عليها و إنّما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذّمّ و حبّ الحمد و استيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متّسع لغيره فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرّياء و شؤم عاقبته إذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذّمّ و هو كالّذي يحدّث نفسه بالحلم و ذمّ الغضب و يعزم على التحلّم عند جريان سبب الغضب ، ثمّ يجري من الأسباب ما يشتدّ به غضبه فينسى سابق عزمه ويمتلي قلبه غيظاً يمنع من تذكّر آفة الغضب و يشتغل عنه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب و تدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب و إليه أشار جابر بقوله : « بايعنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تحت الشجرة على أن لا نفرّ ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين حتّى نودي يا أصحاب الشجرة فرجعوا » (١) و ذلك لأنّ القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتّى ذكروا ، وأكثر الشهوات الّتي تهجم فجأة هكذا تكون إذ تنسى معرفة مضرّته الدّاخلة في عقد الإيمان ، و مهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فإنّ الكراهة ثمرة المعرفة و قد يتذكّر فيعلم أنّ الّذي خطر له هو خاطر الرّياء الّذي يعرضه لسخط الله و لكن يستمرّ عليه لشدّة شهوته فيغلب هواه عقله و لا يقدر على ترك لذّة الحال ، فيسوّف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكّر في ذلك لشدّة الشهوة ، و كم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى ذكره إلّا رياء الخلق و هو يعلم ذلك ولكنّه يستمرّ عليه فتكون عليه الحجّة أو كدإذ قبل داعي الرّياء مع علمه بغائلته و كونه مذموماً

(١) أخرجه النسائي ج ٧ ص ١٤٠ دون قوله : « فأنسيناه يوم حنين الخ » فرواه مسلم ج ٥ ص ١٦٧ .

عندالله ولا تنفعه معرفته إذ خلت المعرفة عن الكراهة ، وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرّياء و يعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوّة الشهوة ، وهذا أيضاً لاينتفع بكراهته ، إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل .

فإذن لافائدة إلّا في اجتماع الثلاث وهي المعرفة والكراهة والإباء ، فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوّة المعرفة بحسب قوّة الإيمان ونور العلم ، و ضعف المعرفة بحسب الغفلة و حبّ الدّنيا و نسيان الآخرة و قلّة التفكّر فيما عند الله وقلّة التأمّل في آفات الحياة الدّنيا و عظيم نعيم الآخرة و بعض ذلك ينتج بعضاً و يثمره و أصل ذلك كلّه حبّ الدّنيا و غلبة الشهوة ، وهو رأس كلّ خطيئة و منبع كلّ ذنب ، لأنّ حلاوة حبّ الجاه و المنزلة و نعيم الدّنيا هي الّتي تغمر القلب و تميله و تحول بينه وبين التفكّر في العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنّة و أنوار العلوم .

فإن قلت : فمن صادف من نفسه كراهة بالرّياء وحملته الكراهة على الإباء و لكنّه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه و حبّه له و منازعته إيّاه إلّا أنّه كاره لحبّه ولميله إليه وغير محبّب إليه ، فهل يكون في زمرة المرائين ؟ .

فاعلم أنّ الله تعالى لم يكلّف العبد إلّا ما يطيق ، و ليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته و لا قمع الطمع حتّى لا يميل إلى الشهوات و لا ينزع إليها و إنّما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب ، و علم الدّين و اُصول الإيمان بالله واليوم الآخر فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلّف به ويدلُّ على ذلك من الأخبار ما روي أنّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله شكوا إليه وقالوا : تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخرّ من السماء فتخطفنا الطير أو تهوي بنا الرّيح في مكان سحيق أحبّ إلينا من أن نتكلّم بها ، فقال : أو قد وجدتموها ؟ قالوا : نعم ، قال : ذلك صريح الإيمان »(١) ولم يجدوا إلّا الوسواس والكراهة له ولا يمكن أن يقال : أراد

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٨٣ مختصراً من حديث ابن مسعود ورواه احمد ج ٦ ص ١٠٦ أيضاً من حديث عائشة . ورواه أبويعلى والبزار ورجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ١ ص ٣٤ و ٣٥ .

بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلّا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة والرّياء وإن كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حقّ الله تعالى فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى ، و كذلك يروى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في حديث ابن عبّاس أنّه قال : « الحمد لله الّذي ردّ كيد الشيطان إلى الوسوسة » (١).

و قال أبو حازم : ما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك فلا يضرّك ماهو من عدوّك ، و ماكان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه . فإذن وسوسة الشيطان و منازعة النّفس لاتضرّك مهماردّدت مرادهما بالإباء والكراهة . والخواطر الّتي هي العلوم و التذكّرات والتخيّلات للأسباب المهيّجة للرّياء هي من الشيطان . والرّغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس والكراهة من الإيمان و من آثار العقل إلّا أنّ للشيطان ههنا مكيدة و هو أنّه إذا عجز عن حمله على قبول الرّياء خيّل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الردّ والجدال حتّى يسلبه ثواب الإخلاص و حضور القلب ، لأنّ الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سرّ المناجاة مع الله عزّ وجلّ فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عندالله .

والمتخلّصون عن الرّياء في دفع خواطر الرّياء على أربع مراتب :

الأولى : أن يردّه على الشيطان فيكذّبه ولايقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته و يطيل الجدال معه لظنّه أنّ ذلك أسلم للقلب و هو على التحقيق نقصان لأنّه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الّذي هو بصدده و انصرف إلى قتال قطّاع الطريق و التعريج على قتال قطّاع الطريق نقصان في السلوك ، الثانية : أن يعرف أنّ القتال و الجدال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه و دفعه و لا يشتغل بمجادلته ، الثالثة : أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً لأنّ ذلك وقفة وإن قلّت ، بل يكون قدقرّر في عقد ضميره كراهة الرّياء و كذب الشيطان فيستمرّ على ما كان عليه مستصحباً للكراهة غير مشتغل بالتكذيب و لا بالمخاصمة ، الرابعة : أن يكون قد علم أنّ

---

(١) أخرجه احمد ج ١ ص ٢٣٥ من حديث ابن عباس ، و أيضا ابو داود ج ٢ ص ٦٢٣ فى حديث .

الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرّياء فيكون قد عزم على أنّه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص و الاشتغال بالله عزّ وجلّ و إخفاء الصدقة و العبادة غيظاً للشيطان ، و ذلك هو الّذي يغيظ الشيطان و يقمعه و يوجب يأسه و قنوطه حتّى لايرجع ، و يروى عن الفضيل بن غزوان أنّه قيل له : إنّ فلاناً ذكرك بسوء ، قال : والله لأغيظنّ مَنْ أمره ، قيل : و من أمره ؟ قال : الشيطان ، ثمّ قال : « اللّهمّ اغفرله » أي لأغيظنّه بأن اُطيع الله فيه ، ومهما عرف الشيطان من عبد اعتاد هذه العادة كفّ عنه خيفة من أن يزيد في حسناته ، وقال إبراهيم التيميّ : إنّ الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم فلا يطعه و ليحدث عند ذلك خيراً ، فاذا رآه كذلك تركه . و قال أيضاً : إذا رآك الشيطان متردّداً طمع فيك و إذا رآك مداوماً ملّك وقلاك (١).

و ضرب الحارث المحاسبيّ (٢) لهذه الأربعة مثالاً أحسن فيه فقال : مثالهم كأربعة قصدوا مجلساً من العلم والحديث لينالوا منه فائدة وهداية ورشداً ، فحسدهم على ذلك ضالّ مبتدع و خاف أن يعرفوا الحقّ ، فتقدّم إلى واحد منهم فمنعه وصرفه عنه و دعاه إلى مجلس ضلال فأبى فلمّا عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليردّ ضلاله و هو يظنّ أنّ ذلك مصلحة له و هو غرض الضّالّ ليفوت عليه بقدر تأخّره ، فلمّا مرّ الثاني عليه نهاه و استوقفه فوقف فدفع في نحر الضالّ ولم يشتغل بالقتال و استعجل ففرح منه الضالّ بقدر توقّفه للدّفع فيه ، و مرّ به الثالث فلم يلتفت إليه و لم يشتغل بدفعه و لا بقتاله بل استمرّ على ما كان فخاب منه رجاؤه بالكلّيّة ، و مرّ الرّابع فلم يتوقّف له و أراد أن يغيظه فزاد في عجلته و ترك التأنّي في المشي فيوشك إن عادوا و مرّوا عليه مرّة اُخرى أن يعاود الجميع إلّا هذا الأخير فانّه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله .

---

(١) مل يمل : أصابه الملال ، تقلب مرضاً أو غماً . والقلى : البغض .

(٢) هو أبو عبدالله الحارث بن اسد المحاسبي صاحب كتاب « الرعاية لحقوق الله » وهذا الكتاب طبع بليدن وهذا الكلام فيه ص ١٠٩ فليراجع .

فإن قلت : فالشيطان إذا كان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصّد له قبل حضوره للحذر منه انتظاراً لوروده أم يجب التوكّل على الله ليكون هو الدّافع له ، أو يجب الاشتغال بالعبادة و الغفلة عنه ؟

قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أنّ الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنّهم انقطعوا إلى الله و اشتغلوا بحبّه و اعتزلهم الشيطان ، فآيس منهم وخنس عنهم كما آيس من ضعفاء العباد في الدّعوة إلى الخمر و الزّنى فصارت ملاذّ الدّنيا وإن كانت مباحة كالخمر والخنزير عندهم ، و إذ خلوا من حبّها بالكلّيّة لم يبق للشيطان إليهم سبيلٌ فلا حاجة بهم إلى الحذر ، وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أنّ الترصّد للحذر منه إنّما يحتاج إليه من قلّ يقينه ونقص توكّله فمن أيقن بأن لاشريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره و يعلم أنّ الشيطان ذليلٌ مخلوق ليس له أمرٌ و لا يكون إلّا ما أراده الله تعالى فهو الضارّ و النافع ، و العارف يستحيي منه أن يحذر غيره ، فاليقين بالوحدانيّة يغنيه عن الحذر ، و قالت فرقة من أهل العلم : لابدّ من الحذر من الشيطان و ما ذكره البصريّون من أنّ الأقوياء قد استغنوا عن الحذر و خلت قلوبهم عن حبّ الدّنيا بالكلّيّة و هو وسيلة للشيطان ، يكاد يكون غروراً إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلّصوا من وساوس الشيطان و نزغاته[1] فكيف يتخلّص غيرهم وليس كلّ وسواس الشيطان من الشهوات وحبّ الدّنيا بل في صفات الله و أسمائه و في تحسين البدع و الضلال وغيره ، ولا ينجو أحدٌ من الخطر فيه ، و القرآن من أوّله إلى آخره تحذيرٌ من الشيطان فكيف يدعى الأمن منه ، و أخذ الحذر منه حيث أمر الله تعالى به لا ينافي الاشتغال بحبّ الله تعالى فإنّ من الحبّ له امتثال أمره و قد أمرنا بالحذر من العدوّ كما أمرنا بالحذر من الكفّار ، فقال تعالى : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم »[2] وقال تعالى : «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم»[3]

(١) لولا عصمهم الله سبحانه .

(٢) النساء : ١٠٣ . (٣) الانفال : ٦٣ .

فإذاً لزمك بأمر الله الحذر من العدوّ الكافر وأنت تراهم فبأن يلزمك الحذر من عدوّ يراك ولا تراه أولى ، ولذلك قيل : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به ، و صيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك ، وأشار إلى الشيطان فكيف وليس في الغفلة من عداوة الكافر إلّا قتل هو شهادة و في إهمال الحذر من الشيطان التعرّض للنّار و العقاب الأليم ، فليس من الاشتغال بالله الإعراض عمّا حذّر الله عنه ، و به يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنّهم أنّ ذلك قادح في التوكّل فإنّ أخذ التّرس والسلاح و جمع الجنود و حفر الخندق لم يقدح في توكّل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فكيف يقدح في التوكّل الخوف ممّا خوّف الله به ، والحذر ممّا أمر بالحذر منه ، و قد ذكرنا في كتاب التوكّل ما يبين غلط من ظنّ أنّ معنى التوكّل النزوع عن الأسباب بالكلّيّة و قوله تعالى : « و أعدّوا لهم استطعتم من قوّة و من رباط الخيل » لايناقض امتثاله التوكّل مهما اعتقد القلب أنّ الضارّ و النافع و المحيي و المميت هو الله ، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أنّ المضلّ و الهادي هوالله ، ويرى الأسباب وسائط مسخّرة كما ذكرناه في كتاب التوكّل .

و هذا ما اختارة المحاسبيّ و هو الصحيح الّذي يشهد له نور العلم و ما قبله يشبه أن يكون من كلام العبّاد الّذين لم يعزر علمهم ويظنّون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدّوام وهو بعيد .

ثمّ اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفيّة الحذر فقال قوم : إذا حذّرنا الله تعالى العدوّ فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره والحذر منه و الترصّد له فإنّا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا ، و قال قوم : إنّ ذلك يؤدّي إلى خلوّ القلب عن ذكر الله و اشتغال الهمّ كلّه بالشيطان و ذلك مراد الشيطان منّا بل نشتغل بذكر الله تعالى ولا ننسي الشيطان و عداوته و الحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين ، فإنّا إن نسيناه ربّما عرض من حيث لا نحتسب و إن تجرّدنا لذكره كنّا قد أهملنا ذكر الله تعالى فالجمع أولى ، و قال العلماء المحقّقون : غلط الفريقان فأمّا الأوّل : فقد تجرّد لذكر الشيطان و نسي ذكر

الله تعالى فلا يخفى غلطه ، وإنّما أُمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدّنا عن الذّكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا و هو منتهى ضرر العدوّ ، ثمّ يؤدّي ذلك إلى خلوّ القلب عن نور ذكر الله تعالى فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب و ليس فيه نور ذكر الله وقوّة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به و لا يقوي على دفعه فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره ، و أمّا الفرقة الثانية فقد شاركت الاُولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله و الشيطان و بقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله و قد أمر الله الخلق بذكره و نسيان ما عداه - إبليس و غيره - فالحقّ أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان و يقرّر على نفسه عداوته فإذا اعتقده وصدق به وسكن الحذر فيه فليشتغل بذكر الله و يكبّ عليه بكلّ الهمّة ولا يخطر بباله أمر الشيطان فإنّه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثمّ خطر الشيطان له تنبّه له وعند التنبّه يشتغل بدفعه ، و الاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقّظ عند نزغة الشيطان ، بل الرّجل ينام وهو خائف على أن يفوته مهمّ عند طلوع الصبح فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبّه في ذلك الوقت فينتبه في اللّيل مرّات قبل أوانه لما استكنّ في قلبه من الحذر مع أنّه بالنوم غافلٌ عنه فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبّهه ، ومثل هذا القلب هو الّذي يقوى على دُفع العدوّ وإذا كان اشتغاله بمجرّد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيى فيه نور العقل والعلم و أماط عنه ظلمة الشهوات ، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان و ترصّده و ألزموها الحذر ثمّ لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله و دفعوا بالذّكر شرّ العدوّ و استضاؤوا بنور الذّكر حتّى أبصروا خواطر العدوّ ، فمثال القلب مثال بئر اُريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجّر منها الماء الصافي ، فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر والّذي جمع بين ذكر الشيطان و بين ذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنّه تركه جارياً إليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا تجفّ البئر عن الماء القذر ، والبصير هو الّذي جعل لمجري الماء القذر سدّاً وملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر و السدّ من غير كلفة ومؤونة وزيادة تعب .

(بيان الرُّخصة في قصد اظهار الطّاعات)

إعلم أنّ في الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص و النجاة من الرّياء وفي الاظهار فائدة الاقتداء و ترغيب الناس في الخير ولكنْ فيه آفة الرّياء ، قال بعض السلف : قد علم المسلمون أنّ السرّ أحرز العملين ولكنّ في الإظهار أيضاً فائدة و لذلك أثنى الله تعالى على السرّ والعلانية فقال : « إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي ، و إن تخفوها و تؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم »[١] و الاظهار قسمان أحدهما في نفس العمل والآخر في التحدّث بما عمل .

القسم الأوّل إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها كما روي عن الأنصاريّ الّذي جاء بالصرّة فتتابع الناس بالعطيّة لمـّا رأوه ، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من سنّ سنّة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتّبعه »[٢] ثمّ تجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحجّ والغزو وغيره ، ولكنّ الاقتداء على الطباع في الصدقة أغلب ، نعم الغازي إذا همّ بالخروج فاستعدّ وشدّ الرّحل قبل القوم تحريضاً لهم على الحركة فذلك أفضل له لأنّ الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره فالمبادرة إليه ليس من الإعلان بل هو تحريض مجرّد ، فكذلك الرّجل قد يرفع صوته في الصلاة باللّيل لينبّه جيرانه و أهله فيقتدى به فكلّ عمل لا يمكن إسراره كالحجّ و الجهاد و الجمعة فالأفضل المبادرة إليه و إظهار الرّغبة فيه للتحريض بشرط أن لا تكون فيه شوائب الرّياء ، وأمّا ما يمكن إسراره كالصدقة و الصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدّق عليه ويرغّب الناس في الصدقة فالسرّ أفضل لأنّ الإيذاء حرامٌ ، فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم : السرّ أفضل من العلانية و إن كان في العلانية قدوة ، وقال قوم : السرّ أفضل من علانية لا قدوة فيها ، أمّا العلانية للقدوة فهي أفضل من السرّ ، ويدلّ على ذلك أنّ الله تعالى أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء و خصّهم بمنصب النبوّة

---

(١) البقرة : ٢٧١ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٦١ من حديث جرير بن عبدالله .

ولا يجوز أن يظنّ بهم أنّهم حرموا أفضل العملين و يدلّ عليه قوله ﷺ : «أجرها وأجر من عمل بها» و قد روي في بعض الحديث : «إنّ عمل السرّ يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفاً و يضاعف عمل العلانية إذا استنّ بعامله على عمل السرّ سبعين ضعفاً» (١) و هذا لا وجه للخلاف فيه فإنّه مهما انفكّ القلب عن شوائب الرّياء و تمّ الإخلاص على وجه واحد في الحالتين فما يقتدى به أفضل لامحالة و إنّما يخاف من ظهور الرّياء، و مهما حصلت شائبة الرّياء لم ينفعه اقتداء غيره و هلك به فلا خلاف في أنّ السرّ أفضل منه.

ولكنّ على من يظهر العمل وظيفتان : إحداهما : أن يظهره حيث يعلم أنّه يقتدى به أو يظنّ ذلك ظنّاً وربّ رجل يقتدي به أهله دون جيرانه ، و ربّما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق و ربّما يقتدي به أهل محلّته ، وإنّما العالم المعروف هو الّذي يقتدي به الناس كافّة فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربّما نسب إلى الرّياء و النفاق و ذمّوه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة فإنّما يصحّ الإظهار بنيّة القدوة ممّن هو في محلّ القدوة على من هو في محلّ الإقتداء به.

والثانية أن يراقب قلبه فإنّه ربّما يكون فيه حبّ الرّياء الخفيّ فيدعوه إلى الإظهار بعذر الإقتداء ، و إنّما شهوتها التجمّل بالعمل و بكونه مقتدى به ، و هذا حال كلّ من يظهر أعماله إلّا الأقوياء المخلصين وقليل ماهم ، فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك و هو لا يشعر ، فإنّ الضعيف مثاله مثال الغريق الّذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتّى تشبثوا به فهلكوا وهلك و الغرق بالماء في الدّنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرّياء مثله

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابى الدرداء مقتصراً على الشطر الاول بنحوه وقال : هذا من افراد بقية عن شيوخه المجهولين وقد تقدم وله من حديث ابن عمر «عمل السر أفضل من عمل العلانية و العلانية أفضل لمن اراد الاقتداء» و قال قد تفرد به بقية عن عبدالملك بن مهران . وله من حديث عائشة «يفضل او يضاعف الذكر الخفى الذى لايسمه الحفظة على الذى تسمعه بسبعين ضعفاً» و قال : تفرد به معاوية بن يحيى الصد فى وهو ضعيف . (المغنى)

لا بل عذابه مدّة مديدة و هذه مزلّة أقدام العُبّاد و العلماء ، فإنّهم يتشبّهون بالأقوياء في الإظهار و لا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أُجورهم بالرّياء، و التفطّن لذلك غامض ، و محك ذلك أن يعرض على نفسه أنّه لوقيل له : اخف العمل حتّى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك و يكون لك في السرّ مثل أجر الإعلان ، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به و هو المظهر للعمل فباعثه الرّياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير فإنّهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره و أجره قد توفّر عليه مع إسراره فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق و مراءاتهم ، فليحذر العبد خدع النفس فإنّ النفس خدوعة و الشيطان مترصّد و حبّ الجاه على القلب غالب و قلّما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً و السلامة في الإخفاء ، وفي الإظهار من الأخطار مالا يقوى عليه أمثالنا فالحذر من الإظهار أولى بنا و بجميع الضعفاء .

القسم الثاني أن يتحدّث بما فعله بعد الفراغ و حكمه حكم إظهار العمل نفسه و الخطر في هذا أشدّ لأنّ مؤونة النطق خفيفة على اللّسان و قد تجري في الحكاية زيادة و مبالغة وللنفس لذّة في إظهار الدّعاوي عظيمة إلّا أنّه لوتطرّق إليه الرّياء ثمّ يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون فالحكم فيه أنّ من قوي قلبه و تمّ إخلاصه وصغر الناس في عينه و استوى عنده مدحهم و ذمّهم وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به و الرّغبة في الخير بسببه فهو جائز بل مندوب إليه إن صفت النيّة و سلمت من جميع الآفات لأنّه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خيرٌ ، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . فلا ينبغي أن يسدّ باب إظهار الأعمال ، و الطباع مجبولة على التشبّه والاقتداء بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنّه رياء فيه خيرٌ كثيرٌ للناس ولكنّه شرٌّ للمرائي فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله تعالى وقد روي أنّه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلّين بالقرآن من البيوت

فصنّف بعضهم كتاباً في دقائق الرّياء فتركوا ذلك و ترك النّاس الرّغبة فيه فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنّف. فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه، وإنّ الله يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم كما ورد في الأخبار (١) و بعض المرائين ممّن يقتدى به منهم.

☼(بيان الرّخصة في كتمان الذّنوب وكراهة اطّلاع☼ ☼الناس عليها وكراهة ذمّهم لها)☼

اعلم أنّ الأصل في الإخلاص استواء السّريرة و العلانية، كما قال بعضهم: عليك بعمل العلانية قيل: و ما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطّلع عليك لم تستحي منه. وقال آخر: ما عملت عملاً اُبالي أن يطّلع النّاس عليه إلّا إتياني أهلي والبول و الغائط. إلّا أنّ هذه درجة عظيمة لا ينالها كلّ أحد و لا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه و هو يخفيها و يكره اطّلاع النّاس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والأماني والله مطّلع على جميع ذلك، فإرادة العبد لإخفائه عن العبيد ربّما يظنّ أنّه رياء محظور، و ليس كذلك بل المحظور أن يستر ذلك ليرى النّاس أنّه ورع و أنّه خائف من الله مع أنّه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي، أمّا الصادق الّذي لايرائي فيجوز له ستر المعاصي، و يصحّ قصده فيه، و يصحّ اغتمامه باطّلاع النّاس عليه من ثمانية أوجه:

الأوّل: هو أن يفرح بستر الله عليه و إذا افتضح اغتمّ بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة إذ ورد في الخبر «أنّ من ستر الله عليه في الدّنيا ذنباً ستر عليه في الآخرة» (٢) وهذا غمّ ينشأ من قوّة الإيمان.

الثاني: أنّه قد علم أنّ الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحبّ سترها كما

---

(١) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٥٥، وأبوعوانه ج ١ ص ٤٦ من مسنده، واحمد في مسنده ج ٢ص ٣٠٩، والدارمي ج ٢ص ٢٤٠.

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١وقد تقدم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستره بستر الله تعالى »[(١)] فهو و إن عصى الله بالذّنب فلم يخل قلبه من محبّة ما أحبّه الله ، و هذا ينشأ من قوّة الايمان لكراهة الله لظهور المعاصي ، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذّنب من غيره أيضاً ويغتمّ بسببه .

الثالث أن يكره ذمّ الناس له به من حيث أنّ ذلك يغمّه ويشتغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى فانّ الطبع يتأذّى بالذّمّ و ينازع العقل و يشتغل عن الطاعة و بهذه العلّة ينبغي أيضاً أن يكره الحمد الّذي يشغله عن الله تعالى و يستغرق قلبه و يصرفه عن الذكر وهذا أيضاً من قوّة الايمان إذ صدق الرّغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الايمان .

الرّابع : أن يكون ستره و رغبته فيه لكراهته لذمّ النّاس من حيث يتأذّى طبعه به فانّ الذّمّ مؤلم للقلب كما أنّ الضرب مؤلم للبدن و تألّم القلب بالذّنب ليس بحرام و لا الانسان به عاص ، و إنّما يعصي إذا جزعت نفسه من ذمّ النّاس و دعته إلى ما لا يجوز حذراً عن ذمّهم و ليس يجب على الانسان أن لا يغتمّ بذمّ الخلق و لايتألّم به نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عنده ذامّه و مادحه لعلمه أنّ الضارّ و النافع هو الله و أنّ العباد كلّهم عاجزون ، و ذلك قليل جدّاً و أكثر الطباع تتألّم بالذّمّ لما فيه من الشعور بالنقصان ، و ربّ تألّم بالذّمّ محمود إذا كان الذّامّ من أهل البصيرة في الدّين فانّهم شهداء الله و ذمّهم يدلّ على ذمّ الله تعالى و على نقصان في الدّين فكيف لا يغتمّ به ، نعم الغمّ المذموم و هو أن يغتمّ لفوات الحمد بالتورّع كأنّه يحبّ أن يحمد بالورع و لا يجوز أن يحبّ أن يحمد بطاعة الله فيكون قد طلب بطاعة الله ثواباً من غيره ، فان وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة و الرّدّ ، و أمّا كراهة الذّمّ بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذراً من ذلك و يتصوّر أن يكون العبد بحيث

(١) أخرجه الحاكم بلفظ آخر في المستدرك ج ٤ ص ٢٤٤ . وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

لايحبُّ الحمد ولكن يكره الذمّ و إنّما مراده أن يتركه الناس حمداً و ذمّاً فكم من صابر عن لذّة الحمد لايصبر على ألم الذمّ إذ الحمد بطلب اللذّة و عدم اللذّة لايؤلم وأمّا الذمّ فإنّه مؤلم ، فحبُّ الحمد على الطاعات طلب ثواب الطاعة في الحال ، و أمّا كراهة الذمّ على المعصية فلا محذور فيه إلّا أمرٌ واحد و هو أن يشغله غمّه باطّلاع الخلق على ذنبه عن اطّلاع الله ، فإنّ ذلك غاية النقصان في الدّين ، بل ينبغي أن يكون غمّه باطّلاع الله و ذمّه له أكثر . و قد يكره الذمّ من حيث إنّ الذامّ قدعصى الله تعالى به وهذا من الايمان ، وعلامته أن يكره ذمّه لغيره أيضاً ، فهذا التوجّع لا يفرق بينه و بين غيره بخلاف التوجّع من جهة الطبع .

الخامس : أن يستر ذلك كيلا يقصد بشرّ إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذمّ فإنّ الذمّ مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه و خسّته ، و إن كان ممّن يؤمن شرّه ، و قد يخاف شرّ من يطّلع على ذنبه بسبب من الأسباب فله أن يستر ذلك حذراً منه .

السادس : مجرّد الحياء فإنّه نوع ألم وراء ألم الذمّ والقصد بالشرّ ، والحياء هو خلق كريم يحدث في أوّل الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من القبائح إذا شوهدت منه وهو وصف محمود ، إذقال رسول الله ﷺ : « الحياء خيرٌ كلّه »(١) وقال : « الحياء شعبة من الايمان »(٢) . و قال : « الحياء لايأتي إلّا بالخير »(٣) . و قال : « إنّ الله يحبُّ الحييَّ الحليم »(٤) فالّذي يفسق و لا يبالي بأن يظهر فسقه للناس قد جمع إلى الفسق التهتّك والوقاحة وفقد الحياء ، فهو أشدُّ حالاً ممّن يفسق فيستره ويستحي إلّا أنّ الحياء ممتزج بالرّياء يشتبه به اشتباهاً عظيماً قلَّ من يتفطّن له ، و يدّعي كلّ مراء أنّه مستحي و أنّ سبب تحسينه للعبادات هو الحياء من

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٧ من حديث عمران بن حصين .
(٢) أخرجه البخارى ج ١ ص ٩ من حديث أبى هريرة .
(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٦ من حديث عمران بن حصين والبخارى ج ٨ ص ٣٥ من حديث عمران ايضاً .
(٤) قال العراقى : أخرجه الطبرانى من حديث فاطمة عليها السلام .

الناس ، وذلك كذب بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم و يهيج عقيبه داعية الرياء و داعية الإخلاص و يتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرائي معه ، و بيانه أن الرجل يطلب من صديقه قرضاً و نفسه لا تسخو بإقراضه إلا أنه يستحي من رده و يعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لايستحي و لا يقرض رياء و لا لطلب ثواب فله عند ذلك أحوال : أحدها أن يشافهه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء ، و هذا فعل من لا حياء له فإن المستحي إما أن يتعلل أو يقرض ، فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال : أحدها أن يمزج الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد فيهيج خاطر الرياء ، و يقول : ينبغي أن تعطي حتى يثني عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء ، أو ينبغي أن تعطي حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل ، فإذا أعطى على هذه الصفة فقد أعطى بالرياء ، وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء . الثاني أن يتعذر عليه الرد بالحياء و يبقى في نفسه البخل فيتعذر الإعطاء فيهيج باعث الإخلاص و يقول له : إن الصدقة بواحدة و القرض بثمانية عشر ففيه أجر عظيم و إدخال السرور على قلب صديق و ذلك محمود عند الله فتسخو النفس بالإعطاء لذلك ، فهذا مخلص يهيج الحياء بإخلاصه . الثالث أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمته و لا حب لمحمدته لأنه لو طلبه مراسلة لكان لايعطيه ، فأعطاه لمحض الحياء و هو ما يجده في قلبه من ألم الحياء و لو لا الحياء لرده و لو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه فهذا مجرد الحياء و لايكون هذا إلا في القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب ، و المرائي يستحي من المباحات أيضاً حتى أنه يرى مستعجلاً في المشي فيعود إلى الهدوء ، أو ضاحكاً فيرجع إلى الانقباض و يزعم أن ذلك حياء و هو عين الرياء ، وقد قيل : إن بعض الحياء ضعف و هو صحيح و المراد به الحياء مما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس و إمامة الصلاة و هو في الصبيان و النساء محمود و في العقلاء غير محمود ، و قد يشاهد معصية من شيخ فيستحي من شيبته أن ينكر عليه لأن « من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم » و هذا الحياء حسن و أحسن منه

أن يستحي من الله فلا يضيع الأمر بالمعروف ، و القويّ يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس و الضعيف قد لا يقدر عليه ، فهذه هي الأسباب الّتي يجوز لأجلها ستر القبائح و الذّنوب .

السابع : أن يخاف من إظهار ذنبه سقوط وقع المعاصي من النفس و جرأتها عليها ، فإنّ النفس متى ألفت ظهور الذّنوب زاد انهما كها و استرسلت في شهواتها .

الثامن : أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره و يقتدي به ، و هذه العلّة الواحدة هي الجارية في إظهار الطاعة و هي القدوة و يختصّ ذلك بالأئمّة أو بمن يقتدى به و بهذه العلّة ينبغي أن يخفي العاصي أيضاً معصيته من أهله و ولده لأنّهم يتعلّمون منه .

ففي ستر الذّنوب هذه الأعذار الثمانية و ليس في إظهار الطاعة عذر إلّا هذا العذر الواحد ، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيّل إلى الناس أنّه ورع كان مرائياً كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة .

فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يحبّ حمد الناس له بالصلاح و حبّهم إيّاه بسببه ، وقد قال رجل للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : دلّني على ما يحبّني الله عليه و يحبّني الناس قال : « ازهد في الدّنيا يحبّك الله وانبذ إليهم هذا الحطام يحبّوك » [1] ، فنقول : حبّك لحبّ الناس لك قد يكون مباحاً و قد يكون محموداً و قد يكون مذموماً ، فالمحمود أن تحبّ ذلك لتعرف به حبّ الله لك فإنّه تعالى إذا أحبّ عبداً حبّبه في قلوب عباده ، و المذموم أن تحبّ حبّهم وحمدهم على حجّك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها ، فإنّ ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجلاً سوى ثواب الله ، و المباح أن تحبّ أن يحبّوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعيّنة فحبّك ذلك كحبّك المال لأنّ ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما .

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٢ من حديث سهل بن سعد وفي اسناده خالد بن عمرو ، اتفقوا على ضعفه واتهم بالوضع الا ان النووى قال : رواه ابن ماجه وغيره باسانيد حسنة .

﴿بيان ترك الطاعات خوفاً من الرّياء ودخول الافات﴾

إعلم أنّ من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به و ذلك غلط وموافقة للشيطان بل الحقّ فيما يترك من الأعمال و ما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره : و هو أنّ الطاعات تنقسم إلى ما لالذّة في عينها كالصلاة و الصوم والحجّ و الغزو فإنّها مقاساة ومجاهدات ، و إنّما تصير لذيذة من حيث أنّها توصل إلى حمد الناس ، و حمد الناس لذيذ ، و ذلك عند اطّلاع الناس عليه و إلى ما هو لذيذ و هو أكثر ما لا يقتصر على البدن بل يتعلّق بالخلق كالخلافة و القضاء و الولايات و الحسبة و إمامة الصلاة و التذكير و التدريس و إنفاق المال على الخلق وغيرذلك ممّا تعظم الآفة فيه لتعلّقه بالخلق و لما فيه من اللّذّة .

القسم الأوّل : الطاعات اللاّزمة للبدن الّتي لا تتعلّق بالغير و لالذّة في عينها كالصلاة و الصوم و الحجّ فخطرات الرّياء فيها ثلاث :

إحداها ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس و ليس معه باعث الدّين ، فهذا ممّا ينبغي أن يترك لأنّه معصية لا طاعة فيه ، فإنّه تذرّع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة(١) فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرّياء وسخت النفس ويقول لها : ألاتستحيين من مولاك لاتسخو بالعمل لاجله وتسخو بالعمل لأجل عباده حتّى يندفع باعث الرّياء وسخت النفس بالعمل لله تعالى عقوبة للنفس على خاطر الرّياء و كفّارة عليه ليشتغل بالعمل .

الثانية أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرّياء مع عقد العبادة و أوّلها ، فلا ينبغي أن يترك العمل لأنّه وجد باعثاً دينيّاً فليشرع في العمل و ليجاهد نفسه في دفع الرّياء و تحصيل الإخلاص بالمعالجة الّتي ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرّياء و الإباء عن القبول .

الثالثة أن يعقد على الإخلاص ثمّ يطرأ الرّياء و دواعيه فينبغي أن يجاهد

---

(١) تذرع بذريعة أى توسل بوسيلة . و ربما يقرء فى بعض النسخ [تدرع] بالدال المهملة و درع الرجل فى السير أى تقدم . وبالمعجمة أنسب .

في الدّفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص ويردّ نفسه إليه قهراً حتّى يتمّ العمل، لأنّ الشيطان يدعوك أوّلاً إلى ترك العمل فإذا لم تجبه واشتغلت فيدعوك إلى الرّياء فإذا لم تجب ودفعته بقي يقول لك: هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء و تعبك ضائع فأيّ فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه حتّى يحملك بذلك على ترك العمل، فإذا تركته فقد حصلت غرضه، ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائياً كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها تراب وقال له: خلّصها من التراب ونقّها تنقية بالغة، فيترك أصل العمل ويقول: أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصاً صافياً نقيّاً، فترك العمل من أصله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل فلا معنى له، و من هذا القبيل أن يترك العمل خوفاً على الناس أن يقولوا له: إنّه مراء فيعصون الله به، فهذا من مكائد الشيطان لأنّه أوّلاً أساء الظنّ بالمسلمين و ما كان من حقّه أن يظنّ بهم ذلك، ثمّ إن كان فلا يضرّه قولهم ويفوته ثواب العبادة و ترك العمل خوفاً من قولهم: «إنّه مراء» هو عين الرّياء. فلولا حبّه لمحمدتهم وخوفه من ذمّهم فماله ولقولهم قالوا: إنّه مراء أو قالوا: إنّه مخلص، وأيّ فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال: إنّه مراء، و بين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال: إنّه غافل مقصّر، بل ترك العمل أشدّ من ذلك، فهذه كلّها مكائد الشيطان على العبّاد الجهّال، ثمّ كيف يطمع في أن يتخلّص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له الآن: يقول الناس: إنّك تركت العمل ليقال: إنّك مخلص لا يشتهي الشهرة فيضطرّك بذلك إلى أن تهرب فإن هربت و دخلت سرباً تحت الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك، فكيف تتخلّص بل لا نجاة منه إلّا أن تلزم قلبك معرفة آفة الرّياء و هو أنّه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدّنيا لتلزم الكراهة والإباء قلبك وتستمرّ مع ذلك على العمل و لا تبالي، و إن نزغ العدوّ نازغ الطبع، فإنّ ذلك لا ينقطع و ترك العمل لأجل ذلك يجرّ إلى البطالة و ترك الخيرات فما دمت تجد باعثاً دينيّاً على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرّياء و ألزم قلبك الحياء من الله

إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطّلع على قلبك، ولو اطّلع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياءً من ربّك وعقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنت مراء فاعلم كذبه لما تصادف قلبك من كراهة الرّياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله، وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث دينيّ بل تجرّد باعث الرّياء فاترك العمل عند ذلك، وهو بعيد فمن شرع في العمل لله تعالى فإنّه لابد أن يبقى معه أصل قصد الثواب.

فإن قلت: فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة.

قلنا: هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممّن لا يحصى، وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام في الأفضل والأفضل إنّما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء فالأفضل أن يتمّ العمل ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدّة الخوف فالاقتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء.

القسم الثاني ما يتعلّق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار، أعظمها الخلافة ثمّ القضاء، ثمّ التذكير والتدريس والفتوى، ثمّ إنفاق المال.

أمّا الخلافة والإمارة فهي من أفضل العبادات إذا كانت مع العدل والإخلاص، وقد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ليوم من إمام عادل خيرٌ من عبادة الرّجل وحده ستّين عاماً» (١) فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستّين سنة.

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أوّل من يدخل الجنّة ثلاثة الإمام المقسط أحدهم» (٢).

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ثلاثة لا تردّ دعوتهم الإمام العادل» منهم (٣).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير والاوسط، واسناد الكبير حسن كما في الترغيب والترهيب للمنذري ج ٣ ص ١٦٧.

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٩ من حديث عياض بن حمار المجاشعي في حديث طويل هكذا «وأهل الجنة ثلاثة ذوسلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال .. الحديث».

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٧٥٢ «ثلاثة لاترد دعوتهم: الامام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة .. الحديث».

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أقرب الناس منّي مجلساً يوم القيامة إمام عادل »[1].

أقول : لما كانت الخلافة عندنا إنّما تكون منصوصة من الله عزّ و جلّ ، مخصوصة بالإمام المعصوم المطهّر من الرّجز و شوائب النفس الّتي منها تهيج الرّياء ولا يدّعيها بعده إلّا المشرك الّذي أحبط بشركه جميع أعمال برّه رأساً فلا حاجة بنا إلى الكلام فيها من حيث تطرّق الرّياء إليها فلنطوه ، وقد نقل أبو حامد عن شيخيه في هذا المقام من القول و الفعل ما نقل .

قال : وأمّا القضاء فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو في معناها ، فإنّ كلّ ذي ولاية أمير أي له أمر نافذ ، والإمارة محبوبة بالطبع والثواب في القضاء عظيم مع اتّباع الحقّ ، و العقاب فيه أيضاً عظيم مع العدول عن الحقّ .

و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « القضاة ثلاثة واحد في الجنّة و اثنان في النّار »[2] .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من استقضى فقد ذبح بغير سكين »[3] فحكمه حكم الإمارة ينبغي أن يتركه الضعفاء و كلّ من للدّنيا ولذّاتها وزن في عينه ، وليتقلّده الأقوياء الّذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، و مهما كانت السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء إلّا بمداهنتهم و إهمال بعض الحقوق لأجلهم و لأجل المتعلّقين بهم ، إذ يعلم أنّه لو حكم عليهم بالحقّ لعزلوه أو لم يطيعوه ، فليس له أن يتقلّد القضاء ، و إن تقلّده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ، ولا يكون خوف العزل عذراً مرخّصاً له في الإهمال أصلاً ، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه ، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضي لاتّباع الهوى والشيطان فكيف يرتقب عليه ثواباً وهو مع الظلمة في الدّرك الأسفل من النار .

(١) أخرجه الترمذى ج ٦ ص ٧٠ من حديث ابى سعيد الخدرى هكذا : ان احب الناس الى الله يوم القيامة وادناهم منه مجلساً امام عادل وابغض الناس .. الحديث » .

(٢) أخرجه ابوداود من حديث ابن بريدة ج ٢ ص ٢٦٨ ، وقال : هذا اصح شيء فيه - يعنى حديث ابن بريدة « القضاة ثلاثة » . و رواه ابن ماجه تحت رقم ٢٣١٥ .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٣٠٨ و فيه « من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكين » من حديث ابى هريرة وأخرجه ابوداود ج ٢ ص ٢٦٨ .

أقول: و من طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «اتّقوا الحكومة إنّما هي للإمام العالم بالقضاء العادل في المسلمين لنبيّ أو وصيّ نبيّ»(١).

و عنه عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام لشريح: يا شريح قد جلست مجلساً لايجلسه إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ أوشقيّ»(٢).

و عنه عليه السلام قال: «القضاة أربعة ثلاثة في النار و واحد في الجنّة: رجلٌ قضى بجور و هو يعلم فهو في النار، و رجلٌ قضى بجور و هو لا يعلم فهو في النار، ورجلٌ قضى بالحقّ و هو لايعلم فهو في النار، و رجلٌ قضى بالحقّ و هو يعلم فهو في الجنّة»(٣).

قال أبو حامد: و أمّا الوعظ و الفتوى و التدريس و رواية الحديث و جمع الأسانيد العالية و كلّ ما يتّسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فآفته أيضاً عظيمةمثل آفة الولاية، و قد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا و كانوا يقولون: «حدّثنا» باب من أبواب الدّنيا. من قال: حدّثنا فقد قال: أوسعوا لي.

أقول: و قد أسلفنا كلاماً عن مولانا الصادق عليه السلام في الفتوى في كتاب العلم من ربع العبادات.

---

(١) المصدر ج٧ ص ٤٠٦ وقال العلامة المجلسي ـ رحمه الله ـ: لا يخفى أن هذه الاخبار تدل بظواهرها على عدم جواز القضاء لغير المعصوم عليه السلام ولا ريب انهم عليهم السلام يبعثون القضاة الى البلاد، فلابد من حملها على ان القضاء بالاصالة لهم ولايجوز لغيرهم تصدى ذلك الاباذنهم وكذا فى قوله فى الخبر الاتى: «لايجلسه الانبى» اى الابالاصالة والحاصل أن الحصر اضافى بالنسبة الى من جلس فيها بغيراذنهم ونصبهم عليهم السلام.

(٢) المصدر ج ٧ ص ٤٠٦ وقال العلامة المجلسي ـ رحمه الله ـ: يحتمل أن يكون الغرض بيان صعوبة القضاء و انه لغير المعصوم غالباً يستلزم الشقاء او بيان أنه من زمن النبى صلى الله عليه وآله الى هذا الزمان ما جلس فيه الا هذه الثلاثة الاصناف و يؤيده مافى كتاب «من لايحضره الفقيه» «ماجلسه».

(٣) المصدر ج ٧ ص ٤٠٧ باب اصناف القضاة.

قال : [١] و الواعظ يجد في وعظه و تأثّر قلوب الناس به و تلاحق بكائهم و زعقاتهم [٢] و إقبالهم عليه لذّة لا توازيها لذّة فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كلّ كلام مزخرف يروّج به عند العوام و إن كان باطلاً و يفرّ عن كلّ كلام يستثقله العوام و إن كان حقّاً ، و يصير مصروف الهمّة بالكلّيّة إلى ما يحرّك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثاً وحكمة إلّا و يكون فرحه به من حيث أنّه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر ، و كان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث أنّه عرف طريق السعادة و طريق سلوك سبيل الدّين ليعمل به أوّلاً ، ثمّ يقول : إذا أنعم الله عليّ بهذه النعمة و نفعني بهذه الحكمة فأفيضها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون ، فهذا ممّا يعظم فيه الخوف و الفتنة فحكمه حكم الولايات ، فمن لا باعث له إلّا طلب الجاه و المنزلة و الأكل بالدّين و التّفاخر و التكاثر ، فينبغي أن يتركه و يخالف الهوى فيه إلى أن ترتاض نفسه و تقوى في الدّين منّته و يأمن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود إليه .

فإن قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطّلت العلوم و اندرست و عمّ الجهل كافّة الخلق ؟

فنقول : قد نهى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن طلب الإمارة و توعّد عليها [٣] حتّى قال : « إنّكم تحرصون على الإمارة و إنّها حسرة وندامة يوم القيامة إلّا من أخذها بحقّها ، و قال : نعمت المرضعة وبئست الفاطمة » [٤] و معلوم أنّ السلطنة والإمارة و لو تعطّلت لبطل الدّين والدّنيا جميعاً و ثار القتال بين الخلق وزال الأمن وخربت البلاد و تعطّلت المعايش فلم نهى عنها مع ذلك ، فأمّا قول القائل نهيك عن ذلك

---

(١) يعنى أباحامد . (٢) جمع الزعقة وهى الصيحة .

(٣) أخرج مسلم والبخارى ج ٩ص ٧٩ باسنادهما عن عبدالرحمن بن سمرة قال : قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : «يا عبدالرحمن لاتسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن مسئلة وكلت اليها ، و ان اعطيتها عن غير مسئلة اعنت عليها .. الحديث » .

(٤) أخرجه البخارى أيضاً ج ٩ ص ٧٩ هكذا من حديث ابى هريرة «انكم ستحرصون على الامارة ، و ستكون ندامة يوم القيامة ، فنعمت المرضعة و بئست الفاطمة » .

يؤدّي إلى اندراس العلم فهو غلط إذ نهيُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن القضاء لم يؤدّ إلى تعطيل القضاء (١) بل الرّئاسة وحبّها يضطرّ الخلق إلى طلبها و كذلك حبّ الرّئاسة لا يترك العلوم تندرس بل لو حبس النّاس و قيّدوا بالسلاسل و الأغلال عن طلب العلوم الّتي فيها القبول و الرّئاسة لأفلتوا من الحبس و قطعوا السلاسل و طلبوها و قد وعد الله تعالى أن يؤيّد هذا الدّين بأقوام لا خلاق لهم ، فلا تشتغل قلبك بأمر النّاس فإنّ الله لا يضيعهم ، و انظر لنفسك ، ثم إنّي أقول : مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلاً فليس في النهي عنه إلّا امتناع بعضهم و إلّا فيعلم أنّ كلّهم لا يمتنعون ولا يتركون لذّة الرّئاسة فإن لم يكن في البلد إلّا واحد وكان وعظه نافعاً للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته في الظاهر و تخييله إلى العوام أنّه إنّما يريد الله بوعظه و أنّه تارك للدّنيا ومعرضٌ عنها فلا نمنعه عنها و نقول له : اشتغل وجاهد نفسك ، فإن قال : لست آمن على نفسي فنقول : اشتغل و جاهد لأنّا نعلم أنّه لو ترك ذلك لهلك النّاس كلّهم إذ لا قائم به غيره ، ولو واظب و غرضه الجاه فهو الهالك وحده و سلامة دين الجميع أحبّ عندنا من سلامة دينه وحده فنجعله فداءً للقوم ونقول : لعلّ هذا هو الّذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله يؤيّد هذا الدّين بأقوام لاخلاق لهم » (٢) ثمّ الواعظ هو الّذي يرغب في الآخرة ويزهد في الدّنيا بكلامه وبظاهر سيرته فأمّا ما أحدثه الوعّاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة و الألفاظ المسجّعة المقرونة بالأشعار ممّا ليس فيه تعظيم لأمر الدّين و لا تخويف للمسلمين بل فيه الترجية و التجرئة على المعاصي بطيّارات النكت فيجب إخلاء البلاد منهم فإنّهم نوّاب الدّجّال وخلفاء الشيطان ، و إنّما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حبّ القبول و لا يقصد غيره ، و فيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حقّ علماء السوء ما يبين

(١) نهيه صلى الله عليه وآله عن القضاء أخرجه مسلم ج ٦ ص ٧ من حديث ابى ذر « لاتامرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » .

(٢) حديثه تقدم آنفاً عن مصادر عدة .

لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله .

ولقد قال عيسى عليه السلام : « يا علماء السوء تصومون و تصلّون و تتصدّقون ، ولاتفعلون ما تؤمرون ، وتدرسون مالا تعملون فياسوء ماتحكمون ، تتوبون بالقول و الأماني و تعملون بالهوى و ما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم و قلوبكم دنسة ، بحقّ أقول لكم : لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدّقيق الطيّب وتبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغلّ في صدوركم ، ياعبيدالدّنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدّنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته ، بحقّ أقول لكم : إنّ قلوبكم تبكي من أعمالكم ، جعلتم الدّنيا تحت ألسنتكم و العمل تحت أقدامكم ، بحقّ أقول لكم : أفسدتم آخرتكم فصلاح الدّنيا أحبّ إليكم من صلاح الآخرة ، فأي الناس أخسّ منكم لو تعلمون ، ويلكم حتّى متى تصفون الطريق للمدلجين و تقيمون في محلّة المتحيّرين ؟ كأنّكم تدعون أهل الدّنيا ليتركوها لكم ، مهلاً مهلاً ، ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره و جوفه وحش مظلم ، كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطّلة ، يا عبيد الدّنيا لا كعبيد أتقياء و لا كأحرار كرام ، توشك الدّنيا أن تقلعكم عن اُصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثمّ تكبّكم على مناخركم ، ثمّ تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، يدفعكم العلم من خلفكم ثمّ يسلّمكم إلى الملك الدّيان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثمّ يجزيكم بسوء أفعالكم» وقد روى الحارث المحاسبيّ هذا الحديث في بعض كتبه [(١)].

ثمّ قال : هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس و فتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدّنيا و رفعتها ، وآثروها على الآخرة وأذلّوا الدّين للدّنيا ، فهم في العاجل عار و شين و في الآخرة هم الخاسرون .

(١) قدمر أنه رواه الحسن بن على بن شعبة الحرانى فى تحف العقول بأدنى اختلاف ولم أجده فى كتاب الرعاية لحقوق الله والظاهر أنه منقول من كتاب آخر له - رحمه الله - .

﴿فصل﴾

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم و الوعظ رغائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من الدنيا و ما فيها »[1]. و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه »[2].

إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغي أن يقال للعالم : اشتغل بالعلم و اترك مراءاة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلاة : لا تترك العمل و لكن أتمم العمل وجاهد نفسك .

فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة و الامارة ولا نقول لأحد من عباد الله : اترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة إنما الآفة في إظهاره للتصدي بالوعظ والتدريس ورواية الأحاديث ولانقول له أيضاً : اتركه ما دام يجد من نفسه باعثاً دينياً ممزوجاً بباعث الرياء ، و أما إذا لم يحركه إلا الرياء ، فترك الإظهار أنفع له وأسلم و كذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها ، أما إذا خطر له وساوس الرياء في أثناء الصلاة وهو له كاره فلايترك الصلاة لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة و إنما تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة كالعلم . و بالجملة فالمراتب ثلاث :

الأولى : الولايات و الآفات فيها عظيمة و قد تركها جماعة من السلف خوفاً من الآفة .

الثانية الصلاة و الصوم و الحج و الصدقة و قد تعرض لها أقوياء السلف

(١) أخرجه البخاري ج ٦ ص ٢٣ من حديث سهل بن سعد ذيل حديث اعطائه (ص) الراية لعلي عليه السلام وساق الحديث الى أن قال : « فقال علي يارسول الله اقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : أنفذ على رسلك حتى ينزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام واخبرهم بمايجب عليهم من حق الله فوالله لان يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم ».

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٠٥ بزيادة في أوله . ولمسلم نحوه مختصراً .

و ضعفاؤهم و لم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة و ذلك لضعف الآفة الدّاخلة فيها و القدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوّة .

المرتبة الثالثة : و هي متوسّطة بين الرّتبتين و هو التصدّي لمنصب الوعظ والفتوى و الرّواية والتدريس و الآفات فيها أقلّ ممّا في الولايات و أكثر ممّا في الصلاة ، و الصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف و القوي ولكن يدفع خاطر الرّياء . و الولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأساً دون الأقوياء و مناصب العلم بينهما و من جرّب آفات منصب العلم علم أنّها بالولايات أشبه و أنّ الحذر منها في حقّ الضعيف أسلم و الله أعلم .

و ههنا رتبة رابعة وهي جمع المال و أخذه للتفرقة على المستحقّين فإنّ في الإنفاق و إظهار السخاء استجلاباً للثناء و في إدخال السّرور على قلوب الناس لذّة للنفس فالآفات فيها أيضاً كثيرة.

و قد اختلف العلماء فقال قوم : إذا طلب الدّنيا من الحلال وسلم منه وتصدّق به فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل لأنّه خيرٌ متعدّ كالنكاح ، وقال قوم : الجلوس في دوام ذكر الله أفضل و الأخذ و الإعطاء يشغل عن ذكر الله و قد قال عيسى عليه السلام : « ياطالب الدّنيا لتبرّ بها ، تركك لها أبرّ » وقال قوم : أقلّ ما فيه أنّه يشغله إصلاحه عن ذكر الله و ذكر الله أفضل و أكبر ، و هذا فيمن سلم من الآفات فأمّا من يتعرّض لآفات الرّياء فتركه لها أبرّ والاشتغال بالذّكر لا خلاف في أنّه أفضل .

و بالجملة ما يتعلّق بالخلق وللنفس فيه لذّة فهو مثار الآفات والأحبّ أن يعمل و يدفع الآفات فإن عجز فلينظر و ليجتهد وليستفت قلبه و ليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشرّ و ليفعل ما يدلّ عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع .

و بالجملة ما يجده أخفّ على قلبه فهو في الأكثر أضرّ عليه لأنّ النفس لا تستلذّ إلّا بالشرّ و قلّما تستلذّ الخير وتميل إليه ، و إن كان لا يبعد ذلك أيضاً في بعض الأحوال ، وهذه اُمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي وإثبات وهو موكولٌ

إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ، ثمّ قد يقع ممّا ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال و لا ينفقه خيفة من الآفة و هو عين البخل و لا خلاف في أنّ تفرقة المال في المباحات فضلاً عن الصدقات أفضل من إمساكه و إنّما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب أنّ الأفضل ترك الكسب و الإنفاق أو التجرّد للذكر أو الكسب من الحلال وإنفاقه في الخيرات و ذلك لما في الكسب من الآفات و أمّا المال الحاصل الحلال فتفرقته أفضل بكلّ حال من إمساكه .

فإن قلت : فبأيّ علامة يعرف العالم والواعظ أنّه صادق مخلص في وعظه غير مريد رئاء الناس ؟

فاعلم أنّ لذلك علامات إحداها أنّه لو ظهر من هو أحسن منه وعظاً و أغزر منه علماً والناس له أشدّ قبولاً فرح به ولم يحسده ، نعم لا بأس بالغبطة وهي أن يتمنّى لنفسه مثل علمه ، والاُخرى أنّ الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغيّر كلامه بل يبقى كما كان عليه فينظر إلى الخلق بعين واحدة ، و الاُخرى أن لا يحبّ اتّباع الناس له في الطريق و المشي خلفه في الأسواق ، و لذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها .

✿(بيان ما يصحّ من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصحّ)✿

إعلم أنّ الرّجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجّد أو يقوم بعضهم فيصلّون اللّيل كلّه أو بعضه و هو ممّن يقوم في بيته ساعة قريبة ، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتّى يزيد على ما كان يعتاده أو يصلّي مع أنّه كان لا يعتادها أصلاً ، و كذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط ، فهذا ربّما يظنّ أنّه رياء و أنّ الواجب ترك الموافقة و ليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأنّ كلّ مؤمن راغب في عبادة الله وفي قيام اللّيل و صيام النهار ، ولكن قد تعوقه العوائق وتمنعه الأشغال ، ويغلبه التمكّن من الشهوات ، أو تستهويه الغفلة ، فربّما يكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة ، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرّجل

في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير أو تمكنه من التمتع بزوجته أو المحادثة مع أهله وأقاربه و الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه ، فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير لمشاهدته إياهم و قد أقبلوا على الله عز وجل و أعرضوا عن الدنيا فإنه ينظر إليهم فينافسهم و يشق عليه أن يسبقوه بطاعة فتتحرك داعيته للدين لا للرياء ، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم ، وفي منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام ، والنفس لا تسمح بالتهجد دائماً و إنما يسمح بالتهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق ، و قد يعسر عليه الصوم في منزله و معه أطائب الأطعمة و يشق عليه الصبر عنها فإذا أعوزته [1] تلك الأطعمة لم يشق عليه الصوم فينبعث داعية الدين للصوم فإن الشهوات الحاضرة عوائق و دوافع تغلب باعث الدين ، فإذا سلم منها قوي الباعث ، فهذا و أمثاله من الأسباب يتصور وقوعه و يكون السبب فيه مشاهدة الناس و كونه معهم ، والشيطان عند ذلك ربما يصد عن العمل و يقول : لا تعمل فإنك تكون مرائياً إذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة ، و قد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم و خوفاً من ذمهم و نسبتهم إياه إلى الكسل ، لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل فإن نفسه لا تسمح بأن تسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته وعند ذلك قد يقول الشيطان : صل فإنك مخلص ولست تصلي لأجلهم بل لله ، وإنما كنت لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق و إنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم و هذا أمر مشتبه ، إلا على ذوي البصائر ، فإذا عرف أن المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة لأنه يعصي الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله تعالى ، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق و تحرك الغبطة و المنافسة بسبب عباداتهم فليوافق ، و علامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من

(١) أعوزه المطلوب : أعجزه وصعب عليه نيله .

حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت تسخو نفسه بالصلاة و هم لا يرونه ، فإن سخت نفسه بها فليصلّ فإنّ باعثه الحقّ ، و إن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك ، فإنّ باعثه الرّياء .

و كذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كلّ يوم ، و يمكن أن يكون ذلك لحبّ حمدهم ، و يمكن أن يكون سبب تحرّك نشاطه بسبب نشاطهم و زوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى ، وقد يتحرّك بذلك باعث الدّين و يقارنه نزوع النفس إلى حبّ الحمد ، فمهما علم أنّ الغالب على قلبه إرادة الدّين فلا ينبغي أن يترك العمل لما يجده من حبّ الحمد ، بل ينبغي أن يردّ ذلك على نفسه بالكراهة و يشتغل بالعبادة ، و كذلك قد تبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله لا من الرّياء و لو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ولكن بكاء الناس يؤثّر في ترقيق القلب ، وقد لا يحضره البكاء فيتباكي تارة للرّياء و تارة مع الصدق إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يبكون فلا تدمع عينه فيتباكي تكلّفاً ، و ذلك محمودٌ و علامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنّه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكي أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنّما خوفه من أن يقال : إنّه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي .

قال لقمان عليه السلام لابنه : لا تُري الناس أنّك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر .

و كذلك الصيحة و التنفّس و الأنين عند القرآن أو الذّكر أو بعض مجاري الأحوال تارة تكون من الصدق والحزن و الخوف والندم و التأسّف و تارة تكون بمشاهدة حزن غيره و قساوة قلبه فيتكلّف التنفّس و الأنين ويتحازن وذلك محمودٌ ، و قد تقترن به الرّغبة فيه لدلالته على أنّه كثير الحزن ليعرف بذلك فإن تجرّدت هذه الدّاعية فهي الرّياء و إن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها و كرهها سلم بكاؤه و تباكيه ، و إن قبل ذلك و ركن إليه بقلبه حبط أجره و ضاع سعيه و تعرّض لسخط الله به ، و قد يكون أصل الأنين من الحزن ولكن يمدّه و يزيد

في رفع الصوت فتلك الزّيادة من الرّياء و هو محظور لأنّها في حكم الابتداء لمجرّد الرّياء ، فقد يهيج من الخوف ما لايملك العبد معه نفسه ولكن يسبقه خاطر الرّياء فيقبله فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتّى تُبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرّياء . و كذلك قد يسمع الذّكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثمّ يستحيي أن يقال له : إنّه سقط من غير زوال عقل و حالة شديدة ، فيزعق و يتواجد تكلّفاً ليري أنّه سقط لكونه مغشياً عليه وقد يكون ابتداء السقوط عن صدق و قد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعاً فتجزع نفسه أن يقال : حالته غير ثابتة ، وإنّما هي كبرق خاطف فيستديم الزّعقة و الرّقص ليري دوام حاله ، و كذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعاً فيجزع أن يقال : لم تكن غشيته صحيحة ولو كانت لدام ضعفه ، فيستديم إظهار الضعف و الأنين فيتّكيء على غيره حالة المشي يري أنّه يضعف عن القيام و يتمايل في المشي و يقرب الخطا ليظهر أنّه ضعف عن سرعة المشي ، فهذه كلّهامكيدة الشيطان ونزغات النفس . فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكّر أنّ الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن و اطّلعوا على ضميره لمقتوه و إنّ الله مطّلع على ضميره و هو له أشدّ مقتاً ، كما روي عن ذي النون أنّه قام و زعق ، فقام معه شيخ فرأى فيه أثر التكلّف فقال : ياشيخ اذكر الّذي يراك حين تقوم ، فجلس الشيخ ، و كلّ ذلك من أعمال المنافقين وقد جاء في الخبر « تعوّذوا بالله من خشوع النفاق »(١) و إنّما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع .

و من ذلك الاستغفار و الاستعاذة بالله من عذابه و غضبه فإنّ ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكّر ذنب وتندّم عليه وقد يكون للمراءات . فهذه خواطر ترد على القلب متضادّة مترادفة متقاربة ، وهي مع تقاربها متشابهة ، فراقب قلبك في كلّ ما يخطر لك و انظر ما هو و من أين هو ؟ فان كان لله فامضه ، و احذر مع ذلك أن

(١) قال العراقى : أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى بكر وفيه الحارث بن عبيد الايادى ضعفه أحمد و ابن معين .

يكون قد خفي عليك شيءٌ من الرّياء الّذي هو كدبيب النمل ، و كن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا ، لخوفك على الإخلاص فيها ، واحذر أن يتجدّد لك خاطر الرّكون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإنّ ذلك ممّا يكثر جدّاً ، فإذا خطر لك فتفكّر في اطّلاع الله عليك ومقته لك ، و تذكّر ما قاله أحد الثلاثة النفر الّذين حاجّوا أيّوب إذ قالوا : يا أيّوب ! أما علمت أنّ العبد تضلّ عنه علانيته الّتي كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته ، و قول بعضهم : أعوذ بك أن يرى الناس أنّي أخشاك و أنت لي ماقت . و كان من دعاء عليّ بن الحسين عليهما السلام : « اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح لك فيما أخلو سريرتي محافظاً على رئاء الناس من نفسي ، ومضيّعاً لما أنت مطّلع عليه منّي ، اُبدي للناس أحسن أمري وأُفضي إليك بأسوء عملي ، تقرّباً إلى الناس بحسناتي ، وفراراً منهم إليك بسيّئاتي فيحلّ بي مقتك ، و يجب عليّ غضبك ، أعذني من ذلك يا ربّ العالمين » وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيّوب عليه السلام : يا أيّوب ألم تعلم أنّ الّذين حفظوا علانيتهم و أضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرّحمن تسودّ وجوههم بالردّ . فهذه جمل آفات الرّياء، فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ، و في الخبر « أنّ للرّياء سبعين باباً » (١) و قد عرفت أنّ بعضه أغمض من بعض حتّى أنّ بعضه مثل دبيب النمل ، وبعضه أخفى من دبيب النمل ، و كيف يدرك ما هو أخفى من دبيب النمل ، إلّا بشدة المراقبة و التفقّد ، و ليس يدرك إلّا بعد بذل المجهود (٢) فكيف يطمع في إدراكه

(١) قال العراقي : هكذا ذكر المصنف هذا الحديث هنا و كانه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه أنه « الرياء » بالمثناة وانما هو « الربا » بالموحدة والمرسوم كتابته بالواو ، والحديث رواه ابن ماجه من حديث ابى هريرة بلفظ « الربا سبعون حوباً أيسرها أن ينكح الرجل امه » وفي اسناده ابومعشر و اسمه نجيح مختلف فيه ، و روى ابن ماجه أيضاً من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه و آله قال : « الربا ثلاثة و سبعون باباً » واسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ « الربا بضع وسبعون باباً و الشرك مثل ذلك » و هذه الزيادة قد يستدل بها على أنه « الرياء » بالمثناة لاقترانه مع الشرك . والله أعلم .

(٢) فى الاحياء « وليته أدرك بعد بذل المجهود » .

من غير تفقّد للقلب و امتحان للنفس و تفتيش عن خدعها ؟

(بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم قلبه قبل العمل وبعده وفيه)

إعلم أنّ أولى ما يلزم المريد قلبه في ساير أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ، ولايقنع بعلم الله إلّا من لايخاف إلّاالله ولا يرجو إلّاالله ، فأمّا من خاف غيره و ارتجاه اشتهى اطّلاعه على محاسن أحواله ، فإن كان في هذه الرّتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل و الإيمان لما فيه من خطر التعرّض للمقت و ليراقب قلبه عند الطاعات العظيمة الشاقّة الّتي لا يقدر عليها غيره فإنّ النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء و تقول : مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك فما في الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى بإخفائه فيجهل النّاس محلّك ، و ينكرون قدرك ، ويحرمون الاقتداء بك ؟ ففي مثلهذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه ويتذكّر فيمقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة و نعيم الجنّة و دوامها أبد الآباد و عظم غضب الله و مقته على من طلب بطاعته ثواباً منعباده ، و يعلم أنّ إظهارهلغيره محبّب إليه و سقوط عندالله وإحباط للعمل العظيم ، فيقول : و كيف أبيع هذا العمل بحمد الخلق و هم عاجزون لايقدرون لي على رزق ولاأجل ، فيلزم ذلك قلبه و لا ينبغي أن ييأس عنه فيقول : إنّما يقدر على الإخلاص الأقوياء فأمّا المخلطون فليس ذلك من شأنّهم فيترك المجاهدة في الإخلاص ، لأنّ المخلط إلىذلك أحوج من المتّقي ، لأنّ المتّقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامّة ، و المخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان و الحاجة إلى الجبران بالنوافل فإن لم تسلم صار مأخوذاً بالفرائض و هلك به ، فالمخلط إلى الإخلاص أحوج ، و قد روى تميم الدّاريّ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: « يحاسب العبد يوم القيامة فإن نقص فرضه قيل : انظروا هل له من تطوّع ، فإن كان له تطوّع أكمل به فرضه ، و إن لم يكن له تطوّع أخذ بطرفيه فألقي في النار » (١) فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة ، فاجتهاده في

(١) أخرجهأبوداود ج ١ ص ٢٠٠ وابن ماجه تحت رقم ١٤٢٥ مع اختلاف يسير .

جبر الفرائض و تكفير السيّئات ولا يمكن ذلك إلّا بخلوص النوافل ، وأمّا المتّقي فجهده في زيادة الدّرجات فإن حبط تطوّعه بقي من حسناته ما يترجّح به على سيّئاته فيدخل الجنّة .

فإذن ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطّلاع غير الله عليه لتصحّ نوافله ، ثمّ يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتّى لا يتحدّث به ولا يظهره ، فإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلاً من عمله خائفاً أنّه ربّما داخله من الرّياء الخفيّ ما لم يقف عليه فيكون شاكّاً في قبوله وردّه ، مُجوّزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيّته الخفيّة ما مقته بها وردّ عمله بسببها و يكون هذا الشكّ و الخوف في دوام عمله وبعده إلّا في ابتداء العقد ، بل ينبغي أن يكون متيقّناً في الابتداء أنّه مخلص ما يريد بعمله إلّا الله حتّى يصحّ عمله فإذا شرع و مضت لحظة يمكن فيها الغفلة و النسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفيّة أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به ، ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنّه استيقن أنّه دخل بالإخلاص و شكّ في أنّه هل أفسده برياء ؟ فيكون رجاء القبول أغلب ، وبذلك تعظم لذّته في المناجاة و الطاعات. فالإخلاص : يقين ، و الرّياء : شك . و خوفه لأجل ذلك الشكّ أجدر بأن يكفر خاطر الرّياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه .

و الّذي يتقرّب إلى الله بالسعي في حوائج النّاس و إفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ، و رجاء الثواب على عمل المتعلّم بعلمه فقط ، دون شكر ومكافأة و حمد و ثناء من المتعلّم و المنعم عليه ، فإنّ ذلك يحبط الأجر . فمهما توقّع من المتعلّم مساعدة في شغل و خدمة ، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو تردّداً منه في حاجته فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره ، نعم إن لم يتوقّع هو و لم يقصد إلّا الثواب على عمله بعلمه الّذي علّمه ليكون له مثل أجره ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته ، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره و لا يريده منه و لا يستبعده منه لو قطعه ، ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون ذلك حتّى أنّ بعضهم وقع في بئر فجاء

قوم وأدلوا حبلاً ليرفعوه فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من كتاب الله أو سمع منه حديثاً خيفة من أن يحبط ذلك أجره. فإذن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط ويجب على المتعلّم أن يلزم قلبه طلب حمدالله تعالى وثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلّم و عند الخلق، وربّما يظنّ أنّ له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلّم رتبة فيتعلّم منه و هو خطأ لأنّ إرادته غير الله بطاعته خسران في الحال، و العلم ربّما يفيده و ربّما لا يفيده، فكيف يخسر في الحال عملاً نقداً على توهّم علم وذلك غير جايز، بل ينبغي أن يتعلّم لله تعالى ويعبدالله تعالى ويخدم المعلّم لله لايكون له في قلبه منزلة إن كان يريد أن يكون تعلّمه طاعة، فإنّ العباد اُمروا بأن لا يعبدوا إلّا الله و لا يريدوا بطاعتهم غيره، و كذلك كلّ من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلّا من حيث أنّ رضا الله في رضا الوالدين و لا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فإنّ ذلك معصية في الحال و سيكشف الله تعالى عن ريائه و تسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضاً.

و أمّا الزّاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله و القناعة بعلمه، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده و استعظامهم محلّه، فإنّ ذلك يغرس الرّياء في صدره حتّى تتيسّر عليه العبادات في خلوته به، وإنّما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله و استعظامهم لمحلّه، وهو لايدري أنّه المخفّف للعمل عليه.

و قال إبراهيم بن أدهم: تعلّمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان، دخلت عليه في صومعته فقلت: يا سمعان منذ كم أنت في صومعتك هذه؟ فقال: منذ سبعين سنة فقلت: فما طعامك؟ فقال: يا حنيفي و ما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم، قال: في كلّ ليلة حمّصة، قلت: فما الّذي يهيج في قلبك حتّى تكفيك هذه الحمّصة؟ قال: ترى الدّير الّذي بحذائك؟ قلت: نعم قال: إنّهم يأتوني في كلّ سنة يوماً واحداً فيزيّنون صومعتي ويطوفون حولها و يعظّموني، فكلّما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عزّ تلك الساعة فأنا أحتمل جهد سنة لعزّ ساعة،

فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد ، فوقر في قلبي المعرفة ، فقال : حسبك أو أزيدك ؟ فقلت : بلى قال : أنزل عن الصومعة فنزلت فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة ، فقال لي : ادخل إلى الدير فقد رأوا ما أدليت إليك فلما دخلت الدير اجتمعت النصارى علي فقالوا : يا حنيفي ما الذي أدلى إليك الشيخ قلت : من قوته قالوا : وما تصنع به ونحن أحق به ثم قالوا : ساوم ، قلت : عشرون ديناراً ، فأعطوني عشرين ديناراً ، فرجعت إلى الشيخ فقال : يا حنيفي ما الذي صنعت ؟ قلت : بعته منهم ، قال : بكم ؟ قلت : بعشرين ديناراً ، قال : أخطأت لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك ، هذا عز من لا تعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده ؟ يا حنيفي أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة .

المقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوة ، وقد لا يشعر العبد به ، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه ، وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا له من اعتقادهم له لم يجزع ولم يضق به ذرعاً إلا كراهية ضعيفة إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله و إيمانه فإنه لو كان في عبادة فاطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعاً ، و لم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه ، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع و الانقباض كيلا ينبسطوا إليه ، فذلك لا بأس به و لكن فيه غرور إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض ، فليطالبها في دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيراً أو يضحك كثيراً أو يأكل كثيراً فتسمح نفسه بذلك ، فإذا لم تسمح به وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله تعالى ، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله ، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها ، فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة

الخلق ، و من علامات الصدق فيه أنّه لو كان له صاحبان أحدهما غنيٌّ و الآخر فقيرٌ فلا يجد عند إقبال الغنيّ زيادة هزّة في نفسه لإكرامه إلّا إذا كان في الغنيّ زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرماً له لذلك الوصف لا بالغنى ، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طمّاع و إلّا فالنظر إلى الفقراء يزيد في رغبة الآخرة و يحبّب إلى القلب المسكنة ، و النظر إلى الأغنياء بخلافه ، فكيف استروح إلى الغنيّ أكثر ممّا استروح إلى الفقير ، نعم لك زيادة إكرام الغنيّ إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حقّ و صداقة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لاتقدّم الغنيّ عليه في إكرام و توقير البتّة ، فإنّ الفقير أكرم على الله من الغنيّ ، فإيثارك له لا يكون إلّا طمعاً في غناه و رياء له ، ثمّ إذا سوّيت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة و الخشوع للغنيّ أكثر ممّا تظهره للفقير ، و إنّما ذلك لرياء خفيّ أوطمع خفيّ كما قال ابن السماك لجارية له : مالي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة ، قالت : الطمع يشحذ لسانك (١) . و قد صدقت فإنّ اللّسان ينطلق عند الغنيّ بما لا ينطلق به عند الفقير ، و كذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير ، و مكائد النفس و خفاياها في هذا الفنّ لاتنحصر ، و لا ينجيك منها إلّا بأن تخرج ما سوى الله من قلبك ، وتتجرّد بالشفقة على نفسك بقيّة عمرك ، ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغّصة في أيّام متقاربة منقضية ، و تكون في الدّنيا كملك من ملوك الدّنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللّذّات ، ولكن في بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كلّ ساعة لو اتّسع في الشهوات و علم أنّه لو احتمى و جاهد شهوته عاش ودام ملكه ، فلمّا عرف ذلك جالس الأطبّاء و حارف الصيادلة ، و عوّد نفسه شرب الأدوية المرّة فصبر على بشاعتها (٢) و هجر جميع اللّذّات و صبر على مفارقتها ، فبدنه كلّ يوم يزداد نحولاً لقلّة أكله ، و لكن سقمه كلّ يوم يزداد نقصاناً لكثرة

---

(١) شحذ السكين و نحوه : أحده .

(٢) البشع : المر .

احتمائه ، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكّر في توالي الآلام والأوجاع عليه وأدّاه ذلك إلى الموت المفرّق بينه و بين مملكته الموجب لشماتة أعدائه به ومهما اشتدّ عليه شرب دواء تفكّر فيما يستفيده منه من الشفاء الّذي هو سبب التمتّع بملكه و نعيمه في عيش هنيىء و بدن صحيح و قلب رخيّ و أمر نافذ ، فيخفّ عليه مهاجرة اللّذّات و مصابرة المكروهات . فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كلّ مهلك له في آخرته وهي لذّات الدّنيا و زهرتها فاجتزي منها بالقليل واختار الذّبول و النحول والوحشة والحزن والخوف وترك المؤانسة بالخلق جميعاً خوفاً من أن يحلّ عليه غضب من الله فيهلك و رجاء أن ينجو من عذابه ، فخفّ ذلك كلّه عليه عندشدّة يقينه و إيمانه بعاقبة أمره و بما أُعدّ له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد ، ثمّ علم أنّ الله رحيم لم يزل بعباده المريدين لمرضاته عوناً و بهم رؤوفاً و عليهم عطوفاً ، ولوشاء لأغناهم عن التّعب والنصب ، ولكن أراد أن يبلوهم و يعرف صدق إرادتهم حكمة منه و عدلاً ، ثمّ إذا تحمّل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحطّ عنه الأعباء و سهّل عليه الصبر ، و حبّب إليه الطّاعة و رزقه فيها من لذّة المناجاة ما يلهيه ذلك عن سائر اللّذّات و يقوّيه على إماتة الشهوات ويتولّى سياسته و تقويته و أمدّه بمعونته فإنّ الكريم لايضيّع سعي الرّاجي و لا يخيب أمل المحبّ ، و هو الّذي يقول : « من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً » و يقول : « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي و إنّي إلى لقائهم لأشدّ شوقاً » فليظهر العبد في البداية جدّه و صدقه و إخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده و كرمه و رأفته و رحمته و لله الحمد و المنّة .

هذا آخر كتاب ذمّ الجاه و الرّياء من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء .

و يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب ذمّ الكبر والعجب والحمدلله أوّلاً وآخراً .

كتاب ذمّ الكبر والعُجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارىء المصوّر العزيز الكبير الجبّار المتكبّر العليّ الّذي لا يضعه عن مجده واضع، الجبّار الّذي كلّ جبّار له ذليل خاضع، و كلّ متكبّر في جناب عزّه مسكين متواضع، فهو القاهر الّذي لا يدفعه عن مراده دافع، الغنيّ الّذي ليس له في ملكه شريك ولا منازع، القادر الّذي بهر (١) أبصار الخلايق جلاله و بهاؤه، و قهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه، وحصر ألسن النبيّين وصفه و ثناؤه، وارتفع عن حدّ قدرتهم احصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجز عن صفة كنه جلاله ملائكته و أنبياؤه، و كسر ظهور الأكاسرة عزّه و علاؤه، و قصر أيدي القياصرة عظمته و كبرياؤه، فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه، و من نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه، جلّ جلاله، و تقدّست أسماؤه.

والصّلاة على محمّد الّذي اُنزل معه النور المنتشر ضياؤه، حتّى أشرقت بنوره أكناف العالم و أرجاؤه، وعلى آله وأصحابه الّذين هم أحبّاء الله و أولياؤه، وخيرته و أصفياؤه، و سلّم تسليماً كثيراً.

أمّا بعد فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته» (٢).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ثلاثٌ مُهلكاتٌ: شحٌّ مُطاعٌ، و هوًى متّبعٌ، و إعجابُ المرءِ

(١) أى غلب وفاق و فضل.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج١ص٦١ دون ذكر «العظمة» وقال: صحيح على شرط مسلم.

بنفسه » (١) فالكبر والعجب داءان مهلكان ، والمتكبّر والمعجب سقيمان مريضان ، وهما عندالله ممقوتان بَغيضان (٢) .

و إذا كان القصد في هذا الرّبع من الكتاب شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنّهما من قبائح المرديات ، ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين : شطر في الكبر ، و شطر في العجب إن شاء الله تعالى .

الشطر الأوّل من الكتاب في الكبر ، و فيه بيان ذمّ الكبر ، و بيان ذمّ الاختيال ، و بيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبّر وآفته ، وبيان من يتكبّر عليه ، و درجات الكبر ، و بيان ما به الكبر ، وبيان البواعث على التكبّر ، وبيان أخلاق المتواضعين و ما فيه يظهر الكبر ، و بيان علاج الكبر ، و بيان إمتحان النّفس في خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه .

(بيان ذمّ الكبر)

قد ذمّ الله تعالى الكبر في مواضع من كتابه و ذمّ كلّ جبّار متكبّر فقال تعالى : « سأصرف عن أياتي الّذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ » (٣) .

و قال تعالى : « كذلك يطبع الله على كلّ قلب متكبّر جبّار » (٤) .

و قال تعالى : « واستفتحوا وخاب كلّ جبّار عنيد » (٥) .

و قال تعالى : « إنّه لا يحبّ المستكبرين » (٦) .

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر ، و لا يدخل النّار من كان في قلبه مثقال حبّة من إيمان » (٧) .

---

(١) تقدم مرات عديدة .

(٢) البغيض : الشديد البغض ، تقول : « ما أبغضه الى » تخبر أنه مبغض عندك ، يعنى صار عندالله مبغوضاً .

(٣) الاعراف : ١٤٣ .

(٤) المؤمن : ٣٨ .

(٥) ابراهيم : ١٩ .

(٦) النحل : ٢٦ .

(٧) أخرجه مسلم ج ١ ص ٦٥ من حديث عبدالله بن مسعود .

و عنه ﷺ : « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنّم ولا اُبالي » (١)

و قال ﷺ : « لا يزال الرّجل يذهب بنفسه حتّى يكتب في الجبّارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب » (٢).

و قال سليمان بن داود عليه السلام يوماً للطّير والجنّ والإنس والبهائم: «اخرجوا فخرجوا في مائتي ألف من الإنس و مائتي ألف من الجنّ ، فرفع حتّى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السّماوات ثمّ خفض حتّى مسّت قدماه في البحر فسمع صوتاً يقول : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرّة من كبر لخسفت به أبعد ممّا رفعته ».

و قال ﷺ : « يخرج من النار عنق له اُذنان يسمعان وعينان يبصران ولسان ينطق يقول : وكّلت بثلاثة : بكلّ جبّار عنيد ، وبكلّ من دعا مع الله إلهاً آخر ، و بالمصوّرين » (٣).

و قال ﷺ : « لا يدخل الجنّة جبّار ولا بخيل ولا سيّيء الملكة » (٤).

و قال ﷺ : « تحاجّت الجنّة والنّار ، فقالت النّار : اُوثرت بالمتكبّرين والمتجبّرين ، و قالت الجنّة : مالي لا يدخلني إلّا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم ، فقال الله تعالى للجنّة : إنّما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنّار : إنّما أنت عذابي اُعذّب بك من أشاء ولكلّ واحدة منكما ملؤها » (٥).

و قال ﷺ : « بئس العبد عبد تجبّر واعتدى ونسي الجبّار الأعلى ، بئس

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧٤ . و ابو داود ج ٢ ص ٣٨٠ بلفظ « قذفته فى النار » .

(٢) أخرجه الترمذى فى ذيل حديث عن سلمة بن الاكوع عن ابيه عن النبى (ص) و حسنه .

(٣) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٤٤ من حديث ابى هريرة وقال حسن غريب صحيح وهكذا رواه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ١٣٠ وقد رواه بعضهم عن عطية عن أبى سعيد الخدرى .

(٤) تقدم سابقاً .

(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥١ وفيه « وسقطهم وغرتهم » .

العبد عبد تجبّر و اختال و نسي الكبير المتعال ، بئس العبد عبد غفل و سها و لها و نسي المقابر والبلى ، بئس العبد عبد عتا و بغى و نسي المبتدء و المنتهى » (١).

و عن ثابت أنّه قال : بلغنا أنّه قيل : يارسول الله ما أعظم كبر فلان ، فقال : « أليس بعده الموت » (٢).

و عنه صلى الله عليه وآله : « أنّ نوحاً لمّا حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال : إنّي آمركما باثنتين و أنها كما عن الشرك والكبر ، وآمركما بلا إله إلّا الله ؟ فانّ السماوات و الأرضين و ما فيهنّ لو وضعت في كفّة الميزان و وضعت « لا إله إلّا الله » في الكفّة الاُخرى لكانت أرجح منهما و لو أنّ السّماوات والأرضين و مافيهنّ كانتا حلقة فوضعت « لا إله إلّا الله » عليها لقصمتها ، وآمركما بسبحان الله و بحمده فإنّهما صلاة كلّ شيء و بها يرزق كلّ شيء » (٣).

و قال عيسى عليه السلام : « طوبى لمن علّمه الله كتابه ثمّ لم يمت جبّاراً ».

و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله : « أهل النّار كلّ جَعْظَرِيّ و كلّ جوّاظ مستكبر جمّاع منّاع ، وأهل الجنّة الضّعفاء المقلّون »(٤).

و قال صلى الله عليه وآله : « إنّ أحبّكم إلينا وأقربكم منّا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً ، و إنّ أبغضكم إلينا و أبعدكم منّا في الآخرة الثرثارون المُتَشدِّقون المُتَفَيهِقون ، قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثرثارين المتشدّقين ، فمن المتفيهقون ؟ قال : المتكبّرون » (٥).

---

(١) أخرجه البغوى فى المصابيح ج٢ ص ١٦٨ بتقديم وتأخير. وقال : غريب ضعيف .
(٢) قال العراقى : أخرجه البيهقى فى الشعب هكذا مرسلا بلفظ « تجبر » .
(٣) أخرجه احمد فى المسند ج ٢ ص ١٧٠ من حديث ابن عمر .
(٤) أخرجه الحاكم ج ١ ص ٦١ من حديث سراقة بن مالك بسند صحيح بتقديم و تأخير وفيه « المغلوبون » مكان « المقلون » ودون ذكر « جماع مناع » . والجعظرى : الغليظ المتكبر (النهاية) .
(٥) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٧٥ من حديث جابر والثرثار : هو الكثير الكلام تكلفاً . والمتشدق : هو المتكلم بملء شدقيه تفاصحاً و تعاظماً واستعلاء على غيره و هو معنى المفيهق أيضاً .

و قال ﷺ : « يحشر المتكبّرون يوم القيامة في مثل صور الذّرّ تطؤهم النّاس ذرّاً في مثل صور الرّجال يعلوهم كلّ شيء من الصّغار ثمّ يساقون إلى سجن في جهنّم يقال له : بولس ، يعلوهم نارالأنيار يسقون من طينة الخبال و عصارة أهل النّار »[(١)].

وعنه ﷺ « يحشر الجبّارون المتكبّرون يوم القيامة في صور الذّرّ يطؤهم النّاس لهوانهم على الله تعالى »[(٢)].

وعنه ﷺ « أنّ في جهنّم وادياً يقال له : هَبْهَبُ ، حقّ على الله سبحانه أن يسكن فيه كلّ جبّار »[(٣)].

وعنه ﷺ : « إنّ في النّار قصراً يجعل فيه المتكبّرون ويطبق عليهم »[(٤)].

وقال ﷺ : « اللّهمّ إنّي أعوذ بك من نفخة الكبرياء »[(٥)].

وقال ﷺ : « من فارق روحه جسده وهو بريىء من ثلاث دخل الجنّة : الكبر ، والدّين ، والغلول »[(٦)].

وسئل سلمان عن السيّئة الّتي لا تنفع معها حسنة فقال : الكبر .

---

(١) أخرجه احمد ج ٢ ص ١٧٩ .

(٢) أخرجه البزارهكذامختصراًدون قوله : « الجبارون » واسناده حسن . (المغنى)

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٥٩٧ وسنده ضعيف .

(٤) قال العراقى : أخرجه البيهقى فى شعب الايمان من حديث أنس وقال : « توابيت » مكان « قصراً » وقال : « فيقفل » مكان « يطبق » وفيه أبان بن ابى عياش وهوضعيف .

(٥) ماعثرت على اصل له الآ على ماأخرجه ابن ماجه فى كتاب (اقامة الصلاة باب الاستعاذة فى الصلاة) رقم ٨٠٧ فى حديث : « اللهمّ انى اعوذبك من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » . وقال عمرو : همزه الموتة ، و نفثه الشعر ، ونفخه الكبر . انتهى ، والموتة نوع من الجنون و الصرع يعترى الانسان ، فاذا أفاق عاداليه كمال العقل كالسكران .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٤١٢ من حديث ثوبان . أقول : قال العراقى : رواه ابن الجوزى فى جامع المسانيد عن الدار قطنى قال : انما هو الكنز (بالنون والزاى) مكان « الكبر » و كذلك أيضاً ذكر ابن مردويه الحديث فى تفسير « والذين يكنزون الذهب و الفضة ».

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الكبر رداء الله والمتكبّر ينازع الله رداءه»(١).

و عنه عليه السلام: «العزّ رداء الله والكبر إزاره، فمن تناول شيئاً منه أكبّه الله في جهنّم»(٢).

و عنه، وعن أبي عبدالله عليهما السلام قالا: «لا يدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر»(٣).

و عن محمّد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام قال: «لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من الكبر، قال: فاسترجعت فقال: مالك تسترجع؟ قلت: لما سمعت منك، فقال: ليس حيث تذهب إنّما أعني الجحود، إنّما هو الجحود»(٤).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الكبر أن تغمص النّاس وتسفه الحقّ»(٥).

و عنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّ أعظم الكبر غمص الخلق و سفه الحقّ، قال: قلت: ما غمص الخلق وسفه الحقّ؟ قال: يجهل الحقّ ويطعن على أهله، فمن فعل ذلك فقد نازع الله رداءه»(٦).

و عنه عليه السلام قال: «إنّ في جهنّم لوادياً للمتكبّرين يقال له: سقر، شكا إلى الله شدّة حرّه و سأله أن يأذن له أن يتنفّس، فتنفّس فأحرق جهنّم»(٧).

وعنه عليه السلام قال: «إنّ المتكبّرين يجعلون في صور الذّرّ يتوطّأهم النّاس حتّى يفرغ الله من الحساب»(٨).

وعن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّني آكل الطعام الطيّب و أشمّ الرّيح الطيّبة و أركب الدّابّة الفارهة و يتبعني الغلام فترى في هذا شيئاً

---

(١) الى (٦) المصدر باب الكبر ج ٢ ص ٣٠٩ تحت رقم ٤ و٣ و٦ و٧ و٨ و٩ والغمص - بالمعجمة ثم المهملة: الاحتقار والاستصغار. و السفه: الجهل و أصله الخفّة والطيش، ومعنى سفه الحق الاستخفاف به وأن لايراه على ماهو عليه من الرجحان والرزانة.
(٧) و (٨) الكافي ج ٢ ص ٣١٠ تحت رقم ١٠ و ١١.

من النجبر فلا أفعله ؟ فأطرق أبو عبدالله عليه السلام (*) ثمّ قال : « إنّما الجبّار الملعون من غمص الناس و جهل الحقّ » قال عمر : فقلت : أمّا الحقّ فلا أجهله والغمص لا أدري ما هو ؟ قال : « من حقّر الناس و تجبّر عليهم فذلك الجبّار » (١).

وعنه عليه السلام قال : « إنّ يوسف عليه السلام لمّا قدم عليه الشيخ يعقوب عليه السلام دخله عزّ الملك فلم ينزل إليه فهبط عليه جبرئيل فقال : يا يوسف أبسط راحتك (*) فخرج منها نور ساطع فصار في جوّ السّماء فقال يوسف : يا جبرئيل ماهذا النور الّذي خرج من راحتي ؟ قال : نزعت النبوّة من عقبك عقوبة لما لم تنزل إلى الشيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبيّ » (٢).

وعنه عليه السلام قال : « ما من عبد إلّا و في رأسه حكمة (٣) و ملك يمسكها فإذا تكبّر قال له : اتّضع وضعك الله ، فلا يزال أعظم الناس في نفسه و هو أصغر الناس في أعين النّاس ، فإذا تواضع رفعها الله ثمّ قال له : انتعش نعشك الله (٤) فلا يزال أصغر الناس في نفسه و أرفع الناس في أعين الناس » (٥).

و عنه عليه السلام قال : « ما من أحد يتيه (٦) إلّا من ذلّة يجدها في نفسه » وفي لفظ

(*) لعل اطراقه وسكوته عليه السلام للاشعار بانها في محل الخطر وملتزمة للتكبر .

(١) الكافي ج ٢ ص ٣١١ تحت رقم ١٣ . (*) الراحة باطن الكفّ .

(٢) الكافي ج٢ ص٣١١ تحت رقم ١٥ . والنزول اما عن الدابة او عن السرير و كلاهما مرويان وينبغي حمله على أن مادخله لم يكن تكبراً وتحقيراً لوالده لكون الانبياء منزهين عن امثال ذلك ، بل راعى فيه المصلحة لحفظ عزّته عند عامّة الناس لتمكنه من سياسة الخلق وترويج الدين اذكان نزول الملك عندهم لغيره موجباً لذله وكان رعاية الادب للاب مع نبوّته ومقاساة الشدائد لحبّه أهم و اولى من رعاية تلك المصلحة ، فكان هذا منه عليه السلام تركاً للاولى ، فلذا عوتب عليه وخرج نور النبوة من صلبه ، لانّهم لرفعة شأنهم وعلو درجتهم يعاتبون بأدنى شيء ، فهذا كان شبيهاً بالتكبر ولم يكن تكبراً ، وقوله : «فصار الى جو السماء» أى استقر هناك أو ارتفع الى السماء . قاله العلامة المجلسي - رحمه الله - في مرآة العقول.

(٣) الحكمة - محركة - : اللجام او ما احاط بحنكي الفرس من لجامه وفيها العذران .

(٤) اى ارتفع رفعك الله والامر فيه وفي « اتضع » تكويني او تشريعي .

(٥) الكافي ج ٢ ص ٣١٢ تحت رقم ١٦ . (٦) اى ما يتكبر .

آخر « ما من أحد تكبّر أو تجبّر إلّا لذلّة وجدها في نفسه »(١).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ثلاثة لا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان و ملك جبّار و مقلّ مختال »(٢).

(بيان ذم الاختيال واظهار آثار الكبر فى المشى و جر الثياب)

قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « لا ينظر الله إلى رجل يجرّ إزاره بطراً »(٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « بينما رجلٌ يتبختر في بردته و قد أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »(٤).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من جرّ إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة »(٥).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا مشت اُمّتي المطيطاء، وخدمتهم فارس والرّوم سلّط الله بعضهم على بعض »(٦) قال ابن الأعرابيّ : هي مشية فيها اختيال .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من تعظّم في نفسه واختال في مشيته لقى الله وهو عليه غضبان »(٧).

و روي أنّ عمر بن عبدالعزيز حجّ قبل أن يستخلف فنظر إليه طاؤوس و هو

---

(١) المصدر ج ٢ ص ٣١٢ تحت رقم ١٧ و المعنى واضح اى ماتكبر من الناس أحد الا من أيقن بضعف أوذلة كامنة فى نفسه ولذلك يتكبر لكي يجبرها و يدفع عن نفسه تلك الخسة والذلّة ويحتمل أن يكون اللام لام الصيرورة أو الذلّة سبب للتكبر .

(٢) الكافى ج ٢ ص ٣١١ تحت رقم ١٤ والمقل الفقير والمختال : المتكبر .

(٣) أخرجه مسلم ج٦ص١٤٧ . ورواه البغوى فى المصابيح ج ٢ص ١١٩ واللفظ له .

(٤) أخرجه ابويعلى والطبراني والبزار من حديث العباس بن عبدالمطلب . ومتفق عليه فى الصحيحين من حديث أبى هريرة .

(٥) أخرجه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ١١٩ واللفظ له من حديث ابن عمر .

(٦) أخرجه الترمذى ج ٩ص ١١٨ . وفيه « المطيطياء» وفى النهاية « المطيطاء » وذكر آنها بالمدوالقصر وهى مشية فيها تبختر ومداليدين .

(٧) أخرجه احمد والبخارى فى الادب المفرد من حديث عبدالله بن عمر بسند حسن كما فى الجامع الصغير .

يختال في مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثمّ قال: ليست هذه مشية من في بطنه خرء فقال عمر: كالمعتذر يا عمّ لقدضرب كلّ عضو منّي على هذه المشية حتّى تعلّمتها.

و يروى أنّ مطرف بن عبدالله بن الشخّير رأى المهلّب و هو يتبختر في جبّة خزّ، فقال له: يا عبدالله هذه مشية يبغضها الله و رسوله، فقال له المهلّب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك أوّلك نطفة مذرة[1] وآخرك جيفة قذرة، وتحمل بين جنبيك العذرة، فمضى المهلّب و ترك مشيته تلك.

و قال مجاهد في قوله تعالى: «ثمّ ذهب إلى أهله يتمطّى» أي يتبختر.

و إذ ذكرنا ذمّ الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع.

✿(بيان فضيلة التواضع)✿

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ما زاد الله عبداً بعفو إلّا عزّاً، و ما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله»[2].

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ما من أحد إلّا و معه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها، فإن هو رفع نفسه جبذاها ثمّ قالا: اللّهمّ ضعه، وإن وضع نفسه قالا: اللّهمّ ارفعه»[3]

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «طوبى لمن تواضع في غير مسكنة، وأنفق مالاً جمعه من غير معصية، و رحم أهل الذّلّة والمسكنة، و خالط أهل الفقه والحكمة»[4].

و عن أبي سلمة المديني، عن أبيه، عن جدّه قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عندنا بقباء وكان صائماً فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن و جعلنا فيه شيئاً من عسل فلمّا رفعه فذاقه وجدفيه حلاوة العسل، فقال: ماهذا؟ قلنا: يا رسول الله جعلنا فيه شيئاً

---

(١) المذر: الفاسد والخبيث. (٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ من حديث أبي هريرة.

(٣) قال العراقي: أخرجه العقيلي في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابي هريرة وأيضاً من حديث ابن عباس و كلاهما ضعيف انتهى، اقول: ورواه الطبراني والبزار بنحوه من حديث أبي هريرة واسنادهما حسن كما في الترغيب للمنذري ج ٣ ص ٥٦١. ومر عن الكافي آنفاً بسند حسن.

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ والبغوي والباوردي وابن قانع والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ركب المصري بسند حسن كما في الجامع الصغير.

من عسل، فوضعه، و قال: أما إنّي لا اُحرّمه، و من تواضع لله رفعه الله، و من تكبّر وضعه الله، و من اقتصد أغناه الله، و من بذّر أفقره الله، و من أكثر ذكر الله أحبّه الله »(١).

و روي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب و به زمانة تنكره بها، فأذن له فلمّا دخل أجلسه رسول الله صلّى الله عليه وآله على فخذه ثمّ قال له: اطعم، وكان رجل من قريش اشمأزّ منه و يكرهه فما مات ذلك الرّجل حتّى كانت به زمانة مثلها (٢).

و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: « خيّرني ربّي بين أمرين: أكون عبداً رسولاً أوملكاً نبيّاً فلم أدر أيّهما أختار وكان صفيّي من الملائكة جبرئيل فرفعت رأسي فقال: تواضع لربّك فقلت: عبداً رسولاً »(٣).

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: « إنّما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتعاظم على خلقي، وألزم قلبه خوفي وقطع النهار بذكري و كفّ نفسه عن الشهوات من أجلي ».

و قال صلّى الله عليه وآله: « الكرم التقوى، والشرف التواضع، واليقين الغنى »(٤).

و قال عيسى عليه السلام: « طوبى للمتواضعين في الدّنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدّنيا هم الّذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهّرة قلوبهم في الدّنيا هم الّذين ينظرون إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة ».

(١) أخرجه البزار من رواية طلحة بن عبيدالله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه الاقوله « و من اكثر ذكر الله احبه الله » و لم يقل بقباء. قال الذهبى انه خبر منكر (المغنى) وأخرجه الكلينى ج ٢ ص ١٢٣.

(٢) قال العراقى: لم أجدله أصلاً والموجود حديث أكله مع المجذوم رواه ابوداود والترمذى ج ٨ ص١١ من حديث جابر وقال الترمذى: غريب.

(٣) أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة والطبرانى من حديث ابن عباس و كلا الحديثين ضعيف السند كما فى المغنى، وأخرجه الكلينى ج ١ ص ١٢٢ تحت رقم ٥.

(٤) أخرجه ابن ابى الدنيا فى اليقين عن يحيى بن أبى كثير مرسلا كما فى الجامع الصغير.

و قال بعضهم : بلغني أنّ النبيّ ﷺ قال : « إذا هدى الله عبداً للإسلام و حسّن صورته و جعله في موضع غير شائن له و رزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله »[1].

و قال ﷺ : « أربع لا يعطيهنّ الله إلّا من يحبّ : الصمت وهو أوّل العبادة والتوكّل على الله ، والتواضع ، والزّهد في الدّنيا »[2].

و قال ابن عبّاس : قال النبيّ ﷺ : « إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السّماء السابعة »[3].

و قال النبيّ ﷺ : « التواضع لا يزيد العبد إلّا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله »[4].

و روي أنّ رسول الله ﷺ « كان يطعم فجاء رجل أسود به جُدَري قد تقشّر فجعل لا يجلس إلى جنب أحد إلّا قام من جنبه فأجلسه النبيّ ﷺ إلى جنبه »[5].

(١) أخرجه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودي مختلف فيه (المغني) .

(٢) ماعثرت على اصل له نعم روى الحاكم و الطبراني من حديث أنس « أربع لا يصبن الا بعجب : الصمت وهو أوّل العبادة ، والتواضع ، وذكر الله ، وقلة الشيء » و صحّحه الحاكم لكن أورده المقدسي في تذكرة الموضوعات و قال : هو من كلام الحسن البصري وفيه العوام بن جويرية وقال ابن حبان : يروى الموضوعات .

(٣) أخرج البيهقي في الشعب نحوه وفيه زمعة بن صالح ضعفه الجمهور كما في المغني .

(٤) كذا و أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب و فيه « يرفعكم الله » وهكذا رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٢١ .

(٥) تقدم أن العراقي قال : لم اجده هكذا والمعروف أكله مع المجذوم رواه أبو داود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر ، والجدري - بالضم - والفتح لغة فيه - مايقال له بالفارسية : آبله وهو بثور يظهر على البدن لدفع من الطبيعة المدبرة لبدن الانسان فضلات طمثية منبثة في البدن عن اغتذائه بها ولذلك قيل : ان هذا المرض لابد أن يعرض لكل شخص غير أن تلك الفضلات تبقى في البدن الى حين يحصل المحرك فينهض القوة الدافعة لدفعها ومن الناس من يجدر مرتين ولذلك عند من لم يقو الطبيعة على دفع المادة في سن الصبي بل يبقى شيء منها ثم يتفق أسباب مسخنة مرطبة فيحرك المادة و يحرك الطبيعة لدفعها مرة ثانية (بحر الجواهر) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّه ليعجبني أن يحمل الرّجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه »(١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه : « مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة ، قالوا : و ما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع »(٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا رأيتم المتواضعين من اُمّتي فتواضعوا لهم ، و إذا رأيتم المتكبّرين فتكبّروا عليهم فإنّ ذلك لهم مذلّة و صغار »(٣).

أقول: ومن طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « أرسل النجاشيّ إلى جعفر بن أبي طالب(٤) وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت له جالس على التراب و عليه خلقان الثياب ، قال : فقال جعفر : فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلمّا رأى مابنا و تغيّر وجوهنا قال : الحمدلله الّذي نصر محمّداً وأقرّ عينه ، ألا اُبشّركم ؟ فقلت : بلى أيّها الملك فقال : إنّه جاءني الساعة من نحو أرضكم عينٌ من عيوني هناك فأخبرني أنّ الله تعالى قد نصر نبيّه محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم و أهلك عدوّه وأسر فلان و فلان التقوا بواد يقال له : بدر ، كثير الأراك لكأنّي أنظر إليه حيث كنت أرعى لسيّدي هناك وهو رجلٌ من بني ضمرة فقال له جعفر : أيّها الملك فما لي أراك جالساً على التراب وعليك هذه الخلقان ؟ فقال : ياجعفر إنّا نجد فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام أنّ من حقّ الله تعالى على عباده أن يحدثوا له تواضعاً عندما

---

(١) و (٢) قال العراقى : كلاهما غريب .

(٣) كسابقيه .

(٤) النجاشى بفتح النون وتخفيف الجيم المعجمة لقب ملك الحبشة والمراد هنا الذى أسلم وآمن بالنبى (ص) و اسمه اصخمة بن بحر ، أسلم قبل الفتح و مات قبله صلى عليه النبى (ص) لماجاءه خبر موته . وجعفر بن ابى طالب هوأخو اميرالمؤمنين عليه السلام وكان اكبرمنه بعشرسنين وهومن كبارالصحابة ومن الشهداء الاولين وهو صاحب الهجرتين الحبشة وهجرة المدينة واستشهد يوم مؤتة سنة ثمان وله احدى و اربعون سنة فوجد فيما اقبل من جسده تسعون ضربة مابين طعنة برمح وضربة بسيف وقطعت يداه فى الحرب فأعطاه الله جناحين يطير بهما فى الجنة فلقب ذا الجناحين .

يحدث لهم من نعمة ، فلمّا أحدث الله لي نعمة محمّد صلى الله عليه وآله أحدثت لله هذا التواضع ، فلمّا بلغ النبي صلى الله عليه وآله قال : إنّ الصدقة تزيد صاحبها كثرة فتصدّقوا يرحمكم الله ، وإنّ التواضع يزيد صاحبه رفعة فتواضعوا يرفعكم الله ، و إنّ العفو يزيد صاحبه عزّاً فاعفوا يعزّكم الله » (١).

وعنه عليه السلام : « إنّ في السماء ملكين موكّلين بالعباد فمن تواضع رفعاه ، ومن تكبّر وضعاه » (٢).

وعنه عليه السلام قال : أفطر رسول الله صلى الله عليه وآله عشيّة خميس في مسجد قُباء فقال : هل من شراب فأتاه اُوس بن خولي الأنصاريّ بعسّ مخيض (*) بعسل ، فلمّا وضعه على فيه نحّاه ثمّ قال : شرابان يكتفي بأحدهما من صاحبه لاأشربه ولا اُحرّمه ولكن أتواضع لله فإنّه من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبّر خفضه الله ، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله ، ومن بذّر حرمه الله ، و من أكثر ذكر الموت أحبّه الله » (٣). و في رواية « من أكثر ذكر الله أظلّه الله في جنّته » (٤).

و عن أبي جعفر عليه السلام « أنّه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله ملك فقال : إنّ الله تعالى يخيّرك أن تكون عبداً رسولاً أو ملكاً رسولاً ـ قال : فنظر إلى جبرئيل عليه السلام أومأ بيده (٥) أن تواضع ـ فقال : عبداً رسولاً ، فقال الرّسول : (٦) مع أنّه لاينقصك ممّا عند ربّك شيئاً قال : و معه مفاتيح خزائن الأرض » (٧).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال : « أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أنّ ياموسى

(*) العس ـ بالضم ـ : القدح ، والمخيض : الزبد الذى يؤخذ من اللبن .

(١) الى (٤) الكافى ج ٢ ص ١٢١ و ١٢٢ .

(٥) كانه يستشيره وهذه الجملة ومابعدها معترضة ولهذا لم يقل « فأومأ » بالفاء .

(٦) يعنى قال الملك .

(٧) يعنى قال ابوجعفر عليه السلام : وكان مع الملك عند تبليغ هذه الرسالة المفاتيح ويحتمل أن يكون ضمير « قال » راجعاً الى الملك ومفعول القول محذوفاً ، والواو فى قوله « ومعه » للحال اى قال ذلك ومعه المفاتيح ، وقيل : راجع الى الرسول اى قال صلى الله عليه وآله : لاأقبل وان كان معه المفاتيح ولايخفى مافيه . والخبر فى الكافى ج ٢ ص ١٢٢ .

أتدري لم اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا ربّ ولم ذاك؟ قال: فأوحى الله تعالى إليه يا موسى إنّي قلبت لعبادي ظهراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذلّ لي نفساً منك، ياموسى إنّك إذا صلّيت وضعت خدّك على التّراب ـ أوقال: على الأرض »(١).

وعنه عليه السلام قال: « مرّ عليّ بن الحسين عليه السلام على المجذمين و هو راكبٌ حماره وهم يتغدّون، فدعوه إلى الغداء، فقال: أما إنّي لولا أنّي صائم لفعلت، فلمّا صار إلى منزله أمر بطعام فصنع و أمرأن يتنوّقوا فيه، ثمّ دعاهم فتغدّوا عنده وتغدّى معهم »(٢).

وعنه عليه السلام « أنّه نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً و هو يحمله فلمّا رآه الرّجل استحيى منه فقال له أبو عبدالله عليه السلام: اشتريته لعيالك و حملته إليهم، أما والله لولا أهل المدينة لأحببت أن أشتري لعيالي الشيء ثمّ أحمله إليهم »(٣).

وعنه عليه السلام قال: « فيما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود كما أقرب النّاس إلى الله المتواضعون كذلك أبعد النّاس من الله المتكبّرون »(٤).

وعنه عليه السلام « من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس، و أن تسلّم على من تلقى، وأن تترك المراء وإن كنت محقّاً، ولاتحبّ أن تحمد على التقوى »(٥).

وعنه عليه السلام « إنّ من التواضع أن يجلس الرّجل دون شرفه »(٦).

وعن أبي بصير قال: دخلت على أبي الحسن موسى عليه السلام في السنّة الّتي قبض فيها أبوعبدالله عليه السلام فقلت له: جعلت فداك ذبحت كبشاً ونحر فلان بدنة(٧) فقال: « يا أبا محمّد إنّ نوحاً كان في السّفينة و كان فيها ماشاء الله وكانت السفينة مأمورة فطافت البيت و هو طواف النّساء و خلّى سبيلها نوح فأوحى الله تعالى إلى الجبال أنّي واضع سفينة نوح عبدي على جبل منكنّ فتطاولت وشمخت و تواضع الجودي

(١) و (٢) الكافي ج ٢ ص ١٢٣ تحت رقم ٧ و ٨ و تنوقوا أي تكلفوا.
(٣) الى (٦) المصدر ج ٢ص ١٢٣.
(٧) البدنة: الناقة او البقرة والجمع بدن ـ بضمتين ـ و بدن ـ باسكان الدال ـ.

و هو جبل عندكم فضربت السّفينة بجؤجؤها الجبل [(١)] قال : فقال نوح عند ذلك : « يا ماري أتقن » و هو بالسّريانيّة ربّ أصلح ، قال فظننت : أنّ أباالحسن عليه السلام عرّض بنفسه »[(٢)].

وعن أبي الحسن عليه السلام قال : « التواضع أن تعطي النّاس ما تحبّ أن تعطاه »[(٣)]

و في حديث آخر قال : « التّواضع درجات : منها أن يعرف الرّجل قدرنفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحبّ أن يأتي إلى أحد إلّا مثل مايؤتى إليه ، إن رأى سيّئة درأها بالحسنة ، كاظم الغيظ ، عاف عن النّاس ، و الله يحبّ المحسنين »[(٤)].

وفي كتاب مصباح الشريعة [(٥)] قال الصّادق عليه السلام : « التواضع أصل كلّ شرف نفيس ومرتبة رفيعة ولوكان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقايق مافي مخفيّات العواقب ، والتواضع ما يكون لله و في الله و ما سواه مكر ، و من تواضع لله شرّفه الله على كثير من عباده ، و لأهل التّواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين ، قال الله عزّوجلّ : « و على الأعراف رجال يعرفون كلاّ بسيماهم »[(٦)] وأصل التواضع من إجلال الله و هيبته و عظمته و ليس لله عزّوجلّ عبادة يرضاها ويقبلها إلّا وبابها التواضع ولايعرف مافي حقيقة التواضع إلّا المقرّبون من عباده المتّصلين بوحدانيّته ، قال الله عزّوجلّ : « و عِبادُ الرّحمنِ الّذين يمشون على الأرض هوناً و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »[(٧)] و قد أمر الله عزّوجلّ خيرخلقه و سيّد بريّته محمّداً صلى الله عليه وآله فقال عزّوجلّ : « واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين » [(٨)] والتواضع مزرعة الخشوع والخضوع والخشية والحياء ، وإنّهنّ

(١) الجؤجؤ - كهدهد - : الصدر .

(٢) يعنى أراد بهذه الحكاية أن يتبين أنه انما تواضع بذبح الشاة دون أن ينحر البدنة ليجبر الله تواضعه ذلك بالرفعة فى قدره فى الدنيا و الاخرة كما قاله المؤلف فى الوافى ، والخبر مروى فى الكافى ج٢ ص١٢٤ .

(٣) و(٤) المصدر ج ٢ ص ١٢٤ .

(٥) الباب الثامن و الخمسون .

(٦) الاعراف : ٤٤ .

(٧) الفرقان : ٦٤ .

(٨) الشعراء : ٢١٥ .

لا يأتين إلّا منها ولايسلم الشّرف التامّ الحقيقيّ إلّا للمتواضع في ذات الله تعالى ».

و في تفسير الإمام أبي محمّد الحسن بن عليّ العسكريّ عليهما السلام « أعرف الناس بحقوق إخوانه وأشدّهم قضاء لهم أعظمهم عندالله شأناً ، ومن تواضع في الدّنيا لإخوانه فهو عندالله من الصدّيقين و من شيعة عليّ بن أبي طالب عليه السلام حقّاً ».

و قيل : ورد على أمير المؤمنين عليه السلام إخوان له مؤمنان أبٌ وابن فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدرمجلسه وجلس بين أيديهما ثمّ أمر بطعام فاُحضر فأكلا منه ثمّ جاء قنبر بطست و إبريق خشب و منديل ليبيس وماء ليصبّ على يدالرّجل فوثب أمير المؤمنين عليه السلام وأخذالإبريق ليصبّ على يد الرّجل فتمرّغ الرّجل في التراب و قال : يا أمير المؤمنين الله يراني و أنت تصبّ على يدي قال : اقعد واغسل فإنّ الله عزّوجلّ يراك و أخوك الّذي لايتميّز منك ولا يتفضّل عليك يريدبذلك في خدمته في الجنّة مثل عشرة أضعاف أهل الدّنيا و على حسب ذلك في مماليكه فيها ، فقعد الرّجل فقال عليّ عليه السلام : أقسمت عليك بعظيم حقّي الّذي عرفته و بجلّته و تواضعك لله تعالى حتّى جاز اكعنه بأن ندبني لما شرّفك به من خدمتي لك لمّا غسلت مطمئناً كما كنت تفعل لو كان الصّابّ عليك قنبر ، ففعل الرّجل ذلك فلمّا فرغ ناول الإبريق محمّدبن الحنفيّة ، وقال : يا بنيّ لوكان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببت على يده ولكنّ الله عزّوجلّ يأبى أن يساوي بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان لكن قد صبّ الأب على الأب فليصبّ الابن على الابن ، فصبّ محمّدبن الحنفيّة على الابن ، قال الحسن بن علي عليهما السلام فمن اتّبع عليّاً عليه السلام فهو الشّيعي حقّاً

فصل

قال أبوحامد : الآثار : سئل الفضيل عن التواضع فقال : هو أن تخضع للحقّ و تنقاد له ولو سمعته من صبيّ قبلته منه و لو سمعته من أجهل الناس قبلته منه .

و قال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدّنيا حتّى تعلمه أنّه ليس لك عليه بدنياك فضل و أن ترفع نفسك عمّن هو فوقك في

الدّنيا حتّى تعلمه أنّه ليس له بدنياه عليك فضل .

و قال قتادة : من أعطى مالاً أوجمالاً أو ثياباً أو علماً ثمّ لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة .

و قيل : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلتها بالاستكانة أتممتها عليك .

وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفّح وجوه الأغنياء والأشراف حتّى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم و يقول : مسكين مع مساكين .

و قال بعضهم : كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدّون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة .

و قيل : أرفع ما يكون العبد المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه .

وعن أبي الفتح بن شخرف قال : رأيت عليّ بن أبي طالب عليه السلام في المنام فقلت له : يا أبا الحسن عظني فقال : ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله تعالى وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عزّ وجلّ .

وقال أبوسليمان : لا يتواضع العبد حتّى يعرف نفسه .

و قال أبو يزيد : ما دام العبد يظنّ أنّ في الخلق من هو شرّ منه فهو متكبّر ، فقيل : متى يكون متواضعاً ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً ، وتواضع كلّ إنسان على قدر معرفته بربّه عزّ وجلّ و معرفته بنفسه .

و قال عروة بن الورد : التواضع أحد مصايد الشرف ، و كلّ نعمة محسودٌ عليها صاحبها إلّا التواضع .

و قال يحيى بن خالد البرمكيّ : الشريف إذا تنسّك تواضع والسفيه إذا تنسّك تعاظم .

و قال يحيى بن معاذ : التكبّر على ذوي التكبّر عليك بماله تواضع .

و يقال : التواضع في الخلق كلّهم حسن و في الأغنياء أحسن ، والتكبّر في

الخلق كلّهم قبيح وفي الفقراء أقبح .

ويقال : لا عزّ إلّا لمن تذلّل لله عزّ وجلّ ولا رفعة إلّا لمن تواضع لله ، ولا أمن إلّا لمن خاف الله ، ولا ربح إلّا لمن ابتاع نفسه من الله عزّ وجلّ .

وعن عمرو بن شيبة قال : كنت بمكّة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغلة و بين يديه غلمان وإذاهم يعنّفون الناس ، قال : ثمّ عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت يوماً على الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال : فجعلت أنظر إليه و أتأمّله فقال لي : مالك تنظر إليّ ؟ فقلت له : شبّهتك برجل رأيته بمكّة و وصفت له الصفة ، فقال : أنا ذلك الرّجل ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : إنّي ترفّعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفّع فيه الناس .

وتفاخرت قريش عند سلمان - رضي الله عنه - يوماً فقال سلمان : لكنّني خلقت من نطفة قذرة ثمّ أعود جيفة منتنة ثمّ آتي الميزان فإن ثقل فأنا كريمٌ و إن خفّ فأنا لئيم .

☆(بيان حقيقة الكبر و آفته)☆

إعلم أنّ الكبر ينقسم إلى ظاهر وباطن والباطن هو خُلق في النفس والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح واسم الكبر بالخلق الباطن أحقّ ، و أمّا الأعمال فإنّها ثمرات لذلك الخلق وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال : تكبّر و إذا لم يظهر يقال : في نفسه كبر ، فالأصل هو الخلق الّذي في النفس وهو الاسترواح والرّكون إلى رؤية النّفس فوق المتكبّر عليه فإنّ الكبر يستدعي متكبّراً عليه و متكبّراً به ، وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي فإنّ العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلّا وحده تصوّر أن يكون معجباً و لا يتصوّر أن يكون متكبّراً إلّا أن يكون مع غيره و هو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبّراً ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبّراً فإنّه قد يستعظم نفسه ولكن يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبّر عليه ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنّه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبّر و لو

رأى غيره مثل نفسه لم يتكبّر بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة و لغيره مرتبة ، ثمّ يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره[١] ، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر لا أنّ هذه الرؤية هي الكبر بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد و هزّة و فرح و ركون إلى ما اعتقده ، و عزّ في نفسه بسبب ذلك فتلك العزّة والهزّة والرّكون إلى المعتقد هو خلق الكبر ، و لذلك قال النبيّ صلى الله عليه وآله: « أعوذ بك من نفخة الكبرياء »[٢] ولذلك قال بعض خلفاء النبيّ صلى الله عليه وآله : أخشى أن تنتفخ حتّى تبلغ الثريّا . للّذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصّبح . و كأنّ الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين و هو الاستعظام كبر وانتفخ وتعزّز ، فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات ، و تسمّى أيضاً عزّة و تعظّماً ، و لذلك قال ابن عبّاس في قوله تعالى : « إن في صدورهم إلّا كبر ماهم ببالغيه »[٣] فقال : عظمة لم يبلغوها ففسّر الكبر بتلك العظمة ثمّ هذه العزّة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمراته و يسمّى ذلك تكبّراً فإنّه مهما عظم عنده قدر نفسه بالإضافة إلى غيره حقّر من دونه و ازدراه و أقصاه عن نفسه و أبعده و ترفّع عن مجالسته ومواكلته ورأى أنّ حقّه أن يقوم ماثلاً بين يديه إن اشتدّ كبره ، فإن كان كبره أشدّ من ذلك استنكف عن استخدامه و لم يجعله أهلاً للقيام بين يديه و لا لخدمة عتبته فإن كان دون ذلك فيأنف من مساواته ، ويتقدّم عليه في مضائق الطرق ، وارتفع عليه في المحافل ، وانتظر أن يبدأه بالسّلام ، و استبعد إن قصّر في قضاء حوائجه ، و تعجّب منه ، وإن حاجّ أو ناظر أنف أن يردّ عليه ، وإن وُعظ استنكف من القبول ، وإن وَعَظ عنف في النّصح ، وإن رُدّ عليه شيء من قوله غضب ، وإن علّم لم يرفق بالمتعلّمين و استذلّهم وانتهرهم وامتنّ عليهم و استخدمهم ، و ينظر إلى العامّة كأنّه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً ، والأعمال الصّادرة عن خلق

---

(١) فيه نظر لانه ينافى ما قال الصادق عليه السلام : « مامن رجل تكبر او تجبر الالذلة وجدها فى نفسه » .

(٢) تقدم سابقاً . (٣) المؤمن : ٥٨ .

الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنّها مشهورة فهذا هو الكبر و آفته عظيمة و غائلته هائلة، و فيه يهلك الخواصّ من الخلق، و قلّما ينفكّ عنه العبّاد والزّهاد والعلماء فضلاً عن عوامّ النّاس و كيف لا تعظم آفته وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر»(١) و إنّما صار حجاباً عن الجنّة لأنّه يحول بين العبد و بين أخلاق المؤمنين كلّها و تلك الأخلاق هي أبواب الجنّة والكبر و عزّ النّفس يغلق تلك الأبواب كلّها لأنّه لا يقدر على أنّ يحبّ للمؤمنين ما يحبّ لنفسه و فيه شيء من العزّ، ولا يقدر على التواضع و هو رأس أخلاق المتّقين وفيه العزّ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العزّ، ولا يقدر على ترك الحقد و فيه العزّ، ولا يقدر أن يدوم على الصّدق و فيه العزّ، ولا يقدر على ترك الحسد و فيه العزّ، ولا يقدر على ترك الغضب و فيه العزّ، ولا يقدر على النصح اللّطيف وفيه العزّ، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العزّ، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم و فيه العزّ، ولا معنى للتطويل، فما من خلق ذميم إلّا وصاحب العزّ والكبر مضطرّ إليه ليحفظ به عزّه، و ما من خلق محمود إلّا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزّه فمن هذا لم يدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرّة منه والأخلاق الذّميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة، و شرّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم و قبول الحقّ والانقياد له وفيه وردت الآيات الّتي فيها ذمّ المتكبّرين قال الله تعالى: «والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم - إلى قوله: - و كنتم عن آياته تستكبرون»(٢) - ثمّ قال -: «ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبّرين»(٣).

---

(١) رواه الطبراني باسناد حسن والاصبهاني كما في الترغيب و الترهيب ج٣ص٥٦٦.

(٢) الانعام: ٩٤.

(٣) النحل: ٣١ وظاهر قوله «ثم قال» أنها في سياق الاية السابقة لكن ليس كذلك وفي سورة النحل هكذا «الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي انفسهم فالقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون فادخلوا ابواب جهنم - الاية» و هكذا فيما يلي.

ثمّ أخبر أنّ أشدّ أهل النّار عذاباً أشدّهم عتيّاً على الله فقال : « ثمّ لننزعنّ من كلّ شيعة أيّهم أشدّ على الرّحمن عتيّاً »(١).

و قال : « فالّذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون »(٢).

و قال : « يقول الّذين استضعفوا للّذين استكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين »(٣).

و قال : « إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين »(٤).

و قال : « سأصرف عن آياتي الّذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ »(٥)

قيل في التفسير : سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم ، وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت ، و قال ابن جريج : سأصرفهم عن أن يتفكّروا فيها و يعتبروا بها ، و لذلك قال عيسى عليه السلام : « إنّ الزّرع ينبت في السهل و لا ينبت على الصّفا كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبّر ، ألا ترون أنّه من يتشمّخ برأسه إلى السقف شجّه و من يطأطىء أظلّه وأ دنّه » فهذا مثل ضربه للمتكبّرين و إنّهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم جحود الحقّ في حدّ الكبر والكشف عن حقيقته . وقال : « من سفه الحقّ وغمص النّاس »(٦).

(بيان المتكبر عليه وأقسامه ودرجاته وثمرات الكبر فيه)

إعلم أنّ المتكبّر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر الخلق وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً ، فتارة يتكبّر على الخلق ، وتارة يتكبّر على الخالق ، فإذن التكبّر باعتبار المتكبّر عليه ثلاثة أقسام :

الأوّل : التكبّر على الله وذلك هو أفحش أنواع الكبر ولا مثار له إلّا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود فانّه كان يحدث نفسه بأن يقاتل ربّ السماء و كما يحكى عن جماعة من الجهلة بل ما يحكى عن كلّ من ادّعى الرّبوبيّة مثل

---

(١) مريم : ٧٠ و العتى ههنا مصدر كالعتو وهو التمرد والعصيان (المجمع) .

(٢) النحل : ٢٣ .
(٣) السبأ : ٣١ .

(٤) المؤمن : ٦٢ وفى القاموس دخر : صغر وذل .

(٥) الاعراف : ١٤٣ .
(٦) مر آنفاً .

فرعون وغيره فإنّه لتكبّره قال: «أنا ربّكم الأعلى» إذ استنكف أن يكون عبدالله ولذلك قال تعالى: «إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين».

وقال الله تعالى: «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فيوفّيهم اُجورهم ويزيدهم من فضله وأمّا الّذين استنكفوا واستكبروا فيعذّبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً»[1].

وقال تعالى: «وإذا قيل لهم اسجدوا للرّحمن قالوا وما الرّحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً»[2].

القسم الثّاني: التكبّر على الرسل من حيث تعزّز النفس وترفّعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظانّ أنّه محقّ فيه وتارة يمتنع مع المعرفة إذلا تطاوعه نفسه للانقياد للحقّ والتواضع للرّشد كما حكى الله تعالى عن قولهم «أنؤمن لبشرين مثلنا»[3] و«إن أنتم إلّا بشر مثلنا»[4] «ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنّكم إذاً لخاسرون»[5] «وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لو لا اُنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيراً»[6] وقالوا: «لولا اُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً»[7]. وقال فرعون فيما أخبر الله عنه: «أو جاء معه الملائكة مقترنين»[8] وقال الله تعالى: «واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحقّ»[9] فتكبّر هو على الله تعالى وعلى رسوله جميعاً. قال وهب: قال له موسى عليه السلام: يا فرعون آمن ولك ملكك، قال: حتّى اُشاور هامان، فشاور هامان فقال له هامان: بينما أنت ربّ تعبد إذ صرت عبداً تعبد واستنكف عن عبوديّة الله

---

(١) النساء: ١٧٢ و ١٧٣.
(٢) الفرقان: ٦١.
(٣) المؤمنون: ٤٩.
(٤) ابراهيم: ١١.
(٥) المؤمنون: ٣٦.
(٦) الفرقان: ٢٢.
(٧) الفرقان: ٨.
(٨) الزخرف: ٥٤.
(٩) القصص: ٣٩.

عزّ وجلّ ومن اتّباع موسى عليه السلام ، وقالت قريش : « لو لا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (١) قال قتادة : عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة و أبو مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إذ قالوا غلامٌ يتيمٌ كيف بعثه الله إلينا فقال تعالى : « أهم يقسمون رحمت ربّك » (٢) و قال تعالى : « ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا » (٣) أي استحقاراً لهم واستبعاداً لتقدّمهم . وقالت قريش : كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ؟ أشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم ، و تكبّروا عن مجالستهم فأنزل الله تعالى « ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة و العشيّ يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » (٤) .

وقال : « ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيوة الدّنيا » (٥) .

ثمّ أخبر الله تعالى عن تعجّبهم حين دخلوا جهنّم إذ لم يروا الّذين استرذلوهم فقالوا : « ما لنا لا نرى رجالاً كنّا نعدّهم من الأشرار » (٦) قيل : يعنون عمّاراً و بلالاً وصهيباً و المقداد .

ثمّ كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وآله وسلم محقّاً ومنهم من عرف ذلك ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى : « فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به » (٧) وقال : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً » (٨) وهذا الكبر قريب من التكبّر على الله وإن كان دونه ولكنّه تكبّر عن قبول أمر الله و التواضع لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

القسم الثالث : التكبّر على العباد وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفّع عليهم فيزدريهم و يستصغرهم و يأنف من مساواتهم و هذا و إن كان دون الأوّل والثاني فهو أيضاً عظيمٌ من وجهين : أحدهما

---

(١) و (٢) الزخرف : ٣٢ و ٣٣ . (٣) و (٤) الانعام : ٥٤ و ٥٣ .

(٥) الكهف : ٢٩ . (٦) سوره ص : ٦٢ .

(٧) البقرة : ٩٠ . (٨) النمل : ١٤ .

أنّ الكبر والعزّ والعظمة والعلاء لايليق إلّا بالملك القادر فأمّا العبد المملوك الضعيف العاجز الّذي لايقدر على شيء، فمن أين يليق به الكبر، فمهما تكبّر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لاتليق إلّا بجلاله و مثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه و يجلس على سريره ، فما أعظم استحقاقه للمقت ، وما أعظم تهدّفه للخزي والنكال ، وماأشدّ استجراؤه على مولاه ، وماأقبح ما تعاطاه ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى : « العظمة إزاري و الكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته »[١] أي أنّه خاصّ صفتي ولايليق إلّا بي و المنازع فيه منازعٌ في صفة من صفاتي . وإذا كان الكبر على عباده لايليق إلّا به فمن تكبّر على عباده فقد جنى عليه إذ الّذي يسترذل خواصّ غلمان الملك ويستخدمهم ويترفّع عليهم ويستأثر بما حقّ الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره وإن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه ، فالخلق كلّهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم ، فمن تكبّر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقّه ، نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون ماهو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم و بين منازعته في أصل المملكة .

الوجه الثاني : الّذي تعظم به رذيلة الكبر أنّه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره لأنّ المتكبّر إذا سمع الحقّ من عبد من عباد الله استنكف من قبوله و تشمّر لجحده و لذلك ترى المناظرين في مسائل الدّين يزعمون أنّهم يتباحثون عن أسرار الدّين ثمّ إنّهم يتجاحدون تجاحد المتكبّرين ومهما اتضّح الحقّ على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ويتشمّر لجحده واحتال لدفعه بمايقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال : « وقال الّذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلّكم تغلبون »[٢] فكلّ من يناظر للغلبة والإفحام لاليغتنم الحقّ إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق و كذلك يحمل ذلك على

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ١ص ٦١ وقد تقدم .
(٢) فصلت : ٢٦ .

الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى : « و إذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم » (١) وقال ابن مسعود : كفى بالرّجل إثماً إذا قيل له : اتّق الله قال : عليك بنفسك .

و قال ﷺ لرجل : « كل بيمينك ، فقال : لا أستطيع ، فقال النبيّ ﷺ لا استطعت فما منعه إلّا كبره فقيل : مارفعها بعد ذلك » (٢) أي اعتلّت يده فإذن تكبّره على الخلق عظيم لأنّه سيدعوه إلى التكبّر على أمر الله وإنّما ضرب إبليس مثلاً لهذا وما حكاه من أحواله إلّا ليعتبر به فإنّه قال : « أنا خيرٌ منه » وهذا الكبر بالنسب لأنّه قال : « خلقتني من نار و خلقته من طين » (٣) فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الّذي أمره الله تعالى به فكان مبدؤه الكبر على آدم و الحسد له فجرّه ذلك على التكبّر على أمر الله فكان ذلك سبب هلاكه أبدالآباد ، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ولذلك شرح رسول الله ﷺ الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شمّاس فقال : يا رسول الله إنّي امرؤ قد حبّب إليّ من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو ؟ فقال ﷺ : لا ، و لكن الكبر من بطر الحقّ وغمص الناس » (٤) أي ازدرأهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله وخيرٌ منه ، وهذه الآفة الأولى ، و قوله : « سفه الحقّ » هو ردّه به وهي الآفة الثانية فكلّ من رأى أنّه خيرٌ من أخيه و احتقر أخاه فازدراه و نظر إليه بعين الاستصغار أو ردّ الحقّ وهو يعرفه فقد تكبّر فيما بينه و بين الخلق و من أنف من أن يخضع لله تعالى و يتواضع له بطاعته و اتّباع رسله فقد تكبّر فيما بينه و بين الله تعالى و الرّسل .

✿ (بيان مابه التكبر) ✿

إعلم أنّه لا يتكبّر إلّا من استعظم نفسه ولا يستعظمها إلّا و هو يعتقد لها صفة

(١) البقرة : ٢٠٦ .
(٢) أخرجه مسلم ج ٦ ص ١٠٩ و قال النووى : هذا الرجل بسر بن راعى العيد الاشجعى كذا ذكره ابن منده . (٣) الاعراف : ١٢ .
(٤) تقدم غير مرة بلفظ « من سفه الحق ».

من صفات الكمال و مجامع ذلك يرجع إلى كمال دينيّ أو دنيويّ ، فالدّينيّ هو العلم و العمل ، و الدّنيويّ هو النسب والجمال و القوّة و المال و كثرة الأنصار ، فهذه سبعة أسباب .

الأوّل : العلم وما أسرع الكبر إلى العلماء و لذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « آفة العلم الخيلاء » (١) فلا يلبث العالم أن يتعزّز بعزّ العلم و يستشعر في نفسه جمال العلم و كماله و يستعظم نفسه و يستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم و يستجهلهم ويتوقّع أن يبدؤوه بالسلام فإن بدأ أحداً منهم بالسلام أو ردّه عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها ، واعتقد أنّه أكرمهم وفعل بهم مالايستحقّون من مثله ، وأنّه ينبغي أن يرقّوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه بل الغالب أنّهم يبرّونه فلايبرّهم ويزورونه فلايزورهم ، ويعودونه فلايعودهم ، و يستخدم من خالطه منهم و يستسخره في حوائجه فإن قصّر فيها استنكره كأنّهم عبيده أو اُجراؤه و كأنّ تعليمه العلم صنيعة منه إليهم و معروف لديهم و استحقاق حقّ عليهم ، هذا فيما يتعلّق بالدّنيا وأمّا في أمر الآخرة فتكبّره عليهم بأن يرى نفسه عندالله أعلى و أفضل منهم فيخاف عليهم أكثر ممّا يخافه على نفسه و يرجو لنفسه أكثر ممّا يرجولهم وهذا بأن يسمّى جاهلاً أولى من أن يسمّى عالماً بل العلم الحقيقيّ هو الّذي يعرف الإنسان به نفسه و ربّه و خطر الخاتمة و حجّة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم و هذه العلوم تزيد خوفاً و تواضعاً وتخشّعاً ويقتضي أن يرى أنّ كلّ الناس خير منه لعظم حجّة الله تعالى عليه بالعلم و تقصيره في القيام بشكر نعمة العلم و لهذا قال أبوالدّرداء : من ازداد علماً ازداد خوفاً وهو كما قال .

---

(١) قال العراقي : هكذا ذكره المصنف والمعروف « آفة العلم النسيان و آفة الجمال الخيلاء » هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسند ضعيف . و روى عنه أبومنصور الديلمي في مسند الفردوس « آفة الجمال الخيلاء » وفيه الحسن بن الحميد الكوفي لايدرى من هو ، حدث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان . انتهى

فان قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً ؟ فاعلم أنّ له سببين : أحدهما أن يكون اشتغاله بما يسمّى علماً وليس بعلم حقيقيّ و إنّما العلم الحقيقيّ مايعرف العبد به نفسه و ربّه و خطر أمره في لقاء الله و الحجاب عنه ، وهذا يورث الخشية و التواضع دون الكبر والأمن قال الله تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » [1] فأمّا ما وراء ذلك كعلم الطبّ والحساب واللّغة والشعر والنحو وفصل الخصومات و طرق المجادلات فاذا تجرّد الانسان لها حتّى امتلأ به امتلأ كبراً و نفاقاً و هذه بأن تسمّى صناعات أولى من أن تسمّى علوماً ، بل العلم هو معرفة العبوديّة و الرّبوبيّة و طريق العبادة و هذا يورث التواضع غالباً .

السبب الثاني : أن يخوض العبد في العلم و هو خبيث الدّخلة رديء النفس سيّىء الأخلاق فلم يشتغل أوّلاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربّه فبقي خبيث الجوهر فاذا خاض في العلم أيّ علم كان صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره و لم يظهر في الخير أثره ، و قد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال : العلم كالغيث ينزل من السّماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوّله على قدر طعومها ، فيزداد المرّ مرارة والحلو حلاوة ، فكذلك العلم يحفظه الرّجال فتحوّله على قدر هممهم وأهوائهم ، فيزيد المتكبّر كبراً والمتواضع تواضعاً وهذا لأنّ من كانت همّته الكبر وهو جاهل فاذا حفظ العلم وجد ما يتكبّر به فازداد كبراً ، وإذا كان الرّجل خائفاً مع جهله فاذا ازداد علماً علم أنّ الحجّة قد تأكّدت عليه فيزداد خوفاً و إشفاقاً وتواضعاً ، فالعلم من أعظم ما يتكبّر به ومن أجل ذلك قال الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم : « واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين » [2] وقال : « ولو كنت فظّاً غليظ القلب لا نفضّوا من حولك » [3] و وصف أولياءه فقال تعالى : « أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين » [4] ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما رواه العبّاس : « يكون قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد

(١) فاطر : ٢٨ . (٢) الشعراء : ٢١٥ .
(٣) آل عمران : ١٥٩ . (٤) المائدة : ٥٩ .

قرأنا القرآن فمن أقرأ منّا و من أعلم منّا ، ثمّ التفت إلى أصحابه فقال : اُولئك منكم أيّها الاُمّة ، اُولئك هم وقود النّار »[1] و لذلك قيل : « لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم . و صلّى حذيفة بقوم فلمّا سلّم قال : لتلتمسنّ إماماً غيري أو لتصلّنّ وحداناً إنّي رأيت في نفسي أنّه ليس في القوم أفضل منّي .

فإذا كان مثله لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخّري هذه الاُمّة فما أعزّ على بسيط الأرض عالم يستحقّ أن يقال : إنّه عالم ، ثمّ إنّه لا يحرّكه عزّ العلم و خيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صدّيق زمانه ، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلاً عن الاستفادة من أنفاسه و أحواله ، لو عرفنا ذلك و لو في أقصى الصّين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته و تسري إلينا سيرته و سجيّته و هيهات فأنّى يسمح آخر الزّمان بمثلهم فهم أرباب الإقبال و أصحاب الدّول و قد انقرضوا في القرن الأوّل و من يليهم بل يعزّ في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة ، فذلك أيضاً إمّا معدوم و إمّا عزيز و لو لا بشارة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوله : « سيأتي زمان على الناس من تمسّك بعشر ما أنتم عليه نجا »[2] لكان جديراً بنا أن نقتحم - والعياذ بالله - ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا و من أين لنا أيضاً بالتمسّك بعشر ما كانوا عليه وليتنا تمسّكنا بعشر عشره ، فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله و أن يستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه فضله و كرمه .

الثّاني العمل والعبادة و ليس يخلو عن رذيلة العزّ والكبر و استمالة قلوب الناس الزّهّاد والعبّاد ويترشّح الكبر منهم في الدّنيا والدّين أمّا الدّنيا فهو أنّهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى من أنفسهم بزيارة غيرهم و يتوقّعون قيام الناس بقضاء حوائجهم و توقيرهم والتوسّع لهم في المجالس و ذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ إلى جميع ما ذكرناه في حقّ العلماء و كأنّهم يرون

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق كما في المغني .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ج ٥ ص ١٥٥ من حديث رجل من أبي ذر .

عبادتهم منّة على الخلق ، وأمّا في الدّين فهو أن يرى الناس هالكين و يرى نفسه ناجياً و هو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « إذا سمعتم الرّجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم » (١) و إنّما قال : ذلك لأنّ هذا القول يدلّ على أنّه مزدر لخلق الله ، مغترّ بالله ، آمن من مكره ، غير خائف من سطوته ، و كيف لا يخاف ويكفيه شرّاً احتقاره لغيره ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « كفى بالمرء شرّاً أن يحقر أخاه المسلم » ، و كم من الفرق بينه و بين من يحبّه لله و يعظمه لعبادته و يستعظمه و يرجو له مالا يرجو لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إيّاه لله فهم يتقرّبون إلى الله بالدّنوّ منه و هو يتمقّت إلى الله بالتنزّه والتباعد منهم كأنّه مرتفع عن مجالستهم ، فما أجدرهم إذا أحبّوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل و ما أجدره إذا ازدرأهم بعينه أن ينقله الله إلى حدّ الإهمال كما روي أنّ رجلاً في بني إسرائيل - يقال له : خليع بني إسرائيل لكثرة فساده - مرّ برجل آخر يقال له : عابد بني إسرائيل وكانت على رأس العابد غمامة تظلّه فلمّا مرّ الخليع به فقال الخليع في نفسه : أنا خليع بني إسرائيل و هذا عابد بني إسرائيل فلو جلست إليه لعلّ الله يرحمني فجلس إليه فقال العابد في نفسه : أنا عابد بني إسرائيل و هذا خليع بني إسرائيل كيف يجلس إليّ فأنف منه و قال له : قم عنّي فأوحى الله إلى نبيّ ذلك الزّمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد ، وفي حديث آخر فتحوّلت الغمامة إلى رأس الخليع . وهذا يعرفك أنّ الله تعالى إنّما يريد من العبيد قلوبهم ، فالجاهل العاصي إذا تواضع و ذلّ هيبة لله وخوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه فهو أطوع لله من العالم المتكبّر والعابد المعجب ، و كذلك روي أنّ رجلاً في بني إسرائيل أتى عابداً من بني إسرائيل فوطىء على رقبته و هو ساجد فقال له : إرفع فوالله لا يغفر الله لك ، فأوحى إليه أيّها المتألّي عليّ بل أنت لا يغفر الله لك ، و لذلك قيل : وحتّى أنّ صاحب الصوف أشدّ كبراً من صاحب المطرف الخزّ أي أنّ صاحب الخزّ يذلّ لصاحب الصّوف و يرى الفضل له و صاحب الصوف يرى الفضل

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٣٦ من حديث أبي هريرة .

لنفسه، و هذه الآفة أيضاً قلّما ينفكّ عنها العباد و هو أنّه لواستخفّ به مستخفّ أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشكّ في أنّه صار ممقوتاً عندالله ولو آذى مسلماً آخرلم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهوجهل وجمع بين العجب والكبر والاغترار بالله و قد ينتهي الحمق والغباوة لبعضهم إلى أن يتحدّى و يقول: سترون ما يجري عليه، وإذا اُصيب بنكبة زعم أنّ ذلك من كراماته وأنّ الله ماأراد به إلّا شفاء علّته والانتقام له منه مع أنّه يرى طبقات من الكفّار يسبّون الله ورسوله وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من ضربهم و منهم من قتلهم، ثمّ إنّ الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدّنيا بل ربّما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدّنيا ولا في الآخرة، ثمّ إنّ الجاهل المغرور يظنّ أنّه أكرم على الله من أنبيائه و أنّه قد انتقم له بما لاينتقم لأنبيائه، ولعلّه في مقت الله بإعجابه و كبره وهوغافل عن هلاك نفسه. فهذه عقيدة المغترّين و أمّا الأكياس من العبّاد فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كانت تهبّ ريح أوتقع صاعقة: ما يصيب الناس مايصيبهم إلّا بسببي ولومات عطاء لاستراح الناس، وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرّحمة لجميعهم لولا كوني فيهم، فانظر إلى الفرق بين الرّجلين هذا يتّقي الله ظاهراً و باطناً وهو وجلٌ على نفسه مزدر لعمله وسعيه و ذلك ربّما يضمرمن الرّياء والكبر والحسد والغلّ ما هو ضحكة للشياطين به ثمّ إنّه يمتنّ على الله بعمله، و من اعتقد جزماً أنّه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله فإنّ الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعّد العبد عن الله، وحكمه لنفسه بأنّه خيرٌ من غيره جهل محض وأمن من مكر الله تعالى «و لا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون» و لذلك روي أنّ رجلاً ذكر بخير للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فأقبل ذات يوم فقالوا: يا رسول الله هذا الّذي ذكرناه لك، فقال: إنّي أرى في وجهه سفعة من الشيطان فسلّم و وقف على النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و أصحابه، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أسألك بالله حدّثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك؟ فقال: اللّهمّ نعم» (١) فرأى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بنور النبوّة ما

(١) أخرجه احمد والبزار و الدار قطني من حديث أنس كما في المغني.

استكنّ في قلبه سفعة في وجهه وهذه آفة لاينفكّ عنها أحدٌ من العبّاد إلّا من عصمه الله. لكن العلماء والعبّاد في آفة الكبر على ثلاث درجات :

الدّرجة الأولى أن يكون الكبر مستقرّاً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره إلّا أنّه يجتهد و يتواضع و يفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه و هذا قد رسخت في قلبه شجرة الكبر و لكنّه قطع أغصانها بالكلّيّة .

الثانية أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفّع في المجالس والتقدّم على الأقران وإظهار الإنكار على مَن يقصر في حقّه و أدنى ذلك في العالم أن يصعّر خدّه للناس كأنّه معرض عنهم وفي العابد أن يعبس وجهه و يقطب جبينه كأنّه متنزّه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم ، وليس يعلم المسكين أنّ الورع ليس في الجبهة حتّى يقطبها و لا في الوجه حتّى يعبس و لا في الخدّ حتّى يصعر و لا في الرّقبة حتّى يطأطأ ولا في الذيل حتّى يضمّ إنّما الورع في القلوب قال صلى الله عليه وآله وسلم : «التقوى ههنا »[1] و أشار إلى صدره ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكرم الخلق و أتقاهم و كان أوسعهم خلقاً و أكثرهم بشراً و تبسّماً وانبساطاً ، و لذلك قال الحارث بن جزء الزّبيديّ صاحب رسول الله : يعجبني من القرّاء كلّ طليق مضحاك فأمّا الّذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمنّ عليك بعمله فلا أكثر الله في المسلمين مثله ولو كان الله يرضى ذلك لما قال لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم : « و اخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين »[2] و هؤلاء الّذين يظهرون أثر الكبر على شمائلهم و أحوالهم أخفّ حالاً ممّن هو في الرّتبة

الثالثة وهو الّذي يظهر الكبر على لسانه حتّى يدعوه إلى الدّعوى والمفاخرة و المباهاة و تزكية النّفس و حكاية الأحوال و المقامات و التشمير لغلبة الغير في العلم و العمل ، أمّا العابد فإنّه يقول في معرض التّفاخر لغيره من العبّاد : مَن هو و ما عمله ؟ و من أين زهده ، فيطيل اللّسان فيهم بالتنقّص ثمّ يثني على نفسه و يقول : إنّي لم أفطر منذ كذا ولا أنام باللّيل و أختم القرآن كلّ يوم و فلان ينام سحراً ولا يكثر القراءة ، وما يجري مجراه و قد يزكّي نفسه ضمناً فيقول : قصدني

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة و قد تقدم . (٢) الشعراء : ٢١٥ .

فلان بسوء فهلك ولده و اُخذ ماله أو مرض ، ومايجري مجراه هذا يدّعي الكرامة لنفسه ، وأمّا مباهاته فهو أنّه لو وقع مع قوم يصلّون باللّيل قام وصلّى أكثر ممّا كان يصلّي ، و إن كانوا يصبرون على الجوع فيكلّف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر لهم قوّته وعجزهم و كذلك يشتدّ في العبادة خوفاً من أن يقال : غيره أعبد منه وأقوى منه في دين الله ، و أمّا العالم فإنّه يتفاخر و يقول : أنا متفنّن في العلوم ومطّلع على الحقائق رأيت من الشيوخ فلاناً وفلاناً ، ومن أنت ؟ و ما فضلك ومن لقيته و ما الّذي سمعت من الحديث ؟ كلّ ذلك ليصغّره ويعظم نفسه ، وأمّا مباهاته فهو أنّه يجتهد في المناظرة أن يغلب و لا يغلب و يسهر طول اللّيل والنهار في تحصيل علوم يتجمّل بها في المحافل كالمناظرة والجدل و تحسين العبارة وتسجيع الألفاظ و حفظ العلوم الغريبة ليغرب بها عن الأقران و يتعظّم عليهم ويحفظ الأحاديث وألفاظها وأسانيدها حتّى يردّ على من أخطأ فيها فيظهر فضله و نقصان أقرانه و يفرح مهما أخطأ واحدٌ منهم ليردّ عليه و يسوءه إذا أصاب و أحسن خيفة من أن يرى أنّه أحسن منه و أعظم منه فهذا كلّه أخلاق الكبر وآثاره الّتي يثمرها التعزّز بالعلم والعمل و أين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه ، يا ليت شعري من عرف هذه الأخلاق من نفسه و سمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر » (١) كيف يستعظم نفسه و يتكبّر على غيره و رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : هو من أهل النّار و إنّما العظيم من خلا عن هذا ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظّم و تكبّر ، والعالم هو الّذي فهم أنّ الله عزّ وجلّ قال له : إنّ لك عندنا قدراً مالم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لها قدراً فلا قدر لك عندنا ، و من لم يعلم هذا من الدّين فاسم العالم عليه كذب ومن علمه لزمه أن لا يتكبّر ولا يرى لنفسه قدراً فهذا هو التكبّر بالعلم والعمل.

الثالث التكبّر بالنسب والحسب فالّذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً و علماً و قد يتكبّر بعضهم فيرى أنّ الناس له موال و عبيد و يأنف من مجالستهم و مخالطتهم وثمرته على اللّسان التفاخر به فيقول

(١) تقدم أول هذا الكتاب .

لغيره : يانبطيّ ويا هنديّ ويا روميّ مَن أنت ومن أبوك ؟ وأنافلان بن فلان وأنّى لمثلك أن يكلّمني أو ينظر إليّ ومع مثلي تتكلّم ؟ و ما يجري مجراه و ذلك عرق دفين في النفس لا ينفكّ عنه نسيب وإن كان صالحاً أو عاقلاً إلّا أنّه قدلايترشّح منه عند اعتدال الأحوال ، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته و ترشّح منه كما روي عن أبي ذرّ أنّه قال : قاولت رجلاً عندالنبيّ صلى الله عليه وآله : فقلت له : يابن السوداء فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « يا أبا ذرّ طف الصّاع طف الصّاع ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضلٌ » قال أبو ذرّ : فاضطجعت و قلت للرّجل : قم فطأ على خدّي »[١] فانظر كيف نبّهه رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه رأى نفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء و إنّ ذلك خطأ وجهل فانظر كيف تاب و كيف قلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبّر عليه إذ عرف أنّ العزّ لا يقمعه إلّا الذلّ .

و من ذلك ما روي أنّ رجلين تفاخرا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لا اُمّ لك ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتّى عدّ تسعة ، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام قل للّذى افتخر : كلّ التسعة من أهل النّار وأنت عاشرهم »[٢].

و قال صلى الله عليه وآله : « ليدعنّ قومٌ الفخر بآبائهم و قد صاروا فحماً في جهنّم أو ليكوننّ أهون على الله من الجعلان الّتي تدرف بآنافها القذر »[٣].

الرابع التفاخر بالجمال و ذلك يجري أكثره بين النساء و يدعو ذلك إلى التنقّص والثلب و الغيبة و ذكر عيوب الناس ، و من ذلك ما روي عن عائشة أنّها

---

(١) قال العراقى : أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة مع اختلاف ولاحمد من حديثه أن النبى صلى الله عليه و آله قال له : انظر فانك لست بخير من أحمر ولااسود الاتفضله بتقوى راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٨٤ .

(٢) أخرجه عبدالله بن احمد فى زوائد المسند من حديث ابى بن كعب بسند موثق كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٨٥ ، و رواه صاحب الجعفريات دون ذكر موسى عليه السلام ص ١٦٤ من حديث على عليه السلام . وفى الكافى ج ٢ ص٣٢٩ عن أبى‌عبدالله عليه السلام .

(٣) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٦٢٤ وأخرجه ابن ماجه أيضاً .

قالت : دخلت امرأة على النبيّ ﷺ فلمّا خرجت فقلت بيدي - هكذا - أي أنّها قصيرة ، فقال النبيّ ﷺ « قداغتبتها »(١) وهذا منشاؤه خفيّ الكبر لأنّها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر فكأنّها أعجبت بقامتها و استقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت .

الخامس الكبر بالمال و ذلك يجري بين الملوك في الخزائن ، و بين التجّار في بضائعهم ، و بين الدّهاقين في أراضيهم ، و بين المتجمّلين في لباسهم و خيولهم و مراكبهم فيستحقر الغنيّ الفقير ويتكبّر عليه و يقول له : أنت مكدّ و مسكين وأنالو أردت لاشتريت مثلك و استخدمت من هو فوقك ، و من أنت وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك ، و أنا أنفق في اليوم مالا تأكله في السنة و كلّ ذلك لاستعظامه للغنى ، و استحقاره للفقر و كلّ ذلك جهل منه بآفة الغنى و فضيله الفقر ، و إليه الإشارة بقوله تعالى : « فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً و أعزّ نفراً »(٢) حتّى أجابه وقال : « إن ترن أنا أقلّ منك مالاً وولداً فعسى ربّي أن يؤتين خيراً من جنّتك و يرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤهاغوراً فلن تستطيع له طلباً » وكان ذلك تكبّراً منه بالمال والولد ثمّ بيّن الله عاقبة أمره وهو قوله : « ياليتني لم أشرك بربّي أحداً » (٣) .

ومن ذلك تكبّر قارون إذ قال تعالى : « فخرج على قومه في زينته» حتّى قال قومه : « ياليت لنا مثل ما اُوتي قارون - الآية - » (٤) .

السادس الكبر بالقوّة و شدّة البطش والتكبّر به على أهل الضعف .

السابع التكبّر بالأتباع والأنصار و التلامذة والغلمان و العشيرة والأقارب والبنين ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين، و بالجملة فكلّ ماهو نعمة و أمكن أن يعتقد كمالاً و إن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبّر به ، حتّى أن المخنّث ليتكبّر على أقرانه بزيادة قدرته ومعرفته

---

(١) تقدم في آفات اللسان .

(٢) و (٣) الكهف : ٣٣ و ٤٠ . (٤) القصص : ٨٠ .

في صنعة المخنّثين لأنّه يرى ذلك كمالاً فيفتخر به و إن لم يكن فعله إلّا نكالاً ، و كذلك الفاسق قديفتخر بكثرة الشرب و كثرة الفجور بالنّسوان والغلمان ويتكبّر به لظنّه أنّ ذلك كمال وإن كان مخطئاً فيه .

فهذه مجامع مايتكبّر به العباد بعضهم على بعض فيتكبّر من يدلى بشيء منه على من لايدلى به أوعلى من يدلى بماهو دونه في اعتقاده ، و ربمّا كان مثله أوفوقه عندالله تعالى كالعالم الّذي يتكبّر بعلمه على من هو أعلم منه لظنّه أنّه هو الأعلم و لحسن اعتقاده في نفسه .

✿ (بيان البواعث على التكبّر وأسبابه المهيّجة له) ✿

إعلم أنّ الكبر خلق باطن و أمّا مايظهر من الأخلاق و الأفعال فهي ثمرتها و نتيجتها و ينبغي أن تسمّى تكبّراً و يخصّ اسم الكبر بالمعنى الباطل الّذي هو استعظام النفس و رؤية قدرها فوق قدر الغير ، و هذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الّذي يتعلّق بالمتكبّر كما سيأتي معناه ، فانّه إذا أعجب بنفسه و بعلمه و عمله أو بشيء من أسبابه استعظم نفسه و تكبّر ، و أمّا الـ الظاهر فأسبابه ثلاثة : سبب في المتكبر ، و سبب في المتكبّر عليه ، وسبب يتعلّق بغير١٠ ، أماالسبب الّذي في المتكبّر فهو العجب ، والّذي يتعلّق بالمتكبّر عليه هو الحقد والحسد ، و الّذي يتعلّق بغيرهما هو الرّياء فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب والحقد و الحسد والرّياء .

أمّا العجب فقد ذكرنا أنّه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يثمر التكبّر الظاهر في الأعمال و الأقوال والأحوال .

و أمّا الحقد فانّه قد يحمل على التكبّر من غيرعجب ، كالّذي يتكبّر على من يرى أنّه مثله أو فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب قد سبق منه فأورثه الغضب حقداً و رسخ في قلبه بغضه فهو لذلك لاتطاوعه نفسه أن يتواضع له و إن كان عنده مستحقّاً للتواضع فكم من رذل لاتطاوعه النفس على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه ولبغضه له ويحمله ذلك على ردّ الحقّ إذا جاءه من جهته و على الأنفة

من قبول نصحه و على أن يجتهد في التقدّم عليه ، و إن علم أنّه لايستحقّ ذلك وعلى أنّه لايستحلّه و إن ظلمه ، و لا يعتذر إليه و إن جنى عليه ، ولا يسأله عمّا هو جاهل به .

و أمّا الحسد فإنّه أيضاً يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء و سبب يقتضي الغضب و الحقد و يدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحقّ حتّى يمنع من قبول النّصح و تعلّم العلم ، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم و قد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً و بغياً عليه ، فهو يعرض عنه و يتكبّر عليه مع معرفته بأنّه يستحقّ التواضع لفضل علمه ولكنّ الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبّرين وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه .

و أمّا الرّياء فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبّرين حتّى أنّ الرّجل ليناظر من يعلم أنّه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولامحاسدة ولاحقد ولكن يمتنع من قبول الحقّ منه ولايتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس : إنّه أفضل منه فيكون باعثه على التكبّر عليه الرّياء المجرّد ولوخلا معه بنفسه لكان لايتكبّر عليه ، وأمّا الّذي يتكبّر بالعجب أو الحسد أوالحقد فيتكبّر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث و كذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذباً وهو يعلم أنّه كاذب ثمّ يتكبّر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب و يترفّع عليه في المجالس و يتقدّم عليه في الطريق ولايرضى بمساواته في الكرامة و التوقير وهو عالم باطناً بأنّه لايستحقّ ذلك ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنّه كاذب في دعوى النسب ولكن يحمله الرّياء على أفعال المتكبّرين و كان اسم المتكبّر إنّما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار وهذا إن سمّي متكبّراً فلأجل التشبّه بأفعال الكبر .

✿ (بيان أخلاق المتواضعين ومجامع مايظهر فيه أثر التواضع والتكبّر) ✿

اعلم أنّ التكبّر يظهر في شمائل الرّجل كصعر في وجهه و نظره شزراً (١)

---

(١) صعر ـ كعلم ـ وجهه : مال الى أحد الشقين فهو أصعر . وشزر ـ من باب ضرب ـ الرجل و اليه : نظر اليه بجانب عينه مع اعراض أو غضب .

و إطراقه رأسه وجلوسه متربّعاً أومتّكئاً و في أقواله حتّى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، و يظهر في مشيته و تبختره و قيامه و جلوسه و حركاته و سكناته، و في تعاطيه لأفعاله، وفي سائر تقلّباته في أحواله و أقواله وأعماله، فمن المتكبّرين من يجمع ذلك كلّه و منهم من يتكبّر في بعض و يتواضع في بعض فمنها التكبّر بأن يحبّ قيام الناس له أو بين يديه. و قد قال عليّ عليه السلام: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد و بين يديه قومٌ قيام».

وقال: أنس لم يكن شخص أحبّ إليهم من رسول الله صلّى الله عليه وآله وكانوا إذا رأوه لايقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك.

و منها أن لايمشي إلّا ومعه غيره يمشي خلفه. قال: أبوالدرداء لايزال العبد يزداد من الله بعداً مامشي خلفه. وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدّم و يمشي في غمارهم» [١].

و منها أن لايزور غيره و إن كان يحصل من زيارته خيرٌ لغيره في الدّين وهو ضدّ التواضع.

ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلّا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه، قال أنس: «كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلّى الله عليه وآله ولاينزع يده منها حتّى تذهب به حيث شاءت» [٢].

و منها أن يتوقّى مجالسة المرضى و المعلولين و يتحاشى عنهم، وهو كبر، دخل رجلٌ على رسول الله صلّى الله عليه وآله و عليه جدريٌّ قد تقشّر و عنده ناس من أصحابه يأكلون فماجلس عند أحد إلّا قام من جنبه، فأجلسه النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى جنبه [٣].

---

(١) أخرجه ابومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي امامة بسند ضعيف جداً أنه صلى الله عليه وآله يمشي الى البقيع فتبعه أصحابه فوقف وأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال: «اني سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر».
وقال: هو منكر وفيه جمع من الضعفاء.

(٢) تقدم سابقاً ج ٤ ص ١٢٩ و رواه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧٧.

(٣) تقدم آنفاً.

و منها أن لايتعاطى بيده شغلاً في بيته والتواضع خلافه .

و منها أن لايأخذ متاعاً و يحمله إلى بيته ، و هذا خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يفعل ذلك[1] وقال : علي عليه السلام : «لا ينقص الرّجل من كماله ماحمل من شيء إلى عياله . و قال بعضهم : رأيت علياً اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته فقلت له : أحمل عنك يا أمير المؤمنين ؟ قال : « لاأبو العيال أحقّ أن يحمل »[2].

و منها اللّباس إذ يظهر به التكبّر و التواضع ، وقد قال : رسول الله صلّى الله عليه وآله « البذاذة من الإيمان »[3] قيل : هي الدون من اللّباس .

و عوتب علي عليه السلام في إزار مرقوع فقال : « يقتدي به المؤمن و يخشع له القلب »[4] . و قال : عيسى عليه السلام جودة الثياب خيلاء القلب .

و قال : رسول الله صلّى الله عليه وآله : « من ترك زينة لله و وضع ثياباً حسنة تواضعاً لله و ابتغاء وجهه كان حقاً على الله أن يدّخر له عبقريّ الجنّة »[5] .

فإن قلت : فقد قال : عيسى عليه السلام جوده الثياب خيلاء القلب ، وقد سئل نبينا صلّى الله عليه وآله عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال : « لاولكن الكبر من سفه الحقّ و غمص الناس »[6] فكيف طريق الجمع بينهما ؟ .

فاعلم أنّ الثوب الجيّد ليس من ضرورته أن يكون من التكبّر في حقّ كلّ

---

(١) حديث حمله المتاع الى بيته أخرجه أبويعلى من حديث أبى هريرة فى شرائه للسراويل و حمله و قد تقدم فى المجلد الرابع .

(٢) البحار ج ٩ ص ٥٢٠ و فيه هكذا .

لاينقص الكامل من كماله ✡ ما جر من نفع الى عياله

(٣) أخرجه أحمد فى المسند من حديث أبى أمامة الحارثى والحاكم فى المستدرك أيضاً بسند صحيح كما فى الجامع الصغير وأخرجه ابوداود وابن ماجه تحت رقم ٤١١٨ .

(٤) أورده الشريف الرضى فى النهج أبواب الحكم تحت رقم ١٠٣ .

(٥) أخرجه ابوسعيد المالينى فى مسند الصوفية ، و ابونعيم فى الحلية من حديث ابن عباس وفى اسناده نظر كما فى المغنى .

(٦) تقدم غير مرة وهو حديث ثابت بن قيس الانى .

أحد في كلّ حال وهو الّذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو الّذي عرّفه رسول الله صلى الله عليه وآله من حال ثابت بن قيس إذ قال: إنّي امرؤ حبّب إليّ من الجمال ما ترى فعرّفه أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبّر على غيره فإنّه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر، وقد يكون ذلك من الكبر كما أنّ الرّضا بالثوب الدّون قد يكون من التواضع، فإذا انقسمت الأحوال ينزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أنّ قوله: خيلاء القلب يعني قد يورث خيلاء في القلب، وقول نبيّنا صلى الله عليه وآله: «إنّه ليس من الكبر» يعني أنّ الكبر لا يوجبه، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثمّ يكون هو مورثاً للكبر، وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحمود الوسط من اللّباس الّذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة، وقد قال صلى الله عليه وآله: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا في غير سرف ولا مخيلة»[1] «إنّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده»[2].

و قال بكر بن عبدالله المزنيّ: البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية. و إنّما خاطب بهذا قوماً يطلبون التكبّر بثياب أهل الصلاح.

و قال عيسى عليه السلام: «مالكم تأتوني و عليكم ثياب الرّهبان و قلوبكم قلوب الذّئاب الضواري البسوا ثياب الملوك و أميتوا قلوبكم بالخشية».

ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سُبّ واُوذي واُخذ حقّه فذلك هو الأفضل، وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد، وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله فيه، فينبغي أن يقتدى به و منه ينبغي أن يتعلّم.

وقد قال أبو سلمة قلت لأبي سعيد الخدريّ: ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس و المشرب و المركب و المطعم؟ فقال: يا ابن أخي كل لله، و اشرب لله، و البس لله و كلّ شيء من ذلك دخله زهوٌ أو مباهاةٌ أو رياء أو سمعة فهو معصية و سرف، و عالج

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٦٠٥ والنسائى من رواية عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده.

(٢) أخرجه الترمذى وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده و قد جعل فى المتن هذين الحديثين حديثاً واحداً و هو الصحيح.

في بيتك من الخدمة ماكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يعالج في بيته كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، و يقم البيت ، و يحلب الشاة ويخصف النعل ، ويرقّع الثوب ، ويأكل مع خادمه ، و يطحن عنه إذا أعيا ، و يشتري الشيء من السوق و لا يمنعه الحياء أن يعلّقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه فينقلب إلى أهله ، يصافح الغنيّ و الفقير والصغير و الكبير و يسلّم مبتدئاً على كلّ من استقبله من صغير أو كبير ، أسود أو أحمر ، حرّ أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلّة لمدخله و حلّة لمخرجه ، لا يستحي من أن يجيب إذا دعي و إن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر ما دعي إليه و إن لم يجد إلّا حشف الدّقل ، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء ، هيّن المؤونة لين الخلق كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة طليق الوجه ، بسّاماً من غير ضحك محزوناً من غير عبوس ، شديداً في غير عنف ، متواضعاً في غير مذلّة ، جواداً من غير سرف ، رحيماً بكلّ ذي قربى ، قريباً من كلّ ذمّي و مسلم ، رقيق القلب ، دائم الإطراق ، لم يبشم قطّ من شبع ، ولا يمدّ يده إلى طمع ، قال أبوسلمة : قد خلت على عائشة فحدّثتها كلّ هذا عن أبي سعيد ، فقالت : ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إذ ما أخبرك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يمتلي قطّ شبعاً ولم يبثّ إلى أحد شكوى وأن كانت الفاقة أحبّ إليه من اليسار والغنى و أن كان ليظلّ جائعاً يلتوي ليلته حتّى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسال ربّه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارقها ومغاربها لفعل ، و ربّما بكيت رحمة له ممّا اُوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي فأقول : نفسي لك الفداء لو تبلّغت من الدّنيا بقدر مايقوتك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول : ياعائشة إخواني من أولى العزم من الرّسل قد صبروا على ماهو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربّهم فأكرم مآبهم و أجزل ثوابهم فأجدني أستحي أن ترفّهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم ، فأصبر أيّاماً يسيرة أحبّ إليّ من أن ينقص حظّي غداً في الآخرة ، وما من شيء أحبّ إليّ من اللّحوق بإخواني و أخلّائي ، فقالت عائشة : فوالله مااستكمل بعد ذلك جمعة حتّى قبضه الله تعالى » (١) .

---

(١) قال العراقي : لم أقف له على اسناد . أقول : يوجد بعض فصوله في الاخبار متفرقاً عن غير أبي سلمة راجع المجلد الرابع وسنن ابن ماجه كتاب الزهد ومجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣١٢.

فما نقل من أخلاقه ﷺ يجمع بجملة أخلاق المتواضعين ، فمن طلب التواضع فليقتد به و من رأى نفسه فوق محلّه ﷺ ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشدّ جهله فلقد كان رسول الله ﷺ أعظم خلق الله تعالى منصباً في الدّنيا والدّين ، فلا عزّ ولا رفعة إلّا في الاقتداء به ولذلك لمّا عوتب بعض الصحابة في بذاذة هيئته قال : إنّا قوم أعزّنا الله تعالى بالإسلام فلانطلب العزّ في غيره .

وقال أبو الدّرداء : إعلم أنّ لله عباداً يقال لهم : الأبدال ، خلف من الأنبياء ، هم أوتاد الأرض فلمّا انقضت النبوّة أبدل الله تعالى مكانهم قوماً من أمّة محمّد ﷺ لم يفضّلوا الناس بكثرة صلاة ولا صوم ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع و حسن النيّة و سلامة الصدر لجميع المسلمين و النصح لهم ابتغاء مرضات الله بصبر من غير تجبّن ، وتواضع في غير مذلّة ، وهم قوم اصطفاهم الله تعالى واستخلصهم لنفسه وهم أربعون صدّيقاً أو ثلاثون رجلاً قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرّحمن عليه السلام لايموت الرّجل منهم حتّى يكون الله تعالى قد أنشأ من يخلفه . واعلم يا أخي أنّهم لايلعنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحداً ولا يحرصون على الدّنيا هم أطيب الناس خيراً ، وألينهم عريكة ، وأسخاهم نفساً ، علامتهم السخاء ، و سجيّتهم البشاشة ، وصفتهم السلامة ، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر ، وهم فيما بينهم و بين ربّهم لاتحرّكهم الرّياح العواصف ولا الخيل المجراة ، قلوبهم تصعد ارتياحاً إلى الله و اشتياقاً إليه و قدماً في استباق الخيرات « اُولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون » فقال الرّاوي : فقلت : يا أبا الدّرداء ما سمعت بصفة أشدّ عليّ من هذه الصفة و كيف لي أن أبلغها ؟ فقال : ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلّا أن تكون تبغض الدّنيا ، فإنّك إذا أبغضت الدّنيا أقبلت على حبّ الآخرة و بقدر حبّك للآخرة تزهد في الدّنيا ، وقدر ذلك تبصر ما ينفعك ، فإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد ، و اكتنفه بالعصمة ، واعلم يا ابن أخي أنّ ذلك في كتاب الله المنزل « إنّ الله مع الّذين اتّقوا والّذين هم محسنون » وقال يحيى بن كثير : فنظرنا في ذلك فما تلذّذ المتلذّذ دون

بمثل حبّ الله تعالى و طلب مرضاته .

✿ (بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع) ✿

إعلم أنّ الكبر من المهلكات ولا يخلو أحدٌ من الخلق عن شيء منه وإزالته فرض عين ولايزول بمجرد التمنّي بل بالمعالجة و استعمال الأدوية القامعة له و في معالجته مقامان أحدهما استئصال أصله من سنخه[1] وقلع شجرته من مغرسها في القلب، والثاني دفع العارض منه بالأسباب الخاصّة الّتي بها يتكبّر الإنسان على غيره.

المقام الأوّل في استئصال أصله وعلاجه علميّ وعمليّ ولايتمّ الشفاء إلّا بمجموعهما.

أمّا العلميّ فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربّه ويكفيه ذلك في إزالة الكبر فانّه مهما عرف نفسه حقّ المعرفة علم أنّه أذلّ من كلّ ذليل و أقلّ من كلّ قليل بذاته ، وأنّه لايليق به إلّا التواضع والذلّة و المهانة و إذا عرف ربّه علم أنّه لاتليق العظمة و الكبرياء إلّا بالله ، أمّا معرفته ربّه وعظمته و مجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم الصدّيقين ، أمّا معرفته نفسه فكذلك أيضاً يطول ولكنّا نذكر منه ماينفع في اثارة التواضع و المذلّة و يكفيه أن يعرف معنى آية واحدة من كتاب الله تعالى فانّ في القرآن علم الأوّلين و الآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال : « قتل الانسان ماأكفره ✿ من أيّ شيء خلقه ✿ من نطفة خلقه فقدّره ✿ ثمّ السبيل يسّره ✿ثمّ أماته فأقبره ✿ ثمّ إذاشاء أنشره »[2] فقد أشارت الآية إلى أوّل خلق الانسان وإلى آخر أمره و إلى وسطه فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أمّا أوّل الانسان فهو أنّه لم يكن شيئاً مذكوراً وقد كان ذلك في كتم العدم دهوراً بل لم يكن لعدمه أوّل فأيّ شيء أخسّ و أقلّ من المحو و العدم ، وقد كان كذلك في القدم ، ثمّ خلقه الله تعالى من أرذل الأشياء ، ثمّ من أقذرها إذخلقه من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة ، ثمّ جعله عظماً ثمّ كسى العظام لحماً ، فقد كان هذا بداية وجوده حيث صار شيئاً مذكوراً ، فما صار مذكوراً إلّا و هو على أخسّ الأوصاف و النعوت إذلم يخلق في ابتدائه كاملاً بل خلقه جماداً ميتاً لايسمع ولايبصر ولايحس

(١) اى أصله و منبته . (٢) عبس ١٧ الى ٢٢ .

ولايتحرّك ولاينطق ولايبطش ولايدرك ولا يعلم ، فبدأ بموته قبل حيوته ، و بضعفه قبل قوّته ، وبجهله قبل علمه ، وبعماه قبل بصره ، وبصممه قبل سمعه ، وببكمه قبل نطقه ، و بضلالته قبل هداه ، وبفقره قبل غناه ، وبعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله تعالى « من أيّ شيء خلقه ۞ من نطفة خلقه فقدّره » ومعنى قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً ۞ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه » (١) كذلك خلقه أوّلاً ، ثمّ امتنّ عليه فقال : « ثمّ السبيل يسّره » و هذه إشارة إلى ما تيسّر له في مدّة حياته إلى الموت و لذلك قال : « من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ۞ إنّا هديناه السبيل » و معناه إنّه أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً تراباً أوّلاً و نطفة ثانياً و أسمعه بعد ماكان أصمّ و بصّره بعد ماكان فاقد البصر ، وقوّاه بعد الضعف ، و علّمه بعد الجهل ، و خلق له الأعضاء بما فيها من العجائب و الآيات بعد الفقد لها ، وأغناه بعد الفقر ، و أشبعه بعد الجوع ، و كساه بعد العري ، وهداه بعد الضلال ، فانظر كيف دبّره وصوّره و إلى السبيل كيف يسّره ، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره ، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره ، فقال تعالى : « أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين »(٢) « و من آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون » (٣) فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك القلّة و الذّلّة والخسّة والقذارة إلى هذه الرّفعة والكرامة ، فصار موجوداً بعد العدم ، وحيّاً بعد الموت ، وناطقاً بعد البكم ، و بصيراً بعد العمى ، و قويّاً بعد الضعف ، و عالماً بعد الجهل ، و مهديّاً بعد الضلالة ، و قادراً بعد العجز ، و غنيّاً بعد الفقر ، فكان في ذاته لاشيء و أيّ شيء أخسّ من لاشيء و أيّ قلّة أقلّ من العدم المحض ، ثمّ صار بالله شيئاً وإنّما خلقه من التراب الذّليل والنطفة القذرة بعد العدم المحض ليعرفه خسّة ذاته فيعرف به نفسه وإنّما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربّه ويعلم بها عظمته و جلاله ، وأنّه لايليق الكبرياء إلّا به و لذلك امتنّ

---

(١) الدهر : ١ و ٢ . (٢) يس : ٧٧ .
(٣) الروم : ٢٠ .

عليه فقال تعالى : « ألم نجعل له عينين ۞ ولساناً وشفتين ۞ وهديناه النجدين »[١]
وعرّف خسّته أوّلاً فقال : «ألم يك نطفة من منيّ يمنى ۞ ثمّ كان علقة - ثمّ ذكر منته عليه
فقال : - فخلق فسوّى ۞ فجعل منه الزّوجين الذكر والأنثى»[٢] ليدوم وجوده بالتناسل
كما حصل وجوده ابتداء بالاختراع ، فمن كان هذا بدؤه و هذه أحواله فمن أين
له البطر والكبرياء والفخر و الخيلاء وهو على التحقيق أخسّ الأخسّاء ، و أضعف
الضعفاء نعم لو أكمله و فوّض إليه أمره و أدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى
و ينسى المبدء و المنتهى و لكنّه سلّط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام
العظيمة و الآفات المختلفة و الطبايع المتضادة من المرّة و البلغم و الرّيح و الدّم
يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى ، رضي أم سخط ، فيجوع كرهاً و يعطش
كرها ، ويمرض كرهاً و يموت كرهاً ، لايملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا خيراً ولا
شرّاً ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينسى
الشيء ويغفل عنه فلايغفل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى مايهمّه فيجول في أودية
الوساوس و الأفكار بالاضطرار فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه ، و يشتهي الشيء
وربّما يكون هلاكه فيه ويكره الشيء وربّما تكون حياته فيه ، يستلذّ الأطعمة فتهلكه
وترديه ، ويستبشع الأدوية و هي تنفعه و تحييه ، لايأمن في لحظة من ليله أو نهاره
أن يسلب سمعه و بصره و علمه و قدرته ، وتفلج أعضاؤه ، و يختلس عقله ، ويختطف
روحه ، و يسلب جميع مايهواه في دنياه ، فهو مضطرّ ذليلٌ ، إن تُرِك مابقي ، و إن
اختطف فنى ، عبدٌ مملوكٌ لايقدر على شيء من نفسه ولا من غيره ، فأيّ شيء أذلّ
منه لو عرف نفسه و أنّى يليق الكبر به لولا جهله ؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمّله ،
وأمّا آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: « ثمّ أماته فأقبره ۞ ثمّ إذا شاء
أنشره » و معناه أنّه يسلب روحه و سمعه و بصره وعلمه و قدرته و حسّه وإدراكه
و حركته فيعود جماداً كما كان أوّل مرّة لايبقى إلّا شكل أعضائه و صورته لاحسّ
فيه ولاحركة ، ثمّ يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأوّل نطفة

(١) البلد : ٩ الى ١١. (٢) القيامة : ٣٨ الى ٤٠ .

مـذرة ثم تبلى أعضاؤه وصورته وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه، فيصير رميماً و رفاتاً، ويأكل الدود أجزاءه فيبتدي بحدقتيه فيقلعهما، و بخدّيه فيقطعهما، و بسائر أجزائه فيصير روثاً في أجواف الديدان، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كلّ إنسان، ويهرب منه لشدّة الانتان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ماكان فيصير تراباً يعمل منه الكيزان ويعمر منه البنيان، فيصير مفقوداً بعدما كان موجوداً، و صار كأن لم يغن بالأمس حصيداً كما كان أوّل أمره أمداً مديداً.

وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك تراباً لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شدائد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرّقة، و يخرج إلى أهـوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة، و سماء ممزّقة مشقّقة، و أرض مبدّلة، و جبال مسيّرة، و نجوم منكدرة، و شمس منكسفة، و أحوال مظلمة، و ملائكة غلاظ شداد، و جحيم تزفر، وجنّة ينظر إليها المجرم فيتحسّر، ويرى صحائف منشورة فيقال له: اقرأ كتابك، فيقول: و ما هو؟ فيقال: كان قد وكّل بك في حياتك الّتي كنت تفرح بها وتتكبّر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل و كثير و نقير وقطمير و أكل و شرب و قيام و قعود وقد نسيت ذلك و أحصاه الله عليك، فهلمّ إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق إلى دار العذاب فيتقطّع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب من قبل أن تنشر الصحف ويشاهد ما فيها من مخازيه فإذا شاهدها قال: «يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها» فهذا آخر أمره وهو معنى قوله عزّ وجلّ: «ثمّ إذا شاء أنشره» فما لمن هذه حاله والتكبّر والتعظّم؟! بل ماله وللفرح في لحظة واحدة فضلاً عن البطر والتجبّر، فقد ظهر له أوّل حاله ووسطه ولو ظهر آخره - والعياذ بالله - ربّما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً، و إن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه و أطيب و أرفع إذ أوّله التراب و آخره التراب و هو بمعزل عن الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق و لو رأى أهل الدّنيا العبد المذنب في النّار لصعقوا من وحشة خلقته و قبح

صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ولو وقعت قطرة من شرابه الّذي يسقى منه في بحار الدُّنيا لصارت أنتن من الجيف فمن هذا حاله في العاقبة - إلّا أن يعفو عنه و هو على شكّ من العفو - فكيف يفرح و يبطر؟ و كيف يتكبّر و يتجبّر؟ و كيف يرى نفسه شيئاً حتّى يعتقد لها فضلاً؟ وأيّ عبد لم يذنب ذنباً استحقّ به العقوبة إلّا أن يعفو الكريم بفضله، أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحقّ به ألف سوط فحبس في السجن و هو منتظر أن يخرج إلى العرض و تقام عليه العقوبة على ملاء من الخلق وليس يدري أيعفى عنه أم لا كيف يكون ذلّه في السجن أفترى أنّه يتكبّر على من معه في السّجن؟! و مامن عبد مذنب إلّا والدُّنيا سجنه وقد استحقّ العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون أمره فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً و إشفاقاً ومهانة وذلّاً فهذا هو العلاج العلميّ القامع لأصل الكبر.

وأمّا العلاج العمليّ فهو التواضع لله تعالى بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه و حكيناه من أحوال الصالحين و من أحوال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى أنّه كان يأكل على الأرض ويقول: «إنّما أنا عبد آكل كما يأكل العبد»[1]. و قيل لسلمان: لم لا تلبس ثوباً جديداً فقال: إنّما أنا عبد فإذا اعتقت يوماً لبست. أشار به إلى العتق في الآخرة.

ولا يتمّ التواضع بعد المعرفة إلّا بالعمل و لذلك أمر العرب الّذين تكبّروا على الله و رسوله بالإيمان و بالصّلاة جميعاً. و قيل: الصّلاة عماد الدّين وفي الصّلاة أسرار لأجلها كانت عماداً و من جملة ما فيها التواضع بالمثول قائماً و بالرّكوع و السجود، و قد كانت العرب قديماً يأنفون من الانحناء فكان ربّما يسقط من يد أحد سوطه فلا ينحني لأخذه، و ينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، حتّى قال حكيم بن حزام: بايعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على أن لا أخرّ إلّا قائماً فبايعه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم على ذلك ثمّ فقه و كمل إيمانه بعد ذلك»[2] فلمّا

(١) تقدم في باب سيرته في المأكل والمشرب و كتاب آداب المعيشة.
(٢) أخرجه أحمد مقتصراً يعني الى قوله: «أن لا أخر الا قائماً» و فيه ارسال خفي» (المغني).

كان السجود عندهم هو منتهى المذلّة والضعة أُمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ، و يزول به كبرهم ، ويستقرّ التواضع في قلوبهم ، وأُمر به سائر الخلق فإنّ الرّكوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الّذي يقتضيه التواضع ، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كلّ ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضها حتّى يصير التواضع له خلقاً فإنّ القلوب لا تتخلّق بالأخلاق المحمودة إلّا بالعلم والعمل جميعاً وذلك لخفاء العلاقة بين القلب والجوارح و سرّ الارتباط الّذي بين عالم الملك و عالم الملكوت ، والقلب من عالم الملكوت .

المقام الثّاني فيما يعرض من التكبّر بالأسباب السبعة المذكورة ، وقد ذكرنا في كتاب ذمّ الجاه أنّ الكمال الحقيقيّ هو العلم والعمل فأمّا ما عداه ممّا يفنى بالموت فكمال وهميّ فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبّر ولكنّا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة .

السبب الأوّل : النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين : أحدهما أنّ هذا جهلٌ من حيث أنّه تعزّز بكمال غيره ولذلك قيل :

لئن فخرت بآباء ذوي شرف ❊ لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبّر بالنسب إن كان خسيساً في صفات ذاته فمن أين يجبر خسّته بكمال غيره ، بل لو كان الّذي ينتسب إليه حيّاً لكان له أن يقول : الفضل لي ومن أنت إنّما أنت دودة خلقت من بولي ، أفترى أنّ الدّودة الّتي خلقت من بول إنسان أشرف من الدّودة الّتي من بول فرس ؟ هيهات بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدّودة .

الثاني هو أن يعرف نسبه الحقيقيّ فيعرف أباه و جدّه ، فإنّ أباه القريب نطفة قذرة وجدّه البعيد تراب ذليل و قد عرّفه الله تعالى نسبه فقال : « الّذي أحسن كلّ شيء خلقه و بدأ خلق الإنسان من طين ❊ ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين » (١) فمن أصله من التّراب المهين الّذي يداس بالأقدام ثمّ خمّر طينه حتّى

---

(١) السجدة : ٧ و ٨ والمهين الضعيف و « نسله » أى ذريته بالنسل لانها تنسل منه أى تنفصل .

صار حمأ مسنوناً كيف يتكبّر ، و أخسّ الأشياء ماإليه نسبه إذ يقال : يا أذلّ من التراب و يا أنتن من الحمأ و يا أقذر من المضغة ، فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول : افتخر بالقريب دون البعيد ، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحتقر نفسه بهما ، ثمّ إن كان ذلك يوجب رفعة بالأب لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته ، فإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرّفعة لولده فإذن أصله من التراب و فصله من النطفة ، فلاأصل له ولا فصل له و هذه غاية خسّة النسب والأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الأبدان . فهذا هو النسب الحقيقيّ للإنسان و من عرفه لم يتكبّر بالنسب ، و يكون مثاله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم و قد أخبره بذلك والداه فلم تزل فيه نخوةالشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدولٌ لا يشكّ في قولهم أنّه ابن هنديّ حجّام يتعاطى القاذورات و كشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شكّ في صدقهم أفترى أنّ ذلك يبقى شيئاً من كبره لابل يصير عند نفسه أحقر الناس و أذلّهم فهو من استشعار الخزي لخسّته في شغل عن أن يتكبّر على غيره ، فهذه حال البصير إذا تفكّر في أصله وعلم أنّه من النطفة والمضغة والتراب ، إذ لوكان أبوه ممّن يتعاطى نقل التراب أويتعاطى الدّم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسّة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدّم فكيف إذا عرف أنّه في نفسه من التراب والدّم والأشياء القذرة الّتي يتنزّه عنها هو في نفسه .

السّبب الثّاني : الكبر بالجمال و دواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم و مهما نظر إلى باطنه رأى من الفضايح ما يكدر عليه التعزّز بجماله ، فإنّه وكّل به الأقذار في جميع أجزائه الرّجيع في أمعائه ، والبول في مثانته ، والمخاط في أنفه ، و البصاق في فيه . والوسخ في أذنه والدّم في عروقه ، والصديد تحت بشرته ، والصنان تحت إبطه[1] يغسل الغائط كلّ يوم دفعة أو دفعتين بيده يتردّد إلى الخلاء كلّ يوم مرّة أو مرّتين ليخرج من باطنه مالو رآه بعينه لاستقذره فضلاً

(١) الصنان ـ بضم الصاد المهملة ـ : ذفر الابط ، والنتن عموماً .

عن أن يمسّه أو يشمّه كلّ ذلك يعرف قذارته و ذلّه هذا في حال توسّطه و في أوّل أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور من النطفة و دم الحيض و أخرج من مجاري الأقذار إذ خرج من الصلب ، ثمّ من الذّكر مجرى البول ، ثمّ من الرّحم مفيض دم الحيض ، ثمّ خرج من مجرى القذر ، هذا أوّله و وسطه ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهّدها بالتنظيف و الغسل لثارت منه الأنتان والأقذار و صار أقذر و أنتن من الدّواب المهملة الّتي لاتتعهّد نفسها قطّ ، فإذا نظر أنّه خلق من أقذار وأسكن في أقذار و سيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار لم يفتخر بجماله الّذي هو كخضراء الدّمن وكلون الأزهار في البوادي ، فبينما هو كذلك إذا صار هشيماً تذروه الرّياح ، كيف ولو كان جماله باقياً وعن هذه القبايح خالياً لكان يجب أن لايتكبّر به على القبيح إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ولا كان جمال الجميل إليه حتّى يحمد عليه ، كيف ولابقاء له بل هو في كلّ حال يتصوّر أن يزول بمرض أوجدريّ أو قرحة أو سبب من الأسباب ، فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأمّلها .

السبب الثالث التكبّر بالقوّة والأيدي ويمنعه من ذلك أن يعلم ماسلّط عليه من العلل و الأمراض و أنّه لو توجّع عرق واحد من بدنه لصار أعجز من كلّ عاجز و أذلّ من كلّ ذليل ، وأنّه لوسلبه الذّباب شيئاً لم يستنقذه منه ، و أنّ بقّة لو دخلت في أنفه أونملة دخلت في اُذنه لقتلته ، وأنّ شوكة لودخلت رجله لأعجزته وأنّ حمّى يوم تحلّل من قوّته مالاينجبر في مدّة فمن لايطيق شوكة ولايقاوم بقّة ولايقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلاينبغي أن يفتخر بقوّته ، ثمّ إنّ قوى الإنسان لايكون أقوى من حمار أوفيل أوجمل أوبقر وأيّ افتخار في صفة تسبقك البهائم فيها .

السبب الرابع و الخامس الغنى و كثرة المال و في معناه كثرة الأتباع والأنصار و التكبّر بولاية السلاطين و التمكّن من جهتهم ، و كلّ ذلك تكبّر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوّة و العلم ، و هذا أقبح أنواع الكبر فإنّ المتكبّر بماله كأنّه متكبّر بفرسه وداره ولومات فرسه و انهدمت داره لعاد ذليلاً

والمتكبّر بتمكين السلطان و ولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشدّ غلياناً من القدر ، فإن تغيّر عليه كان أذلّ الخلق و كلّ متكبّر بأمر خارج من ذاته فهو ظاهر الجهل كيف و المتكبّر بالغنى لو تأمّل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى و الثروة و التجمّل ، فأفّ لشرف يسبقك اليهود به ، و أفّ لشرف يأخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً ، فهذه أسباب ليست في ذاته ، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة و بال و نكال فالتفاخر به غاية الجهل ، و كلّ ما ليس إليك فليس لك و شيء من الاُمور ليس إليك بل إلى واهبها[1] إن أبقاها بقيت وإن استرجعها زالت عنك وما أنت إلّا عبدٌ مملوك لا تقدر على شيء ، فمن عرف ذلك فلابدّ أن يزول كبره و مثاله أن يفخر الغافل بقوّته و جماله و ماله و حرّيته و استقلاله وسعة منازله و كثرة خيوله و غلمانه إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنّه رقيق لفلان و أنّ أبويه كانا مملوكين له فعلم ذلك و حكم به الحاكم فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يديه وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله و تقصيره في طلب مالكه ليعرف أنّ له مالكاً ، ثمّ نظر العبد فرأى نفسه محبوساً في منزل قد أحدقت به الحيّات والعقارب و الهوامّ وهو في كلّ حال على وجل من كلّ واحدة منها وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقاً في الخلاص البتّة ، أفترى أنّ من هذه حاله هل يفتخر بقدرته و ثروته و ماله و قوّته و كماله ؟ أم يذلّ في نفسه و يخضع ؟ و هذا حال كلّ عاقل بصير فإنّه يرى نفسه كذلك فإنّه لا يملك رقبته وبدنه و أعضاءه و ماله وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض و أسقام هي كالعقارب والحيّات يخاف منها الهلاك فمن هذه حاله لا يتكبّر بقدرته و قوّته إذ يعلم أنّه لا قدرة له ولا قوّة .

فهذا طريق علاج التكبّر بالأسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبّر بالعلم والعمل فإنّهما كما لان في النفس جديران بأن يفرح بهما ولكن في التكبّر بهما

---

(١) كذا . والضمائر راجع الى الامور . و في الاحياء «الى واهبه» و كذا الضمائر التى تأتى .

أيضاً نوع من الجهل خفي كما سنذكره .

السبب السادس الكبر بالعلم وهذا أعظم الآفات و أغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلّا بشدّة شديدة وجهد جهيد ، و ذلك لأنّ قدر العلم عظيم عندالله ، عظيم عند الناس ، وهو أعظم من قدر المال و الجمال و غيرهما بل لاقدر لهما أصلاً إلّا إذا كان معهما عمل و علم ، و لذلك قيل : للعلم طغيان كطغيان الماء ، و قيل : العالم إذا زلّ زلّ بزلّته عالم كثير . فيعجز العالم عن أن لايستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة مانطق الشرع بفضائل العلم ، ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلّا بمعرفة أمرين أحدهما أن يعلم أنّ حجّة الله على أهل العلم آكد و أنّه يحتمل من الجاهل مالايحتمل عشره من العالم وأنّه عصى الله عن معرفة وعلم فجنايته أفحش إذ لم يقض حقّ نعمة الله عليه في العلم و لذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرّحا فيطيف أهل النّار فيقولون : مالك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولاآتيه و أنهى عن الشرّ و آتيه [1] » .

وقد مثّل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولايعمل بالحمار و الكلب فقال : « مثل الّذين حمّلوا التورية ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » [2] أراد به علماء اليهود . و قال تعالى في بلعم بن باعورا : « واتل عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ۞ ولوشئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض و اتّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » [3] أي سواء آتيته الحكمة أولم أوته فلا يدع شهوته ، فيكفي العالم هذا الخطر فأيّ عالم لم يتبع شهوته و أيّ عالم لم يأمر بالخير الّذي لايأتيه ، فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكّر في الخطر العظيم الّذي هو بصدده فإنّ خطره أعظم

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد من حديث اسامة بن زيد بلفظ « يجاء بالرجل و تقدم في العلم .

(٢) الجمعة : ٥ . (٣) الاعراف : ١٧٤ و ١٧٥ .

من خطر غيره كما أنّ قدره أعظم من قدر غيره فهذا بذلك، وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنّه إذا اُخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيراً، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهّال والعياذ بالله فهذا الخطر يمنع التكبّر لأنّه إن كان من أهل النّار فالخنزير أفضل منه فكيف يتكبّر من هذا حاله، فلا ينبغي أن يكون العالم أكبر عند نفسه من الصحابة؟ وقد كان بعضهم يقول: ياليتني لم تلدني أمّي، ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول: ياليتني كنت هذه التبنة، ويقول الآخر: ياليتني كنت طيراً، كلّ ذلك خوفاً من خطر العاقبة فكانوا يرون أنفسهم أسوء حالاً من الطير ومن التراب ومهما أطال فكره في الخطر الّذي هو بصدده زال بالكلّية كبره ورأى نفسه كأنّه شرّ الخلق. ومثاله مثال عبد أمره سيّده باُمور فشرع فيها وترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشكّ في بعضها أنّه هل أدّاها كما يرتضيه مولاه أم لا فأخبر مخبرٌ أنّ مولاه مرسل إليه رسولاً يخرجه من كلّ ماهو فيه عرياناً ذليلاً ويلقيه على بابه في الشمس والحرّ زماناً طويلاً حتّى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به الجهد أمر برفع حسابه وفتّش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثمّ أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لايروح عنه ساعة، وقد علم أنّ سيّده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفى عن بعضهم وهو لايدري في أيّ الفريقين يكون فإذا تفكّر في ذلك انكسرت نفسه وذلّ وبطل عزّه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبّر على أحد من الخلق بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب، فكذلك العالم إذا تفكّر فيما ضيّعه من أوامر ربّه بجنايات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرّياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره وعلم ممّا هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لامحالة.

الأمر الثاني أنّ العالم يعلم أنّ الكبر لايليق إلّا بالله جلّ وعزّ وحده وأنّه إذا تكبّر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً وقد أحبّ الله منه أن يتواضع وقال له: إنّ لك عندي قدراً مالم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندي فلابدّ أن يكلّف نفسه مايحبّ مولاه منه فهذا يزيل التكبّر عن قلبه وإن كان يستيقن أنّه لاذنب له

مثلاً إن تصوّر ذلك و بهذا زال الكبر عن الأنبياء إذعلموا أنّ من نازع الله في رداء الكبرياء قصمه وقد أمرهم بأن يصغّروا أنفسهم حتّى يعظم عندالله محلّهم ، فهذا أيضاً ممّا يبعثه على التواضع لامحالة .

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق و للمبتدع ؟ و كيف يرى نفسه دونهم و هو عالم عابد ؟ و كيف يجهل فضل العلم و العبادة عندالله عزّ وجلّ ؟ و كيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أنّ خطر الفاسق و المبتدع أكثر؟

فاعلم أنّ ذلك إنّما يمكن بالتفكّر في خطر الخاتمة ، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبّر عليه إذ يتصوّر أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان و يضلّ هذا العالم فيختم له بالكفر، والكبير من هو كبير عندالله في الآخرة و الكلب والخنزير أعلى رتبة ممّن هو عندالله من أهل النّار و هو لايدري ذلك ، فالعواقب مطويّة عن العباد ولا ينظر العاقل إلّا إلى العاقبة و جميع الفضائل في الدّنيا إنّما تراد للعاقبة فإذن من حقّ العبد أن لايتكبّر على أحد ، بل إن نظر إلى جاهل قال : إنّه عصى الله بجهل و أنا عصيت الله بعلم فهو أعذر منّي ، وإن نظر إلى عالم فيقول : إنّه قد علم مالم أعلم فكيف أكون مثله ، و إن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنّاً قال : هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله ، و إن نظر إلى صغير قال : إنّي عصيت الله قبله فكيف أكون مثله ، و إن نظر إلى مبتدع أو كافر قال : ما يدريني لعلّه يختم له بالإسلام و يختم لي بماهو عليه الآن فليس دوام الهداية إليّ كما لم يكن ابتداؤها إليّ فبملاحظة الخاتمة يقدر أن ينفي الكبر عن نفسه و كلّ ذلك بأن يعلم أنّ الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله لافيما يظهر في الدّنيا ممّا لابقاء له ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبّر و المتكبّر عليه ولكن حقّ على كلّ واحد أن يكون مصروف الهمّ إلى نفسه ، مشغول القلب بخوفه لعاقبته لا أن يشتغل بخوف غيره ،فإنّ الشفيق بسوء الظنّ مولع وشفقة كلّ إنسان على نفسه ، فإذا حبس جماعة في جناية و أو عدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرّقوا لتكبّر بعضهم على بعض وإن عمّهم الخطر ، اذ شغل كلّ واحد منهم همّ نفسه عن الالتفات إلى همّ غيره حتّى كان كلّ

واحد هو وحده في مصيبته و خطره .

فإن قلت : فكيف لاأبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أُمرت ببغضهما ثمّ مع ذلك أتواضع لهما ؟ والجمع بينهما متناقض ؟ فاعلم أنّ هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم و الورع ، فكم من عابد جاهل و عالم مغرور إذا رأى فاسقاً جلس بجنبه أزعجه من عنده و تنزّه عنه بكبر باطن في نفسه وهوظانّ أنّه قد غضب لله كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم ، و ذلك لأنّ الكبر على المطيع ظاهر كونه شرّاً و الحذر عنه ممكن و الكبر على الفاسق و المبتدع يشبه الغضب لله و هو خيرٌ فإنّ الغضبان أيضاً يتكبّر على من غضب عليه و المتكبّر يغضب و أحدهما يثمر الآخر و يوجبه وهما ممتزجان ملتبسان لايميز بينهما إلّا الموفّقون ، و الّذي يخلّصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أوالفاسق إذا أمرتها بالمعروف و نهيتها عن المنكر ثلاثة أُمور :

أحدها التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك و خطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك .

والثاني أن تكون ملاحظتك لماأنت متميّز به من العلم واعتقاد الحقّ والعمل الصالح من حيث أنّها نعمة من الله عليك فله المنّة فيه لالك فترى ذلك منه حتّى لاتعجب بنفسك و إذا لم تعجب لم تتكبّر .

و الثالث ملاحظة إبهام عاقبتك و عاقبته أنّه ربما يختم له بالخير و يختم لك بالسوء حتّى يشغلك الخوف عن التكبّر عليه .

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول : تغضب لمولاك وسيّدك إذ أمرك بأن تغضب لا لنفسك و أنت في غضبك لاترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، و أعرفك ذلك بمثال لتعلم أنّه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبّر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره ، فأقول : إذا كان للملك غلامٌ

وولدٌ هو قرّة عينه وقد وكّل الغلام بالولدليراقبه وأمره بأن يضربه مهما أساء أدبه، واشتغل بمالايليق به ويغضب عليه، فإن كان الغلام مطيعاً محبّاً لمولاه فلا يجدبدّاً من أن يغضب مهماراًى ولده قد أساء الأدب، وإنّما يغضب عليه لمولاه ولأنّه يريد التقرّب بامتثال أمره إليه، ولأنّه جرى من ولده مايكره مولاه فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبّر له عليه بل هومتواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه لأنّ الولد أعزّ لامحالة من الغلام فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبّر و عدم التواضع، فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع و الفاسق و تظنّ أنّه ربماكان قدرهما عندالله في الآخرة أعظم لما سبق لهما من الحسنى في الأزل و لما سبق لك من سوء القضاء في الأزل و أنت غافلٌ عنه و مع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبّة لمولاك إذا جرى مايكرهه مع التواضع لمن يجوزأن يكون عندالله أقرب منك في الآخرة فهكذايكون بعض العلماء الأكياس فينضمّ إليه الخوف والتواضع، وأمّا المغرور فإنّه يتكبّر ويرجو لنفسه أكثر ممّا يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة و ذلك غاية الغرور فهذاسبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه و مجانبته بحكم الأمر.

السّبب السّابع التكبّر بالورع والعبادة و ذلك أيضاً فتنةٌ عظيمة على العبّاد، و سبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أنّ من يتقدّم عليه بالعلم لاينبغي أن يتكبّر عليه كيف ماكان لماعرفه من فضيلة العلم وقد قال الله تعالى «هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لايعلمون» (١) وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» (٢) إلى غير ذلك ممّا ورد في فضل العالم، فإن قال: العابد ذلك لعالم العامل بعلمه وهذا عالم فاجر؟ فيقال له: أما علمت أنّ الحسنات يذهبن السيئات و كما أنّ العلم يمكن أن يكون حجّة على العالم فيمكن أن يكون وسيلة له و كفّارة لذنوبه و كلٌّ واحد منهما ممكن، وقدوردت

---

(١) الزمر: ٩.

(٢) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ١٥٧ من حديث أبى امامة الباهلى و قد تقدم فى كتاب العلم.

الأخبار بما يشهد لذلك وإذا كان هذا الأمر غائباً عنه لم يجز له أن يحتقر عالماً بل يجب عليه أن يتواضع له.

فإن قلت: فإن صحّ هذا فينبغي أن يكون العالم يرى نفسه فوق العابد بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»؟ فاعلم أنّ ذلك ممكن لو علم العالم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشدّ من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هيّناً وهو عند الله عظيم وقد مقته به وإذا كان هذا ممكناً كان على نفسه خائفاً فإذا كلّ واحد من العالم والعابد خائف على نفسه وقد كلّف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حقّ نفسه الخوف وفي حقّ غيره الرّجاء وذلك يمنعه من التكبّر بكلّ حال، فهذا حال العابد مع العالم فأمّا مع غير العالم فهم منقسمون في حقّه إلى مستورين وإلى مكشوفين فينبغي أن لا يتكبّر على المستور فلعلّه أقلّ منه ذنباً وأكثر منه عبادة وأشدّ منه حبّاً لله. وأمّا المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذّنوب إلّا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبّر عليه ولا يمكن أن تقول هو أكثر منّي ذنباً لأنّ عدد ذنوبك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتّى تعلم الكثرة من القلّة، نعم يمكن أن يعلم أنّ ذنوبه أشدّ كما لو رأيت منه القتل والشرب والزناء ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبّر عليه، إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرّياء والغلّ واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله وتخيّل الخطأ فيه كلّ ذلك شديد عند الله، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذّنوب ما صرت به عند الله ممقوتاً، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حبّ الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه وقد كفّر بذلك سيئاته فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك، وإن كنت مشفقاً على نفسك فلا تتفكّر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقّك فإنّه لا تزر وازرة وزر اُخرى وعذاب غيرك لا يخفّف شيئاً من عذابك فإذا تفكّرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن

التكبّر و عن أن ترى نفسك فوق غيرك ، وقد قال وهب بن منبّه : ما تمّ عقل عبد حتّى تكون فيه عشر خصال فعدّ تسعة حتّى بلغ العاشرة فقال : العاشرة وما العاشرة بها ساد مجده وبها علا ذكره أن يرى الناس كلّهم خيراً منه وإنّما الناس عنده فرقتان فرقة هي أفضل منه و أرفع و فرقة هي شرّ منه و أدنى فهو يتواضع للفرقتين جميعاً بقلبه إن رأى من هو خير منه سرّه و تمنّى أن يلحق به . وإن رأى من هو شرّ منه قال : لعلّ هذا ينجو و اُهلك أنا فلا يراه شرّاً منه خائفاً من العاقبة ، و يقول : لعلّ برّ هذا باطن فذلك خير له ، ولا أدري لعلّ فيه خُلق كريم بينه و بين الله فيرحمه الله و يتوب عليه و يختم له بأحسن الأعمال و برّي ظاهر فذلك شرّ لي لا آمن فيما أظهر من الطاعة أن تكون دخلها الآفات فأحبطتها ، ثمّ قال : فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه فهذا كلامه ، و بالجملة من جوّز أن يكون عند الله شقيّاً وقد سبق القضاء الأزليّ بشقوته فما له سبيل إلى أن يتكبّر بحال من الأحوال ، نعم إذا غلبه الخوف رأى كلّ أحد خيراً من نفسه و ذلك هو الفضيلة كما روي أنّ عابداً أوى إلى جبل فقيل له في النوم : ائت فلاناً الاسكاف فسله أن يدعولك فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنّه يصوم النهار و يكتسب و يتصدّق ببعضه ويطعم عياله ببعضه فرجع وهو يقول : إنّ هذا لحسن ولكن ليس هذا كالتفرّغ لطاعة الله فأتى في النوم ثانياً فقيل : له ائت الاسكاف فقل له : ما هذا الصفار الّذي بوجهك فأتاه فسأله ، فقال له : ما رأيت أحداً من الناس إلّا وقع لي أنّه سينجو و اُهلك أنا ، فقال العابد بهذه .

و الّذي يدلّ على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى : « و الّذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم و جلة » (١) اي يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها .

و قال : « إنّ الّذين هم من خشية ربّهم مشفقون » (٢) .

و قال : « إنّا كنّا قبل في أهلنا مشفقين» (٣) وقد وصف الله الملائكة مع تقدّسهم عن الذّنوب و مواظبتهم على العبادات على الدّؤوب بالاشفاق فقال : « يسبّحون

---

(١) المؤمنون : ٦٢ . (٢) المؤمنون : ٥٩ .
(٣) الطور : ٢٧ .

الّليل و النهار لا يفترون »[١] « وهم من خشيته مشفقون »[٢] فمتى زال الاشفاق والحذر ممّا سبق به القضاء في الأزل و ينكشف عند خاتمة الأجل غلب الأمن من مكر الله و ذلك يوجب الكبر و هو سبب الهلاك ، فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك ، والتواضع دليل الخوف وهو مسعد ، فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنّظر إليهم بعين الاستصغار أكثر ممّا يصلحه بظاهر الأعمال ، فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لاغير ، إلّا أنّ النّفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة فإذا وقعت الواقعة عادت النّفس إلى طبعها و نسيت وعدها فعن هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرّد المعرفة بل ينبغي أن يكمل المعرفة بالعمل و يجرّب نفسه بأعمال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النّفس و بيانه أن يمتحن النّفس بخمس امتحانات هي أدلّة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة .

الامتحان الاوّل أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه فإن ظهر شيء من الحقّ على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه و تعريفه و إخراجه الحقّ فذلك يدلّ على أنّ فيه كبراً دفيناً فليتّق الله فيه و ليشتغل بعلاجه إمّا من حيث العلم فبأن يذكّر نفسه خسّة نفسه و خطر عاقبته و أنّ الكبر لا يليق إلّا بالله تعالى ، و إمّا من حيث العمل فبإن يكلّف نفسه ما يثقل عليه من الاعتراف بالحقّ فيطلق اللّسان بالحمد والثّناء و يقرّ على نفسه بالعجز و يشكره على الاستفادة و يقول : ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبّهتني له فالحكمة ضالّة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دلّه عليها ، فإذا واظب على ذلك مرّات متواليه صار ذلك له طبعاً وسقط ثقل الحقّ عن قلبه و طاب له قبوله ، و مهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة و يثقل في الملأ فليس فيه كبر و إنّما فيه رياء فليعالج الرّياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن النّاس و يذكّر القلب بأن منفعته

---

(١) الانبياء : ٢١ .
(٢) الانبياء : ٢٩ .

في كماله في ذاته و عندالله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرّياء و إن ثقل عليه ذلك في الخلوة والملأ جميعاً ففيه الكبر والرّياء جميعاً ولاينفعه الخلاص من أحدهما مالم يتخلّص من الثاني فليعالج كلا الدّاءين فإنّهما جميعاً مهلكان .

الامتحان الثاني أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل و يقدّمهم على نفسه و يمشي خلفهم و يجلس في الصّدور تحتهم ، فإن ثقل ذلك عليه فهو متكبّر فليواظب عليه تكلّفاً حتّى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر ، و ههنا للشيطان مكيدة و هي أن يجلس في صفّ النّعال أو يجعل بينه و بين الأقران بعض الأرذال فيظنّ أنّ ذلك تواضع وهو عين الكبر فإنّ ذلك يخفّ على نفوس المتكبّرين إذ يوهمون أنّهم إنّما تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضّل فيكون قدتكبّر ، وتكبّر بإظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدّم أقرانه و يجلس تحتهم ولاينحطّ عنهم إلى صفّ النعال فذلك هو الّذي يخرج خبث الكبر من الباطن .

الامتحان الثالث أن يجيب دعوة الفقير و يمرّ إلى السّوق في حاجة الرّفقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر فإنّ هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل فنفور النّفس عنها ليس إلّا لخبث في الباطن فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكّر جميع ما ذكرناه من المعارف الّتي تزيل داء الكبر .

الامتحان الرّابع أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله و رفقائه من السّوق إلى البيت فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أورياء فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلوّ الطريق فهو كبر فإن كان لا يثقل إلّا عند مشاهدة الناس فهو رياء ، و كلّ ذلك من أمراض القلب و علله المهلكة له إن لم تتدارك .

أقول: ليس كلّ رياء مذموماً بل قد يكون مستحبّاً بل واجباً إذ يجب على المؤمن صيانة عرضه وأن لا يفعل ما يعاب عليه فلا يليق بذوي المروّات أن يرتكبوا الأمور الخسيسة بأنفسهم عند مشاهدة الناس وإن جاز لهم في الخلوة إلّا أنّ ذلك يختلف باختلاف الأزمنة والبلاد والأشخاص فلابدّ من مراعاة ذلك روي في الكافي[1]

(١) المصدر ج ٢ ص ١٢٣ تحت رقم ١٠ .

عن الصّادق عليه السلام « أنّه نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً و هو يحمله فلمّا رآه الرّجل استحيى منه فقال عليه السلام : اشتريته لعيالك وحملته إليهم أما والله لولا أهل المدينة لأحببت أن أشتري لعيالي الشيء ثمّ أحمله إليهم » أراد عليه السلام لولا مخافة أن يعيبوا على ذلك ، مع أنّ جدّه أمير المؤمنين عليه السلام كان يفعل مثله إلّا أنّه لمّا لم يعيبوا عليه بمثله في زمانه وفي شأنه جازله أن يرتكبه وكان منقبة له و تعليماً .

قال أبوحامد : و قد أهمل النّاس طبّ القلوب واشتغلوا بطبّ الأجساد مع أنّ الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة والقلوب لا تدرك السعادة إلّا بسلامتها إذ قال الله تعالى : « إلّا من أتى الله بقلب سليم »[1].

و يروى عن عبدالله بن سلام أنّه حمل حزمة حطب فقيل له : يا أبا يوسف قد كان في غلمانك و بنيك من يكفيك ، قال : أجل ولكن أردت أن اُجرّب نفسي هل تنكر ذلك ، فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتّى جرّبها أهي صادقه أم كاذبة وفي الخبر « من حمل الفاكهة أو الشيء فقدبرىء من الكبر »[2].

الامتحان الخامس أن يلبس ثياباً بذلة فإنّ نفورالنفس عن ذلك في الملأ رياء و في الخلوة كبر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من اعتقل البعير و لبس الصوف فقد برىء من الكبر »[3].

و قال صلى الله عليه وآله : « إنّما أنا عبدآكل بالأرض و ألبس الصّوف وأعقل البعير وألعق أصابعي واُجيب دعوة المملوك فمن رغب عن سنّتي فليس منّي »[4].

(١) الشعراء : ٩٠ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الايمان من حديث أبي امامة بسند ضعيف كمافي الجامع الصغير وفي لفظه « من حمل سلعته » .

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي اسناده القاسم العمري ضعيف جداً كما في المغني .

(٤) مضمون مأخوذ من جملة من الاحاديث و ليس هو حديث واحد . راجع سنن ابن ماجه وغيره باب الكبر وباب الزهد وقد مر في كتاب أخلاق النبوة .

و هذه مواضع يجتمع فيها الرّياء والكبر فما يختصّ بالملأ فهو الرّياء و ما يكون في الخلوة فهو الكبر ، فليعرف فإنّ مَن لا يعرف الشرّ لا يتّقيه و من لا يدرك المرض لا يداويه .

(بيان غاية الرّياضة فى خلق التواضع)

إعلم أنّ هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان و واسطة فطرفه الّذي يميل إلى الزيادة يسمّى تكبّراً و طرفه الّذي يميل إلى النقصان يسمّى تخاسساً و مذلّة والوسط يسمّى تواضعاً والمحمود أن يتواضع في غير مذلّة و من غير تخاسس ، فإنّ كلا طرفي قصد الأمور ذميمٌ وأحبُّ الأمور إلى الله تعالى أوساطها فمن يتقدّم على أمثاله فهو متكبّر و من يتأخّر عنهم فهو متواضع أي أنّه وضع شيئاً من قدره الّذي يستحقّه والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحّى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثمّ تقدّم وسوّى له نعله و غدا إلى الباب خلفه فقد تخاسس وتذلّل وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند الله العدل و هو أن يعطي كلّ ذي حقّ حقّه ، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله و لمن يقرب منه درجته ، فأمّا تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام و الرّفق في السؤال و إجابة دعوته و السعي في حاجته و أمثال ذلك ، و أن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره و هو لا يعرف خاتمة أمره و خاتمته ، فإذن سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران و لمن دونهم حتّى يخفّ عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه ، فإن خفّ عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع و إن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلّف لا متواضع ، بل الخُلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير رويّة ، فإن خفّ ذلك و صار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتّى أحبّ التملّق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن يذلّ نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الّذي هو الصراط المستقيم و ذلك غامضٌ في هذا الخلق و سائر الأخلاق والميل عن الوسط إلى طرف النقصان و هو التملّق أهون من الميل إلى طرف الزّيادة بالتكبّر كما أنّ الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند

الناس من الميل إلى طرف البخل ، فنهاية التبذير و نهاية البخل مذمومان و أحدهما أفحش من الآخر ، و كذلك نهاية التكبّر و نهاية التبصبص(١) والتذلّل مذمومان و أحدهما أقبح من الآخر والمحمود المطلق هو العدل و وضع الأمور في مواضعها ، و على ما يجب و على ما يعرف من ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا من بيان خلق الكبر .

☼(الشطر الثاني مِنَ الكتاب في العُجْب)☼

وفيه بيان ذمّ العُجْب وآفته ، و بيان حقيقة العُجْب والإدلال وحدّهما ، و بيان علاج العجب على الجملة ، و بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه .

☼(بيان ذم العُجْب و آفته)☼

إعلم أنّ العجب مذموم في كتاب الله تعالى و سنّة نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى : « و يوم حُنَين إذ أعجبتكم كثرتكم »(٢) و ذكر ذلك في معرض الإنكار .

و قال الله تعالى : « و ظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله فأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا »(٣) فردّ على الكفّار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم .

و قال تعالى : « وهم يَحسبون أنّهم يُحْسنون صنعاً »(٤) و هذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل و قد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه .

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاثٌ مهلكات شحٌ مطاعٌ وهوىً مُتَّبَع وإعجاب المرء بنفسه »(٥).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمّة فقال : « إذا رأيت شحاً مطاعاً و هوى مُتّبعاً وإعجاب كلّ ذي رأى برأيه فعليك نفسك »(٦).

(١) في الاحياء « نهاية التنقص » .
(٢) التوبة : ٢٦ .
(٣) الحشر : ٢ .
(٤) الكهف : ١٤٠ .
(٥) قد مر عن البيهقي رواه في الشعب .
(٦) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه و قد تقدم .

و قال ﷺ : « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك ؛ العجب العجب » (١).

و قال ابن مسعود : « الهلاك في اثنتين القنوط والعجب » و إنّما جمع بينهما لأنّ السعادة لاتنال إلّا بالسعي والطلب والجدّ والتشمّر ، والقانط لايسعى ولا يطلب والمعجب يعتقد أنّه قد سعد و ظفر بمراده فلا يسعى والموجود لا يطلب والمحال لا يطلب والسّعادة في اعتقاد المعجب حاصلة له و مستحيلة في اعتقاد القانط فبهذا جمع بينهما و قد قال تعالى : « فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى » (٢).

قال ابن جريج : معناه إذا عملت خيراً فلا تقل عملت . و قال زيدبن أسلم : لا تبرّوها أي لا تعتقدوا أنّها بارّة ، وهو معنى العجب .

و قال تعالى : « لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى » (٣) والمنّ نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هوالعجب فظهر من هذا أنّ العجب مذمومٌ جدّاً .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي باسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « إنّ الله تعالى علم أنّ الذّنب خيرٌ للمؤمن من العجب ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب أبداً » (٤).

و عنه عليه السلام قال : « من دخله العجب هلك » (٥).

و عنه عليه السلام قال : « إنّ الرّجل ليذنب الذّنب فيندم عليه ويعمل العمل فيسرّه ذلك فيتراخى عن حاله تلك فلأن يكون على حاله تلك خيرٌ له ممّا دخل فيه » (٦).

و عنه عليه السلام قال : «أتى عالم عابداً فقال له : كيف صلاتك ؟ فقال : مثلي يسأل عن صلاته ؟! وأنا أعبدالله منذ كذا و كذا ، قال : فكيف بكاؤك ؟ قال : أبكي حتّى تجري دموعي ، فقال العالم : إنّ ضحكك وأنت خائفٌ أفضل من بكائك وأنت مدلٌّ

(١) أخرجه البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وقال العراقى : فيه سلام بن أبى الصهباء ، قال البخارى : منكر الحديث أقول : وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد و قال : رواه البزار من حديث أنس باسناد جيد .

(٢) النجم : ٣٤ . (٣) البقرة : ٢٦٦ .

(٤) الى (٦) المصدر ج ٢ ص ٣١٣ رقم ١ و ٢ و ٤ .

إنّ المدلّ لا يصعد من عمله شيء »[١].

و عن أحدهما عليهما السلام قال : « دخل رجلان المسجد أحدهما عابدٌ والآخر فاسق فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق [٢] والعابد فاسق ، و ذلك أنّه يدخل العابد المسجد مدلّاً بعبادته يدلّ بها فتكون فكرته في ذلك و تكون فكرة الفاسق في الذّم على فسقه و يستغفر الله ممّا صنع من الذّنوب ».

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : بينما موسى عليه السلام جالس إذ أقبل إبليس و عليه برنس ذو ألوان فلمّا دنا منه خلع البرنس و قام إلى موسى عليه السلام فسلّم عليه فقال له موسى عليه السلام : من أنت فقال : أنا إبليس ، قال : أنت فلا قرّب الله دارك [٣] قال : إنّي إنّما جئت لاُسلّم عليك لمكانك من الله تعالى قال : فقال له موسى عليه السلام : فما هذا البرنس ؟ قال : أختطف به قلوب بني آدم [٤] فقال له موسى : فأخبرني بالذّنب الّذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه [٥] فقال : إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه »[٦].

و قال : قال الله تعالى لداود عليه السلام : « يا داود بشّر المذنبين و أنذر الصدّيقين قال : كيف اُبشّر المذنبين واُنذر الصدّيقين ؟ قال : يا داود بشّر المذنبين أنّي أقبل التوبة و أعفو عن الذّنب ، وأنذر الصدّيقين ألّا يعجبوا بأعمالهم فإنّه ليس عبد أنصبه للحساب إلّا هلك » [٧].

---

(١) الكافى ج ٢ ص ٣١٣ تحت رقم ٥ والمدل : المنبسط المسرور الذى لاخوف له من التقصير فى العمل .

(٢) أى مؤمن صادق فى ايمانه كثير الصدق والتصديق قولا و فعلا . و الخبر فى الكافى ج ٢ ص ١١٤ رقم ٦ .

(٣) أى لا قربك الله تعالى منا أو من أحد .

(٤) أى استلب به قلوب الادميين و كأن الالوان فى البرنس كانت صورة شهوات الدنيا و زينتها .

(٥) استحواذ الشيطان على بنى آدم : غلبته واستمالته الى مايريد منه .

(٦) و (٧) الكافى ج ٢ ص ٣١٤ تحت رقم ٨ .

وفي مصباح الشريعة (١) قال الصادق عليه السلام : « العجب كلّ العجب ممّن يعجب بعمله وهو لايدري بمايختم له فمن أعجب بنفسه و فعله فقد ضلّ عن نهج الرّشاد و ادّعى ما ليس له والمدّعي من غير حقّ كاذب وإن خفي دعواه و طال دهره فإنّه أولى ما يفعل بالمعجب نزع ما أعجب به ليعلم أنّه عاجز فقير و يشهد على نفسه لتكون الحجّة عليه أوكد كما فعل بإبليس ، والعجب نبات حبّها الكفر ، و أرضها النفاق ، و ماؤها البغي ، و أغصانها الجهل ، و ورقها الضّلالة ، و ثمرها اللّعنة و الخلود في النّار ، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر و زرع النفاق ، و لابدّ من أن يثمر .

(بيان آفات العجب)

إعلم أنّ آفات العجب يدعو إلى الكبر لأنّه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولّد من العجب الكبر و من الكبر الآفات الكثيرة الّتي لا تحصى . هذا مع العباد فأمّا مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذّنوب و إهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقّدها لظنّه أنّه مستغن عن تفقّدها فينساها و ما يتذكّره منها فيستصغر و لا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه و تلافيه ، بل يظنّ أنّه يغفر له . و أمّا العبادات والأعمال فإنّه يستعظمها ويتبجّح بها ويمنّ على الله بفعلها ، و ينسى نعمة الله عليه بالتوفيق و التمكين منها ، ثمّ إذا أعجب بها عمي عن آفاتها ، و من لم يتفقّد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضايعاً ، فإنّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقيّة عن الشوائب قلّما تنفع و إنّما يتفقّد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب و المعجب يغترّ بنفسه و بربّه و يأمن مكر الله وعذابه ويظنّ أنّه عندالله بمكان وأنّ لهعندالله منّة وحقّاً بأعماله الّتي هي نعمة من نعمه وعطيّة من عطاياه ، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه و يحمدها و يزكّيها ، فإن أعجب برأيه و علمه و عقله منعه ذلك من الاستفادة و من الاستشارة والسؤال فيستبدّ بنفسه و برأيه و يستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، و ربّما يعجب بالرأي الخطأ الّذي خطر له فيفرح بكونه

(١) الباب الاربعين .

من خواطره ولا يفرح بخاطر غيره فيصرّ عليه ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال و يصرّ على خطائه فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقّق فيه وإن كان في أمر ديني لا سيّما فيما يتعلّق بأُصول العقائد فيهلك به ، و لواتّهم نفسه و لم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن ، و استعان بعلماء الدّين ، و واظب على مدارسة العلم ، و تابع سؤال أهل البصيرة ، لكان ذلك يوصله إلى الحقّ فهذا و أمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات و من أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنّه أنّه قد فاز واستغنى و هو الهلاك الصريح الّذي لا شبهة فيه .

(بيان حقيقة العُجب والإدلال وحدّهما)

إعلم أنّ العجب إنّما يكون بوصف هو كمال لا محالة و للعالم بكمال نفسه في علم و عمل و مال وغيره حالتان إحداهما أن يكون خائفاً على زواله ، مشفقاً على تكدّره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب ، والأُخرى أن لايكون خائفاً من زواله لكن يكون فرحاً به من حيث أنّه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه و هذا أيضاً ليس بمعجب ، وله حالة ثالثة هي العجب وهو أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحاً به مطمئناً إليه و يكون فرحه به من حيث أنّه كمال ونعمة و رفعة و خير لا من حيث أنّه عطية من الله تعالى و نعمة منه فيكون فرحه به من حيث أنّه صفته و منسوب إليه بأنّه له لا من حيث أنّه منسوب إلى الله بأنّه منه فمهما غلب على قلبه أنّه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه ، فإذن العجب هو إعظام النعمة والرّكون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم فإن انضاف إلى ذلك إن غلب على نفسه أنّ له عندالله حقّاً وأنّه منه بمكان حتّى يتوقّع بعمله كرامة له في الدّنيا واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعاداً يزيد على استبعاده ما يجري على الفسّاق سمّي هذا إدلالاً بالعمل فكأنّه يرى لنفسه على الله دالّة و كذلك قد يعطي غيره شيئاً فيستعظمه و يمنّ عليه فيكون معجباً فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلّفه عن قضاء حقوقه كان مدلّاً عليه .

قال قتادة في قوله تعالى: «و لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِر»[١]: أي لاتدلّ بعملك. و في الخبر «أنّ صلاة المدلّ لا ترفع فوق رأسه»[٢] و لأن تضحك و أنت معترف بذنبك خير من أن تبكي و أنت مدلّ بعملك، والإدلال وراء العجب فلا مدلّ إلّا و هو معجب، وربّ معجب لايدلّ إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النّعمة دون توقّع جزاء عليه والإدلال لا يتمّ إلّا مع توقّع جزاء، فإن توقّع إجابة دعوته و استنكر ردّها بباطنه و تعجّب منها كان مدلًّا بعمله فإنّه لا يتعجّب من ردّ دعاء الفسّاق و يتعجّب من ردّ دعاء نفسه لذلك. فهذا هو العجب و الإدلال و هو من مقدّمات الكبر و أسبابه.

أقول: و في الكافي عن عليّ بن سويد عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن العجب الّذي يفسد العمل فقال: «العجب درجات منها أن يزيّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً و يحسب أنّه يحسن صنعاً، و منها أن يؤمن العبد بربّه فيمنّ على الله و لله عليه فيه المنّة»[٣].

❁ (بيان علاج العجب على الجملة) ❁

إعلم أنّ علاج كلّ علّة هو مقابلة سببها بضدّها وعلّة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادّة لذلك الجهل فقط، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة و الغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم، فإنّ العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال و القوّة و النسب و مالا يدخل تحت اختياره ولايراه من نفسه فنقول: الورع والتقوى والعبادة والعمل الّذي به يعجب إمّا أن يعجب به من حيث أنّه فيه وهو محلّه و مجراه أو من حيث أنّه منه وبسببه و قدرته و قوّته فإن كان يعجب به من حيث أنّه فيه وهو محلّه ومجراه، يجري فيه و عليه من جهة غيره فهذا جهل لأنّ المحلّ مسخّر ومجرى لامدخل له في الإيجاد و التحصيل فكيف يعجب

(١) المدثر: ٧.
(٢) قال العراقي: لم أجده أصلا. وفي النهاية «مدلاً أي منبسطاً لا خوف عليه».
(٣) المصدر ج ٢ ص ٣١٣.

بما ليس إليه و إن كان يعجب به من حيث هو منه و إليه و باختياره حصل وبقدرته و قوّته تمّ ، فينبغي أن يتأمّل في قدرته و إرادته و أعضائه و سائر الأسباب الّتي بها تمّ عمله أنّها من أين كانت له ، فإن كان علم أنّ جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حقّ سبق له و من غير وسيلة يدلى بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله إذ أفاض عليه مالا يستحقّه وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فمهما برز الملك لغلمانه و نظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لالصفة فيه ولالوسيلة ولالجمال ولالخدمة فينبغي أن يتعجّب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه و إيثاره له من غير استحقاق فإعجابه بنفسه من أين وما سببه ولاينبغي أن يعجب هو بنفسه نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكم عدل لايظلم ولايقدّم ولايؤخّر إلّالسبب فلولاأنّه تفطن فيصفة من الصفات المحمودة الباطنه لما اقتضى الإيثار بالخلعة لما آثرني بها فيقال : و تلك الصفة هي أيضاً من خلعة الملك و عطيته الّتي خصّصك بها من غيرك من غيروسيلة أوهي عطيّة غيره ، فإن كانت من عطيّة الملك أيضاً لم يكن لك أن تعجب بها بل كان كما لو أعطاك فرساً فلم تعجب به فأعطاك غلاماً فصرت تعجب به و تقول إنّما أعطاني غلاماً لأنّي صاحب فرس و أمّا غيري فلافرس له ، فيقال : وهو الّذي أعطاك الفرس ، فلا فرق بين أنّ يعطيك الفرس و الغلام معاً أو يعطي أحدهما بعد الآخر ، فإذا كان الكلّ منه فينبغي أن يعجبك جوده و فضله لانفسك ، وأمّا إن كانت تلك الصفة من غيره فلايبعد أن تعجب بتلك الصفة و هذا يتصوّر في حقّ الملوك و لا يتصوّر في حقّ الجبّار ملك الملوك ، المنفرد باختراع الجميع ، المتفرّد بإيجاد الموصوف و الصفة ، فإنّك إن أعجبت بعبادتك و قلت وفّقني للعبادة لحبّي له فيقال : ومن خلق الحبّ فيقلبك ؟ فستقول : هو ، فيقال : فالحبّ و العبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لاوسيلة لك ولا علاقة فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك و وجود صفاتك و بوجود أعمالك و أسباب أعمالك فإذا لا معنى لعجب العابد بعبادته ، وعجب العالم بعلمه ، و عجب الجميل بجماله ، و عجب الغنيّ بغناه لأنّ كلّ ذلك من فضل الله

و إنّما هو محلّ لفيضان فضل الله وجوده و المحلّ أيضاً من جوده و فضله .

فان قلت : لايمكنني أن أجهل أعمالي ؟ و إنّي أنا عملتها و إنّي أنتظر عليها ثواباً ولولا أنّها عملي لما انتظرت الثواب فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب وإن كانت الأعمال منّي وبقدرتي فكيف لا أعجب بها ؟.

فاعلم أنّ جوابك من وجهين : أحدهما وهو صريح الحقّ و الآخر فيه مسامحة .

أمّا صريح الحقّ فهو أنّك وقدرتك وإرادتك و حركتك و جميع ذلك من خلق الله و اختراعه فما عملت إذ عملت و ما صلّيت إذ صلّيت ، قال الله تعالى : «و ما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى »[1] هذا هو الحقّ الّذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إبصار العين ، بل خلقك ، و خلق أعضاءك ، و خلق فيها القوّة والقدرة و الصحّة ، و خلق لك العقل و العلم ، و خلق لك الإرادة ولو أردت أن تنفي شيئاً من ذلك عن نفسك لم تقدر عليه ، ثمّ خلق الحركات في أعضائك مستبدّاً باختراعه من غير مشاركة له من جهتك معه في الاختراع إلّا أنّه خلقها على ترتيب فلم يخلق الحركة مالم يخلق في العضو قوّة و في القلب إرادة ولم يخلق إرادة مالم يخلق علماً بالمراد ، ولم يخلق العلم مالم يخلق القلب الّذي هو محلّ العلم فتدريجه في الخلق شيئاً بعدشيء هو الّذي خيّل إليك أنّك أوجدت عملك وقد غلطت ، وإيضاح ذلك وكيفيّة الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتي تقريره في كتاب الشكر فإنّه أليق به فارجع إليه ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الّذي فيه مسامحة مّا .

وهو أن تحسب أنّ العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ولا يتصوّر العمل إلّا بوجودك و بوجود علمك و إرادتك و قدرتك و سائر أسباب عملك و كلّ ذلك من الله تعالى لامنك ، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه و هذا المفتاح بيد الله تعالى ومهمالم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل ، فالعبادات خزائن بها يتوصّل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لامحالة ، أرأيت أنّك لو رأيت خزائن الدّنيا مجموعة في قلعة حصينة و مفتاحها بيد خازن ولو جلست على بابها

(١) الانفال : ١٧ .

و حول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار ممّا فيها و لو أعطاك المفتاح لأخذته من قرب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلّطك عليها ومكّنك منها فمددت اليد وأخذتها أكان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مدّ اليد إليه وأخذه ؟ فلا تشكّ في أنّك ترى ذلك نعمة من الخازن لأنّ المؤونة في تحريك اليد إليه لأخذ المال قريبة وإنّما الشأن كلّه في تسليم المفاتيح فكذلك مهما خلقت القدرة وسلّطت الإرادة الجازمة و حركت الدّواعي و البواعث و صرفت عنك الموانع والصوارف حتّى لم يبق صارف إلّا دفع ولاباعث إلّا وكّل بك فالعمل هيّن عليك ، وتحريك البواعث و صرف العوائق و تهيئة الأسباب كلّها من الله تعالى ليس شيء منها إليك فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب ممّن إليه الأمر كلّه ولا تعجب بجوده و فضله و كرمه في إيثاره إيّاك على الفسّاق من عباده إذ سلّط دواعي الفساد على الفسّاق و صرفها عنك وسلّط أقران السوء و دعاة الشرّ عليهم و صرفهم عنك و مكّنهم من أسباب الشهوات و اللّذات و زواها عنك و صرف عنهم بواعث الخير و دواعيه و سلّطها عليك حتّى تيسّر لك الخير و تيسّر لهم الشرّ، فعل ذلك كلّه بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي بل آثرك وقدّمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي و أشقاه بعدله فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك فإذن لاتنصرف قدرتك إلى المقدور إلّا بتسليط الله عليك داعية لاتجد سبيلاً إلى مخالفتها فكأنّه الّذي اضطرّك إلى الفعل إن كنت فاعلاً تحقيقاً فله الشكر والمنّة لالك . وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكّل من بيان تسلسل الأسباب والمسبّبات ماتستبين به أنّه لافاعل إلّاالله ولاخالق سواه ، و العجب ممّن يتعجّب إذا رزقه الله عقلاً و أفقره ممّن أفاض الله عليه المال من غير علم فيقول : كيف منعني قوت يومي و أنا العاقل الفاضل وأفاض عليه نعيم الدّنيا وهو الجاهل الغافل حتّى يكاديرى هذا ظلماً ولايدري المغرور أنّه لو جمع له بين العقل و المال جميعاً لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال إذ يقول الجاهل الفقير: ياربّ لم جمعت له بين العقل والغنى و منعتني و حرمتني منهما ؟ فهلاّ جمعتهما لي ؟ و هلا رزقتني أحدهما ؟ و إلى هذا

أشار عليّ عليه السلام حيث قيل له : ما بال العقلاء فقراء ؟ فقال : « إنّ عقل الرّجل محسوب عليه من رزقه » والعجب أنّ العاقل الفقير ربّما يرى الجاهل الغنيّ أحسن حالاً من نفسه ولو قيل له : هل تؤثر جهله وغناه عوضاً من عقلك وفقرك لامتنع عنه فإذن ذلك يدلّ على أنّ نعمة الله عليه أكبر فلم يتعجّب منه والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحليّ والجواهر على الدّميمة القبيحة فتتعجّب وتقول : كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزّينة و يخصّص به مثل هذا القبيح ولا تدري المغرورة أنّ الجمال محسوب عليها من رزقها وأنّها لو خيّرت بين الجمال مع الفقر وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال فإذاً نعمة الله عليها أكبر . وقول الحكيم العاقل الفقير بقلبه يا ربّ لم حرمتني الدّنيا وأعطيتها الجهّال كقول من أعطاه الملك فرساً فيقول : أيّها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب فرس فيقول : كنت لا تتعجّب من هذا ولم أعطك الفرس فهب أنّي ما أعطيتك فرساً أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجّة تطلب بها نعمة أُخرى فهذه أوهام لا تخلو الجهّال عنها و منشؤ جميع ذلك الجهل و يزال ذلك بالعلم المحقّق بأنّ العبد وعمله و أوصافه كلّ ذلك من عند الله نعمة ابتداه بها قبل الاستحقاق و هذا ينفي العجب و الإدلال و يورث الخضوع والشكر و الخوف من زوال النعمة و من عرف هذا لم يتصوّر أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أنّ ذلك من الله تعالى ولذلك لمّا اتّكل أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله يوم حنين على قوّتهم و كثرتهم ونسوا فضل الله عليهم قالوا : لا نغلب اليوم من قلّة . و كلوا إلى أنفسهم فقال تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثمّ ولّيتم مدبرين » (١).

و روى ابن عيينة أنّ أيّوب عليه السلام قال : إلهي إنّك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد عليّ أمرٌ إلّا آثرت هواك على هواي فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت يا أيّوب أنّى لك ذلك ؟ - أي من أين لك ذلك - قال : فأخذ رماداً فوضعه على رأسه وقال : « منك

---

(١) الاية فى سورة التوبة : ٢٦ وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع أن رجلا قال : يوم حنين لن نغلب من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله فأنزل الله عزوجل : « ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم » راجع الدر المنثور ج٣ ص٢٢٤ .

يا ربّ منك يارب» فرجع عن نسيانه و أضاف ذلك إلى الله تعالى و لهذا قال الله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم و رحمته ماز كى منكم من أحد أبداً » (١).

و قال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم لاصحابه : «مامنكم مِن أحدٍ ينجيه عمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله برحمته » (٢) فإذن هذا هو العلاج القاطع لمادّة العجب من القلب و مهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها . فكم من مؤمن قد ارتدّ و مطيع قد فسق وختم له بالسوء و هذا لايبقى معه عجب بحال .

✡ (بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه) ✡

إعلم أنّ الإنسان قديعجب بالأسباب الّتي بها يتكبّر كما ذكرناه وقديعجب بما لايتكبّر به كعجبه بالرأي الخطأ الّذي يزيّن له بجهله فما به العجب ثمانية أقسام الأوّل أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحّته وقوّته وتناسب أشكاله وحسن صوته وبالجملة تفصيل خلقته فيلتفت إلى جمال نفسه و ينسى أنّه نعمة من الله و هو معرضة للزوال في كلّ حال و علاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال و هو التفكّر في أقذار باطنه و في أوّل أمره و آخره و في الوجوه الجميلة و الأبدان الناعمة أنّها كيف تمزّقت في التراب و أنتنت في القبور بحيث استقذرتها الطّباع ، الثاني القوّة و البطش كما حكي عن قوم عادحين قالوا : فيما أخبر الله عنهم « من أشدّ منّا قوّة » (٣) و كما اتّكل عوج على قوّته فأعجب بها فاقتلع جبلاً ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام فنقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل حتّى صارت في عنقه وقديتّكل المؤمن أيضاً على قوّته كما روي عن سليمان عليه السلام أنّه قال : لأطوفنّ اللّيلة على مائة امرأة تلد كلّ امرأة غلاماً الحديث (٤) ولم يقل إن شاء الله فحرم ما أراد من الولد

(١) النور : ٢١ .
(٢) أخرجه البخارى و مسلم ج ٨ ص ١٤١ من حديث عائشة .
(٣) فصلت : ١٥ .
(٤) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

و يورث العجب بالقوّة الهجوم في الحروب و إلقاء النفس في التهلكة و المبادرة إلى الضرب والقتل لمن قصده بالسوء وعلاجه ما ذكرناه وهوأن يعلمأنّ حمّى يوم تضعف قوّته وأنّه إذا أعجب بهاربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلّطها عليه .

الثالث العجب بالعقل و الكياسة والتفطّن لدقائق الاُمور من مصالح الدّين و الدّنيا و ثمرته الاستبداد بالرأي و ترك المشورة و استجهال الناس المخالفين له و لرأيه و يخرج إلى قلّة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي و العقل و استحقاراً لهم وإهانة وعلاجه أن يشكرالله علىما رزق من العقل ويتفكّر أنّه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس و يجنّ بحيث يضحك الناس منه ، ولا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره ، و ليستقصر عقله و علمه وليعلم أنّه ماأوتي من العلم إلّا قليلاً وإن اتّسع علمه وأنّ ماجهله ممّا عرفه الناس أكثر ممّا علمه فكيف بمالم يعرفه الناس من علم الله تعالى و أن يتّهم عقله و ينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم و يضحك الناس منهم ، فيحذر أن يكون منهم وهو لايدري فإنّ قاصر العقل قطّ لايعلم قصور عقله فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لامن نفسه و من أعدائه لامن أصدقائه ، فإنّ من يداهنه يثني عليه فيزيده عجباً وهو لايظنّ بنفسه إلّا الخير ولايفطن بجهل نفسه فيزداد به عجباً .

الرابع العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشميّة حتّى يظنّ بعضهم أنّه ينجو بسبب شرف نسبه و نجاة آبائه و أنّه مغفورٌ له و يتخيّل بعضهم أنّ جميع الخلق له موال و عبيد وعلاجه أن يعلم أنّه مهما خالف آباءه في أفعالهم و أخلاقهم فظنّ أنّه ملحق بهم فقد جهل وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف و الازراء على النفس و استعظام الخلق ومذمّة النفس ولقد شرّفوا بالطاعة والعلم والخصال المحمودة لا بالنسب فليتشرّف بما شرّفوا به وقد ساواهم في النسب و شاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله ، فكانوا عندالله شرّاً من الكلاب وأخسّ من الخنازير ، و لذلك قال الله تعالى : « يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر و اُنثى » اي لاتفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد ، ثمّ ذكر فائدة النسب فقال :

« وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » ثمّ بيّن أنّ الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال: « إنّ أكرمكم عندالله أتقيكم »(١) ولمـّا قيل لرسول الله صلّى الله عليه وآله: من أكرم الناس؟ من أكيس الناس؟ لم يقل من ينتمي إلى نسبي ولكن قال: « أكثرهم للموت ذكراً و أشدّهم له استعداداً »(٢) و إنّما نزلت هذه الآية حين أذّن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحارث بن هشام و سهيل بن عمرو وخالدبن اُسيد: هذا العبد الأسود يؤذّن فقال تعالى: « إنّ أكرمكم عندالله أتقيكم »(٣).

و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: « إنّ الله قد أذهب عنكم عُبّيّة الجاهليّة - أي كبرها - كلّكم بنو آدم وآدم من تراب »(٤).

و قال صلّى الله عليه وآله: « يامعشر قريش يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتوني بالدّنيا تحملونها على رقابكم وتقولون: يا محمّد يا محمّد فأقول: هكذا »(٥) أي أعرض عنكم فبيّن أنّهم أنّ مالوا إلى الدّنيا لم ينفعهم نسب قريش.

ولمـّا نزل قوله تعالى: « وأنذر عشيرتك الأقربين »(٦) ناداهم بطناً بعد بطن حتّى

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) أخرج ابن ماجه في السنن تحت رقم ٤٢٥٩ بسند مجهول عن ابن عمر أنه قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه و آله فجاءه رجل من الانصار. فسلم على النبى صلى الله عليه وآله. ثم قال: يا رسول الله أى المؤمنين أفضل؟ قال: « أحسنهم خلقا» قال: فأى المؤمنين اكيس؟ قال: « أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً اولئك الاكياس » وبهذه الزيادة رواه ابن أبى الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب.

(٣) أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن أبى مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على الكعبة فقال: بعض الناس هذا العبد الاسود يؤذن على ظهر الكعبة و قال: بعضهم ان يسخط الله هذا يغيره فنزلت « يا أيها الناس - الاية - » راجع الدر المنثور ج ٦ ص ٩٨.

(٤) أخرجه أبوداود ج٢ ص ٦٢٤ والعبية - كامنية -: الكبر والنخوة والفخر.

(٥) أخرجه الطبرانى من حديث عمران بن حصين الا أنه قال: «يامعشر بنى هاشم» و سنده ضعيف.

(٦) الشعراء: ٢١٧.

قال : يافاطمة بنت محمّد ياصفيّة بنت عبدالمطلب عمّة رسول الله إعملا لأنفسكما فإنّي لا أُغني عنكما من الله شيئاً »[١] .

فمن عرف هذه الأُمور و علم أنّ شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع فإن اقتدى بهم في التقوى والتواضع و إلّا كان طاعناً في نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع و التقوى و الخوف و الإشفاق .

فإن قلت : فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعد قوله لفاطمة وصفيّة : « إنّي لا أُغني عنكما من الله شيئاً إلّا أنّ لكما رحماً سأبلّها ببلالها »[٢] . و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أترجو سليم شفاعتي و لا يرجوها بنو عبد المطّلب »[٣] و ذلك يدلّ على أنّه سيخصّ قرابته بالشفاعة . فاعلم أنّ كلّ مسلم منتظر شفاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و النسب أيضاً جدير بأن يرجوها و لكن بشرط أن يتّقي الله و يخاف أن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته فإنّ الذّنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلايؤذن في الشفاعة فيه و إلى مايعفى عنه بسبب الشفاعة كالذّنوب عند ملوك الدّنيا فإنّ كلّ ذي مكانة عند الملك لايقدر على الشفاعة في من اشتدّ عليه غضب الملك فمن الذّنوب ما لاينجي منه الشفاعة و عنه العبارة بقوله تعالى : « ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى »[٤] وبقوله : « من ذا الّذي يشفع عنده إلّا بإذنه »[٥] و بقوله : « لا تنفع الشفاعة إلّا من أذن له الرّحمن و رضي له قولاً »[٦] و بقوله : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين »[٧] و إذا انقسمت الذّنوب إلى مايشفع فيه و إلى ما لايشفع فيه وجب

(١) أخرجه أحمد و مسلم و الترمذى و ابن جرير وابن مردويه عن عائشة راجع الدرالمنثور ج ٥ ص ٩٥ .

(٢) قوله : « سأبلها ببلالها » أى أصلكم فى الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئا والبلال جمع بلل وقيل : كلما بل الحلق من ماء أو لبن أو غيره (النهاية) وهذا تتمة الخبر السابق .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الاوسط من حديث عبدالله بن جعفر (المغنى) .

(٤) الانبياء : ٢٩ . (٥) البقرة : ٢٥٧ .

(٦) طه : ١٠٨ . (٧) المدثر : ٥٠ .

الخوف و الإشفاق لامحالة ، ولو كان كلّ ذي ذنب يقبل منه الشفاعة لما أمر قريشاً بالطاعة ولما نهاهم عن المعصية فالانهماك في الذّنوب وترك التقوى اعتماداً على الشفاعة يضاهي إنهماك المريض في شهواته اعتماداً على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره وذلك جهل فإنّ سعي الطبيب وهمّته وجدّه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلّها فلا يجوز ترك الحمية مطلقاً اعتماداً على مجرّد الطبّ بل للطبّ أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء و الصلحاء للأقارب و الأجانب فإنّه كذلك قطعاً وذلك لايزيل الخوف و الحذر .

الخامس العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين و العلم ، وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكّر في مخازيهم وماجرى لهم من الظلم على عباد الله و الفساد في دين الله وأنّهم ممقوتون عندالله ، ولو نظر إلى صورهم في النّار وأنتانهم و أقذارهم لاستنكف منهم و لتبرّأ من الانتساب إليهم ولأنكر على من نسبه إليهم استقذاراً لهم و استحقاراً ولو انكشف له ذلّهم يوم القيامة وقد تعلّق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرّونهم على وجوههم إلى جهنّم في مظالم العباد لتبرّأ إلى الله منهم ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحسن إليه من الانتساب إليهم فحقّ أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله على سلامة دينهم و يستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين ، فأمّا العجب بنسبهم فجهل محض .

السادس العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب و الأنصار و الأتباع كما قال الكافرون : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً »(١) كما قال المؤمنون يوم حنين « لانغلب اليوم من قلّة »(٢) وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكّر في ضعفه وضعفهم و أنّ كلّهم عبيد عجزة ، لايملكون لأنفسهم ضرّاً ولانفعاً « و كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » ثمّ كيف يعجب بهم وأنّهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده لايرافقه ولد ولاأهل ولاقريب ولاحميم

(١) السبأ : ٣٥ . (٢) تقدم آنفا .

ولاعشير ، فيسلّمونه إلى البلى و إلى الحيات و العقارب و الدّيدان ولا يغنون عنه شيئاً وهو أحوج أوقاته إليهم و كذلك يهربون منه يوم القيامة « يوم يفرّ المرء من أخيه . وأُمّه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكلّ امرءٍ منهم يومئذ شأنٌ يغنيه»[1] فأيّ خير فيمن يفارقك في أشدّ أحوالك ويهرب منك و كيف تعجب ولاينفعك في القبر والقيامة و على الصراط إلّا عملك و فضل الله تعالى فكيف تتّكل على من لاينفعك و تنسى نعم من يملك ضرّك و نفعك و موتك و حياتك ؟!!.

السابع العجب بالمال كما قال الله تعالى إخباراً عن صاحب الجنّتين إذ قال : «أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً » ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً غنيّاً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أخشيت أن يعدو إليك فقره»[2] وذلك للعجب بالغنى و علاجه أن يتفكّر في آفات المال و كثرة حقوقه و عظم غوائله ، و إلى فضيلة الفقراء و سبقهم إلى الجنّة في القيامة ، وإلى أنّ المال غاد و رائح ولا أصل له ، و إلى أنّ في اليهود من يزيد عليه في المال ، و إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « بينما رجلٌ يتبختر في حلّة له قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلي يوم القيامة » [3] أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله و نفسه ، و جميع ماذكرناه في كتاب الزّهد و كتاب ذمّ الدّنيا و كتاب ذمّ المال يبين حقارة الأغنياء و شرف الفقراء عندالله ، فكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بثروته ؟ بل لا يخلو المؤمن عن الخوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حلّه و وضعه في حقّه ، و من لايفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله ؟!.

الثامن العجب بالرأي الخطأ قال تعالى : « أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً »[4] وقال : « وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً »[5] .

---

(١) عبس : ٣٥.

(٢) رواه أحمد فى الزهد .

(٣) أخرجه مسلم ج ٦ ص ١٤٨ من حديث أبى هريرة .

(٤) فاطر : ٩ . (٥) الكهف : ١٠٤ .

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّ ذلك يغلب على آخر هذه الأُمّة و بذلك هلك الأُمم السالفة إذا افترقت فرقاً[١] و كلّ معجب برأيه و كلّ حزب بما لديهم فرحون وجميع أهل البدع والضلال إنّما أصرّوا عليها بعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى و الشهوة مع ظنّ كونه حقّاً و علاج هذا العجب أشدّ من غيره لأنّ صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطائه، ولو عرفه لتركه ولا يعالج الدّاء الّذي لا يعرف، والجهل داء لا يعرف فتعسّر مداواته جدّاً لأنّ العارف يقدر على أن يبيّن للجاهل جهله و يزيله عنه إلّا إذا كان معجباً برأيه و جهله فإنّه لا يصغى إلى العارف ويتّهمه فقد سلّط الله عليه بليّة تهلكه وهو يظنّها نعمة فكيف يمكن علاجه و كيف يطلب الهرب ممّا هو سبب سعادته في اعتقاده و إنّما علاجه على الجملة أن يكون متّهماً لرأيه أبداً لا يغترّ به إلّا أن يشهد له قاطع من كتاب الله أو سنّة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلّة، و لن يعرف الإنسان أدلّة الشرع و العقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلّا بقريحة تامّة وعقل ثاقب وجدّ وتشمّر في الطلب وممارسة للكتاب و السنّة و مجالسته لأهل العلم طول العمر ومدارسة العلوم، و مع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأُمور والصواب لمن لم يتفرّغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب ولا يصغى إليها ولا يسمعها ولكن يعتقد أنّ الله واحد لا شريك له و أنّه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير و أنّ رسوله صادق فيما أخبر به ويتّبع سنّة السلف.

أقول: بل يتبع سنّة أئمّة الهدى من أهل بيت النبيّ صلوات الله وسلامه عليه و عليهم خاصّة دون غيرهم من السلف كما عرفت غير مرّة.

قال: و يؤمن بجملة ما جاء به الكتاب و السنّة من غير بحث وتفتيش وسؤال عن تفصيل بل يقول: آمنّا وصدّقنا ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات و الشفقة على المسلمين و سائر الأعمال، فإن خاض في المذاهب و البدع و التعصّب في العقائد هلك من حيث لا يشعر. هذا حقّ كلّ من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء

(١) تقدم كراراً وهو جزء من حديث أبي ثعلبة «اذا رأيت شحاً مطاعاً الحديث».

غير العلم .

فأمّا الّذي عزم على التجرّد للعلم فأوّل مهمّ له معرفة الدّليل و شروطه و ذلك ممّا يطول الأمر فيه ، و الوصول إلى المعرفة واليقين في أكثر المطالب شديد لايقدر عليه إلّا الأقوياء المؤيّدون بنور الله تعالى وهو عزيزالوجود جدّاً .

فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهّال .

هذا آخر كتاب ذمّ الكبر و العجب من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء و يتلوه إن شاء الله كتاب ذمّ الغرور منه .

والحمدلله أوّلاً و آخراً و ظاهراً وباطناً .

كتاب ذمّ الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي بيده مقاليد الأُمور، و بقدرته مفاتيح الخيرات و الشرور، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور، ومورد أعدائه و رطات الغرور، والصلاة على محمّد مخرج الخلائق من الديجور، و على آله وأصحابه الّذين لم تغرّهم الحياة الدّنيا ولم يغرّهم بالله الغرور، صلاة تتوالى على مرّ الدّهور و كرّ الساعات و الشهور.

أمّا بعد فمفتاح السعادة التيقّظ و الفطنة و منبع الشقاوة الغرور و الغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة و لا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم «كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزّجاجة كأنّها كوكب درّيّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقيّة ولا غربيّة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء» والمغترّون قلوبهم «كظلمات في بحر لجّيّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها و من لم يجعل الله له نوراً فماله من نور» والأكياس هم الّذين أراد الله تعالى أن يهديهم فشرح صدورهم للاسلام والهدى، و المغترّون هم الّذين أراد أن يضلّهم فجعل صدورهم ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعّد في السماء، و المغرور هو الّذي لم ينفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً وبقي في العمى فاتّخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً «ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضلّ سبيلاً» وإذا عرف أنّ الغرور هو أُمّ الشقاوات ومنبع المهلكات فلابدّ من شرح مداخله و مجاريه و تفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد

معرفته فيتّقيه فالموفّق من العباد من عرف مداخل الآفات و الفساد فأخذ منها حذره ، و بنى على الحزم و البصيرة أمره .

ونحن نشرح أجناس مجاري الغرور و أصناف المغترّين من العلماء والصالحين الّذين اغترّوا بمبادي الأمور الجميلة ظواهرها ، القبيحة سرائرها ، و نشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها فإنّ ذلك وإن كان أكثر من أن يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصاء . و فرق المغترّين كثيرة ولكن يجمعهم أربعة أصناف : الصنف الأوّل من العلماء ، الصنف الثاني من العبّاد ، الصنف الثالث من المتصوّفة ، الصنف الرّابع من أرباب الأموال ، والمغترّون من كلّ صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة فمنهم من رأى المنكر معروفاً كالّذي يتّخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام ، و منهم من لم يميّز بين مايسعى فيه لنفسه و بين مايسعى فيه لله كالواعظ الّذي غرضه القبول والجاه ، ومنهم من يترك الأهمّ و يشتغل بغيره ، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة ، ومنهم من يترك اللّباب و يشتغل بالقشر كالّذي يكون همّه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف ، إلى غير ذلك من المداخل الّتي لاتتّضح إلّا بتفصيل الفرق و ضرب الأمثلة ولنبدء أوّلاً بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذمّ الغرور و بيان حقيقته و أمثلته .

(بيان ذم الغرور و حقيقته وأمثلته)

إعلم أنّ قوله تعالى : « فلاتغرّنكم الحيوة الدّنيا ولايغرّنّكم بالله الغرور »[١] .

وقوله عزّ وجلّ : « ولكنّكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانيّ حتّى جاء أمرالله وغرّكم بالله الغرور »[٢] كاف في ذمّ الغرور .

وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « حبّذا نوم الأكياس و فطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى و اجتهادهم ، ولمثقال ذرّة من صاحب تقوى و يقين أفضل من ملء الأرض من المغترّين »[٣] .

---

(١) لقمان : ٣٣ . (٢) الحديد : ١٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول أبي الدرداء بنحوه و في بعض الروايات أبي الورد موضع أبي الدرداء و قال العراقي : لم أجده مرفوعاً .

و قال ﷺ : « الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت ، و الاحمق من أتبع نفسه هواها و تمنّى على الله الأمانيّ » (١).

و كلّ ماورد في فضل العلم وذمّ الجهل فهو دليلٌ على ذمّ الغرور لأنّ الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء و يراه على خلاف ماهو به ، و الغرور هو الجهل إلّا أنّ كلّ جهل ليس بغرور بل يستدعي الغرور مغروراً فيه مخصوصاً ، ومغروراً به وهوالّذي يغرّه ، فمهماكان المجهول المعتقد شيئاً يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة و مخيلة فاسدة يظنّ أنّها دليلٌ ولا يكون دليلاً سمّي الجهل الحاصل به غروراً ، فالغرور هوسكون النفس إلى مايوافق الهوى و يميل إليه الطبع عن شبهة و خدعة من الشيطان ، فمن اعتقد أنّه على خير إمّا في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهومغرور ، وأكثر الناس يظنّون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه فأكثر الناس إذاً مغرورن و إن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم حتّى كان غرور بعضهم أظهر و أشدّ من بعض ، و أظهرها و أشدّها غروراً غرور الكفّار و غرور العصاة و الفسّاق ، فنورد ههنا أمثلة لحقيقة الغرور .

المثال الأوّل غرور الكفّار فمنهم من غرّته الحياة الدّنيا ، و منهم من غرّه بالله الغرور ، أمّا الّذين غرّتهم الحياة الدّنيا فهم الّذين قالوا : النقد خيرٌ من النسيئة و الدّنيا نقد و الآخرة نسيئة فاذن هي خيرٌ فلابدّ من إيثارها . و قالوا : اليقين خيرٌ من الشكّ و لذّات الدّنيا يقين ولذّات الآخرة شكّ فلايترك اليقين بالشكّ . فهذه أقيسة فاسدة يشبه قياس إبليس حيث قال : «أنا خيرمنه خلقتني من نار وخلقته من طين » وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى : «اُولئك الّذين اشتروا الحيوة الدّنيا بالآخرة فلايخفّف عنهم العذاب ولاهم ينصرون » (٢) وعلاج هذا الغرور إمّابتصديق الايمان و إمّا بالبرهان ، أمّا التصديق بمجرّد الايمان فهو أن يصدّق الله تعالى في قوله :

---

(١) أخرجه الترمذى والحاكم وأحمد وابن ماجه تحت رقم ٤٢٦٠ من حديث شداد ابن اوس بسند صحيح .

(٢) البقرة : ٨١ .

« ما عند كم ينفد و ما عندالله باق » [١] و في قوله : « و ما عندالله خيرٌ و أبقى » [٢] و قوله : « و الآخرة خيرٌ و أبقى » [٣] و قوله : « و ما الحيوة الدّنيا إلّا متاع الغرور » [٤] و قوله : « فلا تغرّنّكم الحيوة الدّنيا ولا يغرّنّكم بالله الغرور » [٥] .

وقد أخبر رسول الله صلّى الله عليه وآله طوائف من الكفّار بذلك فقلّدوه وصدّقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان [٦] ومنهم من قال : نشدتك الله أبعثك الله رسولاً فكان يقول : نعم فيصدّق [٧] و هذا إيمان العامّة و هو يخرج من الغرور و ينزل هذا منزلة تصديق الصبيّ و الده في أنّ حضور المكتب خير من حضور الملعب مع أنّه لايدري وجه كونه خيراً ، وأمّا المعرفة بالبيان والبرهان فهوأن يعرف وجه فساد هذاالقياس الّذي نظمه في قلبه الشيطان فإنّ كلّ مغرور فلغروره سبب و ذلك السبب هو دليلٌ و كلّ دليل فهو نوع قياس يقع في النفس و يورث السكون إليه و إن كان صاحبه لايشعر به ولايقدر على نظمه بألفاظ العلماء ، فالقياس الّذي نظمه الشيطان فيه أصلان : أحدهما أنّ الدّنيا نقد و الآخرة نسيئة ، و هذا صحيح ، و الآخر أنّ النقد خيرٌ من النسيئة ، وهذا محلّ التلبيس فليس الأمر كذلك ، بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار و المقصود فهو خيرٌ و إن كان أقلّ منها فالنسيئة خيرٌ فإنّ الكافر المغرور يبذل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسيئة و لا يقول النقد خيرٌ من النسيئة فلا أتركه ، و إذا حذّره الطبيب الفواكه و لذائذ الأطعمة تركها في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل وقد ترك النقد ورضي بالنسيئة ، والتجّار كلّهم يركبون البحار و يتعبون في الأسفار نقداً لأجل الرّاحة و الربح نسيئة ، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال فأنسب لذّة الدّنيا من حيث مدّتها إلى مدّة الآخرة فإنّ أقصى عمر الإنسان مائة سنة و ليس هو عشر عشير جزء من ألف ألف

(١) النحل : ٩٩ . (٢) القصص : ٦١ .
(٣) الاعلى ١٨. (٤) آل عمران : ١٨٣ .
(٥) فاطر : ٦ . (٦) كايمان الانصار و جلة أهل المدينة .
(٧) كايمان ضمام بن ثعلبة أخرجه احمد ج ١ ص ٢٦٤ و راجع اسد الغابة ج ٣ س ٤٣ .

جزء من الآخرة ، فكأنه ترك واحداً ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ ما لانهاية له ، ولا حدّ و إن نظر من حيث النوع رأى لذّات الدّنيا مكدّرة مشوبة بأنواع المنغّصات ، ولذّات الآخرة صافية غير مكدّرة ، فإذن قد غلط في قوله « النقد خيرٌ من النسيئة » و هذا غرور منشؤه قبول لفظ عامّ مشهوراً طلق وا ُريد به خاصّ ، فغفل المغرور عن خصوص معناه فإنّ من قال : « النقد خيرٌ من النسيئة » أراد به خيرٌ من نسيئة هي مثله و إن لم يصرّح به ، و عند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر و هو أنّ اليقين خيرٌ من الشكّ والدّنيا يقين والآخرة شكٌّ ، و هذا القياس أكثر فساداً من الأوّل لأنّ كلا أصليه باطلٌ إذ اليقين خيرٌ من الشكّ إذا كان مثله و إلّا فالتاجر في تعبه على يقين و في ربحه على شكّ ، والمتفقّه في اجتهاده على يقين و في إدراكه رتبة العلم على شكّ ، و الصيّاد في تردّده في المقتنص على يقين و في اقتناصه الظفر بالصيد على شكّ ، و كذلك الحزم دأب العقلاء بالاتفاق و كلّ ذلك ترك لليقين بالشكّ ، ولكنّ التاجر يقول : إنّي إن لم أتّجر بقيت جائعاً و عظم ضرري و إن اتّجرت كان تعبي قليلاً وربحي كثيراً و كذلك المريض يشرب الدّواء البشع الكريه و هو من الشفاء على شكّ و من مرارة الدّواء على يقين ولكن يقول : ضرر مرارة الدّواء قليل بالاضافة إلى ما أخافه من المرض والموت . و كذلك من شكّ في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيّام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالاضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة ، فإن كان ماقيل فيه كذباً فما يفوتني إلّا التنعّم أيّام حياتي وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لاأتنعّم فأحسب أنّي بقيت في العدم و إن كان ما قيل صدقاً فأبقى في النار أبد الآباد و هذا لا يطاق ، و لذلك قال عليٌّ عليه السلام لبعض الملحدين : « إن كان ما قلته حقّاً فقد تخلّصت و تخلّصنا و إن كان ما قلناه حقّاً فقد تخلّصنا و هلكت »[1] و ما قال : هذا عن شكّ منه في الآخرة ولكن كلّم الملحد على قدر عقله و بيّن له أنّه و إن لم يكن متيقّناً فهو مغرور ، و أمّا الأصل الثّاني من كلامه و هو أنّ الآخرة شكٌّ فهو أيضاً خطأ بل ذلك يقين عند

(١) راجع الكافي ج١ ص٧٨ مروى نحوه عن الصادق والرضا (ع) جواباً للزنديق .

المؤمنين و ليقينه مدركان : أحدهما الايمان والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء و ذلك أيضاً يزيل الغرور و هو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ، و مثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته و قد اتفق الأطباء و أهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني فانه تطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين ، بل يثق بقولهم و يعمل به و لو بقي سوادي أو معتوه يكذبهم في ذلك و هو يعلم بالتواتر و قرائن الأحوال أنهم أكثر منه عدداً و أغزر منه فضلاً و أعلم بالطب منه ، بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ولا يغتر في علمه بسببه ولو اعتمد على قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً مغروراً ، فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها و القائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها وجدهم خير خلق الله و أعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل ، فهم الأنبياء و الأولياء والحكماء و العلماء و اتبعهم عليه الخلق على أصنافهم و شذ منهم آحاد من البطالين ، غلبت عليهم الشهوة ، و مالت نفوسهم إلى التمتع ، فعظم عليهم ترك الشهوات و عظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة و كذبوا الأنبياء ، فكما أن قول الصبي وقول السوادي لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء ، فكذلك قول هذا الغبي الذي استرقته الشهوات لا يشك في صحة أقوال الأنبياء والعلماء ، وهذا القدر من الايمان كاف لجملة الخلق و هو يقين جازم مستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به .

وأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة فهو الوحي و الالهام فالوحي للأنبياء و الالهام للاولياء ، و لا تظنن أن معرفة النبي لأمر الآخرة و لأمور الدين تقليد لجبرئيل بالسماع منه كما أن معرفتك تقليد للنبي ﷺ حتى تكون معرفتك كمعرفته و إنما يختلف المقلد فقط ، وهيهات فان التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون و معنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها و شاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع و تقليد و ذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح و أنه من

أمر الله و ليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الّذي يقابل النّهي لأنّ ذلك الأمر كلام والرّوح ليس بكلام وليس المراد به الأمر الّذي هو الشأن حتّى يكون المراد به أنّه من خلق الله فقط لأنّ ذلك عامّ في جميع المخلوقات ، بل العالم عالمان عالم الأمر و عالم الخلق ، و لله الخلق والأمر فالأجسام ذوات الكمّيّة والمقادير من عالم الخلق ، إذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللّسان ، و كلّ موجود منزّه عن الكمّيّة و المقدار فإنّه من عالم الأمر ، و شرح ذلك يستدعي كشف سرّ الرّوح و لا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسرّ القدر الّذي منع من إفشائه ، فمن عرف سرّ الرّوح فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربّه وإذا عرف نفسه و ربّه عرف أنّه أمر ربّانيّ بطبعه و فطرته ، و أنّه في العالم الجسمانيّ غريب ، و أنّ هبوطه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته ، وذلك العارض الغريب ورد على آدم عليه السلام و عبّر عنه بالمعصية و هي الّتي حطّته عن الجنّة الّتي هي أليق بمقتضى ذاته فإنّها في جوار الرّبّ تعالى و أنّه أمر ربّانيّ و حنينه إلى جوار الرّبّ تعالى له طبعيّ ذاتيّ إلّا أن تصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربّه و مهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له : « ولا تكونوا كالّذين نسوا الله فأنسيهم أنفسهم اُولئك هم الفاسقون » أي الخارجون عن مقتضى طبعهم و مظنّة استحقاقهم يقال : فسقت الرّطبة عن كمامها إذا خرجت عن معدنها الفطريّ وهذه إشارة إلى أسرار يهتزّ لاستنشاق روائحها العارفون ويشمئزّ من سماع ألفاظها القاصرون فإنّها تضرّبهم كما تضرّ رياح الورد بالجُعل ، وتبهر أعينهم الضّعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش ، وانفتاح هذا الباب من سرّ القلب إلى عالم الملكوت يسمّى معرفة و ولاية ، ويسمّى صاحبها وليّاً و عارفاً و هي مبادي مقامات الأنبياء و آخر مقامات الأولياء أوّل مقامات الأنبياء ، ولنرجع إلى الغرض .

فالمقصود أنّ غرور الشيطان بأنّ الآخرة شكّ يدفع إمّا بيقين تقليدي و إمّا ببصيرة و مشاهدة من جهة الباطن ، والمؤمنون بألسنتهم و بعقائدهم إذا ضيّعوا أوامر الله و هجروا الأعمال الصّالحة و لابسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون

للكفّار في هذا الغرور لأنّهم آثروا الحياة الدّنيا على الآخرة ، نعم و أمرهم أخفّ لأنّ أصل الايمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ، و لو بعد حين و لكنّهم أيضاً مغرورون فإنّهم اعترفوا بأنّ الآخرة خيرٌ من الدّنيا و لكنّهم مالوا إلى الدّنيا وآثروها و مجرّد الايمان لا يكفي للفوز قال الله تعالى : « وإنّي لغفّار لمن تاب و آمن و عمل صالحاً ثمّ اهتدى » [١] و قال : « إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين » [٢] و قال النبيّ صلّى الله عليه و آله للأعرابيّ : « الاحسان أن تعبد الله كأنّك تراه » [٣] و قال تعالى : « والعصر إنّ الانسان لفي خسر ۞ إلاّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات » [٤]. فوعد المغفرة في جميع كتاب الله منوط بالايمان والعمل الصّالح جميعاً لا بالايمان وحده فهؤلاء أيضاً مغرورون أعني المطمئنّين إلى الدّنيا ، الفرحين بها ، المترفين بنعيمها ، المحبّين لها ، الكارهين للموت خيفة فوات لذّات الدّنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده ، فهذا مثال المغرور بالدّنيا من الكفّار والمؤمنين جميعاً .

و لنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين فأمّا غرور الكفّار بالله فمثاله قول بعضهم في أنفسهم و بألسنتهم أنّه إن كان لله من معاد فنحن أحقّ به من غيرنا ونحن أوفر حظّاً فيه وأسعد حالاً كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرّجلين المتحاورين إذ قال : « و ما أظنّ السّاعة قائمة و لئن رددت إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها منقلباً »[٥] وجملة أمرهما كما نقل في التفسير أنّ الكافر منهما بنى قصراً بألف دينار واشترى بستاناً بألف دينار ، واشترى خدماً بألف دينار و تزوّج امرأة على ألف دينار و في ذلك كلّه يعظه المؤمن و يقول : اشتريت قصراً يخرب و يفنى ألا اشتريت قصراً في الجنّة ، و اشتريت بستاناً يخرب و يفنى ألا اشتريت بستاناً في الجنّة لا تفنى ، و خدماً لا يفنون و لا يموتون ، و زوجة من الحور العين لا تموت ، و في كلّ ذلك يردّ عليه الكافر و يقول : ما هناك شيء و ما قيل من ذلك فهو أكاذيب و إن كان

(١) طه : ٨٥ . (٢) الاعراف : ٥٥ .

(٣) أخرجه البخارى ج ٦ ص ١٤٤ وقد تقدم فى المجلد الاول .

(٤) العصر : ١ الى ٣ . (٥) الكهف : ٣٥.

فليكوننّ لي في الآخرة خيرٌ من هذا ، و كذلك وصف الله قول العاص بن وائل (١) إذ يقول : « لأُوتينّ مالاً و ولداً » فقال الله تعالى ردًّا عليه « أطّلع الغيب أم اتّخذ عند الرّحمن عهداً كلاّ ».

و روي عن خبّاب بن الأرتّ (٢) أنّه قال : كان لي على العاص بن وائل دين

---

(١) عاص بن وائل السهمى فهو الشقى الابتر شانىء النبىّ (ص) الذى نزلت فيه « ان شانئك هو الابتر » و هو من المعادين للنبى صلى الله عليه وآله والمستهزئين به و هو الذى لقب فى الاسلام بالابتر لقوله « سيموت هذا الابتر غدا فينقطع ذكره » يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله . و هو من الذين روّعوا زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فى هودجها حتى اجهضت جنيناً ميتاً فلما بلغه (ص) لعنهم . وهو أبو عمرو بن العاصى المعروف الذى كشف عن سوءته يوم صفين و كفى أباه بهذا الابن فخراً و بالعكس أيضاً ؟!!.

(٢) خباب - كشداد - ابن الارت - بالراء المهملة والتاء المثناة المشددة - صحابى بدرى من فضلاء المهاجرين الاولين ، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان قديم الاسلام ممن عذب فى الله وصبر على دينه نزل الكوفة و مات بها سنة ٣٧ أوسنة ٣٩ . روى أن قريشاً أوقدت له ناراً وسحبوه عليها فما أطفأوها الا ودك ظهره ، و كان أثر النار ظاهراً عليه فى جسده ولما رأى عمر ظهره قال : ما رأيت كاليوم ظهر رجل مثله وفى اسد الغابة : انهم البسوه الدرع الحديد و صهروه فى الشمس فبلغ منه الجهد ولم يعط الكفار ما سألوه و روى أن فيه وفى سلمان وأبى ذر و عمار أنزل الله تعالى : « و لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » . وعن ابن عبد البر فى الاستيعاب وابن أبى الحديد فى شرح النهج أنه شهد صفين والنهروان ولكن يظهر من نصر بن مزاحم أنه لم يشهد صفين ولا النهروان بل مات بالكوفة وأمير المؤمنين عليه السلام كان بصفين فلما رجع من صفين رأى قبره بظاهر الكوفة . و روى أنه كان فى سفر فشكت بنيته الى النبى صلى الله عليه وآله نفاد النفقة ، قال النبى صلى الله عليه وآله : ابتينى بشويه لكم فمسح يده على ضرعها فكانت تدر الى انصراف خباب . و قال الطبرسى : كان خباب رجلا غنياً وله على العاص بن وائل دين فأتاه يتقاضاه فقال : لا اقضيك حتى تكفر بمحمد قال : لن أكفر به حتى نموت و نبعث . و فى المناقب باع خباب بن الارت سيوفاً من العاص بن وائل فجاءه يتقاضاه فقال : اليس يزعم محمد أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضة و ثياب وخدم ؟ قال : بلى ، قال : « فأنظرنى أقضك هناك حقك فوالله لا تكون هناك و أصحابك عند الله آثر منى فنزلت « أفرأيت الذى كفر بآياتنا - الى قوله - ←

فجئت أتقاضاه فلم يقض لي ، فقلت : إنّي آخذه في الآخرة ، فقال لي : إذاصرت في الآخرة فإنّ لي هناك ولداً ومالاً فأقضيك منه ، فأنزل الله تعالى « أفرأيت الّذي كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً و ولداً - الآيات - »[1] و قال الله تعالى : « و لئن أذقناه رحمة منّا من بعد ضرّاء مسّته ليقولنّ هذالي و ما أظنّ الساعة قائمة و لئن رجعت إلى ربّي - الآية - »[2].

و هذا كلّه من الغرور بالله و سببه قياس من أقيسة إبليس و ذلك لأنّهم ينظرون مرّة إلى نعم الله عليهم في الدّنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، و ينظرون إلى تأخير الله العذاب عنهم ، فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى : « و يقولون في أنفسهم لولا يعذّبنا الله بما نقول حسبهم جهنّم يصلونها فبئس المصير »[3]

← فرداً » و في اعلام الورى ص ٥٧ عن خباب قال : اتيت رسول الله صلى الله عليه و آله و هو متوسد برده و هو في ظل الكعبة و قد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله ، فقعد وهو محمر وجهه فقال : لقدكان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، و يوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه ، و ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ما يخاف الا الله أو الذئب على غنمه . رواه البخاري [ج ٥ ص ٥٦] و قال ابن أبي الحديد : خباب من فقراء المسلمين وخيارهم وكان في الجاهلية قيناً يعمل السيوف وهو قديم الاسلام انتهى . و قدكان خباب في أول أمره غنياً كما قال الطبرسي - ره - فلما أسلم أخذت كفار قريش أمواله ففر بدينه و هاجر الى المدينة فصار من فقراء المسلمين راجع سفينة البحار ج ١ ص ٣٧٢ . روى أن أمير المؤمنين عليه السلام لما أقبل من صفين دخل الكوفة فجاز دور بني عوف فرأى قبوراً سبعة أو ثمانية فقال : ما هذه القبور ؟ فقيل : ان خباب بن الارت توفى بعد مخرجك فأوصى أن يدفن في الظهر وكان الناس يدفنون في دورهم و أفنيتهم فدفن الناس الى جنبه ، فقال : « رحم الله خباباً فقد أسلم طائعاً و عاش مجاهداً وابتلى في جسده أحوالا ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا » ، ثم جاء حتى وقف عليهم و قال : « السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة من المؤمنين - الى آخر ما قال عليه السلام - » .

(١) مريم : ٨٠ ، والخبر رواه البخاري ج ٦ ص ١١٩ .

(٢) فصلت : ٥٠ . (٣) المجادلة : ٩ .

و مرّة ينظرون إلى المؤمنين و هم فقراء شُعثٌ غُبرٌ، فيزدرون بهم ويستحقرونهم فيقولون : « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا »(١) و يقولون : « لو كان خيراً ماسبقونا إليه »(٢) و ترتيب القياس الّذي نظمه الشيطان في قلوبهم أنّهم يقولون : قد أحسن الله إلينا بنعيم الدّنيا و كلّ محسن فهو محبٌّ و كلّ محبٍّ فإنّه يحسن في المستقبل، أيضاً كما قال الشاعر :

كما أحسن الله فيما مضى ✿ كذلك يحسن فيما بقي

فإنّما يقيس المستقبل على الماضي برابطة الكرامة والحبّ إذ يقول : لولا أنّي كريم عندالله ومحبوبٌ لما أحسن إليّ، والتلبيس تحت ظنّه أنّ كلّ محسن محبّ لابل تحت ظنّه أنّ إنعامه عليه في الدّنيا إحسان، فقد اغترّ بالله إذ يظنّ أنّه كريمٌ عنده بدليل لا يدلّ على الكرامة بل عند ذوي البصائر يدلّ على الهوان، ومثاله أن يكون عند الرّجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحبّ الآخر فالّذي يحبّه يمنعه من اللّعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلّمه الأدب، و يمنعه من الفواكه وملاذّ الأطعمة الّتي تضرّه ويسقيه الأدوية الّتي تنفعه، والّذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولا يدخل المكتب و يأكل كلّ ما يشتهي فيظنّ هذا العبد المهمل أنّه عند سيّده محبوبٌ كريمٌ لأنّه مكّنه من شهواته و لذّاته و ساعده على جميع أغراضه فلم يمنعه و لم يحجر عليه، و ذلك محض الغرور، و هكذا نعيم الدّنيا و لذّاتها فإنّها مهلكات و مبعدات من الله تعالى وإنّ الله يحمي عبده من الدّنيا و هو يحبّه كما يحمي أحدكم مريضه الطعام و الشراب و هو يحبّه. هكذا ورد في الخبر(٣) وكان أرباب البصائر إذ أقبلت عليهم الدّنيا حزنوا و قالوا : ذنبٌ عجّلت عقوبته و رأوا ذلك أمارة المقت والاهمال، و إذا أقبل عليهم الفقر قالوا : مرحباً بشعار الصالحين، والمغرورون إذا أقبلت الدّنيا عليهم ظنّوا أنّها كرامة من الله و إذا صرفت عنهم ظنّوا أنّه هوان كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال : « فأمّا الإنسان إذا ما ابتليه ربّه فأكرمه و نعّمه ✿ فيقول ربّي أكرمن

(١) الانعام : ٥٣.   (٢) الاحقاف : ١٠.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم ج٤ص٣٠٩ وصححه من حديث قتادة بن النعمان.

وأمّا إذا ما ابتليه فقدر عليه رزقه ۞ فيقول ربّي أهانن . فأجاب الله عن ذلك . كلاّ »[١] بيّن أنّ ذلك غرور ، قيل : كذّبهما جميعاً بقوله : « كلاّ » يقول : ليس هذا بكرامتي و لا هذا بهواني ولكن الكريم من أكرمته بطاعتي غنيّاً كان أو فقيراً ، والمهان من أهنته بمعصيتي غنيّاً كان أو فقيراً وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان ، إمّا بالبصيرة ، وإمّا بالتقليد ، أمّا بالبصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدُّنيا مبعداً عن الله تعالى ، و وجه كون التباعد عنها مقرّباً إلى الله تعالى ، ويدرك ذلك بالإلهام في منازل العارفين والأولياء ، و شرحه في جملة علوم المكاشفة و لا يليق بعلم المعاملة . و أمّا معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدّق رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وقد قال تعالى : « أيحسبون أنّما نمدّهم به من مال و بنين ۞ نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون »[٢].

و قال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون »[٣] و قال : « فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتّى إذا فرحوا بما اُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون »[٤] .

وفي تفسير قوله : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » إنّهم كلّما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم .

و قال تعالى : « إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً »[٥] وقال تعالى : « ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظّالمون . إنّما نؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ۞ مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتدُّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء »[٦] إلى غير ذلك ممّا ورد في كتاب الله تعالى و سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فمن آمن به خلص و نجا من هذا الغرور فإنّ منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته ، فإنّ من عرفه لا يأمن مكره ولا يغترّ بأمثال هذه الخيالات الفاسدة و ينظر إلى فرعون وقارون وإلى ملوك الأرض و كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثمّ دمّرهم تدميراً ، و قد حذّر الله مكره و استدراجه فقال : « فلا

---

(١) الفجر : ١٥ الى ١٨ .
(٢) المؤمنون : ٥٨ .
(٣) الاعراف : ١٨٢ .
(٤) الانعام : ٤٤ .
(٥) آل عمران : ١٧٣ .
(٦) ابراهيم : ٤٥ .

يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون » (١).

و قال تعالى : « و مكروا مكراً ومكرنامكراً وهم لا يشعرون» (٢) و قال : « و مكروا و مكر الله والله خيرالماكرين»(٣)وقال : «إنّهم يكيدون كيداً ۞ وأكيد كيداً ۞ فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً » (٤).

و كما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدلّ باهمال السيّد إيّاه وتمكينه من النعم على حبّ السيّد بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكراً منه ، مع أنّ السيّد لم يحذّره مكر نفسه فبأن يحبّ ذلك في حقّ الله مع تحذيره باستدراجه أولى فاذن من أمن مكر الله فهو مغترّ ، ومنشؤ هذا الغرور أنّه استدلّ بنعيم الدّنيا على أنّه كريم عند المنعم ، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان و لكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه و هو التصديق بدلالته على الكرامة و هذا هو حدّ الغرور .

المثال الثاني هو غرور العصاة من المؤمنين بالله بقولهم : إنّ الله كريم وإنّا نرجو عفوه ، و إتّكالهم على ذلك و إهمالهم الأعمال ، و تحسين ذلك بتسميتهم تمنّيهم واغترارهم رجاءً ، و ظنّهم أنّ الرّجاء مقام محمود في الدّين ، فانّ نعمة الله واسعة و رحمته شاملة و كرمه عميم ، و أين معاصي العباد في بحار رحمته و إنّا موحّدون ومؤمنون فنرجوه بوسيلة الايمان ، وربّما كان مستند رجائهم التمسّك بصلاح الآباء و علوّ رتبتهم كاغترار العلويّة بنسبهم و مخالفتهم سيرة آبائهم في الخوف والتّقوى والورع ، وظنّهم أنّهم أكرم على الله من آبائهم ، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون(٥) و ذلك نهاية الاغترار

---

(١) الاعراف : ٩٩.　　　(٢) النمل : ٥٢ .
(٣) آل عمران : ٤٨ .　　　(٤) الطارق : ١٧ .
(٥) روى الصدوق - رحمه الله - فى عيون أخبار الرضا عليه السلام باسناده عن الوشاء قال : كنت بخراسان مع على بن موسى عليهما السلام فى مجلسه و زيد بن موسى حاضر قدأقبل على جماعة فى المجلس يفتخر عليهم و يقول : « نحن ونحن نقول » و أبوالحسن عليه السلام مقبل على قوم يحدثهم فسمع مقالة زيد فالتفت اليه و قال : يا زيد أغرك قول ناقلى ←

بالله تعالى ، فقياس الشيطان للعلويّة أنّ من أحبّ إنساناً أحبّ أولاده ، و أنّ الله قد أحبّ آباءكم فيحبّكم فلا تحتاجون إلى الطاعة ، وينسى المغرور أنّ نوحاً صلوات الله عليه أراد أن يستصحب ولده في السّفينة فقال : « ربّ إنّ ابني من أهلي » فقال: « إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح » وإن إبراهيم استغفر لأبيه فلم ينفعه ذلك فهذا أيضاً اغترار بالله لأنّ الله تعالى يحبّ المطيع و يبغض العاصي فكما أنّه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحبّ الولد العاصي بحبّه للأب المطيع ولو كان الحبّ يسري من الأب إلى الولد لأوشك أن يسري البغض أيضاً ، بل الحقّ أن « لا تزر وازرة وزر اُخرى » و من ظنّ أنّه ينجو بتقوى أبيه كان كمن ظنّ أنّه يشبع بأكل أبيه ، و يروى بشرب أبيه ، ويصير عالماً بتعلّم أبيه ، و يصل إلى الكعبة و يراها بمشي أبيه . فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئاً و كذا العكس ، و عندالله جزاء التقوى « يوم يفرّ المرء من أخيه و اُمّه و أبيه و صاحبته وبينه » إلّا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتدّ غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له كما سبق في كتاب الكبر والعجب .

فإن قلت : فأين الغلط في قول العصاة و الفجّار « إنّ الله كريم و إنّا نرجو

← الكوفة « ان فاطمة احصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار فوالله ما ذاك الا للحسن والحسين و ولد بطنها خاصة فاما أن يكون موسى بن جعفر عليهما السلام يطيع الله و يصوم نهاره و يقوم ليله ، و تعصيه أنت ثم تجيئان يوم القيامة سواء لانت اعز على الله عزوجل منه ، ان على بن الحسين عليهما السلام كان يقول : «لمحسننا كفلان من الاجر و لمسيئنا ضعفان من العذاب » قال الحسن الوشاء : ثم التفت الى وقال لى : يا حسن كيف تقرؤون هذه الاية « قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح » فقلت : من الناس من يقرء « انه عمل غير صالح » [على صيغة المصدر] و منهم من يقرء « أنه عمل غير صالح» [على صيغة فعل الماضى] فمن قرء «أنه عمل غيرصالح» [على صيغة المصدر] فقد نفاه عن أبيه ، فقال ﷺ : كلا لقد كان ابنه ولكن لما عصى الله عزوجل نفاه عن أبيه ، كذا من كان منا لم يطع الله عز وجل فليس منا و أنت اذا اطعت الله عز وجل فأنت منا أهل البيت .

مغفرته و رحمته » وقد قال : « أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي خيراً » (١) فما هذا إلّا كلام صحيحٌ مقبول الظاهر في القلوب .

فاعلم أنّ الشيطان لايغوي الإنسان إلّا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ، ولو لاحسن ظاهره لما انخدعت به القلوب ولكنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كشف ذلك فقال : « الكيّس من دان نفسه ، و عمل لما بعد الموت ، و الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله » (٢) وهذا هو التمنّي على الله غيّر الشيطان اسمه فسمّاه رجاءً حتّى خدع به الجهّال ، وقد شرح الله تعالى الرّجاء فقال : « إنّ الّذين آمنوا والّذين هاجروا و جاهدوا في سبيل الله اُولئك يرجون رحمة الله » (٣) يعني أنّ الرجاء بهم يليق وهذا لأنّه ذكر أنّ ثواب الآخرة أجر و جزاء على الأعمال قال تعالى : « جزاءً بما كانوا يعملون » (٤) وقال تعالى : « إنّما توفّون اُجوركم يوم القيامة » (٥) أفترى أنّ من استؤجر على إصلاح أوان و شرط له أجرة عليها وكان الشارط كريماً يفي بالوعد مهما و عد ولايخلف بل يزيده فجاء الأجير و كسر الأواني وأفسد جميعها ثمّ جلس ينتظر الأجر ويزعم أنّ المستأجر كريم أفيراه العقلاء في انتظاره متمنّياً مغروراً أو راجياً ، وهذا للجهل بالفرق بين الرّجاء والغرّة ، فإنّ من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه (٦) ، و كما أنّ الّذي يرجو في الدّنيا ولداً وهو بعد لم ينكح أو

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط و أبو نعيم في الحلية من حديث واثلة بن الاسقع بسند صحيح هكذا « ان الله يقول : أنا عند ظن عبدى بى ان خيراً فخير و ان شراً فشر » .

(٢) رواه ابن ماجه في السنن تحت رقم ٤٢٦٠ كما تقدم .

(٣) البقرة : ٢١٦ . (٤) الواقعة : ٢٤ .

(٥) آل عمران . ١٨٣ .

(٦) فى الكافى مسنداً عن أبى عبدالله عليه السلام قيل له : قوم يعملون بالمعاصى ويقولون نرجو فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت فقال : « هؤلاء قوم يترجحون فى الامانى ، كذبوا ليسوا براجين ، ان من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شىء هرب منه » وفيه أيضاً قيل له عليه السلام : ان قوماً من مواليك يلمون بالمعاصى و يقولون نرجو ، فقال : « كذبوا ليسوا لنا بموال ، اولئك قوم ترجّحت بهم الامانى ، من رجا شيئاً عمل له و من خاف من شىء هرب منه » .

نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل فهو معتوه ، فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحاً أوعمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور ، و كما أنّه إذا نكح و وطىء و أنزل بقي متردّداً في الولد يخاف و يرجو فضل الله في خلق الولد و دفع الآفات عن الرّحم وعن الأمّ إلى أن يتمّ فهو كيّس فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات و ترك السيّئات و بقي متردّداً بين الخوف و الرّجاء يخاف أن لايقبل منه وأن لايثاب عليه وأن يختم له بالسوء ويرجو من فضل الله أن يثبته بالقول الثابت في الحياة الدّنيا و في الآخرة و يحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتّى يموت على التوحيد و يحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقيّة عمره حتّى لايميل إلى المعاصي فهو إذن كيّس ، و من عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله و سوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلّ سبيلاً و لتعلمنّ نبأه بعد حين ، و عند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم : « ربّنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنّا موقنون » [(١)] أي علمنا أنّه كما لا يولد ولد إلّا بوقاع ونكاح ، ولاينبت زرع إلّا بحراثة و بثّ بذر ، فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب و أجر إلّا بعمل صالح ، فارجعنا نعمل صالحاً فقد علمنا الآن صدقك في قولك : « و أن ليس للإنسان إلّا ماسعى وأنّ سعيه سوف يرى » [(٢)] و « كلّما اُلقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير » [(٣)] أي ألم نسمعكم سنّة الله في عباده وأنّه « توفّى كلّ نفس ما كسبت »؟ و أنّ « كلّ نفس بما كسبت رهينة » فما الّذي غرّكم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم ؟ « قالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير ۞ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » [(٤)].

فإن قلت : فأين مظنّة الرّجاء و موضعه المحمود ؟ فاعلم أنّه محمود في موضعين : أحدهما في حقّ العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان : وأنّى تقبل توبتك ؟ فيقنطه من رحمة الله فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكّر

(١) السجدة : ١٢.

(٢) النجم : ٤٠ .

(٣) و (٤) الملك : ٨ و ١٠ .

أنّ الله كريمٌ يقبل التوبة عن عباده و أنّ التوبة طاعة تكفّر الذّنوب قال تعالى : « قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذّنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم ✿ و أنيبوا إلى ربّكم و أسلموا له » [١] أمرهم بالإنابة و قال : « و إنّي لغفّارٌ لمن تاب و آمن و عمل صالحاً ثمّ اهتدى » [٢] فإذا توقّع المغفرة مع التوبة فهو راج و إن توقّع المغفرة مع الإصرار فهو مغرورٌ ، كما أنّ من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان : إنّك لاتدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذّب الشيطان و قام يعدو وهو يرجو إدراك الجمعة فهو راج و إن استمرّ على التجارة و أخذ يرجو تأخير الإمام الصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب الّتي لايعرفه فهو مغرور لا محالة .

و الثاني أن تفتر نفسه من فضائل الأعمال و يقتصر على الفرائض فيرجّي نفسه نعيم الله تعالى و ماوعدالله به الصالحين حتّى ينبعث من الرّجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل و يتذكّر قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ✿ الّذين هم في صلوتهم خاشعون - إلى قوله - اُولئك هم الوارثون ✿ الّذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » [٣] فالرّجاء الأوّل يقمع القنوط المانع من التوبة و الرّجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط و التشمّر ، فكلُّ توقّع حثّ على توبة أو على تشمّر في العبادة فهو رجاء و كلّ توقّع أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرّة كما إذا خطر له أن يترك الذنب و يشتغل بالعمل فيقول له الشيطان : مالك وإيذاء نفسك و تعذيبها ولك ربٌّ كريمٌ غفور رحيم فيفتر به عن التوبة و العبادة فهي الغرّة و عند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوّف نفسه بغضب الله و عظيم عقابه ويقول : إنّه مع أنّه غافر الذّنب و قابل التوب شديد العقاب . وإنّه مع أنّه كريمٌ خلّد الكفّار في النار أبد الآباد مع أنّه لم يضرّه كفرهم بل سلّط العذاب و المحن

(١) الزمر : ٥٣ و ٥٤ . (٢) طه : ٨٢ .
(٣) المؤمنون ١ الى ١٢ .

و الأمراض و العلل و الفقر و الجوع على جملة من عباده في الدّنيا و هو قادر على إزالتها فمن هذه سنّته في عباده وقدخوّفني عقابه فكيف لاأخافه وأغترّ به ، فالخوف و الرّجاء قائدان و سائقان يبعثان على العمل ، فما لايبعث على العمل فهو تمنّ و غرور ، و رجاء كافّة الخلق هو سبب فتورهم و سبب إقبالهم على الدّنيا و سبب إعراضهم عن الله وإهمالهم السعي للآخرة فذاك غرور وقد أخبر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وذكر أنّ الغرور سيغلب على آخر هذه الأمّة (١) وقد كان ماوعد به صلّى الله عليه وآله وسلّم.

فقد كان النّاس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات و يؤتون ما آتوا و قلوبهم و جلة أنّهم إلى ربّهم راجعون ، يخافون على أنفسهم و هو طول اللّيل و النّهار في طاعة الله يبالغون في التقوى و الحذر من الشهوات و الشبهات و يبكون على أنفسهم في الخلوات ، و أمّا الآن فترى النّاس آمنين مسرورين مطمئنّين غير خائفين ، مع إكبابهم على المعاصي و انهماكهم في الدّنيا و إعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنّا واثقون بكرم الله و فضله و راجون لعفوه و مغفرته كأنّهم يزعمون أنّهم عرفوا من كرم الله و فضله مالم يعرفه الأنبياء و السلف الصالحون فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى و ينال بالهوينا فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم و قد ذكرنا تحقيق هذه الامور في كتاب الرّجاء و الخوف . وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيمارواه معقل بن يسار : «يأتي على النّاس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرّجال كما تخلق الثياب على الأبدان ، أمرهم كلّه يكون طمعاً لا خوف معه ، إن أحسن أحدهم قال : يتقبّل منّي ، و إن أساء قال : يغفرلي » (٢) فأخبر أنّهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه . وبمثله أخبرعن النصارى إذ قال : « فخلف من بعدهم خلف و رثوا الكتاب (أي علماء) يأخذون عرض هذا الأدنى (أي شهواتهم من الدّنيا حلالاً كان أو حراماً) و يقولون سيغفر

---

(١) في حديث أبي ثعلبة وقد تقدم .

(٢) قال العراقي : أخرجه أبومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس بنحوه بسند فيه جهالة . ولم أره من حديث معقل .

لنا »[1] وقال تعالى : « ذلك لمن خاف مقامي و خاف وعيد »[2] و القرآن من أوّله إلى آخره تحذيرٌ و تخويفٌ لايتفكّر فيه متفكّرٌ إلّا و يطول حزنه و يعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه وترى الناس يهذّونه هذّاً ، يخرجون الحروف من مخارجها و يتناظرون على رفعها و خفضها و نصبها و كأنّهم يقرؤون شعراً من أشعار العرب لايهمّهم الالتفات إلى معانيه و العمل بما فيه . وهل في العالم غرور يزيد على هذا ؟ فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرّجاء والغرور ، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص إلّا أنّ معاصيهم أكثروهم يتوقّعون المغفرة ويظنّون أنّه تترجّح كفّة حسناتهم مع أنّ ما في كفّة السيّئات أكثر و هذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدّق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون مايتناول من أموال المسلمين و الشبهات أضعافه و لعلّ ما تصدّق به من أموال المسلمين وهو يتّكل عليه ويظنّ أنّ أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدّق بعشرة من الحلال أو الحرام و ما هو إلّا كمن وضع عشرة دراهم في كفّة ميزان و في الكفّة الاُخرى ألف و أراد أن يميل الكفّة الثقيلة بالكفّة الخفيفة وذلك غاية الجهل ، نعم ومنهم من يظنّ أنّ طاعاته أكثر من معاصيه لأنّه لايحاسب نفسه ولايتفقّد معاصيه وإذا عمل طاعة حفظها واعتدّ بها كالّذي يستغفر الله بلسانه أو يسبّح الله في اليوم مائة مرّة ثمّ يغتاب المسلمين ويمزّق أعراضهم و يتكلّم بما لايرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد و يكون نظره إلى عدد سبحته وأنّه استغفر مائة مرّة و غفل عن هذيانه طول نهاره الّذي لو كتبها لكان مثل تسبيحه مائة مرّة أو ألف مرّة وقد كتبه الكرام الكاتبون وأوعد الله العقاب على كلّ كلمة وقال : « مايلفظ من قول إلّا لديه رقيبٌ عتيد »[3] فهو أبداً يتأمّل في فضائل التسبيحات والتهليلات ولايلتفت إلى ماورد في عقوبة المغتابين والكذابين والنّمامين ، والمنافقين يظهرون من الكلام مالايضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللّسان وذلك محض الغرور ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منّا اُجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه

(١) الاعراف ١٦٩ .
(٢) ابراهيم : ١٤
(٣) سورة ق : ١٧ .

الّذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكفّ لسانه حتّى عن جملة من مهمّاته ومانطق به في فتراته كان يعدّه و يحسبه و يوازنه بتسبيحاته حتّى لايفضل عليه اُجرة نسخه، فياعجباً لمن يحاسب نفسه و يحتاط خوفاً على قيراط يفوته في الاُجرة على النسخ ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى و نعيمه، ما هذه إلّا مصيبة عظيمة لمن تفكّر فيها وقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنّا من الكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنّا من الحمقى المغرورين فما هذه أعمال من يصدّق بما جاء به القرآن و إنّا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفر، فسبحان من صدّنا عن التنبّه و اليقين مع هذا البيان و ما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة و الغرور على القلوب أن يخشى و يتّقي ولا يغترّ به اتّكالاً على أباطيل المنى و تعاليل الشيطان و الهوى.

✿ (بيان أصناف المغترّين و أقسام فرق كلّ صنف من الاصناف) ✿

الصنف الأوّل أهل العلم والمغترّون منهم فِرَق: ففرقة منهم أحكموا العلوم الشرعيّة و العقليّة و تعمّقوا فيها و اشتغلوا بها و أهملوا تفقّد الجوارح وحفظها عن المعاصي و إلزامها الطاعات، و اغترّوا بعلمهم، و ظنّوا أنّهم عندالله بمكان، و أنّهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لايعذّب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، و أنّه لايطالبهم بذنوبهم و خطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون، فإنّهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أنّ العلم علمان علم معاملة و علم مكاشفة وهو العلم بالله تعالى و بصفاته المسمّى بالعادة علم المعرفة، فأمّا العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال و الحرام و معرفة أخلاق النفس المذمومة و المحمودة و كيفيّة علاجها والفرارمنها فهي علم لاتراد إلّا للعمل ولولاالحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، و كلّ علم يراد للعمل فلاقيمة له دون العمل، فمثال هؤلاء كمريض به علّة لايزيلها إلّا دواء مركب من أخلاط كثيرة لايعرفها إلّاحذّاق الأطباء فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتّى عثر على طبيب حاذق فعلّمه الدّواء وفصّل له الأخلاط و أنواعها و مقاديرها ومعادنها الّتي منها تجتلب و علّمه كيفيّة دقّ كلّ واحد منها و كيفيّة الخلط والعجن، فتعلّم ذلك منه فكتب منه نسخة حسنة بخطّ حسن ورجع

إلى بيته وهو يكرّرها و يقرؤها و يعلّمها المرضى ولم يشتغل بشربها و استعمالها، أفترى أنّ ذلك يغني عنه من مرضه شيئاً ؟ هيهات هيهات لو كتب منه ألف نسخة وعلّمه ألف مريض حتّى شفى جميعهم و كرّره كلّ ليلة ألف مرّة لم يغنه ذلك من مرضه شيئاً إلّا أن يزن الذّهب و يشتري الدّواء و يخلطه كما تعلّم و يشربه و يصبر على مرارته و يكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحتماء و جميع شروطه، و إذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلاً، فمهما ظنّ أنّ ذلك يكفيه و يشفيه فقد ظهر غروره، و هكذا الفقيه الّذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، و أحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، و أحكم علم الأخلاق المذمومة ولم يزكّ نفسه منها، و أحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتّصف بها فهو مغرور إذ قال الله تعالى: «قد أفلح من زكّيها» (١) ولم يقل قد أفلح من تعلّم كيفية تزكيتها و كتب علمها و علّمها الناس، وعند هذا يقول له الشيطان: لايغرّنك هذا المثال فإنّ العلم بالدّواء لايزيل المرض و إنّما مطلبك القرب من الله تعالى و ثوابه و العلم يجلب الثواب ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم، فإن كان المسكين معتوهاً مغروراً وافق ذلك مراده و هواه فاطمأنّ إليه و أهمل العمل و إن كان كيّساً فيقول للشيطان: أتذكّرني فضائل العلم و تنسيني ماورد في العالم الفاجر الّذي لايعمل بعلمه كقوله تعالى: «فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث» (٢) و كقوله تعالى: «مثل الّذين حمّلوا التورية ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً» (٣) فأيّ خزي أعظم من التمثيل بالكلب و الحمار؟! وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله تعالى إلّا بعداً» (٤).

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «يلقى العالم في النّار فتندلق أقتابه فيدوربها في النّار كما يدور الحمار في الرّحى» (٥).

---

(١) الشمس: ١٠. (٢) الاعراف. ١٧٦.

(٣) الجمعة: ٥. (٤) تقدم في المجلد الاول ابواب العلم.

(٥) تقدم آنفاً عن أحمد رواه في مسنده.

وقال ﷺ : « شر الناس العلماء السوء » [١] وقال ﷺ : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » [٢] فهذا و أمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى إلا أن هذا فيما لا توافق هوى العالم الفاجر و ما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه و ذلك عين الغرور فانه إن نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذم العلماء السوء وأن حالهم عند الله تعالى أشد من حال الجهال فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور . و أما الذي يدعي علوم المكاشفة كالعلم بالله و صفاته و أسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله تعالى وحدوده فغروره أشد ، ومثاله كمن أراد خدمة ملك فعرف الملك و عرف أخلاقه و أوصافه ولونه و شكله و طوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس بجميع ما يغضب به وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهيئة و كلام وحركة وسكون ، فورد على الملك و هو يريد التقرب منه و الاختصاص به متلطخاً بجميع ما يكرهه الملك ، عاطلاً عن جميع ما يحبه ، متوسلاً إليه بمعرفته له و لنسبه و اسمه و بلده و شكله وصورته و عادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته ، فهذا مغرور جداً إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط و معرفة ما يحبه ويكرهه لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به ، بل تقصيره في التقوى و اتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله تعالى إلا الأسامي دون المعاني ، إذ لو عرف الله تعالى حق معرفته لخشيه واتقاه قال الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » [٣] و فاتحة الزبور « رأس الحكمة خشية الله » . وقال ابن مسعود : « كفى بخشية الله

---

(١) أخرجه البزار من حديث معاذ هكذا « شرار الناس شرار العلماء فى الناس » باسناد حسن كما فى الجامع الصغير وقد تقدم .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الصغير و فيه عثمان البرى قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط و ضعفه أحمد و النسائى والدار قطنى كما فى مجمع الزوائد ج ١ ص ١٨٥ .

(٣) فاطر : ٢٨ .

علماً ، و كفى بالاغترار بالله جهلاً » .

فا ذن الفقيه من فقه عن الله أمره و نهيه و علم من صفاته ما أحبّه وما كرهه ، فهو العالم بالحقيقة « و من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدّين » فا ذا لم يكن بهذا الصفة فهو من المغرورين .

وفرقة أُخرى أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي إلّا أنّهم لم يتفقّدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عندالله تعالى من الكبر و الحسد و الرّياء و طلب الرّئاسة و العلاء و إرادة السوء للأقران و النظراء و طلب الشهرة في البلاد والعباد و ربّما لم يعرف بعضهم أنّ ذلك مذموم فهو مكبّ عليها غير محترز عنها ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أدنى الرّياء شرك » (١) و إلى قوله : « لايدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر » (٢) و إلى قوله : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » (٣) و إلى قوله : « حبّ المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » (٤) إلى غير ذلك من الأخبار الّتي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الاخلاق المذمومة ، فهؤلاء زيّنوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم و نسوا قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم و إنّما ينظر إلى قلوبكم و أعمالكم » (٥) فتعهّدوا الأعمال وما تعهّدوا القلوب والقلب هو الأصل إذلاينجو إلّا من أتى الله بقلب سليم ، و مثال هؤلاء كبئر الحشّ ظاهرها جصّ و باطنها نتن ، أو كقبور الموتى ظاهرها مزينّة و باطنها جيفة ، أو كبيت مظلم باطنه ووضع السراج على ظاهره حتّى استنار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل قصد ضيافة الملك إلى داره فجصّص باب داره و ترك المزابل في صدر داره ، ولايخفى أنّ ذلك غرورٌ بل أقرب مثال إليه رجل زرع زرعاً فنبت و نبت معه حشيش يفسده فأمر

---

(١) تقدم فى كتاب ذم الجاه و الرياء .
(٢) تقدم فى كتاب الكبر والعجب .
(٣) تقدم فى كتاب الغضب و الحقد و الحسد .
(٤) تقدم فى كتاب ذم الدنيا .
(٥) تقدم فى كتاب عجائب القلب ظاهراً .

بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله فأخذ يجز رأسه وأطرافه فلايزال يقوى أصله و ينبت ، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب فمن لايطهر القلب منها لم تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة بل هو كمريض ظهر به الجرب وقدأمر بالطلاء و شرب الدواء ، فالطلاء ليزيل ما على ظهره و الدواء ليقلع مادته من باطنه فقنع بالطلاء و ترك الدواء و بقي يتناول مايزيد في المادة فلا يزال يطلي الظاهر و الجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن .

وفرقة أخرى علموا هذه الأخلاق الباطنة ، وعلموا أنها مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها و أنهم أرفع عندالله من أن يبتليهم بذلك و إنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم ، فأما هو فأعظم عندالله من أن يبتليه ، ثم إذا ظهر عليه مخائل الكبر و الرئاسة و طلب العلو و الشرف قال : ماهذا كبر و إنما هذا طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله و إرغام أنف المخالفين من المبتدعين . فإني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لشمتت بي أعداء الدين وفرحوا به وكان ذلي ذلاً على الإسلام و نسي المغرور أن عدوه الذي حذره مولاه منه هو الشيطان و أنه يفرح بمايفعله ويسخر به ، ونسي أن النبي ﷺ بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ، و نسي ما روي عن السلف من التواضع و التبذل و القناعة بالفقر و المسكنة حتى عوتب بعضهم في بذاذة زيه فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره . ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب الدبيقي و الأبريسم المحرم و الخيول و المراكب و يزعم أنه يطلب به عز الدين و شرف العلم و كذلك مهما أطلق اللسان بحسد في أقرانه أو في من رد عليه شيئاً من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال : إنماهذا غضب للحق و رد على المبطل في عدوانه و ظلمه . ولم يظن بنفسه أن ذلك من الحسد حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رئاسة و زوحم فيها هل كان غضبه و عداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر و منع

بل ربّما يفرح به فيكون غضبه لنفسه، و حسده لأقرانه من خبث باطنه و هكذا يرائي بأعماله و بعلومه، و إذا خطر له خاطر الرّياء قال: هيهات إنّما غرضي من إظهار العلم و العمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله و يتخلّصوا من عقاب الله ولا يتأمّل المغرور أنّه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان، كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم لم يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر، وربّما يذكر هذا له فلا يخلّيه الشيطان أيضاً بل يقول: إنّما ذاك لأنّهم إذا اهتدوا بي كان الأجر و الثواب لي فإنّما فرحي بثواب الله تعالى لا بقبول الخلق، هذا ما يظنّه بنفسه والله يطّلع من ضميره على أنّه لو أخبره نبيٌّ بأنّ ثوابه في الخمول و إخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار، و حبس مع ذلك في سجن و قيّد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن و حلّ السلاسل حتّى يرجع إلى موضعه الّذي به يظهر رئاسته من تدريس أو وعظ أو غيره، و كذلك يدخل على السلطان و يتودّد إليه و يثني عليه و يتواضع له، و إذا خطر له أنّ التّواضع للسلاطين الظّلمة حرامٌ قال له الشّيطان: هيهات إنّما ذلك عند الطمع في مالهم وأمّا أنت فغرضك أن تتشفّع للمسلمين وتدفع الضرّ عنهم و تدفع شرّ أعدائك عن نفسك والله يعلم من باطنه أنّه اوظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفّعه في كلّ مسلم حتّى يدفع الضرر عن جميع المسلمين لثقل ذلك عليه، ولو قدر على أن يقبّح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل، و كذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم و إذا خطر له أنّه حرامٌ قال له الشيطان: هذا مال لامالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين و عالمهم وبك قوام دين الله أفلا يحلّ لك أن تأخذ قدر حاجتك؟ فيغترّ بهذا التلبيس في ثلاثة اُمور: أحدها في أنّه مال لا مالك له و أنّه يعرف أنّه يأخذ الخراج من المسلمين و أهل السّواد والّذين اُخذ منهم أحياء قيام و أولادهم و ورثتهم أحياء، و نهاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم و من غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها فلا خلاف في أنّه مال حرام و لا يقال: هو مال لا مالك له و يجب أن يقسّم بين

العشرة و يردّ إلى كلّ واحد عشرة وإن كان مال كلّ واحد قد اختلط بمال الآخر.
الثاني في قوله: إنّك من مصالح المسلمين و بك قوام الدّين و لعلّ الّذين فسد دينهم و استحلّوا أموال السّلاطين و رغبوا في طلب الدّنيا والإقبال على الرّئاسة و الإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الّذين زهدوا في الدّنيا و رفضوها و أقبلوا على الله ، فهو على التحقيق دجّال الدّين و قوام مذهب الشياطين لا إمام الدّين إذ الإمام هو الّذي يقتدى به في الإعراض عن الدّنيا والإقبال على الله كالأنبياء و متابعيهم ، والدّجّال هو الّذي يقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدّنيا و لعلّ موت مثل هؤلاء أنفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنّه قوام الدّين و مثله كما قال عيسى عليه السلام للعالم السّوء : «إنّه كصخرة وقعت على فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزّرع».

وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخّرة خارجة عن الحصر ، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير .

وفرقة اخرى أحكموا العلوم وطهّروا الجوارح و زيّنوها بالطاعات واجتنبوا ظاهر المعاصي و تفقّدوا أخلاق النفس و صفات القلب من الرّياء والحسد و الكبر والحقد و طلب العلوّ و جاهدوا أنفسهم في التبرّي منها و قلعوا من القلوب منابتها الجليّة القويّة و لكنّهم بعد مغرورون إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكائد الشيطان و خبايا خدايع النّفس مادقّ وغمض مدركه فلم يفطّنوا لها و أهملوها و إنّما مثاله من يريد تنقية الزّرع من الحشيش فدار عليه وفتّش عن كلّ حشيش رآه فقلعه إلّا أنّه لم يفتّش عمّا لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض وظنّ أنّ الكلّ قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من اُصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها و هو يظنّ أنّه قد اقتلعها فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت اُصول الزّرع من حيث لا يدري ، فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقّد للدّقائق فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم و ترتيبها و تحسين ألفاظها و جمع التّصانيف فيها و هو يرى أنّ باعثه الحرص على إظهار دين الله و نشر شريعته

و لعلّ باعثه الخفيّ هو طلب الذّكر وانتشار الصيت في الأطراف و كثرة الرّحلة إليه من الآفاق وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزّهد والورع والعلم والتقديم له في المهمّات و إيثاره في الأغراض و الاجتماع حوله للاستفادة و التلذّذ بحسن الإصغاء عند حسن اللّفظ و الإيراد والتمتّع بتحريك الرؤوس على كلامه والبكاء عليه والتعجّب منه و الفرح بكثرة الأصحاب و المستفيدين و السرور بالتخصّص بهذه الخاصيّة من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزّهد والتمكّن به من إطلاق لسان الطعن في الكافّة المقبلين على الدّنيا لا عن تفجّع بمصيبة الدّين و لكن عن إدلال بالتمييز و اعتداد بالتخصيص ، ولعلّ هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر و إمارة و عزّ و انقياد و توقير وحسن ثناء فلو تغيّرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزّهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوّش عليه قلبه و تختلط أوراده و وظائفه ، و عساه يعتذر بكلّ حيلة لنفسه و ربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه ، و عساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزّهد والورع و إن كان قد اعتقد فيه فوق قدره و ينبو قلبه عمّن عرف حدّ فضله و ورعه و إن كان ذاك على وفق حاله ، وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنّه يؤثره لتقدّمه في الفضل والورع وإنّما ذلك لأنّه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناءً عليه وأشدّ أصحابه إصغاء إليه و أحرص على خدمته ، و لعلّهم يستفيدون منه و يرغبون في العلم و هو يظنّ أنّ قبولهم لإخلاصه و صدقه و قيامه بحقّ علمه فيحمد الله تعالى على ما يسّر على لسانه من منافع خلقه و يرى أنّ ذلك مكفّر لذنوبه و لم يتفقّد مع نفسه تصحيح النيّة فيه ، و عساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول والعزلة و إخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة والاختفاء لذّة القبول و عزّة الرّئاسة ولعلّ مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من ابن آدم أنّه بعلمه امتنع منّي فبجهله وقع في حبائلي . وعساه يصنّف ويجتهد فيه ظانّاً أنّه يجمع علم الله لينتفع به و إنّما يريد استطارة اسمه بحسن التصنيف فلو ادّعى مدّع تصنيفه و محا عنه اسمه و نسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأنّ ثواب الاستفادة من

التصنيف إنّما يرجع إلى المصنّف والله عالم بأنّه هو المصنّف لا من ادّعاه و لعلّه في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إمّا صريحاً بالدّعاوي الطويلة العريضة ، و إمّا ضمناً بالطعن في غيره ليستبين من طعنه في غيره أنّه أفضل ممّن طعن فيه و أعظم منه علماً و لقد كان في غُنية عن الطعن فيه و لعلّه يحكي من الكلام المزيّف ما يريد تزييفه فيعزيه إلى قائله و ما يستحسنه فلعلّه لا يعزيه إليه ليظنّ أنّه من كلامه فينقله بعينه كالسارق له أو يغيّره أدنى تغيير كالّذي يسرق قميصاً فيتّخذه قباء حتّى لا يعرف أنّه مسروق و لعلّه يجتهد في تزيين ألفاظه و تسجيعها وتحسين نظمها كيلا ينسب إلى الرّكاكة و يرى أنّ غرضه ترويج الحكمة و تحسينها و تزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس . وعساه غافل عمّا روي أنّ بعض الحكماء وضع ثلاثمائة وستّين مصحفاً في الحكمة فأوحى الله إلى نبيّ زمانه قل له : قد ملأت الأرض نفاقاً و إنّي لا أقبل من نفاقك شيئاً . و لعلّ جماعة من هذا الصنف من المغترّين إذا اجتمعوا ظنّ كلّ واحد بنفسه السّلامة عن عيوب القلوب و خفاياها ، فلو افترقوا و أتبع كلّ واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كلّ واحد إلى كثرة من يتبعه وأنّه أكثر تبعاً أم غيره فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أنّ غيره أحقّ بكثرة الأتباع منه حسده ، ثمّ إذا تفرّقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا و تحاسدوا و لعلّ من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ثقل على قلبه و وجد في نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتزّ باطنه لإكرامه و لا يتشمّر لقضاء حوائجه كما كان يتشمّر من قبل ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى من قبل مع علمه بأنّه مشغول بالاستفادة ، ولعلّ التحيّز منه إلى فئة اُخرى كان أنفع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة و سلامته منها في تلك الفئة ومع ذلك فلا تزول النفرة عن قلبه ، و لعلّ واحداً منهم إذا تحرّكت فيه مبادي الحسد لم يقدر على إظهاره فيعلّل بالطّعن في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك و يقول : إنّما غضبت لدين الله لا لنفسي ، و مهما ذكرت عيوبه بين يديه ربّما فرح به ، و إن اُثني عليه ربّما ساءه و كرهه ، و ربّما قطب وجهه إذا ذكر عيوبه يظهر أنّه كاره لغيبة المسلمين و سرّ قلبه راض به و مريد له ، والله

مطّلع عليه في ذلك ، فهذا و أمثاله من خفايا العيوب لا يفطن لها إلّا الأكياس ، ولا يتنزّه عنها إلّا الأقوياء ، ولا مطمع فيها لأمثالنا من الضعفاء إلّا أنّ أقلّ الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك و يكرهه ويحرص على إصلاحه ، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه ، و من سرّته حسنته و ساءته سيّئته فهو مرجوّ الحال و أمره أقرب من المغرور المزكّي لنفسه ، الممتنّ على الله تعالى بعلمه و عمله ، الظانّ أنّه من خيار خلقه فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار و من المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال ، و هذا غرور الّذين حصّلوا العلوم المهمّة و لكن قصّروا في العمل بالعلم . ولنذكر الآن غرور الّذين قنعوا من العلوم بما لا يهمّهم وتركوا المهمّ وهم به مغترّون إمّا لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم وإمّا لاقتصارهم عليه .

فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات و تفاصيل المعاملات الدنيويّة الجارية بين الخلق لمصالح المعايش فخصّصوا اسم الفقه بها و سمّوه الفقه و علم المذهب ، و ربّما ضيّعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة ولم يتفقّدوا الجوارح ولم يحرسوا اللّسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرّجل عن المشي إلى السلاطين و كذا سائر الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والرّياء والحسد و سائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل و الآخر من حيث العلم ، أمّا العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه و أنّ مثالهم مثال المريض إذا تعلّم نسخة الدّواء و اشتغل بتكراره وحفظه وتعليمه ، لا بل مثالهم مثال من به علّة البواسير و البرسام و هو مشرف على الهلاك ، محتاج إلى تعلّم الدّواء و استعماله فاشتغل بتعلّم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلاً ونهاراً مع علمه بأنّه رجل لا يحيض و لا يستحاض و لكن يقول ربّما يقع علّة الاستحاضة لامرأة وتسألني عنها و ذلك غاية الغرور ، و كذلك المتفقّه المسكين قد تسلّط عليه حبّ الدّنيا و اتّباع الشهوات و الحسد و الكبر و الرّياء و سائر المهلكات الباطنة و ربّما يختطفه الموت قبل التوبة و التلافي فيلقى الله تعالى و هو عليه غضبان فترك ذلك كلّه واشتغل بعلم السلم والإجارة و الظهار و اللّعان و الجراحات و الدّيات و الدّعاوي و البيّنات و

بكتاب الحيض وهولا يحتاج إلى شيء من ذلك قطّ في عمره لنفسه وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والمال والرّئاسة و قد دهاه الشيطان و ما يشعر إذ يظنّ المغرور بنفسه أنّه مشغول بفرض كفاية دينيّة و ليس يدري أنّ الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ عن فرض العين معصية ، هذا لو كانت نيّته صحيحة كما قال ، و كان قد قصد بالفقه وجه الله تعالى فإنّه و إن قصد وجه الله فهو باشتغاله به مُعرض عن فروض عينه في جوارحه وقلبه ، فهذا غروره من حيث العمل ، و أمّا غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم الفتاوي وظنّ أنّه علم الدّين و ترك علم كتاب الله وسنّة نبيّه وربّما طعن على المحدّثين وقال : إنّهم نقلة أخبار و حملة أسفار لا يفقهون ، و ترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق و ترك الفقه عن الله بإدراك جلاله و عظمته و هو العلم الّذي يورث الخوف والهيبة و الخشوع و يحمل على التقوى فتراه آمناً من الله مغترّاً به متّكلاً على أنّه لابدّ و أن يرحمه فإنّه قوام دينه و إنّه لولم يشتغل بالفتاوي لتعطّل الحلال والحرام فقد ترك العلوم الّذي هي أهمّ وهو غافل مغرور و سبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه و لم يدر أنّ ذلك الفقه هو الفقه عن الله و معرفة صفاته المخوّفة و المرجوّة ليستشعر القلب الخوف و يلازم التقوى إذ قال تعالى : « فلو لا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدّين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » (١) والّذي به يحصل الإنذار غير هذا العلم فإنّ مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات و حفظ الأبدان بالأموال و بدفع القتل والجراحات ، و المال في طريق الله تعالى آلة والبدن مركبٌ وإنّما العلم المهمّ هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب الّتي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد و بين الله تعالى و إذا مات ملوّثاً بتلك الصّفات كان محجوباً عن الله تعالى ، فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحجّ على علم خرز الراوية و الخفّ و لا يشكّ في أنّه لو لم يكن لتعطّل الحجّ ولكنّ المقتصر عليه ليس من الحجّاج في شيء . وقد

(١) التوبة : ١٢٢ .

ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم . ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيّات ولم يهمّه إلّا تعلّم طريق المجادلة و الإلزام و إفحام الخصوم و دفع الحقّ لأجل الغلبة و المباهاة فهو طول اللّيل و النّهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب و التفقّد لعيوب الأقران و المتلقّف لأنواع التسبيبات المؤذية ، و هؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء وهمّهم السفه ، ولايقصدون العلم إلّا لضرورة مايلزمهم لمباهاة الأقران ، فكلّ علم لايحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة و تبديلها بالمحمودة فإنّهم يستحقرونه ويسمّونه التزويق و كلام الوعّاظ و إنّما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة الّتي تجري بين المتصارعين في الجدل و هؤلاء قد جمعوا ما جمعه الّذين من قبلهم في علم الفتاوي لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضاً بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف . وأمّا أدلّة الأحكام فيشتمل عليها علم المذاهب وهو كتاب الله تعالى و سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وفهم معانيهما ، وأمّا حيل الجدل من الكسر والقلب و فساد الوضع والتركيب والتعدية فهي إنّما اُبدعت لإظهار الغلبة و الإفحام وإقامة سوق الجدل بها ، فغرور هؤلاء أشدّ كثيراً وأقبح من غرور من قبلهم .

وفرقة اُخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والردّ على المخالفين و تتبّع مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة و اشتغلوا بتعلّم الطرق في مناظرة أولئك و إفحامهم و افترقوا في ذلك فِرَقاً كثيرة و اعتقدوا أنّه لايكون لعبد عمل إلّا بالإيمان ولايصحّ إيمان إلّا بأن يتعلّم جدلهم ومايسمّونه أدلّة عقائدهم وظنّوا أنّه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم وأنّه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلّم علمهم ودعت كلّ فرقة منهم إلى نفسها ثمّ هم فرقتان : ضالّة و محقّة ، والضالّة هي الّتي تدعو إلى غير السنّة ، و المحقّة هي الّتي تدعو إلى السنّة ، و الغرور شامل لجميعهم ، أمّا الضالّة فلغفلتها عن ضلالها و ظنّها بنفسها النجاة ، وهم فرق كثيرة يكفّر بعضهم بعضاً وإنّما اُتيت من حيث أنّها لم تتّهم رأيها ولم تحكم أوّلاً شروط الأدلّة ومنهاجها فرأى أحدهم الشبهة دليلاً والدّليل شبهة ، وأمّا الفرقة المحقّة

فإنّما اغترارها من حيث أنّها ظنّت بالجدل أنّه أهمّ الأمور و أفضل القربات في دين الله و زعمت أنّه لايتمّ لأحد دينه مالم يتفحّص ولم يبحث وإنّ من صدّق الله و رسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن ولابكامل ولا مقرّب عندالله فلهذا النظر الفاسد قطعت أعمارها في تعلّم الجدل و البحث عن المقالات و هذيانات المبتدعة و مناقضاتهم و أهمل نفسه و قلبه حتّى عمى عليه ذنوبه و خطاياه الظاهرة والباطنة وهو يظنّ أنّ اشتغاله بالجدل أولى و أقرب عندالله و أفضل ولكنّه لالتذاذه بالغلبة والافحام ولذّة الرئاسة وعزّ الانتماء إلى الذّبّ عن دين الله عميت بصيرته ولم يلتفت إلى القرن الأوّل وأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله شاهد لهم بأنّهم خير الخلق و أنّهم قدأدركوا كثيراً من أهل البدع والأهواء فماجعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للخصومات والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقّد قلوبهم و جوارحهم و أحوالهم ، بل لم يتكلّموا فيه إلّا حيث رأوا حاجة و توسّموا مخائل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدلّ الضالّ على ضلالته ، وإذا رأوامصرّاً على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر بل قالوا : إنّ الحقّ هو الدّعوة إلى السنّة و من السنّة ترك الجدال في الدّعوة إلى السنّة إذ روى أبوأمامة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : « ما ضلّ قومٌ قطّ بعد هدى إلّا اُتوا الجدل و حرموا العمل » (١) .

وخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله يوماً على أصحابه وهم يتجادلون و يختصمون فغضب عليهم حتّى كأنّه فقىء في وجهه حبّ الرّمّان حمرة من الغضب فقال : « ألهذا بعثتم أبهذا اُمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ انظروا إلى ما اُمرتم به فاعملوا وإلى مانهيتم عنه فانتهوا » (٢) .

فقد زجرهم رسول الله صلّى الله عليه وآله عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال،

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٨ و رواه احمد و الترمذى و الحاكم أيضاً بسند حسن وقد تقدم .

(٢) أخرجه البزار و الطبرانى فى الكبير بادنى تفاوت من حديث ابى سعيد بسند ضعيف وفى الاوسط من حديث أنس و رجاله ثقات اثبات كما فى مجمع الزوائد ج ١ ص ١٥٦ .

ثمّ إنّهم رأوا النبيّ ﷺ وقد بعث إلى كافّة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لا لزام وإفحام و تحقّق حجّة و دفع سؤال و إيراد إلزام، فما جادلهم إلّا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه لأنّ ذلك يشوّش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والشبه، ثمّ لا يقدر على محوها من قلوبهم وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقييسات ودقائق الأقيسة ولم يعلّم أصحابه كيفيّة الجدل والإلزام.

ولكنّ الأكياس و أهل الحزم لم يغترّوا بهذا وقالوا: لونجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم، ولو نجونا و هلكوا لم يضرّنا هلاكهم، و ليس علينا في المجادلة أكثر ممّا كان على الصحابة مع اليهود و النصارى وأهل الملل، وماضيّعوا العمر بتحرير مجادلتهم فما لنا نضيّع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا ولِمَ نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله ثمّ نرى أنّ المبتدع ليس يترك بدعته بجدالنا بل يزيده التعصّب و الخصومة تشدّداً في بدعته فاشتغالي بمخاصمة نفسي و مجاهدتها ومجادلتها لتترك الدّنيا للآخرة أولى، هذا لو كنت لم اُنه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه فكيف أدعو إلى السنّة بترك السنّة فالأولى لي أن أتفقّد نفسي وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى لأتنزّه عمّا يبغضه وأتمسّك بما يحبّه.

وفرقة اُخرى اشتغلوا بالوعظ و أعلاهم رتبة من يتكلّم في أخلاق النفس و صفات القلب من الخوف و الرّجاء و الصبر والشكر و التوكّل و الزّهد و اليقين و الإخلاص و الصدق و نظائره، وهم مغرورون يظنّون بأنفسهم أنّهم إذا تكلّموا بهذه الصفات و دعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكّون عنها عندالله إلّا عن قدر يسير لاينفكّ عنه عوام المسلمين، وغرور هؤلاء أشدّ الغرور لأنّهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ويظنّون أنّهم ماتبحّروا في علم المحبّة إلّا وهم محبّون لله وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلّا وهم مخلصون وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلّا وهم عنها منزّهون ولولا أنّه مقرّب عندالله لماعرّفه معنى القرب و البعد وعلم السلوك إلى الله و كيفيّة قطع المنازل في طريق الله، فالمسكين

بهذه الظنّون يرى أنّه من الخائفين وهو آمن من مكر الله ، و يرى أنّه من الرّاجين وهو من المغترّين المضيّعين ، و يرى أنّه من الرّاضين بقضاء الله عزّ وجلّ وهو من الساخطين ، و يرى أنّه من المتوكّلين على الله وهو من المتّكلين على العزّ و الجاه و المال و الأسباب ، و يرى أنّه من المخلصين وهومن المرائين ، بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف ، ويصف الرّياء و يذكره وهويرائي بذكره ليعتقد فيه أنّه لولا أنّه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرّياء ، و يصف الزهد في الدّنيا لشدّة حرصه على الدّنيا وقوّة رغبته فيها ، فهو يظهر الدّعاء إلى الله وهومنه فارّ ، ويخوّف بالله وهو منه آمن ، و يذكّر بالله وهو له ناس ، و يقرّب إلى الله و هو منه متباعد ، ويحثّ على الإخلاص و هو غير مخلص ، و يذمّ الصفات المذمومة و هو بها متّصف ، و يصرف الناس عن الخلق و هو على الخلق أشدّهم حرصاً ، لو منع عن مجلسه الّذي يدعو فيه الناس إلى الله تعالى لضاقت عليه الأرض بما رحبت (١) و يزعم أنّ غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه و صلحوا على يديه لمات غمّاً و حسداً ، ولو أثنى أحدٌ من المتردّدين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه ، فهؤلاء أعظم الناس غرّة ، وأبعدهم عن التنبّه و الرّجوع إلى السداد لأنّ المرغّب في الأخلاق المحمودة والمنفّر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها و هذا قد علم ذلك ولم ينفعه ، وشغله حبّ دعوة الخلق عن العمل به فبعد ذلك بماذا يعالج و كيف سبيل تخويفه نفسه وإنّما المخوّف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم لوظنّ بنفسه أنّه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدلّ على طريق الامتحان والتجربة وهوأنّه يدّعي مثلاً حبّ الله تعالى فما الّذي تركه من محابّ الدّنيا لأجله؟ و يدّعي الخوف فما الّذي امتنع منه بالخوف ؟ و يدّعي

---

(١) اى بما اتسعت والرحب : سعة المكان ومنه رحبة المسجد ، ورحبت الدار اتسعت ، واستعير للواسع الجوف فقيل رحب البطن ، ولواسع الصدر كما استعير الضيق لضده قال الله تعالى : « وضاقت عليهم الارض بما رحبت » ويقال رحيب الفناء لمن كثرت غاشيته . وقولهم مرحباً و اهلا اى وجدت مكاناً رحباً . (قاله الراغب فى مفرداته) .

الزّهد ؟ فما الّذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ؟ ويدّعي الأنس بالله ، فمتى طابت له الخلوة ؟ ومتى استوحش من مشاهدة الخلق ؟ لا بل يرى قلبه يمتلي بالحلاوة إذا أحدق به المريدون وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى ، فهل رأيت محبّاً يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره ؟! الأكياس يمتحنون أنفسهم في هذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزويق بل بموثق من الله غليظ ، والمغترّون يحسنون بأنفسهم الظنون ، و إذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون ، بل يطرحون في الآخرة في النار فتندلق أقتابهم فيدوربها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر [(١)] لأنّهم يأمرون بالخير ولا يأتونه و ينهون عن الشرّ و يأتونه ، و إنّما وقع الغرور لهؤلاء لأنّهم يصادفون من قلوبهم شيئاً ضعيفاً من اُصول هذه المعاني وهو حبّ الله تعالى و الخوف منه و الرّضا بفعله ، ثمّ قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنّوا أنّهم ماقدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلّا لاتّصافهم بها وذهب عليهم [(٢)] أنّ القبول للكلام ، و الكلام للمعرفة ، و جريان اللّسان والمعرفة للعلم ، و أنّ كلّ ذلك غير الاتّصاف بالصفة ، فلم يفارق آحاد المسلمين في الاتّصاف بصفة الحبّ والخوف بل في القدرة على الوصف ، بل ربّما زاد أمنه و قلّ خوفه و ظهر إلى الخلق ميله ، وضعف في قلبه حبّ الله تعالى ، و إنّما مثاله مثال مريض يصف المرض و يصف دواءه بفصاحته و يصف الصحّة والشفاء ، و غيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحّة و الشفاء و أسبابه و درجاته وأصنافه ، فهؤلاء يفارقهم في صفة المرض والاتّصاف به ، وإنّما يفارقه في الوصف و العلم بالطبّ فظنّه عند علمه بحقيقة الصحّة أنّه صحيح غاية الجهل فكذلك العلم بالخوف والحبّ والتوكّل والزّهد و سائر هذه الصفات غير الاتّصاف بحقائقها ، و من التبس عليه وصف الحقائق بالاتّصاف بالحقائق فهو مغرورٌ ، فهذه حالة الوعّاظ الّذين لا عيب في كلامهم ، بل منهاج و عظهم منهاج وعظ القرآن

(١) تقدم غير مرة فى هذا الكتاب .
(٢) ذهب عليهم أى خفى فلم يدركوا .

و الأخبار .

وفرقة اُخرى منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ وهم وعّاظ أهل هذا الزّمان كافّة إلّامن عصمه الله على الندور في بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه فاشتغلوا بالطامات والشطح[1] وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلباً للاغراب ، وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر همّهم في الاسجاع و الاستشهاد بأشعار الوصال و الفراق و غرضهم أن تكثر في مجلسهم الزّعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الإنس ضلّوا وأضلّوا عن سواء السبيل فانّ الأوّلين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم و صحّحوا كلامهم و وعظهم ، و أمّا هؤلاء فإنّهم يصدّون عن السبيل ويجرّون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرّجاء فيزيدهم كلامهم جرأة على المعاصي و رغبة في الدّنيا لاسيّما إذا كان الواعظ متزيّناً بالثياب والخيل والمركب فإنّه تشهد هيئته من قرنه إلى قدمه بشدّة حرصه على الدّنيا فما يفسده هذا المغرور أكثر ممّا يصلحه بل لا يصلح أصلاً و يضلّ خلقاً كثيراً فلا يخفى وجه كونه مغروراً .

وفرقة اُخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزّهّاد و أحاديثهم في ذمّ الدّنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها و يؤدّونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك

---

(١) « طامات » في اصطلاح العرفاء والمتصوّفة هي المعارف التى تصدر عن لسان السالك في أوّل سلوكه . و في رسائل خواجه عبدالله الانصارى ما لفظه :

« طامات سخنى باشد نا مفهوم يا كنايتى نا معلوم و عبارت از داشتن يا نشان از بنداشتن است ، كه خلق از آن عاجز باشند وعقل درآن معجز باشد و فؤاد درآن متفكر گردد و تفكر در آن متحير گردد ، يا سخنى باشد از عيان بى شرح و بيان ، بشناسد آنكه با راه باشد يا ازآن معنى آگاه باشد ، و سخنى باشد كه از وجدى صادر شود و گوينده نه حاضر باشد » اه‍ . و الشطحة : الخرجة عن الاحكام المقررة و في اصطلاح المتصوفة الشطحات عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة و غلبة شهود الحق تعالى عليهم بحيث لايشعرون حينئذ بغير الحق كقول بعضهم « اناالحق » و « ليس في الجبة غير الله » قال في التاج : في مادة بهصم « لازم الخلوة وكانت له أحوال و شطحات » .

على المنابر و بعضهم في المحاريب و بعضهم في الأسواق مع الجلساء و كلّ منهم يظنّ أنّه إذا تميّز بهذا القدر عن السوقيّة والجنديّة ـ إذ حفظ كلام الزّهّاد وأهل الدّين دونهم ـ فقد أفلح ونال الفرض وصار مغفوراً له و آمن من عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره و باطنه عن الآثام ولكنّه يظنّ أنّ حفظه لكلام الزّهّاد من أهل الدّين يكفيه و غرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

وفرقة اُخرى استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث أعني في سماعه وجمع الرّوايات الكثيرة منها و طلب الأسانيد الغريبة العالية ، و همّة أحدهم أن يدور في البلاد و يرى الشيوخ ليقول : أنا أروي عن فلان وقد لقيت فلاناً و معي من الأسانيد ماليس مع غيري . وغرورهم من وجوه منها أنّهم كحملة الأسفار فإنّهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنّة فعلمهم قاصر وليس معهم إلّا النقل ويظنّون أنّ ذلك يكفيهم . و منها أنّهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بما فيها وقد يفهم بعضهم أيضاً فلا يعملون بها . و منها أنّهم يتركون العلم الّذي هو فرض عينهم وهو معرفة معالجة القلوب و يشتغلون بكثرة الاستنادات و طلب الأسانيد العالية ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك . و منها و هو الّذي أكبّ عليه أهل الزّمان أيضاً أنّهم لا يقومون بشرط السماع فإنّ السماع بمجرّده و إن لم تكن له فائدة و لكنّه مهمّ في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث إذ التفهّم بعد الإثبات و العمل بعد التفهّم ، فالأوّل السماع ثمّ التفهّم ثمّ الحفظ ثمّ العمل ثمّ النشر (١) ، وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثمّ تركوا حقيقة السماع فترى الصبيّ يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبيّ يلعب ثمّ يكتب اسم الصبيّ في السماع فإذا كبر تصدّى ليسمع منه و البالغ الّذي يحضر ربّما يغفل ولا يسمع ولا يصغى ولا يضبط و ربّما يشتغل بحديث

---

(١) في الكافي ج ١ ص ٤٨ عن أبي عبدالله ، من آبائه عليهم السلام قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله ما العلم ؟ قال : الانصات ، قال : ثم مه ؟ قال : الاستماع ، قال : ثم مه ؟ قال : الحفظ ، قال : ثم مه ؟ قال : العمل به ، قال : ثم مه يا رسول الله ؟ قال : نشره .

أو نسخ والشيخ الّذي يقرأ عليه لو صحّف أو غيّر ما يقرأ عليه لم يشعر و لم يعرفه و كلّ ذلك جهل وغرور إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله ﷺ فيحفظه كما يسمعه و يرويه كما حفظ فتكون الرّواية عن الحفظ والحفظ عن السماع فإن عجزت عن سماعه من رسول الله ﷺ سمعته من الصحابة أو التابعين و صار سماعك عن الرّاوي كسماع من يسمع من رسول الله ﷺ وهو أن تصغى وتحفظ وتروي كما حفظت وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغيّر منه حرفاً ولو غيّر غيرك منه حرفاً أو أخطأ علمت خطأه ، و لحفظك طريقان أحدهما أن تحفظ بالقلب و تستديمه بالذّكر و التكرار كما تحفظ ماجرى على سمعك في مجاري الأحوال و الثاني أن تكتب كما تسمع و تصحّح المكتوب و تحفظ كتابك حتّى لا تصل إليه يد من يغيّره و يكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك فإنّه لو امتدّت إليه يد غيرك ربّما غيّره وإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكّراً لما سمعته و تأمن فيه من التغيير والتحريف فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غُفل وفارقت المجلس الّذي قرأت فيه ثمّ رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوّزت أن يكون ما فيه مغيّراً أو يفارق حرف منه من النسخة الّتي سمعتها لم يجز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب فإنّك لا تدري لعلّك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو في كلمة ، فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم أنّك سمعت ذلك وقد قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم »[1] وقول الشيوخ كلّهم في هذا الزّمان إنّا سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الّذي ذكرناه فهو كذب صريح وأقلّ شروط السماع أن يجري الجميع على سمعك مع نوع من الحفظ يشعر بالتغيير ، و لو جاز أن يكتب سماع الصبيّ و الغافل والنائم الّذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع الصبيّ في المهد و سماع المجنون ثمّ إذا بلغ الصبيّ و أفاق المجنون يسمع عليه و لا خلاف في عدم جوازه و لو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبيّ في المهد

(١) الاسراء : ٣٩ .

لأنّه لا يفهم ولا يحفظ ، فالصبيّ الّذي يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ ، و هل للسماع مستند إلّا قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها »(١) وكيف يؤدّي كما سمعها من لا يدري ما سمعه فهذا هو أفحش أنواع الغرور و قد بلي به أهل الزّمان و لو احتاط أهل الزّمان لم يجدوا شيوخاً إلّا الّذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة

١ إلّا أنّ للمحدّثين في ذلك جاهاً و قبولاً ، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقلّ من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم وتقلّ أيضاً أحاديثهم الّتي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربّما عدموا ذلك وافتضحوا فاصطلحوا على أنّه ليس يشترك إلّا أن يقرع سمعه دمدمة و إن كان لا يدري ما يجري وصحّة السماع لا تعرف من قول المحدّثين لأنّه ليس من علمهم بل من علم علماء اُصول الفقه و ما ذكرناه مقطوعٌ به في قوانين اُصول الفقه ، فهذا غرور هؤلاء ولو سمعوا على الشرط لكانوا مغرورين في اقتصارهم على النقل و في إفناء أعمارهم في جمع الرّوايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمّات الدّين و معرفة معاني الأخبار ، بل الّذي يقصد من الحديث سلوك طريق الله تعالى ربّما يكفيه الحديث الواحد عمراً كما روي عن بعض الشيوخ أنّه حضر مجلس السماع فكان أوّل حديث روي قوله صلى الله عليه وآله : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه »(٢) فقام وقال : يكفيني هذا حتّى أفرغ منه ثمّ أسمع غيره فهكذا كان سماع الأكياس الّذين يحذرون الغرور .

وفرقة اُخرى اشتغلوا بعلم النحو و اللّغة والشعر و غريب اللّغة واغترّوا به وزعموا أنّهم قد غفر لهم و أنّهم من علماء الاُمّة إذ قوام الدّين بالكتاب والسنّة وقوام الكتاب والسنّة بعلم اللّغة و النحو فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو و في صناعة الشعر و في غريب اللّغة و مثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلّم الخطّ و تصحيح

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٣٦ من حديث أنس و تحت رقم ٢٣٠ من حديث زيد بن حارث و غيره .

(٢) أخرجه الترمذي وابن مالك و قد تقدم .

الحروف و تحسينها و يزعم أنّ العلوم لا يمكن حفظها إلّا بالكتابة فلا بدّ من تعلّمها و تصحيحها و لو عقل لعلم أنّه يكفيه أن يتعلّم أصل الخطّ بحيث يمكن أن يقرأ كيف ما كان والباقي زيادة على الكفاية ، و كذلك الأديب لو عقل لعرف أنّ لغة العرب كلغة الترك والمضيّع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيّع عمره في معرفة لغة الترك والهند وإنّما فارقتها لأجل ورود الشريعة بها فيكفي من اللّغة علم الغريبين في الأحاديث و الكتاب و من النحو ما يتعلّق بالكتاب و السنّة و أمّا التعمّق فيه إلى درجات لا تتناهى ففضول مستغنى عنه ، ثمّ لو اقتصر عليه و أعرض عن معرفة المعاني الشرعيّة و العمل بها فهو أيضاً مغرور ، بل مثاله مثال من ضيّع العمر في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه و هو غرور إذ المقصود من الحروف المعاني و إنّما الحروف ظروف و أدوات و من احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزيل ما به من الصّفراء فضيّع أوقاته في تحسين القدح الّذي يحفظ فيه السكنجبين فهو من الجهّال المغرورين ، فكذلك غرور أهل النحو واللّغة و الأدب و القراءة و التدقيق في مخارج الحروف مهما تعمّقوا فيها وتجرّدوا لها وعرّجوا عليها أكثر ممّا يحتاج إليه في تعلّم العلوم الّتي هي فرض عين فاللّبّ الأقصى هو العمل والّذي فوقه هو معرفة العلم و هو كالقشر للعمل ، وكاللّبّ بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ و حفظها بطريق الرّواية و هو قشر بالإضافة إلى المعرفة و لبّ بالإضافة إلى ما فوقه و ما فوقه هو العلم باللّغة و النحو و فوق ذلك و هو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف ، والقانعون بهذه الدّرجات كلّهم مغرورون إلّا من اتّخذ هذه الدّرجات منازل فلم يعرّج عليها إلّا بقدر حاجته فيجاوزها إلى ما وراءها حتّى وصل إلى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه و جوارحه و رجى عمره في حمل النفس عليه ، و تصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه و قشور له ومنازل بالإضافة إليه و كلّ من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد و هذه العلوم لما كانت متعلّقة بعلوم الشرع أغترّ بها أربابها ، فأمّا علم الطبّ والحساب

والصناعات و ما يعلم أنّه ليس من علوم الشرع فلايعتقد أصحابها أنّهم ينالون المغفرة بها من حيث أنّها علوم و كان الغرور فيها أقلّ من الغرور بعلوم الشرع ، لأنّ العلوم الشرعيّة مشتركة في أنّها محمودة كما يشارك القشر اللّبّ في كونه محموداً و لكنّ المحمود منه بعينه هو المنتهى والباقي محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى فمن ظنّه مقصوداً و عرّج إليه فقد اغترّ به .

وفرقة اُخرى عظم غرورهم في فنّ الفقه و ظنّوا أنّ حكم العبد بينه و بين الله تعالى يتبع حكمه في مجلس القضاء فوضعوا الحيل في دفع الحقوق واساؤوا تأويل الألفاظ المبهمة و اغترّوا بالظواهر و أخطأوا فيها و هذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه و الخطأ في الفتوى ممّا يكثر ولكنّ هذا نوع عمّ الكافّة إلّا الأكياس منهم فنشير إلى أمثلة له فمن ذلك فتواهم بأنّ المرأة مهما أبرأت الزوج من الصداق برىء الزوج بينه و بين الله تعالى و ذلك خطأ بل الزّوج قديسيىء إلى الزّوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطرّ إلى طلب الخلاص فتبرىء الزّوج لتتخلّص منه و هو إبراء من غير طيبة نفس و قد قال تعالى : « فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً »(١) وطيبة النفس غير طيبة القلب فالقلب قديريد مالا تطيب به النفس كالإنسان يريد الحجامة بقلبه و لكن تكرهها نفسه ، فإنّما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله حتّى إذا ردّدت بين ضررين اختارت أهونهما فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن نعم القاضي في الدّنيا لا يطّلع على القلوب و الأغراض فينظر إلى الإبراء الظاهر و إنّها لم تكره بسبب ظاهر والإكراه الباطن ليس يطّلع الخلق عليه و لكن مهما تصدّى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوباً ولا مفيداً في تحصيل الإبراء و كذلك لا يحلّ مال الإنسان أن يؤخذ إلّا بطيبة النفس منه فلو طلب من إنسان مالاً على ملاء من الناس فاستحيى من الناس أن لا يعطيه و كان يودّ أن يكون سؤاله في خلوة حتّى لا يعطيه و لكن خاف ألم مذمّة الناس ، و خاف ألم تسليم المال و ردد نفسه بينهما فاختار أهون الألمين و

(١) النساء : ٤ .

هو ألم التسليم فسلّمه فلا فرق بين هذا وبين المصادرة ، إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالسوط حتّى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الألمين والسؤال في مظنّة الحياء و الرّياء ضرب للقلب بالسوط و لا فرق بين ضرب الباطن و ضرب الظاهر عندالله ، فإنّ الباطن عندالله ظاهر و إنّما حاكم الدّنيا هو الّذي يحكم بظاهر قوله « وهبت » لأنّه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب و كذلك من يُعطي اتّقاء لشرّ لسانه أو لشرّ سعايته فهو حرامٌ عليه و كذلك كلّ ما يؤخذ على هذا الوجه فهو حرامٌ إذ طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيره إلّا إذا خلا الإنسان و اختياره حتّى تنبعث الدّواعي من ذات نفسه لا أن تضطرّ دواعيه إلى الحركة بالحيل والإلزام و من ذلك هبة الرّجل مال الزّكوة في آخر الحول من زوجته و اتّهابه مالها لإسقاط الزّكاة فالفقيه يقول : سقطت الزّكاة فإن أراد به أنّ مطالبة السلطان و الساعي قد سقطت عنه فقد صدق فإنّ مطمح نظرهم ظاهر الملك و قد زال ، و إن ظنّ أنّه يسلم في القيامة و يكون كمن لم يملك المال ، أو كمن باع لحاجته إلى المبيع لا على هذا القصد ، فما أعظم جهله بفقه الدّين و سرّ الزّكاة ، فإنّ سرّ الزّكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فإنّ البخل مُهلك ، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ثلاث مهلكاتٌ شحٌّ مطاع » وإنّما صار شحّه مطاعاً بما فعله وقبله لم يكن مطاعاً فقد تمّ هلاكه بما يظنّ أنّ فيه خلاصه فإنّ الله مطّلع على قلبه وحبّه المال وحرصه عليه و إنّه بلغ على المال أن استنبط الحيل حتّى يسدّ على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل و الغرور . و من ذلك إباحة الله تعالى مال المصالح للفقيه و غيره بقدر الحاجة ، و الفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانيّ و الفضول و الشهوات وبين الحاجات بل كلّ مالا تتمّ رعونتهم إلّا به يرونه حاجة و هو محض الغرور ، بل الدّنيا خلقت للحاجة إليها في العبادة و سلوك طريق الله ، فكلّ ما تناوله العبد للاستعانة على الدّين و العبادة فهو حاجته ، وما عدا ذلك فهو فضوله و شهوته ، و لو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلّدات و الغرض التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب ، فإنّ ذلك يطول .

الصنف الثاني أرباب العبادة و العمل و المغرورون منهم فِرَق كثيرة .

فمنهم من غروره في الصّلاة و منهم في تلاوة القرآن و منهم في الحجّ و منهم في الصوم و منهم في الغزو و منهم في الزّهد و كذلك كلٌّ مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خالياً من غرور إلّا الأكياس و قليلٌ ماهم ، و منهم فرقة أهملوا الفرائض و اشتغلوا بالفضائل و النوافل و ربّما تعمّقوا في الفضائل حتّى خرجوا إلى العدوان و السرف كالّذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ويقدّر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة وإذاآل الأمر إلى الأكل الحلال قدّرالاحتمالات القريبة بعيدة و ربما أكل الحرام المحض ، ولوانقلبهذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة ، ثمّ من هؤلاء من يخرج إلى الاسراف فيصبّه الماء وذلك منهيٌّ عنه[1] ، وقديطول الأمر حتّى يضيّع الصلاة و يخرجها عن وقتها وإنلم يخرجها عن وقتها أيضاً فهو مغرورٌ لما فاته من فضيلة أوّل الوقت و إن لم يفته فهو مغرورٌ لإسرافه في الماء و إن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الّذي هو أعزّ الأشياء فيماله مندوحة إلّا أنّ الشيطان يصدُّ الخلق عن الله بطرق شتّى ولايقدر على صدّ العباد إلّا بمايخيّل إليهم أنّه عبادة فيبعّدهم عن الله بمثل ذلك .

وفرقة اُخرى غلبت عليها الوسوسة في نيّة الصلاة فلايدعهالشيطان حتّى يعقد نيّته صحيحة بل يشوّش عليه حتّى تفوته الجماعة و يخرج الصلاة عن الوقت وإن تمّ تكبيره فيكون في قلبه بعد تردّد في صحّة نيّته وقد يوسوسون في التكبير حتّى قد يغيّرون صيغة التكبير لشدّة الاحتياط فيه يفعلون ذلك في أوّل الصلاة ، ثمّ يغفلون في جميع الصلاة ولايحضرون قلوبهم ويغترّون بذلك ويظنّون أنّهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النيّة في أوّل الصلاة و تميّزوا عن العامّة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربّهم .

وفرقة اُخرى تغلب عليهاالوسوسة في إخراج حروف الفاتحة و سائر الأذكار من مخارجها ، فلايزال يحتاط في التشديدات و الفرق بين الضاد و الظاء و تصحيح

(١) راجع سنن ابن ماجه رقم ٤٢١ .

مخارج الحروف في جميع صلاته لايهمّه غيره ولا يتفكّر فيما سواه ذاهلاً عن معنى القرآن و الاتّعاظ به وصرف الهمّ إلى فهم أسراره ، وهذا من أقبح أنواع الغرور ، فإنّه لم يكلّف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلّا بماجرت به عادتهم في الكلام ، ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان فأمر أن يؤدّيها على وجهها فأخذ يؤدّي الرّسالة و يتأنّق في مخارج الحروف و يكرّرها و يعيدها مرّة بعد اُخرى ، وهو في ذلك غافلٌ عن مقصود الرّسالة و مراعاة حرمة المجلس ، فما أحراه بأن تقام عليه السياسة فيردّ إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل .

وفرقة اُخرى اغترّوا بقراءة القرآن فيهذّونه هذّاً[1] ، و ربّما يختمون في اليوم واللّيلة مرّة ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردّد في أودية الأماني إذلايتفكّر في معاني القرآن لينزجر بزواجره ، ويتّعظ بمواعظه ، ويقف عند أوامره ونواهيه ، ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك ممّا ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة ، فهو مغرور يظنّ أنّ المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه ، و مثاله مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتاباً و أشار عليه فيه بالأوامر والنواهي فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه ، فهو مستمرّ على خلاف ماأمر به مولاه إلاّ أنّه مكرّرٌ للكتاب بنغمته وصوته كلّ يوم مائة مرّة فهو مستحقّ للعقوبة ، ومهما ظنّ أنّ ذلك هو المراد منه فهو مغرور ، نعم تلاوته إنّما تراد لكيلا ينسى بعد ولحفظه و حفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه ، وقد يكون له صوت طيّب فهو يقرؤه ويتلذّذ به ويغترّ باستلذاذه ويظنّ أنّ ذلك لذّة مناجاة الله تعالى و سماع كلامه و إنّما هي لذّته في صوته و لوردّد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذّ به ذلك الالتذاذ فهو مغرورٌ إذ لم يتفقّد قلبه فيعرف أنّ لذّته بكلام الله من حيث نظمه و معانيه أو بصوته .

---

(١) قال الزمخشرى فى الاساس : هذه هذاً : أسرع قطعه . وسكين هذود ، ومن المجاز هذ القرآن و هو يهذه هذاً اذا أسرع فيه و تابعه ، و منه قول رؤبة : « ضرباً هذاذيك و طعناً وحضا » .

وفرقة منهم اغترّوا بالصوم و ربّما صاموا الدّهر و صاموا الأيّام الشريفة وهم فيها لايحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرّياء و بطونهم عن الحرام عند الإفطار و ألسنتهم من الهذيان بأنواع الفضول طول النهار و هو مع ذلك يظنّ بنفسه الخير يهمل الفرض و يطلب النفل، ثمّ لايقوم بحقّه و ذلك غاية الغرور.

وفرقة اُخرى اغترّوا بالحجّ فيخرجون إلى الحجّ من غير خروج عن المظالم و قضاء الدّيون، واسترضاء الوالدين، وطلب الزّاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجّة الإسلام ويضيّعون في الطريق الصلاة والفرائض، ويعجزون عن طهارة الثوب و البدن و يتعرّضون لمكس الظلمة حتّى يؤخذ منهم ولا يحذرون في الطريق عن الرفث و الخصام، و ربّما جمع بعضهم الحرام و أنفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرّياء فيعصي الله في كسب الحرام أوّلاً وفي إنفاقه بالرّياء ثانياً، فلاهو أخذه من حلّه ولاهو وضعه في حقّه ثمّ يحضر البيت بقلب ملوّث برذائل الأخلاق و ذمائم الصفات، لم يقدم تطهير قلبه على حضور بيت ربّه، وهو مع ذلك يظنّ أنّه على خير من ربّه وهو مغرور.

وفرقة اُخرى أخذت في طريق الحسبة و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه فإذا أمرهم بالخير عنف و طلب الرّئاسة والعزّة و الجاه، وإذا باشر هو بنفسه منكراً فردّ عليه غضب، وقال: أنا المحتسب فكيف ينكر عليّ، وقد يجمع الناس إلى مسجده، و من تأخّر عنه أغلظ القول عليه و إنّما غرضه الرّياء و الرّئاسة ولو قام بتعهّد المسجد غيره لحرد عليه (١) بل منهم من يؤذّن لله ولوجاء غيره فأذّن في وقت غيبته قامت عليه القيامة، و قال: لِمَ أخَذَ حقّي و زحمني على مرتبتي، و كذلك قد يتقلّد إمامة مسجد و يظنّ أنّه على خير وإنّما غرضه أن يقال: إنّه إمام المسجد فلو تقدّم غيره ولوكان أورع منه وأعلم ثقل عليه.

وفرقة اُخرى جاوروا بمكّة والمدينة واغترّوا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم

(١) أى غضب عليه.

يطهّر واظاهرهم وباطنهم ، قلوبهم معلّقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أنّ فلاناً مجاور بمكّة تراه يتحدّى و يقول : قدجاورت بمكّة كذا و كذاسنة و إذا سمع أنّ ذكرذلك قبيح ترك صريح التحدّي و أحبّ أن يعرفه الناس بذلك ، ثمّ إنّه يجاور و يمدّعين طمعه إلى أوساخ أموال الناس فإذا جمع من ذلك شيئاً شحّ عليه وأمسكه ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدّق بها على فقير فيظهر فيه الرّياء والبخل و الطمع وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكن حبّ المحمدة و أن يقال : إنّه من المجاورين ألزمه المجاورة ولكن مع التصنّع بهذه الرّذائل فهو أيضاً مغرور ، وما من عمل من الأعمال ولاعبادة من العبادات إلّا و فيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها و اعتمد عليها بغير معرفة فهو مغرور ولايعرف شرح ذلك إلّا من جملة كتاب إحياء العلوم فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة ، و في الحجّ و الزكاة و سائر القربات من الكتب الّتي رتّبناها فيها ، و إنّما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ماسبق في الكتب .

وفرقة اُخرى تزهّدت وقنعت من اللّباس و الطعام بالدّون و من المسكن بالمساجد و ظنّت أنّها أدركت رتبة الزّهّاد وهو مع ذلك راغب في الرئاسة و الجاه إمّا بالعلم أو بالوعظ أوبمجرّد الزّهد فقدترك أهون الأمرين رياء بأعظم المهلكين فإنّ الجاه أعظم من المال ، ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب وهذا مغرور إذ ظنّ أنّه من الزّهّاد في الدّنيا ، وهو لم يعرف معنى الدّنيا ولم يدر أن منتهى لذّاتها الرئاسة ، وإنّ الراغب فيها لابدّ وأن يكون منافقاً وحسوداً ومتكبّراً و مرائياً و متّصفاً بجميع خبائث الأخلاق ، نعم وقد يترك الرئاسة و يؤثر الخلوة و العزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتطاول بذلك على الأغنياء و يخشن معهم الكلام و ينظر إليهم بعين الاستحقار ويرجو بنفسه أكثر ممّا يرجو لهم ويعجب بعمله ويتّصف بجملة من خبائث القلوب و هو لايدري و ربّما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال : بطل زهده ، ولو قيل له : إنّه حلال فخذه في الظاهر وردّه في الباطن لم تسمح به نفسه خوفاً من ذمّ الناس فهوراغب في حمد الناس وهو من ألذّ أبواب الدّنيا ،

و يرى نفسه أنّه زاهد في الدّنيا و هو مغرور و مع ذلك فربّما لايخلو عن توقير الأغنياء و تقديمهم على الفقراء والميل إلى المريدين له و المثنين عليه و النفرة عن المائلين إلى غيره من الزّهاد و كلّ ذلك خدعة و غرور من الشيطان و في العباد من يشدّد على نفسه في أعمال الجوارح حتّى يصلّي في اليوم و اللّيلة مثلاً ألف ركعة و يختم القرآن فيه وهو مع ذلك لايخطر له مراعاة القلب و تفقّده و تطهيره من الرّياء والكبر والعجب وسائر المهلكات ، فلا يدري أنّ ذلك مهلك وإن علم ذلك فلا يظنّ بنفسه ذلك و إن ظنّ بنفسه ذلك فربّما توهّم أنّه مغفور له بعمله الظاهر ، و أنّه غير مؤاخذ بأحوال القلب ، وإن توهّم فيظنّ أنّ العبادات الظاهرة تترجّح بها كفّة حسناته وهيهات و ذرّة من ذي تقوى وخُلق واحد من خُلق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح . ثمّ لايخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس و خشونته و تلوّث باطنه بالرّياء و حبّ الثناء فإذا قيل له : أنت من أوتاد الأرض و أولياء الله وأحبّائه فرح فرحاً شديداً و صدّق به وزاده ذلك غروراً و ظنّ أنّ تزكية الناس له دليل على كونه مرضيّاً عندالله ولا يدري أنّ ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه .

وفرقة اُخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة اللّيل وسائر الرّواتب ولايجد للفريضة لذّة ولايشتدّ حرصه على المبادرة بها في أوّل الوقت وينسى قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما يرويه عن ربّه عزّ وجلّ « ما تقرّب المتقرّبون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم »(١) وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور ، بل قد يتعيّن على الإنسان فرضان أحدهما يفوت و الآخر لايفوت ، أو نفلان أحدهما يضيق وقته و الآخر يتّسع وقته فإن لم يحفظ الترتيب فيه فهو مغرور ، و نظائر ذلك أكثر من أن تحصى ، فإنّ المعصية ظاهرة و الطاعة ظاهرة ، و إنّما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلّها على النوافل ، و تقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات ، وتقديم فرض كفاية لاقائم به على ما قام به غيره ، و تقديم الأهمّ من فروض الأعيان على ما دونه ، وتقديم ما يفوت على ما لايفوت ،

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

و هذا كما يجب أن يقدّم حاجة الوالدة على حاجة الوالد إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقيل له : « مَن أبرّ ؟ قال : اُمّك ، ثمّ قال : ثمّ من ؟ قال : اُمّك ، قال : ثمّ من ؟ قال : اُمّك ، قال : ثمّ من ؟ قال : أباك ، قال : ثمّ من ؟ قال : أدناك ثمّ أدناك »(١) فينبغي أن يبدأ في الصّلة بالأقرب فالأقرب ، و إن استويا فبالأحوج ، فإن استويا فبالأتقى والأورع و كذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحجّ فربّما يحجّ فهو مغرورٌ بل ينبغي أن يقدّم حقّيهما على الحجّ وهذا من تقديم فرض أهمّ على فرض هو دونه و كذلك إذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت بالاشتغال بالوفاء بالوعد والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو في نفسه طاعة ، و كذلك تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسببه فالنجاسة محذورة وإيذاؤهما محذور ، فالحذر من الأذى أهمّ من الحذر من النجاسة ، و أمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر ، و من ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور ، و هذا غرور في غاية الغموض لأنّ المغرور فيه في طاعة إلّا أنّه لا يفطن بصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهمّ منها ، و من جملته الاشتغال بالمذهب و الخلاف من الفقه في حقّ من بقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلّقة بالجوارح والمتعلّقة بالقلب لأنّ مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في جوارحهم فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلّا أنّ حبّ الرّئاسة والجاه ولذّة المباهاة و القهر للأقران و التقدّم عليهم يعمي عليه حتّى يغترّ به مع نفسه و يظنّ أنّه مشغولٌ بهمّ دينه .

الصنف الثالث المتصوّفة وما أغلب الغرور عليهم والمغترّون منهم فِرَق كثيرة ، ففرقة هم متصوّفة أهل الزّمان إلّا من عصمه الله اغترّوا بالزّيّ والمنطق والهيئة فساعدوا الصّادقين من الصّوفيّة في زيّهم و هيئتهم و في ألفاظهم و في آدابهم و مراسمهم و اصطلاحاتهم وفي أحوالهم الظاهرة في السّماع و الرقص والطهارة و الصّلاة والجلوس

---

(١) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ٩١ عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده و قال فى الباب عن أبى هريرة و أبى الدرداء و عبدالله بن عمر و عائشة .

على السّجادات مع إطراق الرّأس وإدخاله في الجيب كالمتفكّر و في تنفّس الصعداء و في خفض الصّوت في الحديث إلى غيرذلك من الشمائل والهيئات .

أقول: و أيّ فضل و كرامة للصادقين من الصّوفيّة حتّى يكون للمتشبّهين بهم فضل و غرور ؟ فإنّ أكثرهم من أهل البدع من السّماع والرّقص و الجهرمن القول في الدّعاء و غير ذلك .

قال : فلمّا تكلّفوا هذه الاُمور و تشبّهوا بهم فيهاظنّوا أنّهم أيضاً صوفيّة و لم يتعبوا أنفسهم قطّ في المجاهدة و الرّياضة و مراقبة القلب و تطهير الباطن و الظاهر من الآثام الخفيّة و الجليّة و كلّ ذلك من أوائل منازل التصوّف و لو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدّوا أنفسهم من الصوفيّة كيف و لم يحوموا قطّ حولها و لم يسوموا أنفسهم شيئاً منها ، بل يتكالبون على الحرام والشبهات و أموال السلاطين ، و يتنافسون في الرّغيف و الفلس والحبّة ، و يتحاسدون على النقير و القطمير ، و يمزّق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه و هؤلاء غرورهم ظاهر . و مثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أنّ الشجعان والأبطال من المقاتلين يثبت أسماؤهم في الدّيوان و يقطع كلّ واحد منهم قطراً من أقطارالمملكة فتاقت نفسها إلى أن يقطع لهامملكة فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً ، وتعلّمت من رجز الأبطال أبياتاً و تعوّدت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتّى تيسّرت عليها و تعلّمت كيفيّة تبخترهم في الميدان و كيف تحريكهم الأيدي و تلقّفت جميع شمائلهم في الزّيّ والمنطق و الحركات و السّكنات ثمّ توجّهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلمّا وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض و اُمرت بأن تجرّد عن المغفر و الدّرع و ينظر إلى ما تحته و تمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها في الشجاعة ، فلمّا جرّدت عن المغفر والدّرع فإذا هي عجوزة ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدّرع و المغفر فقيل لها : أجئت للاستهزاء بالملك و استحماق أهل حضرته بالتلبيس عليه ؟! خذوها فألقوها إلى قدّام الفيل لسخفها ، فاُلقيت إلى الفيل ، و هكذا يكون حال المدّعين للتصوّف في القيامة إذا

كشف عنهم الغطاء و عرضوا على القاضي الأكبر الّذي لا ينظر إلى الزّيّ والمرقـع بل إلى سرّ القلب .

وفرقة اُخرى زادت على هؤلاء في الغرور إذ شقّ عليها الاقتداء بهم في بذاذة الثياب و الرّضاء بالدّون و أرادت أن تتظاهر بالتصوّف و لم تجد بدّاً من التزيّي بزيّهم فتركت الخزّ و الأبريسم و طلبت المرقّعات النفيسة و الفوط الرّقيقة و السجّادات المصبغة و لبست من الثياب ما هو أرفع قيمة من الخزّ و الأبريسم ، فظنّ أحدهم مع ذلك أنّه متصوّف بمجرّد لون الثوب و كونه مرقّعاً و نسي أنّهم إنّما لوّنوا الثياب لئلاّ يطول عليهم غسلها كلّ ساعة لإزالة الوسخ . و إنّما لبسوا المرقّع إذ كانت ثيابهم مخرقة و كانوا يرقّعونها ولا يلبسون الجديد ، فأمّا تقطيع الفوط الرّقيقة قطعة قطعة و خياطة المرقّعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه فهؤلاء أظهر حماقة من كافّة المغرورين فإنّهم يتنعّمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ، و يطلبون رغد العيش ، و يأكلون أموال السلاطين ، ولا يجتنبون المعاصي الظّاهرة فضلاً عن الباطنة ، و هم مع ذلك يظنّون بأنفسهم الخير . وشرّ هؤلاء ممّا يتعدّى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدي بهم ومن لايقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التّصوّف كافّة إذ يظنّ أنّ جميعهم كانوا من جنسه فيطيل اللّسان في الصادقين منهم و كلّ ذلك من شؤم المتشبّهين و شرّهم .

وفرقة اُخرى ادّعت علم المعرفة ومشاهدة الحقّ ومجاوزة المقامات المحمودة و الأحوال و الملازمة في عين الشهود و الوصول إلى القرب ولايعرف هذه الاُمور إلّا بالأسامي و الألفاظ لأنّه تلقّف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يردّدها و يظنّ أنّ ذلك أعلى من علم الأوّلين و الآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء و المفسّرين والمحدّثين و أصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام ، حتّى أنّ الفلاّح ليترك فلاحته و الحائك يترك حياكته ويلازمهم أيّاماً معدودة و يتلقّف منهم تلك الكلمات المزيّفة فهو يردّدها كأنّه يتكلّم عن الوحي ، و يخبر عن سرّ الأسرار و يستحقر بذلك جميع العبّاد والعلماء فيقول في العبّاد : إنّهم اُجراء متعبون ، ويقول في العلماء :

إنّهم بالحديث عن الله محجوبون ، و يدّعي لنفسه أنّه الواصل إلى الحقّ وأنّه من المقرّبين، وهو عند الله من الفجّار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، ولم يحكم قطّ علماً ولم يهذّب خُلقاً ، ولم يرتّب عملاً ، ولم يراقب قلباً سوى اتّباع الهوى وتلقّف الهذيان وحفظه .

وفرقة اُخرى وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسوّوا بين الحلال والحرام ، فبعضهم يزعم أنّ الله مستغن عن عملي فلِمَ أتعب نفسي ، وبعضهم يقول : قد كلّفوا الناس تطهير القلوب عن الشهوات و عن حبّ الدّنيا و ذلك محال ، فقد كلّفوا ما لايمكن وإنّما يغترّ به من لم يجرّب وأمّا نحن فقد جرّبنا و أدركنا أنّ ذلك محالٌ . ولايعلم الأحمق أنّ الناس لم يكلّفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل كلّفوا تأديبهما بحيث ينقاد كلّ واحد منهما لحكم العقل و الشرع ، و بعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لاوزن لها وإنّما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة إلى حبّ الله ، و واصلة إلى معرفة الله ، وإنّما نخوض في الدّنيا بأبداننا و قلوبنا عاكفة في الحضرة الرّبوبيّة فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويزعمون أنّهم قد ترقّوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النّفس بالأعمال البدنيّة وإنّ الشهوات لاتصدّهم عن طريق الله تعالى لقوّتهم فيها ويرفعون درجتهم على درجة الأنبياء عليهم السلام إذ كان يصدّهم عن طريق الله تعالى خطيئة واحدة حتّى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية . و أصناف غرور أهل الإباحة من المتشبّهين بالصوفيّة لاتحصى ، و كلّ ذلك بناء على أغاليط و وساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدّين و العلم الصالح للاقتداء و إحصاء أصنافهم يطول .

وفرقة اُخرى جاوزت حدّ هؤلاء وأحسنت الأعمال وطلّقت الحلال واشتغلت بتفقّد القلب وصارت أحدهم تدّعي المقامات من الزّهد والتوكّل والرّضا والحبّ من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها و علاماتها وآفاتها ، فمنهم من يدّعي الوجد و الحبّ لله تعالى و يزعم أنّه والهٌ بالله ، و لعلّه قد تخيّل في الله تعالى خيالات هي بدعة أو كفر فيدّعي حبّ الله قبل معرفته ، ثمّ إنّه لايخلو عن مقارفة

ما يكره الله و عن إيثار هوى نفسه على أمر الله تعالى و عن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ولو خلا لماتركها حياء من الله تعالى وليس يدري أنّ كلّ ذلك يناقض الحبّ ، و بعضهم ربّما يميل إلى القناعة و التوكّل فيخوض البوادي من غير زاد ليصحّح دعوى التوكّل و ليس يدري أنّ ذلك بدعة لم تنقل عن السلف و الصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكّل منه فما فهموا أنّ التوكّل المخاطرة بالرّوح و ترك الزّاد بل كانوا يأخذون الزّاد وهم متوكّلون على الله تعالى لاعلى الزّاد و هذا ربّما يترك الزّاد و هو متوكّل على سبب من الأسباب واثق به ، و ما من مقام من المقامات المنجيات إلّا وفيه غرورٌ وقداغترّ به قومٌ وقدذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات من الكتاب .

وفرقة اُخرى ضيّقت على نفسها في أمر القوت حتّى طلبت منه الحلال الخالص و أهملوا تفقّد القلوب و الجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ، و منهم من أهمل الحلال في مطعمه و ملبسه و مسكنه و أخذ يتعمّق في غير ذلك و لم يدر المسكين أنّ الله لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط، ولا رضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال بل لايرضيه إلّا تفقّد جميع الطاعات و المعاصي ، فمن ظنّ أنّ بعض هذه الاُمور يكفيه و ينجيه فهو مغرور .

وفرقة اُخرى ادّعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدّوا لخدمة الصوفيّة فجمعوا قوماً و تكلّفوا بخدمتهم واتّخذوا ذلك شبكة للرئاسة و جمع المال ، و إنّما غرضهم التكبّر وهم يظهرون أنّ غرضهم الخدمة و التواضع و غرضهم الارتفاع وهم يظنّون أنّ غرضهم الإرفاق و غرضهم الاستتباع وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعيّة ، ثمّ إنّهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم ليكثر أتباعهم وينتشر بالخدمة اسمهم ، و بعضهم يأخذ أموال السلاطين وينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحجّ على الصوفيّة ويزعم أنّ غرضه البرّ والإنفاق و باعث جميعهم الرّياء و السمعة و آية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله عليهم ظاهراً و باطناً ورضاهم بأخذ الحرام و الإنفاق منه ، ومثال من ينفق الحرام في طريق الحجّ لإرادة الخير كمن

يعمر مساجدالله فيطينها بالعذرة و يزعم أنّ قصده العمارة .

وفرقة اُخرى منهم اشتغلوا بالمجاهدة و تهذيب الأخلاق و تطهير النفس من عيوبها و صاروا يتعمّقون فيها فاتّخذوا البحث عن عيوب النفس و معرفة خدعها علماً و حرفة فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس باستنباط دقيق الكلام في آفاتها فيقولون : هذا في النفس عَيبٌ و الغفلة عن كونه عيباً عيبٌ و الالتفات إلى كونه عيباً عيبٌ و يشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الاوقات في تلفيقها و من جعل طول عمره في التفتيش عن العيوب و تحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عَن عوائق الحجّ و آفاته ولم يسلك طريق الحجّ فذلك لايغنيه .

وفرقة اُخرى جاوزوا هذه الرّتبة و ابتدأوا سلوك الطريق و انفتحت لهم أبواب المعرفة فكلّما تشمّموا من مبادي المعرفة رائحة تعجّبوا منها وفرحوا بها ، وأعجبتهم غرابتها فتقيّدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكّر فيها ، و في كيفيّة انفتاح بابها عليهم و انسداده على غيرهم ، و كلّ ذلك غرورٌ لأنّ عجائب طريق الله ليس له نهاية ، فلو وقف مع كلّ اُعجوبة و تقيّد بها قصرت خطاه وحرم عن الوصول إلى المقصد ، و كان مثاله مثال من قصد ملكاً فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها فوقف ينظر إليها ويتعجّب حتّى فاته الوقت الّذي يمكن فيه لقاء الملك .

وفرقة اُخرى جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى مايفيض عليهم من الأنوار في الطريق وإلى مايتيسّر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرّجوا على الفرح بها والالتفات إليها جادّين في السير حتّى قاربوا فواصلوا إلى حدّ القربة إلى الله تعالى و ظنّوا أنّهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا و غلطوا فإنّ لله سبعين حجاباً من نور لايصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلّا و يظنّ أنّه قد وصل . و إليه الاشارة بقول إبراهيم صلوات الله عليه إذ قال الله تعالى إخباراً عنه : « فلمّا جنّ عليه اللّيل رأى كوكباً قال هذا ربّي » (١) و ليس المعنيّ به هذه الأجسام المضيئة فإنّه كان

(١) الانعام : ٧٦ .

يراه في الصغر ويعلم أنّها ليست آلهة وهي كثيرة وليست بواحدة ، والجهّال يعلمون أنّ الكوكب ليس بإله فمثل إبراهيم لايغرّه الكوكب الّذي لايغرّ السوادية ولكن المراد به أنّه نور من الانوار الّتي هي من حجب الله عزّ وجلّ وهي على طريق السالك ولايتصوّر الوصول إلى الله إلّا بالوصول إلى هذه الحجب و هي حجب من النور بعضها أعظم من بعض وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه ، و أعظمها الشمس و بينهما رتبة القمر فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السماوات حيث قال عزّ وجلّ : « و كذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات و الأرض » (١) يصل إلى نور بعد نور ويتخيّل إليه في أوّل ماكان يلقاه أنّه قدوصل ثمّ كان يكشف له أنّ وراءه أمر فيترقّى إليه ويقول : قدوصلت فيكشف له ما وراءه حتّى وصل إلى الحجاب الأقرب الّذي لا وصول إلّا بعده ، فقال : هذا أكبر فلمّا ظهر له أنّه مع عظمه غير خال عن الهوى في حضيض النقص و الانحطاط عن ذروة الكمال قال : «لا اُحبّ الآفلين إنّي وجّهت وجهي للّذي فطر السموات و الأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » و سالك هذا الطريق قديغترّ في الوقوف على بعض هذه الحجب ، وقد يغترّ بالحجاب الأوّل وأوّل الحجاب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنّه أيضاً أمر ربّاني وهو نور من أنوار الله أعني سرّ القلب الّذي تتجلّى فيه حقيقة الحقّ كلّه حتّى أنّه ليتّسع لجملة العالم و يحيط به و تتجلّى فيه صورة الكلّ ، و عند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كلّه على ماهو عليه ، وهو في أوّل الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له فإذا تجلّى نوره و انكشف فيه جمال القلب بعد إشراق نور الله تعالى عليه ربّما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه فربّما يسبق لسانه في هذه الدّهشة فيقول : أنا الحقّ فإن لم يتّضح له ماوراء ذلك اغترّ به ووقف عليه و هلك ، وكان قد اغترّ بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهيّة ولم يصل بعد إلى القمر فضلاً عن الشمس فهو مغرور و هذا محلّ الالتباس إذ المتجلّى يلتبس بالمتجلّى فيه كما يلتبس لون مايتراءى في المرآة بالمرآة ، فيظنّ أنّه لون المرآة و كما

(١) الانعام : ٧٥ .

يلتبس ما في الزّجاج بالزّجاج كما قيل :

رقّ الزّجاج و رقّت الخمر ✿ فتشابها فتشاكل الأمر

فكأنّما خمر ولا قدح ✿ و كأنّما قدح ولا خمر

و بهذه العين نظر النصارى إلى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكباً في المرآة أو في الماء فيمدّ اليد إليه ليأخذه وهو مغرور. و أنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله لاتحصى في مجلّدات ولاتستقصى إلّا بعد شرح جميع علوم المكاشفة وذلك ممّا لارخصة في ذكره ولعلّ القدر الّذي ذكرناه أيضاً كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لايحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والّذي لم يسلكه لاينتفع بسماعه بل ربّما يستضرّ به إذ يورث ذلك دهشة من حيث يسمع مالا يفهم ولكن في ذكره فائدة و هو إخراجه من الغرور الّذي هو فيه إذ ربّما يصدّق بأنّ الأمر أعظم ممّا يظنّه وممّا يتخيّله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله المزخرف ويصدّق أيضاً بما يحكى له من المكاشفات الّتي أخبر عنها أولياء الله تعالى ، ومن عظم غروره ربّما أصرّ مكذّباً بما يسمعه الآن كما يكذّب بماسمعه من قبل والله أعلم .

الصنف الرابع أرباب الأموال و المغترّون منهم فِرَق كثيرة .

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد و المدارس و الرباطات و القناطر وما يظهر للناس كافّة ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلّد ذكرهم و يبقى بعد الموت أثرهم وهم يظنّون أنّهم قد استحقّوا المغفرة بذلك و قد اغترّوا فيه من وجهين أحدهما أنّهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب و الرّشى و الجهات المحظورة فهم قد تعرّضوا اسخط الله في كسبها و تعرّضوا لسخطه في إنفاقها و كان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها فإذا عصوا الله تعالى بكسبها كان الواجب عليهم التوبة والرّجوع إلى الله تعالى وردّها إلى ملّاكها إمّا بأعيانها أوردّ بدلها عند العجز ، فإن عجزوا عن الملّاك فكان الواجب ردّها إلى الورثة ، فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهمّ المصالح ، و ربّما يكون الأهمّ التفرقة على المساكين وهم لايفعلون ذلك خيفة من أن لايظهر ذلك للناس فيبنون الأبنية بالآجر وغرضهم

من بنائها الرّياء و جلب الثناء و حرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم بها لالبقاء الخير .
والوجه الثاني أنّهم يظنّون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية ، ولو كلّف واحدٌ منهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع الّذي أنفق عليه لشقّ عليه ذلك ولم تسمح به نفسه ، والله تعالى مطّلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ، فلو لا أنّه يريد به وجه الناس لاوجه الله لما افتقر إلى ذلك .

وفرقة اُخرى ربّما اكتسبت الأموال من الحلال وانفقت على المساجد وهي أيضاً مغرورة من وجهين أحدهما الرّياء و طلب الثناء فإنّه ربّما يكون في جواره أوفي بلده فقير وصرف المال إليه أهمّ وأفضل من الصرف إلى المساجد و زينتها و إنّما يخفّ عليه الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس . والثاني أنّه يصرف إلى زخرفة المسجد و تزيينه بالنقوش الّتي هي منهيٌّ عنها[1] و شاغلةٌ لقلوب المصلّين و مختطفة أعينهم و المقصود من الصلاة الخشوع و حضور القلب و ذلك يفسد قلوب المصلّين و يحبط ثوابهم بذلك و وبال ذلك كلّه يرجع إليه وهو مع ذلك يغترّ به ويرى أنّه من الخيرات و يعدُّ ذلك وسيلة إلى الله تعالى وهو بذلك تعرّض لسخط الله وهو يظنّ أنّه مطيع لله و ممتثل لأمره ، وقد شوّش قلوب عباد الله بما زخرف من المسجد ، وربّما شوّقهم به إلى زخارف الدّنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ، و يشتغلون بطلبه و وبال ذلك كلّه في رقبته إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى .
قيل : دخل رجلان مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال : مثلي لايدخل بيت الله ، فكتبه الملكان عند الله صدّيقاً ، فبهذا ينبغي أن يعظم المساجد و هوأن يرى تلويث المسجد بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدّنيا منّة على الله تعالى .

و قال الحواريّون للمسيح عليه السلام : اُنظر إلى هذا المسجد ما أحسنه

---

(١) روى الراوندى فى لب اللباب كما فى مستدرك الوسائل ج ١ ص ٢٢٨ عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال : « لا تزخرفوا مساجدكم كما زخرفت اليهود و النصارى بيعهم » .

فقال : اُمّتي اُمّتي بحق أقول لكم لايترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً على حجر إلّا أهلكه بذنوب أهله ، إنَّ الله لايعبأ بالذّهب و الفضّة ولا بهذه الحجارة الّتي تعجبكم شيئاً ، وإنّ أحبّ الأشياء إلى الله القلوب الصالحة ، بها يعمر الله الأرض ، وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك .

وقال أبوالدرداء : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « إذا زخرفتم مساجدكم و حلّيتم مصاحفكم فالدّمار عليكم » (١) روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبرئيل عليه السلام فقال : ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء لاتزخرفه ولاتنقّشه» (٢) فغرور هذا من حيث أنّه رأى المنكر معروفاً و اتّكل عليه .

• **وفرقة** اُخرى ينفقون الأموال في الصدقات ، و على الفقراء و المساكين و يطلبون به المحافل الجامعة ، و من الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ، ويكرهون التصدّق في السرّ ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم و كفراناً ، و ربّما يحرصون على إنفاق المال في الحجّ فيحجّون مرّة بعد اُخرى ، و ربّما يتركون جيرانهم جائعين ، و لذلك قال ابن مسعود في آخر الزّمان يكثر الحاجّ بلا سبب يهون عليهم السفر و يبسط لهم في الرزق و يرجعون محرومين مسلوبين يهوي بأحدهم بعيره بين القفار والرّمال وجاره مأسور إلى جنبه لايواسيه ، و روى أبونصر التمّار أنّ رجلاً جاء يودّع بشر بن الحارث وقال : عزمت على الحجّ فقام بشر فقال له : كم أعددت للنفقة ؟ فقال : ألفي درهم ، قال : فأيّ شيء تبتغي بحجّك نزهة أو اشتياقاً إلى البيت أو ابتغاء مرضات الله ؟ قال : ابتغاء مرضات الله قال : فإن أصبت رضا الله و أنت في منزلك و تنفق ألفي درهم و تكون على يقين من مرضاة الله أتفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فاذهب فأعطها عشرة أنفس مديون يقضي دينه و فقير يلمّ شعثه و معيل تغني عياله و مربّي يتيم تفرّحه ، و إن قوي قلبك أن تعطيها واحداً

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذى فى النوادر من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٢) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

فافعل فإنّ إدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللّهفان و كشف الضرّ و إعانة الضعيف أفضل من مائة حجّة بعد حجّة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرناك وإلاّ فقل لنا ما في قلبك فقال : يا أبانصر سفري أقوى في قلبي فتبسّم بشر و أقبل عليه فقال له : المال إذا جمع من وسخ التجارات و الشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطراً فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله تعالى على نفسه أن لايقبل إلّا عمل المتّقين .

وفرقة اُخرى من أرباب الأموال يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثمّ يشتغلون بالعبادات البدنية الّتي لايحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار و قيام اللّيل والختم للقرآن وهم مغرورون لأنّ البخل المهلك قد استولى على باطنهم ، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال ، فقد اشتغلوا بطلب فضائل هم مستغنون عنها ، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حيّة وقد أشرف على الهلاك و هو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ، و من قتلته الحيّة فمتى يحتاج إلى السكنجبين ؟ .

وفرقة اُخرى غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلّا بأداء الزكاة فقط ثمّ إنّهم يخرجون من المال الخبيث الرّدي الّذي يرغبون عنه و يطلبون من الفقراء من يخدمهم و يتردّد في حاجاتهم أومن يحتاجون إليه في المستقبل للاستسخار في خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض أو يسلّمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممّن يستظهر بحشمته لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته ، و كلّ ذلك مفسدات للنيّة ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ويظنّ أنّه يطيع الله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعباده الله عوضاً من غيره وهذا وأمثاله من غرور أرباب الأموال أيضاً لاتحصى وإنّما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور .

وفرقة اُخرى من عوام الخلق و أرباب الأموال أو الفقراء اغترّوا بحضور مجالس الذكر و اعتقدوا أنّ ذلك يغنيهم و يكفيهم و اتّخذوا ذلك عادة و يظنّون أنّ لهم على مجرّد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتّعاظ أجر وهم مغرورون لأنّ فضل مجلس الذّكر لكونه مرّغباً في الخير فإن لم يهيّج الرغبة فلاخير فيه والرّغبة محمودة لحملها على العمل فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلاخير فيها ومايراد لغيره

فاذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلاقيمة له ، وربّما يغترّ أحدهم بمايسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس و فضل البكاء ، و ربّما دخلته رقّة كرقّة النساء فيبكي ، و ربّما يسمع كلاماً مخوفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : ياسلام سلّم أونعوذ بالله أو سبحان الله و يظنّ أنّه قد أتى بالخير كلّه وهو مغرور ، و إنّما مثاله مثال المريض الّذي يحضر مجالس الأطبّاء فيسمع مايجري أو الجائع الّذي يحضر عند من يصف له الأطعمة اللّذيذة الشهيّة ثمّ ينصرف وذلك لايغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً ، فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بهالايغني من الله شيئاً . و كلّ وعظ لم يغيّر منك صفة تغييراً يغيّر أفعالك حتّى تقبل على الله تعالى إقبالاً قويّاً أو ضعيفاً و تعرض عن الدّنيا فذلك الوعظ زيادة حجّة عليك فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغروراً .

فصل

فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لايتخلّص عنه أحدٌ ولايمكن الاحتراز عنه ، و هذا يوجب اليأس إذ لا يقوي أحدٌ من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات ؟.

فأقول : الإنسان إذافترت همّته في شيء أظهر اليأس منه و استعظم الأمر فيه و استوعر الطريق و إذا صحّ منه الهوى اهتدى إلى الحيل و استنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض حتّى أنّ الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلّق في جوّ السّماء مع بعده عنه فأنزله ، وأراد أن يستصعد الحوت من أعماق البحار فأصعده و أراد أن يستخرج الذّهب و الفضّة من تحت الجبال فأخرجه ، و أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري فاقتنصها ، وأراد أن يستسخر السباع و الفيلة و عظيم الحيوانات فاستسخرها ، وأرادأن يأخذ الأفاعي و الحيّات ويعبث بها فأخذها و استخرج الترياق ، وأراد أن يتّخذ الدّيباج الملوّن المنقوش من ورق التوت فاتّخذه ، وأراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها فاستخرج بدقيق

الهندسة وهو مستقرّ على الأرض و كلّ ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات فسخّر الفرس للركوب و الكلب للصيد و سخّر البازي لاقتناص الطيور ، و هيّأ الشبكة لاصطياد السمك إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدميّ ، كلّ ذلك لأنّه أهمّه أمر دنياه و ذلك معين له على دنياه.فلو أهمّه أمر آخرته فليس عليه إلّا شغل واحد و هو تقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه و تخاذل و قال : هذا محال و من ذا الّذي يقدر عليه ، و ليس ذلك بمحال ولو أصبح وهمّه هذا الهمّ الواحد احتال له ، بل هو كما يقال : «لو صحّ منك الهوى أرشدت للحيل» فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون و من اتّبعهم بإحسان فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته و قويت همّته بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدّنيا و نظم أسبابها .

فإن قلت : قد قربت الأمر فيه بعد أن أكثرت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور ؟

فاعلم أنّه ينجو عنه بثلاثة أمور : بالعقل والعلم و المعرفة فهذه ثلاثة أمور لابدّ منها أمّا العقل فأعني به الفطرة الغريزيّة والنور الأصلي الّذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فالفطنة و الكيس فطرة والحمق والبلادة فطرة و البليد لا يقدر على التحفّظ عن الغرور فصفاء العقل و ذكاء الفهم لابدّ منه في أصل الفطرة ، و هذا إذا لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلّها العقل و الكياسة .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « تبارك الله الّذي قسّم العقل بين عباده أشتاتاً إنّ الرّجلين ليستوي عملهما و برّهما و صومهما و صلاتهما و لكنّهما يتفاوتان في العقل كالذّرة في جنب أحد و ما قسّم الله لخلقه حظّاً هو أفضل من العقل واليقين »(١).

و عن أبي الدرداء أنّه قيل : يا رسول الله أرأيت الرّجل يصوم النهار و يقوم اللّيل و يحجّ و يعتمر و يتصدّق و يغزو في سبيل الله ويعود المرضى ويشيّع الجنائز

(١) قال العراقي : أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الاصول من رواية طاوُس مرسلا و في أوله قصة واسناده ضعيف ورواه بنحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضاً .

و يعين الضّعيف ما تعلم منزلته عندالله تعالى يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّما يجزى على قدر عقله »(١).

و قد اُثني على رجل عند رسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فقالوا خيراً ، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « كيف عقله ؟ فقالوا : يا رسول‌الله : نقول من عبادته وفضله و خلقه فقال : كيف عقله‌فإنّ الأحمق يصيب‌بحمقه أعظم من‌فجور‌الفاجر وإنّما يقرّب النّاس يوم القيامة على‌قدر عقولهم»(٢).

و قال أبو الدّرداء : «كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إذا بلغه عن رجل شدّة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا : حسن قال : أرجوه و إن قالوا غير ذلك قال : لن يبلغ ذلك »(٣). قال : وذكر له شدّة عبادة رجل فقال : كيف عقله ؟ قالوا : ليس بشيء ، قال : لن يبلغ صاحبكم حيث تظنّون »(٤).

أقول: و قد أسلفنا أخباراً من طريق أهل البيت عليهم السلام في ذلك في كتاب‌العقل من ربع العبادات .

قال : والذّكاء و شدّة غريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فإن فاتت ببلادة و حماقة فلا تدارك لها .

الثاني المعرفة(٥) ، و أعني بهاأن يعرف أربعة اُمور : يعرف نفسه ، و يعرف ربّه ، و يعرف الدّنيا ، و يعرف الآخرة ، فيعرف نفسه بالعبوديّة والذّل و بكونه غريباً في هذا العالم و أجنبيّاً من هذه الشّهوات البهيميّة و هي مضرّة له ، و إنّما الموافق له طبعاً هو معرفة الله و النظر إلى وجهه فقط . ولا يتصوّر أن يعرف هذا مالم يعرف نفسه و لم يعرف ربّه وليستعن على‌هذا بما ذكرناه(٦) في كتاب‌المحبّة

---

(١) أخرجه الخطيب فى التاريخ وفى اسماء من روى عن مالك من حديث ابن‌عمر و ضعفه و قال العراقى : لم أره من حديث أبى الدرداء .

(٢) تقدم فى‌أبواب العلم عن داود بن المحبر . وفى‌الكافى عن الصادق عليه السلام مثله .

(٣) و (٤) روى الطبرانى فى مسنده الكبير عن أبى‌الدرداء قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله اذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فان قالوا حسن قال أرجو له ، و ان قالوا غير ذلك قال : لا يبلغ صاحبكم حيث تظنون » و فيه مروان بن سالم متروك كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٨ . (٥) كذا . (٦) كذا ولم يجىء بعد.

و في كتاب شرح عجائب القلب و كتاب التفكّر و كتاب الشكر إذ فيها إشارات إلى وصف النفس ووصف جلال الله تعالى فيحصل به التنبّه على الجملة و كمال المعرفة وراء فإنّ هذا من علوم المكاشفة و لم نطنب في هذا الكتاب إلّا في علوم المعاملة ، و أمّا معرفة الدّنيا و الآخرة فيستعين عليه بما ذكرناه في كتاب ذمّ الدّنيا و في كتاب ذكر الموت ليتبيّن له أن لا نسبة للدّنيا إلى الآخرة . فإذا عرف نفسه و ربّه و عرف الدّنيا و الآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله تعالى حبّ الله و بمعرفة الآخرة شدّة الرّغبة فيها و بمعرفة الدّنيا الرّغبة عنها فيصير أهمّ اُموره ما يوصله إلى الله تعالى و ينفعه في الآخرة ، و إذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحّت نيّته في الاُمور كلّها ، فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة و صحّت نيّته واندفع عنه كلّ غرور محذور منشاؤه تجاذب الأغراض و النزوع إلى الدّنيا و الجاه والمال ، فإنّ ذلك هو المفسد للنيّة و ما دامت الدّنيا أحبّ إليه من الآخرة ، و هوى نفسه أحبّ إليه من رضا الله فلا يمكنه الخلاص من الغرور ، فإذا غلب حبّ الله على قلبه بمعرفته بالله و بنفسه الصادرة عن كمال عقله ، فيحتاج إلى المعنى الثالث و هو العلم أعني العلم بكيفيّة سلوك الطريق إلى الله و العلم بما يقرّبه من الله تعالى وما يبعّده عنه . والعلم بآفات الطريق و عقباته و غوائله و جميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدّين فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها و آفاتها فيتّقيها ، و من ربع العادات أسرار المعائش و ما هو مضطرّ إليه فيأخذه بإذن الشرع وما هومستغن عنه فيعرض عنه ، ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله ، فإنّ المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم و يعلم طريق علاجه ، و يعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة الّتي لابدّ وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر عن الأنواع الّتي أشرنا إليها من الغرور ، وأصل ذلك كلّه أن يغلب حبّ الله على القلب و يسقط حبّ الدّنيا منه حتّى تقوى به الإرادة وتصحّ فيه النيّة و لا يحصل ذلك إلّا بالمعرفة الّتي ذكرناها .

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك فما الّذي يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان و يدعوه إلى نصح الخلق و نشر العلم و دعوة النّاس إلى ماعرفه من دين الله عزّ وجلّ فإنّ المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب الأخلاق و راقب القلب حتّى صفاه عن جميع الكدورات و استوى على الصّراط المستقيم و صغرت الدّنيا في عينه و تركها و انقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ولم يبق له إلّاهمّ واحد وهو الله تعالى و التلذّذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه وقدعجز الشيطان عن إغوائه إذ يأتيه من جهة الدّنيا وشهوات النفس فلا يطيعه و يأتيه من جهة الدّين و يدعوه إلى الرّحمة على خلق الله والشفقة عليهم وعلى دينهم بالنصح بهم والدّعاء إلى الله ، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى في أمرهم سكارى في دينهم صمّاً عمياً قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون و فقدوا الطبيب و أشرفوا على العطب فغلب على قلبه الرّحمة لهم و قدكان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبيّن لهم ضلالهم و يرشدهم إلى سعادتهم و هو يقدر على ذكرها من غير تعب و مؤونة و لزوم غرامة ، و كان مثله كرجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه و قد كان لذلك يسهر ليله و يقلق نهاره لا يأكل و لا يشرب و لا يتحرّك و لا يتصرّف لشدّة ضربان الألم فوجد له دواءً عفواً صفواً من غير ثمن و لا تعب و لا مرارة في تناوله فاستعمله فبرأ و صحّ فطاب نومه باللّيل بعد طول سهره ، و هدأ بالنهار بعد شدّة القلق ، و طاب عيشه بعد نهاية الكدر و أصاب لذّة العافية بعد طول السّقام ثمّ نظر إلى عدد كثير من المسلمين و إذابهم تلك العلّة بعينها و قد طال سهرهم ، و اشتدّ قلقهم ، و ارتفع إلى السماء أنينهم ، فتذكّر أنّ دواءهم هو الّذي يعرفه و يقدر على شفائهم بأسهل ما يكون و في أسرع زمان يقدر ، فأخذته الرّحمة و الرّقّة ، و لم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم ، فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق و شفي من أمراض القلوب شاهد الخلق ، و قد مرضت قلوبهم ، و أعضل داؤهم ، و قرب هلاكهم و شقاؤهم ، و سهل عليه دواؤهم ، فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم و حرّضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجال

الفتنة ، فلمّا اشتغل به وجد الشيطان مجالاً للفتنة فدعاه إلى الرّئاسة دعاء خفياً أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد ، فلم يزل ذلك الدّبيب في قلبه حتّى دعاه إلى التصنّع و التزيّن للخلق بتحسين الألفاظ و النغمات و الحركات و التصنّع في الزّيّ و الهيئات ، فأقبل النّاس إليه يعظّمونه و يبجّلونه ويوقّرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك إذا رأوه شافياً لأدوائهم بمحض الشفقة و الرّحمة من غير طمع فصار أحبّ إليهم من آبائهم و اُمّهاتهم وأقاربهم فآثروه بأبدانهم و أموالهم فصاروا له خَوَلاً كالخدم و العبيد ، فخدموه وقدّموه في المحافل و حكّموه على الملوك و السّلاطين ، فعند ذلك انتشر الطبع و ارتاحت النفس و ذاقت لذّة يالها من لذّة ، و أصابت من الدّنيا شهوة يستحقر معها كلّ شهوة ، و كان قد ترك الدّنيا فوقع في أعظم لذّاتها ، و عند ذلك وجد الشيطان فرصة و امتدّت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كلّ ما يحفظ عليه تلك اللّذّة ، و أمارة انتشار الطبع و ركون النفس إلى الشيطان أنّه لو أخطأ فرُدّ عليه بين يدي الخلق غضب ، فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان يخيّل إليه أنّ ذلك غضب لله لأنّه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور ، فربّما أخرجه ذلك إلى الوقيعة في من ردّ عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتّسع و وقع في الكبر الّذي هو تمرّد عن قبول الحقّ و الشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات ، و كذلك إذا سبقه الضحك،أو فتر عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطّلعوا عليه فيسقط قبوله أتبع ذلك باستغفار وتنفّس الصعداء ، و ربّما زاد في الأعمال و الأوراد من أجلهم و الشيطان يخيّل إليه أنّك إنّما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله ، فيتركون الطريق بتركك لها ، و إنّما ذلك خدعة و غرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرّئاسة ، و لذلك لا تأبى نفسه من اطّلاعهم على مثل ذلك من أقرانه بل ربّما يحبّ ذلك و يستبشر به و لو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله و زاد أثر كلامه في القبول على كلامه شقّ ذلك عليه ، ولولا أنّ النفس قد استبشرت واستلذّت الرّئاسة لكان يغتنم ذلك إذ مثاله مثال من يرى جماعة من إخوانه

قد وقعوا في بئر و تغطّى رأس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرّقي من البئر بسببه فرقّ قلبه لإخوانه فجاء برفع الحجر من رأس البئر و شقّ عليه فجاءه من أعانه على ذلك حتّى تيسّر عليه أو كفاه ذلك و نحّاه بنفسه فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النّار فإذا ظهر من أعانه أو كفاه فرح بذلك و لم يثقل عليه أرأيت لو اهتدوا جميعهم بأنفسهم لماكان ينبغي أن يثقل عليه ذلك إن كان غرضه هدايتهم فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه ، ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب و فواحش الجوارح و أهلكه ، فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن إعوجاج النفس بعد الاستواء .

فإن قلت : فمتى يصحّ له أن يشتغل بنصح الناس ؟ فأقول : إذا لم يكن له قصد سوى هدايتهم لله تعالى و كان يودّ لو وجد من يعينه أو لو اهتدوا بأنفسهم و انقطع بالكلّية طمعه عن ثنائهم و عن أموالهم ، فاستوى عنده حمدهم و ذمّهم ، فلم يبال بذمّهم إذا كان الله يحمده و لم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمدالله تعالى ، و نظر إليهم كما ينظر إلى السادات و إلى البهائم ، أمّا إلى السادات فمن حيث أنّه لايتكبّر عليهم ويرى كلّهم خيراً من نفسه لجهله بالخاتمة ، و أمّا إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم ، فإنّه لايبالي كيف تراه البهائم ، فلا يتزيّن لها ولايتصنّع ، بل راعي الماشية إنّما غرضه رعاية الماشية و دفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه بعين الحمد و الثناء ، فمالم ير سائر الناس كالماشية الّتي لايلتفت إلى نظرها ولايبالي بها لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم نعم ربّما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالشمع الّذي يضيىء لغيره و يحترق في نفسه .

فإن قلت : فلو ترك الوعّاظ الوعظ إلّا عند نيل هذه الدّرجة لخلت الدّنيا من الوعظ و خربت القلوب .

فأقول : وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله « حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة »(١) ولو

(١) أخرجه البيهقي في الشعب عن الحسن مرسلا كما في الجامع الصغير .

لم يحبّ الناس الدّنيا لهلك العالم وبطلت المعائش و هلكت القلوب والأبدان جميعاً ، إلّا أنّه ﷺ علم أنّ حبّ الدّنيا مهلكٌ و أنّ ذكر كونه مهلكاً لاينزع الحبّ من قلوب الأكثرين لا الأقلّين الّذين لا تخرب الدّنيا بتركهم فلم يترك النصح وذكرما في حبّ الدّنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفاً من أن يترك نفسه بالشهوات الّتي سلّطت على الناس . فكذلك لاتزال ألسنة الوعّاظ مطلقة بحبّ الرئاسة ولايدعونها بقول من يقول إنّ الوعظ لحبّ الرئاسة حرام كما لايدع الخلق الشراب والزنى و السرقة و الرّياء و الظلم وسائر المعاصي بقول الله و بقول رسوله أنّ ذلك حرامٌ ، فانظر إلى نفسك و كن فارغ القلب عن حديث الناس فإنّ الله يصلح خلقاً كثيراً بإفساد شخص واحد و أشخاص « ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » (١) ، فإنّ الله يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر و أقوام لاخلاق لهم في الآخرة (٢) فإنّما يخشى أن ينسدّ باب طريق الاتّعاظ فأمّا أن تخرس ألسنة الوعّاظ و وراءهم باعث الرئاسة و حبّ الدّنيا فلا يكون ذلك أبداً .

فإن قلت : فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه و ترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه فما الّذي يخاف عليه ؟ وما الّذي بقي بين يديه من الأخطار و حبائل الاغترار ؟

فاعلم أنّه بقي عليه أعظمها وهو أنّ الشيطان يقول له : قد أعجزتني وأفلتّ منّي بذكائك و كمال عقلك ، وقد قدرتُ على جملة من الأولياء والكبراء وماقدرتُ عليك ، فما أصبرك وماأعظم عندالله محلّك إذ قوّاك على قهري ومكّنك من التفطّن لجميع مداخل غروري فيصغى إليه و يصدّقه و يعجب بنفسه في فراره من الغرور كلّه فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر فالعجب أعظم من كلّ ذنب ، فلذلك قال الشيطان : ياابن آدم إذا ظننت أنّك بعلمك تخلّصت منّي فبجهلك قد وقعت في حبائلي .

---

(١) البقرة : ٢٥١ .

(٢) تقدم حديثه كراراً عن ابى عوانة و البخارى وغيره .

فإن قلت : فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أنّ ذلك من الله تعالى لامنه وإنّ مثله لايقوى على دفع الشيطان عنه إلّا بتوفيق الله ومعونته ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقلّ القليل فإذا قدرعلى مثل هذا الأمر العظيم علم أنّه لم يقو عليه بنفسه بل بالله فما الّذي يخاف عليه بعد نفي العجب ؟.

فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه و الأمن من مكره حتّى يظنّ أنّه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ولايخاف من الفترة والانقلاب ، فيكون حاله الاتّكال على فضل الله فقطّ دون أن يقارنه الخوف من مكره ، و من أمن مكر الله فهو خاسر جدّاً ، بل سبيله أن يكون مشاهداً لجملة ذلك من فضل الله ، ثمّ خائفاً على نفسه أن يكون قدسدّت عنه صفة من صفات قلبه من حبّ الدّنيا ورئاء وسوء خلق و التفات إلى عزّ وهو غافل عنه و يكون خائفاً أن يسلب حاله في كلّ طرفة عين غير امن من مكر الله ولاغافل عن خطر الخاتمة ، و هذا خطر لامحيص عنه و خوف لانجاة منه إلّا بعد مجاوزة الصّراط ، ولذلك لمّا ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع وكان قد بقي له نفس فقال له : أفلتّ منّي يافلان فقال لابعد ولذلك قيل : النّاس كلّهم هلكى إلّا العالمون ، و العالمون كلّهم هلكى إلّا العاملون ، و العاملون كلّهم هلكى إلّا المخلصون ، و المخلصون على خطر عظيم ، فإذن المغرور هالك والمخلص الفارّ من الغرور على خطر ، فلذلك لايفارق الخوف والحذر قلوب الأولياء أبداً ، نسأل الله تعالى حسن الخاتمة فإنّ الأمور بخواتيمها .

أقول : ولنختم الكتاب بكلام الصادق عليه السلام على ماروي عنه في كتاب مصباح الشريعة[١] قال عليه الصلوة و السلام : « المغرور في الدّنيا مسكين و في الآخرة مغبونٌ لأنّه باع الأفضل بالأدنى ولاتعجب من نفسك حيث ربّما اغتررت بمالك و صحّة جسمك أن لعلّك تبقى ، و ربّما اغتررت بطول عمرك و أولادك و أصحابك لعلّك تنجوبهم . وربّما اغتررت بجمالك ومنيتك وأصابتك مأمولك وهواك ، فظننت أنّك صادق ومصيبٌ ، وربّما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة و

(١) الباب السادس والثلاثين .

لعلّ الله تعالى يعلم من قلبك بخلاف ذلك ، و ربّما أقمت نفسك على العبادة متكلّفاً و الله يريد الإخلاص ، و ربّما افتخرت بعلمك و نسبك و أنت غافلٌ عن مضمرات ما في غيب الله ، و ربّما توهّمت أنّك تدعو الله وأنت تدعو سواه ، وربّما حسبت أنّك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك وأن تميلوا إليك ، وربّما ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة ، واعلم أنّك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمنّي إلّا بصدق الإنابة إلى الله و الإخبات له و معرفة عيوب أحوالك من حيث لا توافق العقل و العلم ولا يحتمله الدّين و الشريعة و سنن القدوة و أئمة الهدى ، و إن كنت راضياً بما أنت فيه ، فما أحد أشقى بعلمك منك وأضيع عمراً فأورثت حسرة يوم القيامة » .

هذا آخر الكلام في كتاب ذمّ الغرور وبتمامه تمّ ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء .

و يتلوه إن شاء الله تعالى في ربع المنجيات كتاب التوبة ، و الحمدلله أوّلاً و آخراً و ظاهراً و باطناً .

﴿ فهرست ما فى هذا المجلد ﴾

رقم الصفحة	الموضوع
٣	بيان المواعظ في ذمّ الدّنيا .
٩	بيان صفة الدّنيا بالأمثلة .
١٨	بيان حقيقة الدّنيا وماهيتها في حق العبد .
٢٧	بيان ماهية الدّنيا في نفسها .
٣٩	**كتاب ذم المال**
٤٠	بيان ذمّ المال و كراهة حبّه .
٤٤	بيان مدح المال و الجمع بينه و بين الذم .
٤٦	بيان تفصيل آفات المال و فوائده .
٥٠	بيان ذمّ الحرص و الطمع .
٥٤	بيان علاج الحرص والطمع .
٥٩	بيان فضيلة السخاء .
٦٥	حكايات الأسخياء .
٧٧	حكايات البخلاء .
٧٩	بيان الإيثار و فضيلته .
٨٢	بيان حدّ السخاء و البخل و حقيقتهما .
٨٦	بيان علاج البخل .
٩٠	بيان مجموع الوظائف الّتي على العبد في ماله .

رقم الصفحة	الموضوع
٩١	بيان ذمّ الغنى و مدح الفقر .
١٠٦	**كتاب ذم الجاه و الرياء**
١٠٨	بيان ذمّ الشهرة وانتشار الصيت .
١٠٩	بيان فضيلة الخمول .
١١٢	بيان ذمّ حبّ الجاه .
١١٣	بيان معنى الجاه وحقيقته .
١١٥	بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع .
١٢١	بيان الكمال الحقيقي و الكمال الوهمي الّذي لا حقيقة له .
١٢٤	بيان مايحمد من حبّ الجاه وما يذمّ .
١٢٦	بيان السبب في حبّ المدح والثناء .
١٢٨	بيان علاج حبّ الجاه .
١٣١	بيان وجه العلاج لحبّ المدح و كراهة الذمّ .
١٣٣	بيان علاج كراهة الذمّ .
١٣٥	بيان اختلاف أحوال الناس في المدح و الذمّ .
١٣٨	طلب الجاه والمنزلة بالعبادات و هو الرّياء .
١٣٩	بيان ذم الرياء .
١٤٨	بيان حقيقة الرياء ومايراءى به .
١٥٢	**فصل** في أنّ الرّياء هل هو حرام أو مكروه أو مباح .
١٥٥	بيان درجات الرياء .
١٨٢	بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات .
١٨٥	بيان الرّخصة في كتمان الذنوب و كراهة اطلاع الناس عليها .

رقم الصفحة	الموضوع
١٩٠	بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء و دخول الآفات .
١٩٨	**فصل** في سؤال والجواب عنه .
٢٠٠	بيان مايصحّ من نشاط العبد للعبادة و مالايصحّ .
٢٠٥	بيان ماينبغي للمريد أن يلزم قلبه قبل العمل و بعده و فيه .
٢١١	**كتاب ذم الكبر والعجب**
٢١٢	بيان ذمّ الكبر .
٢١٨	بيان ذمّ الاختيال و إظهار آثار الكبر في المشي و جرّ الثياب .
٢١٩	بيان فضيلة التواضع .
٢٢٦	**فصل** في نقل الآثار .
٢٢٨	بيان حقيقة الكبر وآفته .
٢٣١	بيان المتكبّر عليه و أقسامه و درجاته و ثمرات الكبر فيه .
٢٣٥	بيان مابه التكبّر .
٢٤٥	بيان البواعث على التكبّر وأسبابه المهيّجة له .
٢٤٦	بيان أخلاق المتواضعين ومجامع مايظهر فيه أثر التواضع والتكبّر .
٢٥٢	بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع .
٢٧١	بيان غاية الرياضة في خلق التواضع .
٢٧٢	في العجب و ذمّه و آفته .
٢٧٢	الشطر الثاني من الكتاب في العجب .
٢٧٥	بيان آفات العجب .
٢٧٦	بيان حقيقة العجب و الإدلال و حدّهما .
٢٧٧	بيان علاج العجب على الجملة .
٢٨٢	بيان اقسام ما به العجب و تفصيل علاجه .

رقم الصفحة	الموضوع
٣٩٠	**كتاب ذم الغرور**
٢٩١	بيان ذم الغرور و حقيقته و أمثلته .
٣٠٩	بيان أصناف المغترّين .
٣٠٩	الصنف الأوّل أهل العلم والمغترّون منهم فرق .
٣٣٢	الصنف الثاني أرباب العبادة والعمل والمغترّون منهم فرق كثيرة .
٣٣٧	الصنف الثالث المتصوّفة والمغترّون منهم فرق كثيرة .
٣٤٤	الصنف الرابع أرباب الأموال والمغترّون منهم فرق .
٣٤٨	**فصل** في سؤال و جواب .

﴿ مصادر التعليق والتصحيح ﴾

١ - الاتقان للسيوطي .
٢ - الاحتجاج للطبرسي .
٣ - احياء علوم الدين للغزالي .
٤ - الاختصاص للشيخ المفيد الطبعة الاولى .
٥ - الارشاد « ط ١٣٧٧ .
٦ - آداب المتعلمين للمحقق الطوسي .
٧ - الاستبصار للشيخ الطوسي ط النجف .
٨ - الاستغاثة لاحمد بن موسى القمي .
٩ - الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الاصابة .
١٠ - اسد الغابة لابن أثير الجزري .
١١ - أسرار الصلاة للشهيد الثاني .
١٢ - الاصابة لابن حجر العسقلاني ط ١٣٥٩
١٣ - اعتقادات الصدوق .
١٤ - اعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي ط ١٣٧٩ .
١٥ - الامالي للشيخ الصدوق .
١٦ - الامالي للشيخ الطوسي .
١٧ - الامالي للشيخ المفيد .
١٨ - الامامة والسياسة لابن قتيبة ط ١٣٧٧ .
١٩ - الانساب للبلاذري .
٢٠ - بحار الانوار للمجلسي .
٢١ - بصائر الدرجات للصفار الطبع الحجري
٢٢ - البيان والتعريف لابن حمزة الحسيني ط الحلب .
٢٣ - التاج الجامع الاصول .
٢٤ - تاريخ الخطيب طبع مصر .
٢٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطي .
٢٦ - تاريخ الامم والملوك للطبري .
٢٧ - تاريخ الذهبي .
٢٨ - تحف العقول لابن شعبة ط ١٣٧٦ .
٢٩ - التذكرة لسبط ابن جوزي الطبع الحجري
٣٠ - الترغيب والترهيب للمنذري ط ١٣٧٣
٣١ - تفسير علي بن ابراهيم القمي ط ١٣١٣ .
٣٢ - التفسير الكبير لفخر الدين الرازي .
٣٣ - التوحيد للصدوق ط ١٣٢١ .
٣٤ - تفسير الانوار للبيضاوي .
٣٥ - التهذيب للشيخ الطوسي ط ١٣١٧ .
٣٦ - تيسير الوصول لابن الديبع الدمشقي .
٣٧ - ثواب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥ .
٣٨ - جامع الاخبار .
٣٩ - جامع الرواة للاردبيلي .
٤٠ - الجامع الصغير للسيوطي .
٤١ - الجعفريات والاشعثيات الطبع الحجري .
٤٢ - حلية الاولياء لابي نعيم .
٤٣ - الخصال للصدوق الطبعة الاولى .
٤٤ - الخصائص للنسائي طبع النجف .
٤٥ - الخرائج والجرائح .
٤٦ - الدر المنثور للسيوطي .

٤٧ - دلائل النبوة لابى نعيم.
٤٨ - رجال النجاشي .
٤٩ - الرجال للكشي .
٥٠ - الرسالة المعراجية لابن سينا .
٥١ - روضات الجنات للخوانسارى الطبعة الثانية .
٥٢ - روضة الواعظين للفتال النيشابورى .
٥٣ - السرائر لابن ادريس .
٥٤ - سر العالمين .
٥٥ - سفينة البحار للمحدث القمى .
٥٦ - السنن الكبرى لابى بكر أحمد بن الحسين البيهقى .
٥٧ - السنن لابى عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائى .
٥٨ - السنن لابى عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى .
٥٩ - السنن لابى محمد عبدالله بن عبدالرحمن ابن الدارمى .
٦٠ - السنن لسليمان بن الاشعث السجستانى .
٦١ - السيرة النبوية لابن هشام .
٦٢ - الشافى للسيد الشريف المرتضى .
٦٣ - شرح احياء العلوم للزبيدى .
٦٤ - شرح النهج لابن أبى الحديد .
٦٥ - شرح النهج لابن ميثم البحرانى .
٦٦ - الشمائل للترمذى .
٦٧ - الصحاح للجوهرى .
٦٧ - الصحيح لابى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى .
٦٩ - الصحيح لابن عيسى محمد بن عيسى الترمذى الطبعة الاولى .
٧٠ - الصحيح لمحمد بن اسماعيل البخارى طبع محمد على صبيح .
٧١ - صحيفة الرضا عليه السلام .
٧٢ - الصواعق المحرقة للهيتمى .
٧٣ - طبقات لابن سعد طبع ليدن .
٧٤ - الطرائف لابن طاؤوس .
٧٥ - عدة الداعى لابن فهد الحلى .
٧٦ - عقاب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥ .
٧٧ - علل الشرائع للصدوق ط ١٣١١.
٧٨ - علم اليقين للمؤلف (الفيض).
٧٩ - عيون اخبار الرضا عليه السلام للصدوق .
٨٠ - عيون الاخبار لابن قتيبة .
٨١ - الغدير للعلامة الامينى طبع طهران .
٨٢ - الغيبة للنعمانى .
٨٣ - الفقيه (من لا يحضره الفقيه) ط ١٣٧٦.
٨٤ - الفهرست للشيخ الطوسى .
٨٥ - القاموس المحيط للفيروزآبادى .
٨٦ - قرب الاسناد للحميرى الطبع الحجرى.
٨٧ - الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة فى شروحه للسيد جواد المصطفوى .
٨٨ - الكافى للكلينى الطبع الحروفى الحديث .
٨٩ - الكافى الشاف للعسقلانى بهامش تفسير الكشاف .
٩٠ - الكشاف للزمخشرى .
٩١ - كشف المحجة لابن طاؤوس .

٩٢ - كشف الغمة لعلى بن عيسى الاربلى .
٩٣ - كمال الدين للشيخ الصدوق .
٩٤ - كنز العمال لعلى متقى .
٩٥ - كنز الفوائد للكراجكى .
٩٦ - كنوز الحقائق لعبد الرؤوف المناوى.
٩٧ - الكنى والالقاب للمحدث القمى .
٩٨ - المجازات النبوية للشريف الرضى .
٩٩ - مجمع البيان للطبرسى .
١٠٠ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمى.
١٠١ - المحاسن لاحمد بن محمد بن خالد البرقى.
١٠٢ - المحلى لابن حزم .
١٠٣ - المختصر (مختصر بيان العلم) لاحمد عمر المحمصانى البيروتى طبع مصر .
١٠٤ - مرآة العقول للمجلسى .
١٠٥ - مراصد الاطلاع لعبد المؤمن البغدادى .
١٠٦ - مروج الذهب للمسعودى الطبعة الثالثة .
١٠٧ - المستدرك لابن البيع الحاكم النيشابورى .
١٠٨ - مستدرك الوسائل للنورى .
١٠٩ - المسند لابى عوانة .
١٠١ - المسند لابى عبدالله أحمد بن حنبل.
١١١ - المسند لابى داود الطيالسى .
١١٢ - مشكاة المصابيح لولى الدين محمد ابن عبدالله الخطيب التبريزى .
١١٣ - مصابيح السنة لابى محمد الحسين ابن مسعود الفراء البغوى .
١١٤ - مصباح الشريعة .
١١٥ - مصباح المنير للفيومى .
١١٦ - مطالب السؤول لابن طلحة .
١١٧ - معالم التنزيل للبغوى .
١١٨ - معانى الاخبار للصدوق ط ١٣٧٩.
١١٩ - المعارف للدينورى .
١٢٠ - المغنى عن الاسفار للعراقى برمز (م).
١٢١ - مفتاح الفلاح للشيخ البهائى طبع مصر.
١٢٢ - مفردات القرآن للراغب .
١٢٣ - مقائيس اللغة لاحمد بن فارس .
١٢٤ - مكارم الاخلاق للطبرسى ط ١٣٧٦.
١٢٥ - المناقب للخوارزمى .
١٢٦ - منتخب كنز العمال بهامش المسند
١٢٧ - منية المريد للشهيد الثانى .
١٢٨ - المواهب اللدنية للقسطلانى .
١٢٩ - الموضوعات لمولى على القارى .
١٣٠ - النوادر فى جمع الاحاديث للفيض .
١٣١ - النهاية لابن الاثير الجزرى .
١٣٢ - نهج البلاغة .
١٣٣ - نيل الاوطار للشوكانى .
١٣٤ - نظم درالسمطين للزرندى .
١٣٥ - وسائل الشيعة للشيخ الحر العاملى .
١٣٦ - الوافى لمولانا الفيض .
١٣٧ - الهداية للصدوق .

هذه المصادر هي الّتي نقلت عنها بلا واسطة وبقي غيرها من المصادر المنقولة عنها مع الواسطة و هي كثيرة كما هو المشاهد في الكتاب .

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University